

المركز القومي للترجمة

214

لورانس جيمس

شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها

ترجمة وتقديم: عبد الله عبد الرازق إبراهيم

مراجعة: شوقى عطا الله الجمل

(المجلد الأول)

شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها

(المجلد الأول)

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2149
- شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها (الجزء الأول)
- لورانس جيمس
- عبد الله عبد الرازق إبراهيم
- شوقى عطا الله الجمل
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

The Rise & Fall of the British Empire

By: Lawrence James

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها

(المجلد الأول)

تــــأليف : لــــورانس جــــيمس

ترجمة وتقـديم : عبد اللــه عبد الرازق إبراهيم

مراجعـــة : شوقى عطـا اللــه الجمـل

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جيمس، لورانس.
شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها (المجلد الأول) /
تأليف: لورانس جيمس، ترجمة: عبد اللـه عبد الرازق
إبراهيم، مراجعة: شوقى عطا اللـه الجمل.
ط ١ - القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٥٦٠ ص ، ٢٤ سم
١ - بريطانيا - تاريخ
(أ) إبراهيم، عبد اللـه عبد الرازق (مترجم ومقدم)
(ب) الجمل، شوقى عطاللـه (مراجع)
(جـ) العنوان ٩٤٢

رقم الإيداع ٥٤٥٦ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N-978-977-216-004-4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجم

يتناول كتاب "شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها" خمسة أبواب ومجموعة من الفصول تدور جميعها حول تطور الإمبراطورية منذ القـرن السابع عشر وحتى القرن العشرين.

وفى الجزء الأول من الكتاب يتحدث عن تأسـيس أمريكـا الـشمالية وتطور هذه الولايات والتوسع غربًا وشرقًا من جبال الإنديز، وينتقـل إلـى المزارع التى تأسست فى هذه المناطق وسيطرة التاج وقيـام المـستعمرات، ويفرد دراسات مطولة عن تجارة الرقيق الأوربية وتطورها فـى المحـيط الأطلسى وكيفية القبض على الرقيق واستغلاله للعمل فى المزارع البريطانية، ثم يتحدث عن المستعمرات والمستعمرين ونشأة مختلف الولايات.

تناول الجزء الثانى الذى حمل عنوان "الإصـرار والغـزو" ثمانيـة فصول، وتحكى عن تلك المراحل التى واكبـت توسـعات الإمبراطوريـة، وإصرار زعمائها على التوسع والانتشار برغم المقاومة العنيفة التى واجهتها الإمبراطورية فى مختلف مناطق المعمورة، وتكوين القـوة الإمبراطوريـة البحرية فى مناطق العالم المختلفة، فضلاً عن الإشارة لتوسعات بريطانيا فى العالم الجديد وتكوين الإمبراطورية الأمريكية، والـصراع بـين الولايـات المتحدة وبريطانيا حتى استقلال أمريكا وخروجها من عباءة الإمبراطوريـة فيما عرف باسم" العالم ينقلب رأسًا على عقب" واستقلال الولايات المتحـدة الأمريكية.

تناول الجزء الثانى أيضا توسعات الإمبراطورية فى المحيط الهـــادي، وتكوين كل من أستراليا ونيوزيلاند واليابان والصين وغيرها من المنـــاطق التى دخلت فى صراع مع رجال الإمبراطورية ثروات ضـــخمة فـــى هـــذه الجهات، وهى دراسات مفصلة قلما نجد لها مثيلا فى دراسات أخرى، تتناول بالتحليل والشرح والمادة العلمية الموثقة والتفاصيل الدقيقة أمـــورًا يـــصعب الحصول عليها من بين أمهات المـــصادر والمراجـــع التـــى تعـــالج هـــذه الإمبراطورية.

الجزء الثالث يتكون من أحد عشر فصلاً.

ويعتبر هذا الجزء مهمًا جدا؛ لأنه يعالج توسعات الإمبراطورية فـــى مختلف أجزاء العالم من خلال أحد عشر فصلا ركزت على القوة والتجـــارة والتوسع البحري، ودور البريطانيين فى الاستعمار الجديد مع تركيز مكثـــف حول الهند التى اعتبرها معجزة العالم منذ ١٨١٥ حتى ١٩٠٥، ولم يغفـــل التوسع البريطانى فى جنوب القارة الأفريقية فى دراسة شائقة عـــن جنـــوب القارة والتوسع البريطانى فى هذه الأنحاء، وبالطبع الصراع البريطانى مـــع فرنسا حول نهر النيل والتوسع البريطانى لمحاولة مد خط سكة القـــاهرة – الكيب، وما صاحب هذا مع ثورة المصريين ومقاومة التوســـع البريطـــاني فى كل من مصر والسودان.

ونظرًا لأن الدور البريطانى فى القارة الأفريقية كان فاعلا فـــى بنـــاء الإمبراطورية وتطورها منذ القرن التاسع عشر وبعد الصراع الأوربى على القارة بعد مؤتمر برلين ١٨٨٤، ١٨٨٥، فقد كان لبريطانيا نصيب الأسد فى القارة سواء فى شرقها أو غربها أو جنوبها؛ ومن ثم فهذا الجزء مكمل وفاعـــل فى بناء الإمبراطورية وتوسعها حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية وظهـــور الحرب الباردة، وهو ما خصص له المؤلف الجزء الأخير.

لقد ركز المؤلف على الاستعمار البريطانى للقارة الأفريقية، وكيف أن بريطانيا بعدد قليل من الرجال والعتاد استطاعت أن تحتل مناطق مهمة فى القارة خاصة غربها حيث استعمرت كلا من نيجيريا وغانا وجامبيا وسيراليون التى كانت أساسًا مستعمرة أنشئت خصيصًا للرقيق المحرَّر من المستعمرات البريطانية بعد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية.

حلل المؤلف كيف حكمت بريطانيا هذه المناطق المدارية، وفى ظل مناخ استوائى رطب من خلال سياسة الحكم البريطانى غير المباشر الذى طبقه اللورد لوجارد، إحدى دعائم هذا الحكم، خاصة فى نيجيريا، والذى اعتمد على الإدارة الوطنية والحكام المحليين من المسلمين، ونجحت بريطانيا من خلال هذه السياسة فى توفير النفقات والعتاد والرجال، وظلت تسيطر وتتحكم فى هذه المناطق حتى الاستقلال فى القرن العشرين.

يعد هذا الجزء مهمًا وموثقًا من خلال السياسة البريطانية التى توسعت وحكمت وسيطرت على دول كثيرة من القارة، وتحكمت فى مستعمرة امتدت من الشمال فى القاهرة إلى الجنوب حيث مستعمرة الكيب، وأنشأت ما اسمَّته خط حديد الكيب- القاهرة، وسط دول امتدت من مصر والسودان وتنجانيقا وأوغنده وروديسيا الشمالية والجنوبية ومالاوى وزامبيا حتى جنوب القارة، ولم يغفل هذا الجزء الصراع الدولى فى أعالى النيل، والتنافس بين إنجلترا وفرنسا وأزمة فاشودة عام ١٨٩٨ التى كانت علامة فارقة فى الصراع بين الدولتين وانتصار إنجلترا دبلوماسيا فيها.

يدور النقاش فى هذا الجزء الطويل فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى وحتى الفترة العالمية من خلال اثنى عشر فصلاً، وأشار إلى موارد الإمبراطورية أثناء الحرب، وأنها تغطى ربع مساحة سطح الكرة الأرضية وقد بلغ سكانها ٤٢٥ مليونًا؛ منهم ٣٦٦ مليونًا من الملونين ونحو ٣١٦ مليونًا

فى الهند، وما قدمت مناطق الإمبراطورية المختلفة؛ حيث قدمت نياسا لاند مائة وخمسين ألفا من العسكريين ومائتى ألف من العمال، واستفاض المؤلف فى شرح الحرب العالمية الأولى وتحليل تفاصيل المعارك، وقيام إنجلترا بالهجوم على الدردنيل وتقديم مساعدات للعرب فى البحر الأحمر، وأيضا شرح قيام البحرية الملكية وتضييق الحصار البحرى على الأراضى الألمانية.

تناول الجزء أيضا الثورة البلشفية فى روسيا عام ١٩١٧، وتوقيع هدنة عسكرية مع كل من ألمانيا وتركيا، ودخول الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب فى أبريل ١٩١٧.

تناول الفصل الثانى من هذا الجزء التخلى أو الحكم والاضطرابات الإيرلندية، وكان على بريطانيا أن تتصدى إلى الحملة الأيرلندية والاضطرابات هناك.

تناول الفصل الثالث (كرامة الوطن) وتحدث بإسهاب عن مصر وثورة ١٩١٩ حتى عام ١٩٤٢، حيث الحادثة المشهورة والتدخل البريطاني فى شئون مصر، وتفاصيل الحرب العالمية الثانية ودخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا، وحاول المندوب السامى البريطانى لامبسون الحفاظ على مصر كقاعدة للعمليات البريطانية، كما أشار إلى بداية تشكيل الضباط الأحرار وظهور جمال عبد الناصر.

استفاض هذا الجزء أيضا فى الحديث عن السيادة العليا فى الشرق الأوسط من (١٩١٩ - ١٩٤٢) حيث الحديث بالتفصيل عن الثورة العربية فى العراق، وإعلان لورانس العرب عن حق العرب فى تقرير المصير واتخاذ قرار الحكم الذاتي.

كما أشار هذا الجزء أيضا إلى القوة الجديدة والسلطة الجديدة فى الهند فى الفترة من عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٤٢، وينتهى هذا الجزء بدراسة مفصلة عن استعداد الإمبراطورية للحرب العالمية الثانية، وتفاصيل هذه الحرب، ودخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء، وأثر ذلك على تغيير دفة الحرب واستسلام ألمانيا وإيطاليا وأخيرا اليابان.

يعد هذا الجزء دراسة تفصيلية عن الإمبراطورية ودورها فى الحرب العالمية الثانية وبداية أفول نجمها.

كان الجزء الأخير من الأجزاء المهمة، حيث إنه يعالج الثورات فى كل مكان ضد الإمبراطورية، وحركات التحرر الوطني، ومحاولات تفكيك الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الثانية، وأفول نجم الإمبراطورية واستقلال كل من مصر والهند والدول الأفريقية التى كانت خاضعة للإمبراطورية، مع دراسات تفصيلية عن حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا، وظهور عبد الناصر وثورة ١٩٥٢، واستقلال السودان وكينيا وجنوب أفريقيا ونيجيريا وغانا وسيراليون وجامبيا، وحرب السويس عام ١٩٥٦ والموقف المصرى من هذا العدوان. حقا إنها دراسة مستفيضة لإمبراطورية استمرت لأكثر من ثلاثة قرون لا تغرب عنها الشمس، وأيضا ناقش المقاومة الوطنية للزعيم الوطنى الهندى غاندي، مع استعراض كامل لمراحل انهيار الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الثانية.

إنه حقا كتاب موسوعى شامل يستعرض تاريخ العالم من خلال مراحل تطور الإمبراطورية سواء فى الأمريكتين أو فى أوربا أو فى آسيا وأفريقيا عبر أكثر من ثلاثة قرون؛ ومن ثم فهو مرجع كامل يناقش قضايا دولية وتاريخية لواحدة من أعرق الإمبراطوريات، وعوامل ازدهارها وتطورها، ثم مراحل الانهيار والتركيز على حرب السويس باعتبارها من

أهم عوامل انهيار هذه الإمبراطورية، ودور الزعيم جمال عبد الناصر في مصر، وجومو كينياتا وثورة الماو ماو في كينيا، والزعامات الأفريقية في غانا ودور كوامي نكروما وأحمد سيكوتوري في غينيا، وليوبولد سيدار سنجور في السنغال وغيرهم من القيادات الوطنية الأفريقية التي أجهزت على الإمبراطورية.

إنه كتاب لا غنى عنه لأي دارس لتاريخ العالم من خلال صعود الإمبراطورية البريطانية وسقوطها، خصوصًا أنه من مؤرخ وكاتب أمريكي قام بجولات وأجرى مقابلات واستمع إلى أقوال الساسة والمؤرخين، واعتمد على الكثير من الوثائق والدراسات والتحليلات التي جعلت من كتابه هذا ركيزة أساسية وموسوعة تاريخية سياسية لإمبراطورية غيرت مجرى تاريخ العالم خاصة في قارتي آسيا وأفريقيا.

كان المؤلف حياديًا في كثير من المواقف، وكان يعطي كل ذي حق حقه، ولم يغفل أية تفاصيل عند العرض. بل كان يدخل في تفاصيل دقيقة لأمور اجتماعية يمكن اختصارها، لكنه آثر التطويل والاستفاضة فجاءت الدراسة تاريخية وسياسية وأنثروبولوجية.

المترجم

سانت جريفن مارتن

في ذكرى

فيفيان وتيم ويليامز

شكر وتقدير

أحب أولا أن أشكر زوجتي ماري لتشجيعها وصبرها خلال إعداد هذا الكتاب وكتابته.

والشكر أيضا واجب لأبنائي إدوارد وهنري اللذين قدما الكثير من المساعدات القيمة، وكذلك أذكر النصائح القيمة والاقتراحات التي قدمها جون آدمز، والدكتور إيان براد لي، والميجور أيون كامبل، والبروفيسور فريد جراوفورد، وجون ديشامان، والدكتور مارتن إدموندر، ودافيد إيلدر، والدكتورة نانسي فوليت، والبروفيسور راي، وجون هيل وود، ومايكل هالسي، ومايكل وفيرونيا هودجر، ومارك هانز وليندا سيلفرمان (الذين قدموا معظم الصور) وأندرو لوني والدكتور جون ماكنزي، وشيليا ماك اليوريث والبروفيسور سليمان موسى، والبروفيسور ألان باترسون، وليزا بيرت دافينر، والبروفيسور جيفري ريتشاردز، والدكتورة نيك رو، وآلان سامسون، وألكيس سنشير، والدكتور مارتن ستيفن، وبريان وكيت والدي وأندرو ولیامز الراحلة فيفيان ولیامز، وأندرو وبيبل أزولد، وجان وند، الذين قدموا مساعدات قيمة.

وإنني مدين أيضًا إلى السيدة كاسكوجين، ولمكتبة جامعة سانت أندروز على الخدمات التي قدموها فوق الواجب عليهم، وأود أن أشكر أيضا أعضاء المكتبة القومية في مكتب وثائق سكوتلاند، ودار الوثائق البريطانية، والمتحف الإمبريالي للحرب (خاصة قسم التصوير الفوتوغرافي) والمتحف الحربي الوطني لمساعداتهم وتحملهم الكثير.

مقدمة المؤلف

فى فترة ما فى أوائل الثمانينيات، قمت بجولة قصيرة فيما كان يعرف بمقر القوة التجارية للإمبراطورية البريطانية، ففى ذلك الوقت كانت الأرصفة والمخازن التى بنيت من الطوب الصلد، والتى تقع على الشاطئ الشمالى لنهر التايمز مهجورة، ومع هذا فإن الانطباع العام كان مؤثرا، وكانت علامات الشارع من الحديد الزهر (شارع سيلان وجاميكا) تعلن عن مصادر رخاء الماضي، كما أن أحواض السفن المهجورة فى لندن، وليفربول، وبريستول، كانت بين الآثار العظيمة والإمبراطورية البريطانية وقوتها العالمية.

وكانت هناك آثار أخرى كمصانع القطن فى لانكشير، والتى كانت تنسج القماش للهند، وأحواض سفن على نهرى كليد Clyde وتاين Tyne التى كانت تبنى السفن التجارية التى تنقل التجارة البريطانية والرجال الذين يحمونها، وأيضا منازل التجار والنواب الذين حققوا مكاسب كثيرة، ومن هؤلاء الذين تم ذكرهم أخيرًا السير تشارلز كوكلريل الذى كون ثروة فى الهند فى نهاية القرن الثامن عشر، وكان له قصره سيلزن كوت الذى بناه بأسلوب يجمع بين الأشياء البديعة فى قصر الأمير ريجنت برايتون والأسلوب الهندى بما فيه القبة التى تشبه الموجودة على مئذنة المسجد، كما أن المنظر الطبيعى فى سكوتلاند حول المنزل مزدان بحدائق جميلة مع ضريح وكوبرى مزين بتماثيل لثيران على النمط البراهمي، كما أن حضور الهند فى مقاطعة جلوكسترشاير هو تذكرة لطيفة بأن الاستعمار كان عملية تبنى الاتجاهين.

والذكريات الإنسانية عن الإمبراطورية كثيرة ومتعددة، فهناك مثلاً دافيد لفنجستون وإحدى يديه موضوعة على مسدسه والأخرى تمسك الإنجيل يطل على شارع الأمير فى أدنبرة، وفى سير الإنسان نحو القلعة يقابل أماكن مزودة بشرفات، ويرجع الفضل إلى المبانى المرتفعة المزودة بحجارة مالحة، والتى تكون آثار رجال الريف الذين ذهبوا إلى حرب البوير، والكنائس والكاتدرائيات مليئة بأقمشة متربة، وعلامات مزدانة بأسماء غريبة جدًا مثل شيليان، والتل الكبير، كما أن الرجال الذين ماتوا فى هذه وغيرها من تلك المعارك غالبًا تخلد ذكراهم بالرخام أو النحاس، وتحفل المحلات العامة بأبطال الإمبراطورية وأسماء الشوارع بالغزوات والغزاة. وفى الأحياء الشمالية من ثاوث هامبتون رأيت مرة طريق الخرطوم وطريق أم درمان، وفى مدينة "وست ريدنج: West Riding" كان هنا كطريق روديسيا، وبصفة عامة فإن البيوت المبنية على طولها تعود الى بداية القرن العشرين.

من السهل أن نرى الأثر الطبيعى للإمبراطورية على بريطانيا، ولكن الأثر الذهنى أقل وضوحا، وربما يكتشف القراء هذا فى فصول الكتاب عن الإمبراطورية والشعوب وأصولهم وسلوكهم والنظرة التى لا تزال عالقة بالذاكرة، برغم أنها كانت أقل من ثلاثين وأربعين عامًا مضت، عندما كانت الإمبراطورية فى حيز الوجود، وحاولت أن أوضح أن امتلاك إمبراطورية أثر بعمق فى الطرق التى نظر منها البريطانيون إلى أنفسهم وإلى بقية العالم، لقد غيرت الإمبراطورية الشخصية البريطانية، وهذا هو المهم حيث شجعت على الإحساس بالسيادة والسمو اللذين كانا أيضًا مظهرين لسلطة استعمارية سابقة وهى فرنسا، وهذا الإحساس فى الغالب يثير الخوف من الأجانب كما يولد الغطرسة العنصرية. وفى نفس الوقت كانت المثل الليبرالية العميقة بروتستانتية الجذور، ينتج عنها إحساس قوى بالمهمة والواجب الإمبريالى

الذى يجب أن تؤديه، لقد ظهرت الإمبراطورية البريطانية إلى حيز الوجود؛ وذلك لرفع شأن رعاياها وتطورهم كما يدعى أبطالها.

لم يكن من السهل على البريطانيين أن يستريحوا كليًا إلى فكرة الإمبراطورية التى تضم أرضًا مترامية، ومنذ القرن السابع عشر، ومع التشجيع الرسمي، تعلم البريطانيون أن يكونوا فخورين بقوانينهم، وحرياتهم الشخصية، حكوماتهم المنتخبة. ولكن الكثيرين يتساءلون هل كانت حقوق البريطانيين مقصورة عليهم أم أمكن تصديرها وشارك فيها كل إنسان تحت الحكم البريطاني؟ فلقد لازم هذا السؤال الإمبراطورية طوال تاريخيا، وكانت الإجابة بالإيجاب فى اللحظات الحرجة، وإذا نظرنا إلى الثمانين عامًا من منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى منتصف ستينيات القرن العشرين نجد أنه عندما بلغت الإمبراطورية ذروتها انهارت، وبعدها حاولت دراسة قضية مرتبطة بها، كيف نظر البريطانيون إلى إمبراطوريتهم؟ فخلال هذه الفترة صارت بريطانيا ديمقراطية؛ ومن ثم لا يمكن لها أن تجد دعمًا دون موافقة الشعب البريطانى عامة، ويعد هذا أمرًا حيويا لتفسير النمو الإمبراطورى وانهياره. والأفكار وحدها لا تصنع إمبراطورية، فإن قصتها هى خلاصة حياة الرجال والنساء الذين بنوها وحكموها، وحقق بعضهم إنجازات عظيمة ووضعوا خطوطًا رئيسية، وبعد فترة من الزمن وجدوا أنفسهم أبطالاً وصارت أعمالهم تدرس فى قاعات الدراسة. وتغيرت شخصياتهم المتواضعة من بعض صفاتها المتواضعة، وصاروا نماذج لأجيال المستقبل، وصار الأبطال الممتازون فى الإمبراطورية مجموعة مختلطة، فكان هناك القواد ورجال السياسة الأذكياء مثل بيت Pitt، وولف Wolfe ورودنى ونيلسون وولنجتون الذين قاموا بواجبهم حسب المبادئ النبيلة؛ من ثم اكتسبوا احترامهم، وهناك أيضًا المتمردون والعصاة الذين سافروا إلى أرض أجنبية، واكتشفوا طاقات ورؤى كامنة.

وكان كلايف أولهم وبعده جاء غوردون الذى كان مثله مثل العديد من بناة الإمبراطورية، تصور نفسه مندوب العناية الإلهية التى جعلت بريطانيا وحدها صانعة عالم أفضل، وكان رودس أحد نجوم الإمبريالية لكنه كان مفعما بالطموح وتحجر القلب. وأخيرًا كان هناك لورانس الجزيرة العربية فى القرن العشرين، لكنه كان رقيقا أساسا وأضاف حيوية لبريق الإمبراطورية الغاربة.

وكان بناء إمبراطورية ووضع بصمة إنسان عليها أكثر نشاطًا وحيوية من تجريدها، ولم يبزغ أحد من التحرر الإمبراطورى مع الإغراء الرومانسى لكلايف (Clive) ولورانس. Lawrance.

وكان بروز مونتباتن- وهو شخصية سطحية- يرجع إلى ارتباطه بالعائلة الملكية (ما بين وفاة ويليام الرابع وأواخر ثمانينيات القرن العشرين تمتعت العائلة الملكية باحترام لا مثيل له) أكثر منها موهبة لديه. وأكثر من ذلك جاء إتلى Attlee، وماكلود، وماكميلان الذين كانوا، كما أعتقد، الأبطال الحقيقيين للتقهقر الإمبريالى الذى أشرفوا عليه ببراعة سياسيًا، وبشكل معقول، وعلى خلاف الإمبراطوريات الفرنسية والبرتغالية والروسية لم تصل الإمبراطورية البريطانية إلى أجزاء ممزقة.

فى كل مرحلة من هذا الاستعراض كنت أنظر إلى أفعال وأفكار لكثيرين من الأشخاص الأقل شأنًا، وربما كان أكثرهم أهمية هم الذين شاركوا فى الشتات البريطاني؛ وهذه العملية هى التى دفعت المستعمرين إلى أمريكا الشمالية وأستراليا وجنوب أفريقيا، وحول هذا الموضوع كنت حريصا بقدر المستطاع أن أخطو خطوة جانبية فى مستنقع (Guilt) ما بعد الإمبراطورية، وهذا القلق النفسى الذى أزعج الطبقة المثقفة البريطانية والأمريكية للثلاثين عامًا أو أكثر الماضية.

وحسب الإمكان تجنبت المشاركة فى هذه المعارك التى دارت بين الجيوش التى تناضل ليلاً من أجل البحث عن حقوق الإمبراطوريات وأخطائها.

لا يمكن أن يكتب التاريخ أو لا يكتب حسب الميول الذاتية، وكل التطبيق فى قيم أواخر القرن العشرين تشوه الماضى وتجعله أقل فهمًا، وعلى هذا فقد تركت الغزاة والستعمرين لكى يتحدثوا عن أنفسهم، وهم يدركون أن أصواتهم ربما فى بعض الأحيان تفسد المزاج.

إن ما يعنينا اليوم هو أن الإمبراطورية البريطانية قد حولت العالم، وما آلت إليه الأمور الآن هو فى جزء كبير منه نتاج ثلاثة قرون من التوسع البريطانى فيما وراء البحار.

وتدين الآن الأحوال الديمغرافية، والاقتصادية، والحياة السياسية لأمريكا الشمالية، ومعظم آسيا والشرق الأوسط، وأفريقيا، والباسيفيكي، كثيرا إلى الحكم البريطانى السابق ونفوذه. وتعد اللغة الإنجليزية أكثر اللغات العالمية حداثة، وتشكيلاً الحياة اليومية والعادات وطرق التفكير لمئات الملايين من الرجال والنساء، هى نتيجة الاتصال الطويل مع بريطانيا، وقيمها لعالم الحديث بعد التوسع الإمبريالى ما هو إلا نتاج ذلك العصر من الإمبراطوريات التى امتدت من أوائل القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين سواء للأفضل أو للأسوأ، وقد حصلت بريطانيا على الكثير بكل المقاييس من هذا الاندفاع للتوسع الأوربى.

لقد حاولت أن أشرح كيف، ولماذا، وماذا كانت النتيجة، وآمل أن أكون قد قمت بذلك بدرجة من الحيادية. لقد كتبت هذا من المعلومات التى لا تزال تمثل التراث المعقد للإمبراطورية البريطانية، وكانت آثارها الطبيعية

والسيكولوجية ضخمة فى كل مكان، كما فى بريطانيا، وإن هذه الدولة متعددة الجنسيات ما هى إلا نتيجة مباشرة لكونها كانت يوما ما إمبراطورية، ولهذا السبب وحده فإنها تستحق أن ننظر عن قرب إلى أنها بناء الإمبراطورية وطبيعتها، والأكثر منذ تاريخها وكل صانعيها هو أنها قد خدمت من المناهج الدراسية، وأن ما كتبته سوف يجعل ماضيها أكثر فهمًا لكل ورثة الإمبراطورية، وهذا هو أملى.

الجزء الأول

الفرص الممتازة

(١٦٠٠ - ١٦٨٩)

(١)

١- نيوفوند لاند: أمريكا الشمالية

فى صيف عام ١٦٠٥ تحول رواد المسرح إلى تمثيلية جديدة وهى "إستود هو (Eastwood Ho) أداها فريق من صبية الممثلين فى بلاك فرايرز أطلقوا على أنفسهم أطفال جلالتها للمتعة، وقد كتبها بسرعة كبيرة جورج تشابهان، وبن جونسون، وجون مارستون، وكانت مسرحية ساخرة غنية بأفكارها الموضوعية، وكان بعضها موجهًا ضد الأسكتلنديين، وكسب جونسون استياء الملك الجديد جيمس الأول.

ويدين إخراج المسرحية السريع كثيرا إلى رغبة المؤلفين فى استغلال الإثارة الشعبية السائدة حينئذ نتيجة مغامرة فيرجينيا، وكان هذا المشروع لتأسيس مستعمرة فى أمريكا الشمالية مصدرًا لتأمل وتفكير مكثفين سواء من الناحية الفكرية.أو المالية.

لقد تآمر ثلاث من الشخصيات الرئيسية وهم؛ السير بترونيل فلاش رجل مرتجل وأحمق، وكويك سيلفر صبى كسول، وسكيورتى، وهو مقرض المال الشره وتعاونوا لجمع أرصدة مالية لأجل القيام برحلة استكشافية إلى فيرجينيا حيث توقعوا وجود الذهب، وعندما سمع سكيورتي Security من كويك سيلفر أن المال قد وضع سرًا على ظهر سفينة فلاش، وقف بجواره

بكل متعة وإثارة: الآن هلت عاصفة بسيطة معه ومع ماستر فرانك، إننا نملك القليل جدا من مغامرات الفرسان. من ذا الذى لا يستطيع بيع الحقائق الكافية لشرائها تحت أى خطر، أكاذيب متميزة، مغامركم الفارس الحقيقى يقوم بذلك.

وعندما تجمع بعد ذلك ما عرف بالمغامرين من أجل البحث عن مشرب لهم، فإنهم يواجهون وصف الكابتن سيجال عن ثروة هنود فيرجينيا.

لماذا أيها الرجل كل وأوانيهم وقدور غرفهم من الذهب الخالص، وكل السلاسل التى يغلقون بها شوارعهم من الذهب، وحتى السجناء الذين يأخذونهم مكبلين بالذهب، والياقوت، والألماس، ويذهبون فى إجازات ويجمعونها من شواطئ البحر، كما يعلقون الذهب على معاطف أطفالهم...

لقد كانت هذه قصة ساخرة عن الادعاءات الجشعة التى نشرها سير ولتر رالى فى أقل من عشر سنوات، والتى وعد فيها إنجلترا بثروات وسلطة أكثر مما تتمتع به إسبانيا مقابل الاستثمار فى حملة (بعثة) لكشف الدورادو، وهو مخزن ثروة للمعادن النفيسة الموجودة بعمق فى غابات غينيا.

وقد تركت عملية المزايدة لسيجال صداها عند رالى، ومما لا شك فيه أنها أمتعت المستمعين، وربما كان هناك ضحك كثير أثناء مدح سكيوزرتى لمغامرة الفرسان، والروح الجريئة التى كانت مستعدة للقيام بمغامرات أكبر، لقد كان عبور التجار البحار بحثًا عن الثروة يعد نشاطا مناسبا للرجل المهذب، ويساوى، فى قدره البحث عن الشرف على أرض المعركة.

لقد أشار إلى هذه النقطة توماس دريتون فى كتابه: "رحلة إلى فيرجينيا" والذى كتبه احتفالاً بالمستعمرين ورحلتهم الأولى عام ١٦٠٧.

أيها العقول البطولية الشجاعة

تستحقون اسم دولتكم

ولا يزال هذا الشرف مستمرًا

اذهبوا وتابعوا

بينما تقبع أنثى الأيل

هنا فى الوطن فى خجل.

هذه المشاعر بأشكالها المختلفة كانت سلعة مطلوبة باستمرار لدى حفنة من دعاة الاستعمار فى السنوات الثلاثين الماضية، وكان أكثرها إقناعا ريتشارد هوكلوايت أحد خريجى أكسفورد، والذى كان هدفه إيقاظ بنى وطنه لما اعتبره الواجب الوطنى المقدس لدى الاستعماريين، وكانت رواية الملاحات الأساسية (Principal Mavigation) التى نشرت أولا فى عام ١٥٩٨ عرضًا مكثفًا لكل الرحلات التى قام بها البريطانيون، وكان المقصود منها استعراضا ووصفا لمشروع طويل لوجود تقاليد نبيلة لما وراء البحار، وعندما كشف النقاب عما تحقق فى الماضى كان أمل هوكلوايت أن يغرس فى معاصريه إحساسًا بالمصير الذى يدفعهم إلى تأسيس المستعمرات واختراق المحيطات البعيدة بحثًا عن التجارة.

لقد اتفقت رؤية هوكلوايت عن التوسع الإنجليزى وسياسات عدائية لمجموعة من ذوى النفوذ من رجال البلاط والمستشارين بمن فيهم إيرل

ليستر والسير فرانسيس، ولذينجام، ورالى، الذين يعملـون ضـد إسـبانيا ويحاربونها وعواطفهم ضد الكاثوليكية، وهم على استعداد لتأييد المشروعات الاستعمارية ودعمها باعتبارها وسيلة لتدمير إسبانيا، وفى حالـة مـشروع ١٥٨٠ من أجل منطقة إستيطان فى نيوفوند لاند (الأراضى المؤسسة حديثا) كوسيلة لإزالة الكاثوليكيين المعارضين أساسا من إنجلترا.

ولم تصل أى من هذه الخطط إلـى أى شـيء، وتلاشـت بـسرعة المستوطنات الصغيرة والتى لم تمول بقدر كـاف فـى جزيـرة ريونـوك Roonoke ونيوفوند لاند خلال ثمانينيات القرن السادس عشر.

لقد كان أحد أسباب انهيار هذه المشروعات التركيز علـى الجهـود والموارد الوطنية فى الصراع مع إسبانيا. وعلاوة على ذلك فـإن مـشروع الحرب الخاص ضد إسبانيا أقنع الذين لديهم رغبة فـى المجـد والمكاسـب السريعة، حيث أغرت مجموعة من المحتالين مثل السير فرانـسيس دريـك ومجموعة كثيرة من الصغار الذين يحاولون المكسب الجيد، انظر مثلا إلـى جـورج هوايـت وهـو بحـار مـن رورسـت وصـاحب سـفينة (كاترين واى ماوث) التى كانت تحمل خمسة وثلاثين طنـا وتقـدر بتـسعة وثمانين جنيها إسترلينيا، ومسلحة بمدفعين، وثلاثة مدافع تطلق قذائف، وفى عامى ١٥٩٠ ، ١٥٩١ قبضت هذه السفينة على ثلاثـة مـن البـرازيليين البرتغاليين ومعهم ثلاثة سفن تقدر بنحو ٣٦٠٠ جنيه إسترلينى، وقد شـجع هوايت هذا النجاح فباع السفينة كاترين، واستثمر المبلغ فى شـراء سـفينة أكبر، ونجح برازيلى آخر فى أسر سلع قيمتها ٤٢٠٠ جنيه ومركـب مـن جزر الهند الشرقية محمل بالحرير والمجوهرات والقرمز (*).

(*) صبغة حمراء.

لقد حصل المغامرون وغيرهم في عصر الملكة فيكتوريا على المزايا الخاصة، وهم ينتمون إلى تقاليد إنجليزية راسخة تمتد إلى الوراء إلى حرب المائة عام ضد فرنسا، والتى حارب فيها القادة الأرستقراطيون من أجل الرواتب الملكية ومكاسب الفدية والسلب، وكان الجنود والتجار الذين ذهبوا فيما وراء البحار للحرب قد قاموا بذلك على أمل العودة بثروات أكبر حسب قصة حياة دريك الشعبية التى نشرت فى عام ١٦٢٨، ودفعت الشباب فى العصر الكئيب للمتابعة والسير على خطواته بحثا عن الذهب والفضة، وقام الكثيرون بهذا على مدى القرنين التاليين بنهم وجشع وعدم خوف، وارتبط ذلك بالقرصنة البحرية فى عهد الملكة إليزابث، وبالقبطان البحرى، فى القرن الثامن عشر، الذى يسعى إلى المكافأة المالية، والجندى فى أوائل العصر الفيكتورى، والذى قدم فيه قصف المدينة الهندية فرصة للسلب والغنيمة لكثير من الرجال من هذا القبيل.

وهناك الكثيرون منهم الذين ساروا على نهجه فى إنجلترا بعد نهاية الحرب الإسبانية فى عام ١٦٠٤، وقد وجدوا إغراءات فى تصور الكابتن سيجال عن فيرجينيا باعتبارها أرضا غنية بالموارد المعدنية القيمة.

ولم يكن الأمر كذلك حيث أصيب بخيبة الأمل هؤلاء الذين كانوا يحلمون بالثروة السريعة؛ مثل هؤلاء الذين عادوا إلى الوطن من المستعمرة الجديدة فى برمودا Barmuda عام ١٦١٣، وهم فى حالة من القنوط بعد أن أجبروا على قطع الأشجار، وبناء قلعة خشبية(٢)، وجاءت الفرص لهؤلاء البشر بعد أربعين عاما مع بداية الحروب المتقطعة ضد الهولنديين، والإسبان، وفرنسا، من أجل السيطرة على المستعمرات والمحيطات فى إيستواردهو هو (Eastward Ho).

وصف سكيورتي المزارع المقترحة فى أمريكا الشمالية بالآمال غير المتوقعة الممتازة، وهذا تعبير مبالغ فيه جعل المستثمرين فى شركة فيرجينيا قلقين وهم يحملون فى ذاكرتهم تاريخ المغامرات السابقة، إلا أنه يمكن أن نستخلص بعض الارتياح من حقيقة هذا المشروع الجديد الذى وافق عليه جيمس الأول فى عام ١٦٠٧، وأيده البرلمان بحماسة، كما جاء التأكيد المادى من جديد للتوقعات من معرفة بأن تمويله يدار بشكل أكثر حذرا، وأن مكاسب فى المستقبل يمكن حسابها على أساس المناقشات الاقتصادية السليمة.

فى عام ١٦٢٠ صدر مرسوم يوصى بأن المستوطنات التى تتوسع على خليج تشيزابيك (Chasapeake) سوف تقدم لإنجلترا فى فترة ما اكتفاءً ذاتيًا فى المواد التى يتم استيرادها بتكاليف كبيرة على الدولة، وسوف تحل مزارع أمريكا الشمالية محل إسكندنافيا كمورد للخشب والقار لبناء السفن، وسوف تزود المستعمرة الدولة الأم بالخمور، والفاكهة، والملح، بدلاً من فرنسا وإسبانيا، والحرير من فارس وإيطاليا، وقد افتتح المستعمرون المغريات بهذه المناقشات، التى ضمت النبلاء، ورجال البلاط، والموظفين المدنيين، ونبلاء الدولة. وأذاعت نشرات الأخبار فى لندن تفاصيل أنشطة الشركات فى المقاطعات، وأسهم التجار بمبلغ مائتى ألف جنيه فى ثلاثة عشر عاما.

لقد تخيل متعهدو شركة فيرجينيا والمستوطنون الأوائل أن كل الساحل لشمال أمريكا من نيوفوند لاند جنوبا حتى كارولاينا يقع فى منطقة معتدلة الحرارة والبرودة[٣].

وفى نفس الوقت فإن مستعمرة تشيزابيك تقع على نفس درجات العرض مع إسبانيا، ومن ثم من المفترض أن تقدم كمية كبيرة من محاصيل البحر المتوسط، وكان صناع الخمور من أوائل الذين استوطنوا المناطق

القريبة من الشاطئ، وكانت الخطط فى أيدى زارعى أشجار الزيتون حتى أواخر عام ١٦٢٠، وفى نفس الوقت كان كل شخص يعمل فى هذه الحرفة يعرف الكثير عنها. وفى الحال تم اكتشاف المنطقة، كما تم اكتشاف المنطقة التى تقع داخل حزام الملاريا، ظهر أن القادمين الجدد يحتاجون إلى التوابل خلال شهور الصيف الحارة وأنه خلال عامى ١٦٠٩ و ١٦١٠ تمنى مثبطو الهمم أنفسهم أن يكونوا فى إنجلترا دون أطرافهم ويتسولوا فى الشوارع بدلا من وجودهم فى فيرجينيا، وأشرفت الشركة على الإفلاس خلال اثنى عشر عاما. واستولى التاج على مستعمراتها ومناطق استقرارها، وفى عام ١٦٢٤ أنقذ (التبغ) فيرجينيا وجعلها تقاوم بشكل أدهش المستعمرين والحكومة، وقامت أول زراعة مكثفة للتبغ فى أمريكا الجنوبية فى عام ١٦١٧، وكانت ناجحة، وبدأت ثورة غيرت المستعمرة الناشئة والاقتصاد البريطانى، وفى ذلك الوقت كان التبغ لا يزال رفاهية والتدخين متعة الأغنياء، وربما يدفع بعضهم أكثر من جنيهين لورقة جويانا الممتازة، وكان لاستيراد كميات ضخمة من مزارع فرجينيا أثره؛ ففى منتصف القرن هبطت أسعار التجزئة إلى شلن واحد (خمسة بنسات) للرطل. وصار التدخين عادة عامة تمارسها كل الطبقات فى أوربا، وكان هذا فاتحة لسوق غير محدودة لهذا المخدر المهدئ، وكانت الفرصة نتيجة الإنتاج المتزايد فى ثلاثينيات القرن السابع عشر.

فى عام ١٧٠٠ استوردت بريطانيا ما قيمته ثلاثة عشر مليون جنيه من تبغ فيرجينيا للاستهلاك المحلى، وأكثر من خمسة وعشرين مليونا لإعادة التصدير لأوربا، وهى أرقام ازدادت بشكل مضطرد طوال القرن التالى، وكانت فترة رخاء تبغ فيرجينيا ذات أثر عميق على بريطانيا واقتصادها، وإذا استعرضنا رخاء المستعمرة خلال أول عشر سنوات من القرن السابع

عشر لاحظ أحد المعلقين بشكل دقيق أن إسبانيا قد تضررت فى فترة سلام الملك أكثر من فترة حرب الملكة(٤).

لقد كان منطقًا بسيطًا ردده بعد ذلك دعاة التوسع الاستعمارى، حيث شاركت الثروة التى انسابت من فيرجينيا فى بريطانيا، وازدادت قوتها بشكل مضطرد حسب سجلات دخل الدولة ارتفعت الرسوم على التبغ إلى ٤٢١,٠٠٠ جنيه ما بين أعوام ١٦٩٩ - ١٧٠١ أى نحو ٢٠% من رسوم الجمارك، وفى ذلك الوقت كان سكان فيرجينيا وجارتها مارى لاند فى إنتاج التبغ نحو ٩٢,٠٠٠ شخص وكانت سوقًا ضخمة للبضائع البريطانية المصنعة.

وبسبب تزايد الثروة غطت فيرجينيا على المستعمرات الصغرى فى نيوزيلاند التى تأسست عام ١٦١٠، وتلك التى سيطرت عليها شركة ماساشوتس باى عليها التى تأسست عام ١٦٢٠، وفى جميع الحالات كانت توجد فجوة بين التوقعات والحقيقة، كتب أحد المستقرين الأوائل تقريرا عام ١٦١١ للحصول على الاستثمارات واصفًا نيوفوندلاند بأنها آمنة وواعدة، ومن المحتمل أن تكون أكثر فائدة لاند وكتب فى العام السابق إلى الوطن الأم أن هذا المكان الموحش فى نيوفوند المكاسب أعطى للرجال بعض المكاسب ولكن العمل الشاق القاسى على أمل الحصول على أفضل المكاسب مع أرباح بسيطة، تقع أرض هذا السمك الأبيض فى شمال المحيط الأطلسى بعيدا عن الشواطئ، والتى جذبت أساطيل الصيد البريطانية منذ عشرينيات القرن السادس عشر، وكان صيد السمك الأبيض (فى البداية بالسنارة والخيط، وبعدها يملح ويجفف ويدخن ومع براميل الزيت منها يشحن إلى موانئ شبه جزيرة أيبيريا ليتم الاتجار فيه محليًا، ومع حلول عام ١٦٢٠ زارت ٣٠ سفينة المنطقة سنويًا، وحسب التماس للحماية البحرية تم تشغيل عشرة آلاف بحار فضلاً عن تحرير أكثر من عشرين ألف رجل آخر من الأجزاء الغربية

من إنجلترا، والكل يعتمد عليهم من أجل البقاء والمعيشة(٥)، وإذا تقدمنا جنوبا واجه المستقرون البيورتيان من إنجلترا الجديدة مستعمرات أرض غير مجزية تماما، ولقد عبروا المحيط الأطلسي وهم يجهلون الطقس المحلى الذى توقعوا أن يكون مثل جو إنجلترا، وفى الحال تكيفوا مع الجو وفى عام ١٦٢٩ كتب أحد الرجال بحزن، أنه من منتصف أكتوبر إلى منتصف مايو كان الشتاء قاسيا على الأرض كلها، ولاحظ أن الكثيرين يموتون من البرد الذى لا يحتمل.

كانت نسبة الوفيات مرتفعة لكن البيورتيين كانوا نفسيا مستعدين لإزالة أرض الغابات وحرث الأرض وزراعة المحاصيل، وكانوا رجالا ونساء لديهم إحساس عميق بالعمل حسب رغبة اللـه (الذين انسحبوا باختيارهم من إنجلترا نتيجة لعقيدتهم الكالفنية) والذين انسحبوا باختيارهم من إنجلترا (حيث جذبت عقيدة الكالفين عدم الثقة الرسمية)، وخلال عشرينيات القرن السابع عشر وثلاثينيات نفس القرن كانت عملية الاضطهاد المنهجى الذى تدعمه كنيسة الدولة فى إنجلترا، وكانت هجرتهم فى العقد التالى هروبًا من عالم غير متجانس روحيا ودليلا على أن المشيئة الإلهية التى يعتقدون فيها مشغولة بأمور الرجال ترقى وترفع البعض وتعوق الآخرون، وكان استقرارهم علامة على فضل اللـه على شعبه المختار، وهو رأى آمن به حاكم شركة خليج ماساشوتس وشعبه جون ونثروب (John Winth rop) فى عام ١٦٣٤ وكتب فى يومياته أنهم جميعا ماتوا من الحصبة حيث خلص اللـه لقبنا مما نملك، وذلك بعد أن سمع تقارير عن مرض وبائى بين الهنود المحليين.

ومع حلول ١٦٦٠ وصل عدد السكان المستقرين من غالبية البيورتيان فى إنجلترا الجديدة نحو ٣٠,٠٠٠ نسمة، وكان الكثيرون منهم لاجئين تحدوا وهربوا من الأرثونكسية الصارمة فى المستعمرات الساحلية الأولى.

لقد كان الصراع اللاهوتى منتشرًا بين البيورتيان، وأدى إلى انقسام رجال التنصير الذين تركوا مجتمعاتهم التى وجدت أن آراءهم لا تحتمل، فروجر وليمايز وهو رجل دين شاب مثل جون ميلتون درس تعاليم البيورتيانية فى كمبردج، ووصل إلى نيو إنجلاند عام ١٦٣١، وكانت آراؤه الراديكالية التى دفعته لإنكار الحق الشرعى للملك جيمس الأول وتشارلز الأول فى التخلى عن أراضى الهند إلى زملائه المستقرين، وأدى هذا إلى نفيه الاختيارى فى عام ١٦٣٦.

ومع حفنة من أتباعه أسس رود أيلند (Rod Island) مستعمرة جديدة حيث انضمت إليه مجموعة أخرى من المنشقين عن العقيدة.

وكانت هناك خطط لتخليص إنجلترا من مجموعة أخرى من المنشقين ألا وهم الكاثوليك وتم ذلك منذ أوائل سبعينيات القرن السادس عشر وبعد استبعاد الكاثوليك الإنجليز من فيرجينيا حصلوا أخيرًا على مستعمرة عندما أقنع اللورد بالتيمور شارل الأول المتعاطف معهم لإصدار مرسوم لهم فى عام ١٦٣٤، وصارت المستعمرة الجديدة هى مارى لاند (Mary Land) تكريما لزوجة شارل هنريتا ماريا[٦]، وكان رجال المستعمرة رسميا حريصين على جمع أعوانهم سريا خوفا من معاداة جيرانهم من البروتستانت، وكان الكاثوليك والبيورتيان بين هؤلاء الذين وصفهم هاكلوت (Hacklut) بأنهم أشخاص غير ضروريين. وأن نقلهم فى مستعمرات ما وراء البحار سيكون من أجل الصالح العام للمجتمع، وصار الشحاذون والمجرمون ضمن هذه الفئة، وفى عام ١٦١٥ تحول اقتراحه إلى عمل عندما تم شحن جماعة إلى فيرجينيا التى كانت حينئذ تعانى من نقص مؤقت من العمالة؛ ومع مرور القرن السابع عشر التحقت مجموعات جديدة من الرجال غير المرغوب فيهم،

ومعظميم من الثوار الأيرلنديين وأسرى الحروب الذين تم القـبض علـيهم خلال الحروب الأهلية (١٦٤٢-١٦٥٢) . وفى عام ١٦٥٠ تم بيع الأسرى الإسكتلنديين الذين قبض عليهم فى دنبار بقيمة خمسة عشر وعشرون جنيها للرأس، حيث إن عقود العمل تجبرهم على العمل فتـرة محـددة فـى مـزارع أسيادهم، وبعد عام ١٦٦٠ أصبحت هذه الوسيلة المربحة للعقاب أكثر شيوعًا.

وصار هؤلاء المهاجرون غير المرغوب فيهم هم الاستثناء بدلا مـن القاعدة فى مستعمرات شمال أمريكا على الأقل قبل ١٦٦٠، وتقريبا فإن كل الذين هاجروا كانوا من الرجال والنساء الأجراء ويعملون ذلك من أجل لقمة العيش، وكانت الشركات التى مولت مشروعات الاسـتعمار الأولـى تريـد الأرباح من إيجارات الأرض وبيعها، وعلى هذا كان الجزء الأعظـم مـن دخلهم الأساسى ينفق على الشحن والمعدات، وهى قوة عمالة أساسية، ومـن المتوقع أن تدفع جهودها من أجل الاستثمار.

والسؤال هو: لماذا كان الرجال والنساء على استعداد لمغادرة بريطانيا إلى مكان آخر كان نظرًا لأعمارهم، حياة فيه صعبة وغير مهيأة؟

ربما يرجع الدافع الأقوى إلى التعود، فهناك تقليد قديم عميق الجذور عند الرجال الحرفيين والعمال والخدم المدنيين، وهو التنقل فى أرجاء الوطن بحثًـا عن العمل، وكانت لندن أكثر إغراءً، وازداد عدد سكانها من ٢٠٠ ألف نسمة عام ١٦٠٠ إلى ٣٥٠ ألف نسمة فى عام ١٦٥٠، وهى زيادة جـاءت كليـة نتيجة العمال القادمين، وكان فى وقت كانت نسبة الوفيات تفوق نسبة المواليد، وعلى هذا لم تكن خطوة صعبة على عامل الطوب فى ديفونشير أن يتجول من مدينة لأخرى بحثًا عن العمل، وأن يقبل الانتقال من بريستول إلى جيمس تاون وفيرجينيا، وكان المطلوب هو المهارات المتخصصة بشدة لدى شركة فيرجينيا

التى أعلنت عام ١٦٢٠ عن حاجتها لرجال أكفاء ولدوا وتربوا على العمل والصناعة خصوصًا فى مصانع حديد سوسكس SUSSEX.

وكان كل الذين ذهبوا إلى أمريكا الشمالية بعقود عمل تسمح لهم بالعمل فى المزارع بشكل قانونى أو ممارسة حرفهم الخاصة لفترة محددة ما بين أربع سنوات أوعشر مقابل الأجور، وعندما تنتهى عقود العمل يكونون أحرارًا للدخول فى سوق العمل العام أو العودة لأوطانهم. تم شحن أكثر من ٣٠٠٠ من عقود الاستخدام من بريستول، واتجه أكثر من نصفهم إلى مستعمرات فيرجينيا ومارى لاند وذلك من أعوام ١٦٥٤ و ١٦٦٠.

وكان أفراد الحراسة والفلاحون وعمال الأراضى الغالبية العظمى فى هذه المجموعة، ولكن كانت هناك مجموعات متفرقة من العمالة الماهرة مثل الحدادين وعمال النحاس، وقد جاء معظم هؤلاء من المقاطعات المجاورة لبريستول وجنوب ويلز وكانوا ما بين الثمانية عشرة، أو الخمس والعشرين سنة[٧]، ولقد كان مثل هؤلاء الشبان من الرجال والنساء عصب المستعمرات الجديدة، وكان الكل يأمل فى الازدهار فى مجتمع لا توجد فيه المعيقات المدنية نحو التقدم.

وفى فترة من الفترات كان المأمول فيه بشكل واسع أن هؤلاء من أصحاب المواهب والعمل وأصحاب الحظ السعيد سوف يزدهرون بصرف النظر عن المولد والأصل وارتباطاته، وفى بداية القرن الثامن عشر عبّر الروائى دانيال ديفو فى روايته العاهرة فلاندر (Moll Flanders) عن هذا الهدف وجعل السجينة فى سجن نيوجت تعود إلى السجن بعد سلسلة من المغامرات المثيرة من الذكاء والدهاء، وتحولت من مجرمة إلى ولاية فيرجينيا مع زوجها قاطع الطريق وصارا مزارعين ثريّين ومحترمين.

ولم تكن رواية مول فلاندر رواية خيالية صرفًا ولا دعاية سياسية لكاتب يعتقد ويؤمن أن مكانة الشخص فى العالم تحددها قدراته، وفي عام ١٧٥٥ تم استدعاء ضابط يخدم مع جيش الجنرال إدوارد برادوك فى فيرجينيا بعد تناول طعام العشاء مع أحد المزارعين الأغنياء، واكتشف أن زوجته قد نجحت فى مراحل التعليم فى كلية نيو جت، حيث إن أعدادًا كبيرة من هناك قد وصلت إلى هناك ومعظمهم كانوا من النساء سيئات السمعة والذكاء، وكان بعضهم يغرون المزارعين الأغبياء لكن هذا الرجل لم يكن غبيًا، وقد تزوجها من أجل جمالها وجاذبيتها ومهارتها وقدرتها على إدارة أعماله.

وقد ظل تحقيق الربح أقوى الدوافع وراء سعى بريطانيا نحو مستعمرات أمريكا الشمالية، ولكن منذ البداية كانت مرتبطة تمامًا مع دافع أخلاقى مبنى على المبادئ المعاصرة للعناية الإلهية وطبيعة العالم وسكانه، وفى إحدى المواعظ التى جمعها رجل يدافع عن الدين فى عام ١٦٠٩ فى شركة فيرجينيا، وصف أمريكا على أنها أرض اغتصبتها خطأ الحيوانات المتوحشة والمخلوقات العجيبة (أى أهل أمريكا الأصليون) أوالهنود الذين عرفوا بهذا، وحسب رأى المؤلف، أراد الله للأرض أن تتحرر بالاستقرار البريطانى، وفى عام ١٦٢٥ أصر سيمون بيرشاس Purchas، وهو أحد رجال الدين وتلميذ هوكلوت على أن ما سماه فيرجينيا من أمريكا الشمالية قد خصص بمشيئة الله لأبناء وطنه، وحسب الحكمة الإلهية، بعد أن أثرى هذه الدول المتوحشة، أن صارت هذه الثروات جذابة لمحبى المسيحية. كان مبدأ أن القارة الأمريكية عروس عذراء ثرية تنتظر زوجا يتمتع بإستخدام معقول فى هذا الوقت، وأنها لم تكن مجرد موهبة رجل بلاط للتملق أوحى إلى المستكشف راليه (Raleigh) أن يطلق على الساحل البحرى

الشرقى من شمال أمريكا "فيرجينيا" تخليدًا لذكرى إليزابيث الأولى، وكان المقصود معنى أعمق حيث إن راليه فى دعوته لاحتلال فيرجينيا وصفها بأنها دولة لها عذريتها لم تستغل أو تتحول أو تغتصب، وأن وجه الأرض لم يمزق بعد، وأن السماء قد قضت على ملح التربة، وقد جمع الكابتن سيجل المستقرين فى إيستوارد هو مع الصرخة "تعالوا أيها الأولاد إن فيرجينيا تشتاق إليكم حتى تشاركوا فى بقية أراضيها البكر. إن مثل هذا التشابه بأمريكا وأنها عذراء لم تمس ورد عند "جون دون" "John Dunn"، (بين أشياء أخرى وقسيس فى شركة فيرجينيا فى "إلى سيدته الذاهبة إلى المضجع" والذى أغرى فيها الفتاة هو المستكشف، والزارع أعطى ترخيصًا ليدى المتجولة قبل، خلف، بين وفوق وأسفل آه، يا أمريكى أراضى المسكتشفة حديثًا. إن القضية الأخلاقية التى تواجه الرجال الإنجليز كانت بأى سلطة تدعوه إلى الأراضى الخصبة التى لم تحرث فى أمريكا الشمالية.

لقد كانت الإجابة العريضة والأساسية قد قدمها الرأى السائد من الله الذى يعطى أوامر للعالم ومكانة الإنسان فيه. وكتب جون ميلتون إن الله دفاعا عن المستعمرات قد جعلها لأجل استخدام البشر، وأنه قد أمرهم بسد النقص بها، لقد منح الله الكريم هذه الأراضى فى القارة الأمريكية المكتشفة حديثًا موارد وفيرة طبيعية- لكن سكنتها أجناس لم تعترف أبدًا، أو تصرفت حسب هذه الثروات الطيبة وكان عجزهم الذى ارتبط بالنقص الأخلاقى قد منعهم من الميراث الذى انتقل إلى أناس آخرين (عهدهم أذكياء فى الخارج) ويمكن أن تطبق آراء ومناقشات أخرى مع بعض الاختلافات على أستراليا وأفريقيا.

لقد خلفت مائة عام من التقارير التفصيلية من المستكشفين الأوربيين دون استثناء أن الأمريكيين ظهروا باعتبارهم عناصر أقل وفى مستوى منحدر من الجنس البشرى، وقد وصف السير مارتن فرو الناس

الذين قابلهم فى شمال كندا فى ثمانينيات القرن السادس عشر على أنهم حيوانات متوحشة لم يستخدموا الطاولات أو الأدوات الأخرى أو مفارش الطعام من أجل النظافة وكانوا يعيشون فى الكهوف، وبعد خمسين عامًا ارتعد رجل إرساليات جوزويت فرنس من أكلة لحوم البشر والتعذيب العام للمسجونين بين الهنود فى حوض سانت لورانس، وسماهم حيوانات متوحشة لا يملكون من البشر شيئا سوى الشكل الخارجى لأجسادهم، وكانت مقاييس الحضارة الأوربية فى عصر النهضة نمطية وقاطعة، وحسب هذه المقاييس فإنهم ينقصهم الكثير.

واعتقد الوطنيون الأمريكيون الذين واجهوا الأوربيين بأنهم كانوا على شكل كائنات خارقة للطبيعة، وفى المكسيك تصور الإمبراطور موكتوزوما إمبراطور الأزتكس أن غازى شعبه هيرنان كورتز هو تجسيد للإله لويت زانكوتل (Luet Zancootl)، وبعد ذلك بستين عامًا فى عام ١٥٦٩ عندما هبط دريك (Drake) فى كاليفورنيا شبه الهنود الميووك (Miwok) وجماعته بأنهم آلهة، وفى الحال قدموا إليهم القرابين، وكثيرًا ما أحزن الزوار أن بعض المويك شوهوا أنفسهم، كما فعلوا عندما تخيلوا أنفسهم فى حضور الأشباح، وقد نظر الأميران إلى الأوربيين على أنهم آلهة، وسفنهم جزر طافية وأشرعتهم سحب بيضاء ومدافعهم تحدث الرعد والبرق، وأمكن بسهولة استغلال هذه الأمور الساذجة، وفى ١٦٣٣ أذهل قبطان بحرى فرنسى الهنود باستخدام نصل سيف من المنجنيز لكى يلتقط سكينة، لكن حسب أقواله فإنهم تخيلوا وجود قوة عظيمة لدينا ولهذا فإنهم يحبوننا ويخافون منا.

لقد أفزعت عادات الهنود معظم الملاحظين الأوروبيين، فقد ظهروا كجنس بدون نظام، وهو المقوم الحيوى الذى اعتبره رجال النهضة مقياس الحضارة وكانوا عبدة أصنام، وحسب رأى كوتن ماثر (Cotton Mather)

وهو بيوريتانى من بوسطن أنهم شعب كسول ويحبون الكسل بدرجة فائقة، والكسل هو شكل من السلوك الشيطانى، وأنه نتيجة حتمية لرغبة الله فى أن الهنود يجب أن يطردهم المستعمرون مثل الإسرائيليين الذين طردهم الكنعانيون الوثنيون.

ومع هذا بينما كان الهنود، مثل البطل كالبيان فى مسرحية العاصفة التى ألفها وليم شكسبير، غير مناسبين لاحتلال أرضهم، فإنه يمكن وضعهم على طريق التقدم، فإن فكرة التحول قد اتخذت شكلاً غريبًا جدًا فى مسرحية أميرة فيرجينيا (The Virginia Princess) فى عام ١٦١٤، فالنبالة الهندية الوثنية قد ارتدت ملابس خيالية مزدانة بالذهب والريش، والتى صممها إينجو جونر، كانت باسم جيمس الأول: أميرة فيرجينيا يجب أن تعلنى الآن عبادتك الخرافية لهذه الشموس وإخلاصك الحلو نحو الأحداث إلى هذا الأبله.

وفى البداية قام العاملون فى شركة فيرجينيا بوضع خطط لتعليم الهنود وتحويلهم إلى المسيحية، وأثناء السنوات الأولى فى المستعمرة كانت العلاقات بين المستقرين والأهالى فى حالة من الانسجام، ولكن مع نمو المستعمرة طالب المستقرون بأراض جديدة يمكن اكتسابها على حساب الهنود، وفى عام ١٦٢٢ نشبت الحرب، وبعد مذبحة قتل فيها أكثر من ٣٠٠ من المستعمرين سادت نغمة شرسة لا يمكن فهمها، وكانت عملية غزوهم أسهل من عملية تمدينهم بالوسائل السلمية، حيث أصدرت الشركة مذكرة بأنهم برابرة وحمقى وأناس يتجمعون فى مجتمعات صغيرة تساعد على النصر لكنها تعوق التمدين.

وفى المستقبل سوف يرضخ الوطنيون الأمريكيون بعد تدمير معسكراتهم ومحاصيلهم، ويتبعهم الفرسان وكلاب الصيد التى تسير خلفهم لتمزقهم، والتى تأخذ هؤلاء العراة المتوحشين وتحولهم إلى حيوانات برية،

وقد توقع تاريخ الانتهاء ونداءات متشابهة لحروب عنيفة ضد عـدو غيـر إنسانى يسمع من استعماريين جوعى للأرض فى جنوب أفريقيا ونيوزيلانـد وأستراليا، كما أنها تذكر بأن الاستعمار الأول لأمريكا الشمالية كان معاصرًا للمستعمرات الأكبر فى أيرلندة، خصوصا من جانب المهاجرين الإسكتلنديين من الكنيسة المسيحية، وما بـين أعـوام ١٦٢٠ - ١٦٢٤، وصـل مائـة وعشرون ألف مستعمر لمساعدة ما سماه السير فرانسيس بيكون الوصول إلى التمدين فى الكنيسة الأيرلندية الناطقة بالغالية (Gaelic) وعلى كـلا جـانبى المحيط الأطلسى واجه المستعمرون مقاومة عنيفة ولكن متقطعة، وكـان رد فعلهم نفس الشيء ولجأوا إلى مذبحة مضادة.

وزادت نصف قرن من حروب الأرض ضد الهنود من قسوة ضـمير المستقرين فى نيو إنجلان، وفى عام ١٧٠٣ بعد مذبحة الهنود كتب بيكـوت (Pequot) وهو جندى وصل إلى مرتبة رجل دين يقول "أحيانا يعلن الكتـاب المقدس أن النساء والأطفال يجب أن يتلاشوا مع والديهم".

وعندما تأسست شركة خليج ماساشوتس وصنعت ختمًا يوضح هنـديا ومعه لفافة من الورق على رأسه و عليه نقش "تعال وساعدنا".

ولم يكن الأمريكيون الوطنيون أول الناس الذين تقدموا لطلبات للأرض فى أمريكا الشمالية، وفى عام ١٤٩٤ وقعت كل من إسبانيا والبرتغال معاهدة تورد يسلاس والتى تم بموجبها تقسيم العالم الجديد بينهما، واعتمد المرسـوم الثانوى هذا الاتفاق، لكن هذا الميثاق لم يقره بشكل طبيعـى البروتـستانت الإنجليز الذين قللوا من شرعيته مع ادعاءات مضادة مبنية على رحلة جون كابوت فى عام ١٤٩٧، فلقد عبر بناء على طلب الملك هنرى السابع المحيط الأطلنطى وهبط على أرض إما نوفاسكوشيا أو نيوفوند لاند ولم يتأكد أحـد من أيهما، وضم المنطقة رسميًا باسم الملك.

وعلاوة على ذلك فهناك الحملة الأسطورية عبر الأطلسى التى قام بها فى القرن الثانى عشر ولش (Welsh) أمير مادوك (Madoc)، وتدعى هذه القصة غير المحسوسة فى أيدى رجال الملكة إليزابيث "قوة الحقيقة التاريخية" وتم نشرها لتقضى على ادعاءات كل من الإسبان والبرتغاليين.

إن مثل هذه الأمور الأثرية غير المعقولة كانت زائدة وغير ضرورية، لأنه مع ١٦٦٠ كان من الواضح أن دول شبة جزيرة أيبيريا كانت تعوزها القوة البحرية للدفاع عن احتكار عالمهم الجديد، وكان قصور سيطرتهم يعترض بشكل درامى ومتكرر من جانب الفرنسيين والهولنديين والإنجليز من ١٥٦٠ وما بعدها. ورغم ذلك طردت إسبانيا الفرنسيين من مستعمراتهم فى سانت أوجستين فى عام ١٥٦٥، ولسنوات قليلة خشى سكان فيرجينيا من معاملة مماثلة ولم توزع الحصص من أى دولة كانت فى سلام مع بريطانيا منذ عام ١٦٠٤، وبعد عام ١٦٠٩ كانت فى حاجة إلى كل مواردها بسبب الحرب المتجددة مع الأراضى المنخفضة. وطوال الثلاثين عامًا الأولى من وجودها تمتعت المستعمرات الأمريكية بحصانة قويَّة من التدخل الأجنبي.

(٢)
أمور الرجال
شرق الأنديز وغربه

اندفع الرجال الإنجليز إلى الكاريبى، وفى الغالب كانوا يُعرفــون باســم الإسبان الأصليين فى منتصف القرن السادس عشر، وكان السير جون هــوكنز وهو صاحب سفينة من مدينة ديفون ومقاول قد شق الطريق بعد أن سمع حسب رأى هولوت (Hawluyet) أن الزنوج كانوا سلعة جيدة فى هسبانيولا (المستعمرة الإسبانية وهى الآن هايتي) وأنه يمكن الحصول على عدد كبير مــن الزنــوج بسيولة على ساحل غينيا، وكان المستقرون الإسبان شاكرين لحمولات هــوكنز من عبيد غرب أفريقيا، لكن حكوماتهم عارضت معاهدته للاحتكار الرسمى الذى أعطى للإسبان وحدهم حق الاتجار مع الممتلكات الإسبانية.

فى عام ١٥٦٨ هاجم أسطول هوكنز الصغير فى سان جون دى أولى، وتم طرده بعد تكبده خسائر فادحة، وفى الحال عاد الآخرون بمن فيهم دريك كمركب قرصان يهاجم السفن الإسبانية.

لقد كانت حربا أهلية من أجل نشر البروتستانتية فضلاً عن البحث عن الأرباح فى المياه التى لا تجد حماية، وأشار دريك إلى مقطوعات من كتاب فوكس، كتاب الشهداء (Book of Martyrs) إلى أسرى البحارة الإسبان، وكان أحد الأسرى جون أكسنهام قد قلب الطاولات على واحد ممن قبضوا عليه من لجنة التحقيق، وذلك بوضع طبق على رأسه، وضربه عدة لكمات[١].

وبعد ذلك تم القبض على "أو أكسنهام: Oxenham" وحرقه حسب قرار لجنة التحقيق لاتهامه بالهرطقة والتهور، ولم يقدم القراصنة كثيرًا إلى قضية البروتستانت، لكن أثرى كثير من القراصنة، ولقد ظلت ذكريات الانقلابات، والأكثر إثارة ضد سفن الكنور، الأكثر ازدهارا، وفى عام ١٦٢١ وعندما كانت العلاقات البريطانية الإسبانية تزداد انهيارًا، اقترح السير البيوريتانى فى واويك إرسال أسطول ضخم (أرمادا) إلى الكاريبى قدرت تكاليفه بنحو ٣٦٤ر٠٠٠ جنيه وسوف يغطيها الاكتتاب العام.

ولم يحقق هذا المشروع والغزو الصليبى البحرى أى ربح، لكن كشف عن وجود باربادوس، وهى، جزيرة خصبة غنية بالمياه وغير مأهولة بالسكان، ويقال إنها مناسبة تمامًا لزراعة التبغ، وقد أغرت رؤيا فيرجينيا جديدة المستثمرين، وفى عام ١٦٢٧ أصدر شارل الأول مرسوما لشركة باربادوس التى تأسست حديثا، وواجه المستقرون بها مشكلات حيث فشل التبغ الباربادوسى فى منافسة إنتاج فيرجينيا، ولم يقدم الاتجاه نحو القطن شيئا لإنعاش ثروات الجزيرة.

لقد أنقذت زراعة قصب السكر باربادوس حيث زرع أولا فى عام ١٦٤٣ وفى خلال خمسين عامًا غطت زراعة قصب السكر أربعة أخماس الجزيرة، وشكل تكرير السكر والمادة اللزجة المأخوذة منه والشراب المسكر تسعة أعشار صادراتها، وحولت ما سماه المؤرخون ثورة السكر اقتصاد الهند الغربية، وفتحت الطريق نحو تجارة أكثر فائدة ومساعدة تساوى التجارة فى العبيد الزنوج، وبالتالى أدخلت المنطقة فى نطاق الحرب حيث ناضلت كل من بريطانيا وفرنسا وإسبانيا من أجل السيطرة على الجزر والسيادة على الطرق البحرية، وساعدت زراعة القصب بعض أصحاب المزارع فى أن يصبحوا مليونيرات فى عام ١٦٨١، يقدر وبشكل تفاؤلى نحو ٥٠٠٠ جنيه

إسترليني تم استثمارها في مزرعة قصب سكر يمكن خلال سنوات قليلة أن تنتج ما قيمته ألف جنيه سنويا، وفي هذا التاريخ ظهر سوق أوربي وإنتاج جملة محلي من السكر الرخيص، وسيطر المنتجون البريطانيون على أسعار الحرب مع منافسيهم في البرازيل البرتغالية، وأفادت هذه الطفرة بريطانيا وحكومتها التي حصلت على رسوم من واردات السكر والتي قدرت ما بين أعوام ١٦٩٩ - ١٧٠١ ما قيمته ٢٨٠,٠٠٠ جنيه إسترليني.

لقد أدت قصة نجاح باربادوس إلى احتلال جزر أخرى من جانب المستقرين، وفي عام ١٦٦٠ سانت كيت وأنتيجوا ونيفس ومونتيس رات وجامايكا (التي تم الاستيلاء عليها من إسبانيا في عام ١٦٥٥) وتم احتلالها وزراعتها بقصب السكر، وفي عام ١٦٣٨ حاولت جماعة صغيرة الاستقرار في سانت لوسيا، ولكن الوطنيين الكاريبيين طردوهم بسرعة وأظهروا ذكاء ملحوظا وطردوا المستعمرين من قلاعهم بإضرام النيران في الفلفل الجاف.

لقد ظهرت مشكلات ضخمة للمزارعين الأوائل بسبب الأمراض المتوطنة مثل الملاريا والحمى الصفراء وأصابت الذين يزرعون ويكررون السكر خاصة، وقد حذرت المحكمة الطبية المعاصرة الإنجليز من مغادرة وطنهم المعتدل المناخ والذهاب إلى هذه المناطق الاستوائية، وحسب مبادئ هيبوب قراط الخاصة بتوازن الدعاية الداخلية، كتب أحد الأطباء في عام ١٦٠٢ أن الإنجليز يجب أن ينأوا عن هذه المناطق الحارقة، لأن الطبيعة كيفت الإسبان لمثل هذه المناطق حيث تتولد الملاريا والكوليرا(٢).

لقد تجاهل المهاجرون هذه التحذيرات بشكل واسع؛ وذلك من أجل تكوين الثروات، لكن وجودهم اليومي في الكاريبي كان غير ملائم دائما، وعاني الجنود والبحارة الذين كان طعامهم غير صحي، وكان الخوف من مخفر الجنود في الهند الغربية، وخلال حملة قصيرة على ساحل نيكاراجوا

فى عامى ١٧٧٨، ١٧٧٩، مات ثلاثة أرباع قوة مكونة من ١٨٠٠ رجل أقوياء من الحمى ومعظم الذين بقوا على قيد الحياة بمن فيهم الكابتن هورتيو نيلسون أصيبوا بحمى الملاريا(٣).

وكان العلاج الطبى الوقائى والعلاجى بدائيا، وفى بعض الحالات أضاف الكثير إلى آلام المرضى، وفى عام ١٧٠٤ كان السير كريستوفر كونجتون أحد مزارعى أنتيجو وحاكمها وصف لنفسه كميات ضخمة من مستحضر اللودينوم ليسكم (نزيف الدم) لعلاج الدوسنتاريا التى تصور أنها بسبب الإرهاق فى العمل، وقد أحدث هذا العقار سوء المزاج بما فى ذلك شلل الأطراف وآلامًا داخلية عالجها بالاستحمام فى البحر وتناول كميات كبيرة من الماء البارد (والتى أخذها على أنها دواء لجميع الأمراض) والذى كان ملوثًا وشارك فى استمرار هذه الدوسنتاريا، وكانت قيمة عمود الشينون الذى اشتق منه الكينون علاجا واقيا من أمراض الملايا قد اكتشف من الأميرنديان (Amerindiand) لكنه لم يستخدم عامة حتى منتصف القرن التاسع عشر، وفى غياب هذا العقار كان على مرضى الملاريا أن يعانوا كثيرًا مثل الجنرال روبرت فينابوكز، وكتب يقول: إننى كنت مجرد هيكل عظمى، "خلال حملة جامايكا عام ١٦٥٥، وفى بعض الأحيان كان فى حالة سيئة لمدة ثلاثة أسابيع، وأرجع مرضه، ومرض جيشه إلى الله الذى يعذبهم من خطايا الأمة، وهى معلومات ربما تعطيهم المزيد من القدرة على الاحتمال الداخلي(٤).

وكان تحمل الأمراض المعدية والحرارة الزائدة والرطوبة هو النصيب المشترك للرجال والنساء الذين هاجروا إلى جزر الهند الغربية من أجل تكوين ثروات من قصب السكر، ولكن الاندفاع لتكوين ثروات وأموال فقط

لا يمكن أن يعوض الآلام الجسمانية، ومع نهاية القرن كان المعتاد أن يضع المزارعون الأغنياء مقاطعاتهم فى أيدى مديرين ويعودون إلى بريطانيا ويعيشون بأسلوب أفضل بفضل هذه الأرباح، ولم يكن المزارعون الأوائل فى وضع أفضل ولا حتى الذين حصلوا على عقود رسمية لاستخدام عمالة لمدة محددة من رجال فى بريطانيا.

ونبدأ القول بأن مقاطعات زراعة القصب سارت على نهج السابقين والتى تأسست فى فيرجينيا واستوردت العمالة، لكن اتضح أن العمال البريطانيين لم يكونوا على مستوى المطالب الطبيعية لزراعة السكر فى المناطق الاستوائية، فالمعلومات عن الظروف التى سوف يواجهونها، وعادات عمل هؤلاء المزارعين الجدد من الصعب أن تغطى تكاليف نقلهم، وهذا عرقل الرجال والنساء عن العمل بحرية بدلاً من خدمات العقود لأجل محدد فى الهند الغربية.

لقد تم اتخاذ إجراءات متعددة للتغلب على ما كان فى خمسينيات القرن السابع عشر من نقص فى العمالة الدائمة، وبعد حملات أوليفر كرومويل والأيرلنديين فى عام ١٦٥٢ تم نقل الثوار المقبوض عليهم لفترات محددة إلى جزر الهند الغربية، وهو إجراء عقابى تم استخدامه من جديد فى عام ١٦٨٥ بعد القضاء على ثورة الدوق مون موث (Monmouth) وكان العمال الأيرلنديون سواء نقلوا بسبب الخيانة أو بسبب الفقر هم الأكثر عددًا لكن ثبت أنهم غير مستعدين للعمل.

وفى عام ١٦٧٣ ذكر مزارعو القديس كيتس (St. Kitts) أننا نقدر رجال ويلز وهم أحسن العمال، لكن الأيرلنديين من أسوأهم فكثير منهم لا يساوون شيئا سوى الأذى كما أنهم عديمو الولاء، وفى عام ١٦٧٤ ساعد العمال الأيرلنديون فى جزيرة مونتسرات (Monteserrat) هجوما فرنسيًا

على الجزيرة، وبعد عشرين عاما اتهم أبناء وطنهم بأنهم كانوا يعملون لصالح الفرنسيين(٥).

وأدى التردد فى استخدام العمالة الأيرلندية بمزارعى سانت كيتس إلى المساومة فى عام ١٦٧٧ على دفع ١,١١ شلنا (١,٥٠ جنيه) لكل رأس من المنقولين من السجون البريطانية مقابل تكاليف نقلهم، وكان هذا ترتيبًا خاصًا، برغم أنه فى عام ١٦٦٤ أعادت الحكومة المحلية النظر فى جموع المنقولين من كل المتشردين والمحتالين والكسالى الذين لا يقدمون تقارير عن أنفسهم وأيضًا المجرمين الذين استفادوا من رجال الدين، والرجال من أصول متدنية، والذين لجأوا فى ظل بيوت الدعارة غير المرخصة إلى مستعمرات السكر، وأما هؤلاء الذين تقل أعمارهم عن عشرين عاما فكانوا يجبرون على العمل لسبع سنوات، وما فوق ذلك يعملون لأربع سنوات، أما آمال هؤلاء سواء أكانوا من الفقراء البؤساء والمجرمين أم الثوار الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الخدمة حسب عقود عمل محددة، فلم يكونوا أبدا منعزلين وإذا بقوا على قيد الحياة بعد انتهاء عقودهم فإنهم يحصلون على عشرة أرطال أو أربعمائة رطل من السكر من أجل تحسين أحوالهم، وصار بعضهم مراقبين يكسبون أكثر من خمسين جنيها شهريا، أما الذين يمتلكون مهارة أو حرفة النجارة فإنهم يحصلون على ضعف هذا المبلغ، وبرغم هذا ظل العمل فى المزارع غير مفضل، وبالنسبة للغالبية فإن العمل كان حربًا بديلة عن السجن أو الموت جوعًا(٦).

وكتب أحد المتحدثين عن حفنة من ثوار جامايكا الذين نقلتهم شركة الهند الغربية فى عام ١٧١٦: "إنه ليس أمامهم سوى العبودية" وكانوا قد قبضوا على السفينة التى توجهت بهم إلى بوردو وحصلوا على حريتهم، من المفيد أن هؤلاء الرجال الشجعان الذين شبهوا ظروفهم المستقبلية بحياة

الزنوج العبيد الذين حلوا منذ خمسينيات القرن السابع عشر محـل الزيـادة البسيطة من العمال البيض، وكانت هناك فرص كثيرة للزنوج والأوربيـين للعمل جنبا إلى جنب فى الحقول والغرف الساخنة، وهى ظروف ذكر البيض أنها تحط من قدرهم حتى إن وضعهم لا يشبه زملاءهم من السود، وأنهم ليسوا ممتلكات لأسيادهم.

لقد كان من الضرورى على أصحاب المزارع البريطانية انتهاج النظام الاستعمارى الإسبانى، باستخدام قوة عمل العبيد المستوردين من أفريقيا، إذا أرادوا البحث عن حل للمشكلة التى يصعب حلها فى الحصول على قوة عمل جادة ومستعدة.

فالإسبان بعد أن مارسوا العمل الاجبارى وانتشار الجراثيم والفيروسات الأجنبيه والمذابح المستمرة، وكانوا قد قضوا على معظم الكاريبيين فى منتصف القرن السادس عشر، اتجهوا إلى العبيد الزنوج، فكانوا الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تطيل بقاء العمالة الإسبانية المكثفة فى المناجم والمقاطعات الصغيرة.

ولأسباب اقتصادية أكثر منها ديموغرافية انتهج المزارعون البريطانيون النموذج الإسبانى، ومن ١٦٥٠ وما بعدها حل العبيد تدريجيا محل العمالة بعقود فى المزارع، وفى نفس الوقت دخل العمال العبيد إلى مقاطعات التبغ فى حوض شيسابيك، وبعدها تم استيراد الرقيق من كارولينا.

وكانت الضرورة الاقتصادية الأولى دائما، لأن مؤيديها كانوا المساندين الأقوى للرق، وقد تحدد السبب فى تقرير أعد فى عام ١٦٦٣ ليحظى بالدعم الملكى لاحتلال المستعمرة الهولندية فى سورينام على ساحل غينيا.

"هل سيزود المزارعون بالزنوج عصب أعظم قوة للعالم الغربي، وادعوا أنهم سوف يطورون ثرواتهم والرسوم الجمركية الملكية(٢)".

لقد دعم الرق الاقتصاد الموسع للهند الغربية، وأثرى كلا من المزارعين والحكومة الوطنية، والتى ذهبت لحد القول بأنها سوف توجه الدخل الإضافى ناحية حماية هذا المصدر الجديد للثروة القومية وتوسيعه.

وربما أنكرت قلة هذا فى بلد اعتمد كثيرًا على الحرية الفردية، وهى قضية خلقية تتضمن البيع واستغلال العبيد.

ففى كتاب دانيال ديفو (Danial Defoe) إصلاح الأخلاق (Reform of Manners) والذى عاد متحمسًا لمشروع ما وراء البحار البريطانية، وعبر عن الشكوك حول مقايضة دمية من أجل أرواح الرجال، لكنه هزمها بالرجوع إلى ما تخيله أن يكون المزاج الطبيعى للزنوج الذى يثير الرعب والعبودية للرجل الأبيض.

وهذا الرأى الذى وجدناه فى رواية ديفو "الكولونيل جاك: Colonel Jack" التى آمن بها بشكل واسع فى كل أنحاء أوربا خلال أواخر القرنين السابع والثامن عشر.

وقد قامت هذه على العهد القديم والتقاليد الأفريقية الرومانية فى الفكر والتى أظهرت الزنجى على أنه مخلوق أقل مرتبة، كما أنه فى نفس الوقت سليل حام الملعون، وعينة أدنى من البشرية كما وصفها أفلاطون وأرسطو.

وبحسب رأى الوطنيين الأمريكيين يقاس الزنجى حسب معايير الحضارة الأوربية المعاصرة، ويتم الحكم عليه بشكل غير مقبول، والزنجى كان كما أكد فيلسوف القرن الثامن عشر دافيد هيوم "طبيعيا أدنى وأقل؛ لأن جنسه لا يمتلك صناعة وطنية وبلا فنون ولا علوم. وعندما يعرض ما يعبر

عن الذكاء كان سلوكه قريبًا من الببغاء الذى يتحدث كلمات قليلة واضحة، ولكن لا يمكن فهم معانيه، والذين يسافرون إلى أفريقيا غالبًا فيما يتعلق بتجارة الرقيق يصادفون على هذه النتائج مع قصص مثيرة عن أرض مظلمة وذات فوضى ينشغل سكانها فى مذابح أكل لحوم البشر وديانات ذات أصنام وحروب قبلية، برغم تكبل الزنجي بعجز فكرى وأخلاقى فإنه جزء من عالم منظم سماوى فيه المبرر الأساسى لوجود الإنسان هو قدراته الإنتاجية، وقد أجبر هذا المبدأ من النفعية لكل الجنس البشرى الحكومات البريطانية لنقل الكسالى والمتشردين والمجرمين إلى المستعمرات سوف تطهر أنفسهم من خلال العمل، والفرنسيون يدينون بالكفرة، وللعمل المستمر فى التجديف فى سفن الحرب، كان رقيق المزارع الوسيلة التى يقوم الرقيق فيها بالدور الذى أراده اللـه لهم، ويضيف للمصلحة العامة والنفع للعالم.

كتب جون بينى عام ١٧٦٤، هو مزارع من "نيفس: Nevis": "إننى قد صدمت لأول مرة أن أرى اللحم البشرى يعرض للبيع، ولكن بالتأكيد فإن اللـه قد خلقهم لمصلحتنا" ويرى آخرون أن إرادة الخالق واضحة من خلال بعض العلامات أو الأوصاف.

ولم تكن تجارة الرقيق دون مزايا؛ حيث حث جلبرت بيرنت أسقف سالسزورى بكل ذكائه فى أوائل سبعينيات القرن الثامن عشر، أنه منذ أن أعطى الرقيق الكثير لبريطانيا فإنه من الأفضل أن يعتنقوا المسيحية فى المقابل، ولم يكن التبادل مقبولا للمزارعين الذين تصوروا برأى أحسن كما اتضح أن اعتناقهم المسيحية سوف يجعل عبيدهم أكثر عنادا وانحرافا، وخاطب الأرستقراطية فى باربادوس فى برلمان الجزيرة عام ١٦٨١، ولاحظ الحاكم السير ريتشارد دوتن أن العبيد استحقوا الاستخدام الأحسن باعتبارهم خدمًا للمسيحية، ولكن إذا تحول الزنوج إلى المسيحية فإن وحشيتهم القاسية تجعلهم غير قادرين كلية(٨).

وكان امتلاك العبيد منسجمًا مع الحياة المسيحية، على الأقل فى الشكل الذى يقوم بتنظيمه رجال الدين الكاثوليك ورجال كنيسة إنجلترا، وأحد هؤلاء رجل الدين فليت وود أعلن عام ١٧١١ أن قوانين اللـــه لا تمنع الإبقاء على مسيحيين رقيق ولا حتى قوانين الأرض، وفى العام التالى ورثت جمعية نشر الكتاب المقدس المسيحى مزرعة فى باربادوس، وقد وضعت علامـــة علـــى صدر كل عبد تحمل كلمة تشير إلى مالكه الجديد، ولكن من المدهش أن نسبة اعتناق المسيحية كانت مخيبة للآمال، مع ذلك برغم كل الجدال الدينى الـــذى أحاط بالموضوع فإن اعتناق العبيد للمسيحية فتح المجال لجدال كبير، ازداد مع تقدم القرن الثامن عشر، عن أن دينًا يدعى المساواة فـــى الأرواح أمـــام اللـــه يمكن أن يرتضى نظاما مبنيا على الدونية الوراثية لجزء من الجـــنس البشرى وعلاوة على ذلك، كما توقع المزارعون فإن تعاليم مبادئ المسيحية دفعت الكثيرين من العبيد لتفسير ظروفهم الخاصة بشكل غير مقبول، وقـــد أخبر أحدهم بعثة تبشيرية فى عشرينيات القرن التاسع عـــشر أن "البـــوكرا (الرجل الأبيض) قد ترك اللـــه فى إنجلترا والشيطان فى جاميكا مما يدفعـــه لعمل كل الشرور"[٩].

لقد كُتب الكثير من هذه الأمور، وحادثة واحدة سجلت فـــى يوميـــات مدير مزرعة فى جاميكا تكون مثالا للآخـــرين (٢٥ مـــايو ١٧٥٦) أمـــسك ديربى من بورت رويال عبدين يأكلان قصب السكر وقد قام بـــضرب الأول وقام هنرى بضرب الآخر على فمه[١٠].

كانت النتيجة الحتمية لأكل عود قصب لإجباره على القيام بعمل جسمانى ونظام غذائى صارم، إن فحص ١٠١ من هياكل العبيد مـــن الـــصباح إلـــى الظهيرة بعد استخراجهم من مقبرة فى باربادوس فى الفترة من ١٦٦٠ إلى ١٨٢٠ يكشف أن متوسط أعمارهم تسعة وعشرين، ونسبة وفـــاة مرتفعـــة

للأطفال أقل من عشر سنوات، تدل إشارات التغذية على أن الغذاء لم يكن كافيا للقيام بالواجبات المطلوبة من العبيد الذين يعوضون جوعهم بشرب الدخان فى الغليون[١١].

كما أن نسبة الفقد العالية لم تعوض قدرة العبيد على استعادة صحتهم رغم التشجيع النشط للزواج غير الشرعى، وقد فسر هذه الظاهرة مع بعض التحفظ أحد المزارعين، فقد كتب فى مذكراته يقول "إن الزنجية تستطيع إنجاب أطفالٌ من أجل اللذة وعندما تصبح عقيمة فإنها مثل الدجاجة لا تضع البيض على ظهر السفن لأنه لا يعجبها وضعه هناك".

وتعنى نسبة المواليد من أصول وضيعة ونسبة الوفاة العالية أن المزارعين كانوا باستمرار يسدون النقص فى أعداد العبيد، وهكذا استمرت تجارة الرقيق، لقد كانت عملية التجارة عبر الأطلسى بسيطة حيث يتم الحصول على العبيد من خلال المقايضة مع حكام القبائل فى دول ساحل غرب أفريقيا ويوضعون فى أماكن ملتصقة بمراكز التجارة، ثم ينقلون للبيع فى جزر الهند الغربية، وخلال النصف الثانى من القرن السابع عشر كانت أصداف الكورى هى العملة الشائعة للتبادل بقطع من الأقمشة الهندية المصنعة محليًا وقطع النحاس والحديد والتبغ والكحول.

وبعد عام ١٧٠٠ استخدم المتعاملون البريطانيون بنادق قديمة كانت تستخدم فى المعارك وكانت تقدر بأثمان عالية، وأيضا كان هذا شكلا من الاستثمار غير المباشر تمثل فى الجيوش القبلية المزودة بالأسلحة النارية التى لها ميزات خاصة فى المعارك، وعلى هذا تستطيع أن تقبض على عدد أكبر من الأسرى لبيعهم على الساحل.

وكانت عائدات الرق عالية جدا خلال مراحلها الأولى حيث يمكن مبادلة العبد بسلع تساوى ما بين أربعة جنيهات أو خمسة، وكانت تكاليف

النقل أكثر من خمسة جنيهات بما فيها الغذاء والإشراف الطبى، ويمكن بيع العبيد فى أحد أرصفة السفن فى الهند الغربية بنحو ما بين ١٥ و ١٧ جنيهًا إسترلينيًا أو ٢٤٠٠ رطل من السكر حسب عمره أو عمرها وصحتهما، وكان حد الربح العالى فى جزء كبير منه انعكاسا لخسائر العبيد خلال الرحلة لأن واحدا من كل أربعة يموت من المرض أو الأسر أو كليهما.

وخلال خمسينيات القرن السابع عشر كانت التجارة قد ازدهرت بالفعل بمعدل متوسط بيع ٣٠٠٠ عبد سنويًا فى باربادوس، البعض أعيد تصديره إلى جزر أخرى مثل فيرجينيا ومارى لاند، حيث أجبر حجم التجارة مع أسواق فى هولندا وأيضا المستعمرات البريطانية على تدخل الحكومة التى كانت تأمل فى الحفاظ على نصيب من الأرباح، وفى عام ١٦٦٠ منحت شركة المغامرات التجارية الملكية احتكارًا (The Company of Royal Adventur ers) وهى التى استثمر فيها الملك شارل الثانى خمسة الآف جنيه والتى أعطاها الحق فى بيع تراخيص لتجار الرقيق البريطانيين الذين حققوا أرباحا على ساحل غرب أفريقيا، وفى عام ١٦٧٢ أعيد تنظيمها تحت اسم الشركة الملكية الأفريقية (Royal African Company) وقد سيطرت على مراكز محصنة لتجارة الرقيق على سواحل ما يسمى الآن جامبيا والسنغال وغانا ونيجيريا، ولم تتمتع الشركة باحتكار كلى، حيث تجاهلها تجار الرقيق الذين يعملون فى بوسطن ونيويورك وقاموا بالتجارة مع مدغشقر، وفى عام ١٦٩٨ تم إلغاؤها مما سمح للمئات من التجار المستقلين بالادعاء بممارسة هذه التجارة، وكان الكثيرون منهم ذوى أعمال صغيرة الحجم مع امتلاكهم قوارب حمولة أقل من مائة طن، وكان مقرها فى لانكسترا وهوايت هافن ودوم فرايز (Dom Fries).

ولقد كانت الأقمشة الرخيصة التى تستوردها شركة الهند الشرقية من بين السلع التى تتم مقايضتها بالعبيد، وكان البرتغاليون أول من اخترق أسواق الهند والشرق الأقصى فى بداية القرن السادس عشر، وكان قدوم قوافلهم المزودة بأسلحة ثقيلة غير مقبول ولكن ثبت عدم القدرة على إيقافه، وفى عام ١٥٠١ أطلق رجال حرب فاسكوداجاما النار على ميناء قاليقوط ليظهر لسكانها قوة المدفع الأوربى، وبعد عام هزمت سفنه العديدة الأسطول الغربى بعيدا عن شواطئ مالابارا، وكانت هذه الانتصارات قد أعطت البرتغاليين السيادة المحلية التى دامت نحو مائة عام.

لقد جاء التحدى للسيطرة البرتغالية فى تجارة البهار ومنسوجات الشرق الأقصى من جانب التجار وأصحاب السفن البريطانية والهولندية، وبعد عدد من حملات الاستطلاع الأولية تكونت شركة الهند الشرقية البريطانية فى مقرها فى لندن فى عام ١٦٠٠، وهى أساس شركة التجار الليفانت الذين كانوا تواقين ليكونوا وسطاء فى شرق البحر المتوسط، ويتعاملون مباشرة مع منتجى البهار فى الهند الشرقية (إندونيسيا الحالية) وكانت الشركة صغيرة برأسمال قدره ٦٨,٠٠٠ جنيه، وفى البداية حددت نشاطها فى الحملات السنوية بأساطيل صغيرة، وكانت المخاطر فى الرحلة حول رأس الرجاء الصالح كبيرة، وعندما عاد جلوب (Globe) وبيبركورن (Peppercon) فى عام ١٦١٧ بمكاسب كبيرة وآمال بعائد جيد، ودعى مدير الشركة حملة الأسهم للصلاة، لأن الجميع يجب أن يرفعوا قلوبهم بالدعاء إلى اللــه بالشكر له، وأن يقدموا الشكر إليه، فكلما كانوا شاكرين كلما زادت بركات اللــه عليهم.

وازدادت البركات والأرباح التى أشبعت فطنة المستثمرين وعطفهم فى عصر اعتقدوا فيه أن اللــه لن يتخلى عن عباده.

وحصل الذين وضعوا أموالهم فى الرحلات الأولى فى المتوسط عائدا يساوى عشرين فى المائة. وعلاوة على ذلك ففى عام ١٦١٤ قامت اثنتان من سفن الشركة وطردتا أربعة قوارب برتغالية بعيدا عن الشاطئ بالقرب من مصب نهر تابتى (Tapti) وهو استعراض لمهارة المحاربين البريطانيين الذين كان يراقبهم جيش موجال على الشاطئ، وفى الهند على الأقل حافظت الشركة على موطئ قدم، وفى خلال عشرين عامًا أعطت البرتغال لشركة الهند الشرقية الحق فى إقامة مصانع، كما كانت تعرف بالمراكز التجارية فى أى مكان تختاره على الساحل الهندى، ومع ذلك وكما يدل اسم الشركة خطط مؤسسوها الآمال على كسب نصيب من البهار وتجارته من مصادره فى الملايو وجاوا وجزر المولوكا، وهنا كانت شركة أراضى الشرق السعيده قد دعمت موقفها بقوة وعلى استعداد لمقاومة المتطفلين على التجارة. وقامت الشركة الهولندية التى تأسست عام ١٦٠٢ برأسمال قدره ٥٠٠٠٠٠ جنيه بتأسيس مراكز محصنة فى باتافيا (جاكارتا) وجزيرتى أمبيونا ومالقا على ساحل الملايو التى استولوا عليها من البرتغاليين عام ١٦٤١.

وكان تسامح البريطانيين ضعيفا، وفى عام ١٦٢٣ تم تعذيب ثمانية عشر بريطانيا حتى الموت فى أمبيونا فى استعراض للوحشية التى صممت لتخويف الآخرين بعيدا عن الشاطئ، ولم تفلح هذه كلية بل ساعدت على توجيه عقول التجار البريطانيين نحو الهند حيث لم يعارض أحد وجودهم.

وكان أباطرة المغول وأسياد الهند والنواب الإقليميون على استعداد للتوصل إلى اتفاق مع شركة الهند الشرقية البريطانية للسماح لهم بضمان وسلامة سلسلة من المراكز التجارية على طول الشواطئ الغربية والشرقية من شبه القارة، ولقد حلت سفن بشكل مستمر محل عمليات الإبحار السنوية، ومع منتصف القرن تطورت إلى تجارة مربحة، وفى عامى (١٦٧٤ ، ١٦٧٥)

صدرت الشركة بما يعادل ١٥٥,٠٠٠ جنيه بما يساوى السلع البريطانية المصنعة و ٤١٠,٠٠٠ جنيه من سبائك الفضة، واستوردت ما قيمته ٨٦٠,٠٠٠ جنيه من السلع الهندية معظمها من المنسوجات، وفى نفس الوقت ومحاكاة للبرتغاليين والهولنديين دخلت الشركة فى عمليات السفن التى تحمل التجارة ما بين الهند والموانئ فى جنوب الجزيرة العربية والشرق الأقصى.

وفى عام ١٦٦٤ أمكن الحصول فقط على كمية صغيرة من الشاى الذى لا يزال سلعة رفاهية من الصين وحدها من أجل استخدام المديرين، وكلما توسعت مصالح الشركة وتنوعت كلما توسعت مؤسساتها برغم إصرار المديرين على أن الشركة ليس لها أطماع سياسية أو إقليمية فى دولة ما زالت تتمتع بقدر من الاستقرار فى ظل حكومة المغول: ومع ذلك فإنه فى أرض حيث المظاهر الخارجية للسيادة والسلطة مهمة فإن على الشركة أن تحافظ على وجه جمهورى فعال، وفى سبعينيات القرن السابع عشر وجد توماس بورى (Bowrey)، وهو زائر لمصنع الشركة فى قلعة القديس جورج بجوار مدراس، أنها محاطة بنقاط وحصون قوية وبطاريات مثل أى قلعة فى أوربا، وتصرف الحاكم ومجلسه مثل الحكام المحليين من أجل شرف أمة بريطانية تحافظ على المكان بحكومة جيدة ومدنية عظيمة كبرى، وتتمتع بالنبل مثل كل السفراء الأجانب.

وكان النبلاء أيضا تجارًا، وقد شاهد بورى كميات ضخمة من الحرير الموسولينى والقماش الخام المشجر وغيرها معدة للتصدير إلى بريطانيا والسفن المتجهة إلى الجزيرة العربية وفارس والصين مع حمولات من القماش البريطانى والسكاكين والمقصات(١٢).

وكان الهنود شعبا وديعا يعبدون الأوثان، وكانت لديهم مجتمعات أعمال في بارسيس وجوجارتس وموبلا على استعداد للاتجار مع الشركة، وفي ذلك الوقت أصبح النسيج الذي يصنعه النساجون الذين يكسبون نصف بنس في اليوم لكل (anna) السلعة الأساسية لصادرات الشركة، وما بين ١٦٩٩ و ١٧٠١ وصلت واردات هذه المنتجات إلى ٥٢٢,٠٠٠ جنيه، وكان ثلثاها من السلع التي يعاد تصديرها إلى أوربا وغرب أفريقيا حيث يتم تبادلها بالرقيق.

(٣)
الاتحاد الضرورى للمزارع
التاج والمستعمرات

فى عام ١٦٤٥، غادرت السفينة دولفين (Dolphin) لندن بحمولتها من السلع المصنعة تشمل الزجاج وقماش الكستور والأحذية والقبعات وبالات من القماش والأخشاب والحديد ومواد نحاسية، وكلها سلع للبيع فى مستعمرات بريطانيا الجديدة، وتم تفريغ هذه السلع فى ميناء بوسطن، حيث تم تحميل السفينة بمنتجات محلية من القمح وبراميل من اللحوم المحفوظة وأسماك السردين والماكريل و ٧٠٠٠ رطل من التبغ المفترض نقلها من فيرجينيا ومارى لاند، وبعد ذلك أبحرت السفينة دولفين جنوبًا إلى باربادوس، حيث تم تفريغ بعض حمولتها واستبدلت بالسكر، وبعدها تغير اتجاهها عبر الأطلسى وتوقفت فى جزر الكاناريا حيث تم نقل السمك الذى تم صيده للبيع لرجال الدين الكاثوليك الذين ينفذون تعاليم الكنيسة بخصوص المأكولات التى لا تضم لحوما فى أيام الجمع[١].

لقد سجلت هذه الرحلة ومئات مثلها تغيرًا مهما فى نظام التجارة البريطانية ونمطها وبانتظام فقد القماش الصوفى الممتاز، وهو أهم الصادرات البريطانية مكانته، ليحل محله التبغ والسكر والأسماك، وخلال الربع الأخير من القرن حل الصوف الكندى الثقيل محل صناعة القبعات، وفى عام ١٧٠٠ شكلت إعادة تصدير هذه السلع ثلاثين فى المائة من التجارة

الخارجية البريطانية، وهبط بشكل حاد نصيب الأقمشة فـــي التـــصدير مـــن ٩٠% فى عام ١٦٤٠ إلى ٤٧% فى نهاية القرن، واستمرت فى التـــدهور، وفى نفس الوقت ظهرت أسواق جديدة، ما بين ١٦٣٠ و ١٧٠٠ هاجر نصف مليون من الرجال والنساء إلى المستعمرات، وهاجر الثلثان منهم إلى أمريكا الشمالية، واعتمد الجميع على السلع المصنعة محليا وخلال خمسينيات القرن السابع عشر تم استيراد ٢٠,٠٠٠ زوج من الأحذية و ١٥٠٠ من الفرسان إلى باربادوس.

لقد توافقت هذه المراحل الأولى من الثورة الاقتصادية مع فتـــرة مـــن عدم الاستقرار السياسى الداخلى، والتى وصلت إلى ذروتها مع قيام الحـــرب الأهلية والإنجليزية ما بين شارل الأول والبرلمان عام ١٦٤٢، وكان المبـــدأ الرئيسى فى الصراع هو السيطرة على فرض السياسة خصوصا فى مسائل تخص الدين والضرائب، وقد نشرت موجات الحرب فى بريطانيا آثارها عبر الأطلسى، ومنذ ١٦٤٠ وما بعدها عاد عدد كبير من البيورتيان (المتطهرين) الإنجليز إلى بريطانيا للوقوف فى الحرب بجوار البرلمان، وفـــى فيرجينيـــا رحب حاكمها السير وليم بركلى وهو أحد رجال البلاط الـــسابقين بهـــؤلاء اللاجئين الملكيين بعد انهيار قضيتهم فى عام ١٦٤٩.

لكن جمهوريات الكومنولث الجديدة لم توافق على هذا الرجـــل، بـــل أزاحته من منصبه وسمحت له بالاعتزال فى مزارعه، ومن هناك بدأ يستعد لاسترداد منصبه بعد عودة شارل الثانى عام ١٦٦٠ وتأسيس الكومنولـــث، وكان هذا نقطة تحول كبرى فى تاريخ الإمبراطورية، حيث شهدت الإحـــدى عشرة سنة التالية نشاط حكومة متواصلة وحيوية، للحفاظ علـــى ممتلكـــات بريطانيـــا وتجارتها فيما وراء البحار، وصدر تشريع يؤكد السيطرة الكليـــة لبريطانيا على كل مظاهر التجارة الاستعمارية، وهو برنامج طموح لإعـــادة

تسليح الأسطول وتحدى السيادة البحرية لهولندا، فضلاً عن نجاح جزئى دفاعى ضد إسبانيا فى الكاريبى.

ولقد كان هناك شيء واحد واضح للوزارة والموظفين المدنيين الذين صاغوا هذه السياسات، وهو أن المستعمرات البريطانية والتجارة الجديدة عبر الأطلسى والتى أسسوها هى أساس حيوى قومى يجب الحفاظ عليه وحمايته وتوسيعه حتى لو تطلب الأمر الاعتداء والحرب، وقد تأثرت الحكومة فى كل مرحلة بالمبادئ الاقتصادية السابقة الميركانتيلية، ويدعى هذا أن قدرًا فى التجارة الدولية يقاس بثروات الدولة حسب اكتفائها الذاتى.

وكان الحكم المطلق خصوصًا فى المواد الخام أيضًا مؤشرًا على وضع الدولة العالمي؛ حيث إنه حررها من الاعتماد على قوى أخرى، وسمح لها بجمع الفائض من الثروة، ولهذا السبب وغيره من الأسباب كان كل من جيمس الأول وشارل الأول على استعداد لإعطاء مراسيم للمستعمرات التى كانوا يأملون أن تزود مصادرهم ببدائل للسلع التى كانت تستورد من أوربا، وقد أخطأوا إلى حد كبير، ولكن دون المتوقع قدمت المستعمرات الأمريكية وفى الكاريبى منتجات، حيث ظهرت سوق محددة قارية، وإذا استمرت الأوضاع بالفعل طوال أربعينيات القرن السابع عشر، فإن بريطانيا سوف تصبح فعلا مركز تجارة عبر الأطلسى قائمة على التبغ والسكر والأسماك والاتجار الجديد فى الرق.

ولقد تأكد مستقبل هذه التجارة بكل الوسائل وصار مركز بريطانيا فى أمريكا الشمالية حرجًا، فلقد بدأ الفرنسيون بالفعل اختراق حوض سانت لورانس والتوسع جنوبًا، ووضع الهولنديون موطئ قدم لهم فيما يسمى الآن نيويورك، وأيضا شكل الهولنديون تهديدا آخر، فبعد أن تخلصوا مؤقتا من الصراعات الأوربية بعد عام ١٦٤٨ صاروا أحرارًا وزادوا من أسطولهم

التجارى الواسع، وأصبحوا مصدر النقل البحرى فى العالم، وبعبارات أوسع سعت الحكومة إلى ربط الاتصالات التجارية مع المستعمرات التى أجبرت على ممارسة كل تجارتها البحرية عبر بريطانيا، وفى السفن التى تمتلكها بريطانيا، وكان هذا هدف قوانين التجارة التى صدرت فى عامى ١٦٤٩ و ١٦٦٠، وقانون السلع والمحاصيل الأساسية (Staple Act) لعام ١٦٦٣ وقانون المزارع لعام ١٦٧٣، ولم تمنع أى سفينة نقل بريطانية من نقل السلع من أى نوع بين بريطانيا ومستعمراتها أو بين المستعمرات ذاتها، وفى البداية كانت كلمة بريطانى (British) تعنى بريطانيا أيرلندا، وويلز وأسكتلندا، ولكن فى ١٦٦٠ عندما انفصلت بريطانيا عن أسكتلندا مرة ثانية فى مملكتين مستقلتين تحت تاج ملك واحد تم ضم السفن الإسكتلندية إلى المجموع.

وحيث إن بريطانيا احتكرت النقل الاستعمارى فقد صار لأصحاب السفن البريطانية الحق فى الحماية البحرية الملكية بصدور قانون ١٦٤٩ والذى تدعم فى فترة عودة الملكية (Restoration)، وبرغم الاحتفاظ بلقب الأسطول الملكى صار الأسطول البريطانى قوة قومية تحت تصرف كل الرعايا أصحاب المصالح الأجنبية والاستعمارية، وكان القانون قد صدر أساسًا لإخضاع الملكيين الخصوصيين، ولكن مع عام ١٦٨٠ كانت السفن الحربية تصاحب بانتظام التجار البريطانيين فى البحر المتوسط كحماية ضد القراصنة الجزائريين وسياسات باموث وأيسلندا وصيادى نيوفوند لاند وكانوا يبحرون فى مياه الأطلسى والكاريبي[٢].

ومنذ ذلك الوقت صار الأسطول أداة السياسة الاستعمارية والتجارية، وتطلبت الحماية الموسعة للسفن التجارية سفنًا حربية إضافية، ومنذ ١٦٥٠ وما بعدها بدأت الحكومة مشروع بناء السفن الذى استمر بعد فترة عودة الملكية (Restoration) ففى عام ١٦٧٩ امتلك الأسطول البحرى ستًا وثمانين

سفينة وضعف هذا العدد في عام ١٦٨٨، ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى صمويل بيبسى Somuel Pepsy سكرتير يوميات مجلس إدارة البحرية وكاتبها الذى ناضل من أجل القضاء على الفساد داخل المكاتب البيروقراطية في الأسطول، وشكل أسطولا قويًا يمكن استخدامه وتدعيمه في حالة الحرب ضد فرنسا وإسبانيا أو الأراضي المنخفضة (هولندا).

وكان الهولنديون وبحريتهم التجارية الضخمة أكبر خطر على التجارة البريطانية على الأقل قبل عام ١٦٨٠، وكانوا الأكثر خطرًا في القنالة الإنجليزية (English Channel) وبحر الشمال الذى من خلاله كانت سفنهم مجبرة على شق طريقها إلى أمستردام، وهنا كانوا يجدون معارضة من البحرية الملكية، وقد حدثت ثلاث حروب بريطانية هولندية في الأعوام (١٦٥٢ – ١٦٥٤ و١٦٦٥ – ١٦٦٧، و١٦٧٢ – ١٦٧٤).

وقد حقق النجاح في الحرب الأولى الأدميرال بليك (Blake) ولكن أمكن تعويضها مع الهجوم على موانى ميدوى (Medway) عام ١٦٦٠ عندما أمكن القبض على السفن البريطانية وحرقها، ويسر هذا الإذلال احتلال نيويورك وضمها بعد ذلك، وبينما لم تستطع مدافع السفن البريطانية إزعاج الهولنديين وتخويفهم بشكل ملموس، فإن قوة الآخرين الاقتصادية كانت خداعة، وعلى خلاف منافسيهم كانت مستعمراتهم قليلة ولا يوجد لديها محصول واحد كالسكر أو التبغ يمكن الاعتماد عليه، وكما أبرزت الحروب فإن تجارتهم المنقولة يمكن إيقافها بحسب رغبة بريطانيا، وعلاوة على ذلك فمنذ منتصف ستينيات القرن السابع عشر اضطر الهولنديون لتحويل الكثير من فائض ثرواتهم إلى حصونهم الجنوبية على مناطق الحدود ضد فرنسا.

ويرجع الفضل للرب وليس لسفن القائد بليك الحربية الذى حقق انتصارات الأسطول في أعوام (١٦٥٢ – ١٦٥٤)، وهكذا جاء الإعلان

الرسمى الذى شهد توقيع معاهدة السلام مع الأراضى المنخفضة، وانتهت إلى أن تعويضات المولى عز وجل كانت وكأنه يقول " يا إنجلترا أنت تكونين أول مولود لى، ومبعث سرورى بين الأمم " ومن السهل أن تجديد السيد الحامى أوليفر كروميل خلف مثل هذه العواطف التى عكست حالة جديدة من التوسع والانتصار فى الدولة، وكانت أفكار عصر الملكة اليزابث الأخيرة عن القومية ومصير البروتستانت فى حالة من العودة للحياة من جديد، وترجمة إلى عمل على يد كروميول الذى طوال حياته يشعر بإحساس لخدمة العناية الإلهية وكانت لديه أيضا رؤيا عن دولة ماهرة وذكية تؤهلها عقيدتها البروتستانية وتجارتها لأن تحتل مكانة متميزة فى كل أنحاء العالم، وفى عام ١٦٥٤ لم يشهد هذا العام إذلال البرتغال فحسب، بل شهد أيضا إعطاء الحكومة البرتغالية امتيازات للبريطانيين وتنازلات بعيدة المدى للتجار البريطانيين والتى وصلت إلى ذروتها بالاعتراف أن البرتغال لم تعد بعد تمتلك القدرة أو الإرادة للسيطرة على سيادتها القديمة فى الشرق أو الأمريكتين، وبعد ذلك وجه كروميول ضربة ضد إسبانيا فى غرب الأنديز، ومن ثم فإنها تدمر ثروة قوة كاثوليكية مبرزة عظمتها، ويعد هذا انتصارا للبروتستانتية، ويعرض فراغ الادعاءات الإسبانية فى الاحتكار التجارى فى المنطقة، وإعدادًا لما سمى بالمشروع أو التصميم الغربى (Western Design).

وكان كروموبل يميل إلى آراء توماس جاج (Gage) وهو راهب دومنيكان مرتد عن العقيدة وهو الذى شجعت آراؤه فى كتابه إنجلترا فى أمريكا (England in America) فى الانهيار العام للقوة الإسبانية فى العالم الجديد، وإحلال بريطانيا محلها، كما استمع أيضا إلى آراء السير توماس موديفورد وآرائه الأكثر تشددًا، وهو حاكم باربادوس وأحد المزارعين المهرة فى الحصول على امتيازات خاصة، وفى أحوال كثيرة أصبح المشروع

الغربى سابقة لكثير من المشروعات الإمبراطورية العدوانية، ولقد اختلطت المزايا التجارية والجشع الخاص والإحساس بمصير تاريخى توجهه العناية الإلهية، دون اقتناع تام، مع قضية أخلاقية على أعلى مستوى عقلى، ولتبرر ما سمى بالهجوم الوقائى على منطقة قوة صديقة، قدم رجال دعاية كرومويل الحملة على أنها تصرف للانتقام من مائة وخمسين عامًا من غطرسة إسبانيا والكاثوليكية فى الأمريكتين "إننا نمسك أنفسنا ومضطرون بحسب عدالة السماء لشعوب هذه الدول للرد على القسوة والأخطاء والأضرار التى مارستها وقامت بها إسبانيا(٣).

وتمنى كرومويل بإخلاص أن يتبع طرد الإسبان وممتلكاتهم قدوم سلالة جديدة من المستقرين تكون أكثر جدارة، أناس يعرفون الله من إنجلترا الجديدة وألستر (Ulster)، وفى يوم عيد الميلاد عام ١٦٥٤ أبحر من ميناء سبت هيد أسطول بقيادة الأدميرال السير وليم بن (Penn) وحاملة قوات تحمل الجنرال روبرت فينابلز وقوامها خمسة آلاف من رجال الجيش الأقوياء، والذين تم تجنيدهم من الحامية الأيرلندية، وبعد خمسة أسابيع وصلت هذه الأرمادا إلى شواطئ باربادوس، وبدأت الحملة بالقبض على ما يساوى ٥٠٠٠ جنيه من السفن الراسية بعيدًا عن شاطئ الجزيرة، وذلك باسم قوانين الملاحة (Navigations Laws) وبعد أن استولت على بعض المركبات الحربية من باربادوس وجزيرة ليوارد (Leeward Islands) اقترب الأسطول من هدفه فى إسبانيولا (Espanola) لقد كان الرسو كارثة مع خسائر ثقيلة بين القوة التى نقصت بالفعل بسبب الملاريا والدوسنتاريا، وفى مايو ١٦٥٥ حدث هجوم على ما يعرف الآن باسم كنجستون (Kingston) وجامايكا ونجح الهجوم بعد مقاومة إسبانية ضعيفة الأثر.

وكان الاستيلاء على جامايكا جزءًا من خطة كبرى تضمنت احـــتلال سانت هيلينا عام ١٦٥٩، وكانت الجزيرة مثالية فى مزارع الـــسكر، وتـــم إعطاء الجنود الذين بقوا على قيد الحياة منحًا من الأرض للزراعة، وكانـــت الجزيرة ذات موقع إستراتيجي يتحكم فى طرق السفن الملاحية المتجهة شرقًا من أمريكا الوسطى الإسبانية وكوبا وإسبانيولا، وفشلت محاولـــة اســـترداد الجزيرة عام ١٦٥٨، وبعد أعوام من التذمر تنازلـــت عنهـــا إســـبانيا إلـــى بريطانيا عام ١٦٧١، وفى ذلك الوقت كان بها ســـبعة وخمـــسون مـــصنعا للتكرير، ومع تطور زراعة الكاكاو باعتباره محصولاً ثانويًا صارت بورت رويال (Port Royal) مرسى منتظمًا للأسطول البحـــرى الحربـــى، وكـــان تطورها كقاعدة بحرية سريعًا، وفى عام ١٦٩٠ كانت تحرسها قـــوة باســـم فورت شارلز جيمس وروبروت، وفى عام ١٧٣٩ تم بناء حـــوض للـــسفن ومخازن هناك، ولقد كان الاستيلاء علي جامايكا جزءًا مـــن خطـــة أوســـع تضمنت احتلال سانت هيلينا (St Helena) فى عام 1659 وهى محطة علـــى طريق الكيب إلى الهند، والاستيلاء المخطط لكل من جبل طارق أو ميوركـــا (Minorca) كقاعدة على البحر المتوسط وحتى بدون أيـــة جـــوائز أظهـــر كروميل فاعلية إستراتيجية عالمية يمكن أن تقلدها حكومات قادمة، والتـــى شاركت بدرجات مختلفة رأيه فى مكانة بريطانيا فى العالم، وقد تابع مـــودى فورد ألان حاكم جامايكا مشروعه الغربى (Wester`n Design) ولكن علـــى نطاق أصغر؛ فقد اقترح فيه مع بداية الحرب الثانية بين الإنجليز والهولنديين عام ١٦٦٥ مشروعًا لسحق الهولنديين بعيدًا عن الهند الغربية، وقد شـــاركه فى هذا المشروع الخاص القراصنة المحليون الذين كانوا على استعداد حسب تعامله الجيد معهم أن يهبوا حياتهم وثرواتهم لخدمة جلالته[٤].

وكان هؤلاء القراصنة أحرارًا يهتمون بصناعة البحر وسفاكى دماء عاشوا على القرصنة، وجذبوا إليهم هؤلاء الذين كانوا على هوامش المجتمع الكاريبى بمن فيهم العمال الذين يعملون بعقود لمدد محددة وأيضًا العبيد الهاربون، ورغم تأكيدات موديفورد (Modyford) كانوا تحت المسئولية القانونية عندما وصلوا إلى القتال، وأثناء الرسو على الجزيرة الهولندية فى سانت أوستاتيوس (Eustatius) فى يوليو ١٦٦٥ قام المتطوعون بإضراب حتى توزع الأسلاب، وبعد ذلك وبحسب أحد شهود العيان، حدثت فوضى ضخمة تصاحب فى العادة مثل هذه الجماعات؛ لأن ممارسة السلب والسرقة هى الدافع لهم بحسب رغبتهم.

ورغم هذا ومع حق القيادة حقق القراصنة معجزات كثيرة، وفى يناير ١٦٧١ وبقيادة إدوارد مورجان أحد المستخدمين بعقود رسمية فى باربادوس، قاموا بمهاجمة مدينة بنما وسلبها (Panama).

لقد أعطى هذا الهجوم المفاجئ (Coup de main) مورجان الوسيلة التى جعلته أحد مزارعى جامايكا، وللحفاظ على لقب الفروسية وحكم المستعمرة، كما فعلت مع دريك ومحاولاته المشابهة من قبل مائة عام ولّد إحساسًا عميقًا فى المخيلة العامة، وأكدت الصورة الشعبية عن الأراضى البعيدة، حيث الثروة السريعة فى انتظار المتحمسين وقساة القلوب.

لقد أرضت السياسات الحربية عند كرومويل فيما وراء التجارة وحروب القرصنة التى تبعها ضد الإسبان فى جزر الهند الغربية الوطنية البريطانية، وبالطبع للطمع وللجشع وحب المال، الفردية، لقد كانت هذه دليلاً إذا احتاج الأمر لدليل على ما أمكن إنجازه باستخدام الحكمة فى القوة البحرية، وكيف أنها تستطيع إثراء الدولة، ولم تكن هذه الفكرة جديدة، حيث إنها استخدمت فى منتصف القرن الخامس عشر من جانب دعاة الميركانتيلية

الذين حثوا الحكومة على الحفاظ على البحار، أى تأكيد السيطرة البريطانية بقوة على القنال الإنجليزية، ولقد امتدت السيادة البحرية فى ذلك الوقت فيما وراء المياه الإقليمية المحلية، والتى تبناها رجال التوسع البريطانى فى عهد الملكة إليزابيث، والذين اكتسبت رسالتهم قوة جديدة، كلما ازدادت التجارة الخارجية البريطانية، وممتلكات فيما وراء البحار.

وكما كانت الدعوة من أجل السيادة البحرية، وحذر الأتباع الأوائل مما سمى بعد ذلك مدرسة الماء الأزرق (Blue Water) للسياسة الخارجية والإستراتيجية، الحكومات للابتعاد بصفة مستمرة عن التورط القارى، والذى ضيع كنوز الأمة وثرواتها ولم يحقق أرباحا ملموسة ومرئية.

وفى مذكرة قيادة الحلفاء (conduct of Alies) عام ١٧١١ قارن جوناثان سويفت الحملات المكلفة والشاقة لدوق مارلبورو (Duke of Marlborough) فى الفلندرز واللورد بيتر بورو فى إسبانيا، بمشروع اندفاع قائد المركب فى قاعدة بريستول. لقد دفعهم حماس الروح الحقيقية والصناعة فقاموا باجتياح السفن الإسبانية والاستيلاء على كنوز السفينة أكابولكو، فضل سويفت أن يركز على المصادر البشرية على الأسطول واستخدامها فى غزو تدريجى لجزر الهند الإسبانية أفضل من دفع رجال وأموال نقدية فى حروب يصعب كسبها فى أوربا.

وهو فى الأساس وضع قضية يمكن أن يكررها الآخرون طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فلقد فصلت الطبيعة وعزلت بريطانيا عن القارة بطريق البحر، ومن خلال براعة شعبها ومثابرته أصبحت تعتمد على التجارة المنقولة بحرًا وعلى المستعمرات لأجل الحصول على ثرواتها، وفى حالة الحرب القارية كان اهتمام بريطانيا الأول دائما الحفاظ على مواردها فيما وراء البحار وتدمير أعدائها، وكان التزام

الرجال والمادة فى أى مسرح من الحرب الأوربية أمرًا ثانويًا، حيث إن المكاسب هناك لم تقدم شيئًا للمساعدة فى أمن البحرية أو التجارة.

لقد أعطت الصراعات مع الأراضى المنخفضة لرجال السياسة والتجار البريطانيين أول تذوق للحرب الكونية، برغم أن الصراعات فى الكاريبى وأمريكا الشمالية كانت خارجية وصغيرة فى حجمها، وفى النهاية من المؤكد أنه فى وقت ما أصبح مستقبل الحروب الأوربية عبارة عن احتكاكات بين الإمبراطوريات من أجل البحث عن عرقلة تجارة معارضيها والسيطرة على مستعمراتها، ولمواجهة مثل هذه الحالات الطارئة كان من الحيوى أن تؤكد سيطرة الحكومات ورقابتها على المستعمرات واتخاذ الإجراءات للدفاع عنها.

لقد ثار جدل حول وزير خزانة شارل الثانى إيرل دانباى فى عام ١٦٦٤ حيث إن الترتيبات العاجلة التى تمت لجميع الاتحاد الضرورى للمزارع فى أمريكا كانت ضرورية لتجعل الملك عظيمًا وتوسيع إمبراطوريته الملكية فى هذه الأجزاء(٥).

وهناك الكثير من النتائج لاقتراح دنباى (Danby) أكثر من التأكيد على قوة لندن على المستعمرات البعيدة، وهو أن الاتجاه الوثيق للحكومة الاستعمارية سيسهل زيادة الدخول المحلية التى يتم استخدامها لسد فاتورة الدفاع عن المستعمرة.

وقد ترك تطبيق هذه السياسة بشكل كبير إلى أول رجال الخدمة المدنية وهو وليم بلاثوايت (Blathwayt)، وبحسب يوميات جون إيفلن الذى التقى بلاثوايت عام ١٦٨٧ عندما كان نجمه مرتفعًا، وهو رجل رفع مكانته من خلال صناعته ونشاطه فى العمل، ولقد تم تعيين بلاثوايت محاميًا تحت التمرين فى المجلس الخاص الجديد للمزارع عام ١٦٧٦، وبعد أربع سنوات صار مساحا للأراضى ومراجعًا عامًا للحسابات الأمريكية.

ومنذ ١٦٨٣ حتى ١٧٠٣ صار وزيرًا للحرب، وكانت تجاربه وحكمته قد جعلتاه ذا قيمة وهكذا لم تهزه التقلبات السياسية وخدم بنجاح كلاً من الملك شارل الثاني وجيمس الثاني ووليم الثالث والملكة آن، وبهذه الطريقة واتفاقا مع رجال البيروقراطية فى أسرة ستيوارت جعله يتزوج إحدى وريثات العرش، وصار منزلها فى جنوب جلوستشير مقره ومقعده الريفى الذى أعاد بناءه من عام ١٦٨٧ وما بعدها بالأسلوب العصرى تحت إشراف أحد المهندسين اللاجئين الفرنسيين، وكانت الديكورات الداخلية خلابة وكان مكتبه مزدانًا بجوز الهند الأسود الذى أرسله إليه حاكم ميرلاند، وكانت السلالم قد حفرت من خشب السرو وخشب الأرز من جنوب كارولينا، وكانت الحدائق قد جهزت حسب الطريقة الهولندية (صار وليم الثالث ملكا عام ١٦٨٩) وزرع فيها أشجار الفلورا التى استوردها من فيرجينيا.

كانت هذه الهدايا الغريبة جدًا من أرض قد حققها بلاثو وايت حسب رغبة الملك ودعم السلطة الملكية، وغالبًا على حساب المجالس والإقطاعيات المحلية، وفى العادة كان وكلاء سياساته رجالاً تعودوا على إعطاء الأوامر ويتوقعون الطاعة من ضباط الجيش، وكانت تجارتهم ومزاجهم هو جعلهم محبوبين؛ لأن واجباتهم تضمنت الترتيبات من أجل الدفاع عن المستعمرات، وحتى منتصف سبعينيات القرن السابع عشر اتخذت الإجراءات للحفاظ على المستعمرات فى أمريكا الشمالية والكاريبى، والتى تعرضت للأخطار.

وكشفت عملية العرض عن المصادر العسكرية فى جزر ليوارد (Leeward) والتى قدمت إلى لندن عام ١٦٧٦ عن إمكانية السقوط فى يد الأعداء.

والمؤلف وهو جندى محترف انزعج من الحامية الصغيرة من الجنود النظاميين فى سانت كيتس (St Kitts) كانوا فى أمس الحاجة للجنود من وجهة نظر الفرنسيين الذين كانو أكثر تسليحًا، ويحصلون على أجور أفضل، وفى نفس الوقت يوجد اثنان وعشرون من الجنود النظاميين وفرقة صغيرة من الفرسان الذين يستخدمون خيولهم عموما فى نقل السكر و ١,٣٠٠ جندى كانوا من أسوأ الأسلحة التى رأيتها(٦). وباختصار لا تستطيع أى من الجزر مواجهة هجوم قوات مدربة.

وكان من الواضح الحاجة إلى حاميات من الجنود المحترفين وإشراف ملكى قوى من الحكومة فى أمريكا الشمالية، ففى عام ١٦٧٦ هز فيرجينيا عصيان مسلح قوى قاده ناثانيال ياكون ضد السياسة الهندية المزعومة والضعيفة لحاكم بيركلى وضد حكومته الفاسدة وضد مجلس حث العصيان المسلح، وكانت السلطة فى أيدى الأغنياء وأجبرت الحكومة فى لندن على إرسال ألف من قوات المدفعية والسفن الحربية(٧). وبينما واجهت فيرجينيا ما يشبه حربًا طبقية كانت مستعمرات إنجلترا الجديدة مشغولة فى حروب حدود منقطعة ضد الهنود الذين يلقون تأييدا قويا من المساعدة الفرنسية، وحمل الهنود المقبوض عليهم بالقرب من قلعة بيما كويد (Fort Pemaquid) إلى نيويورك فى عام ١٦٨٩ وكانوا يحملون البنادق القديمة والحراب وأحزمة الوسط وسيوفًا قصيرة، وأخبر أحد الرجال الذين يتحدثون الإنجليزية بشكل بدائى أحد الضباط أن شعبه لا يهتم لسكان إنجلترا الجديدة، لقد نسوا وطنهم(٨).

ولم يستطع المستعمرون مواجهة هذه المخاطر دون مساعدة خارجية، وهذه الحقيقة غير المريحة جعلتهم يلجأون إلى سلسلة من الإجراءات التى قللت من قوات المجالس المحلية وأسياد الأرض الأقوياء، وتم منح امتيازات إدارية، وأحيانا بعد تذمر، كما فى إنجلترا الجديدة ولكن لا تزال البرلمانات

الاستعمارية تحتفظ بسلطات قانونية معقولة، ويجب أن نضيف أن هذه الهيئات كانت تمثيلية أكثر منها ديمقراطية، ومثلها مثل الهيئات البريطانية والأسكتلندية كانت محجوزة تمامًا للرجال المحافظين من أصحاب الثروات والملكيات، وكانت تشريعات الهند الغربية وأمريكا الشمالية مليئة بالمزارعين وأصحاب الضياع والتجار والمحامين الذين يعتقد أنهم أصحاب المصالح العظمى فى مستعمراتهم، وقد قبل هؤلاء الرجال سيادة حكام الملك والقضاة والموظفين الرسميين كثمن للحماية، ولم يكونوا يحترمون رغبات الآخرين، وفى عام ١٧٠٠ احتج عضو من مجلس نيفس (Nevis) إلى ضابط جيش بأنه نظرا لعدم وجود قانون يسمح بإيواء الجنود فى مزرعته، فإنهم يستطيعون العمل فى الحقول إلى جانب الزنوج مقابل الاحتفاظ بهم، وبحسب أوامر الضباط يستطيع التفاهم معهم[٩].

إن مثل هذه الآراء التى ارتبطت مع عدم المبالاة بالقانون الذى كان سائدًا فى مستعمرات الحدود فى أمريكا الشمالية وبعض جزر الكاريبى جعل الحكام فى صراع مستمر ومتصاعد، وفى الغالب كانت عملية فرض النظام قد انتهت، وفى أواخر عام ١٧٧٥ اشتكى الكولونيل مونت فورد براون حاكم الباهاما، إلى الحكومة من انتشار الجريمة فى الجزر، وأصبح من المستحيل بسبب العجز والكسل أن يعمل إلا فى تهريب السفن وتحطيمها أى إغراء السفن إلى سلسلة صخور قرب الماء ونهب ما بها، ويبدو أن أحدا لا يعرف ماذا يعنى القسم الضمان الأكبر للحرية والملكية وحياة الرجال الإنجليز، ومن ثم لم تستطع المحاكم القيام بعملها على وجه أكمل[١٠].

ربما كانت جزر الباهاما استثناء من هذه الفوضى، وفى أى مكان آخر وكلما تطورت المستعمرات صار سكانها يدركون بعمق كيف أسهمت مصنوعاتهم فى سلطة بريطانيا وثروتها، وفى عام ١٧٠٦ تقدمت مجالس

سانت كتيس ونيفيس بالتماسات إلى البرلمان تطلب أكثر من مائة ألف جنيـه إسترليني تعويضات عن الخسائر التي تحملوها على أيدى الفرنسيين، وثــار نقاش حول أن المزارع تستحق معاملة كريمة وسخية على أســاس امتيــاز التجارة التي تتدَّفق منها فضلاً عن العائدات الضخمة التي قدموها للجمهــور من رسوم الصادرات والواردات، وقد وافق مجلس العموم على هذا الــرأى وصوت لصالح المبلغ المطلوب، حيث إنــه رأى دون شــك أن هــذا يعـد استثمارا له قيمته.

(٤)

تدبير العناية الإلهية

المستعمرون

لم يكن ممكنا قيام المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار دون هذا العدد الضخم من المهاجرين الذين كانوا على استعداد للتخلى عن أوطانهم والقيام برحلات شاقة وطويلة، ثم يجبرون على نظام من العمل الشاق فى بيئة غير مألوفة وغير سخية، ويشبه رجال التوسع فى عصر الملكة إليزابث بعملية التفريغ الجسمانية من كل الأشياء غير المطلوبة والمواد الضارة(١). وقد تخيل زائر إلى باربادوس هذه الصورة فقال "تعد هذه الجزيرة كومة من الروث التى قذفت فيها بريطانيا كل النفايات والقاذورات حيث وصل إلى هناك النساء سيئات السمعة وأصحاب الخطايا اللا أخلاقية(٢)".

لقد كان هذا حقيقيا إلى حد ما، وربما أضاف البعض البيورتيان والكويكرز(*) إلى هؤلاء الكسالى والخارجين عن القانون الذين أجبروا على مغادرة بريطانيا، وهناك أيضا الكثيرون الذين أطلق عليهم المهاجرون حسب رغبتهم، والذين كانوا فى الحقيقة قد انبهروا بعبور المحيط الأطلسى، فى عام ١٦٧١ اعترف أحد الأشخاص السكارى بأنه قد خطف خمسمائة من الخدم الذين يعملون بعقود لفترات محددة سنويا، وقام آخر بمحاصرة ٨٤٠ شخصا بعد تغيير اتجاههم فى الرحلة(٣).

(*) جماعة دينية ظهرت فى بريطانيا لمحاربة تجارة الرقيق فى القرنين السابع عشر والثامن عشر (المترجم).

وحتى لو كانت هذه الاعترافات مبالغًا فيها إلا فإنها تدل على أنه بين هؤلاء فإن الغالبية العظمى من المهاجرين، قد سافروا دون رغبتهم، وكان ترددهم مفهوما لأن محنة مستقبلهم كانت واضحة تماما فى رواية شعبية معاصرة (The Tranned Ckidnapped Maid) العذراء المخطوفة:

"لقد خدمت خمس سنوات تحت السيد جوى فى أرض فيرجينيا" آه والذى جعلنى أعرف الأسى والحزن والألم عندما كنت متعبة متعبة متعبة آه، لقد قمت بدورى سواء مع المحراث وعربة اليد فى أرض فيرجينيا آه، كانوا يحملون قطعًا من الخشب على ظهرى عندما كنت متعبة متعبة متعبة.. ياه[٤].

لقد كانت هذه المرأة سيئة الحظ بشكل خاص لأن الخدم من النساء كن يتخصصن فى العادة للأعمال داخل البيوت، برغم أنه فى ميرلاند خلال خمسينيات القرن السابع عشر كانت الأوامر تصدر للخدم من البغاة ذوات الأخلاق السيئة والوحشية بالعمل فى الحقول، وكانت إغراءات الهروب عظيمة أحيانا، لكن كانت هناك أخطار إعادة القبض عليهم فى جزر المستعمرات، أو الوقوع فى أيدى الهنود فى أمريكا الشمالية، وقد اختفت هذه المخاطر كلما ازداد سكان المستعمرات، وأصبح من السهل أن يتم اكتشاف الهارب، حاولت واحدة فى ستينيات القرن الثامن عشر، والتى وصفها صاحبها فى إعلان فى مجلة فيرجينية: ما بين اليوم السادس والسابع هربت مارى ناولاند لم أعرف عمرها، لكن يبدو أنها قد أكملت عامها العشرين، ونفس ديانتها مع البابوية ذات عنق قصير من النادر أن تجد مكانا لوضع الحبل، كانت ضخمة وملفوفة القوام من العنق حتى الأرداف، شعرها بنى ووجهها أحمر وأنفها قصير ولها شفاه غليظة، كانت قصيرة وسميكة وغير رشيقة فى حركتها، ونظيفة مثل أى خنزير بدين، وفى لسانها تحمل نبرة وكانت مثل أى رجل متشرد.

لقد كان الزواج وتأسيس بيت خاص بها أحد دوافع هذه المرأة الأيرلندية لترك العمل، رغم أنه فى ذلك الوقت تم تدارك عدم التوازن بين عدد الرجال والنساء المستقرين فى المستعمرات، ففى عام ١٧٠٤ كان هناك ٣٠,٠٠٠ من الرجال و ٧٠٠٠ امرأة و٨٥% من الرهبان يعملون بنظام عقود عمل لفترة محددة فى ميرلاند(٥).

وكان هؤلاء الأحرار قد تزوجوا صغارًا، وكان متوسط عمر الأزواج ستة عشر عاما فى ميرلاند واحدًا وعشرين عاما فى فيرجينيا، أما الخدم الذين يعملون بأجور لفترة محددة فكانوا فى العادة يتزوجون فى سن ما بين أربعة وعشرين أو خمسة وعشرين عاما عندما تنتهى عقود عملهم.

وكانت نسبة الأطفال غير الشرعيين عالية برغم العقوبات العامة والمذلة التى فرضتها التشريعات الاستعمارية على الأمهات غير المتزوجات. ومع حلول عام ١٧٠٠ كانت نسبة كبيرة من المستعمرين من المولودين الوطنيين، وكانت نسبة نمو السكان فى مستعمرات حوض تشيز بيك (Chesapeake) من أى مكان آخر، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نقص عدد النساء وارتفاع نسبة الوفيات، فأحد المهاجرين البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة والذى عاش بعد موسم جمع الفلفل من المتوقع أن يعيش عشرين عاما أخرى، بينما الشخص المولود محليا فى فيرجينيا أو مارى لاند والذى حصل على الحصانة من الأمراض ربما يعيش عشرين عاما أخرى، على أن توقعات العيش فى المناخ القاسى فى نيو إنجلاند (إنجلترا الجديدة) كانت ستين عامًا.

لقد كان نقص النساء عائقا فى المراحل الأولى من الاستعمار، لكن لم يكن ممكنا تجنب هذا، ولقد تطلبت إزالة الغابات وإعداد الأرض وتجهيز المحاصيل، وبناء المنازل قوة عمل الرجال، وهى حقيقة حياة انعكست على

حرف هؤلاء المهاجرين الذين كان الطلب عليهم كبيرا من جانب أصحاب العمل والشركات المستقرة الدائمة، وكانت الحاجة العاجلة دائما للعمال المهرة وعلى ظهر المركب تزكريز (Trcrease) والتى أبحرت إلى إنجلترا الجديدة عام ١٦٣٦ كان ١١٦ رجلاً منهم النجار والجزار وصانع الأقمشة والبناء والخياط والترزى والطبيب الجراح واثنان من عمال نسيج الصوف واثنا عشر من عمال المزارع، وكان هناك أيضا ضمن القائمة اثنا عشر رجلا دون أية حرفة، وأربع وعشرونِ فتاة من البالغات وست وعشرون فتاة تحت سن الثامنة عشر وثلاثين صبيًا.

وكان توزيع هذه الحرف بحسب السن والجنس نموذجيًا، برغم أنه من غير المؤكد أنهم سيتوالدون فى المستعمرة بسبب عملية الفقد خلال الرحلات أو التكيف مع الطقس(٦).

ولقد وصفت شركة خليج ماساشوتس المستعمرين المثاليين فى ثلاثينيات القرن السابع عشر على أنهم "يحظون بالنعمة الإلهية ومزودون بكل الوسائل"، وكانت الميزة الأولى أساسية لتحقيق الرؤيا البيورتيانية عن مستعمرة يقطنها رجال ونساء عرفوا أنفسهم حسب الاختيار الإلهى، وعلى هذا فهم سعداء لتكيف أنفسهم مع نظام عمل منتظم وتنظيمات قائمة على نصوص الكتاب المقدس القديم (العهد القديم) وفى نفس الوقت احتاج المهاجر إلى مبالغ نقدية ومجموعة من الأدوات، وكانت أجرة الشخص عبر الأطلسى نحو خمسة جنيهات، تضاف إليها تكاليف المأكل طوال الرحلة، والحمولة أربعة جنيهات للطن، ومن المتوقع أن يحصل الفلاح الإنجليزى مع أسرته ووسائل الفلاحة والأدوات المنزلية على مائة جنيه للنقل إلى أمريكا الشمالية، وإذا افترضنا أن دخل الفرد السنوى ربما يتراوح ما بين أربعين وستين جنيها إذا رغب فى الهجرة فإنه يضطر إلى بيع أرضه(٧).

وبعبارة أخرى يجب أن يكون قراره نهائيا. وبالطبع فهناك حالات كثيرة حيث تدعم الشركات المستعمرين، وعلى الأقل شركة مثل ماساشوتس باى والذين كانوا يفحصون بدقة مقدما من أجل التخلص من الذين لا يصلحون أخلاقيًا، وكان جون دين، أحد الذين اجتازوا الاختبار بعد قبول الهجرة إلى إحدى جزر الكاريبى، طلب العون من الله وقال: " أنا محروم تماما وشغوف أن أكون قد تخلصت من الإغراء" حيث قام باتباع الأعمال والممارسات البيورتيانية السائدة، وأحيانا كان يفتح إنجيله، ويجد النص: "اخرج من بينهم، لا تلمس شيئا غير نظيف، وسوف أكون إلهك وسوف تكون شعبي" وفى الحال ترك أهله فى هيرت فورد شاير وإغراءاتها واستقل السفينة إلى إنجلترا الجديدة (نيوإنجلاند) وكانت هناك إغراءات مباشرة أكثر[٨]، ففى عام ١٦٦٧ كان إغراء المستعمر الأساسى لمستعمرة كيب فلوريدا يعد بالحصول على مائة فدان لنفسه ومائة أخرى لكل من أطفاله وخدم مزودين بالبنادق، كانت هذه أرضًا هندية، وبإيجار سنوى عشرة شلنات لكل ألف فدان، كما يتم منح خمسين فدانا أخرى لكل خادمة أو أحد العبيد فى حوزته[٩]، وعندما ينتهى عقده المحدد بمدة ما يقوم سيده بإعطائه مائة فدان مع أدوات الفلاحة وقطعتين من القماش. وقد تم تصميم هذا الإغراء بحرية لجذب الرجال الذين حققوا بالفعل ثروة معقولة فى إنجلترا، لأنهم سوف يحصلون على تكاليف النقل وكميات كافية من الطعام للإنفاق على أنفسهم وأهل منزلهم فى الفترة التى يستغرقونها فى الزراعة والحصاد وتسويق المحاصيل النقدية.

وإلى حد ما فقد انتقل النظام الطبقى الاجتماعى الموجود وغير المرن فى إنجلترا عبر الأطلسى، وأعيد تركيبه فى أمريكا الشمالية والكاريبى. وفى المستعمرات طلب الرجال المهذبون نفس الاحترام، كما كانوا يفعلون فى

بريطانيا، ووجد لدى أحد هؤلاء الرجال الذين ماتوا خلال الأيام الأولى فـــى فيرجينيا قطعة نحاسية تذكارية تم استيرادها كشاهد على قبره، والتى أظهرته فى كامل لباس درعه كرمز له فى أرض المعركة، ولكن لا يـــزال التـــذكار الشعبى المقبول لوضعه الاجتماعى، وكانت قد وضعت فى فناء كنيسة جيمس تاون حيث سرقت بعد ذلك، وعندما تنظر للوراء وإلى طفولته فى فيرجينيـــا فى تسعينيات القرن السابع عشر، حيث تذكر واستعاد مزارع فيرجينى "شعر مستعار فى هذه الأيام كان علامة مميزة للناس المحترمين وتدل نفس الزينة على الرجل المحترم فى بريطانيا".

وكما كانت الحال فى الوطن الأم كانت الملكية المقيـــاس أو المعيـــار النهائى للوضع الاجتماعى، لأنه كما لاحظ أحد مزارعى التبغ فإنه إذا امتلك شخص المال والزنوج والأرض يكفيه أن يكون رجلاً محترمًا كاملاً.

وفى عام ١٧٢٦ امتلك آخر نفس الأشياء الثلاثة: إننى أمتلـــك عائلـــة كبيرة وأبوابى مفتوحة لكل فرد لكن ليس لدى فواتير لدفعها وسيبقى نـــصف بنس لا توزع فى جيبى لكثير من الشهور، وأنا مثل أحد البطارقـــة فعنـــدى القطيع والماشية والعمال الذين يعملون بعقود محددة من الرجـــال والنـــساء، وكل ألوان التجارة، لهذا فأنا أعيش فى نوع من الاستقلال عن أى شـــخص إلا الرب(١٠).

وفى مثل هذه الظروف والنظرة الخارجية مثل هؤلاء الرجال الـــذين يختلفون قليلا عن زملائهم القريبين المعاصرين لهم مثل سكواير أول ورثى ووستون فى رواية فيلدنج (Fielding) وتوم جـــونز (Tom Jones). إن ســـيادة الأغنياء أعطت المجتمع الاستعمارى تلاحما وصار من السهل الحفاظ علـــى النظام العام، لأن المهاجرين الأكثر تواضعًا وفقرًا قد كيفوا أنفـــسهم لقبـــول سيادة رجال المال والثروة وعظمتهم، ففى المستعمرات فى بريطانيا الجديدة

اقتصرت المسئولية العامة على الأسياد والأفراد الأكثر ثـراءً مـن رجـال الكنيسة؛ فالقوانين التى صاغوها فى اجتماعاتهم وأجبروا العامة عليها شكلت القانون البريطانى العام سعيًا وراء حياة نقية قائمة تمامًا على العهد القـديم، وكان الرجال الذين لا يحترمون المقدسات والشواذ والذين يمارسون العادات السيئة يجلدون، وهى عقوبة يعفى منها تماما الرجال المحترمون، ومثل هذه القوانين والعقوبات المحددة جاءت من التشريعات الـصغيرة فـى ولايـات إنجلترا الجديدة، وانعكست بشكل كامل، وهى عقلية كانت سائدة فى بريطانيا، وكان الشر بكل أشكاله متوطنا فى كل المجتمع، وكان مركزًا بشكل أكبر بين الطبقات الدنيا التى تتطلب تذكرة ملائمة بواجباتها نحو الـرب والـسلطات المدنية التى تطبق قوانين الملك وذاته.

لقد كان من الواضح تمامًا الحاجة إلى مجموعة قوانين صـارمة فـى المستعمرات التى تضم العبيد، وهناك كانت الصفوة تتميز تمامًا بلون بشرتها ومنذ النصف الثانى من القرن السابع عشر وما بعدها وقعت فى خطر مستمر بسبب طغيان السكان الزنوج وانتشارهم بشكل كبير، وفى عام ١٦٢٨ ضمت ولاية باربادوس ١٤,٠٠٠ نسمة معظمهم من العمال البيض بعقود محـددة، وكان هناك اندفاع سريع من الزنوج بعد عام ١٦٥٠، وبحلول عـام ١٦٧٣ وصل عددهم ٣٣,٠٠٠ شخص مقابل ٢١,٠٠٠ شخص من البيض، وكـان الزنوج يقومون بالكثير من الأعمال اليدوية بينمـا كـان الـسكان البـيض يتناقصون فجأة، وفى عام ١٧١٢ صاروا ١٥,٠٠٠ رجـل أبـيض مقابـل ٤٢,٠٠٠ من العبيد.

وكان الخوف من استقرار الأمن أمرًا محتومًا، وقد عبر حاكم باربادوس عن مخاوفه فى عام ١٦٩٢ من عدم توظيف رجال الحربية المحليـين مـن البيض فى قلاع الجزيرة، وأنه ربما يشجع هذا على ثورة زنجية، وفى الحال

بعد ذلك كشف متآمر مشكوك فيه عن وجود مؤامرة للسيطرة على ترسانة الجزيرة تورط فيها عدد كبير من الرجال الأيرلنديين الذين يثيرون الشغب.

ولقد تكرر النمط الديمقراطى فى باربادوس فى جامايكا وأحدث إزعاجا مشابها حول عدم التوازن العنصرى فى السكان(١١).

وفى عام ١٦٩٠ قام خمسمائة عبد بانتفاضة فى المزارع وسط الجزيرة، حيث قتل عدد كبير من البيض، وبعد القضاء على هذا التمرد أعلن الحاكم فى المجلس الملكى "أن التمرد ربما كان تحولاً دمويًا إذا وضعنا فى الاعتبار عدد الزنوج وندرة عدد الرجال البيض"، وقد شاركه فى هذا الرأى أعضاء مجلس الجزيرة والذى طلب من الحكومة فى عام ١٦٩٧ تجنيد رجال الحرف الفقراء فى إنجلترا؛ لأن عدد الرجال البيض كان نادرًا لدرجة أنهم سيجدون وظائف بسهولة(١٢).

إن رد فعل التشريعات فى الهند الغربية وأمريكا الشمالية لوجود مثل هذه المجتمعات بهذه الأعداد الضخمة من العبيد المتمردين أمر يدعو إلى جنون العظمة، وعبرت هذه المخاوف العميقة عن نفسها فى تلك السلسلة من القوانين التى حدت من أنشطة العبيد وتحركاتهم وأوقعت السلطات بهم عقوبات صارمة، بما فيها عمليات الخصى وحرقهم أحياء، وطبقا لقوانين باربادوس عام ١٦٩٦ والتى تم تطبيقها فى جنوب كارولينا وضعت للعبيد المتوحشين وذوى الطبيعة الشرسة نظم تختلف عن القوانين التى تطبق على البيض وبدلاً من ذلك فقد كانت لهم قوانينهم الخاصة، والتى وضعت بشكل خاص لكبح جماح الذين لا يحترمون النظام والذين اعتادوا على السلب والأعمال غير الإنسانية، والتى كانوا تعودوا عليها ويمارسونها.

كما صدرت تعليمات مشددة للذين يمارسون العلاقات الجنسية بين الزنوج والنساء البيض، وأيضا كانت هناك حاجة إلى وضع تعريف قانونى

للعبودية التى لم تكن موجودة فى بزيطانيا منذ أوائل العصور الوسطى التى يمارسها السيد على عبده[١٣].

لقد كانت مكانة العبد داخل المجتمع الاستعمارى فى قاع القائمة، ومثل الكلب المدلل يدين باسمه إلى سيده، ومن بين أشهر الأسماء خونو، وزباكوس وقيصر وقاشى ومواندى وكوفى ولندن وسامبو، وتعلم العبد أيضا أن يتحدث ويفكر بلغة جديدة وهى الإنجليزية.

وكتب رجل دين من فيرجينيا عام ١٧٢٤ يقـول: "إن اللغـات عنـد الزنوج الجدد متعددة ولها رطانة خشنة، أما هؤلاء الذين ولدوا فى المستعمرة فإنهم يتحدثون إنجليزية جيدة وتؤثر فى لغتهم وعاداتهم وتقاليـدهم" وكـان الاستيعاب محدودًا، وكانت التقاليد والأساطير الأفريقية مستمرة بشكل دائـم فيما أصبح يطلق عليه ثقافة العبيد تحت الأرض.

وأوضح الكشف عن مؤامرة للسيطرة على أنيتجوا عام ١٧٣٦، بـأن ساحرا قد استخدم قوى فيما وراء الطبيعة بتنديد المؤامرات "إننى أخشى من الرجل المطيع (Obey man) الذى أخبر قضاة التحقيق أنه رجل دموى، ولقد عرفته فى بلاد كورمانتي: Cormantee"[١٤].

وليس غريبا أو مدهشا أن يرى واضعو القـوانين الاسـتعمارية، أن انتقال العادات الأفريقية مدمر، وقد تم منع الأفارقة من دق الطبول والنفخ فى الأصداف والاحتفالات ذات الطقوس الدينية. وإخضاع الزنوج، وهذا الأمـر للأمريكيين، وهم أساس النظام الاستعمارى، قد رمز لهذا، رواية دانيال ديفو. "حياة روبنسون كروزو ومغامراته" عـام ١٧١٩ عنـدما وضـع فرايـدى الأميرنديان قدم كروزو على رأسه، واعترف أنه سيده الأعظم، وبالفعل فقد تم إنقاذ حياته، لكن الإشارة صار لها معنى عالمى لقـراء ديفـو، وأيـضا

لأسباب مختلفة: هل هذا القسم من القصة التى تحطمت فيها سفينة كروزو، فى جزيرة بعيدة عن ساحل فنزويلا الحديثة، وتركت هناك. إن منهج الدراسة الوثيقة لحالة ذهنه أثناء نفيه ووصف رد فعله العملى لموقفه حولت الرواية إلى قصة الاستقرار الاستعمارى، وفى البداية كان كروزو وهو ابن تاجر من مدينة هل (Hull) قد صار مقاولا بحريا لديه طموحات لتكوين ثروة من تجارة الرقيق، لكنه أصيب بإحباط مؤقت عندما أخذه القراصنة العرب الذين يعملون فى ميناء سلا (Sale[*]) المغربى أسيرًا.

وقد كانت القرصنة فى البحر المتوسط والكاريبى مخاطرة يومية طوال القرن السابع عشر والثامن عشر وإلى درجة أقل فى القرن التاسع عشر، ففى عام ١٦٩٨ عندما وصلت سفينة يونى كورن (Unicorn) إلى قرب جزر ليوارد (Leeward) تذكر كولين كامبل كيف أن كل شراع رآه فى الأفق أثار مخاوف مباشرة عن القرصنة بين البحارة[٥٠].

وإذا أمكن القبض على سفنهم فإن البحارة والمسافرين يواجهون الموت والاسترقاق أو إذا ظهر أن معهم أموالا فإنهم يدفعون الفدية.

وقد اعترف جون داربى أحد الضحايا الأكثر حظًا الذى قفز من القرصنة من القرصنة إلى حكم جامايكا فى عام ١٦٧٥، كيف أسرت سفينة نيوإنجلاند مراكب القرصنة الهولندية، وكيف وضع على الشاطئ فى ميناء هافانا الإسبانى حيث وجد نفسه فى مبنى قلعة الرقيق التعس بناءً على أوامر الحاكم، وقبل هروبه التقى بقبطان بحرى إسبانى سادى (Sadistic) يدعى دون فيليب فيرجيرالد (من المحتمل أن يكون مرتدا أيرلنديا) والذى أطلق النار وظن رجال البحر الإنجليز من الأسرى، وإذا حكمنا من تقاريره

(*) ميناء صغيرة قرب الرباط بالعاصمة المغربية (المراجع).

الحقيقية على مغامراته، كانت لدى ديربى درجة معقولة من الرواقية التى مكنته من تحمل مساوئ خطته، وحالة مشابهة من الصوفية تطلبها كروزو عندما تحطمت سفينته بعد أن حرره القراصنة، وكان الباقى على قيد الحياة الوحيد من طاقم السفينة واستطاع أن ينقذ مجموعة من المسدسات والبارود والبنادق القديمة والسكاكين والملابس والأطعمة المحفوظة والكحول، وربما الأهم من كل هذا أدوات مثل المنشار وبعض الفئوس من سفينة، وصار مزودا بالوسائل الأساسية من التكنولوجيا الأوربية المعاصرة. ومن ثم أصبح فى وضع شبيه أكثر بالمستعمر التقليدى، وفى نوفمبر ١٦١٠ تم تزويد المستقرين فى كيوبيد كوف ونيوفوندلاند بالبنادق والجبن وبراميل من لحم البيف الأيرلندى ولحم الخنزير وإنجيل وكتاب عن الممارسة العامة للصحة(٢٦).

ولقد كانوا أكثر حظا من كروزو فى أنهم يمتلكون أنثى خنزير مستوردة، والتى لم تكن أنجبت ودواجن وستة رءوس من الماعز، وأيضا أرنبًا وحيدًا، واستطاع كروزو أن يعوض النقص فى هذه المنطقة بالعبيد والألعاب الرياضية وفى بعض الأحيان استئناس بعض الماعز البرى المحلى، وكانت الأمور المرتجلة واستخدام الأدوات البارعة التى مكنت كروزو من فرض إرادته على ما اكتشفه فى جزيرة غير مسكونة موحشة، وبالتدريج أخذ يفحص موارد الجزيرة التى تشمل الجير والليمون والكاكاو ونباتات التبغ والشعير الذى استعاده من حكام السفينة، والذى ألقى بدون اهتمام، حيث بدأت تظهر جذوره، وقد أدهشت فروعه كروزو الذى صار مثل الآخرين الذين استقروا فى الأمريكتين.

وكانت خصوبة التربة بشكل دائم أمرًا مدهشًا فى هذه المنطقة، ولقد كان رد الفعل هو نفسه الذى كان لدى المستعمرين الأوائل الذين شرحوا بعد ذلك الوفرة الطبيعية للعالم الجديد، بحسب شروط الحرارة التى كما كان مفروضا تعمل تشجع الحيوانات لتنمو وتسمن وتنتج سلالات جديدة.

وتوجد بعض العيوب والمعيقات، فلقد استغرق كروزو بعض الوقت لكى يحسب الفصول الصحيحة لزراعة محصوله من الشعير وحصاده، وهنا مثل أمور أخرى تعلم الصبر وتبنى نظامًا معقولا لتسخير موارده، وفى البداية بشكل صحيح سوف يحتاج للدفاع عن نفسه، ولهذا فقد أسس ما أصبح فى النهاية شبكة موسعة من الأوتاد الخشبية حول مسكنه وحول حقول الشعير.

لقد تطلبت هذه الأعمال وغيرها من المهام الأرضية قوة عقلية وجسمانية، وعلى هذا فإن كروزو لم يكن رجل دين لكن من خلال قراءة إنجيله أحاط نفسه بما يسمى "العناية الإلهية" وعندما اقتنع كروزو بالعناية الإلهية اكتشف أنه يستطيع تحمل العزلة والشك وكل الأعمال الصغيرة المثبطة والمضايقة له والتى يواجهها، وفى النهاية توجت هذه الحياة بالظهور المستمر (Carib Indiaens) والذى تم إنقاذ فرايدى ورفاقه من الخدم، وهبوط جماعة من الإنجليز والمسافرين والضباط من سفينة قام بحارتها بالتمرد، وبمساعدة كل من كروزو وفرايدى تم التغلب على المتمردين، وترك الباقون على قيد الحياة فى الجزيرة، وأبحر كروزو مرة ثانية عائدا إلى إنجلترا، وقد أثرى بالعملة وسبائك الذهب التى جمعها وأنقذها من سفينة إسبانية راسية.

وتنتهى العقبة فى عام ١٦٩٤ عندما يعود إلى الجزيرة التى سماها الآن "مستعمرتى الجديدة" وازدهرت المستعمرة بعد أن انقسمت بين الباقين على قيد الحياة من حكام السفينة الإسبانية والمتمردين من البحارة الإنجليز، ورتب كروزو، وهو مستثمر عنيف، امتلاك النساء ورجال الحرف المهرة والماشية والمؤن المستوردة، إن ما يبرز بشكل قوى من هذه القصة أن كروزو وإصراره ورغبته والمثابرة على حل كل النزاعات والخلافات، وهو مجمع قوة روحية داخلية تجعل من السهل عليه أن يقبل مصيره بحسب رغبة الرب مع القدرة على التغلب على بيئته الطبيعية، وذلك باستخدام العقل والعمل الشاق، إنه تجسيد لكل الفضائل المطلوبة للمستعمر.

لقد تأسس أدب ديفو القصصى على الحقيقة، وهناك الكثير من المستعمرين الذين أظهروا بعضا وليس كل صفات كروزو، وأحد الذين أظهروا قدرة على التذكر الملحوظ هو رجل من الشمال يدعى أنتونى هيلتون الذى كان يعمل وكيلا لمجموعة من تجار بارنستابل (Barnstable)، والتى تعمل فى فيرجينيا، وفى زيارة إلى سانت كيتس خلال واحدة من رحلاته عبر الأطلسى تركته مقتنعا أنه قد وجد موقعا مثاليا لمزارع التبغ، ومع بعض الأنصار الذين ضموا بعض الرجال المحترمين من أيرلندا عاد إلى الجزيرة، وسوى الأرض وبنى منازل خشبية، وعندما اجتاح هنود الكاريبى مزارعه انتقل إلى مكان آخر فى الجزيرة، وزرع عدة محاصيل وباع الناتج الذى جناه، ونتيجة لعداء الكاريبى أسرع هيلتون عائدا إلى لندن وأغرى المستثمرين ليدعموه فى مغامرة جديدة فى جزيرة قريبة فى نيفيس (Nevis) وتأسست المستعمرة فى عام ١٦٢٨ وفى العام التالى هاجمها الإسبان الذين دمروا المحاصيل والمبانى وطردوا السكان المستقرين، ولم يعق كل هذا هيلتون الذى أعاد بناء المستعمرة التى ازدهرت بعد ذلك، لقد قلد السير توماس وارنر (Warner) أمر هليتون، وهو جندى جيد ورجل ذكى بشكل غير عادى، وأسس مزرعة فى سانت كيتس عام ١٦٢٤ ووضع شروطا مع رئيس محلى من الكاريبى (Carib) وبنى قلعة خشبية مع فتحات رمى للبنادق، والتى شرحها للكاريبى المتشككين على أنها حظيرة للدواجن. وبعد ذلك عرف أن الهنود يتآمرون لذبح المستقرين، وهاجم الكاريبى أولا عندما كانوا سكارى وقتل رئيسهم أثناء إقامته فى أرجوحته.

لقد كان الأستعمار فى المراحل الأولى كفاحًا من أجل البقاء على قيد الحياة، وكانت أهم أولويات كروزو بناء قلعة صغيرة، وكان دائم الحرص على الاحتفاظ بالبارود، وكانت الإدارة الحكيمة للموارد، والتى تفوق فيها

كروزو هى المهارة الخاصة لتجارته. حسب رأى توماس من إقليم مون (Mun) وهو أحد الداعين الأوائل لفترة الميركانتيلية فى القرن السابع عشر، وهو الوكيل لشركة كنج دم رستوك عن طريق التجارة مع الدول الأخرى وعلى هذا فإن المكسب الخاص يتوافق مع المصلحة العامة، وكانت دعوته سامية، وهناك فوائد أخرى وتكريم أكثر فى حياة ذكية أكثر من الميراث العظيم الذى كان فى طلب الفضيلة(١٧).

وإذا ازدهرت ثروة أى تاجر فإنه يستطيع دون عناء أن يضمن لنفسه ميراثًا ماديًا معقولاً، كما قدم ديفو فى روايته عام ١٧٠٣، (The true-burn English men) وهو يذكر أن الحرفة جمعيا فى إنجلترا أسياد الصناعة اليدوية ورجال معدات جمع الأعشاب، لا تحتاج إلى الأصل فى المولد أو الأقدمية بل إنه المال والحماقة اللتان تصنعان الرجل الشريف وأيضا من الأمور الجيدة، كما فكر الروائى ريتشارد أديسون الذى كتب أنها تخدم رجلا أرستقراطيا مسرفا جدا إذا أجبر على البيع، وترك المجال لتاجر سابق، والذى يستحق المزرعة بشكل أعظم عندما يحصل عليها بالكد والمثابرة.

إن كثيرًا من مهارة التاجر الاستعمارى مثل نظام كروزو يمكن القيام بها بدرجة عالية بالاعتماد على النفس والنظام الذاتى والإخلاص كما جاء فى اليوميات التى احتفظ بها أنتونى بيل (Peele)، وهو رجل حريص وأمين وحاكم المركز التجارى لشركة هدسون بينى ريفر تورت خلال ١٧٠٦، والتى تمثل سجلا لما يمكن أن يكون غالبا الوجود الممل فى منطقة بعيدة جدًا، حيث كان الإحساس القوى بالواجب أساسيا لكى يعيش الرجال(١٨)، وهناك كانت مجموعة من ستة وأربعين رجلا فى المستعمرة المحصنة، وكلهم تقريبا من الحرفيين المهرة، والذين يحصلون على أجور سنوية ما بين عشرين وثمانية وأربعين جنيها.

إن أعلى درجة من النشاط فى العام هى منتصف الصيف، عندما تصل سفن الشركة لتفرغ حمولتها من المواد الغذائية، وتجمع جلود الفراء، وجلود حيوان السندس غير المدبوغ والتى يحضرها الهنود المحليون إلى المركز ويتبادلونها بالسلع المصنعة، ويأتى بعد ذلك الشتاء المتجمد فى التندرا، عندما تكون الحرف الوحيدة هى الصيد البحرى والبرى ولعبة الفخ التى يبدو أنها منتشرة هناك بكثرة.

وتستطيع الكميات الكبيرة من الأغنام والماعز والجبن والحدائق المزروعة باللفت المستورد والفجل والبقدونس والكريز تزويد وجبة غذائية غنية وصحية، وكان الاحتفال بيوم ٢٣ أبريل، وهو عيد الملك مناسبة عاطفية رقيقة عندما يرفع العلم البريطانى، ويحصل كل رجل على زجاجة من الخمر، ويكشف الكتاب اليومى للحاكم بيل أيضًا عن عالم مزدحم من التجارة مع تقارير دقيقة جدًا، والمؤن المصنعة وكميات البضائع التى تم بها المقايضة، والتى تشمل الإبر وسنارة الصيد ومساحيق الأظلاف وخمسين من ريش النعام، والمفترض أنه قد تم شراؤها فى لندن من تاجر يعمل فى أفريقيا، وهو مثال لطيف على التجارة بين المستعمرات، وتتم عمليات التبادل طبقًا لقواعد صارمة، وقد كانت وحدة التعامل هى جلد الحيوان مقابل اثنين من المقصات وفأس صغيرة أو ريشة نعام، وأربعة جلود مقابل جالون من الخمر، وما بين سبع بنادق أو عشر، وهناك مجال آخر للتبادل فى الفراء حيث أربعة جلود من الفرو تساوى واحدًا من الجلد، كما أن اثنين من جلد الغزال واثنين من جلد الدب يساويان اثنين من جلد الحيوان.

لقد عاش كروزو مثل بيل فى عزلة موحشة، وتعد حديقة خضراواته، مثل حقول شعير كروزو، انتصارا بسيطًا، وهناك أمثلة كثيرة حيث انتصر المستعمرون فى البيئات الصعبة، وطوعوها للعمل فى صالحهم وقد قاموا

بذلك للعديد من الأسباب المعقدة، وليس للضرورة فقط، ويعزو الكل فى هذا النجاح إلى تدخل إله عادل منح الثقة والذكاء.

وعندما أبحر الكابتن ليونارد إيدج كومب من لندن إلى خليج هدسون فى عام ١٦٩١ طلب منه مديرو الشركة أن يأمر البحارة بالصلاة كل صباح وكل مساء حيث تتوقع النعم والبركات من الرب العظيم(١٩).

وبعد أربعين سنة كتب مراسل مجهول فى مجلة (National Merchant) عدد يناير ١٧٣٦ يقول:

إننى أنظر إلى مستعمراتنا على أنها نعمة منحها الرب لهذه الأمة، والتى إذا تحسنت بشكل صحيح تجعلنا شعبًا سعيدًا وعظيمًا ومزدهرًا، لكن منح الله يمكن أن تكون مثمرة باستخدام العمل البشرى، وإذا امتلكنا الصفات والإحساس والإصرار الذى أظهره روبنسون كروزو والكثيرون من الخدم الذين يعملون بعقود لأجل محدد والضحايا المخطوفين والعبيد، بالتأكيد لم يستطع هؤلاء الذين عملوا فى المستعمرات حتى نهاية القرن السابع عشر أن يؤسسوا ويبنوا إمبراطورية مزدهرة وسعيدة وشعبًا ينمو بقوة، لم تكن هذه الكلمة فى الاستخدام العام حتى فى القرن الثامن عشر والتى بدأت تحل محل المستعمرات أو المزارع.

ومن الناحية السيكولوجية فإن تغير اللقب مهم ليحمل معه أفكارا عن القوة العظيمة على نطاق عالمى واسع، ومع ذلك فقد ولدت الفترة التى شهدت النمو الأول للمستعمرات البريطانية بذور الوطنية الواثقة من نفسها والروح العدائية والتى ازدهرت خلال القرنين التاليين، وسهلت التوسع الاستعمارى.

لقد علم التوسع الاستعماري في القرن السابع عشر البريطانيين كيف يكونون أموالا وثروات فيما وراء البحار، وأعطى الحافز لأفكار عن المصير القومي، وتفويض من اللـه للمستعمرين، وولد النماذج الأصيلة مثل روبنسون كروزو الذي صور ما يمكن أن ينجزه الرجال من طاقة وإخلاص.

لقد انتهز ما تم إنجازه الأجيالُ المتعاقبة التي حاولت أن تجني ذاكرة مؤسسي الإمبراطورية في الخيال، وأن تزود كل الرجال بصفات لم يمتلكوها قبل.

وخلال التوسع الأخير للعصر الفيكتوري لبناء الإمبراطورية أمكن إعادة رواية قصص المستقرين والبحارة في القرنين السادس عشر والسابع عشر بشكل ضخم؛ لكي تلهم الشباب ليجدوا أمثلتهم، أمثال دريك ومورجان والرواد الأمريكيين الذين حباهم اللـه بمثل هذه الفضائل المعاصرة كالرجولة والشجاعة والتحمل ورفاق السلاح، وحب المغامرات في حد ذاتها، والسعي الحقيقي للأرباح والتي لم ينس أحد روايتها.

وإن كان هذا تحريفًا للرجال ودوافعهم فإنه كان جذابًا وأعطى فرصة جديدة للعيش من خلال دوافع هولي وود ودوافعه المتهورة، والتي ترنح فيها قباطنة القرصنة المندفعون بعنف من حبال الشراع مع ابتسامات مرحة على وجوههم.

بحماسة أكثر جدية درس المؤرخون الأمريكيون بدقة عالم المستعمرات الأولى ليجدوا الدليل الذي يؤيد نظرياتهم، والتي تأصلت فيها الآراء الاجتماعية والنظم السياسية اليوم في نظريات المستقرين الأنجلو سكسون وسلوكهم، أكثر من التجربة الأخيرة عن الحدود أو الازدواجية الأخلاقية المتعددة التي صاحبت الهجرة الجماعية في القرن التاسع عشر.

إن ما تم الكشف عنه ليس مدهشًا، بل نظرة غبية ومتعددة وحافز بين المستقرين، وإذا ربطهم أى شيء معًا فإن هذا كان دافعا مشتركا نحو التحسين الذاتى، ممزوجا بإصرار السيطرة على بيئتهم.

الجزء الثاني

الإصرار والغزو

(١٦٨٩ - ١٨١٥)

(١)
حكم المناطق الرئيسية
تكوين القوة البحرية البريطانية
(١٦٨٩ـ ١٧٤٨)

في نحو عام ١٧٠٥ رسمت صورة زيتية كبيرة على سقف مدخل السلم الرئيسى فى منزل المندوب السامى فى تشاتام دوكيارد، وهى مزخرفة بشكل غريب ومتميزة فى طابعها، وفيها يتسلم الإله مارس تاجا الأصداف من نيبتون بينما توجد فى الخلفية أشكال رمزية للسلام والرخاء والعدالة والإحسان، والشكل كله قصته رمزية لبريطانيا، وهى دولة مزدهرة وعادلة وأمة مسيحية تنمو بقوة فى ظل حماية حكام المحيطات، لكن الذى يبهر الناظرين بشكل قوى الهيكل العظيم لنيبتون الذى جسدوه على أنه رمز لسيادة الأسطول البحرى الملكى على البحار.

لقد فهم أعداء بريطانيا هذه الإشارة الضمنية، وفى عام ١٧٧٥ علق مسئول رسمى فرنسى وهو يندم على نمو القوة البحرية البريطانية بقوله (لقد أصبح الرمح الثلاثى لنيبتون صولجان العالم)[١].

ولقد تم تنفيذ الصورة الزيتية لتشاتام خلال المرحلة الأولى لسلسلة من حروب كونية ضد فرنسا، والتى بدأت فى عام ١٦٨٩ واستمرت حتى عام ١٧٨٣، وهذه الحروب هى حروب السنوات التسع (١٦٨٩-١٦٩٧) وحرب الوراثة الإسبانية (١٧٠٢-١٧١٤) وحرب الوراثة النمسارية (١٧٣٩-

١٧٤٨) وحرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) وحرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٥- ١٧٨٣) والتى تدخل فيها الفرنسيون عام ١٧٧٨، مما أضاف لأكثر من أربعين عاما من القتال تكون ثقافتين متوازيتين إحداهما اندلعت لمنع فرنسا من فرض سيطرتها على أوربا ، والأخرى لتوسيع المستعمرات والتجارة البريطانية فيما وراء البحار على حساب فرنسا وإسبانيا، وظهرت كل من بريطانيا وفرنسا كأعداء غير متساوين على السطح.

وفى عام ١٧٠٠ كان عدد سكان فرنسا ٩,٢ ملايين نسمة، وفي عام ١٧٨٠ وصل العدد إلى ٢٥,٦ مليون بينما ارتفع سكان بريطانيا من ٦,٩ إلى تسعة ملايين، وقد زادت الخارجية البريطانية فى ١٧٠٠ من ٩ ملايين جنيه إلى ٢٢ مليونا و٢٣ مليونا على التوالى، أثناء السنوات الثمانى التالية، وكان لكل دولة قرن من المنافسة والحرب المتقطعة وأيضا فترة من النمو الاقتصادى المنتظم.

وتعد هذه الأرقام خادعة بحسب الموارد المتاحة للحرب خصوصًا الدين العام. وكانت بريطانيا دائما السلطة الأقوى لأنها فى أوقات الأزمات استطاعت أن تدبر كميات ضخمة من المال دون اللجوء إلى الضرائب الإضافية، وكانت الطريقة البريطانية للإنفاق على الحروب إجراء استثنائيًا أدخلته فى عامى ١٦٩٢،١٦٩٣ عندما ظهر أن الترتيبات الموجودة للحصول على قروض كانت على حافة الانهيار، وبعدها انتهجت الحكومة الإجراء المناسب فيما عرف باسم الدين القومى. حيث تم استدعاء المؤسسات والأفراد لإقراض المال للحكومة فى مقابل سندات حكومية تدفع سنويًا على أقساط. وتلقى المستثرون مصادر معقولة من الدخل ووجدت الحكومة السبيل التى استطاعت بواسطتها تزويد الجيوش والاساطيل عند الحاجة، ولقد أضافت كل حرب الى الديون، ففى عام ١٧٥٧ وصلت إلى ٥٧ مليون جنيه، وفى

عام ١٧٨٧ وصلت إلى ٢٤٠ مليون جنيه. وفى هذا العام بلغت مدفوعات فوائد الخزنية ٩,٤ ملايين جنيه، وهو مبلغ ضخم على دولة دخلها السنوى من الضرائب والرسوم الجمركية نحو ثلاثة عشر مليون جنيه، ومع هذا فإن أعباء خدمات الدين القومى كان أكثرها ما يعوض مزايا تقدمها إلى رجال الدولة البريطانية وقوادها حيث حررتهم من قلق الرأى العام والذى ربما كان رد فعله ضروريًا للضرائب الطارئة والرسوم الإضافية على الجمارك التى تضر بسهولة التجارة وتحدث التضخم.

ولقد كانت الوحدة بين الطبقات السياسية حيوية لأى جهد حربى، وكان هذا ممكنا فقط إذا وضع وزراء الملك فى الاعتبار الرأى العام الذى تم التعبير عنه فى البرلمان والصحف والمجلات.

وقد أحدث عزل جيمس الثانى عام ١٦٨٨ وتولى العرش وليم أورانج وزوجته مارى (نائب الملك) فى عام ١٦٨٩ تغييرًا يتعذر تجاهله فى موازين القوى بين التاج والبرلمان.

وفيما سُمى بالثورة المجيدة لعامى ١٦٨٨، ١٦٨٩ وضعت سلطة تنفيذية فى يد وزراء الملك الذين اعتمدوا بدورهم على تأييد غالبية أعضاء مجلس العموم، وكانت العملية الحقيقية التى مارس فيها الوزراء مسئولياتهم الجديدة تدريجيًا، وطوال القرن الثامن عشر واصل التاج ممارسة نفوذ معقول على رسم السياسة.

إن المهم هو أن الملك والوزراء لا يمكنهم تجاهل صوت مجلس العموم، وهو المجلس الذى يتحدث أعضاؤه من أجل مصالحهم الخاصة وما يرونه فى صالح الوطن، وكانت الأرض الاهتمام الأكبر المشترك بين مجلس

العموم واللوردات، ولكن لم يتمتع بسيطرة كاملة. وكان هدف الأرستقراطيين وملاك الأراضى الحقيقيين فى الريف أن يشاركوا السلطة مع التجار وأصحاب السفن ورجال المال من مدينة لندن، والتى تطورت منذ تسعينيات القرن السابع عشر بسرعة، باعتبارها مركزا للتعامل فى الأوراق المالية. بالبنوك والتأمين البحري، وكان هناك حضور قوى فى كلا المجلسين لرجال لهم مصالح استعمارية مباشرة وغير مباشرة مثل أصحاب المزارع، والتجار الهنود الرسميين، ومديرى شركة الهند الشرقية وضباط الأسطول والجيش، والذين قدم منهم ثلثمائة فى البحرية من أعضاء البرلمان بين أعوام ١٧٥٤ و١٧٩٠ واستطاعت المصالح التجارية والاستعمارية أن تمارس ضغطا قويا على وزراء الملك الذين تجاهلوها فى محنتهم.

وعلى العموم فإن اللوبى الاستعمارى والتجارى تبنى بشكل متكامل سياسات عدوانية ضد فرنسا وضد سياسات إسبانيا، ولقد فعلوا ذلك لأنهم اعتبروا أنهم يخدمون المصالح القومية والحروب التى انتهت بضم المناطق التى قدمت فرصا جديدة للتجارة فيما وراء البحار والاستثمار، كما ذكر جورج الثالث فى مجلس العموم فى خطابه على العرش فى عام ١٧٦٢:

" لقد ازدادت مناطق توسعي وأصبحت هناك موارد جديدة مفتوحة أمام التجارة والصناعة، "كما حفزت الحروب الإنتاجية المحلية خصوصًا بناء السفن وتوسيع الصناعات المعدنية فى ميرلاند وبرمنجهام وصناعة السيوف والبنادق التى جهزت قوات شركة الهند الشرقية".

وأدى توسع التجارة إلى زيادة فى دخل الجمارك التى أرضت طبقة أصحاب الأرض ووفرت زيادات فى ضرائب الأرض، ففى خلال القرن الثامن عشر ظهر تناغم مهم فى المصالح بين الطبقات النشطة سياسيًا بصرف النظر عن الانضمام إلى أحزاب الهويج أو التورى، فقد اعتقدوا أنه

من الضرورى ومن المرغوب فيه لبريطانيا أن تذهب إلــى الحــرب لكــى تصبح أكثر ثراء وأن تؤكد سيادتها على البحار.

ولم يعارض أحد فى الزيادات فــى التــصويب الــسنوى للميزانيــة أو أرصدة الأسطول، والأهم من ذلك كان الدين القومى يعنــى أن سياســة خارجية حربية لم تحدث أى إزعاج أو غضب لدافعى الضرائب أو رجــال الأعمال أو أصحاب المصانع.

وكانت فرنسا أقل حظًا عندما أقدمت على شن الحرب، حيث كان من المستحيل على حكومتها أن تسخر مواردها الوطنية بشكل فاعــل، ويرجــع الأمر فى ذلك إلى نظام التمويل الشعبى الذى صار متحجرا وغيــر كــاف تماما.

وكان رجال الدين والطبقة الأرستقراطية يتمتعون بإعفاء من الضرائب الكلية، وكانوا يدافعون بقوة عن امتيازاتهم، وكانت النتيجة أنه عند حــدوث حالة طوارئ قومية لم تجد الحكومة خيارًا سوى اقتــراض الأمــوال مــن الأسواق المالية، وأن تعيد دفع سلف وفوائد من الضرائب المتزايــدة، ويقــع عبء هذا الأمر بشكل أكبر على الواردات والصادرات والصفقات المحليــة التجارية، وكان لها تأثيرها على التجارة.

وفى عام ١٦٩٧عندما كانت فرنسا تواجه استنزافًا اقتصاديا بعد حرب السنوات التسع، تعجب رجل فرنسى حاقد قائلا: "لماذا وهى دولة أفقر تحتمل عبء ديون أكبر مما نحتملة" وتم طرح هذا السؤال مرات ومــرات وفــى القرن الثامن عشر، وفى بريطانيا أولت الحكومة اهتماما عميقا للحــد مــن أوجه الإنفاق المهدرة والديون التى فات موعد استحقاقها للفرنــسيين لكــى يصلحوا جهازهم المالى، وقد تم إعداد تقارير عن تفاصيل الإصلاح المقترحة

خلال عام ١٧٧٥ مع بعض الاستخبارات الاقتصادية إلى لندن من خلال جواسس التجربة الباريسية أو المراسل (مثل ما كان هؤلاء يسمون آنذاك)[٢].

ولم يضمن عدم التوازن بين الموارد الفرنسية والبريطانية النجاح البريطاني الآلى بعيدًا عنها، وطوال هذه الفترة استطاعت فرنسا تأسيس جيش قوى، وعندما تطلب الأمر ظهر أسطول قوى مع عدد ضخم من القوات الخاصة التى أزعجت التجارة البريطانية، وعلاوة على ذلك فإن ذلك كان صراعًا دائما لصفوة الوزراء الذين خططوا ورسموا الإستراتيجية البريطانية إذا تحالفت فرنسا مع إسبانيا، وبعدئذ تستطيع أساطيلهما المشتركة قلب الموازين البحرية، وفى هذا المجال لن تستطيع بريطانيا أن تكون قوية فى كل مكان، وتستطيع الحكومة مواجهة اختيارات غير مربحة عن مكان تركيز سفنها والمكان الذى يسمح بالسيادة لأعدائها.

ولقد تمت مواجهة هذه المحنة فى عام ١٦٨٩ عندما كان الهدف الرئيسى للويس الرابع قلب نظام حكم وليم الثالث وعودة جيمس الثاني، ومن ثم كسر الجبهة البريطانية الهولندية التى وقفت فى طريق سياسته التوسعية فى أوربا.

وحسب أعداد السفن استطاعت فرنسا تحدى القوتين فى القناة الإنجليزية؛ لأنه منذ أوائل ستينيات القرن السابع عشر استطاع وزير لويس جين بابتست كولبير أن يخطط لسياسة عبقرية فى إعادة تسليح الأسطول، ورجلاً ميركانتيليًا كانت لديه رؤيا عن مستقبل فرنسا باعتبارها قوة استعمارية تجارية، والتى مثل بريطانيا سوف تستمد قوتها من التجارة الدولية، وكان سنده أكثر تقليدية حيث فضل لويس أن يوجه طاقات أمته لبناء فرنسا الموسعة تدريجيا، والتى تجاور حدودها الأراضى المنخفضة ووادى

الرين (Rhin) ولقد أظهرت محاولة الفرنسيين لقلب نظـــام حكـــم ولـــيم وعـــزل بريطانيا عن تحالفها مع الأراضى المنخفضة الفرص الضائعة وسوء الإدارة، ولقد كان أقوى تأييد كاثوليكى لجيمس الثانى بين الغاليين الـــذين يتحـــدثون الأيرلندية الكاثوليكية، ولكن الحملات فى أيرلندها تتطلب اختراقا منتظمًا من الرجال الفرنسين وتجهيزاتهم. وما بين عـــامى ١٦٨٩ و الفرنـــسيون ١٦٩٠ كانت هناك حملتان فرنسيتان إلى أيرلندا، ولكن لـــم يعترضـــهما الأســـطول الملكى بقوة، وكان رد الفعل الأنجلوهولندى الأساس لهذا التهديد مرتبكًا. وفى يونيه ١٦٩٠ ضاعت السيطرة على القناة مؤقتـــا، ولـــم يبـــذل والأســـطول البريطانى فى بيشى هند (Beachy hend) أى محاولة لمواجهة هذه القوة، وفـــى عام ١٦٩١ فقد الأسطول المبادرة ولم تحدث أية حملات أبعد لأيرلنـــدا حيـــث انخفضت قضية جيمس الثانى حالاً وشهد عام ١٦٩٢ الأســـطولين البريطـــانى والهولندى وهما يضمان اليد العليا بانتصارين فى بارفلير(Barfleur).

وفى شهر مايو، وعندما فقد أسطول فرنسى اثنتى عشرة مقاتلـــة أو مـــا يعادل ربع قوته ولم يستطع الأســـطول الفرنـــسى هوجـــل (higue) إرضـــاخ الأسطول البريطانى، وأدراك لويس أن الإنفاق الأكثر على السفن لم يحقق سوى عائد بسيط منخفض (وكانت النتيجة أن خفضت الميزانية البحرية بنحو الثلثـــين) وصار أسطوله بالفعل تحت السيطرة بسبب النقص الدائم للتجار المهرة.

فى عام ١٦٨٥ ألغى العمل برسوم التـــسامح الـــدينى للبروتـــستانت. (Edict of Nantes) نانت واختار آلاف البحارة من موانىء فرنسا الأطلسية، حيث كانت البروتستانتية قوية، وكان الكثيرون منهم قد جاءوا من إنجلتـــرا. ولعدة سنوات قادمة كان على الأسطول الفرنسى أن يعتمد على رافـــد قليـــل نسبيا من البحارة المدربين(٣).

ولقد ساءت الأحوال بعد عام ١٦٩٢، وساءت مرة ثانية فى سبعينيات القرن الثامن عشر وبالسياسة الرسمية للإبقاء على الأساطيل فى الموانئ التى حيث حرمت بحارتها من التجربة القيمة فى البحر. بعد عام ١٦٩٢ ابتعد الفرنسيون بحكمة عن أعمال الأسطول، وتحولوا بدلاً من ذلك إلى حرب الغارات التجارية والتى كان القصد منها تقليل التجارة الهولندية البريطانية وعرقلتها.

وبرغم حفنة من القيادات المتهورة أمثال جين بارت، فإن هذه الحرب الضروس قد فشلت فى النهاية فى تحقيق النتيجة المتوقعة، ومع هذا فقد كانت هناك صدمة عنيفة للحلفاء، فما بين (١٦٨٩-١٦٩١) أجبر الضغط الفرنسى فى المياه المحلية الأسطول الملكى على سحب وجوده فى البحر المتوسط مما أدى لتدمير التجارة البريطانية مع إيطاليا والليفنتانت.

وفى عام ١٦٩٣ جرت محاولة لإعادة تأكيد القوة البحرية البريطانية فى البحر المتوسط، وانتهت بكارثة عندما تمت مهاجمة مجموعة من أربعمائة من التجار كانوا يعملون فى خليج لاحوس فى جنوب البرتغال حيث، فقدت مائة سفينة، ولكن مرة ثانية اختار الفرنسيون ألا يستغلوا نجاحهم، وخلال عامى ١٦٩٤، ١٦٩٥ ظل الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط مركزًا فى ميناء طولون، وواصل أعداءه البقاء فى هذا البحر.

وكانت العمليات البحرية محدودة خارج أوربا. ففى ذلك الوقت لم تكن التجارة الفرنسية فيما وراء البحار كبيرة إلا أن هذا لم يمنع صدور خطابات رسمية لمهاجمة سفن (kidd) وتوقيف مراكب القرصنة البريطانية بما فى ذلك سفن الكابتن كيد.

وفى عام ١٦٩٤ أبحر أسطول من ثماني سفن قوية من السفن الحربية إلى جزر الهند الغربية ومعه أوامر لاعتراض التجارة البحرية الفرنسية وشن الغارات على الجزر الفرنسية وحرق المزارع، وقد أحدث هذا خسائر فادحة، لكن حالة من الفساد العنيف وغير العادى صدمت البحارة فى هذا الأسطول الصغير وأودت بالحملة إلى نهاية غير سارة.

وهكذا مات الكثيرون من البحارة على متن إحدى السفن، ولم يبق عدد كاف لقيادتها والسيطرة عليها بشكل سليم وغرقت على سواحل فلوريدا.

ولم يكسب أحد الجانبين ميزة حاسمة فى البحر ما بين أعوام ١٦٨٩ - ١٦٩٧، برغم أن الحلفاء قد ادعوا بعض الرضا والارتياح بأنهم أنهوا التحدى الفرنسى فى القناه والبحر المتوسط. وفى البر كانت القضية متشابهة وكان الطرفان منهكين من الحرب ولجأ إلى السلم(٤).

وفى الحقيقة كانت هدنة لأن لويس من خلال الاستفادة الدبلوماسية قد ضمن فى عام ١٧٠٠ ما حققه من اتحاد فرنسا مع إسبانيا، لكن لم يكن من المعقول أن بريطانيا تستطيع التوقف وتسمح لفرنسا بالاستيلاء على إسبانيا ومناطق نفوذها فى إيطاليا، والأهم من كل هذا إمبراطوريتها عبر الأطلسى ومنذ البداية كان لويس مصرًا على احتكار كل التجارة الإسبانية، والتى كان لا بد من استبعاد كل من بريطانيا وهولندا منها، وكان تحقيق هذا كارثة لبريطانيا حيث ستفقد الأسواق السيادة فى البحر، وسوف تنتقل إلى الأسطول الفرنسى الإسباني، وبدأت الحرب فى عام ١٧٠٢ مع بريطانيا باعتبارها المسئولة عن تحمل نفقات التحالف الكبير الذى يضم الأعضاء الآخرين مثل الأراضى المنخفضة والنمسا وبروسيا، وكلهم يريدون مقاومة السيطرة الفرنسية فى أوربا، وقامت المعارك الحاسمة فى حرب الوراثة الإسبانية على البر، وقاد الجيوش جون تشرشل ودوك مارلبورو.

وكانت معظم الجيوش تحت قيادته سواء من البريطانيين أو الهولنديين أو الألمان ويحصلون على رواتبهم من بريطانيا، والتى كانت فى عام ١٧١١ تضم ١٧١,٠٠٠ رجل فى قائمة الدفع، وقد دفعت البحرية البريطانية وحدها جزءا خارجيًا فى هذا الصراع الذى لم يشهد أى أعمال حاسمة للأسطول على نطاق كامل، ورغم هذا حسب الاستخدام المستقبلى للأسطول جلبت الحرب تجارب ودروسا مفيدة.

ومنذ البداية كانت الإستراتيجية البريطانية تهدف إلى القضاء على القوة الإسبانية الفرنسية فى البحر المتوسط، وهذا يتطلب الحصول على قاعدة بحرية فى المنطقة تمكن رجال الحرب من التسلح والتزود بالمؤن والفحص بعناية بدون الاضطرار إلى الإبحار خلفاً إلى الموانئ فى بريطانيا، ولهذا الغرض تم احتلال جبل طارق، ووقع فى قبضة هجوم مضاد من فرنسا وإسبانيا.

وفى عام (١٧٠٢-١٧٠٤) أدركت المياه ميوركا (Malhon) بمينائها العميق وميناء مالهونا.

وقد تم احتلاله فى عام ١٧٠٨ ولقد كان الحصول على هذه المناطق ذا أهمية كبيرة لأن الأسطول البريطانى يستطيع أن يتمركز فيها بصفة دائمة فى البحر المتوسط، ويمارس النفوذ البريطانى سيطرته على دويلاته البحرية الصغيرة.

وباعتباره رمزًا لوضع بريطانيا الجديدة ومكانتها فى هذه المنطقة أبحر الأدميرال أستيركلوسلى شوفيل بأسطوله إلى غربى البحر المتوسط عام ١٧٠٣ لكى يظهر للحكام المحليين أن بريطانيا قد أصبحت الآن قوة يعترف بها، وقد تأثر أحدهم وهو دوق سافوى لدرجة أنه غير مواقفه وانضم إلى التحالف الكبير(٥).

وبسرعة أمكن فهم القيمة العظيمة للأسطول، ومن عام ١٧٠٨ لاحظ دوق مانشستر سفير الملكة إلى البندقية الرأى غير المتعاون للبابا بقوله: "أتمنى أن يقوم أسطولنا بزيارة له حتى يعرف مدى عظمة ملكة بريطانيا".

لكن هذا العرض لم يكن مطلوبًا فى عام ١٧٠٥ حيث تم احتلال برشلونة بعد هبوط برمائى، وبعد ثلاث سنوات حدث هجوم مماثل على طولون وأحدث دمارًا شديدا للأسطول الفرنسى الراسى هناك.

لقد كانت هذه المشروعات جزءًا من إستراتيجية أكبر، والتى تبناها مارليبورو بحرارة، وهى التي، ساقت فرنسا إلى شطر قواها الأرضية، وإلى تهديدات فى أوربا الجنوبية، بما فيها قيام جيش تحت قيادة اللورد بيتربورو لغزو إسبانيا ذاتها، ولم يكن من الممكن لحملة مثل حملة ولنجتون بعد قرن أن تجد مساندة دون سيطرة الأسطول الملكى للمحيط الأطلسى والبحر المتوسط، أما فيما وراء المياه الأوربية فقد قام الأسطول الملكى بسلسلة من العمليات على نطاق ضيق ضد السفن الفرنسية الإسبانية والمستعمرات مع تحقيق نتائج مختلطة، ولقد أبحر أسطول صغير تحت قيادة نائب الأدميرال جون بنهو، وهو ضابط شجاع عنده عزيمة وإصرار، إلى جزر الهند الغربية وبشدة هزم أسطولاً فرنسيًا بعد اشتباكات لمدة ستة أيام بعيدًا عن سانتا مارتا وذلك فى أبريل ١٧٠٢، وتبع ذلك ما صار قولاً مأثورًا عند نلسون أن الضابط الذى يهاجم عدوه بدون تردد لا يرتكب خطأ.

وقد قام بنهاو بالهجوم، ولكن عزله أربعة من قياداته الفرعية السبعة وفى نهاية العملية أدت طلقة إلى فصل رجله اليمنى، لكنه بقى على سطح مؤخرة المركب فى سرير أعد بسرعة وواصل مباشرة القتال، وبعد بتر ساقه مات بسبب الحمى بعد عدة أشهر.

وبعد ذلك تمت محاكمة اثنين من ضباطه الجبناء عسكريًا، وأطلق النار عليهما فى الوقت الذى عاش فيه بنهاو فى أغنية شعبية قصيرة كمثال ذهبى على عناده، وشعوره بالواجب، وروح القتال التى توقعتها بريطانيا من بحارها، وكانت الرغبة تقول:

فقد بنهاو الشجاع ساقيه بقذيفة

فقد بنهاو الشجاع ساقيه بقذيفة

بنهاو الشجاع فقد ساقيه

ويستمر فى القتال يا أيها الصبية لكن باعتماد على أعضائه الباقية الإنجليزية انه قدرنا، إنه قدرنا.

لقد وضحت فضائل بنهاو عند مؤخرة الأسطول السير وتشالز واجار الذى قابل أسَطول ثروات إسبانى بعيدًا عن بورتو بيلو فى مايو ١٧٠٨ وبرغم تخلى عنه اثنين من قياداته الجبناء عنه، اتجه مباشرة إلى العدو وأطلق على جوانب الأسطول النار، وأغرق إحدى المقاتلات الحربية التى كانت محملة بسبائك الذهب وعرقل الأخرى، ولقد تم حفر لوحة رخامية تعبر عن المعركة وضعت بعد ذلك على مقبرته المزخرفة بشكل متوهج في دير وستمنستر آبى (Westminster Abbey) على أن تحطم جزء من السفن وكذلك الاستيلاء على أسطول آخر محمل بالكنوز فى فيجّو على ساحل البرتغال فى ١٧٠٣ مما أدى إلى عرقلة جهود فرنسا والبرتغال الحربية؛ حيث استخدمت سبائك الفضة فى سك العملة التى سكت فى فيجو جهود الحرب الفرنسية الإسبانية.

على أن أسهل ما يمكن أن ينساه الحلفاء الذين احتفلوا بشكل طبيعى بمثل هذه الانقلابات هو، أن كل السفن التى تحمل المعادن النفيسة من أمريكا الإسبانية قد وصلت إلى الأماكن المتجهة إليها.

وفى هذا كان من الواضح فى عام ١٧١٠ أن الطرفين متساويان برًا، وأن فرنسا قد تأخرت فى النواحى الدفاعية وقريبة من الإفلاس، وأنها حوربت حتى نقطة التوقف.

وفى بريطانيا انتهجت وزارة روبرت والبول الجديدة إستراتيجية كما هو مخيل سوف تضع مزايا الدولة فى شكل مستعمرات فرنسية مهزومة.

لقد تمت عمليات الهجوم البرمائى ناجحة على المستعمرات الفرنسية فى نوفاسكوشيا ونيوفوندلاند. وانحرف مشروع طموح للاستيلاء على كويبك فى عام ١٧١١ بسبب التخطيط السيئ، والجهل بالضباب والمياه الضحلة فى نهر سانت لورانس، باستمرار الاستقلال الإسبانى أوترخيت (utrecht) وتمت مكافأة سانت لورانس، واعترف بالصلح الذى تم فى عام ١٧١٤ فى أوترخيت بحق.

أكدت إنجلترا سيادتها بجبل طارق وميكوركا كما أكدت سيادتها فى البحر المتوسط ونوفا سكوشيا، ومنح الأسينتو (asiento) شهادة رسمية تسمح بقيام سفينة واحدة سنويا للتجارة مع مستعمرات أمريكا الإسبانية، وسجلت الحرب لبريطانيا فى هذا العصر على أنها قوة أوربية كونية.

وهى تعتمد فى كل شىء إلى أساطيلها التى تضم مائة وأربعًا وعشرين سفينة، وهى تساوى تقريبا ضعف القوة لدى الأساطيل الإسبانية الفرنسية، بينما ضعفت قوة أعدائها والهولندية بعد اثنى عشر عاما من الصراع، وبالفعل ازدادت التجارة البريطانية فيما وراء البحار.

لقد كان هذا الإنجاز إلى حد كبير نتيجة قانون الملاحة الذى يحدد للأسطول وضع الحروب لحماية التجار ضد القراصنة الذين يشنون غارات على التجارة، وهى مهمة شغلت بنهاية الحرب ثلثى قوة الأسطول.

لقد تمتعت بريطانيا ومستعمراتها من ١٧١٤ إلى ١٧٣٩ بفترة من السلام والاستقرار الداخلى والقوة الاقتصادية، وكانت العلاقات مع فرنسا ودية فى الظاهر، لكن كثيرا من الفرنسيين كانوا يدركون عمق الطموحات الكونية البريطانية.

"إن القوة المالية للإنجليز تزداد كل يوم طموحا" كما لاحظ مسئول رسمى فرنسى فى عام ١٧٣٣، ويبدو أنه كان يوازن لكى يطفئ تجارة دولته المتوسعة.

وعلى هذا كانت المنافسة التجارية بين الدولتين حادة خصوصا فى أمريكا الشمالية والكاريبى، وعلى الساحل الشرقى من الهند حيث كانت فرنسا توسع شبكة مراكزها التجارية خشية الخوف من شركة الهند الشرقية البريطانية، ولقد كان التوسع الإسبانى المزدوج أكثر من الخوف من المشروعات الفرنسية، وهو الذى أدى إلى الحرب فى نوفمبر ١٧٣٩، وطوال السنوات الخمس الماضية كانت السلطات الإسبانية فى أمريكا قد تدهورت بسبب ما اعتبروه سوء استعمال التجار البريطانيين للعقود الرسمية، وكانت محاولات ضباط الجمارك للقضاء على تدفق السلع المحرمة دوليا قد أدت إلى حوادث عنيفة، عندما كانت السفن البريطانية تفتش، وفى حالات كثيرة يتم القبض على حملاتها وقيادتها. ومن أشهر ضباط الجمارك المتحمسين، وممن أمكن الحصول عليه من السجلات الكابتن جيكنز فى السفينة ربيكا.

والظن أنه قد أخذ الآلة الموسيقية (الأرغون) إلى جورج الثالث بلهجة كانت قاسية لدرجة أنه لا يمكن ترديدها فى مجلس العموم، وعندما ناقش أعضاء البرلمان هذه الواقعة وغيرها من أعمال الهجوم الوحشى فى مارس ١٧٣٩، ارتفعت أصوات أصحاب المصالح التجارية البريطانية عبر الأطلسى معترضة للدمار المتوقع إذا لم تتعلم إسبانيا درسا قاسيا.

لقد انخدش حياء الكبرياء القومى، وقارن أحد الأعضاء بين "الرضوخ الوضيع لبريطانيا العظمى وعناد الإسبان وغطرستهم".

وهناك مبدأ عريض فى هذه المباراة وهذا السياق، حسب قول وليم رئيس الوزراء المقبل:

"إنه من العبث أن نتفاوض ونعقد معاهدات إذا لم يكن هناك كرامة وحماس للإجبار على تنفيذها"(٦).

وكان واضحًا على الأقل من وجهة نظر مجلس العموم أن إسبانيا قد فشلت فى الحفاظ على التزاماتها تجاه بريطانيا، وعلى هذا يحتاج الأمر إلى تذكيرهم بطريقة سوف تمنع تكرار ذلك فى المستقبل.

وكان الأسطول هو الوسيلة الواضحة لإجبار إسبانيا على معرفة تبعات حماقة التدخل فى أمور التجارة البريطانية، وتولد مبدأ الاستخدام الصحيح للقوة البحرية الذى صار بعد عدة مرات من التطبيق يعرف باسم دبلوماسية القارب المسلح.

ولم يهتم مؤيدو الحرب للاستخدام الجراحى للقوة البحرية لمعاقبة الإسبان، وكانوا يريدون عودة حملات دريك ومورجان وسفنهم الحربية العائدة إلى موانئ بريطانيا محملة بالفضة والذهب من الهند الإسبانية. وإذا لفتنا النظر إلى وجود أعداد كبيرة من الجيش وضباط الأسطول بين هؤلاء الذين ينادون بالحرب أمثال هنرى بلهام، العضو الذى صار رئيسا للوزراء عن ولاية سوسكى فى عام ١٧٤٤، وحيث استعاد كيف كان الضباط والبحارة هم الكاسبين، ولكن الجمهور لم يكن كذلك(٧) وكان على حق، وكان بريقًا. فى برلمان ولاية سوسكس المنقرون دون عامة الشعب.

ومن المحتمل أنه كان على حق، حيث كان بريق الجوائز المالية قويًا مثل السعى نحو الإبقاء على الكرامة الوطنية.

وبرغم شكوك رئيس الوزراء السير روبرت والبول، فإن دعاة الحرب ومؤيديهم من أعضاء البرلمان وجدوا طريقهم فى الصحافة والمقاهى فى لندن وبدأت الحرب وسط موجة من الغضب، وقررت بنفسها سلسلة من الضربات التى تمت بعشوائية ضد التجارة والإمبراطورية الإسبانية.

وفى الحال أعلنت الحرب رسميا وأعلن الأدميرال إدوارد فيرنون باعتباره عضوا فى البرلمان احتلال الإمبراطورية الإسبانية الأمريكية والقضاء عليها، وتولى قيادة أسطول يحمل أوامر بالتعرض لتجارة الإسبان ومستعمراتهم فى الكاريبى.

وبدأت الحرب بغارات هدفها تشجيع السيطرة على بورتو بلو على ساحل كولومبيا الحديثة، وهافانا وخليج كوبا خلال العامين، كما تم شن هجمات أكثر على قرطاجنة (Cartagena)، لكن أمكن صدها بدموية، وفى نهاية عام ١٧٤٢ تبخرت آمال الانتصارات السريعة والمفيدة.

ومنذ البداية حدث خلل وتصدع فى الإستراتيجية البريطانية، ولكى يكون هناك أى فرص للنجاح فإن الهجوم على المعاقل القوية للإسبان فى الأمريكتين يتطلب عزلهما، ولكى يتحقق ذلك كان لا بد من إغلاق الموانئ الإسبانية الأطلسية.

ولكن صعوبات العمليات الحربية كان معظمها فى عدم كفاية التسهيلات فى القاعدة فى جبل طارق، حتى يستطيع أسطول البحر المتوسط إيقاف تدفق المؤن والقوات من إسبانيا إلى مستعمراتها.

وقد لعب المناخ والأمراض دورًا مهما فى إحباط مغامرة الكاريبى، وقد وصف نوبياس سموليت وكيل الطبيب جراح السفينة أثناء حصار كارتاجيا عام ١٧٦١ هذه العمليات فى روايته.

"مغامرة رودريك راندوم عام ١٧٤١، حيث رسم صورة حقيقية وحشية عن المآسى التى عانى منها الجنود العاديون وخصوصًا نظام التغذية لهم، وقال" إن مؤننا من اللحم المملح العفن والفاسد والذى أعطاه البحارة اسم الحصان الأيرلندى"، ولحم الخنزير المملح فى إنجلترا الجديدة والذى لم يكن من اللحم أو السمك بل خليط منهما، والخبز من نفس الدولة وكل حلوى من هناك، مثل عدة الساعة التى تتحرك بنبضها الداخلى والتى تتخللها أعداد ضخمة من الحشرات التى تعيش داخليا، كما أن الزبد كان يشبه طعمه زيت القطار الثقيل مع الملح ".

لقد استفادت مستعمرات أمريكا الشمالية بوضوح كامل من الحرب، ويضاف إلى الطعام كريه الرائحة عذاب الطقس الذى أثبت أنه الضربة القاضية للبحارة سيئ التغذية، الذين واجهوا مع بداية الفصل المطير الرياح الهندية الغربية التى تآمرت مع الرائحة الكريهة التى أحاطت بهم.

فضلا عن حرارة الطقس ودساتيرنا المليئة بمواد سيئة ويأسنا من انتشار الحمى الصفراء بيننا، التى تنتشر بعنف لدرجة أن ثلاثة أرباع الذين أصابتهم ماتوا بطريقة مؤلمة ومحزنة.

لقد قتلت الأمراض الفتاكة وأكثرها شيوعا داء الأسقربوط نفس النسبة من بحارة أسطول الأدميرال السير جورج خلال إبحاره حول العالم ما بين ١٧٤٠ - ١٧٤٤، وهو من القادة الأذكياء وذوى الكفاءة باعتراف السفن الإسبانية الراسية بعيدًا، وقد صدرت أوامر إلى آنسون (Anson)

بمهاجمة الشواطئ الغربية لأمريكا الجنوبية والوسطى، ومعه ما يساوى ١,٢٥٠,٠٠٠ جنيه، من المنهوب نصفهم تقريبا أخذهم من سيادته، وعاد بسفينته والباقون على قيد الحياة، وسفن مانيلا الشراعية، والتى أمكن الاستيلاء عليها بعيدا عن الفلبين. وفى الوقت الذى وصل فيه آنسون إلى بورتثماوث، صارت الحرب ضد إسبانيا صراعًا أوربيًا عامًا، حيث كانت كل من بريطانيا والأراضى المنخفضة والنمسا تحارب إسبانيا وفرنسا وروسيا، وقد تطلب موقف المخاطر العسكرية فى فلاندرز، والحاجة إلى حماية مقاطعة جورج الثانى، فى هانوفر التزاما أكبر من القوات البريطانية نحو القارة، وكانت هناك حاجة اكبر لاستدعاء القوة البشرية فى عام ١٧٤٥، عندما هبط الأمير شارل إدوارد (المدعى السلطة الصغير) تدعمه قوات فرنسية وموارد مالية إلى أسكتلندا، وكان الهجوم اليعقوبى الأخير مغامرة يائسة منذ البداية حتى النهاية، حيث كان السند والدعم المادى الوحيد للأمير هو فى الأراضى المرتفعة فى أسكتلندا، حيث إنه بعد رحلة إلى أقصى جنوب ديربى تمت محاصرة جيشه وهزيمته فى كولدون فى أبريل ١٧٤٦. وطوال الحملة حرمه الأسطول الملكى من المساعدة الفرنسية.

كانت ثورة اليعاقبة التى أحدثت رعبا مؤقتا ومبالغًا فيه إلى حد كبير فى إنجلترا والأراضى المنخفضة فى أسكتلندا، نزاعًا فى حرب؛ حيث أصبحت فرنسا العدو الرئيسى، وتم انتهاج إستراتيجية منهجية تهدف إلى القضاء على تجارتها فيما وراء البحار، واحتلال مستعمراتها فى أمريكا الشمالية، وتم إرسال أسطول من رجال الحرب لمساعدة شركة الهند الشرقية فى حملتها المصغرة ضد الجيوب الفرنسية على ساحل الكورومانتيل، ولعرقلة التجارة الآسيوية الفرنسية.

وفى فبراير ١٧٤٥ أسقطت سفينتان من الأسطول هما دبـت فـورد وبريستون ثلاث قوارب فرنسية كانت عائدة من الصين، وكانت هناك فرصة عامة بين سفينة رجال الحرب على أمل الحصول (Sund) عندما كانت تبحر عبر ممرات صاند، على جائزة مالية فيما وراء الأحلام لضابط الأسـطول المنتصر.

وتحدث أحدهم ويدعى هنرى كليرك كان فى سـفينة بريـستون إلـى الجميع فى خطاب سريع إلى والديه فى أسكتلندا سلمه إلى رجل فى سـفينة الهند الشرقية الهولنديـة، والتـى كانـت فـى أولـى مراحـل رحلتهـا. وأعطاهم أيضا فكرة غير مريحة بأن البحث عن الثروة السهلة فى المنـاطق الحارة له الكثير من العيوب أيضا: "لقد كنا سعداء الحظ جدًا منذ أن قدمنا إلى هذا القطر بعد أن استولينا على ثلاث سفن صينية فرنسية مرة واحدة، غنية فى حمولتها ولكن، للأسف كنت أتمنى الحديث كثيرًا عن صحتى لأننى كنت مريضا منذ أن درت حول رأس الرجاء الصالح، وكنت أتمنى أن تـستطيع الجوائز الثلاث مساندتى ودعمى لبعض الوقت، وأن يمنحنى الرَّب الـصحة، وأعتقد أن جائزتى المالية ستصل إلى ثلاثة آلاف جنيه إسترلينى وهـو مـا يكفى لشراء ضيعة صغيرة فى مكان ما بالقرب مـن كرامونـد Cramond"، وفى أمريكا بدأت الحرب بهجوم ناجح على كيب بريتون أيلاند (جزيرة كيب بريتون) فى مصب نهر سانت لونس، والاستيلاء على فوت لويسبورج فـى عام ١٧٤٥ وذلك بمساعدة قوة تشمل أربعة آلاف متطوع من نيو إنجلانـد، وفى خلال شهور قليلة كانت الاستعدادات على أشدها لإقامة قاعدة بحرية فى فورت لويسبورج التى يمكن أن تخدم كنقطة انطلاق للعمليات البرمائية ضد كويبك، وكان من الضرورى تأجيل هذه العملية عندما وصـلت قـوة إنقـاذ فرنسية فى العام التالى.

لقد تطلبت النكسة فى كندا مثل تلك التى حلت بالكاريبى الحاجة إلى إستراتيجية بحرية عالمية، وقبل الوصول إلى أى عمليات هجومية فى أمريكا، كان من الواضح أن الفرنسيين ولنفس السبب الإسبان لم يكونوا فى وضع مناسب لإرسال تعزيزات إلى مستعمراتهم، ولضمان هذا الحجر فإن على الأسطول الملكى أن يضع سفنه فى الموانئ المحلية أو يشغلها بمجرد ظهورها. ويتطلب الحصار سفنا مستمرة، (وهو نشاط يحتاج إلى تغطية مستمرة، وأشرعة، ناهيك عن التجارة).

وفى عام ١٧٤٥ تم التوصل إلى نظام جديد حيث تقوم سفينة فترة محددة بواجب حصار الأسطول وبعدها تعود لإعادة صيانتها، بينما تحل محلها سفينة أخرى تكون قد أعدت تمامًا، وقد استمرت هذه الوسيلة من الحفاظ على الوجود المستمر فى غربى الأطلسى طالما أن الأسطول الملكى يستطيع أن يستدعى ويستطيع إعدادًا أكبر وأعظم من المقاتلات وأحواض السفن المجهزة بكفاءة.

وكانت نتائج هذه الإستراتيجية مشجعة بدرجة عالية، وفى مايو ١٧٤٧ حاول اسطول فرنسى كسر الحصار لكن تمت محاصرته، قد استغل الأشهر الماضية فهاجم أنسون (Anson) بقيادة قوة أكبر بعيدًا عن كيب فينستر أقام قواده ورجاله فى (تكتيك) معركة جديدة عرفت باسم المطاردة العامة، ومناورة بسيطة تطلبت رجال بحر خبراء ومنظمين ومدفعية ماهرة، وكانت سفن المعارك البريطانية من الدرجة الأولى والثانية والثالثة والرابعة المسلحة بستين مدفعًا أو أكثر) تقترب من أعدائها فى خط خلفى، وعندما تصل المقاتلة الحربية البريطانية على طول آخر السفن الفرنسية، تطلق النار من الجانب وبعدها تستمر فى الإبحار، وتطلق النار على كل قارب معارضة، وهى تمر على طول الصف، وقد تكرر نفس النمط مع كل السفن التالية. واستطاع أسطول آنسون إغراق سبع سفن حربية فرنسية والاستيلاء عليها.

وفى أكتوبر ظهرت أدلة أخرى على نجاح كفاءة هذا الأسلوب الجديد عندما اشتبك الأدميرال سير إدوارد هوكى (Hawke) مع أسـطول فرنـسى متجه إلى غرب الأنديز مرة ثانية بعيدًا عن كيب فينستر.

وقد غرقت ست منى ثمانى سفن أو تم الاستيلاء عليها وأيضا قافلة من ومائتين وخمسة تجار كانوا فى صحبتها.

وبعد ذلك أمكن القبض على عدد كبير منهم وكان هاوكى بعيد النظـر فى إرسال مركب شراعى وحيدة الصارى إلى بورت رويالـد Port Royal، ليحذر سلطات الأسطول هناك بأن سفينة فرنسية تتجه نحوهم.

وقد برر النصران هذه الإستراتيجية الجديدة لعزل فرنسا والمطـاردة العامة، كمكاسب للمعركة، وكان النصران علامة ظهور تفـوق الأسـطول البريطانى وظهور سلسلة جديدة من القيادات الممتازة.

وكان كل من آنسون وهاوكى من الذين على اسـتعداد لاقتنـاص أى فرصة فى طريقهم مهما كانت للدخول فى معركة، حتى لو أن هـذا يعنـى التعرض للمخاطر. وقد أدرك الرجلان أنه يمكن الحفاظ على سيادة البحرية البريطانية إذا كان القادة والأفراد على استعداد لأخذ المبادرة مـع أسـطول العدو عندما يغادر الموانئ.

وبالطبع لم يكن ممكنًا التنبؤ بنتيجة المعركة، لكن اعتقد كل من آنسون هاوكى أن التدريب الأفضل والخبرة والنظام وقوة احتمال المحاربين سـوف تعطيهم أفضلية على الفرنسيين.

وشهد عام ١٧٤٧ الحفاظ على السيادة البحرية البريطانية، وفى أماكن أخرى صارت الحرب ورطة؛ لأنه طالما أن الفرنسيين أصبحوا عاجزين عن الدفاع عن مستعمراتهم أنهم احتلوا معظم الأراضى المنخفضة النمساوية (بلجيكا الحديثة) وفى العام التالى (١٧٤٨) وافقت الأطراف المنهكة والمتعبة على توقيع اتفاق السلام فى إكس لاشبيل، والذى لم يفعل أكثر من استعادة الوضع قبل الحرب كما كان عليه، رغم أنه كان على بريطانيا أن تضحى بلويس بورج (Lowisburg) لضمان إزالة القوات الفرنسية من الدولة المنخفضة.

وفى الحقيقة فإن إكس لاشبيل كان هدنة، وبرز هذا لمجلس العموم فى عام ١٧٤٩ عندما تنبأ هنرى بلهام بحدوث صراع مع فرنسا أشد.

ومثل روما وقرطاجنة لم يكن من السهل القضاء على الطرفين المتنافسين، واستطاع الأسطول فقط إنقاذ بريطانيا من مصير الأخيرة، وقال رئيس الوزراء لأعضاء البرلمان "إننى أخشى أننا ربما نتعلم من التجربة أن أسلوبنا يمكن أن يقهر، وإذا حدث ذلك فإن ملاحتنا وتجارتنا واستقلالنا ستصل إلى النهاية"(٩).

وكان رئيس الوزراء متشائمًا فى ذلك لكن الصحيح فى نظره هو أن تعتمد بريطانيا كليًا على أسطولها للبقاء على قيد الحياة باعتبارها قوة عظمى.

وتقريبا فقد أظهرت ستون عامًا من الحرب المتقطعة ضد فرنسا كلاً من مزايا السيادة البحرية وقصورها، وحدها لم تكن مفتاح النصر، لكنها كانت وسيلة منع الهزيمة، وعلاوة على ذلك أظهرت الإستراتيجية التى

انتهجت بعد عام ١٧٤٥ أن الاستخدام الصحيح لقيادة بحار العالم قد أعطت لبريطانيا وسيلة طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية، ومن الممكن من الهند، وهى محاولات سبقتها الأحداث والسلام فى أوربا، وبرغم هذا فإن ما تحقق خلال الحرب قد ولد ثقة جديدة بالنفس وروحا قوية داخل الأسطول الذى كان يتوسع فى الدولة بشكل كبير برغم الإخفاقات والفشل فى الكاريبى، وبرز كل من انسون وهاوكى من تلك الحرب باعتبارهما أبطالا، وكانت الروح القتالية الحكيمة قد شجعت أتباعهم من القيادات، فضلاً عن رجال أمثال جورج رودنى (Georg Rodny) وإدوارد بوسكاون (EDWARD Bosawen) اللذين خلفوهما فى القيادة العليا خلال السنوات العشرين التالية.

وجاء اثنان من الأدميرالات ليجسدا الصفات العليا للأسطول، والتى تم الاحتفال بها فى قصة شعبية وطنية كتبت فى أواخر سبعينيات القرن الثامن عشر لتخليد ذكرى تزويد السفن بالرجال والعتاد والتى سميت باسمها ذكرى:

إن البطلين النبيلين والتى تحمل سفن باسميهما

جعلا الإسبان يرتعدون والفرنسيين يخافون

لكى تدخل على ظهر اللورد آنسون وهاوكي

دع السياسيين العقلاء من فرنسا وإسبانيا

يهددون بأخذ حكم المناطق الرئيسية من بريطانيا.

وسوف تدفع سفنهم الغنية ضمن هذا الحديث المتعجرف، إذا جاءوا على مدى النظر عن اللورد آنسون وهاوكى.

(٢)
المكاسب والخسائر
(١٧٤٩ - ١٧٨٣)

لم تحقق معاهدة السلام فى إكس لاشبيل شيئًا، حيث تواصلت المنافسة الاستعمارية التجارية البريطانية الفرنسية وازدادت عمقًا بعد عام ١٧٤٨، وظل الفرنسيون مقتنعين بأن الهدف بعيد المدى لأعدائهم هو أن يناضلوا من أجل تجارتهم ومصادرة مستعمراتهم.

واستمرت بريطانيا فى خوفها من الوحدة التى قامت بين البوربون (لويس الخامس عشر) وابن عمه الإسبانى، وغرض أساطيلهم فى توحيد خطير، وبرغم الحرب الأخيرة أصبحت بريطانيا أكثر غنى وأكثر اعتمادًا على التجارة مع مستعمراتها، وارتفعت الصادرات إلى أمريكا الشمالية من معدل سنوى ٥٢٤,٠٠٠ جنيه إسترلينى فى أواخر عشرينيات القرن الثامن عشر، إلى أكثر من مليون جنيه بعد عشرين عامًا، وخلال نفس الفترة زاد إجمالى الصادرات السنوية إلى جزر الهند الغربية من ٤٧٣,٠٠٠ جنيه إلى ٧٣٢,٠٠٠ جنيه، وإلى الهند من ١١٢,٠٠٠ جنيه إلى ٥٢٢,٠٠٠ جنيه.

ومع ذلك فإن الصادرات إلى المستعمرات قد اتخذت شكلا لولبيا، وظل المستقبل الاقتصادى لإنجلترا غير مؤكد.

وجاء التهديد الرئيسى من فرنسا، وكان أكثرها خطرًا فى الهند وأمريكا الشمالية، حيث كان القتال محدودًا وغير شامل. وكان الخطر أعظم

فى أمريكا الشمالية، حيث إنه بحلول عام ١٧٥٤ زادت المصادمات العنيفة عند تقدم جماعات المستقرين الفرنسين، وكان الفرنسيون وحلفاؤهم يخترقون وادى أوهايو (Ohio Valleg) لبضع سنين وهم يتحركون جنوبًا من كويبك، وفى أقصى الجنوب كانت جماعات من الفرنسيين تتجه شمالاً بشكل منتظم من مستعمراتهم على خليج المكسيك على طول نهر المسيسبى، وإذا لم يجدوا مقاطعة فإن فرنسا تسيطر فى المستقبل القريب على المنطقة حول نهر المسيسبى وروافده، وهكذا تحتل منطقة عريقة من نيوأورليانز فى الجنوب إلى كويبك فى الشمال معرقلة التوسع تجاه الغرب للمستعمرات البريطانية.

وكانت الاشتباكات بين الفرنسيين ورجال حدود فرجينيا على طول أعالى نهر أوهايو، وتدمير حصن خشبى صغير والاستبدال به حصن فورت دوكنز الذى سمى تخليدا للحاكم القدير والحماس للكويبك، وكل هذا جعل أجراس الإنذار تدق فى لندن أثناء صيف عام ١٧٥٤، ولقد كانت السيادة القومية فى خطر، ومن الممكن أن يكون الخطر على مستقبل شمال أمريكا البريطانية، وفى الحال تم اتخاذ إجراءات لسحب القوات النظامية إلى فيرجينيا وإرسال مقاتلات حربية إضافية إلى مياه أمريكا الشمالية، وسار الفرنسيون على نفس النهج.

لقد انتاب دوق حكومة نيوكاسيل ريبة وشك، بعد أن صدم بالوضع الحربى، وخشيت الحكومة بحسب أسباب وجيهة أن حربًا محلية فى أمريكا الشمالية وغاباتها الخلفية سوف تنتشر حتمًا إلى أوربا.

وكان أمام فرنسا بمواردها الضخمة من الثروة البشرية اختياران جذابان، وهما غزو مقاطعة جورج الثانى فى هانوفر وهجوم برمائى عبر القناة الإنجليزية على بريطانيا.

وفى كلتا الحالتين فإن بريطانيا سوف تجبر على إبقاء الجنود والسفن للدفاع عن الداخل أو إرسالهم للخدمة فى شمال ألمانيا. وبالطبع أمر الملك بفعل أى شىء ممكن للدفاع عن منطقته لا عن رعاياه، بمن فيهم وليم بت الذى يعتبر الدفاع عنها كابوسًا فلم تستفد الدولة شيئا من امتلاك هانوفر التى امتصت موارد كان من الأفضل استخدامها بشكل مفيد لحماية مستعمرات وأسواق جديدة.

وبرغم هذا فإنه منذ عام ١٧١٤ كان الحكم فى بريطانيا بحسب المبادئ التى وضعتها التسوية الدستورية فى عامى ١٦٨٨، ١٦٨٩ لأسرة هانوفر، والحزب المسيطر للهويج الذى كان مجبرًا على مساعدة ملوكه للحفاظ على الممتلكات الألمانية حسب الإمكان، وبأدنى مصاريف على الدولة وتحقق هذا الهدف فى عام ١٧٥٦ بالتحالف مع فريدرك الثانى فى بروسيا، والذى أدى بدوره إلى قيام محور فرنسى نمساوى روسى، وفى البداية غزا ملك بروسيا ساكسونى (Saxony) فى سبتمبر.

والآن انشغلت بريطانيا فى حرب عامة فى القارة، وكانت مجبرة على تخفيف القوات التى كانت تنوى أساسًا تركيزها على أمريكا. ومع الاستخدام الحر للأراضى المنخفضة النمساوية، أستطاعت فرنسا حشد الرجال على طول ساحل القناة وأجبرت معارضيه على تحويل الرجال والمؤن لمواجهة أى تهديد بالغزو، وعلاوة على ذلك فإن الإعانات المالية إلى بروسيا حرمت بريطانيا من المبالغ النقدية التى كانت فى حاجة إليها فى أماكن أخرى، لكن لم يكن عبء الالتزامات القارية البريطانية بل عدم الاستعداد وسوء الحظ ومشكلات العمليات هى التى أدت إلى نتائج سيئة خلال عامى (١٧٥٦، ١٧٥٧) مغامرة الاشتباك العام مع الأسطول الفرنسى، والأسوأ من كل هذا هو ضياع ميكوركا بعد أن رفض الأدميرال جون بنج

(Byng) المغامرة بالاشتباك مع الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط، والانسحاب إلى جبل طارق، وكان حرصه بناءً على الخوف وأنه من الأفضل الحفاظ على الأسطول، بدلاً من المخاطرة بمعركة قد ننظر إليها عالميًا على أنها عمل جبان عند الجمهور الغاضب، وتم استدعاء بينج وحوكم وأدين وتم إعدامه فى مارس ١٧٥٧ (طبقًا لأقوال فولتير) كان كبش الفداء لوزراء العار، وكإنذار إلى القواد المترددين الذين فشلوا فى إظهار الروح القتالية المشاكسة عندما يظهر الفرنسيون. وواجه الأسطول مصاعب أكثر فى أماكن أخرى، وكانت هناك تعبئة سريعة بفضل توجيهات آنسون أول سيد للبحرية، الذى كشف بنفسه أنه إدارى كفء، مثلما كان رجل بحرية، لكن استغرق وقتا لبناء سفن جديدة، وإعادة إصلاح القديمة وأحواض السفن وتقديم الخدمات المطلوبة لتحقيق المطالب الجديدة الملقاة على عاتقه، وفى نفس الوقت عندما كانت نظم الدعم تتحرك كان على الأسطول أن يبحث عن البحارة والإبقاء عليهم فى سفنهم، وكثير منهم كانوا يجبرون على الذهاب إلى البحر وهم مزودون جزئيًا بالجنود، وكانت المشكلة الأكبر هى الخسارة أو الفقدان، فمن بين ٧٠,٠٠٠ رجل تم تجنيدهم ما بين (١٧٥٦ - ١٧٥٩) وعزل منهم ١٢,٧٠٠ هناك نسبة كبيرة ماتت بسبب الأمراض. وإذا قارنا هذا فإن ١٤٣ ماتوا نتيجة العمل ضد العدو ما بين (١٧٥٥ - ١٧٥٧)(١).

وكان الحل انتشار الاستخدام السريع لرجال الصحافة التى لم تكن شعبية، مع ضحاياهم وأقاربهم ومع التجار وأصحاب السفن الذين فقدوا رجال البحر المهرة فى الأسطول.

وفى عام ١٧٥٧ كانت هناك صحافة على كفاءة عالية فى نيويورك نحو ثلاثة آلاف رجل، وربعهم من الذكور البالغين منهم نحو أربعمائة أطلق سراحهم أخيرًا(٢).

وعلى المدى الطويل كان الرد على الفقدان يكمن فى الاحتفاظ بالبحارة على ظهر السفن والشاطئ، وفى هذا المقام وعلى عكس الرأى الشائع التاريخى فى حياة كل يوم فى الأسطول الجورجى، وقد اتخذت إجراءات ناجحة بدرجة عالية للحفاظ على صحة البحارة بحالة جيدة، ويتسلم كل رجل رطلاً من البسكويت، وجالونًا من الخمر، وثلاثة أرباع رطل من الجبن أو ستة أرطال من لحم الخنزير أسبوعيًا.

وحينما كان ممكنا يحصل البحارة على مؤن من اللحم الطازج والخضراوات، والأخيرة من أجل الحماية ضد مرض الإسقربوط الذى كان لا يزال يصيب الجنود، برغم المعلومات أن الأكل المنتظم لليمون أو البرتقال يقللان فرص الإصابة به[٣].

وإن قارنا رواتب رجال الأسطول فى خمسينيات القرن الثامن عشر بأجور البحارة الذين فى خدمة التجار، والتى تزيد من حين لآخر مع حوافز وجوائز، رغم أن المخصصات لرجل البحر العادى لا تزيد أبدًا على بضعة جنيهات، وعلى هذا يستطيع البحار أن يحصل على بعض الربح من نصيبه الذى يمكن أن يقارن بنصيب الجندى.

وفى عام ١٧٨٠ تم الاحتفال بالفرق فى أغنية أنشدتها بنات جوسبورت (Gosport) تقول: البحارة يحصلون على كل الأموال، الجنود لا يحصلون على أى شيء سوى قطع نحاسية، إننى أحب البحار المرح.

ولقد كان هناك قليل من العملة المالية فى جيوب البحارة، خلال السنوات الثلاث الأولى من حرب السنوات السبع، وفى البداية كتب بوسكاون (Boscawen) إلى زوجته، وكان متفائلاً وتحدوه الآمال العالية للانتصارات السريعة والجوائز المالية العالية. وكان بوسكاون يبحث عن سفينة فرنسية متجهة إلى أمريكا الشمالية فى مايو ١٧٥٦.

وقال "إذا لم يهرب رجال الطبقة العليا من الفرنسيين هذه المرة، فإنهم سيدفعون للمنزل والأثاث أيضًا، بجانب الحفاظ على شيء ما لأطفالنا"(٤).

لقد خاب أمل فاني بوسكاون (Fanny) حيث لم يحصل زوجها على جوائز، ووصل الفرنسيون إلى الجهة التى يقصدونها، كما فعل أسطول آخر يضم ثمانى عشرة سفينة حربية وخمس فرقاطات العام التالى.

واستمر الحصار واتخذت إجراءات لبناء تسهيلات جديدة فى هاليفاكس ونوفاسكوشيا، بما فيها أحواض تنظيف السفن وإصلاحها؛ حيث كانت السفينة تقلب على جوانبها لعلاج تشقق الألواح وكشط الحشائش البحرية وإزالتها، والحيوانات البحرية التى تتعلق بجسم السفينة وتخفض سرعتها.

ولم يكن هذا جاهزًا حتى عام ١٧٥٩، وبعدها أمكن الإبقاء على أسطول من ثمانى سفن حربية فى المياه الأمريكية، دون الحاجة إلى إرسالها مرة ثانية إلى بريطانيا لأجل إصلاحها.

وفى النهاية كانت هذه الاستعدادات تكلف مبالغ طائلة، وكانت تستغرق وقتا، وإذا رجعنا إلى الوراء كانت السنوات من (١٧٥٦ - ١٧٥٧) فترة تعبئة بسيطة لمراحل الهجوم بعد ذلك.

لقد شعر المعاصرون بالخجل نتيجة الانسحاب من البحر المتوسط خوفًا من الغزو والخسارة المؤقتة من السيطرة على الأطلسى، والنكسات فى كندا والهند والأداء الضعيف فى بروسيا، والذى فتح الطريق لغزو هانوفر، وقد وجه اللوم للحكومة التى ظهرت مرتبكة وتترنح.

وكانت جهود الحرب عرضة لنقد دقيق داخل البرلمان وخارجه، من الصحافة وأصحاب الصحف والمجلات بحثًا عن أدلة تتسبب فى إنهاء عمل الوزارة.

لقد جاء الهجوم الفاعل واللاذع على وزارة نيوكاسيل من وليم بت الـذى وصف فشل الحكومة فى مساعدتها المالية النقدية للمخصصات لبروسـيا، لقـد كانت أمريكا هى مسرح الحرب، حيث كانت مصالح بريطانيا الحقيقية فى خطر وليس أوربا، وعكس هذا كانت الموارد مطلوبة لتوزع بحسب ذلك.

وحيث إنهم لا يستطيعون العيش بدون وليم بت الذى يدعى حلفاؤه أنه نال دعمًا شعبيًا واسع النطاق.

وقد جعلته نيوكاسيل يدخل فى تحالف فى يونيه ١٧٥٧، حيث تحمـل بت مسئولية شئون الجيش والأسطول والمستعمرات، والتى جعلت منه فـى كل الظروف والأحوال الوزير المسئول عن جهود الحرب فى كل الجبهات. لقد كون وليم بت وحده ثروة من الهند وكان عمره تسعة وأربعين عاما فـى عام ١٧٥٧، وكان ضحية لهجوم طويل وشديد العذاب لمرض النقرس الذى اضطره فى أوقات إلى أن يخاطب مجلس العموم وهو جالس، وهى عمليـة تسامح لم تمنح أبدًا لأحد آخر.

أما بالنسبة للعالم فكان شخصيًا بطلاً له طموحاته الخاصة، وكان يقف دائمًا بعيدًا عن التشاحن والانشقاق الحزبى، ويناضل ويبذل جهـدًا ويـشق طريقه للدفاع عن الحكومة التى استهلكت كثيـرًا مـن طاقـات الـسياسيين الآخرين، أما بالنسبة للجهود فكان رجلا لا ينضـم لحزب، وطنى ويرغـب فى توحيد الدولة من أجل المصالح القومية، وكان وليم بت متحـدثًا لبقـا لا مثيل له فى البرلمان.

وفى الوقت الذى كانت عقول رجال البرلمان غالبًا تحكمهـا فـصاحة المتحدث الشخصى، جذب وليم بت السياسى أتباعه خصوصا حزب التورى فى تعاطفهم مع رجال الطبقة العليا، وكان يحاول كسب التأييد لمشروع قانون

فى المدينة، والتى كان يقودها سير وليم بيكفورد الذى أعطته ثروته من مزارع جاما والسكر ثروة لتمويل صحيفتين لوليم بت.

وتجمعت زمرة من تجار لندن ورجال المال مع أصحاب مصالح ما وراء البحار الذين من أجلهم حاول بيكفورد (Beckford) وحول تبرير الحرب، بحسب شروط المستعمرات المهزومة والأسواق الأجنبية التى أخذت من فرنسا.

وكان وليم بت قوميا تحمل بمفرده عبء حرب، أما بالنسبة لمؤيديه والأجيال القادمة من الوطنيين والاستعماريين فيقدمها بت على سلسلة من الانتصارات البراقة على الأرض والبحر، والتى حددت سيادة بريطانيا على البحار ووسعت إمبراطوريتها، هذا هو بت الذى يقف ثابتا يرتدى روبا مثل السيناتور الرومانى فوق بريطانيا الواثقة من نفسها، وأسدًا فخورًا على تمثال شيده المعجبون فى لندن، صالة جيلد وتحته كتالوج من الرسوم المحفورة لفضائل "رجل دولة استخدمته العناية الإلهية لرفع أمة إلى مرحلة العظمة".

ولقد ورث بت إستراتيجية وآلة حرب ربما أنشأها آنسون والآخرون، ولكن أشهرهم آنسون الذى واصل القيام بأعمال قيمة باعتباره السيد الأول للبحرية.

وما قام به بت كان إحساسًا بالرؤيا، وكان يتمتع بأعصاب هادئة وقوة إرادة حديدية، لقد رفض بت أثناء وجوده فى السلطة آراءه السابقة، وكان يحقق سياسة فريدرك الثانى لمحاربة الفرنسيين حجر الزاوية فى إستراتيجيته فلقد أجبر مجلس العموم فى أغسطس ١٧٦٢ على تبنى سياسة: أنه بينما تعتبر فرنسا عدوًا لإنجلترا ، كانت ألمانيا هى التى تلزم فرنسا على استخدام سلاحها واستهلاكه(٥).

واستمر تدفق الأموال، وطبقا لدعم فريدريك قاموا بسلسلة من الغارات البرمائية ضد موان فرنسية خلال عام ١٧٥٨، وكانت هناك سخرية من هذه العمليات المكلفة على أنها تدمر النوافذ والأموال، لكنها أجبرت الفرنسيين على منع الرجال من الجبهة الألمانية، وهنا أدى تحول المد في صالح بروسيا. ففى نوفمبر ١٧٥٧ انهزم جيش فرنسى نمساوى بقوة فى موقعه روسباك (Rossback)، وكانت هناك آراء مشجعة من الهند حيث انه فى يونية (١٧٥٧) وبعدها بشهر هزم فريدرك جيشا نمساويا فى زورن دورف (Zorndorff) وسحق روبرت كلايف جيش سيرج أود دول فى بلاسى (Plassy)، واسترد السيادة البريطانية فى البنغال وعانى الفرنسيون من كارثتين مؤلمتين بحرًا، حيث انتشر مرض التيفوس الوبائى بين البحارة فى الأسطول الذى كان يحمى لويسبورج (Louisboorg)، وأعيد إلى الخلف عندما عادت السفن فى نهاية العام.

وفى أوائل عام ١٧٥٨، تم طرد أسطول طولون (Towlon) بعد أوامر الإبحار إلى جزر الهند الغربية وأمريكا الشمالية بعد سلسلة من عمليات التشويش، والطقس السيئ واشتباك قصير مع قوة بريطانية بعيدًا عن شواطئ إسبانيا الشرقية.

ففى إحد المعارك بين مون ماوث (Monmouth) وفدرويانت (Foudrogant) المسلحة تسليحًا قويًا ترك حملة البنادق الفرنسيون مدافعهم بعد ما أصابهم الفزع من السفن البريطانية.

ودفعت الروح المعنوية الضعيفة فى الأسطول الفرنسى، والأجور المنخفضة والمؤن البسيطة الرجال ليجر السفن بأعداد كبيرة(٦).

وفى نفس الوقت كان الأسطول الملكى يزداد قوة، وفى عـام ١٧٥٧ كانت هناك تسعون سفينة صالحة للعمل، وأكثر من مائة وتسع وأربعين فرقاطة وسفن شراعية ذات شراع واحد، وسفن شراعية ذات صاريين محملة بالذخيرة، وبعد عامين وصل عدد سفن الأسطول ثلاثمائة سفينة من كل الأنواع.

ولقد ساعدت السيادة البحرية البريطانية على وضع إمكانية إستراتيجية وليم بت الكبرى فى الغزو التدريجى لمستعمرات فرنسا الموجودة على ساحل السنغال، ففى مايو وديسمبر عام ١٧٥٨، تم الاستيلاء على محطات الرقيق المحصنة فى فورت لويس وجورى (Goree) وقد استسلمت الأخيرة بعد تبادل بسيط للنيران بين المقاتلات والبطاريات الشاطئية، وبلغت خسائر بريطانيا فيها قتلاً وجرحًا لثمانية وستين رجلا(٧).

لقد كانت الضربة الأعنف فى أمريكا الشمالية؛ حيث تم الاستيلاء على لويس جورج عام ١٧٥٨، وفى العام التالى تم شن هجمات طويلة برًا وبحرًا ضد كويبك التى تم الاستيلاء عليها فى سبتمبر وفى جزر الهند الغربية بدا تخفيض إنتاج جزر السكر الفرنسية مع فى فبراير ١٧٥٩. برغم الاستيلاء على جوديكوب (Guodeloupe).

ومع مرور العام وكشف إستراتيجية وليم بت يبدو أنها مسألة وقت قبل ابتلاع الإمبراطورية الفرنسية. بل انهيار تجارتها فيما وراء البحار.

ونظرا لأن فرنسا لم تكن قادرة على مجاراة الأسطول الملكى فى أمريكا الشمالية والمياه الهندية والهند الغربية، أو لم تكن لدى فرنسا فرصة لتدعيم حاميات مستعمراتها العديدة، ويكمن أملها الوحيد فى غزو بريطانيا، وهو مشروع قدمه رئيس وزراء لويس الخامس عشر إيتين فرانسو

(Etiene Franeois) دوق شوزبيل الذى اعتقد أن هذا سيجبر وليم بت علــى سحب الرجال والسفن للدفاع عن شواطئ وطنه. لقد كان الطلــب الأساســى الأول لعام ١٧٥٩هو دمج أساطيل برست وطولون الفرنسية، ولكن وسكاوين (Boscawen) أحبط هذا المخطط، فقد حاصر ووزع أسطول البحر المتوسط بعيدًا عن خليج لاجوس فى يونيه، وقد اكتشف هاوكى أسطول برسيت الذى يضم إحدى وعشرين سفينة تحت قيادة هوبرت دى برين وبارون كــونفلانز بعيدًا عن خليج كوبيرون (Quiberon) وأمــر الأدميــرال الفرنــسى ســفنه بالإسراع نحو الميناء وهبت عاصفة، واتجه الأسطولان نحو ميــاه عميقــة وخطيرة تتخللها صخور وجزر صغيرة صخرية.

ولم يكن هاوكى منزعجا لهذه المخاطر، وبعد أن حذره رئيس ســفينة الإنذار ويدعى رويال جورج (Royal George) أجاب بهــدوء "لقــد أديــتم واجبكم نحو إخطارى بهذه المخاطر، دعنا نرى كيف تتجاوبون مع أوامرى، وأقول ضعونى على جانب الأدميرال الفرنسى" ولما أعطوه ظروف الإبحار والضوء الخافت، فقد قام بمغامرة يائسة لكن تطلبت الحسابات الصعبة للقوة البحرية أن ينتهز أى فرصة لإغراق سفن الحرب الفرنسية أو القبض عليها.

وتبعت ذلك مطاردة عامة عبر البحار الصعبة، والتى صورت بــشكل دراماتيكى تفوق السفن البريطانية والمدفعية، وكانت سفينتان من السفن السفر وميدابل يضرب كل سفينة تمر بجانبها، وتخفض ألوانها، وتم دفع الهيروس (Heros) التى تأسست بعد أن أمر رئسها بغباء بفتح مــدافعها المنخفــضة، واتجهت فى بحر عميق، ومع حلول الغسق تفرق الفرنسيون، وقاد هوك سفنه للرسو فى وسط الأسطول البريطانى وبعد أن أنزلت حبالها وكشف الفجــر سفينة الأدميرال الفرنسى السوليل رويال الغليظة، وتمت مهاجماتها وأجبرت على الفرار إلى الشاطئ وتم تحطيمها، وتم فقد السفينة الفرنسية السابعة.

لقد كان خليج كويبورن مقرًا بحريًا كلاسيكيًا، ورفع هوك إلى مرتبة البطل القومى، وامتلك كل الفضائل التى يستحقها قائد أسطول بريطانى، وبحسب كتاب صموليت (Sm Liete) التاريخ الشعبى لإنجلترا أصدر هاوكى أمرًا بالهجوم بعد أن نال حبًا حارًا لوطنه، مع دراية واسعة بأهمية المغامرة(٨).

وكانت المعركة التى تلت ذلك نقطة عظيمة فى سلسلة الانتصارات برًا وبحرًا خلال عام ١٧٥٩، حيث ربطت خليج لاجوس وكويبيك وسقوط جوديلوب ومندن (Minden) والتى فيها هزم جيش أنجلوهانوفر الفرنسيين وضمن سلامة هانوفر، ولقد تم الاحتفال بهذه الانتصارات جميعا فى أغنية "قلوب شجر البلوط التى أداها فى آخر يوم فى السنة التى كتبها دافيد جاريك فى قصيدته المرتجلة غزو هارلكون: "هيا نهلل يا أولادى إننا نتحرك تحت المجد لكى نضيف شيئًا جديدًا لهذا العام المدهش، ندعوكم للتقدم للمجد ولن نضغط عليكم مثل الرقيق أيها الأحرار لأننا أبناء الأمواج".

لقد كان بت هو رجل الساعة الذى يعتبر على نطاق واسع المهندس المعمارى لهذه الانتصارات، وعندما اقترب العام من النهاية كتب صموليت المعجب به يقول "إن الناس هنا فى روح عالية بسبب نجاحاتنا، والسيد بت صار محبوبا وشعبيًا لدرجة أننى أستطيع القول إن كل الجماعة قد اندمجت فى بريطانيا العظمى(٩)".

ولقد استعاد الشاعر وليم كوبر (William Cowper) كيف أن أحداث عام ١٧٥٩ قد جعلت منه ابن رجل حزب الهويج الذى أوقف نزيف الدم، ورجلاً أحب وطنه بتوهج الحماس الوطنى الذى يميل إلى الاستمرار فى الحماس الوطنى فى الوقت الذى كان الشعراء مشغولين فى السنوات الثلاث التالية، والتى ولدت انتصارات جديدة، وحصد أسلابها صديق كوبرجون دانكومب فى قصيدة موجهة إلى الملك الجديد جورج الثالث جاء فيها:

وبحيرات وبحار غير معروفة من قبل، وتستدعى التجارة نفسها والبحيرات التى تزداد، والبحار التى تدور من المسيسبى إلى القطب من يشرب، كويبك، ينساب بعمق تتجه نحو قوانين بريطانيا الصحيحة وتطيع شيروكى غير المخلصة للسنغال الغنى فرعه، ويرتعد جانكس الطاغى من الخوف ويهمس الانتقام كطيف قريب.

كانت المقارنات بين بريطانيا وإمبراطوريات اليونان والرومان كثيرة فى عصر يسعى نحو الإلهام الأدبى والرياضى فى الماضى الكلاسيكى.

لقد كان هوراس ولبول متأثراين بالغزو البريطانى الاستعمارى لدرجة أنه طرد اليونانيين والرومانيين باعتبارهم "شعبًا متغيرًا" عندما يقارن ذلك برجال وطنه[١٠].

لقد تأكد مراسل مجلة الجينتل مان أن حصار كويبك يستحق أن يوضع جنبًا إلى جنب مع طروادة فى ملحمة الشجاعة[١١].

وهناك آخرون أقل تعلما أرادوا ببساطة عذرا لرعاع مخمورة.

تعالوا أيها البريطانيين الشجعان لا تدعوا أى واحد يشكو.

بريطانيا بريطانيا تحكم مرة ثانية المناطق الأساسية بأمور ضخمة تنساب، وسوف نغنى بمرح ونحكى الأفعال العليا للعام التاسع والخمسين[١٢].

وسلك دافيد جاريك فى روايته غزو هيركوين عملين متشابهين وهو يعشق استغلال الحالة النفسية للجمهور.

البحارة الإنجليز فى أمريكا ومسرحية يعبر فيها الممثلون بالإشارات "حصار كويبك: The siege of Quebek" والتى ظهرت فى ربيع عام ١٧٦٠.

وتستحق ضخامة الاحتفالات التـى نالـت انتـصارات عـام ١٧٥٩ والتوسع الاستعمارى الذى لا مثيل له الذى حققوه اهتماما كبيرا، وتدين كثيرا من كثافتها للحالة التى جسدتها السنوات الثلاث الأخيرة. "إننا نتحرك نحـو الكارثة التى يجب أن تدمرنا كما كتب جون بـراون (John Brown) وهـو كاتب من شمال البلاد، والذى تمت قراءة روايته والتعليق عليهـا وعنوانهـا "تقييم لأخلاق الأزمنة ومبادئها عام ١٧٥٧".

لقد كانت أكثر من نواح متطاول ضد السلوك والأذواق الجاريـة؛ لأن براون أعزى سوء حظ الأمة مباشرة للضعف الأخلاقى الداخلى خـصوصا بين الطبقات الحاكمة.

ويعتمد مسلك الأساطيل والجيوش ومصيرهما على قدرة هؤلاء الذين يتولون القيادة كما يقول براون. فهؤلاء الرجال والرجـال المهـذبون مـن بريطانيا الذين أصبحوا مصابين بما يسمى التخنث، والذى أعراضه تفـضيل الراحة المحضة أو الجلوس على كرسى محمول.

(رجال يساوون محلول الملح قابعون فى حجرات دافئـة وشـرهة). الشباب من الرجال الذين يتحدثون عن الملابـس والأجـور ولعـب أوراق الكوتشينة والفرسان والنساء ولعبة النرد، والتى كانت ناقصة فيمـا يـسمى الروح العامة أو حب وطننا- لكن مثل هذا الانحراف التناسلى شوه الجنـدى العادى أو البحارة: لأنه من المعروف أنه لا يوجد رجال محاربون أفـضل على وجه الأرض، وأنهـم لا يديـرون ظهورهـم إطلاقا على عدوهم إلا إذا دلهم الضابط على الطريق(١٣).

وكانت هناك معادلة بين الأخلاق الجماعية التى تساوى الطبقة العليـا فى الدولة وإنجازاتها، وهذا الافتراض مثل الأداء البريطانى الجارى علـى

أرض المعركة، والذى كان جزءًا من التفسير وكان منزعجا، وكما كان يعتقد عمومًا إن التطور الإنسانى يمر خلال مراحل النمو والإستثمار والتحلل، وعندئذ ربما تقترب بريطانيا من الموضع الأخير.

لقد أثبتت نجاحات عام ١٧٥٩ عكس هذا، حيث تمت بقوة عمليات الاحترام الذاتى والثقة النفسية الذاتية، ومثل هذا الإحساس الذى تعمقت جذوره بأن بريطانيا قد حظيت بالعناية الإلهية، إنها أمة تتحرك نحو التوسع العنيد فى التجارة، وإنها إمبراطورية تثبت هذا التقدم، فالتجديدات فى الآداب والعلوم والصناعة تضيف إلى هذا الإحساس الشعبى من التقدم الشامل للمجتمع البريطانى.

وشهدت سنوات الستينيات والسبعينيات من القرن الثامن عشر إدخال آلية توفير العمالة فى صناعة القطن والحديد والصلب والفخار، فضلا عن التطبيق العملى الأول لجيمس وات والآلة البخارية (الماكينة البخارية)، لماثوى بولتون (Boulton).

ويمكن أن نكتشف عبقرية وطنية خلف هذا التقدم السريع فى كل مجالات النشاط البشرى، وعلاوة على ذلك فقد تم الاتفاق على نمو الإمبراطورية والصناعة، وقد تحقق ذلك لأن النظام السياسى البريطانى الرائع الذى أمكن تلخيصه بعناية إسحق وات (Isaac Watte) كاتب التراتيل المعاصر، تستطيع تيجان أمراء بريطانيا بأشعة تعلو الجميع عندما تتوحد الحريات والقوانين لتحصل الأمة المباركة(١٤).

ومع هذا كما أوضح جون براون (Gohn brown) إن الرخاء القومى، والتغلب على أعداء بريطانيا، وازدياد قوتها فى العالم، قد اعتمد على الإحساس بالإصرار على الواجب وشجاعة قيادتها، وكانت عظمة الروح

المعنوية عاملاً حيويًا للعظمة القومية، وقد لاحظ كوبر (Cowper) وهو يضع وليم بت فى مخيلته عندما كتب عن بناء الإمبراطورية: "إن الرجال العظـــام لازمون لمثل هذا الغرض".

ونصر كوبر وغيره من الذين أثارتهم انتصارات عام ١٧٥٩ ما هو إلا جزء من الإمبراطورية التى كان حجمها مقياسا لفضائل أمتهم، وإن الحرب كانت وسوف تستمر لبناء وطنية واثقة من نفسها وقـــد امتـــدت إلـــى كـــل الطبقات، وهى حقيقة جعلت صموليت (Smollett) بين الآخرين مـــضطربا. والشعبية أى الوطنية العامة - كما أعتقد - خطيرة بين شعب قلق متـــوحش طبيعيا ومصاخب[١٥].

لقـــد تـــصاعدت احتفـــالات النـــصر إلـــى بدرجـــة عاليـــة فـــي عام ١٧٩٢، أضيف إلى ذلك استيلاء الأدميـــرال الـــسير جـــورج رودنـــي (George Rodney) على مارتينيك ومجموعة من جـــزر الـــسكر الفرنـــسية المتفرقة.

وتبع الباحثون عن الأرباح الجماعات التى رست من أجل انتصاراته، وصدم الأدميرال بالسرعة التى تجمعت فيها جماعات المزارعين من الجزر البريطانية والمتوجهة إلى مارتينيكسحبا نحو ادعاءات السيطرة على الأرض، وصار من المتاح الحصول على جوائز أكبر منذ أن أخذت إسبانيا بالمغامرة وانضمت إلى فرنسا، وحالا بعد ذلك عانت من ضربتين مذهلتين.

واستسلمت مانيلا لقوة استكشافية من الهند، كما أن هافانا تعرضت لهجوم أسطول بقيادة الأدميرال السير جورج بوكوك (George Pocoek) والذى تعرض لمغامرة واقترب من هدفه عن طريق قناة أولد باهاما (Bahama).

وهو ممر بحرى عادة يتم تجنبه بسبب صخوره وجزره الصغيرة المنخفضة، وانتهت المغامرة حيث تم أخذ ثلاث عشرة سفينة مقاتلة فى ميناء هافانا وبوكوك واللورد البرمارل الذى قاد القوة الراسية، وتسلم كل واحد ١٢٣,٠٠٠ جنيه إسترلينى مكافأة مالية، وحصل كل ضابط وصف الضابط والبحارة على أربعة جنيهات.

ففى الوقت الذى اعتقد فيه الوطنيون المتفائلون أن الإمبراطوريتين الإسبانية والفرنسية ربما تقعان فى أيدى بريطانيا، كانت الحكومة تتفاوض من أجل السلام، واستقال وليم بت فى أكتوبر ١٧٦١ بعد فشله هو وزملائه فى الحصول على شروط من فرنسا، وهو شخص معتدل يتمتع بثقة جورج الثالث، واستمرت المفاوضات من خلال الوزارة الجديدة برئاسة الماكيز بوت (Bute) برغم أن كلاً من فرنسا وإسبانيا كانت فى حالة من الإنهاك، فإنه كان هناك خوف بين البعض يدعمه دوق الهويج من احتكار بريطانيا للقوة البحرية فى أوربا للدخول فى كونفدراليته ضدنا وهذه الدول الأخرى لا تمتلك السفن الكافية لتحدى الأسطول الملكى.

وفى الحقيقة فإن التكاليف المرتفعة للحرب واللجوء إلى ضرائب جديدة إضافية، بما فيها الرسوم المتزايدة على الخمور، شجعت الحكومة على التوصل لتسوية(١٧).

لقد كانت اتفاقية باريس التى وقعت فى أوائل عام ١٧٩٣ مثار جدل، وأبقت بريطانيا قلاع العبيد على ساحل السنغال وجزر الهند الغربية فى جريندادا، وسانت فنسنت ودومنيكا وتوباجو وكندا وكل الأراضى غرب المسيسبى، وميورقة وفلوريدا التى تنازلت عنها إسبانيا فى مقابل الجلاء عن هافانا، وسحبت فرنسا قواتها من ألمانيا، وسمح لها بالإبقاء على جزيرة جورى وسانت لوسيا (St. Lucia) ومارتينيك وجود يلوب مع الاحتفاظ

بنصيب فى مصايد أسماك نيوفوندلاند، وكل الممتلكات التى كانــت تـسيطر عليها فى الهند، قبل عام ١٧٤٩ طالما أنهم يخـضعون لــلإدارة المدنيــة، وعادت مانيلا لإسبانيا مقابل فدية (لم تدفع أبدًا) وحصلت على لقب بعـض الأرض غرب المسيسبي.

ولقد أثارت هذه الشروط غضبًا شعبيًا على أساس أنــه تــم إخــضاع الكثير فقط للحفاظ على أمن هانوفر، وتداولت الحكومة هذا النقــد بغـضب وأحيت القوانين القديمة لمعاقبة أحد مؤيديها، جون ولك (Joun Wilke) فــى مقال فى جريدته (جورنال) النورث بيرتون (North Briton).

ولقد سجل نوع أواخر غير ملائمة أداء كــل الــوزارات بــين ١٧٦٣ و١٧٥٥، وهى فترة سيطر عليها سياسيون ذوو مواهب محدودة وآفاق ضيقة.

ولم تجد الأمور مساعدة من التدخل من حين لآخر لجورج الثالث.

ومن الناحية العاطفية والوطنية الأبوية توَّجها الحث على القيــام بمــا اعتبره أفضل لشعبه ككل، فإن الملك جورج الذى كان يهتم أيــضا لأمــور الفلاحة لم يفعل أكثر من الكشف عن نفسه كحاكم أفضل للثروة الحيوانية بدلاً من الرجال.

ودارت السياسات بعد معاهدة باريس حول العلاقات مع مــستعمرات أمريكا الشمالية، وهذه مع الحرب التى نشبت عــام ١٧٧٥ والتــى ســوف نناقشها فى فصل لاحق.

وتبقى الأهمية المتساوية من وجهه نظر التطور الشامل للإمبراطورية هى البرنامج المكثف لإعادة تسليح الأسطول والذى بدأه كلوازيل (Cloiseul) الفرنسيون عام ١٧٦٢. وكان الحافز وراء هذه المحاولة لإعادة بناء الأســطول الفرنسى هو الذى صمم على الانتقام لهزائمه فى أعــوام (١٧٥٩-١٧٦٢)،

واستعادة مكانة دولته السابقة باعتبارها قوة كونية إمبريالية. وعلى مدى ثمانى سنوات ارتفع عدد السفن الحربية الفرنسية من أربعين إلى أربع وستين، وارتفع عدد الفرقاطات من عشره إلى خمسين فرقاطة.

وكانت البحرية البريطانية تراقب دائما هذا التطور من خلال شبكة منظمة تماما من العملاء فى فرنسا وإسبانيا، ويديرها ريتشارد ولترز (Richard Walters) حتى وفاته فى عام ١٧٧٠ وكان يشغل منصب القنصل البريطانى فى روتردام.

وخلال حرب السنوات السبع سيطر والترز Walters على جواسيس فى فرساى وبرست وطولون والهافر وروشفورد ومدريد، والذين كانوا يرسلون إليه تقارير عن تحركات السفن الحربية الفرنسية.

وخلال شتاء عامى (١٧٥٩- ١٧٦٠) استطاع أن يرسل إلى مخابرات لندن بيانات عن أسطول الكونت دى أشية (Comte d Àcheé) لشركة الهند الشرقية، وخطط عودتها إلى بوند شيرى (Pondicherry[٦٦]).

برغم أنه لا يزال معروفا بسيطا حتى اليوم، ففى نظام التجمع للمخابرات البحرية كان مفيدًا بدرجة كبيرة فى إعطاء إنذار التقدم ولانتشار الأسطول الفرنسي.

كما قدم القناصل البريطانيون تفاصيل إضافية فى أماكن أخرى، وكانت ترسل بشكل منتظم معلومات تعد مفيدة للبحرية، وكانوا يستخدمون جواسيسهم فى الغالب مثل رجال المخابرات الذين يعرفون الدولة جيدًا.

لكى يتعرفوا على مواقع الجيش الإسبانى الذى غزا البرتغال فى أغسطس ١٧٦٢.

وقد استجوب قنصل ليجورنو (Ligorno) كبار التجار المحايدين ليكتشف أماكن وجود المقاتلات الفرنسية فى البحر المتوسط، وسجل زميله فى هلسنجور تفاصيل عن رجال الحرب الروس، عندما كانوا يعبرون شكاجيراك (Skaegerak)[١٧].

واستمرت هذه الخدمة الممتازة فى زمن السلم ومكنت البحرية البريطانية من أن تكون على بينة من أعداد السفن فى الأساطيل الإسبانية والفرنسية، وفى عام ١٧٧٠ دلت الصورة التى رسمتها مصادر المخابرات أن الفجوة بين الأسطول الملكى والأساطيل المشتركة من الأعداد السابقة كانت تضيق.

فقد كان لدى فرنسا وإسبانيا نحو ١٢١ سفينة فى الخدمة مقابل ١٢٦ سفينة بريطانية، وقدر بت أن مائة وخمسًا وعشرين سفينة من هذا النوع هو الحد الأدنى المطلوب للأمن فى كل مكان، وهو رقم تمت المحافظة عليه برغم التخصيص فى ميزانية الأسطول فى فترة ما بعد الحرب[١٨]. ومع هذا فإن فى هذه اللحظة بدت سيادة الأسطول البريطانى العليا لا تصلح للهجوم. ففى عامى ١٧٦٤ ، ١٧٦٥ كانت ضربة الأسطول الكبرى قد دمرت بنجاح، وإلى حد كبير اثرًا جيدًا ضد فرنسا وإسبانيا ولقد دعم تهديد العمل البحرى وحده ادعاءات البريطانيين على الجزر التركية، ودافعت عن حقوق حمل الخشب البريطانى لتقطيع أشجار الماهوجنى على ساحل هوندوران وأكدت طرد الفرنسيين من مراكز الرقيق فى جامبيا، وفى عامى ١٧٦٩ ، ١٧٧٠ تمت تعبئة الأسطول للدفاع عن مصالح بريطانيا فى جزر فوكولاند (Fokuland) وبدلاً من المخاطرة بالحرب بعد أن انهار الإسبان.

وقد شجعت دبلوماسية قوارب البنادق هذه الممارسات الناجحة، ولكنها لم تعن قصر نظر الحكومة بعد نشوب أول ثورة فى أمريكا الشمالية

فى عام ١٧٧٥ ادعت إدارة اللورد نورث (North) أنه يمكن التغلب بسرعة على المتمردين، ولن تستطيع أى قوة اعتبار هذا تدخلا، فلقد أخطأ كلا الحكمين، فبعد عامين من القتال أصبح واضحًا أن سكان الأمريكتين سوف يعيشون، وأن استسلام جيش الجنرال بورجون فى ساراتوجا فى عام ١٧٧٧ قد أقنع الفرنسيين فى النهاية أنه قد حانت لحظة شن حرب انتقام ضد بريطانيا.

وعلى هذا دخلت فرنسا الحرب فى عام ١٧٧٩ وتبعتها الأراضى المنخفضة، أما بقية الدول الأوربية فكانت دولاً على الحياد حاقدة.

وما بين ١٧٧٨ - ١٧٨٣ واجهت الإمبراطورية البريطانية أزمة دون مساواة حتى صيف عام ١٩٤٠. ولم يكن لبريطانيا حلفاء فى أوربا.

ومن حسن الحظ كما ظهر كان هناك نقص مشابه من مخيلة القيادة بين أعداء بريطانيا، وبينما كان الأسطول الفرنسى قد تغير جسمانيا، فإنه كان عليه أن يولد سلالة من القادة العدوانيين على استعداد لتبنى تكتيكات جريئة أو على استعداد القيام بمخاطرة، ومرة ثانية مع مرور الوقت عندما أبرز مزايا تكتيكية؛ حيث سمح القواد الفرنسيون بالخروج من عقالهم، لقد كان لدى الفرنسيين ثلاثة أهداف إستراتيجية أساسية، الأولى نقل القوات إلى أمريكا الشمالية ومساعدة الثوار هناك.

والثانى الهجوم واحتلال جزر السكر البريطانية فى الهند الغربية والثالث والأكثر طموحا غزو الساحل الجنوبى من إنجلترا. وكانت المراحل الأولى من كل حملة مخيبة للآمال، ولقد أنزل أسطول الكومت إستينج (Comted Estaing) فى أمريكا الشمالية قواته على شواطئ خليج ديلاور (Delaware)، ولكنه اكتشف أن أسطولا بريطانيا صغيرا قد هرب، ولما لم يستطع إيستنج إقامة سيادة محلية فى مياه ديلوار بأمريكا الشمالية أبحر جنوبا ليبدأ فى غزو جزر الهند الغربية البريطانية.

وتطلب هذا سيطرة كاملة للكاريبى الأمر الذى تملص منـــه، بعــد أن سمح لقوة بريطانية بالانسحاب بعد اشتباك بعيـــدًا عـــن ســـاحل جرينـــادا فى يوليو ١٧٧٩.

وظهـــر الـــسجل الفرنـــسى فـــى الميـــاه الإقليميـــة أكثـــر إشـــراقا وفى أغسطس ١٧٧٩ واجهت بريطانيا الوعد المـــشئوم بفقـــدان الـــسيطرة على القنال الإنجليزية.

واحتشد الأسطول الفرنسى الإسبانى المشترك، وكان يضم ٦٣ مقاتلـــة و١٦ فرقاطة وأكثر من المطلوب لمواكبـــة ٥٠٠٠ ناقلـــة تجمعـــت لنقـــل ٣٠,٠٠٠ جندى إلى جزيرة وايت (Wight) وفى مواجهة هذه القوة استطاعت أساطيل القناة تجهيز ٤٢ سفينة، ولم يكن مدهشا عندما اقترح اللورد نـــورث (North) زيادة مكثفة فى أعداد العسكريين، بعد ان اتهم بإهمال الأســـطول.

لقد راقب جواسيس الأسطول البحرى بكل دقة الاستعدادات الفرنـــسية والذين رصد أحدهم وجود منشقين إيرلنديين فى باريس؛ الأمر الـــذى أثـــار الخوف بأن الهجوم على الساحل الجنوبى ربما يرتبط بعصيان مـــسلح فـــى إيرلندا، ومع هذا كانت هناك مواساة فى المعلومات بأن الأرمادا الإســـبانية الفرنسية سوف تفسدها القيادة المترددة إلى الالتزام للإســـبان، فـــضلا عـــن الطقس القاسى، وتأخير تسليم مـــؤن الجنـــود والهجـــوم القاســـى لمـــرض الإسقربوط، والذى أخرج أكثر من ثمانية آلاف جندى خارج الخدمة، وفـــى منتصف سبتمبر، عندما كانت الرياح الاستوائية تقترب أفادت تقارير البحرية أن الغزو قد تأجل، وفى نفس الوقت اتخذت جهود ضخمة لرفع الحصار عن جبل طارق، والتى بدأت فى يونيه(١٩).

بعد أن انتهت فرنسا من خطة الغزو، مع فرصة إنهاء سريع للحرب فإنها ركزت مواردها لحصار جبل طارق وتهديدات الشمال الأمريكي والهند الغربية. وعلاوة على ذلك استطاع البريطانيون توجيه سفنهم إلى جبهات أخرى بعد أن تخلصوا من تهديد الغزو. ولقد تم تعيين الأدميرال السير جورج رودنى (George Rodney) لتولى القيادة فى الهند الغربية فى أكتوبر ١٧٧٩، وكان رجلا جريئا وحازما والذى كتب "الإصرار والغزو فى حرب ضد العناصر المحاربة، ومع ذلك، فعلى الرغم من حرصه، كان صاحب مزاج قصير يحكمه اعتلال فى الصحة وروح تشاجرية وأسهمت أموره الشائكة إلى حد كبير فى نقص التنسيق بين القيادات العليا فى أمريكا الشمالية والهند الغربية، وساعد هذا على تبنى إستراتيجية كبرى بالمنطقة كلها، وبرغم هذا كان رجاله فى حالة معنوية عالية عندما شرعوا فى الإبحار من سبثيد (Spithead) فى ربيع ١٧٨٠. وكتب وليم هوم ضابط بحرى شاب على ظهر السفينة أنتربيد (Intrepid) بحماس إلى والديه كيف أنه كان متجها على رأس حملة إلى بورتيريكو أو إلى مكان ما على الأرض الإسبانية الأساسية يأمل أن تأتى إلى أرض الوطن وجيوبه مليئة بالدولارات[٢٠].

ولم تحقق جولته فى الخدمة خلال صيف ١٧٨٠ أى مكافآت، كما لم يحصل على فائدة من النصر الحاسم المطلوب لاستعادة السيطرة البريطانية على الكاريبى. وبدلا من ذلك اكتشف رودنى أن قواده المعاندين غير مطيعين، وحريصين إلى درجة الجبن، وبعد اشتباك منقطع بعيدًا عن مارتينيك فى مايو ١٧٨٠ اشتكى بأن العلم البريطانى لم يكن مدعومًا بشكل صحيح، لأن عددًا من القواد رفضوا وضع سفنهم فى العمل.

وكان علاجه قاسيا، حيث إن الضباط الذين لا يقبلون العلاج قد تعرضوا للطرد، وقد أخبر زوجته "أن عينى عليهم أكثر قسوة من نار العدو

"وأنهم يعرفون أن هذا سيكون قاتلاً: "ولم يكن هناك اهتمام لصف الجنود مثل الأدميرال والقادة، الذين كانوا فى الحال يحصلون على إشارات أو ترسل لهم رسائل من الفرقاطات، وبرغم علمهم كيف يجب أن يكونوا من قبل "ضباطاً" وكان هذا التحول حسب رأى رودنى قبول مبدئه "عليهم الطاعة" وهذه المهمة المؤلمة للتفكير هى من أفكارى"[٢١].

وحسب شروط النتائج استغرقت دروس رودنى فى النظام وقتًا لتجنى الثمار، وعاد إلى الكاريبى فى عام ١٧٨١ عندما هاجم أسطوله واستولى على جزيرة هولندية فى سانت أيوستاتيس، والتى سلمت ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه فى شكل جوائز مالية، ولم يكن أسطول أنتربيد حاضرًا، ولهذا كان الكابتن الليفتنانت قانعا بثلاثة وعشرين جنيهًا- ولا يوجد أقل من هذا المبلغ من أجل ملازم أول، وهو نصيبه من الهجوم على جزيرة هولندية أخرى ومقتنعا بمثل هذا الموجة من الرياح - فإن الحصول عليهم لن يحدث ضررًا كبيرًا للأسطول الفرنسى الذى لايزال يبحر دون تحديات فى جزر الهند الغربية ومياه أمريكا الشمالية.

وبينما كانت الأمور تتأرجح بالتساوى فى الكاريبى، فإن نتائج الحرب تأرجحت عكسيا ضد بريطانيا فى أمريكا الشمالية بعد استسلام جيش الميجور العام السير تشارلز كورنول فى مدينة يورك فى أكتوبر عام ١٧٨١، ولم تكسب فرنسا وإسبانيا من هذا النصر شيئا، وبعد ثلاث سنوات من القتال شعرت الدولتان بالحرمان والضيق.

وفيما يبدو أنه محاولة أخيرة لضمان عائد ملموس من اقتحامها قرر الفرنسيون والإسبان شن هجوم بحرى على جامايكا فى ربيع ١٧٨٢.

ومرة ثانية صدرت الأوامر إلى رودنى للتوجه إلى الهند الغربية بعد تحذير من اللورد سندوتش (Sandwich) أول قائد للبحرية بأن "مصير الإمبراطورية في يديك، والآن صار قواده يستجيبون لأوامره، واجه رودنى ومعه ست وثلاثون سفينة فى القتال بين جودى لوب ودومنيكا فى شهر أبريل الأدميرال دس جراس بأسطوله الصغير بعيدًا عن لى سنتيس (Les saintes)، وقد وصف رودنى ما حدث بعد ذلك على أنه أهم انتصار حققه ضد أعدائها الغادرين بطبعهم إى الفرنسين.

"كانت المعركة طويلة، وحاسمة وتمت بغباء وكأن مصير الدولتين اعتمد على هذه الحادثة، وحالف النجاح العلم البريطانى، وبقى الأدميرال الفرنسى مع أربع سفن أخرى كتذكار لانتصارنا أسطول فيل دى باريس (ville de paris)(٢٢).

جزر الهند الغربية البريطانية، فجسد الخوف من المدفع القديم، وهو مدفع قصير ولم تنقذه معركة السينتس (Saintes) وهو اسم مستعار فقد سمى "الضربات العنيفة" بسبب قدرته على إطلاق ما بين ٣٢ و٦٨ طلقة تنفجر فى جسم السفينة، وفى عام ١٧٧٩ دخلت هذه البنادق الجديدة التى صنعت فى مصانع حديد كارون (Carron) فى فولكيرك بأعداد كافية كبيرة لكى توزع على نطاق واسع فى كل أرجاء الأسطول عام ١٧٨٢.

وفى سينتس (Saintes) كان التأثير مدمرا، ولأول مرة فى هذه الحرب انفجرت البنادق الفرنسية وتحولت إلى قطع خوفا من المدافع البريطانية.

وهناك تجديد حدث من أحزمة النحاس للأجزاء السفلى من جسم السفينة، مع تحسين السرعة وقدرتها على المناورة لرجال الحرب البريطانيين.

وبعد خمسة أسابيع عاصفة لاحظ رودنى يعبر الأطلسى قبل المعركة أنه "لا يوجد سوى الأسطول البريطانى ذى القاع النحاسى يستطيع شق طريقه

إلى جزر الهند الغربية" ولقد أنقذت التكنولوجيا الجديدة للثـورة الـصناعية الإمبراطورية بعد الهزيمة فى كاريبي، فقد أدارت سفينة إسبانية صغيرة ذيلها وانسحبت من الهند الغربية بدلاً من مواجهة رودني. وفـى أكتـوبر ١٧٨٢ فشلت الأساطيل المشتركة التى تغلق جبل طارق فـى (R. Howe) وانتهـى الحصار، وقد انعكس إجهاد فرنسا وإسبانيا وفشلهما فى استغلال مميزاتهمـا الأولى فى البحر فى معاهدة السلام فى فرساى (Versailles) التى وقعت فى عام ١٧٨٣، وباستثناء مستعمرات أمريكا الشمالية، كانت خسائر البريطانيين قاصرة على ميوركا (Minorca) وفلوريدا التى سلمت إلـى إسـبانيا، وأمـا السنغال وسانت لوسيا وتوباجو فقد عادت إلى فرنسا، أما سيلان فقد سـلمت إلى الأراضى المنخفضة.

وإذا قدرنا ما أخذ من أعدائها خلال الأعوام المائـة الماضـية، فقـد خرجت بريطانيا من الحرب بحالة جيدة، وعاشت بعد ذلك بـشكل أفـضل، ويرجع الفضل فى ذلك إلى ثرواتها، واقترضت الحكومة ٩٤,٥ مليون جنيه خلال الحرب لإعداد اثنتين وثلاثين سفينة إضافية، كما أمكن الحفاظ علـى السيادة البحرية، ولكن بشكل عادل وبطريقة جديرة.

وحتى لو كان هكذا عانى البريطانيون صدمة سيكولوجية، وظهر أنـه قد وضع حدا للعظمة القومية وتعرض الإمبراطورية للهجوم الـذى وضـع صورة تشاؤمية عندما استعرض (Cowper) مستقبل بريطانيا فى قصيدته فى عام ١٧٨٥، وقال "يا إنجلترا بكل أخطائك ما زلت أحبك إذا كان الزمن الذى فيه المديح والتفاخر كافيًا، وفى كل مناخ وسفر حيثما نكون إننا ولدنا أطفالاً، نمدح بشكل كاف لكى نحقق طموح الرجل الخاص، وإذا كانت لغة التـشاؤم لغته الأم واسم وولف (Walf) العظيم بكل وطنية، وداعًا لهـذه التـشريفات والأمل قائم بعد ذلك.

(٣)

الإمبراطورية الأمريكية

التسوية والحرب

(١٦٨٩ـ ١٧٧٥)

"مرحبا بنسلفانيا الأرض السعيدة حيث ينتشر الكثير من النباتات بين الغابات، نرى النباتات ممتدة السيقان بلونها القرمزى، وهو يتضفر بشكل انسيابى حيث تظهر أطعمة شهية دون تعب من القوى العاملة لكى تصلح الأرض العنيدة".

هذه الصورة "لجنة عدن" كثيرة الغمر، وضعها شاعر مجهول ونشرها فى مجلة بنسلفانيا (Pennsylvania Gazette) فى يناير ١٧٢٩، وهى تدين كثيرًا إلى معرفة المؤلف بكل من الشاعر فرجيل والشاعر ميلتون أكثر من الخبرة بالحياة، الحدود اليومية – ومع ذلك عكست هذه الخطوط رأيًا عامًا إن لم يكن غير حقيقى عن خصوبة منطقة يخترقها الرواد بشكل تدريجي – وخلال النصف الأول من القرن الثامن عشر تحركوا إلى الداخل على طول شواطئ أنهار هدسون وديلوار وبوتوماك وروافدهم.

لقد أمكن رعى أراضى الغابات، وحرث الأرض، وظهور مناطق استقرار صغيرة فى هذه البرارى، وما بين أعوام (١٧١٠– ١٧٣٠) ازداد عدد سكان بنسلفانيا وحدها من ٢٤,٥٠٠ إلى ٨٥,٧٠٠ نسمة، وهى زيادة

ترجع إلى حد كبير للقادمين ومعظمهم من الإسكتلنديين والإيرلنديين من إيرلندة الشمالية.

بدأت أثناء الرحلة مرحلة جديدة من التطور فى مستعمرات شمال أمريكا مع التوسع ناحية الغرب عبر الأبالاشين وشمالا نحو حوض سانت لورانس، وقد أثارت هذه الهجرة الجديدة الشكوك بين القبائل الهندية التى تقع أراضيها فى العمق، كما أثارت الخوف والذعر لدى الفرنسيين؛ إذ بدت مستعمرة فرنسا الجديدة قليلة السكان فى خطر ابتلاعها وضمها، وتصرف الطرفان باتخاذ إجراءات دفاعية، ولكن لم يمتلك كل من الهنود والفرنسيين موارد كافية لهذه العملية، مؤقتًا لكن لم يبرز تقدم للمستعمرين الذين يذهبون ويحصلون على مبالغ طفيفة من المساعدات من بريطانيا.

وكانت القبائل الهندية مزودة بشكل ضعيف لاتخاذ أى إجراءات لمنع ما يحدث لهم، ولم يفهموا كلية المبدأ الأوربى الأجنبى لامتلاك الأرض، وكل الممتلكات الشخصية القانونية الناتجة عن أعمال البيع والألقاب التى تتصل بها. كما لم يفهم الأوربيون مبدأ الهنود عن الأرض والتى تم التعبير عنها ببساطة بعد عدة سنوات من خلال رؤساء السوك (Sauk).

وقد أعطت هذه الروح العظيمة إلى الأطفال لكى يعيشوا عليها ويزرعوها، لدرجة أنه من الضرورى لأجل المعيشة وطالما أنهم يزرعون الأرض فإن لهم الحق على الأرض(١). وعلى هذا فإنه من الممكن للقبيلة أن تبيع شرائح من الأرض اعتقادًا أنهم يحافظون على حق زراعتها أو كسب عائدها. وعندما يكتشفون أن الأمر لم يكن كذلك وأن المستقرين استبعدوهم مما كانوا يعتبرونه ملكًا لهم، فقد غضب الهنود وارتبكوا. وفى الغالب لم تكن فكرة القبائل واضحة عن الأرض التى يهجرونها نظرًا لأنهم لا يعرفون شيئًا

عن إجراءات الأوربيين الذين يرسمون الحدود حسب المظاهر الطبيعية بدلاً من الخطوط المرسومة على الخرائط.

وفي العادة استخدم وكلاء المضاربات فى الأرض، الذين كانوا المرشدين للمستعمرين كل شكل من أشكال الخداع والمغالطة يخدعون أناسًا كي لا يــدركون إلا المطلوب منهم. وقد تعرف أحد المفاوضين على أحد الرؤســاء الأعلــى خلال لقاء بين ممثلي اتحاد كونفدرالى الأيــروث (Iroqu ois) ومــستعمرات آلبانى فى عام ١٧٥٤، ويصفه فى رسائله بقوله:

"إن الرجل شيطان وقد سرق أرضنا وأخذ الهنــود بــدهاء، وعنــدما يكونون مخمورين، يضع بعض المال فى صدر ثيابهم، ويغــريهم بــالتوقيع على عقود عن أراضيهم على السوسكاهاما التى لم تعان أنها تسوى بطــرق أخرى"(٢).

لقد كان الكحول هو العامل الذى سهل لكثير من الهنود التخلى عــن أراضيهم، ومنذ وصول المستقرين الأوائل تم إغراء الهنــود عــن طريــق الأرواح التى تسهل للتجار عديمى الضمير عملية الاستيلاء على أراضيهم.

لقد اشتكى أحد الهنود للمسئولين بأن الشراب المسكر يدمر بنسلفانيا فى عام ١٧٥٣. وتوسل إليهم وحظر تجار الويــسكى الأشــرار الــذين كــانوا يقايضون الكحول بالفراء وجلد القندس غير المدبوغ، ويأخذون كل الأمــوال التى وفرها الهنود لدفع ما عليهم من ديون من أجل الملابس والأشياء التــى اشتروها من "أسواق التجار، وانتهى هذا التوسل بمذكرة عاطفية تحدد كيــف كان الهنود يعانون من المخدرات، وأنهى الرئيس مطالبــا بتبــادل طقــوس للهدايا" تقدم لنسائنا وشبابنا هدية مع هذه اللفة مــن الجلــود ونرغــب مــن الأرواح أن تجعلنا سعداء فى وطننا وألا نشرب الخمور هنا(٣).

إن الحقيقة القاسية هى أن قبائل الحدود قد تخلت منذ زمن طويل عن ثقافة مبنية على الحجر وجلود الحيوانات والعظام، وأصبحوا يعتمدون على السلع التى تقدم إليهم من المستعمرين. ولقد حدد السير جيمس رايت (Wright) فى أبريل ١٧٧٤ حاكم جورجيا محذرا (الهنود الحمر) ضد شن الحرب وموضحا تورطهم وسأل "ماذا تستطيع أن تفعل؟" "هل نستطيع صنع البنادق والبارود والزجاج والطلقات والدهانات والملابس...إلخ؟" أنت تعرف كيف تصنع هذه الأشياء، ومن أين تحصل عليها، إذا تشاجرت مع الناس البيض، وكيف تستطيع نساؤكم وأطفالكم الحصول على الملابس والودع والزجاج والمقصات، وكل الأشياء الأخرى التى يستخدمونها الآن ولا يستطيعون الاستغناء عنها(٤).

وفى مقابل هذا يستطيع الهنود تقديم النسيج الصوفى والفراء، وهذه الجلود يمكن أن تصنع غطاء رفيعا من الفرو، وهو مادة خفيفة ضد المطر وكانت تستخدم فى صنع القبعات فى أوربا منذ منتصف القرن السابع عشر.

فالقبعات ثلاثية الزوايا علامة الاحترام الاجتماعى، والتى كان يرتديها عموم الناس خلال معظم القرن الثامن عشر (بلا شك إن الحاكم رايت (Wright) لبس قبعته عندما كان يخاطب الهنود الإغريق، وكانت لها أصولها القادمة من مناطق فى الأنهار ومجارى المياه فى أمريكا الشمالية).

ولقد زودت موضة قبعات النساء تجارة الجملة على حدود أمريكا الشمالية فى خمسينيات القرن الثامن عشر، وقدرت القيمة السنوية من تجارة الصوف المصدرة من نيويورك ومراكز شركة خليج هدسون فى شمالى كندا ما قيمته ٤٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى سنويًا(٥). وكانت تجارة الفراء والجلود منافسة بشكل مكثف منذ بدايتها فى منتصف القرن السابع عشر، وحاول الفرنسيون دون جدوى طرد تجار شركة خليج هدسون من قواعدهم، واتخذوا

خطوات منهجية لضمان احتكارهم لتجارة الجلود والفراء مع كل القبائل على طول نهر سانت لورانس وشواطئ البحيرات العظمى.

وخلال الربع الأخير من القرن السابع عشر تفاوض الحكام الفرنسيون في كويبك، ووقعوا اتفاقيات مع الهنود الذين سمحوا لهم ببناء سلسلة من المراكز المحصنة التى امتدت غربًا من مونتريال إلى الطرف الشمالى لبحيرة متشاجان، وكان كل منها فى موقع إستراتيجى لمنع تسرب ممرات المياه الضيقة بين البحيرات، وهكذا تتحكم فى الطرق التى يستخدمها تجار الفراء.

وكانت فورتس فروتيناك ونيجيريا وماكيناك أكثر من مراكز حراسة حيث إنها حددت الحدود الجنوبية لفرنسا الجديدة، ووضعت ادعاءً ضعيفًا إلى أراضى برية يمكن أن تدخل بعد فترة قصيرة تحت المستعمرين البريطانيين، وفى عام ١٧٢٧ حدث تحد للسيطرة الفرنسية فى هذه المنطقة، عندما أقامت نيويورك قلعة فى أسويجو (Oswego) على الشاطئ الشرقى الجنوبى لبحيرة أنتاريو، وبعد أربع سنوات واجه الفرنسيون، ولمواجهة هذا قامت فرنسا ببناء معاقل قوية فى كراون بوينت (Crown Point) على أقصى الحدود الجنوبية لبحيرة تشامبلين (Champlain) وهى تخدم الدفاع والاقتراب من مونتريال، وكحاجز ضد مستعمرى نيويورك الذين يتقدمون على طول نهر هدسون.

إن بناء القلاع وجهود كسب الاتحاد الكونفدرإلى لقبائل إوروكو (Iroquois) الذين يحتلون المنطقة جنوب بحيرة أنترايو- وهذا جزء من حرب باردة بين المستعمرين البريطانيين والفرنسيين- وقد تم عرض قوة الجانبين وضعفهما فى عام ١٧٤٤ عندما أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب، فقد كانت هناك سلسلة من الأعمال الصغيرة فى مختلف النقاط على طول الحدود، وكان أخطرها سلسلة من الغارات الفرنسية الهندية، والتى

دمرت مناطق استقرار معزولة على أنهار هدسون الأعلى وموهاك، وفي محاولة لجذب قلوب الهنود وعقولهم، كان لفرنسا اليد العليا بسبب أن الطرفين كانا يفهمان مجال التوسع الفرنسي.

وكانت جهود حرب المستعمرين البريطانيين مجزأة، وعلى هذا لم تكن فعالة؛ حيث كانت المستعمرات غير موحدة وبدون جهاز لإعداد وتنفيذ إستراتيجية دفاعية مشتركة وتنفيذها، وبرغم هذا ففي عام ١٧٤٥ استجاب الإنجليز الجدد بحماس لدعوات لإرسال متطوعين لحصار لويسبورج (Louisbourg)، وكانت هناك احتفالات واسعة النطاق عندما تم الاستيلاء على الحصن، وكان كثير من المثقفين بالفعل ينظرون إلى الأمام لانهيار فرنسا الجديدة، ومعها تأتي فرص التحرك فيها والاستقرار في الأرض الخالية في كندا السفلى– وخاب أمل المشتاقين للأرض (جوعى الأرض) حيث استعادت معاهدة السلام في عام ١٧٤٨ الموقف في أمريكا الشمالية، كما كان عليه عند بداية الحرب.

ولم يكن هناك سلام في المناطق المتنازع عليها بين فرنسا الجديدة وأمريكا الشمالية البريطانية، وبعد عام ١٧٤٨ تحول مركز الاهتمام إلى أوهايو (Ohio) العليا، حيث كانت شركة أوهايو تقوم بعملية شراء ٢٠٠٠٠٠ فدان من الهنود المحليين، وكان رد فعل الفرنسيين على ذلك سريعًا وأصروا على إيقاف الانسياب الحتمي للرواد في المنطقة، وأمر الماركيز دوكين (Duquesne) حاكم كويبك بإرسال حملة استكشاف مسلحة إلى وادي أوهايو في عام ١٧٤٩ وتبعت هذه الحملة عروض أخرى للقوة.

وفي أواخر عام ١٧٥٢ تم بناء سلسلة من المراكز التي ربطت الشواطئ الجنوبية لبحيرة إيري (Erie) مع حصن دوكنز الموجود عند التقاء أنهار أوهايو ومونتالا واللجيني (Allegheny) وكان التحذير للقوه الفرنسية الجديدة من جانب المستقرين البريطانيين وتجار الفراء الذين غامروا بالاقتراب من هذه المراكز الفرنسية.

وقد أذهلت عملية تحرك دوكين (Duquesne) الجريئة في لعبة الشطرنج الحدودية. أما بنسلفانيا التى تعرضت للتهديد مباشرة فقد كانت فى حالة من عدم التنظيم منذ وجود الأقلية من جماعات الكويكرز (Quakes) التى سيطرت على الحياة السياسية، وكانت منذ سنوات ترفض التأمل فى أى إجراءات للدفاع عن المستعمرة.

ونظرا لأنه لا توجد أى أجهزة من أجل التخطيط والتنسيق لسياسة دفاعية مشتركة، كان رد فعل المستعمرات الأخرى يتلمس البحث عن شيء، وجاءت محاولة كتيبة عسكرية من فيرجينيا بقيادة شاب من أصحاب الأرض يدعى جورج واشنطن؛ لكى يحافظ على موطئ قدم فى إقليم أوهايو، لكنها فشلت فى أبريل ١٧٥٤ عندما أجبر على التخلى عن فورت نسيستى (Fort Necessity).

لقد أصابت هذه النكسة المستعمرات بحالة من الذعر وحفزتها على القيام بعمل، وتجمع ممثلون عن كل مستعمرة فى آلبانى (Albany) فى ربيع ١٧٥٥ فى محاولة لتكوين جبهة مشتركة ضد الفرنسيين والإيركو (Iroquois).

وإذا نظرنا من مدينة صغيرة فى نيويورك ظهر موقف المستعمرين خطيرًا جدا. فقد واجهوا ما يبدو القوة الشاملة لفرنسا الجديدة، وهى من أعظم القوى العسكرية الأوربية فى ذلك الوقت، ودلت الأحداث الحالية أن فرنسا تنوى متابعة سياسة حدودية عدوانية، وإذا نجحت سوف تحدد وضع بريطانيا فى شريط ساحلى فى أمريكا الشمالية، وعلاوة على ذلك فإن فرنسا دولة كاثوليكية تثير مخاوف عميقة بين المستعمرين الذين يتكون جزء كبير منهم من البروتستانتيين، ولم يكن قلقهم قائمًا على الكره السلفى للبابوية، وكان

القساوسة الكاثوليك ورجال الإرساليات فى الخارج بين الإيروكوا (Iroquois) وباعتراف رسمى كانوا يحذرونهم أن بريطانيا تنوى السيطرة على كل أراضى الهنود[٦].

وكانت خلاصة اجتماع بانى (Albany assemble) إرسال التماس إلى الحكومة البريطانية لطلب المساعدة، ولم يستطع المستعمرون وحدهم هزيمة القوات الفرنسية المنتظمة ومساعديهم من الهنود، وقد أقنع اليأس الواضح فى الطلب- وزارة نيوكاسل أن الاشتباكات الفرنسية إذا لم تتوقف- فإنها ستعرض كل المستعمرات الشمالية للخطر، وسوف تؤدى إلى تدمير كامل لتجارتهم، لكن لن تسمح بريطانيا لمستعمراتها وثرواتها من أن تفلت من قبضتها حتى لو كان ذلك يعنى حربًا مع فرنسا، برغم أنه فى صيف ١٧٥٤ كانت الحكومة تأمل بأن يظل الصراع محليا، وكان قرار إرسال قوات إلى أمريكا الشمالية ذا نتائج بعيدة المدى، وهو اعتراف بحتميه المستعمرات وأهميتها لبريطانيا، وفى وقت قصير حول أمريكا الشمالية إلى منطقة حرب حاربت فيها القوات البريطانية للسيطرة الكاملة على المنطقة.

وعلاوة على ذلك، فإن هذا لم يفهم كلية من جانب كل المشتركين فيه، فقد تم وضع المستعمرين تحت التزام للحكومة المحلية، ولأول مرة فإنه من جانب المستعمرين فقدوا الرغبة فى خصوصيتهم والانضمام معًا.

وفى عام ١٧٥٤ كانت الأولوية الأولى هى إعادة تأكيد السيادة البريطانية فى وادى أوهايو، وفى سبتمبر تم إرسال الجنرال إدوارد برادوك (Edward Braddock) إلى فيرجينيا، ومعه كتيبته من المشاه وبطاريات المدفعية وأوامر بطرد الفرنسيين من فورت دوكين (Fort Du quesne) وكان ضابطا كفئا عرف مهمته فى أرض معارك أوربا؛ حيث صارت الأمور الحربية فنا دقيقا، وكانت قوة النيران المركزة والمتزامنة واستخدام الأسلحة الصغيرة قريبة المدى هى مفتاح النصر.

وعلى هذا كان الجنود يرتدون زيًا رسميًا أنيقًا ويتدربون تدريبًا جيدًا، ويقومون بالمناورات فى صفوف حادة لاتخاذ مواقع يمكن من خلالها إطلاق الصواريخ التى تكسب المعارك، وكان هذا مختلف جدًا فى الغابات الخلفية فى أمريكا الشمالية، كما اكتشف برادوك (Braddock) فورًا فى مايو ١٧٥٥، وقد أقام برادوك قاعدته المتقدمة فى فورت كومبرلاند، وهى تبعد مائة ميل أو أكثر عن فورت دوكن، ولقد ازداد عدد جنوده النظاميين ببعض العسكريين من فيرجينيا والذين يشبهون قوة فالستاف (Falstaff) والذين وضعهم برادوك على أنهم رجال حياديون(٧).

وبنفس القدر على الأقل فى عيون الجندى المحترف كانت هناك حشود الهنود الذين تجمعوا حول القلعة، وقدموا خدماتهم، وكان كل هؤلاء الرجال ونسائهم من البغايا فى حاجة إلى أطعمة ومؤن، وكان هؤلاء يحملون على ظهور الخيول والعربات التى تجرها الخيول، والتى أمكن الحصول عليها بكل صعوبة من الحكام الاستعماريين، وكانت الخيول تأتى من تجار الخيول الذين كانوا يميلون لبيع خيولهم المريضة والمنهكة من الحروب، وكان هذا مثار نقد لاذع حول الاستعماريين غير الأمناء.

أما مشكلات النقل فكان لا بد من وضعها جانبًا بعد أن تسلم برادوك رجال مخابرات؛ أى ثلاثة آلاف جندى نظامى تحت قيادة جوهان هيرمان فون ديبوسكو (Johann Hermen Von Dieskau) والتى كان من المتوقع أن تصل إلى كويبك مع منتصف الصيف، وكان فون ديسكو متخصصًا كان فى ذلك الوقت عضوا فى قوة غير نظامية فى الأمور الحربية فى أرض وعرة، وهو موضوع لم يعرف عنه برادوك شيئا، وبرغم هذا كان معه رجال مثل واشنطن الذى يعرف أسسًا ونمطًا من القتال كان فيه التخفى والهجوم من مكامن والانسحاب السريع، وهى كلها أمور مهامه.

وإذا تلقى برادوك أى نصائح فى هذا الموضوع فقد كانت عديمة الأهمية؛ نظرا لأنه لم يتخذ أى احتياطات ضد الهجوم المفاجئ، كما أنه لم يرسل الرجال مقدما للتجسس على الأرض، وكانت قوته هذا العدد من الخيول المرهقة وعربات القتال التى تتدحرج عبر الغابات، وكانت تحت المراقبة فى كل اتجاه تصل إليه من خلال هنود غير مرئيين يعملون فى خدمة الفرنسيين.

وبعد أن خاضت القوات نهر موناجاهيلا (Monogahela) قامت قوة هندية فرنسية بضرب المقدمة وطردتها فى حالة من الفوضى إلى مركز الطابور الطويل، وتبع ذلك هلع وذعر، وفقد برادوك ثلث جيشه، كما أنه جرح جرحًا مميتا، وقام الهنود بتعذيب الأسرى حتى الموت.

وهى ممارسة وافقها الفرنسيون ومن أجلها انتقم البريطانيون انتقامًا مستحقًا- أما بقية جيش برادوك فقد اعتزل إلى فورت كومبرلاند تاركًا الأسياد الفرنسيين للمنطقة.

لقد هزت الكارثة على موناجاهيلا (Monogahela) المستعمرين، وخدشت الكرامة البريطانية، لكنها لم تغير ميزان القوى فى أمريكا الشمالية، وهناك تفرق الجيش الفرنسى عبر الغرب الأوسط فى حالة إفلاس، ولم يجد مكانا قويا يقدم فيه هجوما مناسبا، ومع هذا حدثت بعض المفاجآت الكريهة، ففى أغسطس ١٧٥٦ تم الاستيلاء على فورت أسويجو (Fort Oswego) وخلال العام التالى كانت هناك غارات ضد المستعمرات فى وادى موهاك (Mohawk)، وفى نفس الوقت استفادت السلطات الاستعمارية والجيش البريطانى من الموقف، فقد تم طرد الكويكرز من بنسلفانيا، ووضعت المستعمرة فى حالة حرب، والأهم من كل هذا فإن خليفة برادوك جون كامبل (John Campbel) إيرل بوردون، وبدأ برنامجا لتدريب الجنود على حرب

الشجيرات، وكان لودون (Lowdon) مجهزًا تماما للمهمة؛ لأنه كان ذا خبرة في حرب العصابات خلال أعوام (١٧٤٥ – ١٧٥٦) وأثناءها وتمرد جاكوبايت (Jacobite) ليس له مثيل كقائد ميدان، حيث كان لديه إحساس بإدراك شكل جديد من الجنود، وكان هؤلاء هم الرانجر (Ranger) رجال صيد أو قناصة والمشاة الخفيفة، والرجل النظامي البريطاني الذي اختار لهذه المهمة يجب أن يكون ذا مهارة وذكاء حادين، وتم إعطاؤهم زيًا رسميًا عمليا غالبا من اللون الأخضر الداكن الذي يسمح لهم بالمرور عبر أراضي الغابات والشجيرات دون أن يراهم أحد.

لقد تعلم الرانجر والمشاه فن حرب الغابات والبراعة في الرماية والحركة السريعة عبر الأراضي الوعرة، وغيرها من الإنجازات التي مكنت الجيش البريطاني من شن حرب ضد الأنصار على أسس متساوية مع الفرنسيين والهنود، وقد عملت هذه القوات في مناوشات وكشافة، وكانت أيضا تتدرب ضد نوع من الكوارث التي حلت لبارادوك، وكان المطلوب قادة مدربين ذوي خيال واسع: لذا تم استخدام جنود مهرة في حرب الحدود للوصول إلى أفضل النتائج، وقد قام وليم بت (Pitt) بتزويد هذه القوى، وأرسل إلى أمريكا الشمالية خياطين مشهورين من الشبان المتحمسين، وهما الميجور العام جيفري أمهرست (Jefrey. Amherst) وبريجادير جيمس وولف (James Walfe) وكان أمهرست يبلغ من العمر ثلاثين عاما، وعمر وولف اثنين وثلاثين عاما وتولى كل واحد منهما مهمته بجدية وهي مكرمة غير عادية بين ضباط الملك جورج الثاني، فقد كانت القيادة العليا الجديدة في أمريكا الشمالية في عام ١٧٥٨ هي أداة إستراتيجية بت الكبرى من أجل غزو كندا، وكانت الوزارة مقتنعة أنه لا ينقص شيء من أجل القضاء التام على القوة الفرنسية في أمريكا الشمالية، وأن هذا سيضمن الأمان في المستقبل للمستعمرات البريطانية هناك.

وتطلب مثل هذا التعهد الغامض تركيزًا جماعيًا على قوات البر والبحر وانهار سارت دون فرض حصار بحرى محكم ينكر المساعدة والعون وتدعيم القائد الفرنسى لويس جوزيف الماركيز دى مونت كالم (Marquis De Mont Calm) فى عام ١٧٥٨ غزت ثلاثة جيوش فرنسا الجديدة، وتقدم الجنرال لورد أبركرومبى (Abercromby) القائد العام ومعه ١١,٠٠٠ جندى نظامى إلى فورت وليم (Fort William)، أما هنرى وينكندروجا (Ticohaeroga) وتبعهم البريجادير جون فوربس (John Forbes) ومعه سبعة آلاف جندى معظمهم من رجال العسكرية الاستعمارية الذين ساروا خلف برادوك للاستيلاء على قلعة دوكينز (Duquesne) وقد قاد الجيش الثالث وهو أكبرها أمهرست ومعه ٣٠,٠٠٠ جندى، وكانت لديه تعليمات لهجوم بحرى على لويسبورج، وبعدها إذا سمح الوقت يتقدم إلى نهر سانت لورانس لمهاجمة كويبك، وقد رافق قواته أسطول من ثلاث وعشرين سفينة حربية وتسع عشرة فرقاطة بقيادة بوسكاون (Boscawen).

وواجهت أكبر حملة إمبريالية تم القيام بها حظًا مختلطًا؛ حيث ارتد إيركرومبى من توكوندريجو من خلال مونت كالم (Mont Calm) واحتل فوربس قلعة دوكنز دون مقاومة.

وكانت عملية لويسبورج العسكرية أكثر تعقيدا من الجميع، واحتاج المبهم دائمًا استعدادًا منهجيًا وتنفيذًا دقيقًا، وكان على القوات الهبوط الأرضى، وكانت الذخيرة تنقل على ظهر وسائل النقل السريعة والخفيفة، وكان إنزال الجنود على الشاطئ عملية معقدة دائما وخطيرة، أولا لا بد من دراسة المنطقة الرملية، وبعدها إعداد خطة عمليات لضمانهم وحمايتهم على الأرض بأسرع ما يمكن، وفى لويسبورج تولى أمهرست وأتباعه وولف المسئولية للاستكشاف، وبعد دراسة رمل جزيرة كيب بريتون بدقة، أعد وولف خطة الهجوم.

ومرت عدة أيام قبل أن يهدأ البحر بشكل كاف لعملية الإنزال والإبحار نحو الشاطئ وكانت هناك قوارب مسطحة القاع تبحر في المياه الضحلة والتي حملت ما بين أربعين وستين جنديًا في كل منها ويقوم عشرون رجلا بالتجديف[٨].

وكالعادة كانت الموجة الأولى من الجنودهم الذين يعتمد عليهم، وفي هذا المقام قاد وولف (Wolfe) رجال المشاة الخفيفة، وعلى الشاطئ وعلى مسئولية تصف المواقع الشاطئية الفرنسية تصرف وولف بعيدًا عن التعرض للخطر، وبرودة الرأس التي تعد علامات متميزة لضابط مهذب، وكانت هذه الصفات - كما أعتقد - توجد فقط بين الرجال المحترمين، وكتب مرة أنه لا يستطيع أن يوصي أحدًا إلا رجلا مهذبا يخدم مع أناس مهذبين[٩].

وأمام لويسبورج قاد وولف بنفسه وبالطريقة المتوقعة لرجل مهذب من سلالة نقية، حتى توقف خلال عمله ليقدم جنيها لكل من الجنديين في الهاي لاند اللذين كانا أول من نزل إلى الشاطئ، وتمثل هذه الإشارات مثل شجاعة تحت النيران كسب حب جنوده.

ولقد أزاحت قوة حراسه وولف وطهرت الطريق أمام بقية الجيش ومجموعة الحصار، واستمر الحصار طوال شهر يونيه، ويعرض في يوليو قبل إنهاك الفرنسيين من جراء إطلاق المدافع المتقطعة، دون أي آمال للإنقاذ، واستسلموا وكان وولف وعدد كبير من الجنود التواقين للاستمرار في التقدم نحو كويبك، ولكن بوسكاون كان قلقا من أخذ سفنه في مياه خطيرة في نهر سانت لورانس، وعلاوة على ذلك فإن العمليات الحربية إذا استمرت في نوفمبر فإن الأرفاد سوف تصمد عندما يتجمد النهر.

لقد قللت خطة بت الأساسية من قوى السلطة الفرنسية في أمريكا الشمالية، لكنها لم تدمرها وفي العام التالي كانت فرصة القادة الجدد، وحل أمهرست محل إبركوومبي الذي قاد حملة هجومية جديدة ضد تيكوندروجا، واختار بت وولف لقيادة حملة سانت لورانس بناء على توصية هؤلاء الضباط الذين خدموا معه في كريسبورج، وأيضًا لأن وزيرًا للحرب كان متأثرًا بعمق التزامه بأهداف الحملة، وبالتقرب فإن الأفكار الثانية بعد مأدبة غداء خاصة سلم وولف خلالها عرضًا مسرحيًا من حماسه الحربي، وسواء كانت هذه الصحبة الوظيفية والتلويح بالسيف، نتيجة للغرور الذي كان مرغوبًا فيه أو الشرب الزائد لم يكن معروفا.

وعندما سمع نيوكاسيل (Newcastle) بهذه الأمور زعم أنه حذر جورج الثاني بأن وولف كان مجنونا، هل هو مجنون؟ وتقدمت حملة كويبك التي بدأت في يونيه ١٧٥٩ ببطء أولا، وكانت قافلة حربية من اثنتين وعشرين سفينة حربية بقيادة ضابط شجاع وكفء هو الأدميرال السير شارلز سو ندرز (Charles Sounders) تحمي قوات نقل وولف، وكانت مساهمة سوندرز القيمة في العمليات محل رقابة واهتمام، كما كان الاعتماد عليه كثيرا، وكانت سفنه الخفيفة تبحر أمام القوة الرئيسية، وعلى متنها ضباط مهرة في الملاحة على ظهر السفن بمن فيهم المستكشف.

ورجل المستقبل جيمس لوك، الذي سلك طريقا مائيا لا يزال غير معروف كثيرا(٩). وعلى هذا كان التقدم منهجيًا وبطيئًا في الحملة؛ حيث كان عنصر الوقت مهما، ونظرًا لزيادة الأعداد فلم يكن من المحتمل الحصول على مساعدة من فرنسا، وكانت فرصة مونت كالم الوحيدة لتجنب الهزيمة هي تعطيل عدوه حتى بداية الشتاء، ولفترة من الوقت ظهر أنه يمكن أن ينجح، وبعد احتلال أبل دى أورليانز (The De Orleans) في بداية يوليو وجد

وولف نفسه يغوص فى مستنقع، وكان طريقه مليئا بالبطاريات الفرنسية على المجارى المنخفضة من كويبك، وكان النزول بالقرب من شلالات مونتمورنسى (Montmoresncy) بقصد إزالة هذه المدافع، وانحرف عندما كانت قوة الهجوم من القنابل اليدوية والمشاة الخفيفة من الكتيبة الملكية الأمريكية التى ظهرت حديثا، وقد طردت إلى قواربها بواسطة رجال الصواريخ الفرنسية الكندية. وقد أدى هذا التراجع إلى تثبيط همة وولف التى كانت أشد مرارة، حقيقة أنه وجد أفضل قواته قد هزمها هواة غير محترفين، واعتبر رجال العسكرية الاستعمارية أنهم ليسوا سوى رعاع مسلحين- وفى لويسبورج وصف العسكرية الأمريكية باعتبارهم أقذر أناس وكلاب جبناء يمكن أن تتخيلهم- وليس هناك أى اعتماد عليهم فى العمل، فقد سقطوا فى الوحل والصحراء بأعداد كبيرة(١٠).

وكلما تقدمت الحرب كشفت عن فجوة اجتماعية عميقة بين الضباط البريطانيين الأرستقراطيين والمستعمرين الذين يظنون أنهم بدون ضبط أخلاقى، ولقد شارك فى الازدراء الضباط الفرنسيون الذين لاحظ أحدهم أن العسكرية الفرنسية الكندية كانت جريئة جدًا خلف شجرة، وخجولاً جدا عندما لا تجد غطاء(١١).

ولقد برزت توترات أخرى خلال حرب الغزو الإمبريالية الأولى واسعة النطاق، وارتعد الضباط البريطانيون عند اكتشاف أن القوانين الأوربية عن الحرب، والتى وضعت للحد من تزايدها السيئ، والتى استمرت دون اعتراف بالحدود، وصدم وولف من هذه الوحشية المختلطة لضباط الحرب الاستعماريين، مثل الكثيرين من زملائه الضباط وخصوصا قتل الهنود للأسرى المدنيين والسجناء.

ولقد قدم وولف اللوم شخصيا إلى مونت كالم على اعتداءات الهنود الوحشية وطلب منه أن يقوم بالرد من نفس النوع(١٢).

وقبل رحيله إلى كويبك بعام أعطى إشارة بنوع العقاب الذى يدور فى ذهنه فى خطاب إلى صديقه اللورد جورج جيرمين (Jeorge Germain) "أنا لست غير آدمى وإنسان طماع جشع، ومع هذا فإننى يسرنى أن أرى الحيوانات الكندية وقد تم سحقه وسلبهم(١٣).

وظل عند وعده، وخلال صيف عام ١٧٥٩ هاجمت مجموعات الرانجرز وغيرها من القوات الخفيفة القرى على طول شواطئ نهر سانت لورانس، وأحرقت المنازل والمحاصيل، وحملت معها ما يمكن حمله، وأما الذين رفضوا إعلان الولاء من الكنديين والفرنسيين للملك جورج الثانى فقد طردوا من منازلهم وأراضيهم(١٤).

لقد تم وضع نظام لمستقبل الحروب الاستعمارية، وقد تم إلقاء الضوء على المثل الإنسانية التى تمسك بها فى الغالب المتحضرون بدرجة عالية والضباط الذين يقرأون جيدًا، وذلك عندما كانوا يواجهون الصراعات البدائية من أجل الحياة التى تكمن فى قلب صراعات الحدود، ولقد أغرى وولف الذى أنشد مرثية الشاعر جراى (Gray) "مرثية فى فناء كنيسة ريفية": (Elegy in a Country and Chunch) إلى ضباطه، وبحسب الأسطورة، وعلل تأليفها كإنجاز يساوى الاستيلاء على كويبك، وتستطيع فى نفس الوقت إصدار الأوامر بإطلاق النار وتدمير المستعمرات الفرنسية الكندية ونهبها.

وفى أوائل سبتمبر أخفقت عمليات الوصول إلى اتفاق فى كويبك، وواجه وولف مع بداية الشتاء خلال شهرين الموافقة على خطة مقترحة من كبار ضباطه تضمنت اندفاعا ليليًا نحو كويبك، والنزول فى الفجر أرضا

أعلى تيار المدينة، ومع وجود قوات بريطانية بين مونت كالم (Montcalm) وقاعدة إمداداته في مونتريال، يمكن أن يجبر على بدء معركة في سهول أبراهام، وسار كل شيء كما توقع، واستطاع البريطانيون النزول دون أن يكشفهم أحد، ويستعدوا لمواجهة هجوم مونتكالم(٤٥).

وكانت معركة السيطرة على أمريكا الشمالية قد تمت بطريقة أرثونكسية مع طوابير وصفوف تسير بحسب دقات الطبول، وناور الفرنسيون بطريقة غير متقنة لأن رجال العسكرية لم يفهموا المتوقع منهم في نوع غير مألوف من المعارك، ووقع خط الجنود الفرنسين كله تحت نيران الصواريخ البريطانية. وقد سقط مونتكالم قتيلاً وسط الفوضى مثلما حدث للقائد وولف، وقد اشتهر كل منهما بالشجاعة، وأعطى موت كليهما عملية من نوع الملاحم وصراعًا بين اثنين من الأعداء. وبسرعة تحول وولف إلى بطل إمبراطوري، وهو الأول من سلالة سوف تتكاثر وتتوالد لقرن ونصف قرن من الزمان. والذين كانت وطنيتهم وشجاعتهم والتزامهم بالواجب والمحافظة عليه قد وضعت نموذجا يحتذى من أبناء وطنهم.

ولم يكن سقوط كويبك نهاية الحملة، فلقد ترك مونتكالم قوة مهمة تحت قيادة تشفالية دى ليفس (Chivalet De Levis) لحماية مونتريال، وحاولت هذه القوات استعادة كويبك في ربيع ١٧٦٠ لكنها هزمت في معركة عند سانت فوى (Saint Foy) حيث عانى كلا الجانبين خسائر أكثر من أربع مرات مما كان على سهول أبراهام.

ولقد سجل الاستيلاء على كويبك وتوابعها المعروفة في سانت فوى نهاية السيادة الفرنسية في كندا، وكانت هناك مقترحات خلال مفاوضات السلام في عامي ١٧٦٢ ، ١٧٦٣ منها أن جزءًا من فرنسا الجديدة ربما تستردها فرنسا مقابل الاحتفاظ بجوديلوب، ولكن في النهاية وضح أن عملية

الأمن طويل المدى فى أمريكا الشمالية البريطانية أكثر من الأرباح السريعة من قصب السكر.

لقد واجهت الحكومة البريطانية محنة بعد أن حققت سيطرة كاملة على أمريكا الشمالية، حيث ثبت أن الاستقرار الذى كان الهدف الرئيسى للحرب صار محيرا، وكان على الحكومة أن تتماشى مع التهديدات الجديدة غير المتوقعة للهدوء المحلى، وكلها نتائج غير مباشرة لسقوط كويبك بعد أن قضت بريطانيا على التهديد الخارجى لأمن المستعمرات.

أولا: لا بد من انتهاج سياسات لإشباع آمال ٧٠,٠٠٠ فرنسى كندى، وللتأكيد من جديد لعدد غير معروف، لكن بأعداد كبيرة، من الهنود الذين كانوا متفرقين عبر المناطق البريطانية الجديدة فى الغرب الأوسط من أمريكا، وفى نفس الوقت واستجابة لاحتياجات رعاياها الجدد كان على الحكومة أن تحقق مطالب القدامى، وآلاف المستعمرين الذين كانوا غير صبورين على استغلال ثمار النصر والتحرك جهة الغرب، وازدهرت مضاربات الأرض ما بين (١٧٦٣ - ١٧٧٤) وسوف تظهر فى المستقبل إمبراطورية جديدة يمكن أن تتشكل من مناطق مفتوحة الآن فيما وراء الأبالانش، واندفع المضاربون على الأرض إلى مناطق لدعم ادعاءتهم، وعلى كلا الجانبين من الأطلسى كان المستثمرون يسرعون للاستجابة، ولم تجد شركات الأراضى مشكلات فى جذب رأس المال، وكان الجشع والإيمان بقدرة الأراضى الجديدة على دفع تكاليفها، وهذا جعل الرجال الأمريكيين ذوى الممتلكات مثل العالم والسياسى والفيلسوف بنيامين فرانكلين الطبقة الأرستقراطية البريطانية، مثل صفحة فى المستقبل.

وكانت حمى الأرض أيضًا قد أصابت رجالا من طبقات دنيا فى عامى (١٧٧١ – ١٧٨٢) وفلاحى كلاديسديل والحرفيين الذى انضموا

لتشكيل شركاتهم الخاصة التى من المأمول أن تقوم بشراء الأرض فى أمريكا لاستقرار الإسكتلنديين (Scots).

واندفع المهاجرون إلى داخل أمريكا الشمالية بأعداد غير مسبوقة من أناس إلى مناطق موحشة اشتراها وكلاء المضاربين، ما بين أعوام ١٧٦٠ و١٧٧٥، عبر ٣٠,٠٠٠ إنجليزى و ٥٥,٠٠٠ إيرلندى و ٤٠,٠٠٠ أسكتلندى المحيط الأطلسى والكثيرون وربما الغالبية العظمى منهم كان تأمل فى الاستقرار على الحدود، وكان مائتان من الرواد يتجهون سنويا إلى وادى ستيننادوه غربى فيرجينيا فى طريقهم نحو الأرض السوداء فى كارولينا، وكان الاتجاه نحو الغرب دائما هو الأقوى خلال أوائل سبعينيات القرن الثامن عشر، وكانت هناك خطط جاهزة لبناء مستعمرتين جديدتين فى الداخل، تحت اسم طيران مدهش من الخيال ترانسيلفانيا، وهى بالتقريب مثل كنتالى الحديثة وفاندإليا التى تقع بين أوهايو وأنهار الليجينى (Allegheny) وهناك تقارير عن أراض كثيرة ورخيصة فى أمريكا، وكانت طبيعيا أكثر إغراءً لهؤلاء الذين واجهوا مستقبلا غامضا فى بريطانيا، وقد أجبر التراجع خلال عامى ١٧٧٣ و ١٧٧٤ فى الصناعات الصوفية والنسيج فى القطن والحرير الرجال والنساء إلى مغادرة إقليم الغرب ويوركشاير أستون فميلا فى لندن وبيسلى، وعمال نسيج بيسلى إلى القيام بإضراب من أجل أجور مرتفعة فى عام ١٧٧٣، وأخبروا أصحاب العمل بأنهم سوف يذهبون بشكل جماعى إلى أمريكا إذا لم تحقق مطالبهم[١٦].

وهناك الكثيرون الذين لم يكونوا راضين عن أوضاعهم، وفى المرتفعات العليا الإسكتلندية، والجزر الغربية، كانت هناك هجرة جماعية من عمال الطواحين الذين طلبوا إيجارات مرتفعة لأرض فقيرة، ووجد نفس الشىء فى ايرلندة حيث وصل التأجير قمته فى أوائل السبعينيات من القرن الثامن عشر، وقد انضم الخدم الذين يعملون بعقود لمدة معينة إلى المزارعين

الصغار وأصحاب الأراضى الصغار المطلوبين للقيام بالأعمال الشاقة فى الأراضى الجديدة، ومع حلول عام ١٧٧٠ عاد إلى العمل المختطفون القدامى والمحتالون من الخدم بعقود مؤقتة.

لقد انزعج أسياد الأرض والموظفون والحكومة من حجم الهجرة فى أسكتلندا؛ حيث ساد الاعتقاد أن ثلاثة فى المائة من السكان قد انتقلوا إلى أمريكا فى أقل من عشر سنوات، وهى محاولة للشد والجذب، وكان من المستحيل قانونيا الحد من ذلك؛ لأنه لا توجد سلطة تستطيع أن تلغى الحرية التقليدية للرعايا البريطانيين فى الهجرة، ويتأمل البعض عما ينتهى إليه الأمر فى بريطانيا واليونان وروما، عندما تعرف فى النهاية مصادر ثروتها وقوتها البشرية التى ستنتقل إلى أمريكا.

وفى عام ١٧٧٤ ظهرت قصة مستقبلية، وفيها الزوار من الإمبراطورية الامريكية سوف يجوبون لندن فى عام ١٩٧٤م، واكتشفوا مركز المدينة مدمرًا مثل روما التى صورت فى مغريات بيرانيسى (Piranesi) وتفسير هذا الدمار هو هجرة التجار البريطانيين الذين انتشروا فى كل أنحاء العالم وخصوصا الذين استقروا فى أمريكا، حيث تبعهم معظم رجال الحرف والرجال الفنيين[١٧].

لم تكن بريطانيا هى الخاسرة الوحيدة من موجة الهجرة، واتجه كثيرون إلى الأرض التى أخذوها من القبائل الهندية التى حاربت خلال ستينيات القرن الثامن عشر عددًا من الحملات غير الناجحة لطرد الدخلاء، وتكرر النمط المعروف لحروب الحدود دون إظهار شفقة لأحد الطرفين، وفى عامى ١٧٦٠ ، ١٧٦١ كانت حرب كارولينا، كما نقل أحد الجنود المتطوعين إلى الحاكم بأننا نشعر بالسرور لكى نثمن كلابنا على أجساد جثث الأحياء، وأن نستعرض أجزاء من فروة الرأس وهى تزين بشكل أنيق قمم حصوننا[١٨].

ومع هذا فى عيون الحكومة البريطانية كانت مثل هـذه المخلوقـات رعايا جورج الثالث، وطالما أنهم يحافظون على القوانين فلهم حق حمايتـه لهم.

ومنذ عام ١٧٦٣ وما بعدها فى أمريكا الشمالية فإن "الوفاء بالتزاماتهم، وخصوصا حماية الهنود من الحيل التى يمارسها المـضاربون، وواجهـت الحكومة عقبات فى كل مكان"، وكما لاحظ أحد مـديرى الـشئون الهنديـة المواجهة فى هذه المنطقة، وقد عرقل التجار المـستعمرون والمـلاك مـن مستثمرى مضاربات الأرض جهود الحكومة للحفاظ على حق عادل للهنود .

ولقد كان وضع جونستون الخاص متأرجحا؛ لأنه كان موظفا رسـميًا حكوميا عهد الرَّب له بشئون ست دول، وكان صاحب ضيعة ضـخمة فـى نيويورك العليا حيث عاش عيشة مرحة، ومعه سيدات مثاليات إحداهن خادمة هاربة من العاملين بعقد لمدة معينة، والأخرى أمريكية من الهنـود الحمـر، وكان جونسون نفسه يضارب فى الأرض ويشجع المهاجرين ومعظمهم مـن بنى جلدته فى أسكتلندا للاستقرار هناك، وبرغم هذا فإنه احـتفظ بإحـساسه القوى للعدالة الطبيعية وأمانته فى محاولة إحداث توازن هندى مع مـصالح المستقرين.

لقد كانت هذه أمورًا متضاربة ومصدرًا لزيادة الإحباط لدى الحكومات البريطانية التى ترغب فى حدود مستقرة وثابتة، وكل حل للمشكلة غير مقنع أو يخلق مشاكل جديدة، ولم يكن الخطر على الاستقرار والذى يرضى الهنود مطبقًا، وكان احترام المعاصرين لحقوق الملكية قويا لدرجة أن الوزراء كانوا مترددين لاتخاذ موقف متشدد صارم مع هؤلاء المضاربين علـى الأرض، والذين بما لديهم من وسائل كانوا يمتلكون ادعاءات دفاعية قانونيـة علـى أرض اليهود، وقد تم التوصل إلى وسيلة لاختراق هذه الحقوق المتـصارعة

والملموسة فى عام ١٧٧٤ تحت اسم (قانون كويبك) الذى حدد حدود كنـــدا التى امتدت جنوبا إلى أوهايو وأحواض الليجنى (Allegheny).

وحيث إن هذه المنطقة طالما أنها منطقة جذب للمضاربين والمستقرين يمكن أن تستبعد عن مستعمرات أمريكا الشمالية، وتحكمها كويبـــك، حـــسب خليط خاص من القوانين الفرنسية والبريطانية القديمة.

ولم يفصل قانون كويبك شمال أمريكا البريطانية فحسب. بل إنه لأكثر من خمسين عاما حد من توسع مستعمرى أمريكا الـــشمالية، ومـــنعهم مـــن الأراضى الغريبة التى كانوا يعتقدون أنها مخولة لهم، ولقد استاءت الحكومة البريطانية بكل مرارة من هذا القانون، بعد أن أنهى مشكلة الحدود المعقـــدة، ولكن واجه بنفسه مشكلة أكثر عمقا هى الثورة الاستعمارية.

(٤)

سلالة البريتون
ثوار أمريكا الشمالية
(١٧٦٥ - ١٧٧٥)

لقد تزامن اندفاع المهاجرين فى أمريكا الشمالية مع جدال عاطفى مكثف بشكل متزايد حول طبيعة الإمبراطورية، وشخصية السكان وأثيرت هذه القضايا فى البداية فى صيف عام ١٧٦٥ عندما وافقت وزارة اللورد جرانفيل (Grenvile) على قانون التمغة، وهو إجراء فرض ضريبة على كل الوثائق القانونية فى كل أنحاء الإمبراطورية- وأثارت هذه صرخة فى أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية؛ حيث أحيا المستعمرون سابقًا أزمة عام ١٧٥٤ وطالبوا بعقد اجتماع الكونجرس القارى الذى وافق على وضع أمر يمنع من الضرائب على الواردات البريطانية.

وفى نفس الوقت وفى كل أنحاء المستعمرات كانت هناك مظاهرات بها تهديدات رهيبة ضد هؤلاء الرسميين الذين كانت مهمتهم جمع ضرائب التمغة.

وكان رد الفعل التلقائى والعنيف قد أصاب الحكومة بعنصر المفاجأة، وقرر خليفة جرنفيل الماركيز روكنج هام (Rockingham) أن يسحب ما كان مجال احتجاج واضح، وأعطى إحساسًا للمستعمرين أن القانون لن يفرض

بالقوة، وسجلت التبادلات البريطانية إلغاء قانون التمغة، وقد كشفت عن رأيين متناقضين عن العلاقة بين بريطانيا ومستعمراتها، والحقوق السياسية للمستعمرين. وأكد جورج الثالث وجرانفيل والمدافعون عن قانون التمغة أن البرلمان البريطاني له حق دون تساؤل فى سن القوانين للمستعمرات، وتمسكوا بالقانون القديم القاضى بأن المستعمرات كانت أقمارا صناعية اقتصادية لبريطانيا، وتوجد فقط لتوليد الثروة لوطنهم الأم، وكان المبدأ الثابت متأصلا فى الفكر الرسمى، وقد تم التعبير عنه بدون شك فى عين الموافقة الوزارية، والتى أشار إليها حاكم باتوسون (Pattoson) أمير جزيرة إدوارد فى تقريره السنوى لعام ١٧٧٠، وكتب أن هذه الجزيرة وبالتشجيع الصحيح فى وضعها البدائى ربما تكون مفيدة جدا وأكثر رخاء للدولة الأم[١].

وكان استخدام كلمة طفولية تعنى تثقيفية؛ حيث إنها عكست الرأى المعاصر واسع الانتشار بأن المستعمرات نتاج بريطانيا وذريتها، وأنها مثل الأطفال تحتاج توجيهًا حاسمًا لكن بتوجيه رحيم وطيب من أبيهم.

لقد تم شرح الرأى الإمبراطورى البطريركى خلال قانون التمغة الذى ناقشه جرانفيل الذى شبه الأمريكيين بالأطفال الذين وضعهم أب كريم فى أراضيهم، والذى بذل كل ما فى وسعه من أجل رفاهيتهم، والشىء المتضمن فى هذه العبارة على افتراض أن المستعمرين سيواصلون النظر إلى والدهم للمساعدة والأمان، ووضع الدليل على هذا فى متناول اليد، وفى الحرب الحالية أزاحت القوات البريطانية والمقابلات الحربية التهديد الذى وضعته فرنسا، واستمرت المعاطف الحمراء التى دعمت القواعد التى تدافع عن الحدود ضد الهنود، وكانت هذه الفوائد عالية، وإنه من المعقول أن هذا الجزء من الفاتورة يجب أن يدفعه المستعمرون الذين يحملون الجميل، وقد استخدمت هذه الاستعارة العائلية المتعددة من جانب الطرفين فى كل مرحلة

من النقاش والصراع، وفى عام ١٧٧٥ حذر ممثلو الكونجرس الأمريكى الإيروكو بالابتعاد عن الشجار العائلى، وبعد عام وصف ضابط بريطانى المستعمرين بشكل جماعى على أنهم أطفال مدللون فى حاجة إلى الضرب والتأديب(٢):

وربما كان هناك ضابط أقل قسوة وفتح يومياته لعام ١٧٧٧ بهذه الأشعار المرتجلة(٣).

ربما يتوج الأرض السلام والوفرة

ويتوقف التنافر المدنى

عندما تمد بريطانيا وتوسع أراضيها

لكى تمنح السلام لأطفالها.

وفى أواخر عام ١٧٨٠ توسل الجنرال جيمس روبرتسون (Robertson) حاكم نيويورك إلى الأمريكيين كطفل متمرد، والذى يرغب والده الصبور الإنجليزى أن يضمه فى نظام شامل من اللياقة والسعادة وكل فروع الحياة، ارتبط بشكل حميم باللغة والأخلاق والقوانين والعادات والتقاليد والمصالح والدين والدم(٤).

ويكمن خلف هذه العواطف الخوف عن أن الوحدة الاستعمارية فى خطر، أما المؤرخ إدوارد جيبون (Gibbon) وقد بدأ تقريره عن انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، فقد اقتنع أن تمزيقًا أو انفجارًا بين بريطانيا ومستعمراتها الأمريكية سيكون المرحلة الأولى من انهيار السلطة البريطانية وتجارتها.

لقد انزعج جورج الثالث ووزراؤه بشده من مزاج الاستعماريين، والذين إذا لم يوقف تحديهم سوف تعجز الإمبراطورية وتدمر بريطانيا، وليس

من الدهشة أن يعتبر الملك ومساعدوه إلغاء ضريبة التمغة استسلامًا للتحريض على العصيان المنظم وتشجيعًا على الأعمال المزعجة.

ووافق المنشقون الأمريكيون ومؤيدوهم في بريطانيا على الإمبراطورية كأسرة ممتدة، ولكن تختلف في تفسيرها لروابط القرابة، وأعلن رودايلندزى (سكان جزر رود) الذين اجتمعوا عام ١٧٦٥ لحرق سجلات ضباط الدخل أنهم أنفسهم ورثة لهؤلاء الإنجليز الذين بدأ تحديهم لأسرة ستيورات في القرن الماضي للحفاظ على دستور الحرية للمواطنين.

إن هذه البركات التي حصل عليها آباؤنا بدمائهم نحن مضطرون كأبنائهم للاستفادة من كل هذه الضرائب الداخلية، وأولا هذه الصور، وبعدها نحرق أوراق التمغة.

لقد وصل صدى هذه الادعاءات في البرلمان خلال مناقشة ضريبة التمغة، عندما ناقش وليم بت الآن إيرل تشاتام (Earl of Chatam) بأن الأمريكيين أبناء وليسوا أبناء غير شرعيين لإنجلترا، وعلى هذا فإنه من المناسب لهم أن يشاركوا في كل الحقوق السياسية والشرعية لإخوانهم في بريطانيا.

وكان هذا المبدأ للميراث الشائع للحرية أساس نقاش الأمريكيين ضد حكومات أكدت سيادة البرلمان على كل المستعمرين، ولم تقدم لهم أي تمثيل في مقابل هذا، وفي عام ١٧٧٥ تم حرمان الأمريكيين من الحقوق الدستورية والحريات التي سلمت لنا كرجال إنجلترا، باعتبار أنهم سلالة البريتون وأعضاء في إمبراطورية شعارها الأساسي الحرية والأمان للمواطن[٥].

وظل السؤال يطرحه باستمرار الأمريكيون على مدى السنوات العشر الماضية، ولم يحصلوا على أي إجابة، وبدلا من ذلك تم إخبارهم بقبولهم على

أنهم أعضاء غير متساوين لعائلة واحدة، وأن حقوقهم الشخصية قد علقت أو توقفت لأى سبب أكثر على أنهم وأسلافهم قد عبروا المحيط الأطلسى.

وربما يكون الأكثر حيرة للأمريكيين أنهم واجهوا الرأى الاستبدادى لوضعهم هو أنهم فخورون ببريانيتهم، وأكد بنجامين فرانكلين (Bin Jamin Franklin) لقراء جريدة لندن كرونكل (London Chronicle) فى نوفمبر ١٧٧٠ أن الأمريكيين "يحبون ويقدرون اسم الرجال الإنجليز، وأنهم مغرمون بأخلاق الإنجليز وصناعاتهم وطرزهم، وقال إنها قياس على وطنيتهم، وأنهم يصرون على أن برلمان بريطانيا ليس له حق فى تحصيل دخل منهم دون موافقتهم(٦)".

وهناك الكثير من الصدق فى رأى فرانكلين لنشر الفكر البريطانى على أمريكا، فنحو تسعة أعشار المستعمرين كانوا من نسل بريطانى، وعاش الكثيرون منهم فى مدن وقرى أعطاها الإنجليز أسماء بريطانية بكل حرية فى جنوب نيويورك مثل ستامفورد، راى، وجرفسند واثنتين من مدن بيد فورد، وهنا وفى أماكن أخرى بنى المستقرون منازلهم بالأسلوب الشائع فى الريف البريطاني، وحافظوا على الثقافة الشعبية لأوطانهم وذلك بإحياء الروايات الشعبية والأغانى المحلية.

ورأى المثقفون الأمريكيون أنفسهم ليسوا رجالاً فرعيين أو إقليميين ولكن جزءًا باعتبارهم من المجرى الرئيسى للحياة السياسية والفكرية.

وفى عام ١٧٦٤ طلب صاحب أرض فى ولاية مارى لاند من تاجر فى لندن أن يرسل إليه أحسن الدوريات والصحف؛ تلك التى تنتمى إلى المستعمرات.

وبعد ذلك عندما أصبح عدم تجنب الانفصال السياسى عن بريطانيا، كان فرانكلين حزينًا بسبب هذا الارتداد الثقافى المحتمل له ولأهل وطنه، وتساءل هل سينفصلون إلى الأبد عن شكسبير؟ ويعيشون بعيدًا عن الحدود؟ ولقد طورت الحياة الأمريكية نموذجا اجتماعيا ممتعا عقليا، والذى أدهش بعض الملاحظين باعتباره شيئا غير متوقع وملحوظ، وفى مقابلة فى مدينة رود أيلند فى ديسمبر ١٧٧٦ جعلت الكابتن جون بيبلز (John Peables) يعلق فى يومياته بصورة هزيلة حين قال:

"قابلت سيدة فى الشارع أنيقة الملبس وذات مظهر مهذب وجاءت بعد ذلك إلى حانة وعندما استفسرت عنها علمت أن هذه كانت "ميس سال ليك" (Sal Leake) التى سمعت كثيرًا بها منذ أن قدمنا إلى هنا، وأنها تحتفظ بمنزل للمتعة، وكانت تقوم بذلك لعدة سنوات مضت بطريقة أكثر احترامًا وأناقة، وأكثر من الشائع، وكان كل شخص فى المدينة يتحدث عنها بأسلوب محبب لأن إحدى بناتها بنت لطيفة المظهر تبلغ من العمر ثلاثين عاما، وقد صار هذا المكان إلى درجة من الرفاهية الحديثة، عندما كانت منازل من هذا النوع مسموحًا لها بشكل شعبي، وكانت أخلاق الناس قاسية عندما يصبح رعايا هذا النوع حديث العائلات[٢]".

لقد راقت أخلاق الأمريكيين موافقة أهل الحضر المهذبين؛ لأنهم كانوا نتاج مجتمع فيه رجال من هذا النوع، ومنظرهم الخارجي يدعو لنفس الاحترام التلقائى واحتكار السلطة، كما كانوا يفعلون فى بريطانيا، لقد كان المجتمع الأمريكى هرميا لكن تنقصه أرستقراطية، وعلى هذا كان الذين فى القمة يساوون الطبقة الوسطى فى بريطانيا، وعلاوة على ذلك سلك الأمريكيون الفكرة البورجوازية الأساسية بالرجال، يرتفعون فى العالم نتيجة الموهبة والاجتهاد بدلا من المولد، لكن هذا لا يعنى أن الأمريكيين ديمقراطيون، فالثروة الشخصية تعد مفتاح الوضع الاجتماعى، كما كان

الوضع فى بريطانيا، ولعب أصحاب الثروات دورًا محوريًا فى الأمور اليومية التى تسير مجتمعاتهم، وذلك بقيامهم بدور الحكام وأشراف الريف، وقد استطاعوا وطالبوا بنفس نوع الاحترام الذى كان موجودا فى بريطانيا وعندما قاطع أحد أتباع المذهب البروتستانتى مراسيم أنجيليكانية فى كنيسة فيرجينيا بأغانى دينية ارتجالية عام ١٧٧١ تمت معارضته، وضربه القسيس لوقاحته، ونال ضربا بعد ذلك بالسياط من الشريف المحلى وهو رجل مهذب(٨).

ومع ذلك فإن كنيسة إنجلترا هى العمود الفقرى الروحى لأعضاء الحزب الثورى البريطانى ولم تشق طريقها إلا قليلا فى أمريكا الشمالية؛ حيث يسود المنشقون عن الكنيسة، ونتيجة لهذا تأسف كاهن بروتستانتى بأن عددًا قليلاً من الأمريكيين يعتنقون مبادئ الطاعة والرضوخ للسلطة الشرعية التى تكمن فى قلب مبادئ كنيسته(٩).

على العموم كان المزاج الخاص للأمريكيين، وهو المساواة بين البشر، صعب المراس ولم يرضخ الرجال من كل الأوساط دون نقاش للسلطة باعتبارها مسألة عادة فى عام ١٧٧٥، وكشف السير جيمس رايت (James Wright) حاكم جورجيا روحًا متساوية واحتقارًا لحكومة خارجية عن مستعمرته، وكان العلاج وجود حامية دائمة لأن القوات البريطانية ستبقى بعض مظاهر الوقار واحترام الرجال واختلاط الضباط مع الرجال المهذبين فى المدينة، وسوف يسمع الناس من الشباب الملك والحكومة والحديث عنهم بكل احترام وهو الصحيح والمستحق(١٠).

إن ما يقلق رايت على وجه الخصوص هو بروز وظهور لتحالف بين أصحاب المادة ومن كانوا يسمون فى بريطانيا بالجماهير (mob)، وعندما تجد الحكومة تحديا فإن الاجتماع المعقول من الأشراف النبلاء يتوازى مع احتجاجات شعبية غير منظمة.

وكان هذا أكثر وضوحا فى بوسطن؛ حيث إنه فى عام ١٧٧٠ اشتكى توماس هاتشنسون (Thomas Hatchnson) مساعد الحاكم العام من أن الحكام المحليين كانوا مكتوفى الأيدى، ولا يفعلون شيئًا ورفضوا اتخاذ إجراءات ضدهم(١١).

وفى هذا الوقت أصبحت الحكومة منهكة بموجات الاحتجاج والمظاهرات التى تعترض على كل محاولات تحصيل أموال من الأمريكيين.

وبعد إلغاء قانون التمغة فى أوائل عام ٧٦٦، تم إنقاذ وجه الوزراء بقانون إعلانى أصر على أن البرلمان صاحب السلطة الكاملة فى سن القوانين لمستعمرات أمريكا الشمالية، ولم تكن لهذه الاشارة أية آثار نظرًا لأن المستعمرين واصلوا معارضة الضرائب الجديدة ومقاومتها، وحالا سجلوا انتصارات أخرى.

وفشل فرض رسوم عام ١٧٦٧ فى تاون شند (Tawnshend) على الشاى والواردات المصنعة، ولم يتم جمعها؛ لأن حملة الرعب الجماعى التى صاحبتها رجعت إلى سحبها بعد عامين، وكانت المشكلة الرئيسية هى أن إدارة المستعمرات يوما بيوم مثل ما هو فى بريطانيا اعتمدت على النية الحسنة فى الرسميات التى لأصحاب الملكيات وفى المدن من التجار الأغنياء.

وفى عام ١٧٧٠ أصبحت هذه المجموعة منقسمة، ولم يعد عدد كبير من أعضائها على استعداد للتعاون مع حكومة ولا يوافقون على سياساتها. وعلى هذا وجد الحكام الملكيون ومحصلو الضرائب أنفسهم شخصيات منعزلة بدون سلطة لتنفيذ قوانين الملك. واتجهت الحكومة فى عام ١٧٧٠ بعد مواجهة الهجمات المستمرة على سلطتها إلى أكثر سياساتها غباء، وتمت إقامة حامية صغيرة فى بوسطن لكى تفرض إدارة أكثر ضعفًا، وللحفاظ على السلام فى أكثر المدن غنى فى أمريكا.

وأثبتت القوة التى انتشرت بأنها ليست كافيـــة لترويـــع البوســطنيين وتهديدهم، ولكن الأكثر من ذلك تشديد إصرارهم وزيـــادة أعــدادهم بقيــة المستعمرين المنشقين.

وتم ضرب بعض المدنيين بعد معركة وقعت فى نهاية ديسمبر، عرفت باسم مذبحة بوسطن، وهذا قدم للأمريكيين أول شهدائهم، وفى عـــام ١٧٧٢ اشتد العنف أكثر عندما أطلقت النار على سفينة جاســبى (Gaspee) وهـــى ترسو على جزيرة رود (Rhode)، وحاول قانون الشاى عام ١٧٧٣ مساعدة احتكار شركة الهند الشرقية، ولكنه وجد تحديًا من مجموعـــة مـــن ســكان بوسطن الذين تنكروا فى زى الهنود، وصعدوا على ظهر السفينة باعتبارهم تجارًا وألقوا بحمولتها من الشاى فى مياه الميناء. ولم ترتعد بوسطن كلية وتم استخدام إجراءات صارمة وجديدة فى شكل تنظيمات قصد بها خنق تجارتها.

ولقد قام فريدريك نــورث (Frederick North) الــذى صـــار رئيــسا للوزراء فى عام ١٧٧٠ باتخاذ مثل هذا الخط الصارم مع أمريكا، وتكمن قوة اللورد نورث فى مهارته كمناور برلمانى ومستغن عن الحماية، أكثـــر مـــن رؤيته أو ذكائه، وظل فى السلطة حتى أوائل عام ١٧٨٢ معتمدًا على الدعم المستمر من جيل برلمانى للتورى الذين كانوا سعداء للسماح للوزراء بالتفكير لهم، وكان الذى يربط ويجمع أتباعه معًا العداء المشترك نحـــو أى شـــخص يعرقل التقارب سواء فى بريطانيا أو أمريكا.

لا شك أنه يوجد فى داخل التراجع الداخلى عقل ثورى معاصـــر، وأن الروح الديمقراطية أصابت بريطانيا وأمريكا. وفى الداخل أثار جون ولكـــس الذى برز مركزًا للمعارضة الشعبية خارج البرلمان ضد الملك، بعد أن أحيا مواصلة النقد للحكومة عام ١٧٧٣، وكانت المظاهرات التـــى جـــاءت بعـــد انتخابه باعتباره عضوًا للبرلمان عام ١٧٦٨، عرقلت محـــاولات الحكومـــة

لحرمانه من البرلمان، وقد سارت بخط متواز وكشفت عن القلق الجارى فى أمريكا- علاوة على ذلك هذا أزعج حزب التورى Tory party سواء الوكلز أو المستعمرين، وكلاهما كان مستعدا لقتال معاركهم السياسية فـــى توافـــق وانسجام مع عامة الشعب، ولقد تصرف مؤيدو نورث بعقول مغلقه ضـــد أى شكل من النقد واللوم للملك ووزرائه، وقد انزعجوا عما بدا أنه ثـــورة عـــدم الولاء والإهانة الشعبية سواء فى الداخل أو فى أمريكا الشمالية.

وقد ظهر رد فعل متحجر الرأس يمكن الدفاع عنه إلى حد ما، علـــى أساس أن امتيازات الرأى الأمريكى هددت وحدة الإمبراطورية.

والثبات من الأب يمكن أن يسكت الشعب بسرعة، والذى أثاره قلة من الأمريكيين الذين سمح لهم بتلك الأفكار المؤيدة لمذهب الحرية، وما إن يظهر بوضوح قرار الحكومة، فإن أهل وطنهم سوف يعودون إلى رشدهم وولائهم.

لقد عارضت مجموعة صغيرة داخل البرلمان هذا التشخيص البـــسيط للشكوى والعلاج، ضغط من أجل الوصول إلى توافق بين الطرفين، واعتقـــد تشاتهام روكنجهام، وبعد ذلك صرح إدمونـــدبروك بعاطفتـــه، أن الزعايـــا البريطانيين والأمريكيين لهم نفس الحقوق والحريات من الناحيـــة القانونيـــة والأخلاقية، وعلاوة على ذلك كانت سابقة العودة لأعضاء البرلمان تعطـــى دليلا على أن ممتلكات بريطانيا فيما وراء البحار لها حـــق التـــصويت فـــى البرلمان، وإذا أمكن كبح ذلك، وكان حكمهم على مزاج الأمريكيين صـــحيح ناقش خصوم نورث أن خط عدم التوافق سوف يؤدى إلى قطع علاقات كان يحاول تجنبها.

أما الملك ووزراؤه وجماهير المؤيدين فلم يتأثروا وأشـــاروا إلـــى أن الأمريكيين بكل تهور أظهروا أنهم غرباء.

وفى النهاية كان قانون كويبك فى عام ١٧٧٤ الذى دفع الأمـريكيين لانتهاج طريقة عمل حولت الاحتجاج المدنى إلى ثورة مسلحة، ولقـد كـان هناك غضب ضد المواد التى أغلقت الحدود، وأضافت إلـى كنـدا مـساحة عظيمة من الأرض جنوب البحيرات العظمى وغربها التى اعتقد الأمريكيون أنها ستكون مفتوحة أمامهم للاستقرار والإقامة، وأثار الاعتـراف الرسـمى بالكاثوليكية فى كندا صرخة هستيريا بروتستانتية، وكانت الخيـال الرهيـب للأحلام القديمة، ثم أعيد إحياؤه بين سكان بروتستانت بشكل حماسى، أثـار ذكريات الاضطهاد وحروب القرن الماضى التى كانت دائما خضراء. وفـى أوائل ١٧٧٥ كانت الغابات الخلفية لإنجلترا الجديدة قد امتلأت بـشائعات أن البابوية على وشك أن تفرض سلطتها، وأن الملـك كـان يرسـل أسـاقفة إنجليكانيين لمضايقة البروتستانت الأمريكيين[١٢].

وفى ماساشوتس سمع رجال دين فى الكنيسة سـفر الرؤيـا لراعـى الكنيسة الذى تنبأ أن بنت البغى قرمزية القرون تركب حالا على دابتها ذات القرون فى أمريكا، ومعها كأس بغيض فى يـدها (Cup of Abominations) وتركب منتصرة على رؤوس البروتسـتانت الحقيقيين، وتجعـل أعـداءًا كبيرة مخمورين بكأس بعد ارتكابها الزنا[١٣].

لقد كان هذا أمرًا منافيًا للعقل، ولكن فى ذلك الوقت كان كثيـر مـن الأمريكيين على استعداد لقبول أى افتراء يـشوه سـمعة جـورج الثالـث ووزرائه، وكان مزارعو إنجلترا الجديدة بالفعل يخشون الوصـول القريـب للبابوية، وكانوا أكثر انزعاجًا من القصص المتبادلة عن أن الحكومة تنـوى تقليل عددهم لتذل جماعة المستأجرين تحت الأسياد الإنجليز، وكانت تفاهمات من هذا النوع قد استغلتها بذكاء الصحافة ضد الحكومة والأفراد الغاضـبين، وساعد هذا على إقناع الكثيرين من المتمردين بأن الحريات الأمريكية فـى

خطر؛ لأنها قد أصيبت بسبب ملك لا يرحمهم، حتى إن حكومته لا تقف عند شيء في جهودها لتأكيد نفوذها على مستعمراتها.

وحيث إن جنون العظمة قد تحكم كثيرًا في أمريكا، فكان من السهل على رجال الدعاية أن يقنعوا الناس السذج أنهم سوف يجدون أنفسهم مستعبدين، وقد أثار هذ الخوف الأمريكي من العبودية صمويل جونسون بسخرية وسأل "كيف يمكن أن يكون هذا"، "أن يسمع العواء والنباح العالي من أجل الحرية بين سائقي العبيد" لقد كان رد الفعل السياسي الأمريكي لقانون كويبك والإجراءات التي اتخذت ضد بوسطن سريعًا، وانتهجت نظامًا ظهرت فاعليته خلال الأزمات السابقة، واجتمع الكونجرس القاري في فيلاديلفيا في بداية سبتمبر ١٧٧٤ ليضع برنامجًا لإجراءات انتقامية، والتي حسب المأمول سوف تجعل الحكومة البريطانية تفكر مرة ثانية، وتقدمت الوفود بحرص لأنهم عندما كانوا متحدين في معارضتهم لسيادة البرلمان فإنهم لم يرغبوا التعجيل بانفصال كامل عن بريطانيا، وأولا وأوضحوا وضعهم القانوني كرعايا لحكومة أنكرت وجود ما يعرفون أنها حقوقهم التي لا يحيدون عنها، وبعد ذلك لوحوا بسيف القوة الاقتصادية الأمريكية مع نداء بمقاطعة كل التجارة مع بريطانيا ومستعمراتها الأخرى.

وادعى ألكسندر هاملتون (Alexander Hamilton) المدافع عن قضية الكونجرس أن هذا سوف يقدم التسول والبؤس بدرجة واضحة لكل من إنجلترا وإيرلندة، وأما بالنسبة لمزارع الهند الغربية فلن تستطيع العيش بدوننا(١٤).

لقد كان ممثلو الكونجرس حريصين على ألا يناقشوا الاستعدادات العسكرية علانية، برغم هذا وبينما كانوا يناقشون الأمر– قامت الحكومة البريطانية بحظر توريد الأسلحة والبارود إلى أمريكا الشمالية– وبينما كان

رد الفعل تلقائيا بدأ الكثيرون من مؤيدى الكونجرس تجميع المخزون الاحتياطى وعمل الترتيبات لتعبئة سريعة لرجال الحرب فى حالة استخدام الحكومة للقوة لعزل سلاح مؤيدى الكونجرس، وذهب الرجال الأقوياء أبعد من ذلك، واستولوا على الترسانة الاستعمارية وقلاعها، وفى ديسمبر برزت جماعة من الرجال كان منهم "أبناء الحرية" واحتلوا فورت وليم (Fort wiliam) ومارى فى نورتثماوث، وحملوا المدافع بعيدًا وأيضا الصواريخ والبارود.

(٥)
العالم ينقلب رأسًا على عقب
حرب الاستقلال الأمريكية
(١٧٧٥ - ١٧٨٣)

واجهت الإمبراطورية البريطانية فى نهاية عام ١٧٧٤ أزمة غير مسبوقة فى خطورتها، ففى خلال الأشهر الستة السابقة تبخرت السلطة البريطانية فى أمريكا الشمالية، ولقد صار الحكام الاستعماريون رموزًا هامشية لسلطة تعوزها وسائل تدعيمها، وتحولت إلى كتابة تقارير كئيبة عن عجزهم إلى اللورد درتموت (Dartmouth) وكيل وزارة المستعمرات، وكان كادو والنور جولدن فى نيويورك أسعد حظًا من زملائه منذ أن ألقى المركب الشراعية كنج فيشر مراسيها فى الميناء فى ديسمبر، وكانت لديه حامية من مائة رجل من الكتيبة الأيرلندية الملكية، وبرغم هذا، كان قلقا منذ أن احتاج السكان المعتدلون إلى إعادة تأكيد سلطة قوية تحل محل الرعب والخوف الفاسق وتشجيع الأصدقاء للحكومة[١].

لقد انتقلت السلطة الحقيقية إلى أيدى مؤيدى خط الكونجرس، وفى أبريل ١٧٧٥ أبطلت اللجان المحلية لهؤلاء الرجال حكام نيوجيرسى وبنسلفانيا وميرلاند وفيرجينيا وجنوب كارولينا، ولم يوجد شىء تستطيع الحكومة القيام به لإيقاف هذه العملية إلا إصدار تصريحات قليلة أمكن إهمالها بدرجة كبيرة.

إن عدد القوات والمقاتلات المتاحة، والتى كانت مركزة فى بوسطن حيث إنه لا يمكن الاعتماد على العسكرية الاستعمارية، ولا وسائل الإجبار

القسرى، والأشراف والحكام سواء انضموا إلى جانب الكونجرس أو الذين أفزعتهم الحيادية، وحتى بدون موظفى القانون سواء أكانوا جزئيا أم غير مهتمين لمنع الأمريكيين فى عام ١٧٧٤ بحرية سياسية معقولة.

وكانت صحافتهم تدعو إلى التحرر من الأغلال، ولذا يمكن التعبير عن أفكارهم ويتم تداولها بحرية، ويستطيع الأمريكيون التنقل حسب رغبتهم ويعقدون اجتماعات عامة حسب مكان اختيارهم وموعده، وعلى هذا كان من السهل على وكلاء الكونجرس تدعيم الموالين وتنظيمهم وتحويلهم.

لقد استغرقت حقيقة الموقف فى أمريكا وقتًا لكى يفهم كاملا فى لندن، وهنا كان الملك جورج الثالث ووزراؤه مذبذبين بين سياسات التمييز والقسر، ومع العام الجديد اقتنع الملك أن سيادة البرلمان يمكن أن تسترد فى أمريكا بإجراءات ملائمة.

واتفق كل من نورث (North) ودارتموث (Dartmouth) ولكن كان كل منهما يتمسك بألا يصل الأمر إلى المغامرة بالحرب، وأنه يمكن ترتيب تسوية تفاوضية، وكانت السياسة التى ظهرت خلال الشهور الأولى من عام ١٧٧٥ تهدئة مرضية وتهديدية، فمن جهة، قدم نورث تهدئة مع وعود بامتيازات مالية مقابل اعتراف الأمريكيين بسيادة البرلمان من جهة، ومن جهة أخرى استعد للحرب.

لقد تم استقدام فرق إضافية من المشاة إلى بوسطن، حيث صدرت تعليمات للقائد العام توماس جيج (Gage) باتخاذ ما يراه من إجراءات ضرورية لإحباط المقاومة المسلحة، وتم التفكير فى حملة واسعة النطاق، وفى فبراير عين ثلاثة قواد كبار وهم السير وليم هاو (William Howe) والسير هنرى كلينتون (Clinton) وجون بيرجون (Burypgne) لقيادة الجيوش التى تتولى المهمة، وكان كل هؤلاء اختيارا ثانيا؛ نظرًا لأن

جيفرسون أمهرست الذى لديه خبرة أمريكية واسعة، كان قائدًا (جنرالاً) أفضل، ولكن رفض القيادة العليا بسبب تعاطفه مع المستعمرين.

ولقد ألقت إمكانية قيام حرب مع الأمريكيين الشك والرعب داخل بريطانيا، ووافق الكثيرون مع الشاعر كوير (Cower) الذى اعتقد أن بريطانيا وأمريكا الدولة الوحيدة التى دخلت صراعا وشيكا لحرب أهلية[٢].

حاول تشاتام (Chatham) دون جدوى منع الكارثة فى يناير بوضع خطة تفاهم بين اللوردات- لكن الجدال الذى حدث بعد ذلك أدى لاتساع الفجوة بين الطرفين، وامتدح تشاتام الأمريكيين باعتبارهم رجالاً يستحقون المدح، ووضع القيمة العادلة على نعمة الحرية، وهو حكم عارضه دارموث الذى رفض التماسات المستعمرين للرجوع إلى الضمير كوسيلة لإخفاء دافعهم الحقيقية، والذى كان رغبة أنانية للتخلص من قيود تجارتهم، أما اللورد جوور (Gower) الذى كان أحد أعضاء حزب التورى الغامضين فقد تحدث بحرارة قائلا "لعن اللـه كل الأمريكيين باعتبارهم خونة".

وكان هناك شعور قوى بين رجال العسكرية أن الأمريكيين مخادعون وأنهم إذا وضعوا تحت اختبار السلاح فإنهم وقضيتهم سوف تتجزأ وتتفصل بعيدا، وفى تقرير أعد للورد سندوتش السيد الأول للبحرية فى أوائل مارس ١٩٧٥ كان الميجور جون بتكارن (Pitcairn) مقتنعًا أن حملة واحدة نشطة وعملاً بسيطًا وإحراق اثنتين أو ثلاثًا من مدنهم سوف يضع كل شيء فى الوضع الصحيح[٣].

وكان ضابط القيادة جاج (Gage) كان أقل حماسًا وخشى أن العمل المتهور سوف يثير مقاومة غير منتظمة ومتقطعة، والتى ربما تسبب إرهاقا كثيرا للقوات التى تحت إمرته أو تصرفه[٤].

ولقد تأكد شكه فى التاسع عشر من أبريل عندما أرسل أحسن رجالـــه للحفاظ على الترسانة فى وركنز وكونكورد (Concord) بناء على تعليمـــات دارتموث وقد تمت تعبئة القوات العسكرية فى ماساشوتس بعد تحذيرات من الجواسيس داخل بوسطن.

وتم انتشار جزء بسيط بعد تبـــادل محـــدود للنـــار فـــى لكـــسنجتون (Lexington)، ولكن جزءًا أكبر أجبر الفريق البريطانى على التخلـــى عـــن كونكورد، وأثناء تقهقره إلى بوسطن دخل فى سلسلة من الهجمات العسكرية التى أصابت ثلاثمائة شخص تقريبًا، ثلاثة أضعاف عددهم، وخلال بـــضعة أيام احتلت قوة أمريكية بقيادة بندكت أرنولا (Arnola) الـــضابط الموهـــوب والذكى فورت تكندير أجوو كراون بونيت فاتحة الطريق نحو غزو كندا.

لقد أصبح من الصعب الآن تعذر الانزلاق إلى الحرب، وتركت أخبار المناوشات والاشتباكات فى ماساشوتش الوزراء فى وضع لا خيار فيه سوى استخدام القوة القهرية فى كل المستعمرات، وقد رحب جورج الثالـــث بهـــذه الخطوة، والذى كان دائما نافد الصبر لاسترضاء العدو، ومن خلال رجـــال الإستراتيجية الهواة والمحترفين الذين تخيلوا أن الجنود المدربين بشكل جيـــد سوف يفرقون بسهولة بين ما كان شائعا كغوغاء وحشد من الأسلحة.

وكان اللورد جورج جيرمين من أبرز الداعين المؤيدين لحرب قصيرة حادة، والذى حل محل دارتموث الأكثر مرونة، باعتباره وزيرًا للمستعمرات معه تفويض لقيادة العمليات فى كل أنحاء أمريكا الشمالية، وهى مهمة أحبها واستمتع بها. وإذا كانت المرونة ووحدة الرأى تعنيان شيئًا مهما فى ممارسة القيادة العليا، فكان جيرمين أكثر كفاءة، برغم أنه قد طرد من الجـــيش فـــي عام ١٧٦٠ لاتهامه بالجبن خلال معركة ميندن (Minden) فإنه حظى بثقـــة معقولة بين القوات فى أمريكا الشمالية، والذين كانوا ينظرون إليه باعتبـــاره سوف يتخذ إجراءات صارمة(٥).

كانت الوصفة الطبية لانتصار جيرمين تقوم على مجموعة من المصادر للمخابرات الأمريكية التى اتفقت على أن رغبة المستعمرات هى لحرب هشة، ولن تقوم لها قائمة بعد هزيمة كبرى، وعلى هذا فإنه اقترح نشر قوة كبيرة فى أمريكا تسعى لهزيمة جيش الثوار فى عملية واحدة حاسمة، وتخيل بكل ثقة أن نصرًا من هذا النوع لن يحطم فقط الثوار. بل سيشجع الموالين والذين ظلوا مبتعدين عن الصراع.

ومرة ثانية وصفت تقارير المخابرات وجود عناصر ولاء ملموسة خصبة مؤقتة، بسبب الخوف من مؤيدى الكونجرس، والتى ستكشف تعاطفا عندما يكون الأمر هو القيام بذلك، وسوف تكون الحرب القادمة نضالا بين العقول والقلوب، وأدرك القواد البريطانيون أن واحدًا من أهم واجباتهم التأكيد للمواطنين أنهم سوف يجدون الحماية، لأنه كما لا حظ كلينتون بعد ذلك أنهم لن يعلنوا عن أنفسهم قبل أن يكونوا متأكدين تماما أن جيشه فى وضع يضمن تدعيمهم(٦).

لقد كان العنصر البشرى هو القناع الأساسى ولخطة (معركة جيرمين) ومنذ بداية الحرب كانت هناك مشكلات للحصول على القوات الكافية للعمليات على النحو الذى فى ذهنه، وخلال عامى ١٧٧٥ ، ١٧٧٦، كانت الحاميات فى أيرلندة وجبل طارق وميوركا قد انخفضت بشكل كبير، وكلما تقدمت الحرب تم القيام بحملة تجنيد مكثفة فى بريطانيا.

ولم تكن مهمة سهلة أبدًا أن تغرى الرجال للدخول فى عالم حيث يتوقعون الضرب بالسياط لعمل تافه، وأجور منخفضة وطعامًا للجند ضئيلاً، وضباطًا متقلبين فى الرأى ومعرضين للخطر واحترام ما يسمى بالمجتمع المحترم، والوطنية أى الجندية، وكانت تعد حسب رأى صمويل جونسون على أنها الملاذ الأخير للنذالة، وبعبارة أخرى رجل بدون قدرة أو رغبة فى أن

يعيش بأمانة، لقد كان حكما قاسيا، ولكن تؤيده الممارسات الجارية وكثير من الضباط اليائسين أخلوا وطهروا السجون؛ لكى تملأ بصفوف الضباط، وفى عام ١٧٧٦ اكتشفت الملازم ديدوت (Pidowt) من الكتيبة السادسة والأربعين بعض الصبية المهذبين جدا فى سجن شرويسبيرى لتهم بسيطة، وحصلوا على العفو، وتم وضعهم فى كتيبته، وترقى أحدهم شاكرًا هذه الفرصة ليصل إلى مرتبة رقيب رجال خلال الحرب الأمريكية(٧).

وكانت هناك أعمال إجرامية لا أمل فى إصلاحها، وكانت الحرب فرصة للسلب والنهب، وكان سلوكهم قد أعطى لرجال الدعاية الأمريكية الكثير من القصص عن الوحشية البريطانية، وحتى الرجال ذوو الأخلاق الحسنة انضموا إلى عمليات السلب، والتى اعتقد البعض أنها مكافأة على النصر، أو مجرد الانتقام ضد المدنيين الذين أهانوهم وأيدوا سرًا أعداءهم، وربما يكون هذا سبب تشجيع الضباط لرجالهم للسرقة أثناء الحملة حول بوسطن فى أبريل ١٧٧٥(٨).

لقد سرق الرجال المتهورون ضباطهم، ووجد الكابتن بيبلز (Peebles) من بلاك ووتش (Black watch) بعض الصفوف وست زجاجات أو سبع من الخمور قد أخذت من خيمته، ولاحظ أن هناك بعض الأنذال الحزانى فى كتيبته، وكانوا أشرارًا بدرجة تكفى لفعل أى شىء، كما كانوا ماكرين بدرجة كافية لهروبهم(٩).

ومما لا شك فيه أن هذه المفاسد قد استهلكت، لكن كان هناك الكثير من الأسواق الأمريكية المستعدة لشراء السلع المسروقة من الجنود وإعادة بيعها(١٠).

إن إمداد الأوغاد لم يكن كافيًا لمواجهة مطالب إستراتيجية جيرمين ولهذا تم إحياء عملية توقف حرب السنوات السبع وتم شراء المرتزقة.

وفشل تقديم عرض إلى تساريتزا كاترين لعشرين ألفا من الروس، ولهذا اتجهت الحكومة إلى لاندجراف فى هيس كاسييل، الذى أثبت أنه شاكر وممنون، وعلى كل الأحوال خدم ١٩,٠٠٠ ألمانى الثلثان من الهس مع الجيش البريطانى فى أمريكا الشمالية، وتم استبعاد ثلاثة آلاف، وقتل ٥٠٠ نتيجة لعمليات العدو ومات ٥٠٠٤ من الأمراض[١١].

وعلى العموم أثبت الهيسيون (مواطنو ولاية هيس فى ألمانيا الغربية من المرتزقة الذين خدموا فى الجيش البريطانى أثناء الثورة الأمريكية) أن لهم قيمة جيدة لأنهم فى حاجة للمال، وهم شجعان مدربون، وحيث إنهم تربوا حسب عادات الرضوخ باعتبارهم رعايا للألمان الأتوقرافيين فكانوا على استعداد للحرب من أجل حقوق الملكية ضد عدو صورته الدعاية البريطانية كأشرار غير إنسانيين.

وكشف اثنان من الهيسيين الذين تم القبض عليهم فى عام ١٧٧٦ إلى طبيب جراح فى الجيش الأمريكى أنهم أخبروه أن معارضيهم متوحشون وبرابرة، وأنهم عذبوا السجناء بالطريقة الهندية.

أما الجزء الأكبر فقد حارب الجنود البريطانيين، بإحساس الواجب والولاء أولا إلى زملائهم ورفاقهم، وبعد ذلك إلى وطنهم، أما الضباط من أصل أرستقراطى وكانوا غالبية، فكان لديهم احتقار لزملائهم الذين كانوا أقل منهم فى الوضع الاجتماعى.

وكتب الميجور لورد رودون (Rawdon) مساعد كلينتون يقول"أتمنى أننا سوف نتخلص من هؤلاء الأوغاد؛ لأن الإنسان يلوث أصابعه بالتعامل معهم"[١٢].

أما الكابتن بيبل (Peebles) فكان غاضبا باتهام صـــاحبة الأرض لـــه، والتى كانت امرأة جشعة وماكرة مثل بقية اليانكيز (Yankees) ولكنه شـــعر أيضا بالعطف على هؤلاء الذين انساقوا إلى الحرب دون رغبـــتهم، وبعـــد محاكمة عسكرية لأحد الرجال الذين أنقذوا مـــن المـــشنقة بـــسبب وســـاطة ضحيته، كتب فى دوريته (جورنال) " إنه صعب مصير عدد كبير من الذين يعانون بشكل غير متميز فى حرب أهلية[١٣]".

كان ويبيل مثل غيره من الرجال الطيبين مستاءً من منظر المحروقين ومصير العائلات التى طردت من بيوتها، لقد أسلمت السخرية من قدرة القتال الأمريكية بسرعة إلى احترام متذمر، وتعلم كلينتون بعد عام من الحملات أن الأمريكيين قد تدربوا على الخدع الحربية، وأنهم عرفوا كل خـــداع الـــنفس والمراوغة، وأنهم كانوا أيضا قادرين على الحرب بالطريقة التقليديـــة التـــى ظهرت فى يونيه ١٧٧٥[١٤] خلال النضال والصراع من أجل تـــلال بريـــد (Breed) وبانكر (Banker) المطلتين على بوسطن، وعلاوة على ذلك فإن فى الشمال اتخذ بينت أرلوند والجنرال ريتشارد مونتجومرى المبـــادرة وشـــنا حربًا على كندا وأعلنا أنها حرب تحرير.

وعندما كان الأمريكيون يتقدمون نحو كويبك طالبوا الفرنسيين الكنديين بتحرير أنفسهم من الطغيان، ولفترة من الوقت كـــان مـــن المتوقـــع أنهـــم يستطيعون ذلك، واشتكى أحد الضباط البريطانيين والجنرال حوى كـــارلتون حاكم كويبك وأحد المحاربين القدامى فى حملات وولف من حديث الكنـــديين عن هذه الكلمة السخيفة "الحرية" وخشى من ارتداد رجاله "عسكريين[١٥]".

وفى الحقيقة ظل معظم الكنديين على الحياد وانتظروا رؤيـــة النجـــاح الذى سيحققه الأمريكيون. لقد كان قدوم الشتاء وقرار مونتجومرى الأحمـــق لحصار كويبك مع هذا العدد الضخم من القوة، ودفاع كارلتون المترجل، كل

هذا تجمع من أجل إحباط الأمريكيين. وفى مايو ١٧٧٦ استطاع أسطول بريطانى تحرير المدينة، وفى نفس الوقت انسحب أرنولا مع بقايا الجيش.

وكان من المستحيل السيطرة على بوسطن، كما أن العلاقات بين سكان المدينة والجنود كانت سيئة جدًا، وسيطر الأمريكيون على المناطق الداخلية المباشرة والمجاورة، وفى مارس ١٧٧٦ أمر هاو القائد العام بالجلاء عن المدينة "ليس ممكنا أن نصف إليك ارتباك كل شيء هنا " حيث أخبر الضابط تشالز كوشرين الملك.

ولكن وقعت (تحت نيران هؤلاء الأوغاد) المخازن الباقية السابق الإشارة إليها مع أعداد كبيرة من النساء والأطفال وأصدقاء الحكومة وهى عملية لم تحدث من قبل.

إنها ذروة عام من الذل والخضوع، وأضاف كوشرين متأسفا: إن مصيرًا سيئًا غير عادى قد ألم بشئوننا من البداية للنهاية بعد الاندفاع المذعور عبر هذا الشتاء غير المناسب، مع مساعدة بسيطة من أى جزء، لدرجة أننا يجب أن نجعل ضوء القمر ضعيفا وهو أمر يدعو إلى الضيق والضجر(١٦). برغم هذا وجد كوشرين أساسًا للتفاؤل، واعتقد أن فرص الجيش سوف تنتعش مرة ثانية بمجرد أن تطبق إستراتيجية جيرمين الكبرى، وكانت ثقة كوشرين فى غير موضعها، وضمت أرض معركة أمريكا الشمالية مليون ميل مربع معظمها مغطى بالجبال وأراضى الأشجار الصغيرة، وكان من السهل ابتلاع الجيوش فى هذه الأراضى الوعرة الموحشة، والتى كانوا يسيرون خلالها بشكل أعمى، وكان كلينتون وهو يعبر نيوجيرسى عام ١٧٧٨، كانت لديه فكرة غامضة عن المناطق المجاورة لواشنطن حتى تمت مهاجمته فى مونموث(١٧).

إن امتلاك مدن كبرى يرجع إلى أمور أقل منها كما هو في أوربا بسبب الموارد الاقتصادية مثل مصانع الصلب التي كانت منتشرة في بوسطن ونيويورك وفيلاديلفيا وشارلتون، وكلها كانت تحت السيطرة البريطانية في فترات مختلفة، ولكن احتلالها لم يفعل الكثير لإعاقة جهد الحرب الأمريكية، وربما تغلب القواد الشجعان والخياليون على هذه المصاعب، ولكن التفكير في القيادة البريطانية العليا لم يكن مجديًا، وعلاوة على ذلك صار كلما تطورت الحرب ضمن هيكل القيادة البريطانية مهزوزا، واحتفظ جيرمان وهو في لندن بإستراتيجية التوجيه كلها، ولكن تعليماته إلى القادة في أمريكا كانت تتأخر من نحو ثمانية أشهر إلى عشرة؛ لأن السفن التي تحملها واجهت رياحًا عكسية، وظل سوء الفهم بينه وبين التابعين له دون تصحيح، وفي بعض الحالات كان القادة في الميدان بلا أي اختبار يتبعون رأيهم الخاص، وكان جيرمين يبذل جهدًا شاملاً وكاملاً، بينما لا يزال نورث يأمل في تسوية تفاوضية، واحتاج الأمر وقتا للكشف عن هذه الأخطاء، وقد بدأت عمليات هاو (Hawe) في صيف ١٧٥٦ بطيئة، ويرجع السبب إلى تأخير دعم القوات، وقد قرر أن يركز قواته في نيويورك وسط منطقة حيث كان الولاء فيها قويا، وكان النزول على ستاتين إيلاند (Staten Istand) بطيئا، وفي منتصف أغسطس أرسل هاو جيشه القوى المكون من ٣,٠٠٠ جندى خارج دفاعات مدينة نيويورك، وكقائد مجتهد وصلد تقدم هاو بحرص، وكان القيام بذلك قد ضيع الفرصة للاشتباك مع الأعداء في معركة حاسمة.

ولفترة من الزمن كان واشنطن مستعدًا للمخاطرة ببقية الجيش لإنقاذ المدينة، ولكن هاو لم يدخل المعركة، بدلا من ذلك هاجم المنشآت الأرضية للعدو شيئا فشيئا، وعندما اتضح أن نيويورك ستسقط توقف عن مواصلة تعقب الجيش الأمريكي.

وحيث إنه لا حاجة لضربة المطرقة التى تخيلها جيرمين لإنهاء الحرب، فقد دل نجاح هاو حول نيويورك أثناء خريف عام ١٧٧٦ أن الجيش البريطانى لا يهزم، وفى نهاية نوفمبر شعر بالقوة الكافية لكى يصدر إعلانا فيه عفو دون شروط لكل الثوار الذين استسلموا وأعادوا ولاءهم من جديد لجورج الثالث، وكان الكثيرون من الأمريكيين الذى شعروا بالحالة المؤلمة لجيش واشنطن سعداء لقبول رأفة هاو واعتداله، ويبدو أن حالة المستعمرين ومزاجهم قد تغيرا، وأن عدة الانتصارات التى حققها هاو لحسابه مع القاعدة فى نيويورك جعلته يشعر أنه يستطيع تغيير إستراتيجيته وعلى هذا فإن هدفه كان احتلال منطقة بدلا من التملق بواشنطن فى اشتباك واسع بحصص سياسية، كما أن وجود القوات البريطانية فى منطقة سيجمع الموالين المحتلين، وقد تحركت كتيبة من البريطانيين والهوسيين على شكل مروحة عبر ديلاور ونيوجيرسى، وفى البداية سارت هذه الحملة بشكل جيد ولكن واشنطن لأسباب سيكولوجية وعسكرية أخذ موقع الهجوم، وتغلب على وحدة حسين (Hessian)، فى ترينتون فى يوم عيد المسيح، وتبع هذا انقلاب آخر فى برنستون بعد أسبوعين.

وكانت معارك ترينتون وبرينستون على نطاق ضيق ولم يكن لها أثر قوى على الرأى الأمريكى، وفى يوليو ١٧٧٦ ناضل الراديكاليون داخل الكونجرس وحصلوا على إعلان الاستقلال الذى قطع كل الصلات مع بريطانيا، وقضى على أى توافق فى المستقبل يقوم على السيادة البريطانية على أمريكا، ومن المستحيل أن تقدر عدد الأمريكيين الذين أيدوا هذه الخطوة، وقد أحصى جون أدام، أحد الموقعين على الإعلان أن نحو ثلث المستعمرين كانوا إلى جانب الاستقلال، وأن البقية إما من الموالين أو حيادين، وإذا حكمنا حسب عدد الذين استفادوا من عفو هاو كان الميزان فى خطر التأرجح ضد مؤيدى الاستقلال.

لقد قلب برينتون وبرنستون هذا الاتجاه بإبراز أن الجيش البريطانى جيش لا يقهر، وأن الكثير من المعارك الباقية فى أمريكا، أحدث ضربة ضد عملية الولاء، والتى بدأت تذبل فى ديلاور ونيوجيرسى ولخص وليم سميث (Wiliam Smith) طبقة الموالين، وخلال الحرب وهو رئيس القضاة فى نيويورك "كم كان غير مجيب لآمال الأمريكيين الذين انضموا إلى الجيش البريطاني" ولن يكونوا أمناء إلا بغزو وطنهم الخاص وإذا انتصرت أمريكا بالسيف أو نالت امتيازات الرضا فإن هذا يعنى تدمير حزب التورى (Tory)، وفى كلتا الحالتين يجب أن يتخلوا عن القارة، وفى الفترة الفاصلة يجب أن يدبروا مورد الرزق الذى سيكون للكثيرين منهم دمارًا مباشرًا[١٨]، وفقد البريطانيون الحرب من أجل العقول والقلوب".

وسجلت سنة ١٧٧٧ نقطة تحول فى الحرب، فبعد عام من القتال أحرز الجيش البريطانى تقدمًا بسيطًا، حيث لم تكن هناك أى إشارة للنصر على الأمريكيين، وكانت الغارات فى المنطقة التى تحت حوزة الكونجرس محدودة، كما ثبت أن دعم الموالين وتأييدهم مخيب للآمال، وكان هاو متشائما. وفى أوائل يناير أخبر هاو كلينتون بأنه يتوقع أن تستمر الحرب على الأقل عامًا آخر، ولاحظ كلينتون الذى عاد لتوه من إجازة فى بريطانيا أن الحكومة ترغب فى تحقيق نصر سريع مع حلول الشتاء، وأجاب هاو "إذا لم يقم الوزراء بتنفيذها عاما آخرا فإنه من الأفضل التخلى عنها الآن"[١٩].

وكانت إستراتيجية جيرمين لعام ١٧٧٧ هى غزو بنسلفانيا بوحدات من جيش هاو، وفى نفس الوقت سوف تقوم قوة مشتركة من ثمانية آلاف بريطانى وحسينى وكندى وهندى بقيادة بيرجون من ناحية الجنوب على طول نهر هدسون، حيث ستنضم إليه تعزيزات أرسلها هاو من نيويورك، وإذا استمر كل شىء حسب الخطة، فإن إسفينا سوف يحدث بين المستعمرات

العسكرية فى نيوإنجلاند، وبقية أمريكا، وكان هذا ما ينوى جيرمين تحقيقــه، وأصبح من الواضح فى رسالة كتبها فى ١٨ مايو، وقد تـسلمها هــاو فــى السادس عشر من أغسطس، عندما وقع فى مستنقع فى بنسلفيانيا ولم يعد فى وضع يسمح له بمساعدة بيرجون.

يقع اللوم فى هذا الخطأ على هاو، وفى مارس، قرأ الملخص العام فى إستراتيجبة جيرمين، ولكنه اعتقد أنه سيتجاهل التزامه لبيرجون، وشـــعر أن التقدم على البينى كان مسألة سطحية، وأن الهجوم على بنسلفانيا كــان مــن بنات أفكاره، ويحتاج إلى معظم موارده وكل طاقاته، وكانت هذه تعتز بشكل ملحوظ خلال الربيع، كما أن الاستعدادات لحملة بنسلفانيا قد اكتملت فقط فى نهاية يوليو، وفى هذا الوقت كانت غالبية الضباط الكبار عند هــاو تـضغط عليه لمساعدة بيرجون.

وصدرت إليه الأوامر أن يفعل ما يستطيع، لتأييد بيرجون، لقد حدثت بعد ذلك هزيمة كاملة[٢٠]، وتم قطع خطوط الاتصال ببيرجون، وأغلق طريقه بقوات أعلى، وبدلا من أن ينجو بحياة رجاله فى معركة لم تكــن لديــه أى فرصة للكسب فيها، واستسلم بيرجون بجيشه إلى الجنرال هوراتيو جيتس فى سراتوجا فى السادس عشر من أكتوبر.

ولم تكن هناك تعويضات فى بنسلفانيا حيث لم يملك هاو شيئا ســوى سوء الحظ، وفى براندوين لقن جيش واشنطن هزة عنيفة، ولكن الأمريكيين هربوا فى اللحظة الأخيــرة، وتم الاستيلاء منذ أن فشل البريطــانيون فــى الحفاظ والسيطرة على نهر ديلاور.

وأكدت أحداث خريف ١٧٧٧ إعلان الاستقلال وإحياء الجمهورية الأمريكية وتحطم الإستراتيجية الكبرى لجيرمين، كما تبددت الآمال فى استرداد السيادة

البريطانية فوق كل المستعمرات، أما فرنسا وهى دولة حيادية، فقد ألقت بثقلها مع المستعمرين فى فبراير ١٧٧٨، وصار النضال الأمريكى جزءًا من الحرب الكونية.

وعكست إستراتيجية جيرمين الجديدة الوضع السياسى المتغير وضعف بريطانيا، وصار النصر الكامل فيما وراء قبضة الجيش البريطانى، ولهذا اتجهت كل الجهود نحو (إنقاذ) عملية الغزو والإبقاء على جورجيا وكارولينا حيث كان الولاء فيهما لا يزال قويا.

لقد قاد كلينتون حملة الغزو والتهدئة، وكان كلينتون قد حل محل هاو باعتباره قائدًا عامًا، وبدأ عمله بشكل متفائل حيث تم الاستيلاء على سافانا (Savannah) فى ديسمبر ١٧٧٨، وكارلستون فى مايو ١٧٨٠، والآن أصبحت حالة الجيش النفسية طيبة، وأحس البعض أن نهاية سريعة ومنتصرة لهذه الحرب صارت وشيكة.

وكتب الجنرال روبرتسون إلى جيرمين عندما سمع بأخبار سقوط تشارلتون (Charltown) "إن بريطانيا سوف تستعيد عظمتها السابقة، وإن مسألة أنك ستترك الأجيال لمناقشتهم ستكون عما إذا كانت الشجاعة أو الإنسانية لها النصيب الأعظم فى إبقاء أمريكا إلى درجة الطاعة[٢١]".

وعندما تقدمت الحملة فى كارولينا عادت مشكلة الولاء القديمة للظهور من جديد، وكان هناك كما كان متوقعًا عدد كبير من الموالين، ولكن سوف يتعاونون إذن مع الجيش البريطانى ضمن سلامتهم.

وأما بعض هؤلاء الذين فعلوا ذلك فقد وجدوا أنفسهم فى حرب إضافية من الرعب المضاد الذى شنه الأعداء بشراسة ضخمة فى أجزاء أبعد من جنوب كارولينا. وفى عام ١٧٧٩ كانت هناك محاولة بريطانية لضمان

مساعدة العبيد. وفى نوفمبر ١٧٧٥ قام اللورد دينمور (Dunmore) الحاكم النشيط والمتحمس فى نوفمبر ١٧٧٥ باستمالتهم، واستطاع السيطرة على ثلاثمائة من الهاربين من كتيبته الإثيوبية، والتى حملت زيا رسميا شعاره "الحرية للعبيد"[٢٢].

ولقد ارتعدت فرائص الأرستقراطية فى كل مكان، وتحولت جرأة وينمور فى النهاية إلى هزيمة ذاتية، حيث إنها طردت البيض المفزوعين فى جيش الكونجرس، وما بين أعوام ١٧٧٩ - ١٧٨١ شق الألوف من الزنوج طريقهم إلى الجيش البريطانى استجابة لعرض كلينتون بتحقيق الحرية لأى عبد من الثوار. ووجد معظمهم أنفسهم، عمالاً يقومون بأعمال أرضية أو رعاية قطار نقل الجيش الجماعي.

وفى نهايه الحرب تم نقل أعداد ضخمة منهم إلى نيويورك حيث كانوا يباعون مرة ثانية للعمل على أساس أنهم عبيد[٢٣].

ولم يحدث الموالون البيض أو العبيد السود الذين انضموا جماعات للجيش البريطانى أثناء تقدمه عبر كارولينا أى أثر على الحملة.

وحقق الجنرال السير تشارلز كورن واليس (Charles Corn) الذى صار مشغولا عن العمليات نصرين فى كامدن فى أغسطس ١٧٨٠، وجبل فورد هوس فى مارس التالي، ولكن كان يعوزهما الرجال الذين يحافظون على احتلال دائم للمنطقة التى سقطت فى أيديهم.

وفى أكتوبر ١٧٨١ جاءت نهاية الحرب فى الجنوب دون توقع فى يورك تاون، وأدت الأحداث فى هذه المعركة فى كثير من الأقوال إلى عودة من جديد إلى تلك التى وقعت فى عام ١٧٧٧. ومرة ثانية تعرضت القيادة البريطانية العليا إلى سوء الحظ والتشويش، والتى انتابت البلاد بسبب الشعور

السيئ بين كلينتون وكورن وواليس الذى اتهم قيادته العليا بإماتة رجاله من الجوع، وكان هذا مجالا للنقاش، لكن الذى كان مؤكدًا فى أوائل عام ١٧٨١ أن القائدين لم تكن لديهما أية فكرة واضحة عن أفضل الوسائل لنشر قواتهما.

وفضل كورن واليس شن هجوم على فيرجينيا، ومحاولة غزو غير متكامل، وبعدها يستقر فى وليم سبورج انتظارًا لتعليمات كلينتون. وكان هذا الأخير قد أقام شبكة من المخابرات القوية، لكنه كان يخشى هجومًا على نيويورك ويأمل أن ينفذها بعمليات متفرقة تتم فى بنسلفانيا، أو رود أيلاند بالتعاون مع كورن واليس، وللمزيد من مضايقاته صدرت الأوامر إلى كورن واليس ليكون على أهبة الاستعداد لجلاء محمول بحريًا، ولهذا الهدف وضع جيشه داخل معسكر محصن فى يورك تاون على فرع نهر يورك فى جنوبى فيرجينيا، وفى نفس الوقت تحقق الهجوم الأمريكى الفرنسى على نيويورك. وعند هذه النقطة أصبحت الحملة البحرية مفتاح الحملة، وطالما أن الإمدادات والتعزيزات تستطيع المرور بحرًا بين يورك تاون ونيويورك فقد صار كور واليس وكلينتون فى أمان نسبيًا.

ولم تكن هذه الحالة بعد أوامر أغسطس عندما وصل أسطول الأدميرال دى جراس من الهند الغربية (وست إينديز) واتخذ مواقعه فى خليج شيسابيك. وبعد عملية قصيرة وشاملة تراجعت حملة شمال أمريكا البريطانية إلى نيويورك، وبهذا انتهت فرص كور واليس فى تعزيز قواته والهروب، حيث إن ميزان القوة البحرية انقلب ضد بريطانيا، فقد حذر واشنطن من نيّات جراس، وأنهى معسكره وبدأ الاندفاع لمسافة أربعمائة وخمسين ميلاً من نيويورك إلى يورك تاون. والنتيجة أن كور واليس صار منعزلاً أمام قوات تفوقه عددًا. وتحت ضغط القذف استسلم بجيشه فى السابع من أكتوبر،

وحيث إن رجاله وضعوا أسلحتهم عزفت الموسيقى أغنيه شعبية تقول "لقد انقلب العالم رأسا على عقب".

وكانت الكارثة في يورك تاون صدمة عميقة على البريطانيين، فقد ضاع الجيش، وتبخرت آمال السيطرة على المستعمرات الجنوبية، ولفترة ظهرت علامات الإرهاق من الحرب على كل من الجانبين، وصارت هناك عمليات تمرد خطيرة من القوات الأمريكية؛ لأنها لم تكن راضية بما تأخذه من أجور، وفي عامي ١٧٨٠، ١٧٨١ كانت هناك إشارات بأن نظام بعض الفرق البريطانية قد انهار، وفي فبراير ١٧٨١ لاحظ الكابتن ببليز (Peebles) الذي استقر في نيويورك أنه هو وإخوانه من الضباط كانوا يتعاطون الشراب أكثر من المعتاد، وفي حفل كبير أعده الحاكم العسكري في مارس ١٧٨١ كانت هناك رقصات ريفية حتى الواحدة صباحا، عندما تناولوا وجبة العشاء، وغادرت النساء في نحو الثالثة صباحًا، وبعدها أغلق الناس المهذبون ملفاتهم وشربوا وغنوا حتى الساعة الثامنة، عندما انتقلت البقية الباقية إلى حجرة أخرى وتناولوا وجبة الإفطار، وبعدها ذهبوا إلى مضاجعهم، وزار بعضهم شركاءهم وزملاءهم، والبعض اتجه إلى بيوت الدعارة[٢٤].

ولمدة ستة أشهر رفض جورج الثالث ورفاقه الاعتراف بحكم المحلفين في يورك تاون، وتمنى عدد قليل من المقاومين بعناد بمن فيهم كورن واليس استمرار الحرب، ولم يكن نورث واحدًا منهم، وفي مارس عام ١٧٨٢ قبل الملك في النهاية استقالته، وكان رئيس الوزراء الجديد روكنجهام (Rockingham) معتدلاً، وبعد فتح باب المفاوضات مع الأمريكيين، وكان الدفاع الناجح عن جبل طارق واستعادة السيادة البحرية في الكاريبي قد عززت الدبلوماسية البريطانية، وأثبت الأمريكيون استعدادهم للامتناع عن ادعائهم في كندا، على أساس أن الوجود البريطاني في أمريكا الشمالية ضمان ضد احتمالية التوسع الفرنسي والإسباني في المنطقة.

وبرغم هذا كانت بريطانيا مضطرة إلى التنازل عن هذه الأراضي غرب نهر المسيسبى التى أصبحت منضمة إلى كندا، حسب شروط قانون كويبك، لقد سبق زيف تنبؤات ما قبل الحرب بأن الإمبراطورية البريطانية لن تعيش بعد فقدان المستعمرات الأمريكية، ومن الطبيعى أنه كان هناك انزعاج وخوف حول النتائج التجارية لقطيعة بين بريطانيا وأمريكا، وفى يناير ١٧٨١ جرت محاولة مسعورة للإبقاء على السوق الأمريكية داخل قانون التبادل الأمريكى (American Intercourse Bill)، ولكن هذا الإجراء كان مخططا لإعفاء التجار الأمريكيين من قوانين الملاحة، لكنه لم يكن ضروريا لأن نقاد القانون أشاروا أن الجمهورية الجديدة لن تعيش اقتصاديًا بدون بريطانيا.

ولقد كان هذا صحيحا؛ حيث زاد حجم التجارة الأنجلو أمريكية بشكل حقيقى بعد عام ١٧٨٣ خاصة صادرات القطن الخام التى ارتفعت من متوسط سنوى ١٥,٥ مليون جنيه فى أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر إلى ٢٨,٦ مليون فى عام ١٨٠٠، وتستطيع فقط مزارع إنتاج القطن الآلية جزئيا والمزارع التى يعمل فيها العبيد إنتاج المطلوب لإشباع رغبات مصانع لانكشير التى تعمل بالآلات، ومع عام ١٨٤٠ كانت ٨٠% من إمدادات لانكشير من القطن الخام تأتى من أمريكا، وقد أدى فشل إنتاج المحصول فى عامى ١٧٩٩،١٨٠٠ إلى قيام المستوردين البريطانيين من الحبوب لشراء الفائض الأمريكى، الذى ساعد ما بين أعوام (١٨١٠ - ١٨١٢) على إطعام الجيش البريطانى فى إسبانيا والبرتغال.

وكان استمرار نمو التجارة الأنجلو أمريكية بعد عام ١٧٨٣ قد أثبت كذب القول بأن التجارة فى المستعمرات تعتبر سوقا خارج الأسواق التى تحميها وتشرف عليها المصالح الاقتصادية للدولة الأم، فلقد انهارت الدعامة

الفكرية التى أيدت نضال عام ١٧٧٦ مع نشر رواية آدم سميث "ثروة الأمم" (Wealth of Nations) التى صدرت فى خمس طبعات قبـل وفـاة المؤلـف فى عام ١٧٩٠، وكان غرض سميث من هذا وغيره من الأمـور الأخـرى قياس التقدم البشرى واستخدام حساباته لتشكيل القوانين الطبيعية التى حكمت النشاط الاقتصادى، وكانت النتيجة واضحة فى السوق الحرة التى تعد نتاجـا للمنافسة البشرية الطبيعية، التى لم تقدرها القوانين الرسمية، ولـم تعرقلهـا الاحتكارات، والتى تزود التوزيع الأكثر كفاءة للموارد والفوائـد العظمـى للمستهلك، وحسب آراء سميث كانت المستعمرات مليئة بالثروات الـوفيرة، وكان جهاز رقابة الدولة على تجارتها عائقًا على التجارة التى تـدخلت مـع قوى السوق الطبيعية ورفعت الأسعار. والـدليل غيـر المباشـر لجـدوى التنظيمات قد حدد رد فعل السوق للتجارة الرسمية التى تحرم الحظر علـى التجارة خلال الحرب الأمريكية، وعندما كانت القيمة الـسنوية مـن الـسلع المهربة تقاس بما لا يقل عن مليونى جنيه، وتستطيع دولة تجارية محنكة مثل بريطانيا أن تنتعش فى سوق حرة دولية موسعة.

وثبت ذلك فيما وراء التساؤل، من خلال نمو التجارة غير الاستعمارية أثناء تسعينيات القرن الثامن عشر خصوصًا مع أمريكا وأوربا.

لقد أضعفت نظريات سميث ونظام ما بعد الحرب للتجارة البريطانيـة المناقشات الاقتصادية التى بررت وجود الإمبراطورية، وعلاوة على ذلـك أوحت أحداث الحرب الأمريكية بشدة أن بريطانيا بعد أن وسـعت مناطقهـا من خلال انتصارات أعوام (١٧٥٩ – ١٧٦٢) قد زادت الموارد العـسكرية والبحرية إلى نقطة حيث صار الانكماش حتميا، بل مرغـوب فيـه، وقـد منعت المشكلات الفرنسية العملية وليس قوة الأسطول المحلى محاولة غـزو عام ١٧٧٩.

وكان الإجهاد كبيرًا جدًا، واحتاج فقط خسارة مؤقتة فى القوة البحرية فى مياه أمريكا الشمالية خلال خريف عام١٧٨١ ليوضح أن الدفاع عن الإمبراطورية الكونية يتطلب من بريطانيا أن تكون قوية بقدر متساو فى كل مكان. إن استسلام كورواليس فى يورك تاون كان صدمة سيكولوجية لكنها لم تكن مفاجئة.

لم تبرز أية أيديولوجية سياسية استعمارية متميزة بعد غزوات مثيرة لحرب السنوات السبع، وبعد ذلك كانت ملكية إمبراطورية واسعة فيما وراء البحار بشكل عام مصدر الثروة وآثار الفضائل ظهرت قوية، خصوصا تلك التى ظهرت على أرض المعركة، وفى عام ١٧٧٨ كتب أحد الموالينَ الأمريكيين اليائسين يقول: "أخشى أن هذه الدولة قد دخلت فى مرحلة من الأنانية والانحطاط والكسل لدرجة أنها لن تنهض إلى حالة من الرجولة والجهد النبيل كما يتطلبه وضعها الحرج".

أما عن السؤال عما إذا كان تدهورها أسهم بشكل واضح فى التخطيط والقيادة الفقيرة دون أن تترك دون تساؤل.

وأن الأزمة فى أعوام (١٧٧٤ - ١٧٧٦) مع هذا قد ولدت دراسة للطبعة السياسية للإمبراطورية، ومناقشة عن مستقبلها، وقبل بعض البريطانيين من حزب الهويج والراديكاليين أنه لا توجد أسباب سياسية أو أخلاقية لمنع الأمريكيين من اختيار طريقهم الخاص، حتى لو أن هذا يعنى الاستقلال.

وبحسب الشروط العملية، فإنه من السخرية أن ننفق مبالغ ضخمة من المال للإبقاء على المستعمرات، وفى نفس الوقت الزعم بأنها مصدر حيوى للثروة القومية، كما أن ترك الرقابة الصارمة من لندن وإحلال بعض أشكال الحكومة الذاتية الأمريكية لن يحل الاتصال الاقتصادى بين بريطانيا وأمريكا

الشمالية، وإذا كانت لا توجد أى روابط استعمارية بين بريطانيا والمستعمرات، كما أشار العديد من الأمريكيين، بأن هذا يمكن أن يتمثل في الحرية الشخصية والمؤسسات التمثيلية.

وقد أثر التفكير عن هذه الخطوط فى السياسة الرسمية لما بعد الحرب تجاه المديريات الكندية، وبعد عام ١٧٨٣ انضم سكانها إلى آلاف اللاجئين والجنود السابقين فى جهاز الموالين الذين حصلوا على منح من الأرض، وأيضا كانت هناك مشروعات لتقديم المساعدات المالية إلى المستقرين الجدد الذين أنهوا عدم التوازن الديمقراطى بين المستعمرات البريطانية والفرنسية، إن المستقبل السياسى لكندا قد نال اعتبارات من خلال خطط الجمعيات السياسية التى تتمتع بسلطات وحقوق شبيهة بتلك الموجودة فى البرلمان البريطانى، كما أن اتخاذ مثل هذا الخط أبرز الحكومة البريطانية على أنها قد تعلمت شيئا ما من الثورات الحالية فى أمريكا، ولكن المأمول فيه أن أرستقراطية الثروة والموهبة ستظهر فى كندا التى من الطبيعى أن ترتبط بالتاج البريطانى أكثر من قيادة حركة لحكومة ذاتية كاملة.

ومن المستحيل فى أماكن أخرى أن نتقدم بسياسات من ذلك النوع الذى فرض على كندا التى ستعود فى النهاية إلى استقلالها الحتمى، أما مستعمرات الكاريبى المعرضة للسقوط فى أيدى فرنسا مع سكانها الكثيرين من العبيد، فتحتاج إلى الحماية البريطانية، كما حدث لمراكز غرب أفريقيا التى كانت مصدر اليد العاملة لجزر الهند الغربية، أما بالنسبة للهند فقد واجهت مشكلة كيفية تأكيد السلطة على عملية التوسع الإقليمى التى بدا أنها خارجة عن السيطرة.

(٦)
الرعب من أسلحتنا
الغزو والتجارة فى الهند
(١٨١٥ـ ١٨٨٩)

لقد أظهرت واحدة من الصور المرسومة على قطعة قماش خشنة والمحفورة ما بين (١٧٢٨ - ١٧٣٠) والتى رسمها النحات مايكل ريشبراك (Michacl Rysbrack) لقطعة مدخنة فى مجلس الهند الشرقية وبريطانيا، وهى تتسلم ثروات الشرق فى شكل امرأة نصف مرتدية ملابس قطنية، وهى تعرض كنزًا على شكل صندوق صغير، وقد تم تصوير صورة مطابقة لها تمامًا على سقف مدهون بالزيت نفذه الفنان الإيطالى بعد خمسين عامًا، ويدعى سبيريدون (روما بريتانيكا) وأسد أسفل قدميها يفحص خيطا من اللؤلؤ أخذه من وسادة تمسكها امرأة هندية، وهناك امرأة أخرى وهى تمسك سلعة كبيرة على الطراز الصينى من المفروض أنها مليئة بالشاى تأمرها ميركورى آلهة التجارة، وهناك شخص آخر يقترب ومعه لفة ربما مليئة بالقماش الخام والموسولين (قطن)، وفى خلفية هاتين اللوحتين والرسمين بالزيت تمثيل للأب ثيمس (Thames) وهو يذكر بأن لندن كانت المستفيد الرئيسى من هذه الثروة الشرقية المتدفقة.

وبينما تجسد الرسومات والزينات لمقر شركة الهند الشرقية التجارة البحتة هناك بشكل متميز، وهى النظرة الاستعمارية لهذا القوس المبنى أمام مبنى الحكومة فى كلكتا فى أوائل القرن التاسع عشر، والرومانى فى عظمته

وحجمه، والقوس المركزى العظيم والتوهج بجسد من الحجر، وقاعدته مؤثرة وعظيمة، وخلف هذه البوابة المهيبة يقع مبنى الحكومة، وهو قصر بالطريقة الجورجية للبالادين تواجهها أعمدة رخامية طويلة.

لقد تم تشييد هذه المباني في كلكتا ومثيلها في العظمة في مدراس، وكانت خير شاهد على الثورة التي حدثت في الهند خلال الستين عاما الماضية، وفي عام ١٧٤٠ كانت شركة الهند الشرقية مشروعًا تجاريًا صرفا يصدر ويستورد السلع من المصانع في بومباي ومدراس وكلكتا دون خوف من السياسات الداخلية في الهند، وفي عام ١٨١٥ امتلكت الشركة أقوى جيش في الهند، وحكمت بشكل مباشر أو غير مباشر البنغال ومعظم حوض الجانجر الأعلى ومناطق واسعة من شرقي وجنوبي الهند. وخشى الأمراء الهنود المستقلون قوتها وسعى الكثيرون لصداقتها وحمايتها، والأهم من كل هذا كانت الشركة تستعرض عضلاتها على أنها قوة آسيوية عظيمة خلال السنوات العشرين الماضية، وقد شاهد جيشها وأسطولها أعمالاً في الجزيرة العربية وموريشيوس ومالقا وجاوة.

وكانت التجارة هي الأهم، لكن أقل مما كان من قبل. ومنذ عام ١٧٩٣ قامت الحكومة البريطانية بالحد من احتكار الشركة الشرقية التي وقعت تحت تأثير نظريات آدم سميث الاقتصادية، وفقدت الشركة الكثير، ومع حلول عام ١٨١٠ استولى المتطفلون على ربع السوق الهندى، وكانوا يبيعون بضائع بما قيمته مليونا جنيه سنويًا.

وسادت الأنماط المتغيرة للتجارة في الشركة، خصوصا استيراد خيوط القطن من لانكشير، والتي كانت جارية الحركة مع أوائل القرن التاسع عشر والتي أدت إلى صناعة القطن في قرى الهند. وكانت هناك أيضا التجارة المزدهرة من خلال طريقين مع الصين التي استردت الأفيون البنغالي،

وصدرت الشاى للسوق البريطانى، وكانت صادرات الأفيون تعادل مليـون روبية فى عامى (١٨٠٢ ، ١٨٠٣) (أى نحو ٢٥٠,٠٠٠ جنيه إسـترليني) وهو إجمالى وصل ٢٠% فى السنوات العشر القادمة من إجمالى الصادرات. ومع هذا برغم فرص التجارة الجديدة فقد كانت الشركة فى عام ١٨٠٠ تعتمد خصيصا على ضرائب الأرض التى تجمعها من المناطق التى تحكمها.

ولقد تحقق التغيير الصارخ للشركة دون أى خطة، وبحسب مبدأ ليس عامًا. وقد قام به حفنة من الرسميين الطموحين والقواد الذين آمنوا بإخلاص أن يستطيعوا إثراء أنفسهم، وفى نفس الوقت يستطيعون مراعـاة مـصالح دولتهم ومستخدميها. وكانت مشروعاتهم الخاصة والسلبية والاستعمار تناسب بشكل مثالى ظروف القرن الثامن عشر فى الهنـد، حيـث كانـت الـسلطة المركزية عند أباطرة المغول تتحلل. وبالطبع كانت عملية الجـشع وانتهـاز الفرص منتشرة بالفعل بين موظفى الشركة، وكان الجميع فى الهند يـسعون لجمع رأس مال كاف للعودة إلى بريطانيا وحياة سهلة. وقال أحـدهم ذلـك "ربما أكون حاكما، وإذا لم أحقق ذلك فربما أكون ثروة تجعلنى أعيش مثـل الرجال المحترمين" وقال ستيير دارلمبل (Stair Dalrymple) إلى أخيه الأكبر عام ١٧٥٢. وكان يبحث عن وظيفة فى الشركة وأحتاج خمـسمائة جنيـه لتغطية صك يدل على حسن سلوكه ومائتى جنيه أخرى لقطتى الصغيرة(١).

وفى الحال سوف تيتم تغطية هذا الاستثمار ما أن يمـارس دارلمبـل حقوقه فى التجارة على حسابه الخاص برغم أنه واجه التعرض للأمـراض ومناخًا يقلل فرص العودة إلى الوطن مثل الباحثين الآخرين عن الثروة.

وفى نفس الوقت الذى كان دارلمبل يلح على أخيـه، كـان آخـرون يبحثون عن وسائل للإثراء يعرضون أنفسهم على موظفى الشركة، ففى عام ١٧٤٢ تولى جوزيف فرانسوا ماكيز (Josef Francoas) ويليه منصب حاكم

شركة الهند الفرنسية. وفى أمور كثيرة كان شبيها بالمحارب والجشع، وكان يحاول تجاوز القناصل البريطانيين الذين كانوا يتنافسون معهم طوال عشرين عامًا، وفى أثناء السنة الأخيرة من حرب الوراثة النمساوية كان المركز التجارى الفرنسى الرئيسى فى بوندى شيرى مهددًا من جانب جيش شركة تعمل فى مدراس، وقرر دوبليه أن بوندى شيرى تحتاج إلى قوة دفاعية، لأنه كان قلقًا على سلامتها، ويعرف أن حرفًا فرنسية بريطانية قادمة محتملة. ولهذا الغرض بدأ يدعم شركة الهند باعتبارها قوة كبرى فى الكاراتيك (Caratic).

واعتذر دوبليكس عن هذا التطفل والتدخل فى الشئون المحلية، ووعد موظفيه بعائدات ثمينة من ضرائب الأرض التى ستجنى من هذه المناطق وذهبت إلى السيطرة الفرنسية[٢].

وهناك أيضًا برغم أن هذا قد حذف من مراسلاته إلى باريس، فرص واسعة له ولموظفيه لتحويل بعض من هذه الدخول إلى جيوبهم الخاصة، فضلاً عن هدايا من الأمراء الهنود الذين سعوا لصداقة الفرنسيين. وبدأ دوبليكس رحلاته فى العالم المعقد وغير الموثوق منه، والعنيف من سياسات الهند فى عام ١٧٤٩ عندما خطط لوضع عميله شاندرا صاحب لحاكم كارنتيك. ولم يستطع حاكم شركة الهند الشرقية ومجلسه فى مدراس الصمود أو سمح لوضع الكارنتيك فى أيدى الفرنسيين، وحالاً أيدوا نائبا منافسًا وهو محمد على خان. وأيدت كل من الشركتين عملاءهما بالقوات وحرب محتملة للسيطرة على المنطقة محل النزاع فى عام ١٧٥٠.

كان روبرت كليف (Robert Clive) بين الضباط المهتمين لهذا الأمر، وكان قد وصل إلى الهند وعمره تسع عشرة سنة فى عام ١٧٤٤ ككاتب، وانضم إلي سلك الجندية بعد أربع سنوات، وفى إنجلترا كان كسولاً وغير ملائم وكانت أسرته (رجال الطبقة المهذبة شوب شاير) قد رتبت لإرساله إلى

الهند. وهناك ظل مجهولاً ولكن لولا هجمة فرنسية ضد مدراس عام ١٧٤٨ أظهرت أن فى داخله مواهب مخبأة.

وبسرعة استوعب كل ما كان مطلوبا لإتقان فن الحرب التى كانت تشن فى الهند، وكشفت براعة القيادة للقوات الهندية فى الشركة أو الهنود المجندين فى الجيش البريطاني، وكان شجاعا جسمانيًا فى وقت استجاب زملاؤه من البريطانيين والجنود الهنود للضباط الشجعان.

وكان كلايف أيضًا طموحًا جدًا، وكان يرغب بشكل قوى بما سمَّاه "عمرة المجد" وهى الرغبة الشعبية التى ارتبطت بالقواد المنتصرين، وعندما أصبح عمله على قدم وساق استخدم ثروته ليضع نفسه فى صف الطبقة البريطانية الحاكمة.

وبعد ذلك أصبح حاكمًا إداريًا، وصار كليف على اتصال وثيق مع الهنود، واعتبر نفسه مالكًا لهذا الفرع السرى للمعرفة البشرية، وهو فهم العقل الهندى الداخلى العامل. وتخيل أنه كل الهنود قد تعودوا على هذا الشكل من الحكومة الاستبدادية والتى سمَّاها أهل وطنه ذوو العقول الليبرالية اسم "الطغيان" والتى كانت تسحر بالتهور وترعبها "الكرامة" وهو تعبير امتزج بالشجاعة العسكرية والسلطة الأخلاقية بنسب متساوية.

وقد أعطى حصار أركون (Arcon) لكلايف الفرصة لاستعراض ميوله كقائد. وقام بصد فرقة هندية فرنسية عليا، وكانت قيادته كما يدعى ساحرة وفاتنة لدرجة أن فرقة من الجنود الهنود الذين يعملون بالجيش البريطانى، والتى عزلت بعد ذلك، طلبت الخدمة تحت قيادته.

وكانت العمليات على نطاق صغير، والتى ميزت النضال من أجل الكارناتيك، قد استمرت لثلاث سنوات أخرى، عندما أصبح من الواضح أن

دوبليكس قد قضى على عدد كبير أكثر مما كان يمضغه، وبرغم هذا كانت لديه كل الأسباب للمواظبة كما فعل البريطانى" روبرت أورم (Robert Orme) وهو ضابط فى خدمة جيش الشركة، وفى عام ١٧٥٣ حصلت شركة الهند الفرنسية على ٥٣٥,٠٠٠ جنيه ضرائب على الأراضى فى منطقة احتلالها.

وكانت المخاطر عالية، كما لاحظ أورم (Orme) أو الذى تحمل قليلاً من المصاعب المعروضة للأوربيين أو القوات المدربة تسليحا أوربيا. "ربما تكون أعمال فصيلة من الجند فى الهند ذات نفس التأثير على النجاح العام، مثل مسلك كتيبة كاملة فى أوربا".

ويكمن مفتاح النصر فيما اسماه "التفوق فى السلاح الأوربى" ووافق كلايف، وكتب بعد ذلك يقول "إن الرعب من أسلحتنا" كان كبيرًا لدرجة أن الجيوش الهندية كانت فى الغالب مهزومة سيكولوجيًا قبل أن يقدموا على المعركة.

لقد خطت الشركات الفرنسية والبريطانية نحو تجنيد الهنود الذين كانوا مزودين ببنادق قديمة، ودربوا على المناورات حسب الطريقة الأوربية لإلقاء الصواريخ المدمرة على نطاق ضيق، والتى كانت تترك آثارًا وندوبا وتكسب المعارك. وكان يتم أيضا استيراد القوات البيضاء والتى لم تكن مهمه سهلة؛ لأن التجنيد فى الهند غير جذاب مثلما هو فى أماكن أخرى، ولاحظ أورم (Orme) الذى نجا مع بعض من المجندين الذين نزلوا فى مدراس عام ١٧٥٢ أنهم جميعا كالمعتاد يرفضون التوظيف الوضيع والحقير فى لندن(٣).

لقد تعلم الفرنسيون أيضًا من دروس الأمور الحربية الهندية ودوبليكس، وواجهوا مأزقًا عنيفًا عام ١٧٥٢ فقرروا إنهاء الحرب من خلال

إشراك قوات فرنسية محترفة، ولمعادلة ميزان السلطة المحلى طلبت شركة الهند الشرقية من الحكومة البريطانية قوات وتعزيزات إضافية، وتسلمت الكتيبة التاسعة والثلاثين وأربع سفن حربية.

ولقد كان قرار الحكومتين الفرنسية والبريطانية بالتدخل فيما بعد صراعًا بين مصالح تجارية متنافسة لها نتائج خطيرة على الهند. وبتدعيم من المصادر البحرية والعسكرية لبريطانيا وفرنسا، أصبحت كل منهما قوة سياسية ملموسة فى الهند. فى الوقت ذاته كانتا متساويتين تقريبا فى القوة البشرية والمعدات، وكانت طاقاتهما قد أنهكت كلية فى الحرب فى الكارناتيك. وحتى لو اكتسب أحد الطرفين اليد العليا هناك، فإنه حسب طبيعة الدبلوماسية البريطانية الفرنسية فإن المكاسب فى الهند ربما تتم تسويتها خلال مفاوضات السلام.

ولم تتم دراسة القوة الأوربية فى الهند، ليس فقط فى الكارناتيك. بل فى البنغال فى حرب غير متوقعة، والتى اندلعت فى يونيه عام ١٧٥٦، وبينما كان روبرت كلايف آلان قائد جيش مدراس، والأدميرال تشارلز وتسن يخططان لهجوم ضد الفرنسيين فى كارنتيك، كان وسراج الدولة (Siraj – Ud – Daula) ، ونواب البنغال قد هاجموا واحتلوا كلكتا.

وكان سراج الدولة نتاجًا لحل إمبراطورية المغول، وكان أميرا فى أوائل العشرينيات، وورث دولة مستقلة خلفت جيلاً أسبق من خلال عمه العظيم. وكانت العلاقات بينه وبين الشركة ودية سابقًا، ولكن أوضح قراره بالحرب أنه كان عصبيًا بسبب الحرب فى البنغال، وقد تم وضع حصون جديدة حول كلكتا، وكان موظفو الشركة الرسمون يسيئون استخدام امتيازاتهم التجارية على حساب التجار المحليين. وكان الاستيلاء على كلكتا (Calacuta)

عملية سهلة بشكل مدهش، وأثار البنغاليين الذين سخروا بعد ذلك من البريطانيين باعتبارهم جبناء.

وكانت الخسارة قد أثرت على كرامة الشركة بمثل فقدان الدخل من كلكتا، وهو الآن مطلوب لدعم جهد الحرب في الكارناتيك التي أقنعت كلايف أن إعادة السيطرة على المدينة جب أن تكون له أولوية عن العمليات ضد الفرنسيين، وفي عام ١٧٥٧ استعاد كليف وواتسن كلكتا وتم إعلان الحرب ضد سراج الدولة.

وكان كلايف قد خطط لها وتقدم خلسة بدبلوماسية ومكر ضد عدو ضعيف الشخصية ومتقلب كاليجولا(Caligula) هندي. ومثل الإمبراطور الروماني كانت سراج غنية بجنود ورجال بلاط ذوي ولاء هش يمكن إغراؤهم بسهولة للقيام بمؤامرة ضده. وقد احتاج ميرجافير قائد جيش سراج إلى قليل من التملق لقبول رشوة كليف، ووعد بعرش البنغال والأمور المالية لسيراج وعشرة بنوك سيش (Seth) والذين وقعوا في شراك كليف. ومن الناحية السياسية وعندما تم تقويض دخل الشركة نقدًا دمرت القوة العسكرية لسيراج أخيرًا في بلا سي (Plassey) في الثالث والعشرين من يونيه ١٧٥٧. وكانت بلاسي مكانًا موسعًا لعضلات الشركة العسكرية، وواحدة من التي تركت تأثيرًا عميقًا ودائما على العقل الهندي، ومن الناحية الخارجية لم يكن الجيشان متساويين؛ حيث ترأس كليف ألفا من القوات الأوربية وألفين من الجنود الهنود الذين يعملون لدى بريطانيا، وثمانية مدافع وهوتزير (Howitzer)، بينما تسيطر سراج على مجموعة من ٥٠,٠٠٠ من الفرسان والمشاه وعدد ضخم من المدافع التي تجرها الثيران، وكان هذا العدد مفككًا قياديًا وتسود فيه خلافات داخلية، وكانت كتيبة مير جافير قد ظلت بعيدا عن القتال، ولم تكن قد انفعلت بالتكتيكات غير المألوفة لأعدائها.

وأما الذين كانت لديهم رغبة ما فى القتال فسرعان ما فقدوها عندما واجهوا الصواريخ والقنابل قريبة المدى، وعرف رجال بنادق كليف من التجربة كيف يسببون الدمار والخراب بتوجيه مدفعيتهم نحو الثيران والفيلة التى تحمل القيادات الهندية، وكانت الحيوانات المجروحة تقع تحت أقدام جنود المشاه والفرسان، وكانت ثقة كليف بنفسه قوية وروحه الهجومية قد جعلت جيشه مثل النمر الذى لا يتوقف إذ استطاع تفريق أعدائه بالزئير(٤).

وثبت أن الزئير كان كثيرًا جدًا لدرجة عدم تحمل جيش سيراج له حيث تفرق وهرب، وبعد ذلك بوقت قصير قام رجال وخدم ميرجافير بالقبض عليه وقتله، وكانت خسائر الشركة ثلاثة وسبعين قتيلاً وجريحًا.

وأثبتت معركة بلاسى بشكل فاعل أن الشركة قوة يجب الاعتراف بها فى الهند. وطوال الأعوام الخمسين تكالب حكام ميسور وحيدر آباد ودول ماهراتا والبنجاب للحصول على التكنولوجيا العسكرية الجديدة وتوفير المتخصصين فى العادة من الأوربيين الذين يدربون الجنود على استخدامها.

واختار الأمراء الهنود الآخرون الحفاظ على استقلالهم بالسعى نحو التعامل والتكيف مع الشركة من خلال معاهدات غير متكافئة، والتى وافقوا فيها على تسليم دخولهم وبعض من سلطاتهم مقابل حماية الشركة حماية دائمة.

ولقد ظهر نمط التوسع من خلال المعاهدات والإكراه أولاً بعد بلاسى، عندما لعب كلايف دور صانع الملك، ورفع ميرجافير الكتائب اللازمة للبنغال وأوريسا وبيهار. وكانت كل ضرائب الأرض المعتادة لهذه المناطق قد انتقلت إلى الشركة، وصار ميرجافير مسئولاً عن العدالة والسياسات والأعمال التى تقوم بها الشركة منذ عام ١٧٧٢.

وتم إبعاد كل الرجال الفرنسيين إلى كارنتيك لتمويل جهود الحرب ضد فرنسا. وحدثت بعض لحظات حرجة بما فيها الهجوم البرمائى على مدراس، وتحولت الحرب فى كارنتيك لصالح الشركة، وسقطت بوندى شيرى عام ١٧٦١، وانتهت تحصيناتها، وتمزقت ادعاءات الفرنسيين فى جنوبى الهند لكن عادت بوندى شيرى إليهم عام ١٧٦٣ حسب شروط معاهدة باريس، وقدمت السنغال للشركة كل ما تحتاج إليه للحفاظ على وضعها الجديد باعتبارها قوة عسكرية كبرى داخل الهند، وكانت ظروف الحصول عليها قد أعطت الدافع للحروب الأخرى من الغزو والتهدئة، وكما اكتشف المدنيون والعسكريون أن فوائد الحرب فاقت فوائد التجارة، وإذا نظرنا إلى الوراء لعشرين عامًا من الحملات المتقطعة، حيث قال إدموندبروك لمجلس العموم فى عام ١٧٨٥: إن الثروات العظيمة التى حصلنا عليها فى الهند فى بدايات الغزو أثارت بشكل طبيعى عملية التحسين فى كل الأجزاء، ومن خلال كل موظفى الشركة المتعاقدين، وقد كان هذا صادقا، ووجد الذين خططوا للعمليات السياسية العليا والحرب فى الهند أنفسهم بشكل تلقائى قريبين من موارد الثروة الضخمة التى يمكن الحصول عليها بسهولة، وكان كلايف إذا صادق القول المعروف والمعتاد لدى الأمراء الشرقيين الذين يقدمون هدايا كريمة إلى هؤلاء الذين يساعدونهم، وانتهج مير جافير نفس التقليد، وما بين ١٧٥٧ و ١٧٦٦ قدم لكلايف إجمالى ٢٣٤,٠٠٠ جنيه، وخلال نفس الفترة وسع هباته إلى الموظفين الرسميين الآخرين فى كلكتا، والذين تسلموا بشكل شخصى مبالغ بلغت ما بين خمسة آلاف جنيه ومائة وسبعة عشر ألفا.

وكان النفوذ والنيات الحسنة للرجال الأقوياء سلعًا يمكن شراؤها فى الحياة السياسية الهندية، كما كان الوضع فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر، ورأى وكلاء الشركة أنه لا يوجد ما يدعو إلى عدم حصولهم على فوائد من

الممارسات المقبولة فى بلد كانوا فيه وسطاء السلطة، كما كان الفساد أيضًا متفشيًا في الإدارة اليومية فى الهند، وصار الموظفون الرسميون مسئولين عن جمع الضرائب فى البنغال وأماكن أخرى يجمعونها من الأهالى ويضعون معظمها فى جيوبهم.

كانت هذه كل ثمار الغزو، وأيضا ولدت الحرب فوائد وجدت معظمها طريقها إلى أيدى الجنود، وكانت السبب فى أن الكثيرين منهم فضلوا سياسات عدوانية، وحقق كلايف ٤٠,٠٠٠ جنيه ما بين أعوام ١٧٤٤ و ١٧٥٣، وكان في هذا الوقت يشغل وظائف صغيرة، بينما كان أرثر ولسلى (Arther Walsley) الأخ الأصغر للماركيز وتدرج حتى جاء مشير (Field Marshal) ودوق ولنجتون، وتولى قيادات عليا بين ١٧٩٨ و ١٨٠٥ قد عاد إلى الوطن ومعه ٤٣,٠٠٠ جنيه[٥].

وكان الضباط الصغار دائما متلهفين للعمل، خصوصًا إذا وجدت فرص للترقية ومزايا الحملات وجوائز مالية، وفى سبتمبر ١٧٩٨ انغمس صغار الضباط فى مدراس فى يأس عندما سمعوا أن حملة ضد مانيلا قد ألغيت وكتب أحدهم إلى والديه يقول "احكم على الكآبة وخيبة الأمل والمضايقات التى انتشرت على الوجوه التى كانت من لحظات قليلة من قبل قد أبرزت أعلى أعراض الأمل من أجل التميز (الامتياز)[٦].

ومما لا شك فيه أنه كان هناك بعض (آكلى النار) وشعروا بالخزى؛ لأنهم ضيعوا فرصة لإظهار شجاعتهم فى الميدان، ولكن كان هناك الكثيرون، وربما كانوا الغالبية الذين يحلمون بالسلب والنهب والموظف الرسمي، وعلى هذا يشك فى الأسلاب الكلية التى أخذت من ناجبور (Nagpur) فى عام ١٧٥٨ كانت ٢٥,٠٠٠ جنيه.

ربما كانت القيمة الحقيقية للأسلاب أعظم من هذا؛ لأن معظم ما تمت سرقته لم يجد طريقه إلى دفاتر الشركة المعروفة، وكان هـذا مفهومًا لأن الإجراءات من مخصصات الجوائز المالية بطيئة، وتزن بثقل لصالح كبار الضباط، وكان على المشتركين في حرب مدراس (١٨١٧ - ١٨١٩) أن ينتظروا ثماني سنوات لدفع مليوني جنيه مستحقة عليهم، ولذا كان حتميًا أن كثيرًا من الجنود خطفوا ما يستطيعون أخذه ولم يعلنوا عن ذلك.

لقد انخفضت عملية الحرص على الكسب الحلال، واستعاد أحد عشر جنديا في سلاح الفرسان الخاص موجة الإثارة التي نشطت الرتب الأخرى من الهنود والبريطانيين عام ١٨٢٥ بعد أن سمعوا الأخبار أنهم على وشك حصار بارابتور، وعندما سقطت المدينة في يناير عام ١٨٢٦ شاهد سبع عربات محملة بالذهب والفضة في مزاد علني، وقدم جندي قطعتين من العملة الذهبية البرتغالية (نحو ٣,٥٠ جنيهات) من أجل زجاجة كحوليات وتم بيعها بعشر هذه القيمة، ولاحظ أيضا أن الجنود يحملون عقودًا من الذهب والمجوهرات وشيلانًا من صوف الجمال، بينما قام آخرون بحفر أرضيات المنازل بحثا عن الأموال النقدية التي دفنها أصحابها خوفًا من أن يغتصبها أصحاب الغنائم وجامعو الضرائب[٧].

وقد صحب هذا النوع من السطو في كل حرب في الهند خلال السنوات الثمانين الماضية، وصارت فيما وراء سيطرة الضباط، وعندما قبض الملازم الثاني في البحرية روبرت بلاكستون على بعض اللصوص بعد الاستيلاء على جالجور في عام ١٨٠٣، وتم تهديدهم واتهامه بأنه وغد ومتطفل؛ لأنه تجرأ على منعهم من ممارسة ما اعتبروه حقا طبيعيا[٨].

وفوق كل الكسب المفاجئ المعقول، والذي جاء في طريقهم من الحملة، توقع الضباط أن يكسبوا الكثير من خلال ما يحصلون عليه من أجور

والحفاظ على تقديم العون المالى؛ إما للحصول على رصيد أساسى عند الاعتزال أو الحصول على راتب مدى الحياة لعائلاتهم فى الوطن الأم.

ولقد جمع جون مالكولم مثلا بوسائل متعددة، وهو نموذج للإدارى المستقيم دخل فى خدمة الشركة عام ١٧٨١ ثلاث عشرة ألفا من الجنيهات، وبعد ثلاثة وعشرين عاما كان قادرًا على أن يرسل إلى وطنه فى الدولة الأم أربعمائة جنيه سنويًا لإعانة والديه وأخواته البنات، وقيل إنه عندما اعتزل الخدمة عام ١٨٠٦ كان معاشه ومدخراته تعطيانه ١٠٠٥ جنيه، سنويًا، وهو وضع يدخله بثبات فى مرتبة الطبقة العليا (الأسياد)(٩).

وفى تسعينيات القرن الثامن عشر كانت أسرة الشاعر صمويل كولديرج ويعيلها أخوه الأكبر، وهو ضابط صغير فى جيش الشركة، وأما كولين ماكنز فهو مهندس التحق بجيش مدراس فى عام ١٧٩٠ وكان على استعداد للمغامرة، ويعمل فى الداخل كمساح للغابات (ولم يعرف شيئا عن علم النبات) لكى يؤهل نفسه للمراحل العليا من الأجور لكن كان يرسل بعضها إلى عائلته فى جزيرة لويس(١٠).

فى نهاية القرن صار التحاق الابن بجيش الشركة مصدرًا للدخل الإضافى لكثير من عائلات الطبقة الوسطى فى بريطانيا، وكان شراء منصب ضابط فى الجيش النظامى كافيا لرؤية أنجالهم، وقد استقروا فى حرف الطبقة العليا، وربما لهذا السبب كان ضباط جيش الملك ينظرون باحتقار إلى زملائهم من الهنود.

لقد كانت الهند فى أواخر القرن الثامن عشر مجتمعًا صاخبا مليئا بالنشاط، ويسكنه رجال فى مرحلة التكوين، وكان حكمهم على أمور الشركة دائما قائما على مصالح شخصية، وكانت الحرية التى جاءت بعد بلاسى (Plassey)

قد شجعت الآخرين على انتهاج سياسات القوة الدافعة على الطلب والتي يحصلون منها على كل شيء، وعلاوة على ذلك فعندما ضمت الشركة الأرض، وصفت مقاطعات الأمراء، صار الطلب على الإداريين وجامعي الدخل والمساعدين والمقيمين كبيرًا، وكانت كل هذه الوظائف ذات دخل كبير، وكان يشغلها ضباط الجيش من الشباب الطموح، وولدت ديناميكية التوسع والميل للقتال، واعتقد روبرت بلاكستين أنه يلوح في الأفق في الهند، والتي جعلت الجنود البريطانيين أكثر تعطشًا للدماء والشراسة أكثر من المعتاد، وحتى بعض مديري الشركة الذين كانوا غير مرتاحين لعملية الغزو والحرب وجدوا أنفسهم، وقد انتشوا بهذه الروح الجديدة، وعندما أجرى أحدهم مقابلة لجون مالكوم الذي كان يبلغ من عمره اثنى عشر عاما في عام ١٧٨١، وسأله لماذا أيها الرجل الصغير، ماذا ستفعل إذا قدر لك أن تقابل حيدر علي؟ "نعم سيدى، سوف أستل سيفي وأقطع رقبته" وكان هذا رده، وأن هذا سوف يؤهله للالتحاق بجيش الشركة[١١].

لقد كان حيدر علي خان سلطان ميسورى أكثر أعداء الشركة بعد بلاسي، وقد غزا كارنتيك في ستينيات القرن الثامن عشر، وفي عمله مع الفرنسيين شن حربا على الشركة وحلفائها في جنوب الهند في أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر، وواصل ابنه السلطان "تيبو: Tipu"، (التمساح) نفس الدور المزدوج، وانهزم بشكل ضيق على يد اللورد كورن واليس (Corn Walis) صاحب يورك تاون في عام ١٧٩٣، وعرف تيبو مثل الأمراء الآخرين المستقلين في جنوب الهند ووسطها أن البقاء على قيد الحياة يعتمد على هزيمة الشركة في حربها بالطريقة الأوربية، وخلال عام ١٧٩١ كان وكلاؤه يحصلون على السلاح من العاملين في الأراضي المنخفضة، وحسب مصادر مخابرات البحرية اشترى خمسين مدفعا وثمانين خزنة بندقية ومائة ألف قاذفة مدفع وعشرة آلاف صاروخ و ٢٠,٠٠٠ من أحسن السيوف[١٢].

وكان نظام حيدر آباد يتطلب ١٤,٠٠٠ جندى قوى مسلحين ببنادق المشاة ومدربين على الطرق الأوربية من المرتزقة الفرنسيين، وكان أمراء اتحاد الماهارتا ما يقدر بنحو ٣٠,٠٠٠ جندى يدربهم ضباط أوربيون أحرار.

لقد أبرز سباق التسلح فى أواخر القرن الثامن عشر تحديًا للشركة، والتى قبلها الماركيز ولسلى (Weates Ley) بكل سرور، عندما نصب حاكمًا عامًا عام ١٧٩٣، وكانت بريطانيا فى حرب مع فرنسا الثورية منذ ١٧٩٣، وقدم ضباط المخابرات فى الشركة الحقائق بأن المرتزقة فى الهند كانوا تابعين للجناح الشمالى للثوار اليعاقبة، وأن تيبو (Tipo) الذى سمى نفسه المواطن تيبو يسعى للمساعدات الفرنسية، وخوفا من غول التدمير الفرنسى وشبحه، الذى ترك إحساسًا فى عام ١٧٩٨ وهو عام غزو نابليون لمصر الذى رأته لندن، واعتبرته مقدمة لهجوم أرضى على الهند، ولم ينتظر ولسلى الخصم العنيد للثورة الفرنسية الاحداث وقام بالهجوم، وكانت حيدر آباد على الحياد، وقد تم تحييدها بالدبلوماسية القسرية، وفى عام ١٧٩٩ قام جيش الشركة بغزو ميسور (Mysore).

مات ديبو وهو يقاتل فى عاصمته سيرنجاناتام (Serrnganatam) وكان المشهد الليلى الذى اكتشف فيه ضباط الشركة جسده مشهدًا مفضلا لدى الرسامين البريطانيين من الشباب، وتم إحضار النمر الآلى المشهور الخاص به إلى لندن عام ١٨٠٨، وعرض كتذكار فى المتحف الشرقى الرسبوزوترى كتحفة ملحقة بمراكز شركة الهند الشرقية فى شارع ليدن هول، وفى الحال أثارت هذه الآلة الغريبة حب استطلاع ضخمًا، كما تركت أثرًا عميقًا ودائمًا لكل الذين جاءوا لرؤيتها، وكانوا ينظرون بغرابة على هذا النمر المرسوم بشكل براق، وبالحجم الطبيعى[١٣]، وأحد ضباط الشركة الرسميين الذى سمع

هذا الزئير المعبر والصراخ الذى يخمد عندما يموت، يشبه الأصوات التى يصدرها برميل مشروخ داخل الحيوان.

لقد كان هذا هيكل النمر الإنسانى الذى يسلى الإمبراطور الهندى فى قصة جون كييس الخيالية "القبعة والأحراس": "The Caps and the Bells" وهى لعبة عجيبة، لكن فى الأصل تناسب لعبة مسلية لطاغية شرقى، وفى الحقيقة لم يكن تيبو أى شىء من هذا النوع، لكن هذا لم يوقف الحروب بينه وبين الشركة، وكما ظهر على أنه صراع بين الطغيان والنظام المتحضر، لقد جسد هذه النقطة الرسامون من أبناء تيبو الذين سلموا أنفسهم إلى ضباط الشركة الموثوق فيهم، ويرى الهنود الأمور بشكل مختلف، حيث كان المسلمون يحترمون تيبو باعتباره شهيد الإسلام الذى ظل اسمه يستخدم لمدة ثلاثين عاما بعد ذلك لتشجيع المقاومة ضد البريطانيين[١٤].

وبعد غزو ميسور جاء الدور على دويلات الماهارثا، وجاءت المبادرة من ولسلى (Wellesly) والذى استطاع بمزيج من القوة والدبلوماسية أن يضعف سيادة الماهارثا الضعيفة على بيشوا (Peshwa) حليف الشركة، وكانت النتيجة ضد الماهارثا لعام ١٨٠٣ ضد جيوش سنديا ديولات دوو جواليورو روجودى بنسول فى زنجبور.

وبعد حملة مستديرة هزم أرثر ولسلى جيوشهم فى معارك أسايا (Assaya) وأرجوان، بينما فى الشمال احتل الجنرال السير جيراردليك (Gerardlake) عليكرة ودلهى وأجرا (Agra) ومع اثنين من أمراء الماهارثا بعد استلامهم وركوعهم على الركب، انتهزت الماركسية الفرصة لإنهاء الحرب الثالثة والمعلنة على جاسواتا روو هولكار (Jaswaat Roo Holkar) عام ١٨٠٥[١٥].

ومرت المرحلة الثانية من الحرب بشكل سيئ، حيث تم القبض على فرقة من الشركة بالقرب من أجرا، ووجد ليك (Lake) بارابتور بندقة صعب كسرها، ووجد ولسلى نفسه مخدوعًا، وفى عام ١٨٠٦ تم استدعاؤه إلى لندن، لقد فشل الماركيز فشلاً ذريعًا بسبب الثقة المتزايدة، ولم يذهب إلى الهند لكى يثرى نفسه، ولكن لإثبات قيمته باعتباره حاكمًا حيويًا ولديه رؤيا (أسس كلية لموظفى الشركة المدنيين فى مدراس) وكان يأمل أن تؤهله إنجازاته للوصول إلى منصب أعلى فى بريطانيا، وكان الأول من سلالة البروكوسول الوطنيين الذين عشقوا ممارسة السلطة المطلقة، عندما جاء إلى كاونبور (Cawnpore) عام ١٨٠٢ وركب فيلا مسرجا بشكل أنيق، وبالأسلوب الحقيقى للعظمة وزع عملته الروبية (ملك الشركة) بمطلق الحرية مثل أى حاكم هندى[٥٠].

ورجل بمثل هذه الطباع ليس لديه شيء سوى أن يترفع عن أوراق الميزانية، ومديرو الشركة الذين كانوا كما كتب بكل ثقة عام ١٧٩٩ لديهم احتقار عام، يسخرون من كل فرع من فروع الخدمة فى الهند. وكان لدى رجال الأعمال شك عميق فى الماركيز ولسلى والرجال الآخرين على شاكلته الذين خططوا خلال الأربعين عامًا الماضية لثورة فى شئون الشركة، وكان هذا الفهم عميقا جدا منذ سياسات هؤلاء الذين كان لديهم استعداد أحيانا لقبول الرشوة من موظفين ألقوا بحسابات الشركة فى حالة من الفوضى، وذكروا فيها أنها غير مسئولة أو غير مناسبة، وفى عام ١٧٤٤ أقرضت الشركة الحكومة مليون جنيه ثمانية وعشرين عاما، والحروب العديدة بعد ذلك، إلا أنها كانت تسعى لاقتراض مبلغ ٤,١ ملايين جنيه من وزارة الخزانة، وفي عام ١٨١٥ وصلت ديون الشركة أربعين مليون جنيه، وكانت أكثر من ثلاثة أرباع ميزانيتها السنوية، وكان بسبب مصاريف الجيش الذى صار الآن ١٥٠,٠٠٠ جندى قوى. وكانت هناك فترة بعث أو ولادة جديدة مع منتصف

ستينيات القرن الثامن عشر، عندما بدأت ضرائب الأرض من البنغال تصب فى الميزانية، لكن بسرعة تلاشت هذه ودخلت الشركة من أزمة إلى أخرى، ولكى تظل فى الأمان عادت إلى الوراء، الرفع غير المناسب والمشكوك فيه لرأس مال الشركة من خلال أسهم منتظمة.

أين سينتهى كل هذا؟ وخشيت مجموعة معقولة من الآراء أقوى فى لندن عن الهند. إن الشركة قد صارت تتوسع كثيرًا بشكل خطير، وفى عام ١٧٧٩ عندما تورطت فى صراع مع حيدر على ومؤيديه من الفرنسيين أعلن الميجور الجنرال جيمس ستورت المقيم فى تانجور (Tanjore) بصوت عال قلقه الذى يلقى تأييدًا واسع النطاق بأن الشركة تمتلك بالفعل مناطق ونفوذًا أكبر مما يعرفون كيفية الاستفادة الجيدة منها(١٦).

وبعد خمسة وعشرين عاما اقتنع آرثر ولسلى الأكثر حرصا أن أخاه قد تفوق على نفسه فى جهوده فى إخضاع الماهارتا، واعتقد أيضًا أن هناك مخاطر كبيرة فى عقد معاهدات مع الأمراء المحليين الذين تركتهم الشركة يمارسون سلطتهم السابقة، بينما تمارس الشركة السلطة الحقيقية لدرجة أنهم فقدوا الاحترام، ولم يكسب الأسياد عملاءهم أى شىء، وكان نقاد التوسع أيضًا قلقين على السرعة التى لجأ بها موظفو الشركة من الرسميين على أعلى مستوى إلى الحرب كوسيلة للسياسة، وقد كانت عملية الغزو السريعة وغير المتوقعة فى نيبال (Nepal) عامى ١٨١٤، ١٨١٥ قد أربكت دوق يورك القائد الأعلى للجيش البريطانى الذى تعجب عن سبب الضرورة إليها(١٧).

وبالطبع لم يكن هو أو أى واحد آخر فى لندن يستطيع أن يفعل شيئا؛ لأن الرجال الذين اتخذوا القرارات كانوا بعيدين آلاف الأميال، وإذا حدث التحدى فإنهم يجدون آلاف التفسيرات التى تشمل الكرامة المحلية، ورفض رجال الإستراتيجية بالشركة أن يحتملوا قيام دولة قوية وصعبة المراس على

حدودهم، ولم تكن الحكومة ومدير الشركة دائما مقتنعين بذلك، وفي ١٨١٦ كان هناك بعض التردد في السماح لبطل حملة نيبال الميجور العام السير دافيد أوكترلوني (Ochtorlony) بمبلغ ألف جنيه كراتب سنوي يتلقاه مدى الحياة، والذي كان مغموما بسبب ديون الشركة[١٨].

وكان وراء النقاش الذي اشتغل في بريطانيا، رجال في موضع المسئولية في الهند قد انتهجوا سياسات عدوانية، وقد ترك هذا عدم ارتياح عميق، وإجمالا فإن الأحداث في الخمسين عامًا بعد بلاسي قد أوحت بأن الذين تقلدوا السلطة في الهند اعتبروا أنفسهم فيما وراء قيود الشركة، سواء في الهند أو في الحكومة البريطانية، وصارت إمبراطورية الهند النامية دولة داخل دولة. وفي نفس الوقت ظهر أن المسئولين عن الهند قد اجتازوا تحولاً أخلاقيا وتبنوا تلك الأحوال في شبه القارة.

اعترف كلايف بالإغراءات التي خضع لها من قبل، عندما عاد إلى البنغال كحاكم عام ١٧٦٥ ومعه تفويض لإقامة حكومة عادلة وأمينة في بلد، حيث المال وفير وحيث الخوف مبدأ الحكومة، عندما تكون جيوشك دائما منتصرة "كما لاحظ" أنه ليس عجيبًا أن يجد الفساد طريقه في بقعة مستعدة لتقبله" وخلال العامين التاليين فعل كل ما في وسعه لإزالة أسوأ العيوب، وكان اثنان من خلفائه يواصلون المهمة وهما وارن هستينج (١٧٧٢ – ١٧٨٥)، واللورد كورن واليس (١٧٨٥ – ١٧٩٢)، ولكن في بلد حيث كانت الوظائف العليا تدر دخلاً مرتفعًا، ولا تزال فرص ابتزاز المال كثيرة، وماتت كل القيم القديمة. وفي عام ١٧٩١، عندما قامت جماعة ثائرة عند حصار كودادور وأوقفها الخوف من وجود منجم، لكن ضابطا جمعهم صائحا "إذا كان هناك منجم، فإنه منجم من الذهب"[١٩].

لقد بذلت جهود لتنقية الإدارة التى صارت بالإضافة لأمور أخرى تسمح بالتعذيب كوسيلة لجمع الضرائب، والتى اعتبرها الكثيرون فى بريطانيا، والذين شعروا أن شيئا ما ليس إنجليزيًا حول الإمبراطورية الهندية. وعلى هذا اقتصر الغزو الإمبراطورى على أمريكا، وصحبه هجرة من بريطانيا.

وذهبت الديانة المسيحية مع المهاجرين، وظهرت قيم السياسة البريطانية وأنظمتها الحكومية، والتى تم تشكيلها فى المستعمرات، وفى الهند صارت الأمور مختلفة، وفى خلال ستين عامًا حصلت الشركة على مديريات ومناطق امتلكت جهازها الحكومى الخاص بها، والذى تبنى خطوطا أوتوقراطية ومجتمعات أكثر تنظيما لها عاداتها وجذورها الدينية العميقة.

ولم يعد هناك ما يبرر قيام موظفى الشركة بإرباك النظام القائم فى الهند، وهو مجال من العمل الذى افتقدوا وسيلة القيام به وتنفيذه، والذى ربما يحدث خرابًا ودمارًا. وبدلاً من ذلك تصرفت الشركة باعتبارها وريثا وقبلت ماوحدية، وقامت بتغييرات فقط فيما تتطلبه الضرورة.

وشملت هذه الفلسفة العملية النفعية توافقا، فالممارسات الدينية التى يكرهها المسيحيون تمت الموافقة عليها، وحيثما كان ممكنًا أصبحت التقاليد الهندوكية والإسلامية الشرعية متوافقة، ولقد لخص الرأى السائد فى واقعة عام ١٨١٤ فى جاجانات (Jaganat) عندما قابل القائم بالأعمال أرملة على وشك ارتكاب جريمة الإلقاء بنفسها، وهى عادة هندوسية؛ تلقى بنفسها على ركام النار المعد لحرق جثة زوجها، وحاول منعها من ذلك، ولكنها قالت إنها تحب زوجها وأصرت على أن تحترق مع جثته، وانسحب الحاكم واستمرت مراسم الحرق(٢٠).

وفى أماكن أخرى كان ضباط جيش الشركة يحضرون طقوسا هندية مع رجالهم ويسمحون لقساوسة الهنود بمنحهم ألوانا تخضع لنسق معين. وكانت هناك حدود للتسامح الذى يحدد بشكل مختلف حسب الحاجة للحفاظ على النظام العام، وكانت هناك حملات على نطاق ضيق لمحاربة، قطاع الطرق المنظمين والقضاء عليهم والذين كانوا جزءًا لا يتجزأ من النظام الاجتماعى الهندى، بل كانوا يتدخلون فى التجارة ويمثلون تحديًا لسلطة الشركة.

وانتهج ضباط الشركة إجراءات عنيفة مثل تنفيذ الأحكام دون محاكمة والذين ادعوا أنهم كانوا علاجًا يفهمه الطبيب والمريض.

وكان أرثر ولسلى الذى لم يشعر بأى وخز ضمير عن قتل البانديت عندما يجدهم، وقد علق على ذلك بأن الأفكار الليبرالية التى ظلت تسيطر على بريطانيا لم تعد مناسبة تمامًا لدولة اعتاد سكانها على حكومات سلطوية، وتتوقع من حكامها القبض على السلطة بيد من حديد قوية.

إن طبيعة المجتمع الهندى والظروف التى واجهت الشركة ساعدت على استمرار الحريات والحقوق السياسية التى كان مسلمًا بها فى بريطانيا فى الهند. ومع ذلك – كما ناقش المفكرون الليبراليون فى بريطانيا– فإن الأشكال الاستبدادية فى الحكومة كانت فاسدة، وإن الشركة قد صارت مؤسسة قوية لدرجة أنها ربما تغير الدولة البريطانية ذاتها، وادعى أدموند بروك أكثر نقاد الشركة فى عام ١٧٨٣ وموظفيها قسوة " أن المصالح الخاصة الفاسدة قد أصبحت فى حيز الوجود فى المعارضة المباشرة لضروريات الدولة".

وكان هذا غلوًا، لكنه زاد من الشكوك المعاصرة عن مؤسسة بدت خارج سيطرة البرلمان. وكانت عمليات الكبح غير فاعلة دائمًا، لكنها وضعت

على الشركة فى أعوام ١٧٧٢ و ١٧٨٤ بالقوانين الهندية التى فرضت رقابة برلمانية على مجلس المديرين، وبعدها تشكيل مجلس رقابة برئاسة وزير خارجية الهند، والذى كان عضوًا فى الوزارة، وبالتدريج أصبحت المصالح الخاصة تحت الرقابة العامة.

ومن المحتمل أن يكون الأكثر أهمية من امتداد الرقابة البرلمانية على الإمبراطورية الهندية- هو التغير الأساسى فى آراء هذا الجيل من موظفى الشركة، الذين تولوا مناصبهم مع بداية القرن، وقد اعتنقوا المذهب الأنجليكانى، وهو عقيدة شقت طريقها بين الطبقات البريطانية الوسطى والعليا خلال ثمانينيات القرن الثامن عشر وتسعينيات القرن نفسه.

وكانت الأنجليكانية شكلا من البروتستانتية التى أكدت انبعاثا روحيًا من خلال قبول العناية الإلهية والخدمة العامة للجنس البشرى التى تنفذ حسب المبادئ الإنسانية المسيحية.

ويبدو أن كورن واليس (Corn wallis) كان من أوائل الذين تأثروا بالأفكار الأنجليكانية لأنه عند تعيينه كحاكم عام أعلن سيادته مثل "حاول أن تكون ذا فائدة ما، وأن تخدم وطنك وأصدقاءك، وأن تستفيدوا من الوسيلة التى سيضعها اللــه فى يديك"[٢١].

إن الاستقامة الشخصية الأخلاقية ضرورية، إذ كان الأنجليكان على استعداد للقيام بواجباتهم نحو بقية العالم، واعتقد جون مالكولم يوم بدأ عمله الهندى فى أوائل ثمانينيات القرن الثامن عشر أن السلطة البريطانية هناك تكمن فى شجاعة القوات البريطانية والمستويات الأخلاقية العليا حكامهم خصوصًا فى إخلاصهم وتوحدهم.

وعندما ينزل هؤلاء إلى مستوى المسلمين ذوى اللسان الناعم أو إلى السحرة الهنود مع أسلحة التملق، فإننا نجد الخداع والرياء والمكر(٢٢)، وبعبارة أخرى فإنه إذا استمر البريطانيون فى إنتاجهم وتبنيهم ما كان مفروضًا أن يكون قيم الشعب الذى يحكمونه فإنهم بذلك يبطلون أى شيء.

وقد اتفق بذلك آرثر ولسلى وهو يخبر مالكولم فى عام ١٨٠٤، فقال "إننى سأضحى بإقليم جوالور أو أى خط حدودى فى الهند عشر مرات من أجل عقيدتنا الحسنة"(٢٣).

ويتحدث آرثر ولسلى بصوت الأرستقراطية البريطانية، وهى طبقة تعتبر أن الحكم حقها الأساسى، وقد تمتعت باحتكار السلطة السياسية فى الوطن الأم، ونقل القانون الهندى هذا الاحتكار إلى الهند؛ حيث تم شغل الوظائف العليا برجال مثل كورن واليس والماركيز ولسلى، وفى القرن التالى اللورد هيستج وإيربل منتو، وطبقوا جميعًا بطرق مختلفة المبادئ التقليدية للحكومة الأرستقراطية على شعب الهند، ومزجوا الشدة والصرامة مع الطريقة الأبوية الطيبة مع الاحتفاظ بمستوى عال من الأمانة الشخصية.

وقد قبلوا مع الحكومة فى الوطن الأم الوضع الذى يوصى بأن الإمبراطورية الهندية كانت مصدرًا قوميًا نافعًا، برغم أن الحصول عليها لم تتبعه أبدا أى خطط سابقة، ومع حلول عام ١٨٠٠ صارت السيطرة البريطانية على الهند حقيقة سياسية للحياة، برغم شكوك البرلمان حول أنشطة الحكام الكبار الذين كانوا أكثر ولعًا بالقتال عن الحكام السابقين لهم، عندما وصل الأمر إلى الحفاظ على الحدود وفرض الإدارة البريطانية على الحكام الوطنيين المتمردين.

ولا يمكن السماح للقوة الدافعة بالحصول على المزيد والمزيد من السلطة بالإهمال أو التوقف، فلقد أصبحت الهند قاعدة تستطيع بريطانيا من خلالها السيطرة على جنوبى آسيا والمحيط الهندى، وأن تنمى مصالحها

التجارية التى بدأت تصل نحو الصين، وأعطى الجيش الهندى للبريطانيين السلطة التى تساعد على حماية مصالحها، وفرض إرادتها خلال منطقة امتدت من البحر الأحمر إلى شبه جزيرة المالايو، وقد تم الكشف عن قوة الجيش الهندى خلال الحروب ضد فرنسا النابليونية الثورية، عندما تمكنت مجموعة مشتركة من القوة البشرية الهندية والسيادة البحرية والمحلية البريطانية من شن حرب فى مصر وغزو موريشيوس وجاوة، وبعد عام ١٨٠٧ عندما صار من الواضح أن فرنسا سيدة أوربا، بدأت الإستراتيجيات البريطانية فى وضع خطط لغزو أمريكا الإسبانية، والتى شملت إرسال قوات هندية عبر المحيط الهادى إلى المكسيك وشيلي.

وأظهرت هذه المشروعات أن الوحدات الهندية المدربة أكثر مما كان مطلوبا لمهمتها أثناء حصار كودادور عام ١٧٨٣، فقد تغلب الهنود المجندون فى الجيش البريطانى على القوات الفرنسية التى صدت من قبل جماعة هجوم أوربية، وفى (Bharatpnr) عام ١٨٠٥ تقدم الهنود للعمل عندما أحجمت الكتيبة السادسة والسبعون البريطانية عن ذلك[٢٤].

وبرغم هذا فإن الذين حكموا الهند لم تكن لديهم فكرة عن المصدر الحقيقى لقوتهم، وأسطورة الجيش البريطانى الذى لا يقهر، وكتب كورنواليس يقول: "إن كل جندى أوربى يجب أن يحمل فى عجلة صغيرة لنقل الأثقال إلى مسرح العمليات؛ لأنه مثل الأسد أو كلب الصيد الذى ينطلق ضد العدو"[٢٥].

وكانت موجة القلق بين القوات الأهلية خلال عام ١٨٠٩ تذكارا غير مريح يدل على أن الاستقرار عبر شبه القارة يقوم أساسا على القوات البريطانية وحدها[٢٦].

هذه حقيقة لا يمكن نسيانها حتى بين هؤلاء الذين كانوا يحملون التنوير الأوربى لشعب الهند.

(٧)
صحراء المياه
المحيط الهادى وأستراليا

لقد ظهر المحيط الهادى كتلة ضخمة فارغة على خرائط القرن الثامن عشر. وعَبَر حفنة من البحارة فى القرنين الماضيين مياهه وعادوا بتقارير متفرقة عن جزر، ومن المحتمل وجود قارتين فى أقصى الجنوب، وظلت الأسئلة حول المنطقة دون إجابة. وكان الإبحار إلى الحيط الهادى وعبوره مشروعًا خطيرًا جدًا، فلقد تم حصر البحارة وحبسيهم لفترات طويلة وهم يعيشون على غذاء غليظ ووضيع، وعلى طرق غير دقيقة لمعرفة خطوط الطول، وأحيانًا يجبرون قادة السفن على الإبحار بشكل عشوائى وفى عام ١٧٤١ لم يقدر ضباط أنسون (Anson) مكان أسطولهم بنحو ثلاثمائة ميل عندما كانوا يدورون حول كيب هورن (Cape Horn).

وفى عام ١٧٦٥ أمكن التعرف على المحيط الهادى ومعوقاته الفنية من خلال نشر نيوتيكال ألماناك (Nautical Almanac) واختراع كرونوميتر بحرى جديد ربما جعل من الممكن قياس خطوط الطول بشكل دقيق، وأصيب الجنود بمرض الإسقربوط. لكن نسبًا معينة منتظمة من الشراب المسكر وعصير الليمون مع نكهة ملونة كان يخفف المرض، لكن لم يقض على مرض الإسقربوط المتوطن تماما، ومع ذلك فإن هذه الاختراعات جعلت الارتياد المنتظم للمحيط الهادى أسهل، وكانت الرحلات التى قام بها كابتن

جيمس كوك (James Cook) وغيره من رجال أواخر ستينيات القرن الثامن عشر وما بعدها، تجارب لقوة الاحتمال. وتسابق البحارة بالسفن بعد حملات كوك الثلاث. وفى عام ١٧٩٠ غادر ستة من البحارة فى الديسكفرى (Discovery) بدلا من مواجهة ١٨,٠٠٠ ميل مقدار رحلة إلى الساحل الشمالى الغربى لأمريكا(١).

وقد وصف الكابتن السير هنرى بيام مارتن الجزء الباقى أمامهم فى مذكرة حزينة أضيفت إلى سجل سرعة السفينة فى يوليو 1846 فقال:

"يعد المحيط الهادى صحراء من المياه، يبدو أننا أبحرنا خارج العالم المسكون وأصبح الجرامبس (Grampus) فرانكشين المحيط(٢)".

لقد كانت العزلة والتوتر اللذان ولدهما الرفاق الدائمون، ورتابة النظام الروتينى على ظهر السفن منظرًا بحريًا غير مألوف ومخيفًا. كل هذا كان نصيب الضباط والرجال الذين أبحروا أولاً فى "مارسوه"، والذين كان لديهم حب استطلاع عن محيط مجهول وجزره وسكانه، وهذا ما يؤكد التقارير الأولى للرحلات الأولية، والتى أصبحت تباع بشكل أفضل. وقد اعتبر كولريدج (Coliridge) وهو أحد القراء التواقين لهذا الأدب من الرحلات كتابة قصيدة على ظهر مركب بونتى عام 1788 ، 1787 والتى انتهت بالتمرد المشهور، والرحلة المشهورة عبر الهادى لقائدها وليم بلاى (Bligh) وبحارته المخلصين.

إن كل ما كان يعجب كولريدج بشكل خاص وآخرين هو التأمل فى كيفية قيام هؤلاء بتلك الرحلات الملحمية، وقد واجهوا مجتمعات جديدة ومختلفة تماما، وربما يكونون قد تغيروا داخليًا بسبب هذه التجارب. ولم يتم تأليف القصيدة لكن بعد ذلك رسم كولريدج أوصاف كوك الواضحة للبحار القطبية فى قصيدته "الصقيع عند البحار القديمة: The Rime of Ancient Mariner".

لقد ولدت الاستخبارات التي جاءت من المحيط الهادى إثارة شعبية ضخمة، وأكدت أن المستكشفين من البحارة الأوائل قد نالوا وضعًا شعبيًا بطوليًا، وكان كوك يفوق الجميع، وعندما أبحر فى رحلته الأولى فى عام ١٧٦٨ كان أكثر البحارة مهارة فى عصره، حيث كان صبورًا وفنيًا على أعلى مستوى مهنى، والذى ارتقى فى الأسطول الملكى من خلال مواهبه القوية لأنه كان ابن عامل (Whitby) ولكنه قد تعلم تعليما ذاتيا على أعلى مستوى، وفى خلال عشر سنوات حقق من خلال إكتشافاته احتراما وعندما أعلنت فرنسا الحرب على بريطانيا عام ١٧٧٨، صدرت الأوامر إلى قادة الأسطول الفرنسى ألا يعوقوا تقدم المعرفة الإنسانية، وبعد وفاته فى عام ١٧٧٩ دفن كوك فى مدافن عظماء الأبطال الملكيين البريطانيين. وقد تم الإعلان عن مكانته فى مقدمة رواية توماس بليك "نظم جديدة للجغرافيا" (New Systems of Geography) "والتى نشرت عام ١٧٨٧، ظهر كوك دائما فى وسط الهيكل المحفور الذى قدمه نيبوتور إلى كليو (Clio) الذى كان على وشك أن يسجل أعماله، بينما يوجد فى الجزء الأعلى من الهيكل طفل جميل يحمل تاج أمير وملاك يعزف على آلة موسيقية، وفى الأسفل تذكار يحمل وسائل كوك المغامرة التى أفادت التجارة البريطانية، وحصلت بريطانيا على أربع شخصيات بارزة والتى تجسد القارات الأربع، وعلى مسافة توجد سفن كوك Adventure & Resolution، وهى تتجه إلى البحر وإلى الاستكشافات الجديدة.

ولم يكن كوك فى حاجة إلى تمجيد أعماله، حيث نشر يومياته فى جورناله الذى أرشد المسافرين التواقين إلى معرفة كل التفاصيل عن عالم يختلف تمامًا عن عالمهم. وإلى جانب مدفأته فى الريف شمال باكنجامشاير استطاع كوبر (Cowper) أن يجول بخاطره فى البحار الجنوبية ويراها من خلال عيون كوك، وكان فضله على المستكشف قد تم الاعتراف به فى قصيدة "الواجب": (Task).

وهكذا أخذ الإنسان يسافر

ويطوف مثل النحلة

ينتقل من زهرة إلى زهرة وأيضا من أرض إلى أرض

حيث تختلف الأخلاق والعادات وسياسات الجميع

ويسهم فى المخزون الذى يجمعه وهو يمتص الذكاء من كل مناخ

وينشر العسل من كل أبحاثه العميقة

عند عودته بوجبة غنية

هو يسافر وأنا أيضا

لقد قام كوك برحلاته الثلاث فى الفترة من (١٧٦٨ - ١٧٧٩) كما اقترح كوبر بأنه يضيف إلى التنوير العالمى (أى الأوربى) وذلك بعد جمع الملاحظات الجغرافية والعلمية والأنثروبولوجية عن عالم سرى حينذاك، لكن الحصول على المعلومات من أجل المعلومات ذاتها لم يكن هدف كوك الرئيسى. وبينما كان العقل فى القرن الثامن عشر يقدر المعرفة المجردة فإنه يجعل قيمة أعلى على هذا النوع من المعلومات الذى يمكن أن يساعد على التقدم البشرى. وإذا فهمنا ذلك بشكل صحيح فإن المعلومات والعينات التى جلبها كوك إلى بريطانيا يمكن أن تستخدم لصالح وطنه.

ولقد فهم كوك هذا تماما، وفى إحدى المرات اعترف أنه لم يكن أكثر من رجل بسيط يهب نفسه لخدمة وطنه. لقد كان هناك هدف نفعى تمامًا فى الاستكشاف وعمل الخرائط، وقياس الرياح والتيارات المائية وجمع الصخور وتصنيفها وأيضا تصنيف الأسماك والطيور والحيوانات والنباتات، وعلى مدى أكثر من قرنين من التوسع فيما وراء البحار تعلم الأوربيون أن العوالم

الجديدة تحتوى على منتجات مرغوبة فى العالم القديم، وبعضها مثل البطاطس والطماطم والسبانخ يمكن أن تزدهر فى أوربا، بينما المحاصيل الأخرى مثل القطن والتبغ يجب أن تزرع فى المناطق الاستوائية.

ومع كوك أبحرت فرق من الخبراء - الذين بعد اكتشاف عينات جديدة من النباتات وتسجيلها- تشجعوا على البحث عما إذا كانت هذه محاصيل نقدية للمستقبل، ونظرًا لأن حملات كوك قد أصبحت نماذج للمعرفة فى المستقبل، فقد تم إجراء استفسارات عن الظواهر الطبيعية، وكانت دائما بقصد تحقيق أكبر فائدة ممكنة، وفى عام ١٧٩٠ بينما كان الكابتن جورج كوبر متجها إلى هاواى وساحل المحيط الهادى لأمريكا، أصدرت البحرية البريطانية أوامر إليه بالبحث عن وجود دلائل عن معادن أو فحم، وأن يسجل أنواع الحيوانات والطيور والأسماك التى يجدها، وأن يستفسر عن إمكانية فائدتها سواء للغذاء أو التجارة. وأيضا طلب منه البحث عن الحيتان والحيوانات البحرية، وأن يقوم بعملية التجسس الصناعية بالبحث عن أسرار كيفية قيام الأهالى الوطنيين بصبغ ملابسهم[٣].

وكانت تفاصيل نباتات شجرة الخبز فى تاهيتى، والتى تم جمعها أثناء زيارات كوك، قد أعطت الحافز لرحلات بلاى (Bligh) إلى الجزيرة عام ١٧٨٧، وقد صنف جوزيف بلانكس هذه النباتات الصالحة للأكل على أنها مصدر أساسى لجمع المال، وهو أيضا رفيق كوك الذى وجد فيه تخصصه الخاص (النبات) باعتباره أساس التجارة البريطانية، وكان بلانكس هو الذى حث الحكومة للحفاظ على أشجار الخبز التى تستطيع حل المشكلات الاقتصادية فى مزارع جزر الهند الغربية، والتى حرمت من واردات الطعام الأمريكية، وكانوا يبحثون عن محصول أساسى رخيص يستطيعون إطعام عبيدهم منه، وصدرت الأوامر إلى بلاى ليأخذ نباتات أشجار الخبز إلى

الحدائق النباتية فى سانت فينسنت (St.Vincent) حيث تعاد زراعتها واستخدامها كمخزون للغذاء، وأثناء مروره صدرت الأوامر إلى بلاى (Pliyn) بشن غارة نباتية على الساحل الشرقى لجزيرة جاوه الهولندية، وأن يحمل قطعا من أشجار ونباتات بما فيها الأرز الذى يمكن أن يزدهر فى التربة من مستعمرة بريطانية مدارية(٤).

لقد كان كوك باحثا عن مجال للتجارة البريطانية، وكما كان أيضا الممثل للسلطة البحرية البريطانية، وأنه من الضرورى- إذا ظلت بريطانيا سيدة كل المحيطات- أن تمتلك البحرية خرائط دقيقة فى المحيط الهادى وجزره والأرخبيل هناك، وعلاوة على ذلك فإن ظهور الملاح الفرنسى فى المنطقة، وهو لويس أنثيون بوجين فيل عام ١٧٦٦، جعل من الضرورة العامة رفع علم بريطانى هناك، وأن جزر المحيط الهادى قد ظهرت فى الوجود وبريطانيا لها سلطة عليها، وكان من الضرورى أيضا زيادة الاهتمام الدولى بالمحيط الهادى وأن تعرف بريطانيا الكثير عن القارات الجنوبية الغامضة، وعندما غادر كوك إنجلترا فى عام ١٧٦٨، كان يبحث عن فعل الكثير لإشباع حب البحث والاستطلاع الطبيعى لديه، وكان أداة للطموحات القومية التجارية والإستراتيجية، وكانت أبرز مساهماته المتميزة بنوك القرصنة النباتية الطبيعية، وكان ينظر إلى تميزها باعتبارها حديقة سرية يمكن جنى ثمارها لصالح بريطانيا، وخلال السنوات الثلاث التالية زار إنديفور (Endeavour) تاهيتي، واتجه بعدها جنوبا إلى نيوزيلاند والجانب الشرقى لأستراليا، ودار على طول جريت باريريف (Great Barrier Reef) وعبر التوريس لكى يثبت أن أستراليا جزيرة.

وحمل كوك معه تفويضا شرعيا ليعلن السيادة البريطانية على أى منطقة اكتشفها، والتى لم تكن مأهولة أو أن سكانها لا يستفيدون بشكل واضح

من أرضهم كان الحق فى القيام بذلك تعضيد القانون على الأقل، كما فسرته المحكمة الرئيسية فى بلاك ستون، والتى تنص على أن أى فرد امتلك ولم يستغل الأرض يفقد ادعاءه عليها.

وأعلن كوك أن أستراليا أرض بلا صاحب (Terra nullius) ويمكن ضمها لبريطانيا، إن ما رآه بلانك فى ممتلكات الدومنيون للملك جورج الثالث، وأقنعه أن مناخها وتربتها مناسبتان للاستعمار فى المستقبل، وسكانها والسكان القدامى الأصليون كانوا من البدو الرحل لا يزرعون الأرض أو يحرثونها، وأنها تفتقد لأى شكل مميز من التنظيم الاجتماعى أو الدينى، وقد وضعهم وشخصهم كوك على أنهم أكثر الشعوب بؤسا فى العالم، برغم أنهم راضون تماما بأحوالهم.

ولقد سيطر على حملته الثانية إلى المحيط الهادى (١٧٧٢ – ١٧٧٥) البحث عن القارة الجنوبية الثانية، وطاف حول حافة القارة الأنتراتيكية ووصل إلى خط عرض ٧١,١٠ ْ، وصاح لا توجد أرض مسكونة أخرى (Ne Plus ultra) واتجه نحو نيوزيلاند واستراليا، وفى عام ١٧٧٦ بدأ رحلته النهائية كتعريف لخط الساحل الشمالى الغربى لأمريكا وألاسكا، حيث حسب المأمول ربما يكتشف المخرج للممر الشمالى الغربى، وحتى منذ أواخر القرن السادس عشر تتبع البحارة هذا الممر الجغرافى (Will-o- wisp) مضيق حول حافة شمال كندا والتى تربط المحيطين الأطلنطى والهادى، ومثله مثل سابقيه لم يكن كوك ناجحا برغم أنه رسم خرائط لنوتكا (Nootka Sound) وصل بحارته بالمصادفة إلى أعداد كبيرة من ثعلب الماء الذى يحقق سعرًا غاليًا فى الصين.

لقد كان هذا آخر اكتشاف لكوك قبل أن يقتل فى مشاجرة مع سكان هاوى (Hawaiin) فى فبراير ١٧٧٩ بينما كانت سفنه راسية فى الشتاء

بالجزيرة، لقد كانت أعظم إنجازاته كسر الحواجز السيكولوجية التى كانت قد منعت مستكشفى المحيط الهادى، وملأ مناطق واسعة بخريطة المحيط، وكانت النتائج التجارية لاستكشافاته مخيبة للآمال، لكن المقاولين البريطانيين كانوا شاكرين لفتحه أسواقًا جديدة مهما كانت صغيرة، وفى مدى سنوات قليلة كانت شركة الهند الشرقية تطور تجارة فراء ثعلب الماء مع الصين، وبعد ست سنوات من وفاة كوك كانت هاواى تستورد السلع المصنعة البريطانية بما يساوى ما بين ٣٠,٠٠٠ وخمسين ألف جنيه إسترلينى فى السنة.

لقد كانت شعوب الباسفيكى أكثر من آمال التجارة هناك، وقد جذبت خيال معاصرى كوك، وكان الكشف عن وجودها وطريقة الحياة تتوافق مع فترة من الإثارة الفكرية، حيث يتم توجيه أسئلة عن الفروض الأساسية للأخلاق الأوربية والنظام الاجتماعى، ومنذ أواخر القرن السابع عشر تأمل المفكرون فى مخلوق شبه مجرد يسمى "المتوحش النبيل" وهو يوجد فى حالة من الطبيعة فيما وراء حدود أوربا، حيث عاش بدون أنماطه الاجتماعية الموسعة، والأهم من كل هذا النظام من الجزاء والعقاب الذى وضعته الديانة المسيحية، وفى هذه الحالة فهو حسب الخيال رجل أسعد من زملائه من الأوربيين.

إن التقرير الذى وضعه بوجن فيل (Bougan Vile) وطبيبه الجراح فيلبرت كومرسون (Philbert Commerson) والذى ظهر عام ١٧٧٤ أظهر أوربا بالنسخة الحية للوحش النبيل، وأصر الفرنسيون على أن تاهيتى كانت عالم عدن، حيث حاول الرجال والنساء ووجدوا سعادة لا تقارن بنتيجة العيش بحسب منطقهم الخاص ووعيهم، أكثر من اتباع نصائح دينهم المكشوفة والواضحة.

فالطبيعة فى شكل فواكه وفيرة ومخلوقات متوحشة زودتهم باحتياجاتهم، وعلى هذا كانوا يقضون الجزء الأكبر من وقتهم فـــى المتعـــة، ومعظمهـــا فى أمور جنسية مفرطة ولا تكبح، وظهر أن وجود هذه اليوتوبيـــا (Utopia) (وهى كلمة استخدمها بوجن فيل) تحدٍ لكل النظام الاجتمـــاعى الـــدينى فـــى أوربا، وكان مستوى فكر كوك قد شك فى ادعاءات بوجن فيل، والتى قامت على الخيال، ولم يكن التاهيتيون دون عيوب، وخلال زيارة كوك كانت وسط حرب أهلية طويلة المدى.

أما بخصوص الأمور الجنسية الحرة والمكشوفة فقد اســتفادت منهـــا بنوك الخلاعة والفسق، ولاحظ كوك أن جمال التاهيتيين الذى أغرى رجالهم لم يكن مختلفا عن قرنائهم الذين أغروا البحارة على جوانب الأرصفة فـــى تشاتام أو بلاى ماوث، عدا السايفن الذين يأخذون أمورهم فى شكل مـــسامير حديدية بدلا من العملة النقدية، ومع هذا فقد كان كوك مـــستاء أن التـــاهتين سموا الأمراض التناسلية (Apa no Britannia) أو تورية تعيسة (Brit-tanne) (مرض بريطاني) وكنقطة من الشرف الوطنى أصر كوك على أنها قد دخلت الجزر من خلال البحارة الفرنسيين(٥).

وبينما لاحظ كوك أن الناس قد واجهوا سعادة ظاهرية فإنه لم يوافـــق على فكرة النبيل المتوحش، وبرغم ذلك فإن ما نقله هو والآخرون وأعطـــى حصانة للوبى الإنسانى والإنجيلى القوى، والذى تطلب إلغاء العبودية في كل أنحاء الإمبراطورية البريطانية، وعارض رجال الدين الأنجليكانى العبوديـــة المأخوذة على ظهر السفن كدليل عن وجود المتوحـــشين النـــبلاء، لتقويـــة قضيتهم بأن الزنجى ليس رجلا أقل من غيره، هناك أيضا بعض الاهتمام من أجل حماية المجتمعات المعرضة للانقراض من الاضطهاد الخارجى، لكـــن هذا يساوى أقل مع رجال الدين الأنجليكايين جدا الذين أبدوا الخوف مـــن أن

رجال وطنهم من المسيحيين ربما يصبحون ملوثين بأصوات أجنبية، وقد اتهم كل من كوك وبلاى بأنهما أعربا عن رضاهما بشكل ذاتى فى أنهما ساعدا فى الاحتفالات الوثنية فى تاهيتى(٦)، وقد لا يقل فسادهم هذا عن أصحاب الرقيق والموظفين الرسميين الطغاة وقابلى الرشوة فى الهند.

لقد انزعج الوعى المسيحى من خلال تقارير سماها أحد المدافعين عن البعثات التنصيرية(٧): الفسق الذى انحدر بالتاهيتيين إلى درجة أدنى من الحيوانات المتوحشة، تطلبت الحاجة الضرورية الإنجليكانية الإصلاح الخلقى لجزر البحر الجنوبى وتجولهم إلى المسيحية، وفى عام ١٧٩٧ وصل أول مبشر تنصيرى إلى شاطئ تاهيتى ومعه (Mosaic) والبولين (Panline) – "إنكم تستطيعون بإصراركم فرض المذهب البروتستانتى" وخلال السنوات العشر التالية جاء آخرون وداروا بين الجزر البولونيزية، وفى الحال أرسلوا تقارير عن الحروب القبلية والتعذيب وجماعات آكلى لحوم البشر التى كذبت مفهوم "المتوحش النبيل" واستجابت للبعثات التنصيرية الإضافية، ولإعادة تأكيد ذلك تبين أن سكان تونجاتابو لهم نظام بطريركى، ولا يوجد قساوسة، وهناك نظام قانونى يعالج الزنا كجريمة، وكل الأمور التى تجعل اعتناق المسيحية أمرًا سهلا.

واستمر النشاط التبشيرى فى المحيط الهادى جاريا مع عام ١٨١٥ وكان ذلك امتدادًا للاستعمار، وإذا استعرضنا المسيحية الغربية. كان سكان الجزر فى المحيط الهادى يدركون عيوبهم الظاهرة والثقافة الأسمى لمعلميهم، وقد تم تحديد العملية فى عرض لتقرير نيوثاوث وليز (New South Wales) صدر عام ١٨٠٣، ولم يعد المتوحش أو البربرى خجولا من عريه حتى صارت مغازل النسيج على استعداد لكسوته، وكان الحداد يعد له أدوات أكثر دقة، وهكذا حتى أصبح يعتمد على الوسائل النفطية فى أوربا(٨).

وكان كوك حزينا عندما عاد أوميه (Omi) إلى الجزيرة بدون أى رغبة فى تطبيق مارآه وتعلمه فى وطنه، وغير رجال البعثات التبشيرية هذا إلى الأبد، وذلك من خلال جهودهم فتوحد رجال الجزر فى المحيط الهادى واندمجوا فى النظام التجارى البريطانى، وزودوا البريطانيين بزيت الكاكاو والسمك ونبات النشا، وفى المقابل كانوا يحصلون على البنادق والملابس والأدوات المعدنية، ويعد هذا من سخريات التاريخ حيث إن مهاجمى كوك من الهاواِبين ربما كانوا مسلحين بسيوف مصنوعة فى مصانع الصلب فى يولتون برمنجهام، والتى قدمت لهم كأمثلة عن التكنولوجيا الصناعية البريطانية الجديدة.

ولم يحصل كوك على إذن أو صك بضم هذه الجزر التى يزرع مواطنوها أراضيهم، ولكن ازداد الوجود البريطانى البحرى فى المحيط الهادى، كما تطورت التجارة مع هذا، ومنذ ١٧٩٠ وما بعدها عبرت السفن الحربية بانتظام بين الجزر، وأكد القباطنة النية الحسنة لرؤساء جورج الثالث وأعطوا بعض الميداليات التى تبرز ملامحهم (وتم صك الآلاف لرحالة فانكوفارد لعام ١٧٩٠).

وحذرهم كوك من الإضرار بالتجارة، وقد أثار هذا النشاط البحرى الحكومة الإسبانية لادعاء حقوق سابقة فى المحيط الهادى، بحسب شروط معاهدة لتورديسلاس ١٤٩٤، وهى شريحة من الورق، والتى لا تعنى شيئا بالنسبة لبريطانيا(*).

وكان التهديد الإسبانى لغرض السيطرة على نوتكا (سوندNootka Sound) عام ١٧٨٧ قد واجه ردًا بتعبئة جزئية للأسطول البريطانى الذى كان كافيا

(*) معاهدة لتورديسلاس عقدت بين إسبانيا والبرتغال بتوسط البابوية لفض النزاع بينهما (المراجع).

كرد حاسم وعنيد، وكان هذا اعترافًا بالضعف من جانب سلطة إمبراطورية متدينة، والكل كان يدرك قدرة بريطانيا القوية والتى لا تسمح بالإضرار بتجارتها ومستعمراتها.

ومع حلول عام ١٨٠٠ صار المحيط الهادى بحيرة بريطانية، وتضاءل الاهتمام الفرنسى بالمنطقة بعد عام ١٧٨٩، وكان على الجانب الأمريكى أن يستيقظ وأدى ذلك لاندلاع الحرب الأنجلو أمريكية عام ١٨١٢، وإلى الهجوم على السفينة الأمريكية (Uss Essex) ولكن نظرًا لنفاد بنادقها وأسلحتها اضطرت إلى الاستسلام بعد مواجهة مع أسطول بريطانى صغير.

ومن الممكن أنه إذا لم يعترض أحد سكان ولاية الإسكس (Essex) فربما اتجهت إلى المستعمرة البريطانية الجديدة فى نيو ثاوث ويلز.

فقد حدد بانكس (Banks) الامكانات الاقتصادية لثاوث ويلز في عام ١٧٦٩ وبعد عشر سنوات حث الحكومة على استخدام أحد موانيها بونتى بيى (Botany Bay) كمستعمرة عقابية، وكان اقتراحه فى الوقت المناسب حيث أدت الحرب الأمريكية إلى وقف انسياب التهم والإدانة لمستعمرات التبغ، وشهدت ثمانينيات القرن الثامن عشر موجة جرائم اجتاحت السجون غير الكافية، والتى كان يمتلكها أشخاص بصفة خاصة، ويفضل التفكير الرسمى النقل باعتباره الوسيلة الوحيدة للخروج من المشكلة، لكن لم توجد اتفاقية تحدد أفضل الأماكن لشحن المجرمين، وكانت جامبيا هى البديل الوحيد لكن مناخها وأمراضها المستوطنة كانت تعنى أن إرسال المجرمين، إلى هناك سيكون المساوى لحكم الإعدام البطىء عليهم، وكان البديل الأكثر صحيًا ميناء على شواطئ مهجورة فى جنوب غرب أفريقيا. لكن هذا الاقتراح رفض، وأخيرًا فى أغسطس ١٧٨٦ صوتت الوزارة بالموافقة على اختيار نيو ثاوث ويلز (New South Wales).

لقد حدد وصف بانك للظروف المحلية عملية الاختيار، والحاجة إلى مستعمرة صغيرة فى أستراليا لتكون قاعدة رمزية للملكية البريطانية، وأيضًا القيمة الإستراتيجية لملكية بريطانيا، لها كقاعدة لشن هجوم بحرى على الساحل الغربى الذى لا يجد حماية من أمريكا الإسبانية، ولم يكن هذا سهل المنال كما يبدو. ففى وقت كانت الادعاءات البريطانية الإسبانية فى المحيط الهادى لم تحسم بعد، وكانت هناك فرصة بأن القوانين ربما تؤدى إلى حرب بحرية فى المنطقة. وتم إحياء المشروع فى عامى ١٨٠٦، ١٨٠٧ عندما وضعت الدوائر ذات النفوذ المؤثر لرحيل الرجال الإستراتيجية، ورجال الأعمال خططا من النزول البحرى فى المكسيك وشيلى وإسبانيا التى كانت حليفا لفرنسا. ومن بين الاقتراحات اقتراح يفترض على شحنة هندية إلى نيو ويلز فى أول خطوة من الرحلة إلى شيلى.

كان المتهمون موضوعا آخر حيث إنهم يقدمون عصب المستعمرة الجديدة، وإنه فى وقت ما سوف يفيدون بريطانيا التى تفضل وجودهم يتسكعون كسالى فى زنزانات السجن، أو كانوا يستخدمون فى السفن الراسية فى نهر التايمز بتكلفة معقولة للحكومة، وكان النقل عملية نفعية، وحسب مؤيديها تعد شكلاً إنسانيا من العقوبة التى تعطى للمجرم فرصة التخلص من الخطيئة والعودة إلى المجتمع، وبرغم أن النقل الآن يبدو صعبًا على ظهر السفن، وكان شاقا فى نيو ثوث ويلز، واعتقد الرجال الذين يحكمون بريطانيا فى أواخر القرن الثامن عشر بإخلاص أنه كان حذا فاعلا للجريمة ووسيلة يمكن بها إصلاح المجرمين. ومن المأمول أن لكل فرد فى المجتمع القيام ببعض الأعمال المفيدة، والتى تفيده هو شخصيًا، وتسهم فى المنفعة العامة. ويسعى الخارجون عن القانون إلى العيش بوسائل أخر، ويجب أن يعرفوا خطأهم. وكان هذا هو رأى الحاكم لاشلان ماكورى (Lachlan Macquarie)

والذى وصف نيو ثاوث ويلز عام ١٨١٧ بأنها مصحة علاجية على نطـــاق واسع، حيث تعلم الأطفال ذوو الحظ التعيس من خـــلال العمـــل الـــشاق أن يكونوا أمناء ومواطنين أذكياء أوفياء لجورج الثالث.

لقد أبحر أول أسطول من السفن بحمولته من الرجال والنـــساء (مـــن الذكور والإناث المجرمين والجنود والمستقرين الأحرار والمواطنين الرسميين من إنجلترا فى مايو ١٧٨٧، وأرسى بمجاديفه بعيدا عن شاطئ بوتانى بـــاى (Botany Bay) فى يناير ١٧٨٨، ووجد قائده والحاكم الأول الكـــابتن آرثـــر فيليب أن الميناء غير صالحة، وغيّر اتجاه سفنه إلى مكان أفضل قريب، والذى سماه سيدنى تكريمًا وتشريفًا لوزير المستعمرات، ويبدو أن المكان كان نضالا وعراكا طويلين بين المخمورين والممارسات الجنسية من المجرمين، وهؤلاء الذين أرسلوا لحراستهم. وبعد ذلك ندم رجال الدين لأن رحلة المحيط الطويلـــة قد شجعت على المخدرات وتذوق الخمور والكحوليات التى وجد المهـــاجرون أنه من الصعب فقدانها بمجرد أن يصلوا إلى مكان[٩].

لقد كان إنشاء أستراليا الأولية عملية معقدة جدًا، وكان المفـــروض أن عضلات المجرمين سوف تؤسس مستعمرة زراعية تعتمد على نفسها، ومن الممكن أن تكون أكثر ربحًا.

وسوف يكون المجتمع الأسترالى أبويًا وهرميًا. وسوف تكون السلطة التنفيذية والقضائية فى أيدى الضباط السابقين، والتى ساعدتهم تجاربهم فـــى الخدمة على إعدادهم لممارسة السلطة على رجال من الطبقات الـــدنيا التـــى كانوا بسهولة قادتها. ومنذ البداية كان هناك ثلاثة أصناف من الأستراليين هم الرسميون والحراس والمستقرون الأحرار والمجرمون، وتشكل الفئة الأخيرة معظم السكان، وكانوا هناك رغم عن إرادتهم.

وتدل التحليلات عن خلفية المجرمين الذين وجدوا أنفسهم فى أستراليا بعد عام ١٧٨٨ أنه المتهم النمطى، وكان رجلا مذنبا يسعى للعودة إلى الإجرام وفى سن أقل من خمسة وعشرين عاما، والذى عاش على حواف المجتمع، ويعيشون على السرقة من أى نوع.

وفى هذه البيئة الجديدة كان على هؤلاء المخلوقات؛ إما أن تغوص أو تعوم، أو كما وصفها فيليب (Phillip) "الرجال القادرون على تدعيم أنفسهم إذا كانوا قادرين وأذكياء، وأعتقد أننى لم أفشل، بينما أضمن أن الذين ليس لديهم حافز للصناعة، سيموتون جوعًا"(١٠).

وتمنى فيليب وخلفاؤه أن الشخص ليجد حافزًا للعمل الشاق ربما يكون فى وجود المجرمات من الإناث. ففى عام ١٧٩٤ رحب الحاكم فرانسيس جروث (Francis Grose) بوصول ستين امرأة فى سن دون الأربعين، وأخبر وزير المستعمرات أنه "لا يوجد شك أنهن سيكنّ وسائل للتزاوج فى نطاق الأسرة الواحدة، والذى يجعل الرجال أكثر حرصا وأكثر كدحا فى العمل"(١١).

ربما يكون ذلك أكثر تفاؤلاً، ولقد انزعج أحد المسافرين على ظهر سفينة مجرمين بسبب السلوك المشين واللغة الأكثر وضاعة للنساء المجرمات التى دفعت الرجال المحترمين الذين وجدوا أنفسهم على ظهر السفن عندما يقومون بتمارينهم اليومية(١٢).

وبعد وضع المتهمين على الشاطئ كانوا يقومون بواجبات متعددة. ولم يكشف الرجل أى مهارات خاصة عندما يسأل عن حرفته، لأن ذلك ربما يعنى الانعزال على العمل الشاق فى مناطق الدولة البعيدة(١٣).

لهذا السبب ربما أكثر من الصدق يعطون وظائفهم كلصوص، والتى تسجل العامل فى السجلات الرسمية. وتقوم الحكومة بالعمل سواء كان ماهرا

أم غير ماهر أو لحفنة من المستقرين الأحرار. وتم فــرض النظــام بــشكل صحيح، وكان الضرب بالسياط الوسيلة الوحيدة لعقــاب المجــرمين، وفــى جزيرة نورفولك (Norfolk) عام ١٧٩٠ تم تقديم تحذير إلــى ثلاثــة مــن الهاربين بأنهم سوف يطلق عليهم الرصاص باعتبارهم خارجين عن القانون. إذا لم يستسلموا[٤١].

ولقد كان الهروب خطيرًا ونادرا ما يمارسه أحد بــرغم أن الجاهــل جغرافيا تصور أنه إذا استمر فى المشى فى الداخل بين الأعشاب، فإنه يمكن أن يصل فى النهاية إلى الصين. وفى عام ١٧٩١ أوضحت الحكومة أن كل المصاعب يجب أن توضع فى طريق هؤلاء المتهمين الذين يرغبون فى العودة إلى أوطانهم بعد نهاية محاكمتهم، وبدلاً من ذلك كانوا يحصلون على منح من الأرض على أمل أن يصبحوا فلاحــين يعتمــدون علــى أنفــسهم، وفــي عام ١٧٩٤ فإن الرجال الذين قضوا عقوباتهم كانوا يحصلون على خمــسة بنسات فى الساعة مقابل العمل الذى يقومون به فى وقت فراغهم.

وفى جزيرة نورفولك كان المتهمون وحراسهم يحصلون على أربعــة وعشرين فدانًا (آكر) وبعض الخنازير بقصد أن يصبح استقرارهم فى مجتمع يعتمد على نفسه[٥١].

ومن بين قوة العمل الأسترالية مجموعة من الرجال الذين حوكمــوا بسبب التدمير وإفساد أخلاق الناس.

ومن بين أول هذه الفئة من السجناء السياسيين كان الثلاثة المــسمون بالشهداء الأسكتلنديين الذين اتهموا بنشر مبادئ الثورة الفرنسية، وصــدرت أوامر للحاكم العام أن يراقب سلوكهم فــى حالــة قيــامهم بنــشر مبــادئ اليعقوبية (Jacobinism).

وكان توماس بالمر Thomas Palmer أحد الوزراء الموحدين قد سمح لخادم أثناء حضوره محاكمة سيده بامتيازات المستقر الحر(٦٦).

وشهدت أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر اندفاع نمط جديد من المتهمين السياسيين، ألا وهم القوميون الإيرلنديون. وتمت محاكمتهم لانضمامهم إلى جمعيات تعمل تحت الأرض (في الخفاء)، وتشارك في ثورة أو تمرد عام ١٧٩٨، واعتبرتهم سلطات نيو ثاوث ويلز خطرين جدًا، كما أن عبور البحار لم يبرئ الأيرلنديين من تمردهم، ففي عام ١٨٠٤ خطط بعضهم لعصيان مسلح، ولكن تم سحقه بسرعة.

وصدر كتاب في نفس العام يستعرض التطور في نيو ثاوث ويلز، وحدد مؤلفه المجهول الكثير من العلامات المشجعة عن الرخاء في المستقبل. ويبدو أن نسبة نمو المستقرين فاقت تلك التي في المستعمرات الأمريكية السابقة، وأحد التجديدات الحديثة تمثل في إصدار جريدة محلية (New South Wales AdvertiserThe Sydney Gazette and).

وهي تعد حجر الزاوية في طريق النضج، ولاحظ أن الأستراليين بكل تأكيد كانوا يحاولون البحث عن شخصية قومية(٦٧)، برغم عدم قول أي شيء عن مقوماتهم. وهذا الصمت مفهوم لأنه يبدي تلاحمًا بسيطًا بين الثمانية آلاف من المستعمرين، وربما الكثيرون وهم الأغلبية الذين لا يرغبون البقاء هناك ويمثلون من سمَّاهم خلفاؤهم "نحن" الذين كانوا تحت الرقابة ويحكم عليهم هذا الجهاز الأصغر من الحكام والجنود وأصحاب الأرض الأحرار، وعلى عكس أمريكا، حيث إن الروابط المشتركة في الدين أو الاندفاع والحماس نحو التقدم والتطور الذاتي قد أعطى إحساسًا بالهدف للمستعمرين الأوائل، فإن أستراليا في البداية كانت مجتمعًا منقسمًا، وعلى أي حال كان من الصعب على الدين أن يكون له تأثير أكبر على الرجال والنساء مع

حصانة ثابتة للمواعظ والمراسم الدينية. وعلاوة على ذلك فإنه خلال الأيام الأولى كان القساوسة الأنجليكيين يبشرون بالطاعة للسلطات الدنيوية، والتى غالبا ما تعمل كحكام والتى تجعل من المستحيل عليهم أن يكون لم أى أثر أخلاقى على المجرمين، وهناك مثل أى مكان آخر فى الإمبراطورية عروض عامة من الولاء لبريطانيا يتم الاحتفال بها من خلال طقوس مشاريب واحتفالات للملك فى المناسبات السنوية الملكية، إلا أن هذا الارتباط بدولة اضطهدتهم فى أوطانهم وأرسلتهم إلى المنفى لا يعنى شيئا إلى العدد المتزايد من المجرمين الأيرلنديين الذين يورثون أحقاد أجدادهم إلى أطفالهم وأحفادهم.

كانت فكرة هؤلاء أن المجتمع الأسترالى مجتمع مفتوح، وهو الذى استفاد منه المجرمون السابقون بالحصول على منح من الأرض (كان عدد هؤلاء أربعة وأربعين عام ١٧٩١) والذين سمح لهم بمجرد الحصول على ثرواتهم بالاستقرار، وكان أكثر الأفراد الأقوياء خارج كبار موظفى الحكومة ضباطا فى جهاز نيو ثاوث ويلز الذى تأسس فى عام ١٧٩١، باعتباره جزءًا وهو الذى من حامية وقوة البوليس العام وتقويته، وكانت عملية تدعيم هذا الجهاز وتقويته بالمتشردين والمحتالين من كل صنف، بمن فيهم المعزولون من الجيش النظامى تحت حكم الترحيل، وكانوا تحت قيادة الأوغاد[١٨].

ولقد كان جهاز الضباط قطيعا من الطيور الجارحة التى استخدمت نفوذها لملء جيوبها من خلال تجميع أراضى المنح وتراخيص المواد الكحولية، وحاول كابتن بلاى (Bligh) الذى صار حاكما فى عام ١٨٠٦ تحدى المصالح الخاصة لجهاز الضباط وضابطه الجشع جون ما كارثور، بتحويل سلطة توزيع مخازن الحكومة على المستقرين الفقراء، والكثيرون منهم كانوا مجرمين سابقين، وواحد كان سمسارا سابقا وكان عليه أن يذهب ويخبر الحاكم بما يريد، وكان متأكدًا أنه يحصل من المخازن على ما يريد[١٩].

لقد تم قلب هذا النظام المستنير من استثمارات الدولة من خلال مشروعات خاصة، عندما خطط ماكيرتور (Macarthur) خوفًا من ضياع أرباحه لمتمرد الجهاز ضد بلاى (Bligh)، وكان مصير بلاى تعيسًا عندما واجهت سلطاته عدم الرضا (وكان أيضًا فى استقبال النهاية فى عام ١٧٩٧ حين تمرد نور (Nore) وخلعه المتآمرون وتم استدعاؤه فى عام ١٨١٠.

لقد ترأس خليفته ماكورى، وهو ضابط جيش قوى الإرادة جهازًا من الضباط المسرحين، وحتى هذه النقطة واصل سياسة بلاى فى مساعدة المستقرين الصغار، واستمر المهاجرون الأحرار فى الندرة وأدرك ما كورى أن كثيرا من الفلاحين الصغار والذين رأى فيهم العمود الفقرى لمستقبل أستراليا سوف يكونون من المجرمين السابقين، وترك منصبه فى عام ١٨٢١ عندما أصبح من الواضح أن المستعمرة فى مرحلة الازدهار، وارتفع عدد سكانها إلى ٣٨,٠٠٠ نسمة وكان اقتصادها قويًا.

ويدين الازدهار والانتعاش والرخاء كثيرًا إلى عنف نظام المقاولات عند ماكيرتور، لأنه كان من الأوائل الذين اعترفوا أن الأغنام سوف تزدهر فى نيو ثاوث ويلز، وكان أيضًا مقياسًا للحظ الجيد، لأنه فى عام ١٨٠٧ تم تفريغ الصوف الأسترالى فى بريطانيا، وازدهرت صناعة قماش يوركشاير، والتى حرمت ساكسون الواردات الإسبانية، وتم اعتبار المارنيو فى نيو ثاوث ويلز أفضل من منافسيه السابقين، وازداد الطلب عليه، وفى عام ١٨٢١ كان يوجد فى أستراليا ٢٩٠,٠٠٠ رأس غنم، وفى مدى عشرين عامًا وصلت صادرات الصوف الخام إلى عشرة ملايين جنيه سنويًا، وصارت الغنم بالنسبة للمستعمرة مثل التبغ (الدخان) لفيرجينيا والسكر لجزر الهند الغربية.

(٨)
الثروة والنصر
النضال ضد فرنسا
(١٧٩٣ـ١٨١٥)

حتى عام ١٩١٤ كانت الحرب ضد فرنسا النابليونية الثورية تسمى أحيانا الحرب العظمى، بدأت الحرب فى فبراير ١٧٩٣ واستمرت حتى يونيه ١٨١٥ مع فترة توقف لمدة ثلاثة عشر شهرا، التى لم تكن إلا هدنة مسلحة ما بين أبريل ١٨٠٢ ومايو ١٨٠٣، ومن الناحية التاريخية بدت هذه الحرب امتدادا للصراع البريطانى الفرنسى الذى بدأ عام ١٦٨٩ لكنه كان مختلفا بشكل واضح عن سابقيه، ليس على الأقل فى حجم الصراع والأهداف والمتنافسين.

لقد نظر إليها المتنافسون على أنها صراع من أجل البقاء، مبارزة رومانية قرطاجنية، والتى يمكن أن تنتهى فقط بعزل أحد الجانبين من إمبراطوريته فيما وراء البحار، والتجارة والاستقلال، ولقد تعلم الفرنسيون من الصراعات السابقة أن قوة بريطانيا وعظمتها تكمنان فى نظام حكومتها التى تعتمد على الثقة الشعبية، ويمكن أن تتآكل هذه إلى نقطة الانهيار، كما اعتقدت الحكومات الثورية والنابليونية أن بريطانيا قد فقدت تجارتها القارية التى كانت المصدر الرئيسى لثروتها، وإذا لم يوجد أى شىء لكى يباع لم يجد أصحاب المتاجر فى الدولة أموالاً فائضة لتقدم حكومتهم.

ومنذ عام ١٧٩٥ وحتى عام ١٨٠٥ كانت بريطانيا مهددة بالغزو، وعلى أمل احتلال من قوة انطوت على إعادة تشكيل كل دولة تحتلها أو تهزمها حسب المبادئ الثورية، إن الملكية سوف تزول، ويلغى الدستور الحالى، وتقام جمهورية. وتغير النظام إلى حد ما بعد عام ١٨٠٣ عندما توج نابليون نفسه إمبراطورًا وتحولت الدولة تحت رقابته إلى ديكتاتورية عسكرية يحكمها أمراء دمى (Puppet) هدفهم الأساسى تقديم الرجال والأموال لجهاز الحرب الفرنسى.

وسوف تختفى الحرية الفردية لو أن بريطانيا أصبحت ولاية نابليونية، وهى نقطة قامت على تجارب الدول الأخرى فى أوربا، ويكررها رجال الدعاية الحكومية، وأخذها مؤلف رواية (The Dangers to the Country) عام ١٨٠٧ حيث حذر البريطانى بأن عليه أن يتحمل وحشية الأمور العادية من البوليس فى الشوارع، وأن يجد راحته المألوفة قد تعرضت لبعض الضباط الشباب المتغطرسين، والذين اندفعوا دون طلبهم لتخفيف مللهم أثناء الخدمة من خلال حديث عن زوجاتنا وبناتنا.

وهكذا كانت الحرب، على عكس الحروب البريطانية الفرنسية السابقة صراعًا بين أيديولوجيات، فالفرنسيون على الأقل خلال تسعينيات القرن الثامن عشر قد تحمسوا لتحرير شعوب أوربا، وأن تشاركهم فى فضائل النظام الثورى الجديد ونعمه، القائم على حقوق متساوية لكل الرجال والحكومة تكون حسب الرغبة العامة.

وقد استمالت هذه المثل للثورة الكثيرين فى بريطانيا، خصوصًا هؤلاء الذين استبعدوا من السلطة، والذين قلب النظر إليهم على أنهم طبعة زرقاء للنظام السياسى الجديد فى وطنهم الخاص، وقد كسبت النظريات اليعقوبية عن المساواة مؤيدين لها، لكن هؤلاء الدعاة والمعتدلين للثورة سرعان ما

انجرفوا تحت الأرض؛ ففى عامى ١٧٩٤ ، ١٧٩٥ بدأت الحكومة تنفيذ الحكم القانونى على كل شخص مشكوك فى عواطفه الثورية؛ وذلك بسبب اليأس من الحفاظ على الوحدة القومية، وخوفا من وجود ما سمى بالطابور الخامس، وقد حدثت مبالغة فى أعداد الذين تم تنفيذ الحكم عليهم، لكن برغم ذلك صاروا مثل شركائهم من الفرنسيين رجالاً أشباحًا وغيلانا يسكرهم خيال وحشى.

إننى يعقوبى صميم

والذى لا يمتلك أى إله ولا يخشى من الخطيئة

على استعداد للدفاع عن كل ما هو سميك

ونحيل من أجل الحرية

إننى أكره وألعن قوانيننا التى نفخر بها، وهى سيئة من البداية وعفا عليها الزمن، وإننى ألهث وأتنهد من أجل تضرع عام[1].

ومع ذلك فإن فى المناخ السياسى لأوائل تسعينيات القرن الثامن عشر مثل هذا الرقم له أسباب أساسية للأذى، فالإرهاق من الحرب، ومظاهرات من أجل الطعام، وضد النظام العسكرى، وتمرد البحرية فى عام ١٧٩٧ وخلفائهم والعصيان المسلح لعام ١٧٩٨ فى أيرلنده كل هذه تذكار أن الوحدة السياسية البريطانية فى بعض الفترات كانت هشة.

لقد كانت الدعاية السياسية التى أكدت الوحدة القومية، حيوية، بينما قامت بسرعة حرب شاملة بالمفهوم الحديث، وتطلبت المقاومة الفاعلة لفرنسا أعظم تعبئة من القوة البشرية والموارد المالية، وتم تجنيد أكثر من عشر الشباب البريطانى البالغ فى الخدمة المسلحة خلال الحرب، ومنذ ذلك التاريخ كانت هناك شكوى مستمرة من القيادات بوجود عجز فى الرجال، ومع

عام ١٨١٠ كان هناك ١٤٥,٠٠٠ بحار و ٣١,٠٠٠ من رجال البحرية، ٣٠٠,٠٠٠ جندى نظامى وعسكرى، ١٨٩,٠٠٠ متطوع ونسخة مبكرة من الحرس الوطنى.

وكانت التكاليف الكلية للحرب أكثر من ألف مليون جنيه استهلك الجيش والأسطول منها ٨٣٠ مليون جنيه، وقد جاء جزء من هذا المبلغ من الجمارك المتزايدة والضرائب المفروضة، والتى كانت مهامه الحفاظ على انسياب التجارة البريطانية، ومن الضرائب الجديدة بما فيها ضريبة الدخل التى أدخلت لأول مرة عام ١٧٩٨ وقدمت ١٤٢ مليون جنيه مع نهاية الحرب(٢).

واتخذت قروض الحكومة شكلاً لولوبيًا، ومع حلول عام ١٨١٥ توقف الدين القومى عند ٨٣٤ مليون جنيه، ولم يكن مدهشًا أن الأغنياء كانوا على استعداد لاستثمار الكثير من أموالهم فى أسهم الحكومة؛ لأنها كانت بطريقة ما ضمانًا ضد السلع المستوردة.

ومن الواضح أن بريطانيا امتلكت القدرة على شن حرب شاملة، وفى كل مرحلة تفوقت على غريمتها، عندما وصلت إلى ازدياد الدفع نقدًا، وهذا يعنى أنه عندما يسوء الصادر كما حدث فى عام ١٧٩٧ وأيضا بعد ١٨٠٦ استطاعت بريطانيا مواصلة الحرب حتى بدون حلفاء، وهذه القدرة على الاستمرار والمواصلة لفترة طويلة؛ حيث إن الصراع الفرنسى البريطانى كان فى الأساس حرب الإنهاك، وكان إرهاق فرنسا من خلال إضعاف اقتصادها من بين الإستراتيجية البريطانية الأساسية منذ اندلاع الحرب، وإذا تذكرت الدولتان انتصارات (١٧٥٩– ١٧٦٣) فنظرت الحكومة البريطانية إلى عام ١٧٩٣ وإلى البحر باعتبارها وسيلة لتدمير فرنسا، وفى النهاية تقوية بريطانيا.

وشرح هنرى دونداس (Henry Dondas) وزير الحربية هذه العمليــة إلى مجلس العموم فى مارس ١٨٠١ وكان من أقوى المدافعين عنها.

يجب أن يكون الهدف الأساسى لاهتمامنا هو وسيلة لتزيد بفاعلية هذه الموارد التى تعتمد عليها السيادة البحرية، وفى نفس الوقت نتقصى أو نأخــذ لأنفسنا تلك التى تمكن العدو من الصراع معنا فى هذا المجال.

وقد واصل حديثه قائلا: إنه كان من الضرورى قطع الموارد التجارية لعدونا لأننا إذا فعلنا ذلك فإننا نضعف بشكل قاطع ونحطم موارد أســطولهم[٣]، وكانت حرب دونجاس (Dungas) صراعا إمبرياليا تم شنها بطريقــة بــت (Pith) الأكبر، وقد أخذت بريطانيا نتيجة هذه الخدمات مستعمرات خــصمها وطردت تجارها من البحار، وفى نفس الوقت الحفاظ على تجارتها الخاصة وتوسيعها، وتم الاحتفاظ ببعض الغنائم، ومقايضة الباقى باســتقرار أوربــى صميم بكبح جماح فرنسا، كما حدث فى عام ١٧٦٣ برزت إنجلترا أكثر قوة وغنى عما كانت عليه من قبل، أو حسب كلام الشاعر الــذى يــدافع عــن الحكومة عام ١٧٩٨ إذ قال:

إننا ما زلنا نمتلك أبطالا لا مثيل لهم متوجين بغنائم محترمة، وكسبوا من تحالف الأمم ومن أعلى مقدم السفن، ويقفون بكبرياء حراسًا مثل الآلهــة لأرض وطنهم، ويركبون مثل السيد المنتــصر القــوى، الثــروة والنــصر بجانبهم[٤].

وكانت نتائج الحرب البحرية أكثر من المتوقع، ففى عام ١٧٩٣ أمكن حجز الأسطول الفرنسى فى موانئه، وتم فرض حصار على موانئه الإقليمية، وفى البحر المتوسط، وتلت ذلك سلسلة من الهجوم البحرى ضد مــستعمرات الهند الغربية الفرنسية، وكما توقع المؤيدون لهذه العمليــات فقــد اســتفادوا

بدرجة كبيرة، وكانت المكافأة المالية من ديميرارا (Demeara) وإسكويبو (Essequibo)، (الآن جزء من جوايانا) مائتى ألف جنيه، وتبع قوات الغزو مزارعون بريطانيون على استعداد لشراء مزارع السكر بأسعار زهيدة[٥].

كانت تكاليف الحياة ضخمة ونسبة وفيات البحارة والجنود سبعين في المائة، وتقريبا كانوا كلهم ضحايا الملاريا والحمى الصفراء، التى زادت نتيجة تعاطى الكحوليات، وحيث إن نسبة الفقد بين الرجال المحاربين ارتفعت[٦]، فقد قرر القواد المحليون تجنيد الزنوج الأحرار، برغم احتجاج المزارعين خوفًا من فكرة تدريب أى رجل أسود على حمل السلاح، وفى ١٧٩٨ جرت وسيلة حديثة لزيادة عدد قوات الهند الغربية، وبدأ الجيش شراء العبيد لاستكمال صفوفه، وفى مدى تسع سنوات تم شراء أكثر من ٦,٠٠٨ جنود بتكلفة تقدر ٤٨٤,٠٠٠ جنيه على الخزانة[٧].

وقد أحصى دونجاس (Dongas) عام ١٨٠١ ثمار هذه الحملات التى شنها الجنود من العبيد، والذين شفوا من الحمى، وعلى مدى ثمانى سنوات حصلت بريطانيا على توباجو مارتينك وجودى لوب وسانت لوسيا والسبينسى من الفرنسيين، وأيضا حصلت على كوراكو وديميرارا وإسيكيبو من هولندة وترينيداد من إسبانيا التى دخلت فى تحالف مع فرنسا عام ١٧٩٥، كما حصلت بريطانيا على مكاسب أكثر فيما وراء البحار فى مالطا وميوزكا والمستعمرات الهولندية فى الهند الشرقية وترنكومالى على ساحل سيلان (سيريلانكا) والكيب تون، وحسب معايير الحرب السابقة كانت غنيمة فاعلة وكافية بدرجة كبيرة للمجتمع التجارى الذى رحب بالأسواق الجديدة.

وكانت هذه مطلوبة بشكل كبير فى عام ١٨٠١، وفى القارة اتجهت الحرب إلى الجانب الفرنسى برغم النبوءات الأولية بأن الجيوش الثورية سوف تتفرق عندما تقابل القوات النظامية، وقد حدث العكس مع جيوش النمساويين

والبروسيين والروس الذين ساءت أحوالهم فى كل اشتباك تقريبًا، والأكثر من ذلك اكتشف الفرنسيون كيف يعوضون ضعفهم الملى لجعل الحرب تغطى تكاليفها.

كما خططوا للعمليات الحربية فى الأراضى المنخفضة والراين وسويسرا وشمالى إيطاليا، وعاشت الجيوش الفرنسية بعيدًا عن الأرض وحصلوا على تكاليف الحرب من المشاركة الإجبارية من الشعوب التى حرروها، وفى نفس الوقت تعلم الجنود الفرنسيون وهم يحاربون أن يطوروا عملية حرفية ومبدأ ثوريًا يجعل الموهبة هى المعيار الوحيد للترقية، وشجعوا على ظهور كادر من القيادات الذكية، والإلغاء بشكل مرتفع، لقد أهملت المشاركة البريطانية فى الحرب البرية فى أوربا، وعلى نهج سابقيه الأوائل أرسل بت الأصغر حملات من القوات إلى الأراضى المنخفضة ولكن بدون قيادة أو إدارة وبسرعة أعيد ارسالهم كجماعة، وفى عامى ١٧٩٤ ، ١٧٩٥ أمكن إحياء وسيلة أخرى بشكل متردد عندما أجبرت بريطانيا على تقديم قروض وإعانات إلى أستراليا وبروسيا، وكان التمويل فى الحرب عظيمًا وأبقى القرض البريطانى للنمساويين والبروسيين، وفى ١٧٩٩ الجيوش الروسية فى القتال لكن لم يتحسن أداؤهم فى أرض المعركة، وظلت جيوش فرنسا دون هزيمة، وفى عام ١٨٠١ استولت على الأراضى المنخفضة النمساوية (بلجيكا) وأراضى الراين وأسست جمهوريات صغيرة فى هولندا وسويسرا وشمالى إيطاليا.

لقد أثرت الحرب البرية فى غرب أوربا على التوازن البحرى فى المحيط الأطلسى والبحر المتوسط، وفى عام ١٧٩٣ أفاد ذلك الأسطول الملكى الذى حشد مائة وخمس عشرة سفينة، ضد سفن فرنسا التى لم تزد قوتها على ست وسبعين سفينة، وأضاف غزو الأراضى المنخفضة

عام ١٧٩٥ تسعًا وخمسين مقاتلة إلى إجمالى الفرنسيين، وأضاف التحالف الإسبانى ستًا وسبعين أخرى، وكانت مخاطرة التركيز الإسبانى الهولندى الفرنسى الشاملة فى المياه الإقليمية عظيمة جدا، لدرجة أنه فى أوائل ١٧٩٧ انسحب أسطول البحر المتوسط، لكى ينتشر بعيدا عن ساحل الأطلسى الإسبانى، وثبت أن الخوف كان غير صحيح، ففى فبراير ١٧٩٧ قاد الأدميرال السير جون جيرفيس أسطوله الذى يفوق عددا هجوما على الإسبان بعيدا عن كيب سانت فينسيت، واستولى على أربع سفن حربية، وفى أكتوبر ضرب الأدميرال اللورد دونكان الهولنديين وكمبرداون (Camperdown).

كان الضغط شديدًا فى الوقت ذاته برغم أن أعصاب الدات البحرية والأسطول قد ارتبكت بشدة بسبب موجات عدم الرضا التى سارت عبر القناة الإنجليزية وأساطيل البحر المتوسط خلال أوائل الصيف، وكانت هناك أعمال تمرد معظمها من البحارة الأيرلنديين المتأثرين بالفضائل الوطنية فضلا عن انفجار مفاجئ من القلق فى المحيطات الأجنبية التى استمرت حتى ١٧٩٨، وكان الخوف من اليد الخفية لتأثير اليعاقبة، وكان بعضها خفيًا ولكن الجزء الأكبر كان حزنًا، وعاقبت البحارة على أحوال أعمالهم وأجورهم ومعاملتهم، وكانت الحكومة مستعدة لتقديم امتيازات لهم وأكدت انتصارات ١٧٩٧ السيادة البريطانية فى القناة والأطلسى، لكن تحكم الفرنسيون بالمبادرة فى البحر المتوسط، ومع بداية عام ١٧٩٨ تم تجديد أسطول طولون وتجمع فى الموانئ ليحمل على ظهره ١٧,٠٠٠ من الجنود الأقوياء بقيادة نابليون، وكان هدفه توجيه ضربة قوية ضد بريطانيا، ولكن ظلت هناك علامة استفهام حول وجهته، وكان هناك بديلان هما غزو إيرلندة، حيث كان الهبوط البرى سيكون إشارة إلى ثورة الغالبية الجماعية، وأيضا الكاثوليك الأيرلنديين أو الهجوم على مصر. وكان اختيار مصر لأسس إستراتيجية؛ لأن احتلالها

سوف يعرض المصالح التجارية البريطانية للخطر في الشرق الأوسط، ويضع جيشًا فرنسيًا داخل الطريق المؤدي إلى الهند.

ولا تزال الجرأة المحضة لحملة نابليون مثيرة ومدهشة، إلا أن الدونداوسى قد أخذوها بمحمل الجد، والذين وافق مستشاروهم المتخصصون على أن هجوما على الهند سواء فوق الأرض عبر سوريا والعراق أو من خلال البحر الأحمر ممكن تمامًا، وأن نابليون يمكن أن يجد مساعدة من شاه إيران وأمير أفغانستان، وعلاوة على ذلك كان المتخيل أن قوة صغيرة من القوات الأوربية تعوض بسهولة التوازن في المحيط الهندى ضد بريطانيا، وكان كل هذا صدمة عنيفة للوزارة والدونداوسى الذى كان متأكدًا أن فقدان الهند سيكون قاتلاً ومميتا لبريطانيا، وطالب بإرسال تعزيزات إلى هناك. لكن أحبطت ضربة نابليون القوية عندما دمر الأدميرال السير هورانبيو ومن بعده نلسون (Nilson) أسطول نابليون فى خليج أبى قير فى أغسطس ١٧٩٨، وانعزل الجيش الفرنسى عن قائده الذى أسرع عائدا إلى باريس لممارسة عمله السياسى، وظل الجيش منعزلاً فى مصر، وأخيرًا تم ترحيله بقوة بريطانية على سفن أرسلت لهذا الغرض عام ١٨٠١، وفى الهند تحرك الماركيز ولسلى للقضاء على حليف فرنسا القوى السلطان تيبو (Tipu) واستعد لفعل نفس الشيء الماهر الذى استخدم المرتزقة الفرنسيين.

كانت هذه الفترة شرخا لأعصاب الوزراء البريطانيين الذين كانوا قد أخذوا درسا مهمًا فى إمكانية سقوط الهند ومواصلاتها، وحتى لو أن نابليون قد بقي ببساطة فى مصر فإنه سوف يفصل ما يسمى بالطريق البرى إلى الهند، والذى يمتد من بورسعيد عبر برزخ السويس الإسكندرية، ويعد أسرع وسيلة للمواصلات بين بريطانيا والهند، وكان من الواضح من أحداث عام ١٧٩٨ أن أمن الهند فى المستقبل يتطلب سيطرة بريطانيا على البحر

المتوسط، والسيطرة السياسية على الإمبراطورية العثمانية التي أصبحت مناطقها في ذلك الوقت مناطق واسعة تدافع عن حدود الهند الغربية، وعلاوة على ذلك فإن إمكانية أن حكام فارس وأفغانستان ربما تخلوا عن نابليون جعل من المحتم أن كلاً من الدولتين دخلت في دائرة النفوذ البريطاني.

ولقد وضعت مغامرة نابليون المصرية أسس السياسة البريطانية في البحر المتوسط والشرق الأوسط للأعوام المائة والخمسين القادمة، كما أنها فتحت أيضًا منطقة جديدة للتنافس الإمبريالي الفرنسي البريطاني الذي بدأ خطواته بعد عام ١٨١٥.

وكانت أهداف الحرب الفرنسية في هذه اللحظة قاصرة على أوربا، وهنا وقع سلام مختصر في إميان في ربيع ١٨٠٢، والذي لم يكن سوى فترة التقاط أنفاس حاولت كل من فرنسا وإنجلترا فيها استعادة قوتها، وعندما استؤنفت الحرب بعد عام واحد قرر نابليون غزو بريطانيا التي اعتبرها العدو القوي ولا آخر غيرها، وتطلب خططًا لغزو السيادة على القناة البريطانية من جانب الأسطول الإسباني الفرنسي الموجود في طولون، وقد تفكك هذا خلال حصار مايو ١٨٠٥، وقام بخدعة نحو الهند الغربية، ولكن اعترضه نابليون بعيدًا عن الطرف الآخر في أكتوبر، وتم تحطيم ثماني عشرة مقاتلة فرنسية وإغراقها وأخذها ومعها ذهبت كل آمال فرنسا في تحدي بريطانيا مرة ثانية في البحر.

واتخذت إجراءات صارمة لمنع إعادة بناء الأسطول الفرنسي بما في ذلك الهجوم المسبق على كوبنهاجن، والاستيلاء على الأسطول الدانمركي في عام ١٨٠٧، وتناقص الخوف من الغزو، واختنقت التجارة الفرنسية فيما وراء البحار، وصارت بريطانيا حرة في مواصلة التهام مستعمرات أعدائها، بما في ذلك بعض الذي استعادته في إميان.

ولقد كان نابليون منتصرًا برًا، وكان جيشة الكبير الذى كـان معـدًا لغزو بريطانيا قد انقلب ضد حلفائها من النمسا وبروسيا وروسيا، وما بـين أعوام ١٨٠٥ – ١٨٠٧ حقق سلسلة مدهشة من الانتصارات فى ألم (Ulm) وإسترلنز وجيتز أورستيد وأيلو (Eylau) وفريد لاند.

ونتيجة لذلك أجبرت النمسا وبروسيا وروسيا، وهى على حافة الحرب على قبول نظام أوربى جديد وضعه نابليون. وأصبحت القـارة الآن تحـت سيطرة فرنسا الموسعة وتوابعها ممالك إيطاليـا وتـسفاليا واتحـاد الـراين الكونفدرالى ودوقية وارسو الكبرى، وسواء أكانت هذه الدول تحت سـيطرة نابليون أم لا، فإن كل دول أوربا كانت مضطرة لتبنى مبادئ بـرلين ١٨٠٦ والتى حرمت كل التجارة مع بريطانيا.

وردت بريطانيا بحظر من نفسها، وهى مجبرة من الأسطول الملكـى الذى جعل التجارة الأوربية فيما وراء البحار تدخل فى مرحلة من التوقـف الحقيقى، وأنكر على الأوربيين مثل هذه المنتجات كالتبغ والسكر الذى كانت بريطانيا تعيد تصديره، فضلاً عن السلع البريطانية المصنعة كالقطن. ولـم تستطع فرنسا تعويض العجز؛ نظرًا لأن صناعتها كانت تعوزها القدرة لإشـباع الأسواق الأوربية، وتجارة الوارد لها قد نفدت جميعها بسبب الحصار.

وبينما كانت التجارة الأوربية عامة فى مرحلة الكساد، توسعت التجارة البريطانية حقًا؛ لأن التجار وصلوا إلى أسواق جديدة فى الولايات المتحـدة (حتى حرب ١٨١٢) وآسيا والشرق الأوسط، وذلك برغم المقاومة فى أمريكا الجنوبية الإسبانية، ومن الواضح أن منافذ جديدة للسلع البريطانية عوضـت فقدان الأسواق القديمة لكنها لم تحـل محلهـا كليـة، ومـع حلـول شـتاء (١٨١١–١٨١٢) يبدو أن تراجعا حدث، لأن الصادرات كانت فى حـالات الركود، هذا بالإضافة إلى هبوط الإنتاج الصناعى.

ولقد تم القيام بالبحث عن مزايا تجارية جديدة بحماس منقطع النظير، فبعد إعادة احتلال أكيب تون (Cape Town) عام ١٨٠٦ قام القائد المحلى أدميرال سير هوم بوفان بهجوم مفاجئ ضد بوينس أيرس فى مايو من ذلك العام، وأثارت أخبار هذا الهجوم انفعالا ضخمًا فى لندن حيث ربط قواد الجيش الكبار وضباط البحرية المصالح التجارية لإثارة حرب مفيدة وزيادتها فى الغزو ضد أمريكا الإسبانية كلها، وأثارت خيال الأحلام بإمبراطورية أمريكية جديدة لها أسواق واسعة، وأدت القيادة عديمة الأعصاب وسوء الإدارة إلى جلاء منول من ريفر بلايت (River Plate) مع منتصف عام ١٨٠٧.

وفى ذلك الوقت كانت الأحداث فى أوربا تأخذ اتجاهًا جديدا، فى محاولة نابليون لإرهاب البرتغال بالصياح، ووضع أخاه جوزيف على عرش إسبانيا قد أدخله فى نمط غير مألوف من الحرب، وكان العصيان المسلح الإسبانى فى مايو ١٨٠٨ ثورة شعبية عضوية أخذت الفرنسيين على دهشة، وأجبرت قوادهم على حرب عصابات فى جانب من الريف، حيث كان الطعام والغذاء نادر، وتوسل الإسبان والبرتغال إلى بريطانيا، وفى الحال تعهدت الحكومة البريطانية بتقديم مبالغ نقدية وأسلحة وجيش وكان بت قد مات منذ عامين لكن لا تزال أفكاره تشكل إطار السياسة البريطانية التى كانت تقوم على تقديم مساعدات غير محددة لأى شخص عند محاربة فرنسا.

وكانت المحالفة البرتغالية الإسبانية البريطانية ارتياحًا أكثر منها اقتناعا، وتحولت البرتغال إلى ولاية تابعة لبريطانيا للسنوات الست القادمة، وشك الإسبان فى أن بريطانيا تشتهى ممتلكاتها وتجارتها الأمريكية، وقامت بانتظام بطلب فتح أسواقها للتجار البريطانيين، ومات الكره القديم، ففى ١٨١٤ اشتكى التجار البريطانيون فى بيونس أيرس بأن الموظفين المحليين كانوا

استبداديين ويضايقون الناس، وأنهم يعانون من الحماس الـديني والغـضب المحب للانتقام، بدلا من الجندية، وفي نفس العام تم إطلاق النار على مركب شراعي وحيد الصارى من بنادق القلعة في قرطاجنة (قرطاج)[٨].

وبرغم هذا فإن التحالف استمر ويرجع الفضل إلى صرامة القائد العام البريطاني أرثر ولسلي الذي كان إستراتيجيا شديد البراعة، وقد شـاهد منـذ البداية أنه على وشك شن حرب إنهاك سيكون فيها الجـيش الكاسـب هـو الحاصل على طعام أفضل ومؤن أكثر، وأرسل الأسطول حملات من التجار إلى لشبونة، حيث تم تفريغ حمولات من الحبوب والطعام للتوزيع فـي كـل أنحاء الدولة، وكانت هناك لحظات حرجة وقاسية، لكن على العموم فإن كل قوات ولسلي لم تمت جوعا، ومـات الفرنـسيون الـذين يعيـشون خـارج أرضهـم.

وعلاوة على ذلك هزم ولسلي بصفة مكررة الجيوش الفرنسية، وقـد جعلت سلسلة انتصاراته بين أعوام (١٨٠٨ – ١٨١٢) شبه جزيرة ايبيريـا مقبرة المشاهير الفرنسيين من القواد، وانتهت إلى الأبد أسطورة فرنسا التـي لا تقهر، ففي الاشتباك في حرب لا يمكن كسبها بعيدًا عن فكر نابليون نظرا لأنها ستكون اعترافا بالضعف الذي يشجع على المقاومة في مكان آخر، ومن الناحية السياسية كان مفلسا وليس هناك ما يقدمـه لأوربـا سـوى الركـود الاقتصادي والضرائب الثقيلة والتجنيد الإجباري.

والاثنان الأخيرن للحفاظ على جهاز الحرب الذي به يهـدد أي فـرد يعارض رغبته، وظلت ثقته كما يقول أحد الأفراد عالية، وفي بداية عام ١٨١٢ كان يستعد لحل مشاكله بالطريقة التي يعرف أنها الحرب. إنه يريد أن يرعب روسيا التي كانت تظهر علامات الارتباك في الاستقلال، وبعـدها شخـصيا تولى الأمور في إسبانيا، لقد أخفق غزو روسيا؛ الذي خطط له ليكـون وسـيلة

للرعب والتخويف، فالتفكير الفرنسي بطريقة مشوشة وسوء التقدير والثقة الزائدة المقترنة مع عناد روسيا؛ لإحداث التجزئة والتفرقة أولا، وبعدها تدمير الجيش الكبير خلال الخريف والشتاء لعامي ١٨١٢ ، ١٨١٣ وحلت بروسيا القوات المسلحة، وانضمت إلى روسيا، وأيضا فعلت النمسا نفس الشيء بعد تردد بسيط وكانت بريطانيا سريعة في إعادة بناء تحالف جديد وسلمت لأعضائها أكثر من ستة وعشرين مليونا من الجنيهات كتعويضات وضمانات سلف وأيضا صواريخ ومدافع من مصانعها وورشها، وبسرعة انهار الاستعمار الأوربي النابليوني، ونظرًا لأنه قام على الانتصارات فإنه لا يستطيع أن يعيش بعد الهزائم التي مُني بها من جيوش أسياده في خريف ١٨١٣ - ١٨١٤ وشتائه، أما جوزيف بونابرت فقد عاد من إسبانيا، وفي يناير ١٨١٤ قاد ولسلي الذى صار دوق ولنجتون جيشًا بريطانيًا برتغاليًا تجاه جنوبي فرنسا وتنازل نابليون عن العرش بعد أن حوصر بين ولنجتون والنمساويين والبروسيين والروس الذين كانوا يضربون بقوة في شرقي فرنسا، وبعد عام عاد من إلبا (Elba) مقتنعًا أنه يستطيع أن ينوم رجال وطنه مغناطيسيًا مع أحلام جديدة بمجد عسكرى شجاع، فجاءت النهاية في وونزلو حيث مُني بهزيمة قاسية وحاسمة على أيدى ولنجتون والبروسيين البلوشر، وفي نهاية يونيه استسلم نابليون لبريطانيا وأرسل إلى المنفى في سانت هيلانا أبعد مستعمراتهم، حيث لا يتغنى به أحد، وجلس في سكينة مكتئبًا ومتباكيًا على أخطائه.

لقد كان الفوز في الحرب ضد فرنسا جهدًا هِرقليًا (نسبة لهرقل) وحكمة تقليدية. وبعد ذلك تعزز النصر النهائي للقوة البحرية؛ لأنها فوق كل شيء أكدت أن بريطانيا ظلت داخل الحلقة، ومنعت سفن الأسطول الملكي عمليات الغزو حيث قلصت وحددت القوة الفرنسية في أوربا، وسمحت

لبريطانيا أن تحتل تقريبًا كل ممتلكات أعدائها فيما وراء البحار، وحرصت على تزويد السفن التى حافظت على جيش ولنجتون فى شبه الجزيرة، وضمنت بقاء تجارة بريطانيا عبر الكرة الأرضية، والتى ولدت الثروة المطلوبة للإنفاق على جهدها الحربى، وأن تهيئ هذه القوى الأوربية الثلاث الكبرى التى كانت ضخمة بشكل كاف للاشتباك مع نابليون على قدم المساواة وبشروط متساوية.

ولقد كانت هناك العديد من الأسباب التى حققت نجاح الأسطول؛ حيث الإصرار والثقة بالنفس وكفاءة الضباط والملاحين، والتى يرجع الفضل فيها إلى التقاليد التى ترسخت فى مائة العام الماضية.

لقد كان نلسون مشهورًا كقائد ورجل تكتيك، لكن دونكان وجيرفيس وكولنجور يستحقون أيضًا مدحًا عاليًا، وفهم الجميع مأزق وطنهم، وكيف اعتمد عليهم كثيرًا، ولماذا ومتى تأتى الفرصة للمعركة بغض النظر عن أطوارها الغريبة. وفى المعارك الحاسمة فى كيب سانت فينيست وكامبردون، وخليج أبى قير والطرف الأغر كانت الأساطيل البريطانية تفوق عددًا، ولكن اعتمادا على السفن البخارية العملاقة والمدفعية كان القادة يأخذون زمام الهجوم، وكانت روح القتال العدائية قوية، وكما لاحظ نلسون بشكل مشهور أن ضابطا يضع سفينة على طول جانب العدو لا يمكن أن يكون فى الجانب الخطأ.

واعتمد الكثيرون على غريزة الضابط الفردية ورد فعله الصحيح لحالة الطوارء وهو شيء غرسه نلسون بين أتباعه إلى حد أنهم يعرفون توقعه منهم دون أن يحاطوا به، وأثناء اشتباك مع الفرقاطة الفرنسية توباز (Topaze) بعيدا عن جوديلوب فى يناير ١٨٠٩ رأى الكابتن وليم مود فى الجاسون (Jason) أنه لا داعى لإخبار القائد لرفاقه كليوباترا (Cleopatra)

عن نيَّاته، وكتب مود (Maude)، واعتبر أنه ليس من الضرورى إرسال أى إشارات آلية، وتوقع بشكل كامل رغباته من خلال رسو سفنه على الجانب الأيمن، وإطلاق نيران ثقيلة بعد ذلك(٩).

واستمرت العملية لمدة أربعين دقيقة، وقد حققت السفن العملاقة الموجهة ضد أجسام السفينة الفرنسية أهدافها؛ فالبراعة والدقة في تزويد البنادق ورشاقة نشر الأشرعة أو ثنيها حيوية جدًا للمناورات السريعة، وهذا يتطلب تدريبًا حريصا ومكثفا للبحارة، وتقريبًا كان كلهم مضغوطين أو مجندين إلزاميا من أصحاب الأرض، وحكم الكثيرون وربما غالبية الضباط سفنهم، كما يفعل النبيل (السير) فى قريته بيد قوية، ولكن بأبوية، وامتد هذا النمط من القيادة التى عكست قيم الطبقة الحاكمة والحياة المدنية الطبقية المعاصرة، والتى امتدت أيضا إلى الجيش، حيث تشجع ولنجتون الذى أصر بأن الشرف الشخصى للإنسان المهذب يشمل اهتمامًا نشطا من أجل رفاهية هؤلاء الذين تحت إشرافه. وفى عام ١٧٨٣ قام ضابط بحرى بإنفاق الأموال لتقديم العلاج لمرضاه متجاوبًا مع عبارة كلاسيكية من الخدمة الأبوية " إننى كضابط بريطانى أعتبر نفسى مدينًا لملكى ووطنى من أجل حياة البحارة تحت قيادتى، وخصوصا فى المثال الحالى عندما يعودون إلى وطنهم بعد أن تحملوا المصاعب الكثيرة والتعب لخدمة جلالته، وبحارة ميزوا أنفسهم فى أمور كثيرة فى الهند(١٠)".

لم يشارك كل الضباط فى مثل هذه المشاعر خصوصًا خلال الحروب الثورية والنابليونية، والحاجة اليائسة لتحويل المدنيين إلى بحارة مهرة بأسرع ما يمكن، والخوف أن يصاب البعض بآراء اليعقوبيين، كل هذا دفع الكثيرين من الضباط للاعتماد على التهويل والرعب باعتباره الوسيلة الوحيدة للحفاظ على النظام، وبحسب البحارة فى السفينة مانيفسنت (Magnificent) كان الضابط مارشال من هذا النوع.

ولم يكن طغيانه محتملاً، ونحن على استعداد لفقدان آخر نقطة من الدم للدفاع عن ملكنا المعظم ووطننا، ولكن الحرب تحت إرادته سـوف تؤذينـا كثيراً؛ لأن أدنى غلطة سوف تضربنا بشكل غير رحيم، وهو يهددنا جميعـا بالقفز على ظهر السفينة، وحدث حقا جزء من تهديداته بالفعل حيث غـرق زميلان غير سعداء فى محاولة للاستحمام على الشاطئ(١١).

وأصبحت مساوئ هذا النوع أكثر؛ لأن السفن ظلت فى البحر لفترات أطول عما كان من قبل. وتحتاج لفترات سفن الحرب ذات القاع من النحاس إلى كشط منتظم فى أحواض السفن، وقد زودت السفن فـى الميـاه البعيـدة بقواعد لتسهيل الإصلاح.ومخازن خلاف التزامات وقت الحرب ومؤسـسات بحرية فى مالطة والإسكندرية وبرمودة وباربادوس ومارتينك ريودى جانيرو وموريشيوس والكيب ومدراس ومباى وينيانخ، وتوسعت خدمات المخابرات بتأسيس شبكة دولية واسعة النطاق من وكلاء شـركات التـأمين اللـويزر عام ١٨١٣ وبراون لندساى ووكلاء اليودز فى برنا مبوكو أخبروا لندن عن تحركات ثلاث شركات أمريكية خاصة، والتى كانت تستعد لاعتراض شركة شرق إنديا من بعيد عن البرازيل(١٢).

قد أنقذت الحرب، التى زادت من شهرة الأسطول أيضا، الجيش الذى شوهت أعماله الحرب الأمريكية، فضلا عن سلسلة الغزوات الكارثيـة فـى شمالى أوربا ما بين أعوام ١٧٩٤ و ١٨٠٩، يرجع الفضل فى إعادة تأهيـل الجيش إلى ولنجتون وكبار الضباط الذين قادوا حملات شبه الجزيرة، وكمـا إعترف بحرية بأن إنجازاته فى أوربا تدين فى كل شىء إلى الدروس التـى تعلمها فى الهند. وأظهر أن الجندية الاستعمارية هى أمر سـرى ومكـروه، لكنها كانت التدريب النموذجى للضباط الطموحين.

ولقد تم الاحتفال بأعمال الجنود والبحارة بشكل موسع فى بريطانيا، ودقت أجراس الكنائس وخدمات الشكر التى عكست أخبار النصر الذى انتشر فى كل أنحاء الدولة، وامتلأت محلات الطباعة بصور الأدميرالات والقواد أو عروض المعارك برًا وبحرًا. ولم تثر أى حرب سابقة هذا الاهتمام الشعبى الضخم، والتى ولدت الكثير من الحماس الوطنى أو الإثارة فى بعض المناسبات، وقد صاح الكونتس جيرسى عندما سمع بأخبار ولترلوو "من أجل المجد" ولدينا الكثير من قبل، وتؤكد هذه المعركة فقط ما شعر به المرء دائمًا أن الإنجليز أفضل الجنود فى العالم(١٣).

لقد أصبحت الثقة بالنفس من هذا النوع الأمر الشائع فى القرن الثامن عشر كله وازدادت قوة بعد انتصارات (١٧٥٩ – ١٧٦٢)، وأكد أحد رجال يورك شاير أن بريطانيا أحسن شيء فى هذا العالم، وذلك لأحد المهاجرين الفرنسيين عام ١٧٩٤، ولقد حياه هو وزملاؤه من اللاجئين فى لندن بهتافات "اللـــه يلعن الكلاب الفرنسيين" قالها بعض رجال الأبراج الذين قذفوهم بقطع من الفحم. وكان نفس الوضع سيئًا فى أدنبرة حيث فاجأت الزائر بنت لاحظت "أمى أنه بالتأكيد ليس فرنسيا؛ لأنه بدين وليس أسود اللون(١٤)".

وفى بداية الحرب كانت العجرفة والخوف من الأجانب أقوى من قبل، لم يكن العداء والاحتقار لعدو تقليدى كافيا لجمع الأمة معًا فى حرب طويلة ضد فرنسا، وكان الأمر يتطلب وطنية إيجابية من جانب حكومة بت التى تخشى من إغراءات الدعاية السياسية الثورية التى ركزت بشكل طبيعى على عدم المساواة فى المجتمع البريطانى، وعلاوة على ذلك ركزت الوطنية الشعبية فى أوائل تسعينيات القرن الثامن عشر على الحرية الفردية ومزايا الدستور لكى يكون المصلحون صادقين فى وطنيتهم.

لقد أكدت الوحدة الوطنية والرخاء وفرص التقدم الذاتى والانسجام الاجتماعى والإحسان الذى أظهره الأغنياء تجاه الفقراء، أنها مصادر حيوية للكبرياء الوطني، والأهم من كل هذا الولاء للتاج، وكان جورج الثالث حجر الزاوية فى الدولة والضامن لهدوئها. لقد قتلت فرنسا ملكها، وعلى هذا ألقت بنفسها فى الفوضي.

ونمت هذه الرؤية من القومية البريطانية على نطاق واسع من جانب الحكومة والوزراء فى كنيسة إنجلترا وأسكتلندا والمؤسسات الخاصة، وأبرز رجال الكنيسة الإصلاحية فى إنجلترا وأظهروا الوطنية[١٥]. وكان الاتجاه دائمًا نحو روابط الولاء والوحدة.

هكذا يحرس البريطانيون شهرتهم القديمة ويؤكدون إمبراطوريتهم على البحار، ويدعون للحاقدين فى العالم أمة واحدة لا تزال شجاعة وحرة، قررت أن تغزو أو أن تموت صادقة لمليكها وقوانينة وحريتهم تقاوم كل سيطرة أجنبية على إنجلترا[١٦].

أما بالنسبة لفرنسا فقد صورهم رجال الصور الكارتونية على أنهم مرضى العقول هيكلهم العظمى هزيل، يأكلون العشب أو الضفادع بدلا من أى شيء آخر، وبعد قدوم نابليون ظهروا فى صور وأزياء رسمية مضحكة فى الأوبرا.

ووجد لويس سيموند الذى طاف ببريطانيا خلال عام ١٨١٤ بنى وطنه فى كل مكان، وقد صُوروا كأقزام سياميين (Simian) تختال فى قبعات ضخمة وتلوح بسيوف المبارزة[١٧].

وكانت صورة إنجلترا فى هذا الوقت هى جون بل (John Bill) الذى حمل عصا غليظة، وليس لديه وقت لأى شيء أجنبى، هذا النمط الكامل مع

ملابس أوائل القرن التاسع عشر، سوف يستمر لمائة وخمسين عامًا أخرى، وسوف يظهر من جديد في صور الكارتون في الحربين العالميتين في القرن العشرين.

ولقد جددت الحروب الفرنسية حيوية الوطنية البريطانية، ووضعت أسس السيادة المؤكدة التي ظهرت في القرن التاسع عشر كله وما بعده. وظهرت جذور الاستعمار الحربية الشعبية المغالية في الوطنية في ثمانينيات القرن التاسع عشر تسعينيات القرن نفسه في قومية الحقبة النابليونية. لقد كانت الحرب محنة قاست منها القوة الداخلية للأمة، ومهما أبرزت قيمتها الواضحة والمتزايدة.

وفي قصيدة لنعي جورج الثالث الذي مات في عام ١٨٢٠ صور على أنه مثالي، وبت الأصغر على أنه المنقذ القومي في وقت المخاطر الكبرى.

لقد ساروا بإخلاص وهدف نبيل وطاقة بطولية من التصميم طوال كل الفترات المظلمة من تاريخنا الحديث، وهم يناضلون دفاعًا عن أسس الدستور البريطاني، وعظمة اسم بريطانيا ضد كل العواصف التي يواجهونها محافظين على مظهر الشجاعة والثبات وسط حطام الإمبراطورية ودمار العالم المتمدين(١٨).

وكان هناك أبطال آخرون مثل نلسون وولنجتون ارتفعوا كنماذج فوق الجميع، وكانوا مشهورين في الشخصية القومية البريطانية، كما أن هدوءهما وشجاعتهما الرجولية وحب الوطن وعدم الأنانية والإحساس الكبير بالواجب سوف يضعهم باستمرار أمام الشباب كأمثلة تستحق المحاذاة والتقليد.

وتبنوا المبادئ الأخلاقية لهؤلاء العظماء وفهموها من كل من قادوهم. فالفارس الذي خدم تحت ولنجتون في الهند لخص ذكرياته عن ستة وعشرين

عاما خدمة مع رجل دولة من عقيدته الخاصة يستحيل فى قولـــه "إننى فعلا قمت بواجب جندى، وهى المهمة التى وضعت أمامى ونجحت فى القيام بها بفضل الرَّب لأبرئ نفسى وأبلـــى بـــلاء حـــسناً عــن الأخطـــاء واللـــوم أو الخزى"[١٩].

إن الحرب ضد فرنسا كانت أرض اختبار للميزة أخرى التى اعتبرت الآن بريطانية صرفة، والتضحية بالنفس فى قضية عادلة. لقد ناحت إنجلترا ولكنها لم تحقد على مذبحة وولترلو".

وكتب اللورد دينمان (Denman) فى استغاثة لجهود متجـــددة ضــد تجارة الرقيق، وقد تقول كثير من الأمهات البريطانيات تبكى على سقوط ابن فى هذا المجال المميت، ولكن لم تندم أم بريطانية على التضحية[٢٠].

وانتقل الدين إلى الأجيال التالية، واعترف به روبرت بــراونج فـــى قصيدته أفكار الوطن من البحر" والتى كتبها فى منتـــصف رخــاء العــصر الفيكتورى:

يا كيب سانت فنسنت النبيل إلى

الشمال الغربى قد مات بعيدًا

غربت الشمس خذ الدم الأحمر ينساب فى

خليج كدزبى

أزرق وسط المياه المحترقة تملأ وجه

ترافلجار

فى حكمة ظلام الشمال الشرقى البعيدة، أطل

فجر جبل طارق العظيم والرمادى

هنا وهناك يساعدنى إنجلترا- قل

التى تتحول مثلى وتتجه هذا المساء لتدعو

اللــــه وتشكره

بينما يرتفع كوكب جوبتر فيما وراء ذلك صامتًا

فوق أفريقيا.

وبعد عام ١٨١٥ رأى البريطانيون أنفسهم كما فعلوا دائمًــا، كدولــة حباها اللـــه وفضلها، لكن الآن تم تجريب المعدن النقى لفضائلهم الخاصـــة والحصول عليه نقيًا وأفضل من السبائك الأجنبية المتواضعة.

لقد ولّد النصر عجرفة وشعورًا بأن بريطانيـــا تمثــل فـــى نظامهـــا وحكومتها وذكاء شعبها أعلى دولة وصلتها الحــضارة. وشـــاركت عمليـــة امتلاك مناطق ما وراء البحار قليلا، إلا أنها أضافت لهذا الكبرياء القــومى، كما زادت الممتلكات البريطانية تأكيد امتلاك مالطة والجزر الأيونية وترينداد وتوباجو وسانت لوشيا التى يطلق عليها الآن جويانـــا ومـــستعمرة الكيـــب وموريشيوس.

وباستثناء جزر الهند الغربية كانت الثمار الأساسية للغـــزو القواعـــد البحرية المقامة لضمان السيطرة على البحر المتوســـط والمحـــيط الهنـــدى وتأكيدها فى المستقبل، والأهم من ذلك أن بريطانيا كانت مستعدة لأن تـــسلم بعض أسلابها، وكلها ذات قيمة تجارية. وتمت إعادة جوديلوب ورينيون إلى فرنسا، وتم استرجاع جاوة وسورينام إلى الأراضـــى المنخفــضة، والتـــى ساعدت على جلب امتيازات إلى القارة التى حبذت المصالح البريطانية.

إن صفقات ما بعد الحرب فوائد وعِبَر، وصارت برطانيا قوة بحرية عاشت على التجارة الدولية. والآن توسعت بسرعة الصناعات المصنعة وتجارتها القديمة فى السلع الاستوائية المعاد تصديرها، والتى وجدت أسواقها الكبرى فى أوربا. وعلى هذا أصبح السلم الأوربى والاستقرار أساسيين للتجارة البريطانية، أما بالنسبة لبقية أجزاء العالم فإن كل المطلوب هو وجود بحرى دائم، والذى يضمن الطرق البحرية، وفى بعض المناسبات، تأكيد حقوق رجال الأعمال البريطانيين.

وفى عام ١٨١٥ صارت الموارد والأسواق الاستعمارية الأسيرة منحة للدولة التى سيطرت على كل منطقة من التجارة العالمية.

لقد ساعدت الحرب بريطانيا على تحقيق هذا الصعود، كما أنها ولدت نظرة محاربة غالبًا ذات حقوق ذاتية، والتى جعلتها سهلة نسبيًا للبريطانيين لاستغلال مزاياهم فى نفس الوقت كممثلين أنفسهم كمحسنين للجنس البشرى.

الجزء الثالث

لا يزال التوسع أكبر وأوسع

(١٨١٥ – ١٩١٤)

(١)
القوة والعظمة
التجارة والقوة البحرية
والإستراتيجية (١٨١٥ – ١٨٧٠)

ظهرت بريطانيا فى ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر، وكأنها تمثال ضخم منفرج الساقين؛ فى العالم حيث سيطرت على كل مجال من النشاط الإنسانى، ويبدو أن شعبها يمتلك طاقة شيطانية. وكتب تشارلز داروين فى يناير ١٨٣٦ عندما شاهد ميناء سيدنى التى تنمو بقوة يقول:

"إن شعورى الأول أن أهنئ نفسى أننى ولدت إنجليزيًا[١]".

فلقد كانت مبانى المدينة ونشاطها الصاخب دليلين على قوة الأمة البريطانية.

وبمقارنة ذلك بالكسل لدى الإسبان والبرتغاليين، والتى زار مستعمراتها السابقة، وحيث تابع القول" أى تغيير غير حدث بسيط خلال القرون الثلاثة الماضية. وبالمثل فعندما مرَّ المستكشف والمبشر البريطانى دافيد لفنجسون (David Livingstone) عبر المستعمرة البرتغالية فى أنجولا عام ١٨٥٥ لاحظ أنه لو كانت فى أيدى إنجلترا فربما أصبحت منتجًا للقطن بالجملة، كما أن داخلها سوف يفتح الطريق أمام خط سكة حديدية[٢].

واعترف رجال من جيل لفنجستون وداروين بثلاثة مصادر من القوة البريطانية الخاصة التى غيرت العالم بشكل عاجل.

الأولى هى الاختراعات الوطنية وتطبيق شعبها واستخدامه، وهى التى كانت القوة المحركة الثانية هى نمو الصناعة البريطانية ومصنوعاتها وأخيرًا- كانت هناك السيادة البحرية التى مكنت بريطانيا من اختراق أسواق جديدة، وأن تشارك فى شىء ما من أمور العالم.

وهناك أيضًا، كان يتم إعلان ذلك بصفة مستمرة من منابر الوعظ، وتقدم الصحف بأن القوة الداخلية والهدف الذى استقاه الأفراد من عقيدة مسيحية وضعت العبء الأكبر على الوحدة الشخصية، والعملَ الجاد، والسعى من أجل الرفاهية لكل الجنس البشري. ويمكن أن نجد شيئًا من هذه الصفات وآثارها فى عقل أى إنسان نشط وسلوكه يسعى فى ترقية المصالح البريطانية وتطويرها فى الخارج، وذلك من خلال تأملات إدوارد باين Pine وأفكاره وهو طبيب مع الكتيبة الثامنة والخمسين، ففى عام ١٨٤٢ شارك فى الحرب الصينية، وبعد عامين من الفشل فى البحث عن وظيفة ممارس فى بريطانيا – اتجه مع كتيبته إلى نيوثوث وليز وعبر المحيط الهادى وهو فى حالة نفسية حزينة حلل عقيدته التى كانت عناصرها:

الشفقة التى تُرجع كل حدث إلى عناية الرَّب، وكل عمل لإرادته، وحب لا يكلف خدمات شاقة. وندم يقدر أحكامًا غير قاسية. وشكر يقدم الثناء والمدح حتى فى وقت الشدة، وثقة مقدسة لا تزعزعها الآلام والمعاناة الطويلة، وأمل فى النصر على الموت.

وكتب إدوارد باين (Edward Pine) فيما بعد مؤكدًا من جديد هذه الأفكار "يأتى الرضا العظيم من الأداء الصارم كواجب على أى واحد، أدعو الله أن تتجه جهودى العظمى نحو هذا الهدف(٣).

وقوت هذه العقائد الخاصة المشابهة بشكل جماعى ما أصبح اقتناعًا قوميًا: لقد اختارت العناية الإلهية بريطانيا لتكون أداة للتقدم العالمي.

ولا يمكن فصل التقدم عن الثورة الصناعية، فقد تطورت ببطء منذ منتصف القرن الثامن عشر، وسوف تكون مكتملة مع عام ١٨٦٠، كما توافق النمو فى السلع المصنعة على نطاق واسع مع الانفجار السكاني، وفى عام ١٨٠١ كان هناك عشرة ملايين تقريبًا، وهو إجمالى ارتفع إلى اثنين وعشرين مليونًا فى عام ١٨٧١ برغم الهجرة والمجاعة الإيرلندية فى أعوام ١٨٤٥ – ١٨٤٧.

وإذا ظلت بريطانيا مجتمعًا زراعيًا فإن النتيجة الحتمية لهذا النمو على هذا النحو ستكون المجاعات على نحو ما نراه اليوم فى أجزاء من أفريقيا، وأثبتت الثورة الصناعية خلاص بريطانيا، لأنها امتصت سكانيا المتزايدين.

ولقد حلت هذه العملية مشكلة واحدة – لكن خلقت مشكلات أخرى، وفى خلال الثلاثين عامًا بعد معركة وترلو واجهت القوة العاملة وجودًا صعبًا؛ نظرًا لأن أملها البقاء الكامن فى سوق متزايد لسلع مصنعة. ويمكن أن يتحقق ذلك طالما ظلت المنتجات رخيصة والأجور منخفضة، وهنا وجد رجال الصناعة مساعدة بقانون ١٨٣٤ الفقير "القانون الفقير: Poor Law" الذى خطط لجعل الظروف للعاطلين لا تحتمل لدرجة أن يجبروا على البحث عن عمل أو الهجرة، وأحيانًا لا يوجد عمل ممكن للراغبين فى ذلك.

وصحب العودة التى حدثت بانتظام ما بين عام ١٨١٥ ومنتصف أربعينيات القرن التاسع عشر بتسريح جماعى لغير المنظمين عامة والثائرين من الراديكاليين السياسيين الذين يستخدمون العنف. وساءت الأمور نتيجة أنه فى عام ١٨٤٠ لم تعد بريطانيا قادرة على إنتاج الطعام الكافى لسد رمق

سكانها، فتحت السوق أمام التجارة الحرة هروبًا من هذه المشكلات، وناقش أنصارهم أن إلغاء كل هذه الواجبات سيخفض تكاليف المواد الخام المستوردة، ويجعل الصادرات متاحة بشكل أكبر وعلى هذا أكثر منافسة وفى نفس الوقت سوف تنخفض أسعار المواد الغذائية، ويرجع هذا إلى فتح السوق البريطانية للمحاصيل الأوربية الأمريكية، وقد تم اتخاذ خطوات نحو التجارة الحرة بشكل مؤقت فى عشرينيات القرن التاسع عشر، عندما ألغت حكومة الحزب الثورى قوانين الملاحة وخفضت التعريفة الجمركية، وشهد السير فجأة لأوائل أربعينيات القرن التاسع عشر إحياء لمطالب التجارة الحرة، وبشكل أكبر من رجال الصناعة، فى شمال ميدلاند، الذين كانوا تواقين للأعمال التجارية، وتخفيض البطالة من خلال الانسياق نحو الصادرات(٤).

واستجابت حكومة التورى للسير روبرت بيل بكل شجاعة، ولكن الكتلة المتعثرة كانت قوانين القمح التى حمت القمح الذى يزرع محليا ضد المنافسة الأجنبية، وقاومت المصالح الأرضية السائدة ما رأته على أنه تآكل لمصادر الثروة، ولكن فى النهاية اجتازت هذه الادعاءات حقيقة أن الزراعة المحلية لم تعد تشبع المطالب الوطنية، وقد ظهر هذا الفشل المرعب من خلال المجاعة الإيرلندية، وفى عام ١٨٤٦ أمكن التخلص من قوانين القمح.

وتوافق تحول بريطانيا للتجارة الحرة فى أربعينيات القرن التاسع عشر مع جهود صميمة لفتح أسواق جديدة، وتوسع حجم التجارة البريطانية فيما وراء البحار بشكل منتظم منذ عام ١٨١٥، وكانت المنافذ الكبرى فى أوربا والولايات المتحدة، واللتين تشكلان معًا ثلثى خمسين مليون جنيه التى تأتى من الصادرات فى عام ١٧٢٧، واستمر هذا النمط للأربعين عاما التالية، وفى عام ١٨٦٧ عندما وصلت الصادرات البريطانية إلى ١٨١ مليون جنيه

وصلت السلع المبيعة خارج الإمبراطورية ١٣١ مليون جنيه. ولقد كان هناك توسع فى كل مكان فى أمريكا الجنوبية، حيث إنه فى عام ١٨٦٧ استوردت كل من الأرجنتين والبرازيل وشيلى وبيرو منتجات تساوى أكثر من اثنى عشر مليون جنيه.

ولفترة من الزمن كان المتصور أن التجارة الحرة ستدمر، بشكل جزئى، هذه الاقتصاديات الاستعمارية التى اعتمدت على المعاملة التفضيلية لموادها الخام، وعانى منتجو السكر فى الهند الغربية بشكل كبير، وكانوا ضحايا مثال مثير من الخدعة والدجل المعاصر، لأنهم أجبروا على تحرير عبيدهم فى عام ١٨٣٣، وبعدها فى عام ١٨٤٦ أصبح قانون رسوم السكر Suger Duties Act ينافس فى سوق حرة مع السكر المستورد من المزارع التى يعمل بها العبيد فى كوبا والبرازيل، ولم يكن مدهشا أن ينهار اقتصاد جزر الهند الغربية البريطانية.

فمزرعة فى جيانا البريطانية، والتى تم شراؤها بمبلغ ٢٤,٠٠٠ جنيه عام ١٨٤٠ بيعت بمبلغ ٢,٠٠٧ جنيهات بعد تسع سنوات، وبعدها قسمت إلى ملكيات صغيرة للعبيد السابقين الذين صاروا فلاحين يعتمدون على مورد رزق لهم، وهبطت القيمة السنوية من الصادرات البريطانية إلى مستعمراتها فى الهند الغربية من متوسط أربعة ملايين جنيه فى عشرينيات القرن التاسع عشر إلى نصف هذه القيمة فى ستينيات القرن التاسع عشر.

لقد عاشت اقتصاديات استعمارية أخرى بعد فقدان امتيازاتها التجارية القديمة، وهى ظاهرة حيرت بعض الملاحظين الذين ظنوا أنهم غير قادرين على البقاء والحياة فى سوق حرة، وحقًا فى خلال خمسينيات القرن التاسع عشر وأوائل الستينيات من نفس القرن كان هناك لوبى (جماعة) من التجار

الأحرار الذين نادوا بقطع العلاقات السياسية مع المستعمرات التـــى كانـــت حكوماتها ودفاعاتها تشكل عبئًا غير مرغوب فيه على الميزانية البريطانيـــة، والتى لا يوجد لها أى عائد واضح، وفى الحقيقة كانت الإمبراطورية منفـــذًا للمنتجات البريطانية، وفى عام ١٨٦٧ استوردت الهند سلعا بما يعادل واحدًا وعشرين مليونا، والتى جعلتها سوقا سياسيًا؛ أكبر سوق للمستهلك الأجنبـــى البريطاني، ألا وهي الولايات المتحدة، وكانت الأجزاء الأخرى فعالة أيـــضًا حيث بلغت الصادرات إلى أستراليا ثمانية ملايين جنيه، وكندا خمسة ونصف مليون، وهونج كونج مليونين ونصف مليون جنيه، وسنغافورة مليونى جنيه ونيوزيلاندا ١,٦ مليون جنيه، وبالطبع فإذا افترضنا أن بريطانيا تمتلك تقريبا نصف الطاقة الصناعية للعالم فى ذلك الوقت، فـــإن مـــستعمراتها مثـــل أى شخص آخر ليس لديه خيار سوى أن يستورد المصنوعات البريطانية.

لقد صار تعبير مصنع العالم "شعار الآن" ولا يزال يوصف الآن وضع التجارة الدولية لبريطانيا من ١٨١٥ حتى ١٨٧٠ بهذا الوصف. هناك بعض المتحمسين للتجارة الحرة فى أربعينيات القرن التاسع عشر الذين يتطلعـــون فى المستقبل القريب، عندما تكرس كل الطاقات البريطانية إلى الصناعة أنها أثر قوة العمل بها الغذاء الرخيص المستورد من أمريكا وأوربا، ومثلما كانت الحال فى القرن السابع عشر والثامن عشر اعتمد النجاح التجارى البريطانى على الصادرات من السلع الرخيصة فى المحاصـــيل الرئيـــسة، وســـيطرت صناعة القطن من الآلة خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وحقـــق إنتـــاج القطن من مصانع لانكشير أكثر من نصف الصادرات البريطانية.

وفى عام ١٨٦٧ بلغت قيمة كل أنواع القطن بما فيها خيوط النـــسيج فى كل مكان آخر ٥٥,٩ مليون جنيه، وجاءت الأقمشة الصوفية فى المرتبة الثانية ١٨ مليون جنيه، والفحم ٥,٤ ملايين جنيه، وقاطرات السكك الحديدية

٤,٨ ملايين جنيه، والقاطرات البخارية ١,٩ مليون جنيه، وتدل السلع الأخيرة على أنه فى ذلك الوقت كانت بريطانيا تصدر التكنولوجيا لدول أخرى لتساعد برامجها فى التصنيع. وصدرت بريطانيا أيضا رأس المال؛ فالثروة الخاصة المجمعة من الدولة والتى جاءت من الفوائد الزراعية والصناعية والتى استغلت فى استثمارات أجنبية وإمبراطورية.

وظهر أن الانتشار الجماعى لرأس المال البريطانى قد استغل بالفعل فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، عندما وصل معدل الدخل من أنصبة ما وراء البحار نحو خمسة ملايين جنيه سنويًا.

وارتفع هذا الرقم إلى خمسين مليون جنيه مع سبعينيات القرن التاسع عشر، واستمر فى الزيادة كلما ازداد انسياب رأس المال البريطانى فى الخارج، واختار المستثمرون من رجال الطبقة الوسطى والطبقة الأرستقراطية وضع أموالهم فى سندات تعطيهم عائدًا سنويًا ثابتًا، أفضل من مغامرات متضاربة.

ولقد أصبح مجال عمل مدينة لندن هو رفع رأس المال للحكومات الأجنبيه والمشروعات التجارية، جنبًا إلى جنب مع الأعمال البنكية وتأمين الملاحة والأسهم والسندات، وأكدت أعمال هؤلاء المتخصصين والتجارب وحجم الأموال المتاحة فى بريطانيا للاستثمار فيما وراء البحار، سيادة بريطانيا بين محور إمبراطورية غير مرئية من المال، حيث جعلت الثورة الصناعية في إمكانية ثورة مالية متقدمة تمامًا مع عام ١٨٧٠ عندما أصبحت بريطانيا مصدرًا عالميًا كبيرًا لرأس المال.

وتطلع مقرضو الأموال إلى التصنيع، ونتيجة لضخ مبالغ ضخمة من المال فى اقتصاديات الدول المتخلفة والنامية، فإن المستثمرين البريطانيين

أصبحوا يبحثون عن مطالب جديدة، فالمشروعات الممولة (بريطانيًا) مثل مشاريع الماشية وتربيتها فى أورجواي، والسكك الحديدية فى أمريكا ومزارع القطن الهندية، كل هذه جذبت دولاً جديدة فى شبكة بريطانيا التجارية الكونية، وفى نفس الوقت برغم أن هذا لم يكن واضحا فى الحال فإن الاستثمار البريطانى قد أوجد صناعات يمكن أن تنافس فى وقت ما صناعات الدول الأخرى.

وأدى تصدير السلع والمال إلى خلق ما كان يسمى إمبراطورية غير رسمية، وفى مرحلة التكالب على أسواق جديدة كان حتميًا أن يواجه التجار البريطانيون معارضة محلية، أو وجدوا أنفسهم فى دول كانت حكوماتها إما ضعيفة أو كسولة فى اتخاذ إجراءات لحمايتها وحماية سلعهم، وكانت هذه نفس الحالة فى بوينس أيرس فى ربيع ١٨١٥ عندما انقسمت المدينة بين الجانبين فى ثورة الأرجنتين ضد أسبانيا، وخوفًا من الانهيار المحلى ما إن بدأ القتال فى الشوارع حتى طلب التجار البريطانيون من القائد البحرى فى ريودى جانيرو حمايتهم وممتلكاتهم، وذكروه أنهم يتابعون هذه الأشياء من المشروعات (التجارية) التى تدين لبريطانيا العظمى كثيرا لقوتها وعظمتها(٥).

لقد أدرك قناصل القرن التاسع عشر والوزراء الأجانب والقادة هذا الأمر بشكل طبيعى، وأيضًا الشعور السائد بين هؤلاء الذين كوَّنوا ندوة الدولة بأنهم مؤهلون ومخولون لتأييد الحكومة، إن العالم مليء بمناطق عدم استقرار مزمنة مثل جمهوريات رفر بلات (Rever Plate) بالإضافة إلى دول تعادى سلطاتها بريطانيا وأعمالها التجارية، أو دول كانت حكوماتها معيقة أو فاسدة، وفى مثل هذه الأماكن تتعرض حياة البريطانيين وممتلكاتهم إلى الخطر، إلا إذا كان هناك تأمين بنوع معين من الحماية، أو إذا حدث الأسوأ فستكون هناك عقوبة على هذه الدول.

وتوقع حملة الأسهم الحصول على أنصبتهم، وإذا عُرقلت هذه لأسباب تبدو غير أمنية أو تافهة- فإنهم يلجأون إلى الحكومة من أجل الإصلاح والعلاج، وتتطلب التجارة الحرة مرورًا مستمرًا للسلع والخدمات عبر أمم ونظم قانونية محلية تقدم العدالة لرجال الأعمال الذين عانوا من الخسائر.

ولا توجد هذه الأموال فى الدول الواقعة على شواطئ البحر المتوسط والإمبراطورية العثمانية والدول الساحلية الأفريقية، وجمهوريات أمريكا اللاتينية والصين.

وكان من الضرورى على الحكومة البريطانية أن تحيط حكام هذه الدول، بما يجب عليهم، وأن رفضوا الانتباه للدرس، تجعلهم يرضخون من خلال استخدام القوة البحرية، وعلى سبيل المثال ففى عام ١٨٢١ وخلال الحرب بين أسبانيا ومستعمراتها السابقة قبضت سفن القرصنة الإسبانية على تاجر بريطانى يدعى اللورد كلنجود Callingwood فى الكاريبي. ولما لم تقدم أية تعويضات عن ذلك من جانب حكومة مدريد صدرت تعليمات إلى الأسطول البريطانى في عام ١٨٢٣ بالتوجه إلى بورتوريكور لمواجهة الحاكم واستعادة القارب المقبوض عليه. وإذا ثبت عدم القدرة على معرفة مكانه فإن رجال الحرب سوف يهاجمون السفن التى تحمل العلم الإسباني، ويقبض على السفن الإسبانية(٦).

وكالعادة كانت الإجراءات العسكرية باستخدام القوة آخر الملاذ. وكانت هذه، كما أدركت الحكومات البريطانية المتعاقبة أن المجرمين الذين لا سبيل لشأنهم يحتاجون إلى مطاردة من حين إلى لآخر، كما شرح اللورد بالمرستون وزير الخارجية إلى مجلس العموم فى سبتمبر ١٨٥٠ تتطلب كل الحكومات نصف المتحضرة مثل حكومات الصين والبرتغال وأمريكا الإسبانية توبيخًا كل ثمان أو عشر سنوات للحفاظ على الوضع. وكانت

عقولهم ضحلة جدًا لدرجة أنها لا تستطيع أن تتلقى أى تأثير يستمر أطول من فترة ما، ولم يعد التحذير ذا قيمة، وهم يهتمون قليلا للكلمات، ويجب ألا يروا فقط العصا بل يشعرون بها حقًا على أكتافهم قبل أن يقبلوا النقاش الذى يجلب الإقناع[٧].

لقد كان هذا شرحًا صريحًا نموذجيًا لمبادئ إمبراطورية غير رسمية، وكان بالمرستون أيضًا يتحدث دفاعًا عن قراره بإرسال سبع سفن حربية وخمس بواخر إلى خليج سلامس (Salamis Bay) بعد أن رفضت الحكومة اليونانية دراسة تعويضات عن الخسائر التى لحقت لمختلف الرعايا البريطانيين بمن فيهم دون باسيفيكو، وهو أحد مقرضى الأموال من جبل طارق. وأمر بالمرستون الأدميرال المحلى باتخاذ الإجراءات التى خصصت للضغط على حكومة اليونان، مع إصرار بريطانيا على احترام مطالب رعاياها. وتم الاستيلاء على الاسطول اليونانى دون مقاومة، كما تم القبض على التجار اليونانيين فى بيريوس وسبيزيا وباتراس، وفرض حصار على الملاحة اليونانية[٨]، وهذا ما كان بالمرستون يعنيه بالشعور بالعصا.

وبدأ العمل الأكثر شيوعًا بالإغراء مدعومًا بالتهديد، وفى حادثة غريبة ولكن كاشفة فى عام ١٨٤٥ استطاع القنصل العام فى بيروت الكولونيل هيج روز (Hugh Rose) إهانة الحاكم التركى الذى وصفه على بأنه رجل غير مشهور ورأس الفساد، وكان ثلاثة رجال إرتكبوا حماقة غير عادية فى القنصلية، وطلب القنصل روز معاقبة أحدهم (بالضرب على قدميه) وأن يُحمل خارج القنصلية بينما يكنس الأخران الشوارع هناك، وتغاضى الحاكم عن هروب الثلاثة، وقام القنصل روز الغاضب بتحويل القنصلية إلى سفارة فى القسطنطينية.

وفى نفس الوقت تم استدعاء السيد وارسبايت إلى بيروت كرمز كيفية مواجهة الحكومة البريطانية، ما فكر فيه روز، وهو ما يعد إهانة لكرامتها[٩].

ولم يكن هذا مطلوبًا؛ لأن الحكومة العثمانية كانت تحتاج بشكل خطير التوافق مع بريطانيا والتحالف القوى منها ضد روسيا.

وهناك شكل آخر من أشكال الإجبار هو تذكر الحكام المحليين أنهم مسئولون شخصيًا عن أى أذى يقع على الرعايا البريطانيين أو جرائم ترتكب داخل محاكمهم. وعندما استولى القراصنة على مركبين فى الخليج الفارسى عام ١٨٥٥، طلب ضابط بحرى من الشيخ المحلى أن يقبض على المجرمين وإذا فشل فسوف يجبر على دفع تعويض ودة أو يواجه قصف قريتة(١٠). وقد أدرك بالمرستون أن ضغطًا يجب أن يمارس بشكل مستمر، وتأسف قائد بارجة حربية عن نزعة طبيعية لأحد أبناء المالايو الذى كان عليه أن يعود إلى مهنته غير الشرعية، ولم يمنعه الخوف الشخصى من العقاب، وذلك عندما لاحظ عودة من جديد للقرصنة فى المياه حول الملايو عام ١٨٥٢(١١).

وكانت الحملات ضد القرصنة فى مياه الشرق الأقصى، وضد تجار الرقيق فى المحيطين الأطلنطى والهندى شاقة، وتمارس فى القضايا الازدواجية لتقدم الحضارة وحماية التجارة، وما إن تنتهى تجارة الرقيق والقرصنة، فإن هؤلاء الذين استفادوا منها يعودون إلى ما يسمى التجارة المشروعة. وكانت هناك احتجاجات برلمانية ضد ما يبدو من الوسائل الوحشية. وفى عام ١٨٤٩ عبر ريتشارد كوبدن (Cobden) وهو صانع راديكالى وتاجر حر عن استيائه من منح البحارة مبلغ عشرين جنيهًا منحة على كل قرصان ميت أو يتم القبض عليه، ووجه إليه الكولونيل تشارلز سبت، هو رب أحد أعضاء حزب التورى توبيخًا عنيفًا، عندما سأل عما إذا كان اهتمامه الإنسانى لقراصنة بوينس أيرس قد امتد إلى عمال مصنعه الخاص(١٢).

لقد كانت العمليات ضد القرصنة جزءًا من جهد أوسع لاقتحام أسواق الشرق الأقصى خلال أربعينيات القرن التاسع عشر وخمسينيات نفس القرن. ووقعت سيام (تايلاند) واليابان مع بريطانيا معاهدات تجارية معقولة، ورقابة غير رسمية لإحكام السيطرة على المالايو وبورنيو وسراواك- لكن ظلت الصين عنيدة في رفضها لقبول أي تجارة أخرى مع بريطانيا أكثر من الضروري. وكانت النتيجة ثلاث حروب في أعوام ١٨٣٩ و ١٨٥٦ و١٨٥٩ وكلها حروب لإجبار الحكومة الصينية على الموافقة على أسواق وقواعد بحرية، وكان هناك قلق في الداخل حول العدوان الوحشي خصوصًا من هؤلاء التجار الأحرار الليبراليين الذين ظنوا أن مبادئهم سوف تحقق سلامًا عالميًا إذا طبقت بشكل صحيح.

وعارضوا بشدة الإجراءات الصارمة التي تبنتها سلطات هونج كونج بعد القبض على سفينة شراعية مسجلة من الرسميين الكانتونيين في عام ١٨٦٥، أيد بالمرستون رئيس الوزراء آنذاك رجال السلطة، وتساءل سيادته عما إذا كانوا يرغبون في التخلي عن مجتمع ضخم من الرعايا البريطانيين في أقصى طرف من الكرة الأرضية لمجموعة من البرابرة(١٣)، ومجموعة من المختطفين والقتلة الذين يسممون الناس.

وجاء تصويت مجلس العموم ضده، وعلى هذا اتخذ خطوة غير عادية بالدعوة إلى انتخابات عامة حول قضية السياسة الخارجية، واستجاب الناخبون من الطبقة الوسطى لوطنية جون بوليش، وتبعوا بحماسة سياسة القبضة الحديدية لبلمستون نحو الصين، وكان المعارضون الأساسيون، هم أتباع كوبدن Cobden والرجل المعارض للحرب جول برايت قد فقدوا مقاعدهم في المجلس، وقد لقيت الإمبراطورية غير الرسمية دعمًا عامًا من مجتمع رجال الأعمال، حتى إذا كانت تعني شن حروب ضد دول تعارض بعناد فضائل التجارة الحرة.

ولقد عرفت سياسات بالمرستون ذات الأقلية "بدبلوماسية السفينة المدفعية" حيث كانت القوارب الصغيرة الضحلة مسلحة بشكل مكثف؛ تجديدًا لخمسينيات القرن التاسع عشر، وكانت فى الحال موزعة عبر العالم باعتبارها حصان الأمان للإمبراطورية غير الرسمية. وكانت كل مجموعة جديدة من السفن المدفعية مزودة بأحدث التكنولوجيا، ومع عام ١٨٩٥ كانت لها أضواء كاشفة وحاملة طلقات سريعة، وآلات بنادق أعطتها قوة نارية أبعد من قوات أعدائها، وتم إعطاء بعضها أسماء ارتبطت بالغطرسة مثل المتبجح وكسارة البندق والعابث والمصارع والمتغطرس.

واحتاج القناصل الأحرار للغطرسة (غالبا ضباط سابقون فى الأسطول والجيش) والرجال الذين قادوا السفن التى زودت الحافة القاطعة لإمبراطورية غير رسمية. ولاحظ القائد السير لمبتون لورين، وهو بارون يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا، وقاد السفينة الحديثة نيوبى (Niobe) الموجودة فى كنجستون وجامايكا فى عام ١٨٧٢. وفى مايو من نفس العام تم استدعاؤه إلى بيوروبلاتا على ساحل جمهورية الدومينكان، حيث اقتحم الحاكم المحلى القنصلية البريطانية وقبض على ثلاثة من اللاجئين، ونظرا لما فى هذا العمل من خرق للسيادة البريطانية قام لورين يجعل الحاكم شخصيًا بتحرير السجناء وإطلاق سراحهم قبل أن يصعدوا على ظهر السفينة نيوبى (Niobe). وبعدها صدرت الأوامر إلى قوات الدومينيكان كرفع العلم البريطانى على القنصلية وإطلاق إحدى وعشرين طلقة تحية.

وأدت الاضطرابات فى هندوراس وجواتيمالا فى يونيه ١٨٧٤ إلى اتجاه السفينة نيوبى إلى بويرتو كورتز، وكان غرضها الأساسى حماية الممتلكات والعاملين فى شركة لبناء خط سكة حديدية، والذى كان يضع ممرًا لخط بين الكاريبى والمحيط الهادى، وكان المهندسون وعمالهم يجدون تهديدًا

من القائد المحلى الكولونيل ستريبر (Streber) الذى أضاف إلى جانب خرقه للحقوق البريطانية خطف اللاجئين بعد ذلك من جزر تملكها بريطانيا بعيـدًا عن بيلز (Belize) وإلى حد ما حدد لورين أعماله بالإبحار بعيدا عن الساحل المضطرب، وما أن أحضر على ظهر السفينة قائد من هندوراس، والذى كان يستعرض سيوف البحارة البريطانيين وتدريبات المسدسات (ولو كان قد قدم قبل ذلك بيوم واحد شاهد ضرب السياط لصبى بحار) ولم يكن إظهار القـوة كافيًا فى هذه الحادثة، وبعد أن طلب لورين عودة الممتلكات البريطانية مـن ستروبر (Streber) أطلق النار على قلعة فى أوما و(Omoa) بصواريخ حربية وسبع عشرة قنبلة مدفع، وخلال بضع ساعات استسلم الكولونيل وسلم كـل غنائمه.

كان لورين ونبوبى يمارسان العمل مرة ثانية فى نوفمبر ١٨٧٤ فـى سانتياجو دى كوبا. وقبل أقل من أسبوع استولت سفينة حربية إسبانية علـى سفينة بخارية أمريكية تدعى فيرجينوس (Virginius) والتى كانـت تحمـل ثوارًا كوبيين وأسلحة، وأعيدت السفينة إلى سنتياجو حيث بدأ الحاكم ضرب الثائرين البحارة بالنار.

وتم قتل سبعة وثلاثين من الرعايا البريطانيين فى الوقت الذى دخلت فيه السفينة نيوبى ميناء سنتياجو، وكان الحاكم مستعدًا لقتل الكثيرين، وذهب لورين بصحبة القنصل البريطانى إلى الشاطئ وأخبر الإسبان أنه إذا حـدث أى عمل آخر سوف يغرق المقاتلة الإسبانية، وكانت هناك ست مقاتلات فى الميناء، ولكن كان خوف الاسطول الملكى كبيرًا لدرجة أن الحاكم تنازل فى الحال وتم الترحيب بلورين فى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة باعتباره بطلاً، واضطرت الحكومة الإسبانية للخضوع ودفـع تعويـضات لعـائلات الرجال الذين قُتلوا[١٤].

لقد كانت أنشطة النيـوبى (Niobe) خـلال عـامى ١٨٧٣ ، ١٨٧٤ استثنائية، ولكن هدف وأعمالها إمبراطورية الدومينيكان كانت ضعيفة بدرجة أنها لا تستطيع السيطرة على أحد موظفيها، وأدت الفوضى فى هندوراس إلى تعرض الاستثمار البريطانى للخطر، كما تعرضت حياة الرعايا البريطانيين للخطر أيضا من جانب عميل فى إمبراطورية منهارة، وتطلب الموقف عملاً سريعًا يقوم به ضابط بحرى لديه ثقة قوية بالنفس، والأهم من ذلك أن تؤيـد حكومته سلوكه، والأكثر عادة أن تبحر سفن أخرى مثل نيـوبى البحـار، وتتوقف من ميناء لآخر؛ ليذكّر أمريكا اللاتينية والصين والعرب والأفارقـة بقوة بريطانيا. وعندما تحدث أزمة يقوم القنصل أو الشعب باستدعاء سـفينة حربية للتصرف بحسب تعليمات وزارة الخارجية عمليـا، ويقـوم قائـدها بالمراقبة ولا يتم تشجيع الاشتباكات المباشرة عدا فى حالة الطوارئ، كما فى سنتياجو وكوبا؛ لأن الحكومة البريطانية فضلت إغراء السلطات المحلية للقيام بواجباتها.

أنها سياسة سلطان باهانج (Pahang) الذى جمع قتلة بعض مهندسـى مناجم القصـدير فى عام ١٨٩٢ ودفعه لذلك ظهور سفن المدفعية بعيدًا عن ساحله(١٥).

ومع عام ١٨٧٠ كان جهاز الإمبراطورية غير الرسمية فى كل ربـع من العالم. فلقد ارتبط الأمراء الأفارقة والعرب بمعاهدات تعهدوا فيها بعـدم إساءة رجال البعثات التبشيرية والتجار، وأن يقضوا علـى تجـارة الرقيـق والقرصنة، وكانت أمريكا اللاتينية آمنة للأعمال التجارية والاستثمار، وكان من الممكن التحدث عن محمية بريطانية صديقه للإمبراطورية العثمانية(١٦)، حتى لو أن الهدف الأساسى لإمبراطورية غير رسمية هو جعل العالم مكانـا آمنا لاتجار البريطانيين، أيضا فرض أخلاقيات على مستوى مرتفع، وكانت

تجارة الرقيق والقرصنة مخطئة، عندما تنتقل على ظهر السفن، وتوقع البريطانيون البحث عن نفس المستويات من الأمانة الرسمية، والبعد عنها مثل ما هى الحال فى الداخل.

لقد اعتمدت الإمبراطورية غير الرسمية على السيادة البحرية البريطانية، وفى عام ١٨١٥ امتلك الأسطول الملكى ٢١٤ سفينة حربية ونحو ٨٠٠ سفينة أصغر، وكانت هناك بعض النواقص، ولكن فى عام ١٨١٧ أصر وزير الخارجية فسكونت كاسلرى على بيان الأمن البريطانى يتطلب الحفاظ على قوة بحرية تساوى أى دولتين تقف ضدها[١٧].

وظل هذا المبدأ قائمًا طوال بقية القرن، برغم النداءات المنتظمة من الجماعات التى ترى عدم جدواها، والتى تؤمن بأن الواجب الأول للحكومة هو تخفيض الضرائب والمصروفات وندرة الحاجة الغزو التى قامت طوال عصر الملكة فيكتوريا المطالب من أجل تخفيض ميزانية الأسطول وإعادة النظر فى برنامجا لبناء السفن.

ويمكن الإشارة إلى الخوف من غزو فرنسا منافسة بريطانيا القديمة، وما بين ١٨١٥ و ١٨٧٠ تأرجحت العلاقات الأنجلو فرنسية ما بين طرفى الصداقة والعداوة، وبدت مظاهر حرب كاملة فى عام ١٨٤٠ وفى عامى ١٨٤٠ و ١٨٤٤ عندما قام ولنجتون العجوز بجولة حول الساحل الجنوبى باحثًا عن أماكن رسو فرنسية، ممكنة، وفى عام ١٨٥٩ انتهى الشك القديم حول العسكرية الفرنسية، ما كان سائدًا عن إدمان قومى للعظمة. ومن جهة أخرى كانت بريطانيا متسامحة إلى حد كبير، تجاه جهود فرنسا لإعادة بناء إمبراطوريتها الإقليمية بغزو شمال أفريقيا. ولم يتخذ أى إجراء عندما بحثت فرنسا فى الحصول على ويجو سورتر كقاعدة بحرية فى المحيط الهندى ووقعت معاهدات مع دويلات غرب أفريقيا، والتى على عكس اتفاقيات

بريطانيا من أجل الإمبراطورية غير الرسمية. وأصرت علـــى أن لفرنـــسا حقوق سيادة.

واختفى هذا الاختلاف فى عام ١٨٤٠ عندما أيدت فرنسا دعمها لمحمد على خديو مصر الذى كان يحاول بناء إمبراطورية شخصية خـــارج إطـــار المناطق العثمانية فى الشرق الأوسط، وكانت ذكريـــات مغـــامرة نـــابليون المصرية لا تزال جديدة، وعلى هذا صدرت الأوامر لأسطول البحر المتوسط بالتدخل، وأيدت فرنسا بدلا من مخاطرة حرب من جانب أسطول واحد فـــى البحر المتوسط، وكانت المقاتلات البريطانية حرة فى ضرب قـــلاع محمـــد على الساحلية في سوريا ولبنان، وكانت الصواريخ التى سقطت على عكـــا ذكرى إجبارية بأن بريطانيا سوف تستخدم قوتها البحريـــة، عنـــدما تكـــون مصالحها الحيوية فى خطر.

ومع هذا كانت هناك قيود على استخدام القوة البحرية، وهل تـــستطع، كما يتعجب البعض، حماية بريطانيا من منافسها الآخر روسيا، وطوال هـــذه الفترة كانت العلاقات الروسية البريطانية مجهدة بشكل قاس، والتى كان من آثارها حرب باردة من أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر حتـــى بـــدايات القرن التالى. وصارت هذه الحرب الباردة حربًا ساخنة عام ١٨٥٤، وحدث نفس الشيء فى عام ١٨٧٧ و ١٨٨٥، وقد أثر العداء لروسيا على عقول كل رجال السياسة فى القرن التاسع عـــشر، وأيـــضا كـــل دبلوماســـى ورجـــل إستراتيجية، وكانت تشعر به كل الطبقات وأطياف الرأى الـــسياسى، وكـــان المتفق عليه أن روسيا القيصرية معادية لبريطانيا.

إن الحريات الشخصية والسياسية والقانونية التـــى ميـــزت بريطانيـــا وحسب رأى الكثيرين، أعطتها قوة وعظمة، هو ما كان غائبـــا كليـــة فـــى روسيا، وكان قيصرها طاغية وسكانها من العبيد الذين كانوا على اســـتعداد

للاستجابة دون تفكير لأهواء أسيادهم، وكلما ازدادت قوة روسيا اختفت خصوصية رعاياها، كما ادعى أحد المؤيدين لها عام ١٨٣٥ أنها حالة مبنية على شيء مكتسب، ووسعت نفسها لتقدم مساحة حيوية لسكانها المتزايدين(٨).

ومع ذلك ففي كل أمور التخلف السياسي والاجتماعي والاقتصادي الواضح كانت روسيا تضم جيشًا قويًا يبلغ تعداده ٨٠٠,٠٠٠ جندي، والذي يستطيع إيذاء بريطانيا.

وخلف هذا الفهم الذي اقترب في أوقات إلى مرحلة الهيستيريا- كان الخوف من أن روسيا ستشن غزوًا شاملاً بريًا على الهند. وتمت مناقشة إمكانية مثل هذا الهجوم في الدوائر السياسية والعسكرية والبحرية منذ بداية القرن عندما أظهر نابليون الطريق.

ووصل التفكير والقلق نقطة جديدة بعد الحرب الفارسية الروسية لأعوام (١٨٢٦ – ١٨٢٨) والحرب التركية الروسية لعامي ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ وفي الحرب الأولى هزم جيش روسي من قاعدته في القوقاز جيشًا فارسيًا، وفي الحرب الثانية وصل الروس إلى مسافة قصيرة من ضرب القسطنطينية، وترتب على هذا أن روسيا أظهرت ضعف قوتين آسيويتين وكشفت أن لديها الإرادة لتحدي بريطانيا في منطقة حساسة.

لقد كانت الهند أكثر تهديد مباشر من بجانب روسيا واندفاعها نحو الشرق في الكاسبيان (Caspian) وكانت خطط بناء إمبراطوريتها بسيطة وحسب منطق العداء الروسي كان من الحتمي أنه ما إن انهزم الزعماء المحليون في وسط آسيا فسوف توجه روسيا انتباها إلى الهند، وكتب أحد الموظفين المدنيين في عام ١٨٣٨ عن ذلك، وتنبأ بأن شعب الهند سوف

يغمره بحر من الطغيان الروسى، وأضاف قائلا: إنه من المهم أن الصراع القادم سيكون بين المستعمرين الأسوياء والطغاة، وإذا كسبت روسيا سيصبح الهنود عبيدًا للحكومة، برغم اعتبارها نفسها متحضرة فهى فى الحقيقة بربرية(١٩).

وقد وافق كل واحد على أن روسيا لديها ميزة القوة البشرية، وكثيرًا ما أثيرت أسطورة التحمل وقسوة القوقازين، وفى مثل هذا العداء يصبح الأسطول ذا قيمة هامشية، برغم أنه فى عام ١٨٣٢ قال ضابط بحرى إنه إذا فكر الروس فى الذهاب إلى كلكتا فربما نفكر فى زيارة سانت بيترسبورج(٢٠).

وبعد عامين وضع ولنجتون الذى كان يخشى مثل أى شخص أى من أن تهديد الهند ثقته فى تدريب الجيش الهندي وشجاعته ، ومع هذا كانت هناك أصوات قليلة منعزلة، والتى سألت السؤال وثيق الصلة بالموضوع، وهو كيف تتكيف البيروقراطية العسكرية الروسية البطيئة مع إدارة خطوط الإمدادات الممتدة عبر جبال اليمالايا إلى الكسبيان (Caspian)(٢١).

ومع هذا فهناك بعض القادة الروس الذين تخيلوا أن الحملة عملية، وتحدثوا بصراحة عن حملة إلى الهند.

لقد أخذ الحديث مأخذ الجد فى لندن وكلكتا عن نشاط الروس فى فارس، وعلى حواف الإمبراطورية التركية، وعلى أى حال يجب جس نبض روسيا، وصار من البدهى أن تتجه السياسة الخارجية البريطانية نحو هذا الهدف، ويجب إبقاء الأسطول الروسى بعيدًا عن البحر المتوسط، ووحدة تركيا وخصوصا مناطقها فى الشرق الأوسط يجب أن تظل محفوظة. ويجب أن يدرك حكام فارس وأفغانستان الخوف من بريطانيا أكثر من روسيا. وشهدت ثلاثينيات القرن التاسع عشر وأربعينياته كل الأنشطة التى سجلت

حربًا باردة مثل مناورات دبلوماسية ومؤامرات ودمار، وفي عام ١٨٣٨ وقع غزو بريطانى على أفغانستان لكن كان قاصرًا على ذلك، وفى عام ١٨٥٣ حدث غزو روسى للبلقان التركية، ورغم أن الجيش الروسى عجز عن التقدم، رغم أن بحريته أغرقت الإسطول التركى بالقرب من القسطنطينية، وردت بريطانيا فى الحال بإرسال أسطولها فى البحر المتوسط إلى البوسفور وكخدعة حاولت تجنب المواجهه وسحبت سفنها إلى ميناء سيفا ستوبول حيث أغرق فيما بعد، وتحت ضغط البحرية وافقت الوزارة البريطانية على حملة بحرية إلى القرم مع تعليمات بالاستيلاء على سيفاستوبول وتدمير أحواضها ومخازنها.

لقد كانت حرب القرم (١٨٥٤ – ١٨٥٦) حربا إمبراطورية، وهى الأولى التى حاربتها بريطانيا ضد قوة أوربية خلال القرن التاسع عشر برغم اعتبار البعض أن روسيا قوة آسيوية أساسية، ولم تعد منطقة خارج الرهان فالحرب تمت فقط لضمان سيادة الإسطول البريطانى فى البحر المتوسط وبشكل غير مباشر كبح جماح أى تهديد للهند ربما تحل روسيا محل بريطانيا كقوة مسيطرة فى الشرق الأوسط.

وكانت نتيجة الحرب هزيمة ساحقة لروسيا؛ حيث هزمت جيوشها أربع مرات وتم التخلى عن سيفاستوبول، وصار المعروف فى بريطانيا الذين سلبوا القيادة البريطانية العليا وسوء إدارة وزارة الخزانة ووزارة الحرب اللوجستية فى الجيش (والتى تم تعديلها بسرعة). وعرضت الحرب ادعاءات فراغ العسكرية الروسية، وكان جيشها يفتقر إلى القيادة القوية ومسلحًا بأسلحة قديمة تدعمها نظم متفرقة ضعيفة، لم تكن أصلحت، وكما علق المعلقون البريطانيون والفرنسيون والروس الأذكياء هُزمت دولتان حديثتان، واحدة متخلفة بشكل يدعو لليأس بحسب رأى حكومتها ومجتمعها واقتصادها. لقد

ظل الوضع القائم لصالح بريطانيا، وفى نوفمبر ١٨٦٥ هبط جيش بريطانى فى فارس لإقناع نصر الدين بالتخلى عن مطالبه فى هيرات (Herat) وكانت هذه القلعة على حدود فارس وأفغانستان إحدى الأماكن البعيدة التـــى حققــت أهمية رمزية ضخمة وأهمية إستراتيجية خلال الحرب البـــاردة البريطانيـــة الروسية، وكان الروس قد حثوا الشاه على التمسك بها تحديًا لبريطانيا، ولكن استسلم ناصر الدين عندما واجه جيشًا هنديًا بريطانيًا.

وأمكن الحفاظ على أمن الهند برغم أن روسيا واصلت تقدمها شـــرقًا فيما بين الكاسبيان نحو الحدود الشمالية لأفغانستان. وما بين أعـــوام ١٨٦٤ و١٨٦٨ احتلت القوات الروسية كييف، وطشقند، وسمرقند. وبينمـــا كانـــت الجيوش الروسية تتجه نحو أسفل تلال الهيمالايا، كانت أوربا قـــد تغيـــرت بشكل كبير فلقد دمرت حرب القرم القوى الكبرى التى سادت منـــذ ١٨١٥. وكان المستفيدون المباشرون هم القوميين الإيطاليين والألمان. وما بين أعوام ١٨٥٩ و ١٨٧٠ اتحدت إيطاليا بمساعدة فرنسية وبروسية ووافقت بريطانيا. وفى خلال ثلاث حروب متتاليه هزمت بروسيا الدانمارك والنمسا ودويلات جنوب ألمانيا، وبدعم من بقية ألمانيا هزمت فرنسا. وتوج النـــصر الأخيـــر والنهائى بإعلان الإمبراطورية الألمانية فى قصر لويس الرابع عشر السابق فى فرساي. وكان نفوذ بريطانيا على إعادة تشكيل أوربا ضئيلاً طالمـــا لـــم تتعرض مصالحها التجارية للخطر، وحقًا تطورت الأخيـــرة مـــع الحـــرب البروسية لعامى ١٨٧٠ و ١٨٧١ والتى تم فيها تصدير ثلاثمائة مليون رطل من الملابس الصوفية لصنع الزى الرسمى لجيوش الدولتين، وربما ســـويت بعض هذه المعاملات فى تبادل برادفورد (Badford) وهو مبنـــى عاجـــل انتهى عام ١٨٦٧. وكانت دواخله القوطية مزينة برسوم بارزة فى الجدران تبين ملامح الرجال الذين شاركوا فى ثروة بريطانيا الحالية وعظمتها. وقـــد

مثل بالمرستون الذى توفى فى عام ١٨٦٥ الصلابة والثبات فى التعامل مع أى شخص ينكر حق بريطانيا فى القيام بأعمال تجارية فى أى مكان، كما ظهر جوبدن باعتباره بطل التجارة الحرة، وجيمس وات وريتشارد أركرايت (Arkwright) ومهندس السكك الحديدية جورج ستيفنسن، كل هؤلاء يذكروننا بالعبقريه الاختراعية للثورة الصناعية، وظهرت ملامح العبقرية الاختراعية لدريك ورالى وأنستون وكوك فى انتصارات القوة البحرية.

وقد سجل الروح خلف هذا الاختيار للصور تشارلز ديكنز فى روايتة دومبى وابنه (Dombey and Son) التى ظهرت لأول مرة فى عام ١٨٤٨. "لقد تهيأت الأرض لدومبى ولسون للتجارة فيها، أما الشمس والقمر فقد سخرتا لإعطائهما الضوء، وتكونت الأنهار والبحار لكى تطفو سفنهم، وأما أقواس القزح فكانت تعطيهم الوعد بطقس معتدل، وكانت الرياح تهب لصالح مشروعاتهم أو ضدها، ودارت النجوم والكواكب فى أفلاكها للحفاظ على نظام لا يمكن تغييره، والذى كان فى المركز.

(٢)
ذاهبون دعاة حضارة
للإمبراطورية والرأى العام
(١٨١٥ - ١٨٨٠)

ماذا تعنى الإمبراطورية لجمهور الشعب البريطاني؟ لقد أصبح هذا السؤال حيويا مع تقدم القرن التاسع عشر، وكانت أفكار الناس ومشاعرهم حول هذا الموضوع وغيره تعنى الكثير والكثير للاهتمام القومى، وكلما تحركت الدولة نحو الديمقراطية، وفى عام ١٨٣٢ أظهر قانون الإصلاح البرلمانى طبقة انتخابية وسطى، وتوسعت قوانين الإصلاح وإعادة التوزيع لأعوام ١٨٦٧ و ١٨٨٤ – ١٨٨٥ وزادت نسبة التصويت للرجال العاملين فى المناطق الريفية والحضرية، وأحس المعاصرون أنهم يعيشون فى عصر من التقدم السياسى الذى أثبت أن الجدال المعقول بين المعلمين هو أفضل وسيلة لحل المشكلات البشرية كلها، وفى نفس الوقت كان هناك ثمة فى أعداد وقراء لصحف اليومية والدوريات الأسبوعية التى نشرت معلومات وولدت مناقشة حول القضايا القومية، واستفادت الصحافة اللندنية من توسيع شبكة السكك الحديدية ما بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ لبناء شبكة قومية، ومعها القدرة على التأثير على الرأى فى كل أنحاء الدولة.

لقد اختلفت الآراء حول الإمبراطورية بشكل واسع خلال هذه الفترة، كما كان هناك جدل عاطفى عما إذا كان من الواجب توسيع ذلك، وعلى العموم كان هناك اتفاق عام على أن الإمبراطورية كانت دفعة قوية لنشر

الحضارة من خلال التجارة وفرض أنماط أسمى للسلوك على سكانها غير المتحضرين.

ولم يتفق عدد قليل مع محرر جريدة الصن (Sun) والتى رحبت بإعلان شكل الحكومة الذى اختارته أحدث مستعمرة فى نيوزيلاند فى يناير عام ١٨٤٧، وكان تحقيق أفضل ثمار الحضارة فى سنوات قليلة بشكل سريع فى دولة تضم جنسًا غير متحضر صار حرًا وليس له مثيل فى التاريخ[١].

ومع هذا كانت هناك اختلافات عميقة فى الرأى، عما إذا كان المايورس (Maoris) والأجناس الأخرى تمتلك طبيعة أفضل، وكيف يمكن غرسها، ومن جانب كان هناك النفعيون الذين كانوا فى الجزء الأكبر بحارة وإداريين (رجال خدمة سابقين) ومستعمرين، وأتباعهم فى بريطانيا الذين كانوا يشكون فى قدرة السكان الوطنيين على التقدم، ومن جهة أخرى كان هناك جهاز قوى من محبى الخير للإنسانية، والذين اعتقدوا أن هذه الأجناس يمكن أن ترتفع إلى مستويات التعليم والسلوك الذى يمكن أن يضعهم على نفس مسار الأوربيين، ويميل أعضاء هذه المجموعة لأن يكونوا مستقلين ومنشقين عن كنيسة إنجلترا ورجال الطبقة الوسطى والليبراليين أو الراديكاليين فى سياستهم، وكان خصومهم إلى درجة كبيرة من الأنجليكانيين مع خلفية أرستقراطية أو طبقة النبلاء المتعاظمين من حزب الهويج أو حزب التورى (Tory) وبرغم أن هذه كانت فترة شعارات الحزب تعنى القليل مما حدث بعد ذلك.

وفى بداية القرن كان (الرق) هو القضية الاستعمارية، وكانت حركة إلغائه قد كسبت حافزًا خلال سبعينيات القرن الثامن عشر، ولقيت تأييدا معقولا من كل الطبقات، وكان الأنجليكانيون باعتقادهم القوى نحو الخلاص من خلال إنقاذهم قد توصلوا بشكل طبيعى إلى شن حملة لخلاص العبيد من

القيود وتحويلهم إلى الديانة المسيحية، وقد أثارت العمليات الكثيرة والدعاية ضد العبودية والمعاملة القاسية للعبيد وشعورهم الداخلي، وقد لفت هذا عطف هؤلاء الذين كانوا تحت تأثير الحركة الرومانتيكية، وربما يناقش المنطق بأن العبودية حيوية ومهمة لاقتصاد الدولة، ولكن جاء رد العاطفة بأن البؤس الذى أخذته يبرر وحده إلغاءه.

وتدين قوة الحركة ضد العبودية كثيرًا إلى الجهود والعقل المتفرد لزعماء الحركة أمثال كلاركسون (Clarkson) ولإظهار ثقتهم فى قدرة الزنجى في إعادة بناء نفسه، فقد انضموا إلى المؤيدين فى المستعمرة التجريبية فى سيراليون والتى تأسست عام ١٧٨٧، وكان هدف شركة سيراليون هو إدخال الحضارة بين الوطنيين وزرع التربة عن طريق العمل الحر، وتعليمهم إلى المستوى الذى يضعهم مساوين للأوربيين فى الإنجازات والحضارة، وقد ازدهرت سيراليون، وفى عام ١٨٠٨ صارت مستعمرة تاج، وصارت عاصمتها (فريتون) إحدى قواعد الأسطول الملكى الجديد ضد الرقيق.

وكان إلغاء بريطانيا لتجارة الرقيق فى عام ١٨٠٧ أول انتصار للحركة، وبعد ذلك بذل رجال الدولة البريطانين أقصى ما فى وسعهم لإغراء حكوماتهم لحذو منحى النموذج البريطانى، وتم استخدام قوافل سفن الحرب للمطاردة والقبض على رجال الرقيق، أولاً بعيدًا عن شواطئ غرب أفريقيا وسواحل الكونغو، وبعد ذلك فى المحيط الهندى والخليج الفارسى للقضاء على تجارة العرب فى الرق.

أولا- كانت حرب بريطانيا بمفردها ضد تجارة الرقيق قد أثارت حماسًا مقبولاً، وكان يعد عالميا مصدرًا للفخر القومي، وخلال الاجتماع السنوى للجمعية من أجل القضاء على تجارة الرقيق وتمدين أفريقيا، والذى انعقد فى إكسترهول (Exeter Hall). فى يونيه عام ١٨٤٠ افتتح الأمير ألبرت

الجلسات بخطاب امتدح فيه نبل القضية وعظمتها، وقد استقبل بحفاوة بالغة وأيضا السيرروبرت بيل (Robert Peel) الزعيم الثورى ورئيس الوزراء القادم الذى تحدث، وأكد أن بريطانيا لن تستطيع أبدًا إقناع الشعوب السوداء فى أفريقيا بسيادة زملائهم من الأوربيين، حتى يتم القضاء على تجارة الرقيق من القارة[٢].

وبعد ثمان سنوات عبّر أحد الذين شاركوا عواطف بيل الرأى بأن نبوءاته قد تحققت، وأن اسم الرجل الإنجليزى بالفعل من خلال القارة الأفريقية قد صار جواز سفر بسيطًا من أجل الأمان، وإذا زارت بعثة تبشيرية بيضاء قبيلة سوداء فإنها تسأل سؤالا واحدا "هل ينتمى إلى الشعب الذى حرر أطفالنا من العبودية"؟[٣].

وفى عام ١٨٥٥ عندما أخذ دافيد لفنجستون (David Livingston) بعض الأفارقة على ظهر السفينة البريطانية "رجال الحرب" ورسا بعيدا عن لواندا-قدم البحارة بالكلمات "الآن كل هؤلاء رجال وطنى أرسلتهم ملكتنا من أجل القضاء على تجارة هؤلاء الذين يشترون ويبيعون الرجال السود"[٤].

ولقد كانت الاستقامة الأخلاقية ورغبتها فى فرض العدالة أفكارًا فى مسرحية (الحرية) (Freedom) التى عرضت على المسرح عام ١٨٨٣ والتى فيها أنقذ ضابط بحرى شاب يدعى إيرنست جازكويناج (Gascoigne) بعض الفتيات المصريات من الاسترقاق، وعندما واجهته السلطات المحلية ادعى أن هؤلاء الفتيات كن عبيدًا، وأصبحن أحرارًا، وأنا باسم إنجلترا أتحدث، حاول لمسهم فى محنتك[٥].

وقد أحدث خطابه صيحات عالية من البحارة، ومما لا شك فيه أنه أحدث تهليلاً من المستمعين، وكانوا مسرورين بهذا التذكار القوى. إن وطنهم أنه حامي حمى الحرية والحضارة.

وكانت الحرب الكونية ضد تجارة الرقيق قد أصبحت المثال الأكثر لمعانًا وبريقًا للتنوير والإنسانية البريطانية، وصار مفهوم العبودية أكثر كراهية لشعب يعيد الفضل إلى دعاية الحروب بأن الحرية الشخصية كانت عيد ميلادهم وقد شعر ريجنالد هيربر (Herber) كاتب التراتيل وأسقف كلكتا بمرارة داخلية عندما كانت العادة أن خادمًا هنديا استخدم تعبير "إنني عبدك"[٦]، وقد ثبت أنه من السهل أن تعتبر التجارة فى الرق غير قانونية أكثر من العمل لإلغاء مؤسسة العبودية فى الإمبراطورية البريطانية.

لقد كانت هناك مقاومة متواصلة من أصحاب المزارع فى الهند الغربية وحلفائهم فى البرلمان، وكان بعض مدافعيهم يزدادون نفاقا ويتساءلون عن أسباب قيام هؤلاء الذين يثيرون الاحتجاج عن العبيد، ويقومون بنفس الشيء عن معاناة المحرومين من بنى وطنهم. وبحسب إحدى المذكرات المدافعة عن الرق فى أوائل القرن التاسع عشر يتم الاعتناء بكثير من الرجال الضعفاء، ومتسابق قوي الاحتمال وكثير من وسائد النساء فى إنجلترا، وتعامل أحسن معاملة أكثر من بعض الفقراء عندنا[٧]، وعلاوة على ذلك كما ادعى حزب التورى ضد اليعاقبة عام ١٨٠٧ الصياح لدى الإنسانيين الميثولوجيين قد أخطأوا فى اعتقادهم أن كل مزارع يسيء معاملة عبيده[٨]، ووصل الأمر بأصحاب المزارع باعتبار أنفسهم رجالاً طيبين، وفى عام ١٨١٦ أشار أهل باربادوس بأن النساء الحوامل كانوا يعفون من أعمال الحقل، وأضاف بسخرية غير مقصودة أنهن عندما يضعن مولودهن فإنهن يحصلن على أجورهن[٩].

ويبدو أن مثل هذا الكرم قد لقي أثرًا قليلا بدليل ثورات العبيد فى باربادوس عام ١٨١٦ وفى جامايكا أعوام ١٨٢٣، ١٨٢٤، ١٨٣٠ وفى غينيا البريطانية عام ١٨٢٣ وكانت الثورة الأخيرة مقلقة لوزارة المستعمرات التى اضطرت إلى استخدام قوات إضافية للقضاء على هذه الثورات[١٠].

وعند إصلاح حزب العموم حيث سيطر حزب الهويج والراديكـاليين وألغوا العبودية فى عام ١٨٣٣، وسمحوا بعد عدة سنوات بالانتقال من العمل بدون أجر إلى عمل بأجر فى المزارع، وطوال المناقشات حول الرق كانت قضية ماذا سيحدث للعبيد بعد تحررهم أمرًا أساسيًا، وناقش مؤيـدو الـرق بشكل متكرر أنهم سيصلون إلى مرحلة الفقر المدقع، ويدخلون فى مراحـل انحلال من الكسل الأفريقى القديم بفاقة ودون عمل(١١)، ونتيجة لهـذا فـإن الاقتصاد المحلى سوف ينهار.

ويرى دعاة الإلغاء دائمًا- أن نهاية الرق هى أول مرحلة فى تطـوير الهند الغربية ورقيها، وعندما يتحرر العبيد من الأسر فسوف يكونون أحرارًا لبناء مستقبلهم الخاص ورفع مستواهم من خلال جهودهم الخاصة، وقد وجد أحد دعاة إلغاء الرق والذى زار أنتيجـوا (Antigua) فـى عـامى ١٨٣٩- ١٨٤٠ علامات مشجعة لما يحدث حيث التحق سبعة الآف طفل بالمـدارس مع دروس منتظمة حول الإنجيل، وامتلأت دار الكنيسة المثالية (Methodist) فى سانت جونز بعدد كبير من العباد المحترمين حسني المظهر من مجتمـع أصحاب الأرض البسطاء، وبنفس الطريقة كان الرضا هو الدليل للإصـلاح الطويل للجيش، وحتى عمليات المراقبة والإشراف توقفت واحدة بعد الأخرى من أنماط الحياة السيئة، وصارت تشكل علاقات جنسية محترمة وأنماطًا من الزواج الطبيعى(١٢).

كان المنظر من أعلى أقل دموية وإذا أعطينا دليلاً على لجنة مجلـس العموم فى عام ١٨٧٩ كان الـسير جـيمس لايـت (Light) حـاكم غينيـا البريطانية يخشى أن يتخيل الكثيرون من الذين تحرروا من العبودية السابقة أن التحرر يعنى المساواة مع الرجل الأبيض، وأخذ يوجه اللـوم لانحـلال الأخلاق داخل مستعمرته حيث تعرض الرجال الميـسورون إلـى سـخرية الآخرين ووقاحتهم أثناء تجولهم عبر العاصمة جورج تون(١٣).

وكان الأسوأ من ذلك أن العبيد السابقين نأوا بأنفسهم عن العمل في المزارع، وأجبروا أصحاب هذه المزارع على البحث عن عمال في أماكن أخرى، وقد انتشرت سابقة أخرى في أوائل القرن السابع عشر، وتم استيراد عمال بالأجر، وفيما يسمى بالهجرات الداخلية الأولى في الإمبراطورية تم استئجار الهنود والصينيين الفقراء وشحنهم إلى جزر الهند الغربية.

ومع حلول عام ١٨٥٧ كان أكثر من نصف إلى ١٤,٠٠٠ من القوة العاملة القومية في مزارع ترينداد من الصين والهند، وربما يكون العدد أكبر، ولكن مات عدد كبير من المهاجرين أثناء رحلة الأشهر الستة في السفن غير الصحية وسيئة التهوية[٤٤].

ولقد تزامنت الحملة لإلغاء الرق داخل الإمبراطورية البريطانية مع نمو المنظمات المتخصصة للبعثات المسيحية وإزديادها في كل أنحاء العالم، وكان اعتناق المسيحية أحد أعلى أشكال الخدمة المسيحية، وقد ظهرت رؤيا إلى بول Paul ليلاً هناك؛ وقف رجل من مقدونيا ودعا اللـه قائلا "تعال إلى مقدونيا وساعدنا (نصوص ٩، ١٤) وكان لهذه الفقرة تأثير قوى على الأنجليكانيين، وكثير منهم مارسوا هذا الشكل من اعتناق ذاتي للمسيحية، والذى أحسوا فيه فضل الرَّب حيًا داخلهم، ولروح وثنى فقير قيمة مثل روحه عند الرَّب.

هكذا ادعى توماس كنيدال (Thomas Kendall) والذى كان منذ عتقه وخلاصه يصمم على جلب الاخرين إلى ما فى داخله من فضل، وبدأ العمل التبشيرى بين المايورس فى نيوزيلند عام ١٨١٧[٤٥].

ولم تخلص البعثات التنصيرية فى القرن التاسع عشر الأرواح فقط. بل إنها تعيد ميلاد أجناس كاملة، وقد امتدح تقرير فى مستعمرة الكيب كتب عام ١٨١٩ أعمال البعثات التنصيرية المورافية هناك، والتى نجحت فى

اعتناق الوثنيين من الهوتنتوت من الدرك الأدنى إلى عضو عامل نشط فـــى المجتمع المسيحي[١٦] كتب جيمس ستيورات عام ١٨٧٤ يقول "إننـــا نـــذهب كدعاة حضارة، فضلا عن دعاة للمسيحية".

وكان واحدا من جيل جديد من الأنجليكانيين بعــد أن درس الطـــب، فضلا عن دراسة اللاهوت، ورحل إلى وسط أفريقيا مع جماعة من الرجـــال المؤهلين عمليًا للقيام بعمل مع المبشر لفنجستون (Livengstone) وأخذ معـــه صناعًا مهرة لتعليم الحرف الجديدة لجماعته ولبناء مجتمع مـــسيحى جديـــد مكتفيًا ذاتيًا؛ حيث كان يومًا ما يعيش في فوضى، وما ساعد على تحقيقه قد تكشف له بعد عدة سنوات، عندما أخبره أحد رجال القبائل أعطنـــى إنجـــيلا مقابل رمح؛ لأن حب الحرب قد خرج من قلبى[١٧].

وفضلاً عن تعليم الكتاب المقدس (الإنجيـــل) كـــان رجـــال البعثـــات التبشيرية مسئولين عن تمكين تجمعاتهم من الاتصال مع قيم الغرب.

لقد كان جـــورج بـــراون (George Browin) وهـــو رجـــل تنـــصير ميثوديست قوى، والذى بدأ عمله فى جزيرة نيوبرتن (بريطانيـــا الجديـــدة) غرب بابوا (Papua) فى عام ١٨٧٥ وكان أكثر من مجرد منقذ للأرواح وفى خلال ثلاث سنوات نجح فى فتح مجال كبير من ساحل نيوإنجلند ونيوإيرلنـــد لتأثير الحضارة والمسيحية لكى يتمكن التجار من النزول والعيش على الجزر فى أمان نسبى[١٨].

ولقد جاء هذا المديح من ضابط بحرى اعتنق المسيحية بحماس، وفى إحدى المناسبات عندما هدد رؤساء القبائل الداخلية بقتله وكـــل واحـــد مـــن جماعته وكل أوربى يلتقى به، هاجمهم براون وهزمهم بقوة صـــغيرة مـــن فيجى ومعها بندقيتان ومسدس، وكان هؤلاء الرجال مقيـــدين عنـــدما كتـــب

شارلز بروك (Charles Brooke) عن تجاربه فى ساراواك (Sarawak) فـــى ستينيات القرن التاسع عشر، واعتقد بأن رجال التنصير سوف يساعدون فى القضـــاء على الدياك (Dyaks)[١٩].

ولم يكن رجال التنصير مجرد مستكشفى الإمبراطورية. بل فى بعض الأوقات كانوا أداة السكينة والهدوء فيها، ومن خلال اتصالاتهم مع الكنـــائس البريطانية استطاعوا ربط الإمبراطورية مع الناس العاديين والنساء والأطفال الذين جمعوا المال لأجل تنمية أنشطتهم، وكانت الآنسة جيلى باى (Jellyby) إحدى مساعدات رسم الكاريكاتير التى رسمها تشارلز ديكنـــز فـــى روايتـــه المنزل الأسود (Bleak House) عام ١٨٥١ وهى مخلوقة لم تستطع رؤية أى شيء أقرب من أفريقيا، وأهملت واجبات عائلتها وفضلت العمل مـــن أجـــل البعثة التى قطنت فى بروبولاجا (Borri balagha) على شواطئ نهر النيجر - لكن ديكنز لم يكن لديه وقت للمتوحش النبيل - وكانـــت فـــضائله ضـــعيفة، وسعادته ونبله وهما غير معقول[٢٠].

وبرغم هذا فإن بنى وطنى ديكنز واصلوا جهودهم بدرجـــة معقولـــة لإبراز تغير مثل هذه المخلوقات فى عالم مسيحى مفيد.

ولقد تشجع المساهمون فى البعثات بإعطاء الأموال والأناجيل ومـــواد صنع المجاديف التى حددت بؤس الوثنيين وحرمانهم، وقد أوضحت التقارير المثيرة عن قتل الهنود والوثنيين ورجال الخرافات وجاءت قصص كثيرة من أفريقيا والمحيط الهادى عن الحروب القبلية وأكل لحوم البشر والرق المنزلى وتفاصيل مقنعة عن الاختلاط الجنسى.

وهناك من الرذائل فى وسط أفريقيا ما لا يمكن تفسيره أو تسميته خوفًا من العار، وبحسب إحدى البعثات التبشيرية الغاضبة فإن خيـــال جماعـــات

الكافير يبدأ فى جنى الثمار بعد سن البلوغ، ويمكن أن نقول بأمان أنها تسعى للمسائل الجنسية التى تفسر أسباب تفوق الطلاب البيض على السود بعد سن الخامسة عشر[٢١].

. ويدرك كل رجال الكنيسة والكتاب المقدس فى بريطانيا حجم المسئولية الكبير الذى يواجه رجال التنصير، ويعرفون جيدًا ما الأسرار خلـف القـس هيربر Herber فى قصيدته الشعبية للبعثات الأجنبية:

ماذا برغم نسائم التوابل الحيوية

والتى تهب رقيقة فوق جزيرة سيلان

برغم أن كل شىء يسير

والإنسان فقط هو صاحب الرذيلة

ومن الأمور الشائقة أن تكون هذه الأبيات قد كتبت فى بيت كاهن فى شروبشاير (Shropshire) وقبل أن يضع المؤلف قدمه فى الهند.

إننا ننظر إلى الجندى مثل رجل التبشير باعتباره رجل حضارة؛ حيث كانت هذه فترة حرب استعمارية مستمرة تقريبا، ومـا بـين أعـوام ١٨١٧ و١٨٧٨- كانت هناك حملات منقطعة من قبائل شرقى الكيـب والمعروفـة باسم الكافير (Kaffirs) وفى عام ١٨٧٩ قام جيش بريطـانى بغـزو أرض الزولو Zululand ودخلت حملة الحبشة فى عام ١٨٦٧ لإنقاذ الرهائن الذين قبض عليهم الإمبراطور تيودورو، وفى عامى ١٨٧٣- ١٨٧٤ كانت هناك حرب تأديبية على نطاق واسع ضد قبائل الأشانتى فى ساحل الـذهب، كمـا حارب الجيش فى الهند حملات فى بورما (١٨٢٤ -١٨٥٣) وفي أفغانستان (١٨٣٨ و ١٨٧٨ - ١٨٨٠) وهزم السند عـام ١٨٤٣ والبنجـات أعـوام

(١٨٤٥ – ١٨٤٦) و(١٨٤٨– ١٨٤٩) وقضى على تمرد أعوام (١٨٥٧–١٨٥٨) واخترقت من حين لآخر طوابير عسكرية شمال غرب الحدود لتأديب رجال القبائل المتمردة، وكانت هناك حملات فى نيوزيلاند تحارب إلى جانب المستعمرين ضد الماوريس (Maoris) ما بين أعوام ١٨٦٤ و ١٨٧٠ كما تم القضاء على تتمرد فى كندا عام ١٨٣٧، وما بين أعوام ١٨٣٩ و ١٨٦٠ حدث هجوم على الصين ثلاث مرات، وهجوم مرة واحدة على فارس عام ١٨٥٦.

وقامت الصحافة البريطانية بتغطية واسعة للحملات الأولى، وعادة كانت تؤلف قصصًا من الصحف المحلية والمراسلات الرسمية وخطابات الرجال الذين يعملون على الجبهة، وفى العاشر من يناير ١٨٤٠ أعادت جريدة ستاندر (Standard) تقرير البنغال جازيت (Bengal Gazette) عن الحملات فى أفغانستان، مع مراسلات من كبار الضباط هناك، كما نشرت نفس الصحيفة خطابات رجال الخدمة بما فيهما تقرير أحد شهود العيان عن غرق الرجال والفرسان من الفرقة السادسة عشر أثناء السير إلى كابول[٢٢].

وقد تم استخدام مصادر مماثلة فى مجلة سن Sun خلال عام ١٨٤٧ ومقالاتها عن الحملات الحدودية فى نيوزيلاند ومستعمرة الكيب.

وخلال السنوات العشر التالية حدثت ثورة من الصحافة التى غيرت بشكل كامل معالجة الأخبار الإمبريالية، وكان القرب من القرم (Crimea) قد سمح لرجال الصحافة بأول حرب للمراسلين فى تتبع الجيش وجمع التقارير وإرسالها بسرعة مع أول باخرة أو قطار للنشر بعد عشرة أيام أو أربعة عشر يوما، وانخفض زمن الإرسال إلى ثمانٍ وأربعين ساعة فى مايو ١٨٥٥ عندما تأسس مكتب تلغراف فى بالاكافا (Balakava) قاعدة الجيش، وبعد ذلك كانت حروب الإمبراطورية تغطى فى حينها، ورافق مراسلو الصحف القوات

البريطانية خلال ثورة الهند وحرب الصين عامى ١٨٥٩ – ١٨٦٠ والحبشة والأشانتي وأفغانستان وحملات الزولو، ولقد كسبت هذه الحروب سرعة أكثر من خلال الإخراج فى شكل صور فى حينها وصور فوتوغرافية فى أخبار لندن المصورة (Illustrated London News) والتى تأسست فى عام ١٨٤٢، وبعد عشر سنوات كانت صور المناظر متحركة من القتال فى مستعمرة الكيب، بما فيها من رسوم حيوية وواقعيه، وللمناوشات السادسة والسبعين فى الهاى لاندرر فى الشجيرات، والتى صحبها وصف لأعمال الفنان الضابط[٢٣].

وكانت شعبية هذه الرسوم عظيمة جدا لدرجة أنه بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر كلف بها فنان حربى خاص وتم إرساله إلى الجبهة إلى جانب المراسلين، وحافظ الفنانون والصحفيون الهواة على مكانتهم عدة سنوات، وقد أرسلت بعض العائلات التى تلقت خطابات من جنود إلى الصحف اليومية خطاتهم للنشر، وكان لهذه الأوصاف عن حياة الحملات العسكرية تأثير جذاب، وأحد هذه الأوصاف التى كتبها كاتب غير معروف من الثمانية والسبعين فى هاى لاندر (Highlander) بعد مذبحة كويبور Cawnpore والتى نشرت فى أبردين كرونكل (Cronicle) فى أكتوبر ١٨٥٧ وهي تمثل عددًا كبيرًا من الأوصاف.

لقد جعلت المذبحة دماءنا تغلى من الغضب، وسمعت بعد ذلك من رجال الفرقة الثامنة والسبعين حيث يقول واحد منهم: لقد شاهدت بعض المناظر المفزعة، آه ياعزيزى، إنها تجعلك تصاب بالمرض إذا قدر لى أن أخبرك كل ما شاهدته خلال الوقت القصير الذى كنت فيه فى البنغال، إننى مريض بسبب هذا؛ لأن أمامنا، الكثير، للقيام به، وهناك فقط حفنة منا وعلينا أن نلتقى تسعة عشر أمام كل واحد منا وأحيانا أكثر ولدى بعض المواقف

الحرجة بعد ذلك، وإننى فى خطر على حياتى فى كل لحظة، ولكن لا أزال أعيش على أمل أن تتاح لى فرصة رؤية انتهاء هذه القضية، وأعود إلى وطنى أسكتلندة مرة ثانية، إنا سنكون كلنا محظوظين بذلك الذى يمر منها بسلام، إننا ما زلنا نواجه تقدمًا صعبًا وقتالا شرسا مع طعام قليل جدا نتناوله، وحيث إن ملابسنا وأحذيتنا قد تآكلت تقريبا، ومع هذا فإننا نحافظ على روحنا المعنوية عالية على أمل أن الوقت الطيب قادم.

إن الذين يفكرون ويتأملون فى هذا لا بد أنهم قد شعروا بحماسة الإدارة بشجاعة رجال وطنهم وقوة احتمالهم، ولم يحدث لأى حرب إمبريالية مثل هذه التقارير فى بريطانيا، أو مثل هذا الثراء فى تفاصيل شهود العيان، وكان معظمها مثيرًا للرعب.

وقد طالعت مجلة أخبار العالم (News of the World) القراء بكل الغطرسة الهندية فى نوفمبر ١٨٥٧، وكانت صحفها وغيرها من الصحف مليئة بتقارير نزيف الدماء للمذابح العشوائية للرجال والنساء والأطفال، وإشارات عن الغضب والعنف الذى يرتكبه الهنود المجندون فى الجيش البريطانى، وعقابًا على هذه القصص الخفية كان هناك مطلب عام لأجل المكافأة على الجزاء، وعلى هذا تحدث أحد أعضاء اتحاد كامبردج القوي قائلا: عندما نقضي على التمرد من جبال الهيمالايا إلى كومورين، وعندما تكون كل مشنقة ملوثة بالدماء، وعندما تتكسر كل حربة بسبب العبء الثقيل، وعندما يكسو الأرض أمام كل مدفع الخرق واللحم والعظام المتناثرة- عندئذ تحدث عن الرحمة(٢٤)، وهناك قصص مليئة بالدماء وتنصب من الصحف ورؤساء التحرير فى مقالاتهم الافتتاحية.

إن ما حدث فى الهند خلال عامى ١٨٥٧ و ١٨٥٨ كانت له آثار عميقة على الفكر البريطانى حول الإمبراطورية وشعبها، وطبقا لرأى أسيادهم استفاد الهنود لسنوات عديدة من النظام الإنسانى للحكومة، والذى

حاول بكل حرية رفعهم وتمدين وطنهم، وفى ضوء هذا كان التمرد عملاً للخيانة ومعارضة للتقدم، وهل فشل البريطانيون فى اختراق داخل العقل الهندي؟

واعتقدت مجلة (National Review) هذا أن الطفل المتوحش غير المتمدن يقع فى أسفل مؤسسات الكيان الهندى، وأن بريق لمعان الحضارة ضعيف جدًا ويمكن التخلص منه كجلباب[٢٥].

وإذا كان الوضع كذلك وأوصت بذلك أحداث الهند، فإنه لا جدوى من المحاولات الإنسانية العديدة، وعلاوة على ذلك فإن الأسس التى قامت عليها كانت مزيفة، كما أن إصلاح غير المتحضرين من خلال تعرضهم للديانة الأوربية والمعرفة لا يكون ممكنًا؛ لأن التصدع يصعب محوه داخل شخصيتهم.

لقد قوى التمرد الهندى العنصرية البريطانية وألقى الشك على رسالة محبى البشر، وكانت الفجوة التى ظهرت بين الاتجاهين نحو الإمبراطورية قد انكشفت بشكل درامى وجاءت بعد عملية الارتداد فى خليج مورانت (Morant Bay) فى جامايكا فى نهاية عام ١٨٦٥، وقد أدى القلق والبطالة بين السكان السود إلى أعمال توتر فى كل أنحاء الجزيرة لفترة من الزمن، وحدث تمرد فى مورانت باى (Morant Bay) قتل فيه رجال عسكريون وموظفون رسميون بيض، وقد فسر الحاكم إدوارد أير (Eyre) ذلك أنه علامة وإشارة إلى الثورة التى تساوى فى حجمها وشراستها التمرد الهندى وفى الحال ونتيجة لبعض الجهل لما حدث بالضبط أعلن الأحكام العرفية وشن حملة من الرعب فى بلومنتز غرب جامايكا (Blue Mountains)، وقد كشفت رسالة أرسلها الكولونيل توماس هوبر (Thomas Hobbs) من الفرقة

السادسة حيث وصف تنفيذ الحكم فى الثائرين المشكوك فيهم وحالة الذهن لهؤلاء الذين أجبروا على تنفيذها.

لقد وضعت خطة أحدثت رعبا عظيما بين هؤلاء الرجال التعساء أكثر من الموت، والتى جعلتهم يشنق بعضهم بعضا، وهم الذين يعهد إليهم بضربهم حتى يتجنبوا هذا[٢٦].

ومن الواضح أن كثيرًا ممن ماتوا بهذه الطريقة لم يكونوا على صلة بهذه الاضطرابات، وتم شنق المئات بمن فيهم السيد المحترم ج. و. غوردون وهو وزير أسود ويسمى بابوى (Baptist) كما تم جلد أعداد أكبر، وحيثما كانت المحاكمات تعقد كانت قصيرة ومختصرة.

وعندما وصلت تقارير عن هذه الثورات إلى بريطانيا تم تهنئة إيرى لاتخاذ مثل هذه الإجراءات السريعة والقاسية، والتي منعت وقوع مذبحة فى المستعمرة تصل إلى قتل خمسة عشر ألفا من البيض ونصف مليون أسود.

لقد طبعت مجلة هزلية تدعى فان Fun رسما كرتونيا يظهر زنجيا مجنونا يستخدم شيءا مثيرًا وقيثارة، وعلى جنبه امرأة بيضاء وأطفالها، وهو تذكار لا ينسى للتمرد وتحت هذا تعليق "هل أنا رجل وأخ؟ وهى إشارة ساخرة إلى شعار ضد حملة الرق وإننى رجل وأخ".

وما أن وصلت التفاصيل الكئيبة لعمليات إيرى مرة ثانية إلى بريطانيا صارت هناك صرخة جماعية من كل اللوبي محب الإنسانية لأجل إقامة دعوى ضد القتل، وردًا على هذه الصرخة تم تنظيم حملة سريعة للدفاع عن إيرى باعتباره منقذ جامايكا، وانضم المفكرون والأدباء من ذوى المكانة المرموقة إلى كل من المعسكرين توماس كارليل وتشارلز كنجسلى وديكنز الذين وقفوا إلى جانب إيرى. أما وجون ستيورات ميل وداروين فقد وقفوا

ضده، وكان النقاش عاطفيا، وركز على الضحايا السود من جامايكا الـــذين ادعوا أنهم من الموالين له والذين جلبوا لأنفسهم هذه المصائب من خلال كسلهم، وقد اعتبر إدوارد كاردول وزير المستعمرات من حـــزب الهـــويج شـــباب جامايكا كسالى وأشرار ومسرفين وهو رأى اقتبسته وأيدته مجلة كـــوراترلى ريفيو (Quarterly Review) التي خشيت أن كل السكان الزنوج للهند الغربية سوف يعودون إلى أجدادهم من البرابرة، واستمر الجدل والنقاش حتى نهاية عام ١٨٦٦، ونجحت وزارة الهويج الليبرالية فى الانتصار على إيرى ولكن وزارة التورى التى حلت محلها رفضت إدانته ولم تتم عودته إلـــى العمـــل ومات عام ١٩٠٠ وتكمن فضيحة إيرى فى حقيقة أنها كشفت عن مجموعـــة ملموسة من الرأى المحترم فكريًا، والتى اعتقدت أن نسبة كبيرة من رعايـــا الجمهورية كانوا منغلقين ولا يريدون التطور، ويحتاج إلى يد صارمة للحفاظ على النظام، ولقد أساء الإنسانيون الحكم على البربـــرى (المتـــوحش) فهـــو مخلوق متقلب وقدراته على الرقى الفكرى والأخلاقى محدودة[٢٧].

وإلى حد ما فإن دوره داخل الإمبراطورية هو دور الخاسر والضحية الدائمة، وبرغم هذا فإن الهرج والمرج حول إيرى (Eyre) كان قد كبح جماح الآخرين مثله، وفى عام ١٨٧٩ كان على الجنرال السير جارنت ولسلى القائد العام لجنوب أفريقيا أن يحرر السوازى ضد الزولو وكتب يقـــول "علـــيّ أن أفكر فى المجتمعات التى تصرخ فى الوطن، والتى تتعاطف مع الرجـــال السود بينما لا يهتمون لأى شيء حول البؤس الـــذى يقـــع علـــى جيـــرانهم وعشيرتهم والذين كانوا تعساء فى وجودهم بالقرب من هؤلاء الزنوج[٢٨].

لقد توافق النقاش حول إيرى مع جدل سياسى واسع حـــول مـــستقبل الإمبراطورية، وهناك الدوائر التجارية الحرة لليبراليين والمـــستقلين، وهـــو خوف بأن الإمبراطورية تولد قومية متحاربة ونظم ما رأوه فضائل بريطانيا الحقيقية والنامية بقوة.

لقد اتخذ جون برايت (John Bright) موقفا مناقضا تمامًا، عندما ادعى أنه طالما أن السيادة على البحار تعني الغطرسة وادعاء القوة الكتاتورية من جانب هذا الوطن، فإنها تصبح مهملة وهذا أفضل، إن التلويح بالضرب ليس له مبرر فى عالم تزداد فيه التجارة الحرة اعتمادا على الدول، وتخفف فيه الاحتكاك والصراع الذى كان مصدر الحروب سابقًا.

أما بالنسبة للمستعمرات فإنه لا قيمة لها وفاتورة الدفاع عنها وإدارتها تعد تكلفة غالية جدًا.

تتحرك كندا وأستراليا ونيوزيلاند ومستعمرة الكيب نحو الحكم الذاتي، ويبدو أنه لا داعى لأسباب انفصالها عن بريطانيا مثل ما فعلت أمريكا وعارضت جريدة التايمز (Times) هذا الجدل فى مقال افتتاحى فى الرابع من فبراير عام ١٨٦٢ أكدت فيه أن مستعمرات البيض مزدهرة بشكل رسمى وترغب فى الاحتفاظ بارتباطها مع الدولة الأم ومع بعضها الآخر، وأن أوضاعها المزدهرة المالية تعد انتصارًا للحضارة التى يجب أن تفخر بها بريطانيا، ووافقت الكثير من المستعمرات، وتنبأ أحد المستقرين فى نيوزيلاند أن مستعمرته سوف تزدهر وتصعد كمجتمع مرغوب فيه جدًا مثل أجداده، وعندئذ سيشكلون أقوى الحصون التى تحرس وتدافع عن أنبل امتيازاتنا فضلاً عن الحرية المدنية والدينية(٢٩).

لقد كانت المستعمرات الأساسية تتطلع إلى أن تحافظ بريطانيا على إمبراطوريتها. واعتقدت جريدة الطبقة العاملة البى هيف (Bee beenive Hive) بأن المستعمرات تنتمى إلى الدولة كلها، وحصلت على توقيع مائة ألف شخص من أجل تقديم التماس إلى الملكة يطالب بتنمية مشروعات ودعم هجرة الدولة لكل العاطلين.

وكانت الحكومة قد اقتربت من اتخاذ عمليات فصل أو فض اشتباك إمبريالية بجدية فى عام ١٨٦٥ عندما أوصت لجنة برلمانية بالجلاء عن المراكز الصغيرة على الساحل الإفريقى الغربي، ولم يحدث شيء بالنسبة لهذا الاقتراح بسبب المشكلات العملية وعدم التأكد ممن سيحل بعد الحكم البريطاني، وكان اللوبى الصغير من المعارضين للاستعمار يثيرون الضوضاء الكثيرة حول مسألة لم تلق اهتمامًا شعبيًا كبيرًا، وعلاوة على ذلك فإن هناك نبوءة أن العالم سيدخل عصرًا ذهبيًا من الانسجام والتجارة الحرة، لكن لم يتحقق ذلك لسبب الحرب الفرنسية النمساوية لعام ١٨٥٩ والحرب الدنماركية لعام ١٨٦٣ والحرب النمساوية البروسية لعام ١٨٦٦ ولم يحدث أى إحساس سياسى فى التأهل بتفكيك الإمبراطورية، عندما كان منافسو بريطانيا مشغولين فى بناء إمبراطوريات، حيث تتقدم روسيا فى آسيا الوسطى، وفرنسا أكملت إخضاع الجزائر عام ١٨٦٦ والصين الكوشية فيتنام فى عام ١٨٦٧.

ونظر بنجامين دزرائيلى العالم المتغير لستينيات القرن التاسع عشر بريبة وشك، وكان الشخصية الأكثر تأثيرًا ونفوذًا داخل الحزب (حزب المحافظين) والذى تزعمه بعد عام ١٨٦٨ وكان مع تقدمه داخل الحزب لم يكن من السهل الإيمان بذكائه.

وغالبا ما كان فلامبويانت جويش (Flamboyant Jewish) الروائى يسعى إلى الحصول على أموال نقدية وشبه دزرائيلى عمله مثل "عمود دهني" ولكن كان أول واحد يعترف به أذكى شخصية فى حزب لم يكسب انتخابات عامة منذ عام ١٨٤١ كان مذاقه الوحيد من السلطة فى السنوات المؤثرة، وكانوا مثل شركاء فى تحالف مزدوج ودخل الوزارة مرة ثانية فى يوليه ١٨٦٦ مع اللورد ديربى (Derby) كرئيس للوزراء ودزرائيلى كوزير للخزانة والسلطة والمؤيد من وراء العرش.

لقد كان دزرائيلي يزداد غضبًا مع كل دورة للسياسة الخارجية الإمبريالية للحزب الليبرالي، والتي اعتبرها عملاً جبانًا، وأدرك كرجل براجماتي (صاحب مصلحه) أن على بريطانيا أن تحافظ على موقفها كقوة كونية نشطة، وإذا تطلب الأمر أن تلجأ إلى القوة وتواصل متابعة مصالحها، ويمكن أن تحقق هذا فقط إذا حافظت بريطانيا ودعمت إمبراطوريتها فيما وراء البحار؛ لأن هذه الممتلكات خصوصًا الهند هي التي جعلت الإمبراطورية قوية ومحترمة.

لقد كانت الإمبراطورية مصدر قوة يجب أن تظل في الذاكرة، وقد كشف دزرائيلي السياسي مستودعًا من العواطف الوطنية والإمبريالية بين النازحين، وكان ينوي أن يضعها في مصالح حزبه، وفي مدى عام توليه السلطة، ومع تشجيع دزرائيلي أكدت الحكومة بأن بريطانيا لا تزال قوة يعترف بها، وفي صيف عام ١٨٦٧ نزل جيش هندي إنجليزي على ساحل الحبشة وتوغل في الداخل وقصف ماجدالا (Magdala) حيث كان الإمبراطور تيودور قد قبض على عدد من المسجونين الأوربيين بمن فيهم الموظفين الرسميون البريطانيون، وكانت الحملة الحبشية نصرًا بسيطًا، وأثبت أن روح بلمرستون لا تزال حية وأن مسئولياته قد انتقلت إلى دزرائيلي.

إن النجاح في أفريقيا لم يحقق لدزرائيلي نصرًا في الانتخابات، وفي عام ١٨٦٨ عاد الليبراليون بقيادة جلادستون ومعهم سياسة خارجية واستعمارية قائمة على مبادئ مجردة على مبدأ ذهني عال، وواصل دزرائيلي العزف على طبول الوطنية، وهو يدافع عن الملكية ضد اتهامات الجمهوريين الليبراليين، ويعرض فشل خصومه في تدعيم المصالح البريطانية في الخارج، وإن كثيرًا مما كان يقوله محاولة لإثارة الكبرياء القومي لناخبي الطبقة العاملة الجديدة، وكانت هدفا لحديث يدعو إلى التطور

ألقاه فى القصر البلورى (Crystal Palace) فى يونيه عام ١٨٧٢ وقال "عندما أقول محافظ فإننى أستخدم الكلمة فى معناها النقى الراقى – إننى أعنى أن الناس فى إنجلترا وخصوصًا الطبقة العاملة هناك فخورون بالانتماء إلى دولة عظيمة وترغب فى الحفاظ على عظمتها – أى أنهم فخورون بالانتماء إلى دولة إمبريالية، وواصل الحديث فى الدفاع عن نفسه، وتعهد حزبه بالحفاظ على كل هذه المؤسسات خصوصًا الإمبراطورية، وبعد ذلك ارتبط حزب المحافظين تماما بمواطنيه والملكية والإمبراطورية.

وفى عام ١٨٧٤ عاد المحافظون إلى السلطة ليس لسبب جون بوليشنس (John Bullishmess) لكن لأن الليبراليين كان يجب أن يخرجوا من الحلبة، كما كان الناخبون تواقين إلى التغيير، وكشفت السنوات الست التالية طبيعة دزرائيلى وشعبيته الاستعمارية، وفى الممارسة العملية اتبعت خطوط مبنية على سياسة بلامرستون: فالوحدة العثمانية وأمن الهند يجب أن تدعم بكل التكاليف، وأن تقوى الإمبراطورية غير الرسمية بكل حماس، وكانت عملية اكتمال التمويل المصرى الفرنسى لقناة السويس عام ١٨٦٩ قد زادت اتجاه بريطانيا لأن تظل القوة المسيطرة فى الشرق الأوسط حيث أنها حينذاك خط حياة الهند.

وبعمل بطولى من خفة اليد ضمن دزرائيلى مشاركة رقابية فى شركة قناة السويس عام ١٨٧٥ وأضاف القناة إلى الإمبراطورية البريطانية غير الرسمية.

ولقد كان الخوف على القناة فضلاً عن الدافع لكسر الوحدة الحديثة بين روسيا وألمانيا والنمسا والمجر، والتى دفعت دزرائيلى إلى التدخل فى شئون تركيا، وكان التمرد بين رعايا البلقان فى عام ١٨٧٥ قد أدى إلى حرب مذبحة ومذبحة مضادة، والتي ألقت فيها القوى الأوروبية والأحرار فى بريطانيا اللوم على الحكومة التركية. وكان الغضب البريطانى الأخلاقى على

الغطرسة التركية فيما يسمى الآن بلغاريا، والتي أيدها الليبراليون مع جلادستون الذى قاد الشعب وطالب الحكومة بالتخلى عن تأييدها للنظام العاجز والقاسى فى القسطنطينية، وأن مصالح الإنسانية تفوق أمن الهند ومن حسن الحظ لدزرائيلى غزو روسيا للبلقان، ومع نهاية عام ١٨٧٧ كان جيشها على مدى نظر المضايق.

وبدأ الرأى العام يسير خلف دزرائيلى حيث رسا أسطول بريطانى بقيادة أحدث السفن الحربية فى العالم، والتى تسمى (H. M. S. Devastation) في الدردنيل لكى يتأكد أنه لا أحد قد نسىَ أن أمن الهند صار فى خطر وتم شحن القوات الهندية إلى مالطا (Malta).

إن الإمبراطورية تتهيأ للحرب، وامتلأت صالة الموسيقى بالمستمعين الذين تأثروا بحمى الحرب، وأخذوا ينشدون أغنية الساعة إننا لا نريد أن نحارب، ولكن إذا نوينا وأقسمنا أننا سنفعل فلدينا السفن ولدينا الرجال ولدينا المال أيضًا، وبعد ذلك صارت كلمة العلو فى الوطنية لكل شكل من أشكال الوطنية، ولم تعد الكلمة ولا مظاهرها شيءا جديدًا فلقد كانت هناك وطنية فى عام ١٧٥٩ وأثناء حروب نابليون وحروب القرم، وتم حل أزمة عام ١٨٧٧ بالدبلوماسية وليس الحرب، فلقد ضعفت روسيا بشدة بسبب جهودها الحربية، وانسحبت من المضايق، وتسلم البريطانيون (قبرص) وهى مركز مهم وأساسى لحماية قناة السويس.

إن ما أحدثته الحرب كان مروانعًا خلال عام ١٨٧٧ وكان الرأى العام متقلبا، والذى كان متأرجحا بين قطبين عاطفين ما بين الغضب والحنق الأخلاقى ضد تركيا ودعوة تحث على القتال بجانبها ضد روسيا، وكان البندول متأرجحًا مرة ثانية فى عام ١٨٧٩، وكان حتى هذا الوقت ضد دزرائيلى.

ولم يكن بطبيعته من دعاة الضم وتفضيل سياسات تؤكد وتدعم القــوة البريطانية؛ حيث كانت قد تأكدت أكثر من محاولتهم توسيعها، وعلى ســبيل المثال في عام ١٨٧٧ أعلن أن الملكة فيكتوريا أصبحت إمبراطــورة الهنــد وهى إشارة قصد بها ربط الملكية مع الإمبراطورية، وربط الهنــد وجعلهــا أكثر التصاقا ببريطانيا، وتعمل بإخلاص لاستمرار الحكومة البريطانية هناك، وعلى هذا فقد كانت ضد رغبات دزرائيلى، وأن وزارته أصبحت مــشغولة بالإستيلاء على الترنسفال عام ١٨٧٧، وغزو أفغانستان عام ١٨٧٩، ولكــل هذه جذورها فى رد الفعل للأزمات المحلية من خلال الرسميين الأفراد الذين اعتقدوا بشكل خاطئ أن الحكومة المحلية تؤيد السياسات الحربية، وســاءت الأمور عندما تم إلغاء الفرقة البريطانية فى إســندلوانا (Isandlwana) فــى أرض الزولو (Zululand) فى الشهر الأول من الحــرب، وهنــاك بعــض المناوشات القريبة فى أفغانستان، ولقد كان هذا الاندفاع للحروب العدوانيــة إشارة إلى جلادستون لتأجيل شبه الاعتزال ودراسة اللاهوت وإثارة ضــمير الأمة ضد البحث عما أسماه بيكون فيلدزم (Beaconfieldism) بعد أن حصل دزرائيلى على لقب إيرل بيكونفيلد عام ١٨٧٧، وكانت البيكونفيلدزم تشكيلة (كوكتيل) سياسية وكانت أهم مفرداتها اقتناص الفرص الخلفية، والمغامرات العسكرية، وعدم الاهتمام بحقوق الآخرين، وخلال شــتاء ١٨٧٩ – ١٨٨٠ كان دزرائيلى مفعمًا بالطاقة والغضب الخلقي، عبر جنوبى أسكتلندا وألغــى السياسات التي كانت تدمر سمعة بريطانيا من أجل العدالة والعمــل الــسليم، ولقد مات عشرة آلاف من الزولو، وأخبر جمهور جلاسجو أنه لا توجــد أي تهمة أكثر من محاولتهم الدفاع ضد مدفعيتكم وأوطــانهم وعــائلاتهم، وتــم قصف القرى فى أفغانستان، وسكانها الذين تركوا يموتون جوعًا، وضــحايا حكومة تسعى للغزو، ربما يكون بعض هؤلاء المستمعين بين الجموع التــى اجتمعت فى أدنبرة فى فبراير ١٨٧٩ لمراقبة ستة وثلاثين متطوعًا من الكتيبة

الخمسين التى سارت وتحركت من قلعة ويفرلـــى ستيـــشن (Waverley Station) وهى أول مرحلة فى رحلتهم إلى أرض الزولو، وهلـــل الألـــوف ولوحـــت المناديل من النوافذ وعزفت الفرق الموسيقية "مرحبًا أيها الأولاد، مرحبًا بمن سيهتم لالأمة الآن، والعلم البريطانى لإنجلترا".

وربما يجد الذين يسعون لتفسير هذا العرض الشجاع فى مجلة سكوتس مان (Scotsman) التى عرفت الزولو على أنه شخص بربرى نقى وبـــسيط، رضخ باحتقار إلى الخرافات الكريهة للساحر وطبيب المطر، وكـــل حياتـــه وممتلكاته تحت رغبة طاغية وحشى.

إن انتصار الحزب الليبرالى فى عام ١٨٨٠ فى الانتخابات العامة كان بالنسبة له علامة أن الدولة قد أدارت ظهرها لحملة الأعلام مـــن الوطنيـــة المتطرفة، وفقدت أى ذوق كان لديها من أجل الغزو، وتحت قيادة الحكومـــة الليبرالية الجديدة سوف تعود الأمة إلى أنماطها القديمة من خـــلال التجـــارة الحرة، والمساعدة الذاتية لشعبها، وسوف تكسب الرخاء والقوة الخلقية، وإن بريطانيا من خلال هذا النموذج ستواصل إعادة تشكيل العالم حسب صورتها الخاصة.

(٣)
مهمة سلالتنا
بريطانيا والاستعمار الجديد
(١٨٨٠ – ١٩٠٢)

فمنذ عام ١٨٨٠ لا تعتبر بريطانيا أن العالم مهدها، ولكن، بثقة أقل، أكثر من عشرين أو ثلاثين سنة قبل ذلك، ولا تزال تعتبر بريطانيا العالم هو القوة الكونية الوحيدة. بل ربما الجزء الأعظم من قوتها الدولية التى تكمن فى قدرتها على التأثير فى الدول الأكثر ضعفًا والأقل تطورًا، وبالطبع كانت الهند مصدر قوة لا يقدر بثمن. وخلال السنوات العشرين الماضية قام الهنود بأعمال قسرية فى إمبراطورية غير رسمية فى الصين والملايو والحبشة، وقد طلب منها دزرائيلى الدفاع عن تركيا من العدوان الروسى.

وفى بعض المناطق اختفت الحاجة إلى إمبراطورية غير رسمية على النمط القديم، وفى عام ١٨٨٦ أخبر قائد أسطول الكيب وزير البحرية أنه لم يعد ضروريًا أن تقوم المقاتلات بحماية المياه الإقليمية خارج نهر بلات Plate، ولقد انتهت الثورات العنيفة والحروب الأهلية وتجارة الرقيق، والآن تحافظ الحكومات على النظام بخاصة فى فترة التوترات التي تحدث أثناء الانتخابات الرئاسية، وكانت ممتلكات البريطانيين وحياتهم مصونة ومحترمة، وأضاف أن سفن الأسطول فى هذا الجزء من العالم مهملة ومثار سخرية، على عكس رجال الحرب الجدد الذين يحرسون المصالح الإيطالية والفرنسية(١).

وكانت هذه الملاحظات مجرد تذكرة بأن القوى الأوربية الأخرى تتبع المثال البريطانى وتزود الحماية البحرية العالمية واسعة النطاق من أجل مصالحها واستثماراتها، وكانت المقاتلات الحربية الفرنسية والألمانية تبحر بانتظام فى المحيطات الأطلسى والهندى والهادى.

لقد كانت عملية ظهور السفن الحربية فى مناطق تحت الإشراف الكلى للنفوذ البريطاني، وكانت هذه علامة لتغير كبير يحدث فى كل أنحاء العالم، ولقد سماها المؤرخون المعاصرون "يد الاستعمار الجديد" وهى عبارة استخدمها المؤرخون من ثم لوصف الاندفاع المفاجئ لعمليات الضم من جانب القوى العظمى خاصة فى أفريقيا والشرق الأقصى والمحيط الهادى، وفى الحقيقة لم يكن هناك سوى القليل حول هذه الظاهرة سوى خطواتها المسعورة ومشاركة ألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة واليابان، وهى دول كانت تعمل للتوسع فيما وراء البحار.

إن أسباب اندلاع الغزو واحتلال الدول الضعيفة عسكريا والمتخلفة من جانب الدول الصناعية كانت عملية معقدة، وفى كل مكان كان هناك الكثير من الجدل العنيف حول تقدم الجنس البشرى وانتشار الحضارة.

وبعد ضم أمريكا للفلبين عام 1899 ادعى السناتور أ.ح بيفردج ثقته فى مهمة جنسنا كأوصياء بفضل الربّ على حضارة العالم، وقد تم التعبير عن نفس المشاعر من جانب المستعمرين الفرنسيين والإيطاليين والألمان، وفى بريطانيا كان الحديث بشكل متكرر عن الستين الماضية.

إن الإهانة والتجريح لحضارة شخص ما، عادة تنتقد شخصا آخر، وهو تورط عام حيثما تتصارع القوى حول من يمتلك أى شيىء، وفى عام 1885 عندما كان الجيش البريطانى يشق طريقه على طول نهر النيل ويناضل من

أجل إنقاذ الجنرال غوردون من الخرطوم، فقد لاحظت مجلة لافرانس (La France) بشكل يدعو إلى السخرية أن إنجلترا التى لم تفعل شيئًا من أجل إنقاذ الحضارة أو الخرطوم قلعتها فى السودان، قد قامت بحملتها الخطيرة والمكلفة كثيرًا لكى تخلص شخصا من هذا الجنس المتغطرس، والذى يعتبر نفسه أسمى من الإنسانية كلها.

لكن يكمن خلف هذا الكلام المنمق للاستعمار فى أواخر القرن التاسع عشر الشكوك الذاتية وعدم الثقة التى أرهقت القوى الاستعمارية القديمة والحديثة جميعًا.

ومنذ عام ١٨٨٢ تغيرت كل الأنماط العالمية التجارية التي أضرت بكل الدول خاصة بريطانيا، ومن ذلك الحين حتى عام ١٨٩٦ كان هناك ركود عالمى واسع تخللته فترات قصيرة من الازدهار، وقامت حكومات الولايات المتحدة وروسيا وإيطاليا وألمانيا وفرنسا بمحاربة التجارة الحرة لصالح الحماية، وكلما ألغيت الحواجز الجمركية - انخفضت صادرات بريطانيا لهذه الدول، ومع ذلك فإن الثقة القديمة فى التجارة الحرة ظلت قوية كعادتها خصوصًا عند الحزب الليبرالى، وكانت هناك معارضة فى الرجال الواقعيين وضعاف القلوب مثل جوزيف تشامبرلين الليبرالى الراديكالى، ولكنهم لم يتجاهلوا إطلاقا الاعتقاد البسيط بأن العصر الذهبى للتجارة الحرة سوف يعود ومعه السيطرة البريطانية على التجارة العالمية.

وهكذا ففى عام ١٨٨٠ تمسكت الحكومة الليبرالية بالتجارة الحرة وواجهت ضعفًا فى الصادرات التى هبطت من معدل سنوى 234 مليون جنيه فى النصف الأول من العقد إلى 226 مليون جنيه فى العقد الثانى، وارتفعت الواردات والزيادة السكانية وزيادة الحرمان فى المناطق الحضرية، وعلاوة على ذلك لم تعد بريطانيا القوة الصناعية الوحيدة فى العالم، بل واصل

منافسوها اللحاق بها والتفوق عليها، وما بين عام ١٨٨٠ و١٩١٠ انكمش نصيب بريطانيا من التجارة العالمية من ٢٣ إلى ١٧% وفي عام ١٩١٠ كانت قدرتها ونصيبها من القدرة العسكرية العالمية ١٥% إذا ما قورن بنصيب الولايات المتحدة الأمريكية الذى وصل إلى ٣٥% وألمانيا ١٦%.

لقد عكست هذه الأرقام الركود الصناعى والروح التنافسية ونقص الاختراع الذى شهدته المراحل السابقة من الثورة الصناعية، وتوانت بريطانيا وضعفت فى تطوير تكنولوجيا الصناعة الجديدة، وإنتاج السائل تاركة كلاً من ألمانيا والولايات المتحدة تخطوان قدما فى المواد الكيميائية والزيوت والهندسه الكهربائيه والسيارات.

ومن الأمور المتناقضة أنه خلال سبعينيات القرن التاسع عشر كانت هذه الأمور الضرورية والحيوية لحملات بريطانيا الاستعمارية نجد أن بنادق جاتلنج (Gatling) ونوردن فيلت (Nordenfelt) للأمة للجيش البريطاني تُصنع فى أمريكا، كما كانت هذه الاختراعات الجديدة فى أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر؛ التليفونات والإنارة الكهربائية، تزدهر فى بريطانيا من خلال شركات يمتلكها أمريكيون.

ومع هذا كانت بريطانيا تحاول تخفيف الصدمة ضد آثار الصادرات المنخفضة ووسائل الإنتاج المتخلفة من خلال المكاسب غير المرئية من أعمال البنوك، وشحن البضائع والتأمين والاستثمارات. ومع عام ١٩١٣ وصل إجمالى هذه السلع إلى ٧٨٠ مليون جنيه، وكان على بريطانيا أن تصل إلى اتفاق مع الدول المنافسة فى سوق عالمي تعاقدى.

ومع تقدم ثمانينيات القرن التاسع عشر انخفضت منافذ الصادرات للمنافسين لحماية التجارة، وبدأوا فى عمليات التوسع فى العالم، واحتلوا

مناطق، وبعدها أعلنوا أنها مناطق محجوزة لصالح تجارهم ومستثمريهم. وحاولت بريطانيا تغيير هذه العملية ولكن بنجاح محدود، وأكد الضغط الدبلوماسي أنه في عام 1884 كانت الأسواق التي تمتلكها شركات خاصة بدولة الكونغو الحرة مفتوحة لكل القادمين. ومرة ثانية في عام ١٨٩٨ احتجت الحكومة البريطانية عندما كانت أمانيا وروسيا تتفاوضان من أجل امتيازات في شانتونج (Shantung) ومنشوريا (Manchuria) والتي تعطي لكل قوة منهما احتكارًا للتجارة والاستثمار في مناطقها(٢).

ولم يكن كافيًا عدم الموافقة الدبلوماسية على هذه الضجة، وإذ كانت بريطانيا تؤكد مبدأ التجارة الحرة - فإنها كانت تقف إلى جانب منافسيها وبدأ رجال الأعمال يتصرفون من خلال غرفهم التجارية المحلية وينتهجون سياسة الضم والاعتماد على الحكومة لمنع وجود أسواق أساسية فقدها المتنافسون، وأصبحت عناصر اللوبي الاستعماري صناعة مزدهرة خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر مع جماعات منظمة تنظيمًا جيدًا وبشكل جيد، وازدهرت في ألمانيا وفرنسا وفي بريطانيا تحالفات المستعمرين مع أصحاب دوائر الصحافة الرخيصة والجديدة، والتي لها السلطة في التأثير على رأي الطبقات العاملة والطبقة الوسطى الدنيا وقد دعت الصحافة الشعبية الجمهور للمشاركة في الصفقات الدولية للتوسع والالتحام في مناطق أصبحت تسجل مرحلة الاستعمار الجديد وفي الحال تم اكتشاف أن الجمهور ينساق وراء مخاطر حربية عندما يجد أن دولته تتعرض إلى الإهانة. انظر إلى الأدب في رواية السيد ماديسون لهنري وليسون، ودنكي بوي (Donkey Boy) وهو عامل تأمين شركة سيتي Cety، الذي كان يتباهى بأنه أب لابن وابنة في أعظم دولة على وجه البسيطة، وقرأ إحدى هذه الصحف الجديدة المصغرة الديلي ترايرنت (The Daily Trident) ومع كل أقوالها المتكررة وسياستها المتشعبة في الإخلاص للملك والدولة والإمبراطورية من خلال الفضائل

الثلاثة وهى الثقة والأمل والحرص، أو اليقظة التى هي أساس التفكير، دع الحزب الراديكالى يسميها صحافة صفراء برغم أنه يعرف الحقيقة عندما يراها فله رأى خاص به فى مثل هذه الأمور(٣).

لقد فهم أصحاب هذه الصحف الجديدة ما يريد السيد ماديسون، واللورد هارمورث صاحب جريدة الديلى ميل Daily Mail التى تأسست عام ١٨٩٦ والذى لاحظ ذات مرة أن قراءه يستسيغون الكره الصارخ، وهناك الكثير من الفرص لمثل هذا الارتياح والسرور الذى أظهره المتنافسون الاستعماريون فى ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته. كيف تستطيع بريطانيا التأقلم والبقاء فى عالم يتغير بسرعة، حيث إن اللعبة (لعبة النرد) لم تكن فى صالحها؟

ويمكن كما يعتقد الكثيرون من حزب الأحرار- الاعتماد على الشكل القديم من التجارة الحرة والإمبراطورية غير الرسمية. لكن هذا الشىء الأخير لم يعد عمليًا فى عصر دعمت فيه دول أخرى مكانتها، وأصبحت تحرص بشدة على حماية مناطق نفوذها عبر العالم، وفى كثير من الحالات تسيطر على ما سمى "المناطق التي لا صاحب لها (Reanullas) فى أفريقيا أو المحيط الهادى، وكان الرد العملى هو التخلى عن أحلامها القديمة، وتضم الأعضاء إلى عملية التكالب للحصول على مناطق نفوذ إذا تطلب الأمر التسابق مع المتنافسين.

وعندما انهارت الإمبراطورية غير الرسمية فى مصر عام ١٨٨٢ بدلت حكومة جلادستون الرقابة المباشرة واحتلت الدولة بالقوة، وأيضًا عندما بدأن المستقرين الألمان فى جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا) ربما ينضمون إلى قوات البوير فى البرتغال عام ١٨٨٤، ويستولون على باسوتولاند (بتسوانا) كانت تحت السيطرة الضعيفة لرجال الإرساليات البريطانيين - خطت

الحكومة خطوة وأعلنتها محميه، وكان كل هذا مثيرًا للقلق لجلادستون الذى كان يقف بشدة ضد المغامرات العسكرية الإمبريالية- لكنه لم يسمح للسلطة أن تخرج من قبضة بريطانيا: وعلاوة على ذلك فإنه لم يتجاهل المناقشات الإستراتيجية التى كان يقدمها الاستعماريون داخل وزارته الخاصة أو يقدمها الرأى العام.

وبحسب شروط أوسع كانت بريطانيا ملتزمة بالتمسك بنفوذها القديم حتى لو أن هذا يعنى استبدال الرقابة المباشرة بالأمور غير الرسمية، بالرقابة المباشرة ولم يكن هناك خطة استعمارية كبرى وراء الإهتمام بالتأكيد على أمن الهند المطلق.

وكما قال اللورد كيزون عام ١٩٠١ "طالما أننا نحكم الهند فإننا أعظم قوة فى العالم. وإذا فقدناها فإننا سننزل مباشرة إلى قوة من الدرجة الثالثة"، ولم يستطع أحد تحدى هذه الحقيقة ولا حتى السياسات التى خططت لحماية شبه القارة الهندية، وواصلت هذه السياسة إلى درجة أنه عندما كانت بريطانيا خلال شتاء عامى ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ على استعداد للذهاب إلى الحرب لمنع فرنسا من الاحتفاظ بموضع قدم لها فى وادى النيل، وفى أقل من عام أى فى أكتوبر ١٨٩٩ قامت بريطانيا بشن حرب ضد البرتغال والأورانج الحرة للدفاع عن سيادتها فى جنوب أفريقيا، وإن فقدان السيطرة على وادى النيل سيعرض مصر للخطر ويضعف قبضة بريطانيا على شريان الحياة فى الهند، وهي قناة السويس. وبنفس الشىء فإن تخفيف السلطة البريطانية فى جنوب أفريقيا سيعرض مستعمرة الكيب للخطر، ومعها تضعف السيادة البحرية فى المحيطين جنوبى الأطلسى والهندى. تستطيع بريطانيا أن تقدم مساومات توافقية، مثل تقسيم شرق أفريقيا وغربها، وتقسيم جزر المحيط الهادي وتوازن مصالح القوى العظمى فى الصين، قد تم هذا بشكل دبلوماسى إن لم يكن دائمًا وبشكل ودى.

توسيع الإمبراطورية والحروب التي صحبته اهتمام الجمهور بشكل كبير، وتوافقت هذه العملية مع مراجعة واسعة النطاق للأفكار والاراء عن الإمبراطورية ومستقبلها، وأثار كاتبان كبيران إعادة التفكير في الإمبراطورية وهما السير تشارلز ديلك البريطانى الأعظم (Greater Britain) عام ١٨٦٩ والآخر الأكثر شيوعًا توسع بريطانيا (The Expansion of England) لمؤلفه سيرجون سيلى عام ١٨٨٢.

وقدم الكتابان دعما لهؤلاء الذين يتفهمون مستقبل بريطانيا، أما بالنسبة لسيلى فكانت الإمبراطورية مزدهرة لبقائها دولة كقوة عظمى، وفى العالم الحاضر فإن القوة تساوى الكيان، حيث إن كلاً من أمريكا وألمانيا زادت مساحتها وسكانها خلال السنوات العشرين الماضية، ومن ثم زادت فى قوتها، كما أن عصب القوة البريطانية يكمن فى مستعمراتها خصوصا الدومنيون البيضاء التي كانت امتدادًا لبريطانيا، وكما يأمل سيليف بأنها تستمر فى التوسع وبدورها تستطيع أن تتحكم وتسيطر على العالم، وفى النهاية تستطيع أن تسابق منافسيها الجدد.

فالإمبراطورية البريطانية كانت تعبيرًا عما اعتبره سيلى العبقرية الخاصة للجنس الأنجلو ساكسونى، أى البريطانيين، والآن صارت الداروينية الاجتماعية شائعة ونظرياتها جاهزة لتحويل مبادئ داروين من عالم النباتات والحيوانات إلى عالم الرجال، وهى توحى بأن أجناسًا معينة ملائمة لأن تعيش وتزدهر عن الأخرى، تاركة فى أحد الجوانب السؤال الدائم عن من هم الأنجلو ساكسون؟ وكما اعتاد مستعمرو أواخر القرن التاسع عشر، فإن هناك اتفاقا عاما بأن ذريتهم من البريطانيين تمثل جنسا أكثر عراقة، ويمكن أن نبرز هذه الخلاصة بحسب التكيف والتقدم الفكرى والعلمى والمادي، وحقيقة أن الأنجلو ساكسونيين قد انتشروا حول الكرة الأرضية، وسيطروا على بيئتهم فضلا عن الشعور العام بأنهم مؤهلون بشكل مثالى للحكم.

لقد امتزجت أفكار السيادة العنصرية مع الجدل من أجل الوحدة الإمبريالية، لكي تولد أيديولوجية للاستعمار الجديد، ويناسب هذا الأزمنة؛ حيث أنها تعطي لبريطانيا فرصة للوقوف ضد انهيار قوتها الدولية، وتعيد إحياء الاقتصاد الراكد، وفي النهاية ففي ١٨٨٤ استهلك ثلاثة ملايين أسترالي - ثلاثة وعشرين مليونا قيمة السلع البريطانية المصدرة لأستراليا من بريطانيا.

لم يكن هذا يعني أن هناك فقط سوقًا ذات قيمة- ولكن هذا يعني أنها دولة كانت بها روابط القرابة واللغة والمؤسسات مع بريطانيا، وقد قدم هذا الدليل الصارخ في العام التالي عندما أرسلت ثاوث ويلز قوات لتخدم إلى جانب الوحدات البريطانية والهندية في السودان، وكان جوزيف تشامبرلين أهم المتحولين إلى العقيدة الإمبريالية، بينما لديلكي (Dilke) وسيلي (Seeley) قليلة كان أهم شخصية سياسية قوية في عصره، ومن المؤكد أنه ربما كان أكثر قلقا وصعب المراس من تشامبرلين، وفي الظاهر بدا كأنه مثل الأرستقراطي الأصيل بملامح راقية، متفردًا بالرأي ذا لون أرجواني خفيف، واشتهر بفتحة زر معطفه، وفي الحقيقة كان تشامبرلين رجل أعمال من برمنجهام، قد تطور من لورد ماتور الراديكالي بأفكار جمهورية صعبة إلى وزير ليبرالي في حكومة جلادستون، وفي عام ١٨٩٠ صار وزيرا للمستعمرات في حكومة المحافظين، وخلال أعماله السياسية انضم إلى حزبين، الحزب الليبرالي في عام ١٨٨٦ والمحافظين في عام ١٩٠٤، وهو إنجاز فريد يبرز الكثير من نفوذه من بين كل الأسباب التي تبناها تشامبرلين أن الإمبراطورية هي الأعمق شعورا والأطول ديمومة، فالارتباط بالوحدة الاستعمارية المثالية فضلاً عن الإحباط مع عدم اهتمام جلادستون أو اكتراثه بالإصلاح الاجتماعي الذي دفع تشامبرلين لترك الأحرار نظام الحكم المحلي الأيرلندي.

فى عام ١٨٨٦، قاد حفنة من الأحرار نحو تحالف مع المحافظين واحتفظ لنفسه بما أسماه منصبًا وزاريًا صغيرًا وهو وزارة المستعمرات، وكان شعاره للاستعمار مزيجًا من الأفكار القديمة عن الحضارة السائدة والأفكار الحديثة عن الجنس، وفى عام ١٨٩٣ عندما قبلت بريطانيا أن تكون أوغندة محمية أجبر مجلس العموم لكى يرحب بهذه الإضافة الجديدة للإمبراطورية وواصل الحديث عن أن الشعب جاهز لمهام نشر الحضارة؛ حيث إنه على دراية بتقاليد الماضى وبما أسماه "هذه الروح للمغامرة والمشروع الذى يميز جنس الأنجلو سكسون الذى جعلنا ملائمين بالتحديد للقيام بأعمال ومهام الاستعمار[٤]".

من المهم أن يفهم جنس الأنجلو ساكسون أنه يحتاج لتبنى ذلك إذا كان يحقق مصيره التاريخى، والأهم من كل هذا أن تقدم للشباب نماذج عن كيفية التصرف وأى من الفضائل الطبيعية التي يجب غرسها، وكيفية أن يكون هذا الغرس لجيل من أساتذة الجامعات ونظار المدارس ورجال الدين والشعراء والصحفيين؛ فكتاب قصص الأولاد يجب أن يركزوا طاقاتهم وأفكارهم لجعل عقيدة الاستعمار الجديد أكثر شعبية، وفى داخل هذا تكمن رجولة الأنجلو سكسون، وهى فكرة مجردة تتلاحم فى أجزاء متساوية من الوطنية وصلابة العود الجسمانية والمهارة فى الأعمال الجماعية والإحساس وعدم الأنانية والإحساس العادل وضبط النفس والشجاعة والجرأة.

إن الأرض أصبحت ممهدة لأفكار الأنجلو ساكسون المثالية، ومنذ أربعينيات القرن التاسع عشر تعرضت المدارس العامة لثورة بدأها الدكتور توماس أرنولد ولعبة الرجبى (Rugby) التى حولت عادات الطبقات العليا والوسطى وعقولهما، ولقد سعى كل من أرنولد ومساعديه لغرس حب الغير كما تدعو المسيحية فى تلاميذه، وأن يوجه طموحهم وعدوانهم نحو مجال العمل.

وتلاميذ المدارس الذين درسوا حسب مناهج أرنولد قد درسوا أيضا كيفية التحكم فى أنفسهم والتحكم فى الآخرين، من خلال نظام متكامل واستعداد أكمل لحكم السلالات الأقل ومتابعتها، ولا يسهم الذكاء أكثر من التعرف على الشخصية والنشاط الفكرى، والذى كان إلى حد كبير قاصرًا على عدم النفع والممارسات المتكررة فى لغات قوتين استعماريتين سابقتين وهما اليونان والرومان.

والمحصلة النهائية رجل مسيحى مهذب ذو خيال يدل على الجسارة تحركه القوانين وهدفه الأسمى خدمة الآخرين، وإذا كان عليه أن يكسب قوته، فإنه مرشح لأن يصبح ضابطًا بحريًا أو ضابط جيش أو موظفا مدنيا عالى المستوى أو رجل دين أومحاميًا فى المحكمة العليا أو يلتحق بالإدارة الاستعمارية أو الهندية.

ومع عام ١٨٨٠ ظهر جيل وصل إلى مرحلة الرجولة بنظرة جعلتهم صالحين بشكل مثالى لحكم الإمبراطورية، والاستمرار فى حروبها، وفى نفس الوقت فإن تلميذ المدارس العامة فى أواخر عصر الملكة فيكتوريا نأى بنفسه عن التجارة والصناعة حتى لو كانت هذه حرفة أبيه، وكل النشاطان ابتعد عن الموهبة التى كان ينظر إليها باعتبارها أحد أسباب الشلل الذى ساد التجارة والصناعة البريطانية تلك الفترة.

وكانت الصفات التى دعمتها المدارس العامة هى تلك التي حملت أعلام الحضارة الأنجلو سكسونية، ومع حلول القرن صار الشعور بالألعاب الرياضية مس حزب من الهوس، وكان هذا إيمان ج. ي. سِ ولدون ناظر مدرسة هارو(Harrow) (١٨٩٥ - ١٨٨١) والذى صار أسقفًا لكلكتا فيما بعد أن "كان هناك فى الجنس البريطانى عما أعتقد أنه يكون شعورًا خاصًا من أجل القيام بعبء الرجل الأبيض" فإن هذا ربما يعزو كل الأسباب الأخرى لروح الألعاب الرياضية المنظمة.

لقد ولّد هذا روح الفريق الذى تتبع منه التضحية بالنفس، وظهرت أعلى الأمثلة لهذا فى نافذة زجاج كنيسة مدرسة سيدبرج (Sedbergh) التي تمخضت عنيا ثلاثة من أبطال الإمبراطورية المسيحيين وهم السير هنرى لورانس المحارب القنصل فى الهند واثنان من الشهداء الجنرال غوردون وأسقف باتسيون رجل يشير فى البحار الجنوبية، كما ظهرت مثاليات الرجولة المسيحية عند أرنولد بسهولة مع هؤلاء المستعمرين الجدد.

وطوال تسعينيات القرن التاسع عشر كان أطفال المدارس يلقون التأييد من المجلات الشعبية التي كتبت خصيصًا لهم، والتى تصب فى أفكار الاستعمار الجديد.

وهم ينسجون خيوط المغامرات المثيرة مع الوطنية والتلويح بأفكار الاستعمار الجديد.

وانضمت جريدة الأولاد الخاصة القديمة الأنجليكانية مع شومز والتز ويونيون جاك (Chums, Pluck and Union Jack) والاثنان الآخران في عام ١٨٩٤ ومن الهارمون الدائمة والتى عكست عناوينها محتوياتها، وكانت الشومز حافلة بقصص عن الأفعال الاستعمارية والصور الملونة بما فيها عاصفة مرتفعات دارجيا ((Dargai) والتى أظهرت حادثة فى عام ١٨٩٧ فى حملة الحدود الشمالية الغربية، والتى دفع فيها الهايلندرز مكانة باثان والتى أثارها عازف المزمار المجروح الذى منح بعد ذلك جائزة الصليب الفيكتورى (Victoria Cross) ويرمز غلاف كتاب "إنجلترا الشابة" السنوى لعام ١٩٠٢ لصاحبه وقيم منافسيه، إضافة إلى فارس ارتدى زى محارب البوير، ومعه المجاديف ومضارب الكريكت والتنس وشبكة صياد(٥).

إن هــؤلاء الــذين يقــرأون إنجلتــرا الــشابة (Young England) سوف يستمتعون بالقصص الطويلة. التي صدرت بشكل مستمر من الناشرين خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، ومن أهمهــا قــصص ج. آه هنتــرى "الميت في صفوف الاستعمار" والذى خدم كمراسل حزبــى خــلال حــرب الأشانتي 1874 - 1873 وكان يؤلف ثلاث القصص للأولاد ســنويا، والتــى ظهرت في سوق فى عيد المسيحيين، وتكلف خمسة شلنات أو ستة ما بــين ٢٥-٣٠ بنسا لكل نسخة، وفى أعماله الأولى خاطب هنتى قراءه "أطفــالى الأعزاء" واعترف أنه من المؤلم أن يكتــب عــن أى حملــة انهــزم فيهــا البريطانيون(٦).

ومن ناحية الرحمة كانت هناك العديد من الانتصارات بالنــسبة لــه، وليختار منها لأعماله بأسلوب قصصى مباشر، والتى يجد فيها الشباب نفسه مشغولا بأحداث التاريخ، وقد تجول هنتى من مصر الفرعونية إلى عــصره الخاص لكن أكثر موضوعاته شيوعًا كانت حروب الإمبراطورية.

لقد كان هدفه إثــارة قرائــه، وباســتعراض روايــة علــى الــرواد (On the Irrawdy) المبنية على حرب بورما ١٨٢٤ وصف بطلــه بــشاب شجاعته وإقدامه أعظم من حظه، وإنه بكل دقة الولد الــذى يثيــر منافــسيه الأولاد الذين يقرأون هذه القصة المثيرة(٧).

وقد وضع هنتي روايته من خلال حرب السيخ (Through the Sikh war) عن كيفية تصرف قرائه وسلوكه، وذلك فى فقره حتى يخبر البطل ما الــذى يجب أن يتوقعه عندما يلتحق بجيش شركة الهند الشرقية.

فكر فى نفسك يا يرسى، هل تستطيع أن تتفوق على معظم الزملاء فى عمرك؟ هل تستطيع الجرى بسرعة مثلهم؟ هل تشعر فى الحقيقة بأن تأخــذ

عصا بدون التذمر منها؟ هل تشعر أنك تستطيع أن تخترق بشكل متكامل مثل أى من رفاقك؟ هل أنت ماهر فى التخطيط لنوع من الأذى وعلى استعداد لتولي قيادة تنفيذه؟.

إنها الشجاعة والتحمل وحب المغامرة والخطر الذى يجعلنا أسياد الجزء الأعظم من الهند والتى تجعلنا حكام الهند كلها.

إن قيم بناء الإمبراطورية فى تسعينيات القرن التاسع عشر إنما تعود إلى أربعينيات القرن التاسع عشر، وإن نماذج بناء الإمبراطورية قد صورت فى البداية فى قصة (beau Sabreur).

(Rudyard Kiplings Stalky and Co.) وتدور أحداث هذه القصة للمدرسة العامة حول مزح ستانكى (Stanky) ورفاقه، وهى فرقة من المغامرين الذين يسعون لتولي السلطة، وهم مجرد زملاء لحكم الإمبراطورية كما شرح أحدهم وهو بيتل Beatle إن الهند مليئة بستوكيزو ستلنتهام وهيلى بورى ومالبورو والذين لا نعرف عنهم شيئاً، وتبدأ المفاجأة عندما يكون هناك صف ضخم حقا".

وقد أخذ هذه النقطة مراسل ادعى أن ستالكى ورفاقه هم نفس الرجال الذين تحتاجهم الإمبراطورية(٨)، وبشكل متناقض فإن الشخص الذى رسم على ستالكى نموذجه هو القائد العام ليوبيل دنيسترفيل (Lionel Dunsterville) الذى قاد قوة لعمل محاولة للاستيلاء على حقول بترول باكو Baku، فى عام ١٩١٨ بنفس النوع من الاستغلال الذى رسم هنتى قصته، وكان الإعجاب الشعبى الضخم بالمراحل الأولى من حرب البوير مصادفة سعيدة غير منتظرة لهنتى ومقلديه، وشهد عام الميلاد ١٩٠٠ سلسلة من قصص الأولاد التى وضعت فى جنوب أفريقيا بما فيها رواية هنتى مع بولر فى ناتال (With Buller in Natal).

وكانت سياسات هذه الكتب مادة خام؛ حيث أظهـر هنتـى بريطانيـا باعتبارها أعظم قوة متحضرة على وجه الأرض تحارب ضد واحدة، بـدون عناصر الحضارة، جاهلة وشرسة ضد أى مجتمع أبيض موجود[٩].

وكمثال لحرمان البوير قد ظهر فى رواية فوكس راسيل بوير نلنـدر (Boer's Blunder) عام ١٩٠٠ حيث يخطف الرجل الشرير فتاة بريطانية إن قـراءة روايـة كابتن ف. س بريرتون (Brereton ore of Fighting souts) عام ١٩٠٣ قد تحمسوا فى نهاية القصة أن يحذو حذو البطل "إذا كان قدرك أن تأخذ مسدسًا وتذهب لكى تحارب من أجل مليكك ووطنه - فهـل تواجـه العدو وتواصل الحرب بشجاعة كما فعل جورج رانسوم وهو أحـد رجـال الكشافة المحاربين، إن الكثيرين لا يحتاجون إلى هذا العمـل وفـى شـتاء ١٩٠٠٠ - ١٨٩٩ تقدم آلاف المتطوعين للخدمة فى جنوب أفريقيـا، وهـم رجال الحرس الوطنى من الفرسان الإنجليز مثل الأبطال الأنجلوسكون الذين أبحروا إلى الكيب مع روائى المستقبل الإيرلندى الوطنى ويدعى إيركـساين شيلدر [١٠].

إن الدعاية الإمبراطورية من نوع الإمساك بإحكام والتى أخرجها هنتى ورفاقه قد امتدت لكل الطبقات، وقد شجع ناشرو هنتى مدرس مدارس الأحد ليقدموا كتبه باعتبارها جوائز، وتم عرض الآلاف منها ويـستطيع أطفـال الطبقة العاملة المشاركة فى مغامرات أسيادهم الاجتماعيين، ويتعلمون الكثير من الأعمال التى شكلت الإمبراطورية، وامتصاص بعض أفكارهم الأولية.

وصلت فصول الأيديولوجية الإمبراطورية الجديدة إلى فصول المـدارس الإلزامية عبر مناهج الدراسة، وكانت كل الجغرافيا التي درسها المدرسـون المتمرسون فى كلية كافندش (Cavendish) وكمبردج حتى عـام ١٨٩٦ تـضم

قوائم بالمستعمرات وتفاصيل عن كيفية الحصول عليها ومنتجاتها، وتفاصيل عن سكانها الوطنيين، وكلها تم تلقينه للتلاميذ لكي يحفظوه عن ظهر قلب، وفي نفس السنة فإن الخطوط العريضة التي تم التوصية عليها تعد درسا عن جنوب أفريقيا يلفت الانتباه إلى الكالفينية البدائية للبوير وترددهم في التحرك بشكل شائع. أما بالنسبة للسود فكان عليهم أن ينصاعوا إلى السيادة الحتمية للبيض، وأن يتعلموا كيف يكونون خدما مفيدين(١١).

وحتى الحضانة لم تكن قاصرة أو منغلقة على الاستعمار، وقد نشرت (Baby Patriots , ABC) عام ١٨٩٩ وشملت المستعمرات وكيف نفخر بها حقا، إن كل الأمم العظيمة تعد بريطانيا العظمى أفضلها، وبينما كان الطفل ينطق بذلك فإن إخوته من الصبيان والأخوات يحاربون مع الجنود الذين يرتدون البدل مزركشة التي صارت مألوفة بعد عام ١٨٩٠ وهناك الكثير من الوحدات الإمبريالية ووحدات المشاة من المعاطف البريطانية الحمراء والجنود بقبعاتهم من القش، والسودانيون بالطرابيش، ورجال فرسان البنغال بعمائمهم ورجال الفروسية الاستعماريون في لبسهم الكاكي وقبعات عريضة بحافة عليا مرتفعة، وجاء رجال المعارك ومعهم كل معداتهم الشخصية للحرب الحديثة من المدافع والبنادق وإسعافات الميدان.

وكان هناك الكثير من الجنود الحقيقيين في زي رسمي مبهر يسيرون عبر لندن للاحتفال بالعيد الماسي للملكة فيكتوريا عام ١٨٩٧، وشاركت القوات من كل أنحاء الإمبراطورية في هذه الاحتفالات التي شملت أيضًا عرضهم للأسطول في سبت هيد (Spithead)، وقد كان الاحتفال أكثر من استعراض للعضلات الإمبراطورية، وكانت الملكة في قلب الإمبراطورية وكان الولاء لها قد ساعد على إعطاء الإحساس بالترابط والتلاحم، ولم يوجد هناك تلاحم مع المستقرين البيض من كندا أو أستراليا الذين يديرون أمورهم بأنفسهم،

والهنود يحكمون من دلهى ويحكم النيجيريون شركة النيجر الملكية الخاصة، ويحكم رعايا المحميات والمستعمرات من وايت هول (White Hall) من خلال الموظفين الرسميين المحليين بالتعاون مع رؤسائهم الخصوصيين، وهو رمز الملكة الذى تظهر على طوابع البريد والعملة، لتجسد وحدة الإمبراطورية، وكانت رعايتها الأموية الذكية قد اختارت بحرية خدمها من الهنود لإدارة شئون منزلها، وكان هذا شائعا ومألوفا.

وهناك الكثير من المهرجانات الإمبريالية المسلحة التي لم تكن بنفس المهمة قبل مهرجان ١٨٩٧ وبعده، وعزفت الفرق الموسيقية وهلل الحراس الذين يرتدون الملابس الكاكي الجديدة، وكانوا يسيرون فى شوارع لندن فى فبراير ١٨٨٥ فى أول خطوة من رحلتهم إلى السودان، وعندما تحرك القطار التجارى من محطة ووترلو- كان عمال المحطة يلوحون بملابسهم، وكانت هناك صيحات من عمال المصانع على طول الطريق، أما الحراس الذين ظلوا باقين فقد تم استئجارهم للمشاركة فى استعراض اللورد جورج سانجوز الخرطوم الذى تم فى المسرح الوطنى فى أمفيثيز فى لندن خلال شهر مارس وضم تابلوهات بعنوان وسط الميدان البريطانى في أبو كيليا (The British Square at Abu Klea Crordon's Last Appeal to England) وكانت قيمة التذكرة بثلاثة شلنات وخمسة عشر بنسًا، وربما كانت هذه صورة غوردون التي علقت فى حجرات شيرلوك هولمز فى شارع بيكر.

وظلت مهرجانات المعارك وصورها مألوفة لأكثر من مائة عام وسوف تظل هذا، وفى كريستال بالاس فى يوليو ١٨٩٩ تم عرض مسرحية مثيرة عن المعارك الحديثة فى الحدود الشمالية الغربية، مثلها جنود من فرقة (The Royal West Surrey Regement) وكان بعضهم يرتدى زى الباثان، وكان هذا النمط من العرض قد تفوق عليه فى هذا العام فيلم أخذه بالكاميرا

صحفى ناشئ من السودان، لكن صوره قد دمرت أو فقدت، وقد تمت استعدادات لتصوير فيلم العودة إلى لندن في أكتوبر للجنود من السودان[١٢]. وتم عرض هذه المادة مثل أحداث عن نتائج حرب البوير فى المعارض ودور السينما الجديدة.

أما أخبار الأحداث من الجبهة بما فيها طلقات من معركة سبوين كوب (Spion Kop) فى يناير ١٩٠٠ فكانت الناتج الحتمى لاهتمام الجمهور فى الحملات الإمبريالية، وقدمت الصحافة الوضعية الجديدة تغطية مكثفة من خلال مراسلى الحرب الذين كان عرضهم واضحًا ومثيرًا، وعلاوة على ذلك كان انتشار شبكة التلغراف يعنى تفاصيل عن المعارك البعيدة والتي كانت تصل بريطانيا خلال أربع وعشرين ساعة، وهو الوقت الذى تستغرقه عن ثورة النوبيل فى روديسيا وزيمبابوي (والتي كانت تظهر فى صحف لندن فى يونيه ١٨٩٧).

وكانت التقارير المثيرة عن خط الجبهة فى الصحف المتداولة مثل مجلات الأولاد الشعبية والقصص والعرض الملون للجمهور عن الإمبراطورية، وقد أظهرت الصور الفوتوغرافية والصور فى الديلى جرافيك خلال ١٨٩٨ ، ١٨٩٧ فى حرب السودان مناظر المعارك المختلفة وخطوط العلاج الطبى المصرى والبريطانى، وهم يعالجون الجرحى من الدراويش. وبالمقارنة لهذه المناظر الإنسانية والهياكل العظمية لرجال القبائل الذين قتلوا بناءً على أوامر الخليفة عبد الله، وعلاوة على ذلك التأكيد على أن البريطانيين كانوا يحاربون من أجل الحضارة، وظهر هذا فى صورة فى يونيه ١٨٩٦ عن الرؤساء المسلمين فى شمال نيجيريا، والذين يحلفون على بأنهم يحاربون وينكرون الرق.

وقد رسم أصحاب الكتب وفنانو الإعلان هذه الأفكار الاستعمارية وصوروها، وكانت النتائج غالبًا تستمر فترة طويلة، ولا تزال تظهر صورة البحارة على علبة السجائر (Plages Navy Cut cigarette) وصارت مقاتلة

حربية من عصر فيكتوريا ماركة مسجلة لعيـدان كبريـت تظهـر عظمـة إنجلترا. لقد أعطت حرب البوير أصـحاب الإعلانـات فرصـتهم، وكـان الجمهور قد لقي حفاوة من الجنود المبتهجين والبحارة الذين يتناولون شرائح اللحم البقرى (Beef) والمسطردا ماركة الكول مان، وكان الرجال الـشجعان والأبطال والفك القوى ورجال الثوارى يحاربون فى ملابس الكـاكى التـى ظهرت فى كل ماركات التبغ والسجائر.

وقاد بوفريل (Bovril) المجال فى الإطراء الوطنى، وقدم طبعة مـن الارتياح ليدى سميث (LadySmith) إلى المشترين لمنتجات، ولو أن شهادات من رجال الجبهة يمكن أن تعتدى فسوف تبقى ذكرى الجيش كله فى جنـوب أفريقيا وقد اعترف أحد ناسخى الصور أن خطابات بوفريـل تتبعـت آثـار خطوط اللورد روبرتس ومسيرته عبر ولاية الأورنج الحرة.

لقد شهدت حرب البوير ازدهارًا غير مسبوق فـى صـناعة الهـدايا التذكارية لكل أعمال بطولية؛ فهناك أزرار مع صور للقادة الرئيسيين، والتي تبرز ملامحهم على كل أنواع أوانى الفخار ولفافات السجائر، وهناك أغنيات لأبطال صالات الموسيقى الذين يتاجرون فى عواطفهم، لقد حـصل البـوير على والدى إلى جنود الملكة، وقد وصلت الانتفاضات الوطنية الجماعية إلى ذروتها فى مايو ١٩٠٠ عندما وصلت أخبار أن مدينة ماكفنج قـد تـم فـك الحصار عنها، وفى كل مكان أثار الإعلان احتفالات عضوية، واحتفـالات وطنية فى الشوارع التي كانت تنطق بكلمة مافنج.

إن هؤلاء الذين خرجوا من الأسر كانوا يحتفلون بشىء أكثر من إنقاذ حصن غير مهم نسبيا، والمزاج العالى الذى أفرزته مساء ليلية مـايو كـان التخلص الجماعى من التوترات والابتعاد عن الخوف الذى كـان قـد ازداد عمقا بسبب الحرب، وخلال شتاء ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ عانى الجيش سلسلة من

النكسات غير المتوقعة والمهينة، واكتشف الشعب البريطاني أنه لن يعود دون هزيمة، وعلاوة على ذلك لم يعد لهم أصدقاء؛ لأن كل القوى العظمى صارت معادية وبالذات فرنسا وألمانيا، وكانت هناك عملية استعادة على أرض المعركة في ربيع ١٩٠٠ التي رفعت الروح المعنوية الوطنية إلى درجة حيث الاحتفالات التي لا تنتهي مستمرة، لكن تلك الضجة لم تمنع الشك الداخلي إلى حد ما فإن الذين أعلنوا انتصار الإمبراطورية صاروا يعبرون في الظلام.

إن أمة مفعمة بكل الثقة في النفس لأربعين أو خمسين عاما منصرمة، والتي صارت القوة الأسمى لتطور الجنس البشري، أصبحت الآن تخشى من شر مرتقب.

حقًا إنه ما بين ١٨٩٠ و ١٩٠٠ نمت الإمبراطورية بنسبة لا مثيل لها، ففي أفريقيا حافظت بريطانيا على سيطرتها في السودان وأوغندة وكينيا ونياسالاند ونيجيريا وروديسيا والترنسفال ودولة الأورنج الحرة، والتي جعلت منها أكبر سلطة استعمارية في القارة.

ومع هذا فإن الصحف والمجلات التي سردت قصة هذه المناطق عجت بتحاليل مشئومة عما كان خطأ في الدولة. إن الجذور السيكولوجية لهذه النظرة النقدية امتدت إلى الوراء جيدا خلال القرن، وكان الهلع المتفشي من الغزو حدثا منتظما، ويصحبها بقصص تقشعر لها النفوس عن كيف أن بريطانيا بكل هذه القوة الخارجية يهزمها عدو جرىء، وعلى سبيل المثال ففي عام ١٨٧١ يصف أحسن البائعين السير جورج تشيستنى (Battle of Dorking) غزو بروسيا وحملة زوبعة انتهت باحتلال لندن، وبعد حرب البوير مباشرة أظهر أيركساين تشليدر روايته المثيرة بوضوح (The Riddle of the Sand) كيف تسلل أسطول ألماني عبر بحر الشمال دون رقابة، ورسا على الساحل البريطاني، وكانت هذه قصصا خيالية كتبت لتصدم الدولة في طلب المزيد

من الأموال النقدية للجيش وميزانية الأسطول، وكان هناك أيضا الكثير من التقييم المحدود لأدائه مع منافسيه، وعلى سبيل المثال كانت هناك عمليات بحث جدية خلال تسعينيات القرن التاسع عشر عن العجز فى النظام التعليمى الذى يبدو أنه يخرج قوة عاملة أقل فى كفاءتها من قوة العمل فى ألمانيا والولايات المتحدة.

وكالعادة صارت قوة الأسطول الهدف النهائى لقوة بريطانيا النسبية فى العالم، ومنذ ١٨٧٨ تبنى الفرنسيون والروس والإيطاليون برامج طموحة لإعادة بناء الأسطول الذى صارت له أجراس إنذار فى بريطانيا، وكانت النتيجة أنه فى عام ١٨٨٩ صدر قانون الدفاع البحرى (Naval Defence Act) الذى أكد مستوى القوتين التقليديتين، والتى تساوى فيه مقاتلات الحربية البحرية تلك التي لدى أقرب المنافسين، وصار هناك سباق بحرى تستطيع به بريطانيا منافسة فرنسا وروسيا فى بناء السفن الحربية، وكانت العملية محكمة فى عام ١٩٨٩ امتلكت بريطانيا اثنتين وخمسين مقاتلة حربية واثنتي عشرة سفينة حربية تحت الإنشاء، بينما كانت فرنسا وروسيا تمتلكان تسعة وثلاثين سفينة وثماني عشرة سفينة فى قيد البناء والإنشاء[١٣].

وفى خلال ست سنوات قدرت المخابرات البحرية أن اثنين من منافسى بريطانيا سوف يتفوقان عليها، ولم تهتم لهذه التقارير ألمانيا التى صار لديها سبع عشرة سفينة حربية وخمس تحت الإنشاء.

ومع تقدم التنافس البحرى فى الوقت الحاضر أدركت الإستراتيجيات البريطانية أن دولتها لم يعد لديها السفن الكافية لتكون راسخة فى كل مكان.

وظهر العجز بشكل واضح وخطير فى البحر المتوسط، وفى عام ١٨٨٢ أبحرت سفينة روسية عبر البسفور وانضمت إلى الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط فى قاعدته فى طولون، وهى إشارة خططت لتعلن التحالف الجديد بين القوتين وإثارة أعصاب إنجلترا، وحدث بالفعل أن اضطر الأسطول البحرى للاعتراف بذلك معلنا حربا ضد فرنسا وروسيا.

ولم يستطع الأسطول البريطانى الاستيلاء على البسفور، وهكذا صار الأسطول الروسى فى حالة حرب للانضمام لحليفه عندما تكون هناك حالة طوارئ، وبعد عام أعلن تشامبرلين فى مجلس العموم أن الاسطول الملكى توقف عن السيطرة على البحر المتوسط.

لقد تعرضت عملية تغير موازين القوى فى البحر المتوسط لخطر على قناة السويس، وعلى هذا هددت الهند، وهنا فإن ظهور القوات الروسية على حدود أفغانستان فى عام ١٨٨٥ أعاد الخوف من أى غزو، وصار هذا ممكنا أكثر من إقامة خط السكك الحديدية فى وسط أسيا، والذى ربط المنطقة مباشرة مع قلب روسيا إلى الشمال.

وكان الأكثر تهديدا من الكل حسب وجهة النظر الهندية خط أورنبرج إلى طشقند الذى بدأ فى عام ١٩٠١، وخلال ثلاث سنوات صار على بعد ٢٤٠ ميلا فى نهايته، وجعل شبكة سكة الحديد الروسية داخل مسافة مهمة من حدود الأفغان، وحيث أن روسيا تحتاج إلى وسيلة نقل وتزويد جيش جماعى للهجوم على الهند- فإن المصممين فى دلهى ولندن حاولوا حل مشكلات الدفاع عن شبه القارة، ولم يصلوا إلى حلول محددة سوى أنه إذا كان على القوات الإنجليزية الهندية أن تسيطر على ممرات أفغانستان، فإنها تحتاج إلى تعزيزات قوية من بريطانيا، والتي ستنتقل بحرا عن طريق قناة السويس أو طريق رأس الرجاء الصالح، كما أن الأمر يحتاج إلى قوات إضافية

للحفاظ على النظام فى الهند؛ حيث إن من المتوقع أن غزو روسيا سوف يقضى على الاضطرابات الجماعية.

ويبقى هناك الحقيقة غير المريحة أنه فى حالة هجوم على الهند فإن روسيا ستعبئ ٣٠٠,٠٠٠ رجل خلال ثلاثة أشهر وتتحكم فى خط ما بين كابول وقاندهار، وتتطلب مكانة إنجلترا موقفًا عدوانيًا فى أفغانستان، ولكن لا يوجد طريق لمعرفة كيفية تصرف الأفغان لقوة رد الفعل أمام هذا التدخل. وعلاوة على ذلك فإن نشوب حرب البوير جعلت الهند عرضة للسقوط فى أيدى الأعداء؛ لأنه مع نهاية العمليات فى جنوب أفريقيا فإن على بريطانيا أن تجهز ٢٩٥,٠٠٠ جندى وقوات من المتطوعين لهذا المسرح، وساعد وجود الآلاف من الكنديين والإستراليين والنيوزيلنديين فى هذا الأمر لكنهم لا يستطيعون إخفاء حقيقة أن خط المعارك الإمبراطورى امتد إلى نقطة الانكسار، وهناك هجوم سيئ لكن غير متوقع من جانب المتهجمين تعصبًا، عندما تلقت وزارة الحرب فى فبراير ١٩٠٠ من المخابرات أن تكتلات روسية بالقرب من حدود أفغانستان[١٤].

إن الهجوم لم يتبلور، ولكن الدرس كان واضحا لو تحرك الروس ضد الهند فإنه لا توجد قوات كافية لمواجهتهم- لقد دخلت بريطانيا القرن العشرين باعتبارها أعظم قوة استعمارية على الأقل حسب المنطقة والسكان.

وقد جسّد الحقيقة رجال السياسة والصحافة، فضلا عن السطحية حول نشر الحضارة لهؤلاء الذين يفتقدونها، وهناك أيضا مجرى دائم ومنتظم من الدعاية التي أكدت العظمة القومية والطبعية وقوة شخصية الأنجلو ساكسون، إن أثر كل هذا يصعب قياسه بدقة، وبالتأكيد تعرض الكثيرون إلى كتابات هنتى وزملائه الذين اقتنعوا أن العضلات تهم أكثر من العقول. وإن أعدادًا كثيرة منهم تصرفت بطريقة أثبتت أن أبطال شبابهم قد برزت عندما تطوعوا للحرب فى عام ١٩١٤و١٩١٥.

لقد حزن البعض ومعظمهم من اليسار نتيجة الاندفاع والاتجاه الحزبى للاستعمار الجديد، واعتقدوا أن النواحى العسكرية صارت مكشوفة، وقللوا من القيم الأخلاقية القومية. وتأسف أحد النقاد بأن رجل الأعمال فى تسعينيات القرن التاسع عشر يسأل سؤالا هل هذا مناسب ومربح؟ على عكس سابقه من منتصف العصر الفيكتورى الذى سأل هل هذا صحيح؟ ومن المشكوك فيه بشكل كبير ما إذا كان الأخير عالى الذكاء، ولكن السنوات من منتصف القرن قد أصبحت بالفعل عصرا ذهبيا فى عيون الليبراليين والتجارة الحرة من النمط القديم، وكان من بين أخطاء العصر الجديد أن طبقة وسطى قد انغمست فى تخبط تطلبه الغزو الجديد لمناطق وأعمال عدوانية مستمرة.

وإن البشاعة والهمجية التي غير الرجل العامل مها حق ميلاده فى الحرية والفكر الحر بضربة على الرأس من أى سيد تربى على اللحم وشق طريقه ويتكلم بطلاقة عن ابتذال الوطنية الكوكنية (Cockney Patriotism)(٤٠).

إن هذه الوطنية الكوكنية تستطيع أن تطرق أصوات هؤلاء الذين يعتقدون أنهم يتحدثون بالمنطق، ولكن يسكت بسرعة عندما لا يوجد ما يحتفلون به، ولم يعد هناك أى ما فكنج خلال حملة ما ضد الحزب فى جنوب أفريقيا والتي استمرت خلال ١٩٠١ ومنتصف عام ١٩٠٢.

فأحيانا يتعجب السياسيون عما إذا كانت نزوة الرأى العام وتحوله سيمنعهم من استمرار السياسات طويلة المدى التي كانت مطلوبة لإعادة تجديد الدولة وتدعيم الإمبراطورية.

وكلاهما مطلوب بشكل عاجل لأن القرن الجديد أوضحها برغم كل المبالغة والغلو فى الوطنية فإن التفوق الكونى السابق لم يعد مسلمًا به، وشعر كيلنج الذى صار يشعر بالعمالة الجديدة وعزف صورة تحذيرية كئيبة في:

اللــه فى عون أجدادنا معروف منذ القدم

سيد معارك خطوطنا

وتحت يديه المخيفة التى تمسكها

والمنيوف فوق الأشجار

واللـــه سيدنا معنا وضيفنا

خشية أن ننسى - خشية أن ننسى

يموت الشغب والصياح

ويرحل الملوك والقباطنة

ولا تزال تقف تفحتيد القديمة

وقلب وضيع واللــه معنا سيد الضيوف

خشية أن ننسى - خشية أن ننسى

إذا كان محاطًا بمنظر القوة التى نفقدها

وليس لدينا السنة متوحشة

التي لا نملكها فى خوف مثلث

مثل التفاخر الذى يستخدمه العظماء

أو أقل سلالة بدون القانون

ملك لكن معنا

خشية أن ننسى - خشية أن ننسى

(٤)

معجزة العالم

الهند (١٨١٥ - ١٩٠٥)

إن معرض إمبراطورية الهند الذى افتتح فى صالة إيرل كورت Earl's Court فى عام ١٨٢٥ قد أسر لب أهل لندن، فلقد كان شىءا إمبراطوريا استثنائيا غريبًا يتناسب مع طبيعة القصور لكل من المتعلمين أو الهواة، وأعيد إخراج المناظر الهندية الطبيعية، وكانت هناك عروض عكست دويلات الهند الماضية والحاضرة، وكانت الفكرة العامة واضحة، فالهند الحديثة نتاج العبقرية والصبر البريطاني، وصور هذه الحقيقة بشكل شامل موكب هندى يؤدى يوميا فى مسرح الإمبراطورية القريب، وكانت ذروة العرض عرضًا براقًا بعنوان التمجيد الأعظم، التأليه الأعظم للإمبراطورة الملكة، وظهرت الإمبراطورة الملكة فى عربة أسطورية تجرها خيول بيضاء، وترافقها شخصيات رمزية للحب والرحمة والحكمة والعلم والفن والتجارة والرخاء والسعادة[١].

وكان جمهور المشجعين المنبهرين قد ترك وهو يتحول عبر الحدائق الهندية، يتناولون الطعام فى بيت النهار الهندى؛ حيث إنهم بلا شك سيعيشون فخورين بإنجازات وطنهم، إن الهند البريطانية ليست سوى معجزة العالم حسب قول الماركيز كيرزون الذى عين نائب رئيس المملكة فى عام ١٨٩٨[٢].

حقا لقد كان هناك شيء ما معجز حول الطريقة التى لا تقل عن مائة ألف من الجنود والحكام يتحكمون فى مائتين وخمسين مليون عبد، وتمتلك الهند أيضًا عناصر الغموض والعظمة التى توضح العصر الفيكتوري، وشعر كل واحد أن حكم الهند منح بريطانيا القوة والعظمة، وعلاوة على ذلك كان واضحا فى عروض إيرل كورت Earl Court أن كل شيء حسن فى الهند جاء من التأثير البريطانى وإن ما حدث هناك خلال مائة العام الماضية كان دليلاً قاطعًا ومؤثرًا على مهمة التمدين البريطانية، وبالنسبة لكيرزون فإن حكم الهند كان إنجازا كتوكيل ومنحة من الله.

إننى لا أرى كيف أن الإنجليز يقارنون الهند بما كان عليه أو سيكون، لن يعجزوا عن فهم أننا جئنا إلى هنا طاعة لما أسميه قرارًا من المشيئة الإلهية من أجل الفائدة الدائمة لملايين من الجنس البشري[٣].

ومع ذلك فلم يكن ما يسميه الهنود الحكم البريطانى ممارسة أعلى إيثارًا للقومية العليا برغم أن الكثيرين أمثال كيرزون يفكرون فيه، لقد كان البريطانيون يعتمدون اقتصاديًا على الهند خلال القرن التاسع عشر، ولقد صارت الهند سوقا لا مثيل لها للسلع البريطانية المصنعة خصوصا المنتجات القطنية، ومع حلول عام ١٩١٣ فإن ٦٠% من الواردات الهندية كلها كانت تأتى من بريطانيا، كما أنها تمتص ٣٨٠ مليون جنيه إسترلينى من رأس المال البريطانى أى عشر استثمارات الدولة كلها.

لقد أنقذت الهند التجارة البريطانية خلال السنوات الكبيسة من أواخر القرن التاسع عشر، حيث تأخذ السلع التى كان قد تم بيعها من قبل فى الأسواق الأوربية[٤]، وكانت عملية تحديث الهند وتمدينها التي نالت رضا العصر الفيكتورى أمرًا حيويًا لتسوية الحسابات داخل الوطن.

ويعد تاريخ الهند منذ ١٨١٥ كما يحكيه البريطانيون تطورًا منتظما من أعماق الفوضى والجهل والتخلف نحو قمم النظام والتقدم المادي، ومع ذلك فإنه فى كثير من الأحيان فإن الشكوك حول غموض الوضع البريطانى فى الدولة، وكيف يكون الوضع فى دولة ذات تقاليد ليبرالية؛ اقتناع عميق حول الحرية الشخصية التي يمكن الحفاظ عليها فى إمبراطورية ذات سلطة تعتمد فى النهاية على القوة.

والإجابة هى أن القيود على الهنود كانت تنطبق بشكل إنسانى على نظام مكرس من أجل أفضل مصالحهم، ودافع هيربرت إدواردز عن الطريقة الأبوية الاستبدادية، والذى كان يعمل بناء على توجيهات من مبادئها باعتباره مندوبًا ساميًا فى عامى ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ "لا توجد قوانين هناك، وإن الذى يحكم يجب أن يحكم الناس بحسب رغبته، وإذا كانت إرادته سيئة فإن الناس سيكونون أكثر ثبوتًا من أى شعب يمكن أن يكون، ولكن إذا كانت رغبته حسنة وقوية سوف يكون الناس سعداء؛ لأن الطغيان والحكم المطلق المفيد هو أفضل من كل الحكومات[٥]".

لقد صار التنوع فى هذه الفكرة معيارًا للدفاع البريطانى (السراج) للأعوام المائة القادمة، وكان هيكل الحكم الهندى يعني تركيز السلطة فى أيدى عدد قليل من الرجال، لكن إحساسهم بالواجب ومعايير الأمانة لم تكن تتصرف بالضغط أو إكراه رعاياهم، وقد تم تطوير هذه الصورة الذاتية بشكل صعب سواء فى بريطانيا أو فى شبه القارة الهندية، وهى تحمل الكثير من الصحة، ومع ذلك فإنه عند تطبيق عملية التنوير، وجد حكام الهند أنفسهم يواجهون مقاومة من الرعايا الذين لا يرون الأشياء بنفس الطريقة، وكانوا متحمسين وميالين بشكل عميق لعادات احتقرها أسيادهم، وصار الالتحام والصراع بين الحكام والمحكومين حتميا؛ لأن الحكومة الهندية وجهت اهتمامها نحو ما اعتقدت أنه تحرير الهند من ماضيها.

وبعد عام ١٨١٥ انتهجت الشركة القديمة، مبدأ عــش ودع الآخــرين يعيشون، لحكم الهند، واستبدلت ذلك بنظام يركز بشكل كبير علــى إعــادة تشكيل الدولة حسب القواعد الغربية، وصارت الهند نوعــا لمعمــل رجــال نظريات ليبرالية أنجليكانية بريطانية حديثة، والذين يبحثون بطرق شــتى فى إعادة تجديد الجنس البشري كله. وأراد جــون ميــل (Mill) وهــو مــؤرخ وصحفى وفيلسوف ومنذ عام ١٨٢٣ صار بيروقراطيا فى لندن، وفوق كــل شيء، قرر أن يحرر العقل الهندي، وكانت الديانات الوطنية العقبة الرئيسية فى هذه العملية.

ومن خلال نظام كهنوتى مبنى على خرافات مصدرًا للهزاب لم يقبلــه الجنس البشرى؛ حيث كان عقل الهنود مكبلا أكثر من أجسادهم، وباختصار كان الحكم المطلق والكهنوت معا قد جعلا الهندوس ذهنيا وجــسمانيا أكثــر عناصر الجنس البشرى استعبادا(٦).

وعن طريق استخدام هذه القوى الديكتاتورية حاول الحكام الرســميون والبريطانيون المخلصون إزالة هذه القيود الخارقة للطبيعه على الفكر الهندى وقد تنبأ الشاعر والمؤرخ توماس ماكولى الذى صار رئيسا للجنة تشكلت عام ١٨٣٣ لدراسة السياسة التعليمية المستقبلية فى الهند بأن الهندوكيــــة سوف تتوارى وتختفى كلما انتشــر التعليم الغربى عبر الدولة(٧).

ومن أجل الإسراع بهذه العملية جعل كل التعليم باللغـــة الإنجليزيـــة، وحسب النصوص البريطانية، وادعى بنظرة ثاقبة ملحوظة أن عرض الأفكار البريطانية وأنماطها فى التفكير سوف يولد بمرور الوقت طبقة مثقفة ممتازة هنديه تطالب بالحكم الذاتي، وبعد بضع سنوات أشار الحاكم العام اللورد لين بورو (Ellenborough) وكاتب هندى يتحدث الإنجليزية "أنت تعرف أنــه إذا نجح هؤلاء الشباب فى تعليم مواطنى الهند حسب أسمى رغباتهم فإننــا لــن نشكل فى الدولة ثلاثة أشهر، وكان الرد لا يزيد على ثلاثة أسابيع(٨)".

ولقد تأسست مدارس على النمط البريطانى يـديرها رجـال بعثـات التنصير فى الهند، مع منتصف عشرينيات القرن التاسع عشر، وكان الضغط الأنجليكانى، ومن بين الآخرين ولبرفورس، قد أغرى الشركة بـأن تـسمح لرجال التنصير فى مناطقها برغم الخوف من حركة ردة إسلامية، ومع هذا سمح المديرون لأنفسهم أن يكونوا تحت سيطرة مناقشات اللوبى التبـشيرى بأن التغيير والاعتناق سوف يقدمان ويطوران الحضارة ويخلقان عملاء جدد للسلع البريطانية.

ولقد كان هناك جهل تام فى فكر هؤلاء الذين تخيلوا أنهم يـستطيعون إعادة تشكيل الهند حسب النمط البريطاني؛ ظهر الفكـر العـالى والـدعوة للتحسين مثل الغطرسة الفضولية، وكان كل هذا واضحًا فى الإحتقار العـام للثقافة الهندية والديانات القائمة.

فالهندوسية ونظمها السائدة لقيت أسوأ أنواع الإهانة، وأعلن أحد الذين تزعموا التقدم أن أتباع الشرك وتعدد الآلهة أظهروا جهلا وسذاجة تصل إلى حد الحماقة(٩).

والأسوأ من ذلك أن بعض الهندوس يلتزمون بشدة بعقيـدتهم بـرغم التعاليم الغريبة، وفى عام ١٨٢٤ أحس الأسقف هيربر (Herbar) بانقسام فى عمليات الولاء بعد أن أبرز تلميذ فى مدرسة إرساليات ضريح شيفا (Shiva) وشرح مختلف أساطير الآلهة الهندوس والآلهات وقد شوه حمـاسُ حديثـه رجال الدين الذين تعجبوا بعد ذلك؛ عما إذا كان أطفال الهنـود وتلاميـذهم سيتعودون على النفاق ويلعبون دور المسيحى معنا، ومع شـعبهم وحمـاس أتباعهم من البراهما(١٠).

وكان غضب رجال النظريات الدينية والسياسية البريطانية قد دفع الشركة إلى تبنى سياسات الطريقة الأبوية الرحيمة التي بحسب طبيعتها أربكت المجتمع الهندى، وتم التخلى عن عدم التدخل فى العادات الوطنية، وتم القيام بحملات ضد الطقوس الدينية التي أساءت لمشاعر الأوربيين. وفى ظل حكم اللورد وليم بنتينك (William Bentinck) الحاكم العام من ١٨٢٨ حتى عام ١٨٣٥ تم انتهاج إجراءات منهجية للقضاء على الثاجى (Thagi) والعقيدة الهندية للكهنة الذين يتخذون المسافرين ضحايا الساتي Sati كما أن عقيدة الثاجز Thugs كما كانوا يسمونها قد تم القضاء عليها بالوسائل الملائمة كما كانت الساتى Sati برغم أنه توجد بعض المناطق المنعزلة والتي لم تكتشف فى عشرينيات القرن العشرين(١١).

وفى نفس الوقت فإن موظفى الشركة قد وجدوا تشجيعًا بعدم الانزلاق والابتعاد عن اختلافات الهندوس وطقوسهم، والتورط فى إدارة معابدهم؛ فبرغم كل هذا كان لا بد من إبراز التسامح السلبى علانية للديانات الوطنية، ونشر كتاب مصغر للنصائح والإرشادات للشباب عام ١٨٣٣ أنه يجب إظهار قبول الديانات الأخرى حتى لو كانت غير سليمة، وكان هذا صعبًا على المؤلف الذى اعتمد على الاحترام الذاتى للهندوس وللمسلم المتعصب، وصارت مثل هذه التغيرات أكثر شيوعًا فى الأعمال البريطانية فى أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر وثلاثينيات القرن نفسه، وكانت بمثابة إشارات عن الفجوة المتزايدة بين البريطانيين والهنود.

وكانت عملية تخفيف الممارسات الجنسية بين البريطانيين والنساء الهنود أحد مؤشرات التغير فى الآراء الجنسية، والتى كانت شائعة بشكل كبير طوال القرن الثامن عشر، وفى أحد المستويات فإن مثل هذا السلوك كان إهانة لأحد الأخلاقيات الوطنية، وعلى هذا فهذا غير مناسب لرجال

مهمتهم الأساسية الخدمة كمديرين وقواد محايدين، وقد أثارت أحاسيس رجال الدين البريطانيين الذين نظروا إليه باعتباره مدمرا تماما، وفي عــام ١٨١٦ اشتكى أحدهم بأن الشبان المسيحيين يجحدون احتقــارا خلقيــا فــى الهند ويخضعون لكل الإغراءات حتى لدرجة ترك عقيدتهم(١٢).

وبعد ثماني سنوات كان رجل الدين هيربر سعيدا عنــدما لاحــظ أن الإبقاء على النساء الوطنيات لم يعد ظاهرة بعــد بــين شــباب المــوظفين الرسميين في كلكتا برغم أن الانحلال فى هذه العملية وغيرها قد اختفى فــى أحياء بعيدة (١٣).

وكان الميتكالف عالى المبادي (Metcalf) برغم تقديره الكبيــر لهــذا الحب النقى الذى يتواجد بين الرجال والرجال، كان لديه ثلاث بنــات مــن النساء الوطنيات، وكان لدى الجنرال أونسترلونى المقيم فى دلهى من ١٨٠٣ إلى ١٨٢٥ حريم من ثلاث عشرة من المحظيات(١٤).

وهناك الكثير من الذين يتدخلون في شئون غيــرهم ويفعلــون مــا يستطيعون من أجل القضاء على مثل هذا الانغماس فى الملذات، ولكن أثبتت العادات القديمة أنها ارتداد، وبدأ الموظفون الشبان الذين وصلوا لأول مــرة إلى الهند عام ١٨٣٤ يستعيدون كيف أنه بدأ الدخول فــي علاقــات غيــر مشروعة مع بنات وطنيات، بشكل غير ممنوع، واللاتى فهمن فــى أثنــاء الممارسة كل فنون الحب وخدعه، وبعد ذلك سلك نفس الطريقة آخرون أمثال المستكشف وعالم الأنثروبولوجيا السير ريتشارد بيرتون والفيلــد مارشــال اللورد روبرت ووسلى(١٥).

ويمكن أن نبرز مسلك هؤلاء الضباط حقيقة إنهم كانوا فى حاجة إلى معرفة لغات هؤلاء الذين يتولون قيادتهم، وإن أى خطــأ يمكــن أن تعمــل

كمدرسة، وكان الهنود الذين يعملون فى الجيش البريطانى حتى مرحلة الإصلاح- الدعامة الأساسية لحكم السراجا الهنود؛ لأن عددًا كبيرًا من موظفيها كانوا سريعى الإشارة، وفى عام ١٨٣٧ يرفض الشخص أى اقتراح تافه بأن الإمبراطورية على رأى واحد بأن تقوم على النية الوطنية الحسنة أفضل من الاعتماد على القوة المسلحة(١٦).

وكانت حقبة الإصلاح الداخلى المؤقت داخل الهند أيضًا واحدة، ودعمت فيها الشركة نفوذها ووسعت سلطاتها، وفى عام ١٨١٨ اضطر الماهراتا على الاستسلام، وفى عام ١٨٢٤ تم ضم جزء من الممالك المستقلة فى بورما بعد حرب قصيرة، وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر اتجه الاهتمام نحو الحدود الشمالية للهند ودول السيخ القوية فى البنجاب وإمكانية غزو روسيا، وكان السؤال عما إذا كانت الحدود الهندية تقع على الأندوس Indus أو تتزحزح إلى الأمام فى أسفل تلال الهيمالايا، حيث تتجه الممرات من واد ضيق إلى سهل فسيح، وقد تم الاتفاق عموما فى كلكتا على أن أمن الهند يتطلب فاصلاً عازلاً يضم أفغانستان.

وفى عام ١٨٣٨ كانت هناك محاولة لتحويل هذه الدولة إلى مناطق تابعة للهند، وقد انتهت بكارثة بعد ثلاث سنوات، عندما تم استرداد حصن كابول وتم القضاء على كل شيء خلال تراجع شتوى حتى ممر خيبر Khyber وقد أفسد الارتداد والتقهقر المهين بريق العظمة والكرامة البريطانية وأمر الحاكم العام اللورد إلين بورو الجنرال السير جورج بولوك ليسترد شهرته وصيته من خلال سلسلة من الغارات فى أعماق منطقة أفغانستان حيث تم تدمير القرى والمحاصيل والماشية.

وأعطى اندفاع المياه بشدة فى الأفغان (Afghan) السبب القوي للحكومة لإبراز عضلاتها ضد أمراء البالوشى (Baluchi) فى السند والسيخ،

وكان الأخيرون أكثر تهديدًا بالخطر؛ لأنهم يمتلكون الكالاسا (Khalsa) وهو جيش حديث ومدرب بشكل منتظم ومجهز بأحدث الأسلحة لخبراء ومختصين أوربيين (مستوردين)، والذى يدهش كل من يلتقى به، وعرف الجنرال السير هارى سميث سرعة إطلاق النيران ودقة بنادق السيخ، وهى تعادل تلك التي لدى نظرائهم من الفرنسيين خلال الحرب فى شبه الجزيرة (Peninsular)(١٧).

وقد قدّم ضابط آخر كان حاضرًا أثناء حصار المولتان (Multan) فى عامى ١٨٤٨ - ١٨٤٩ أعلى التحية والتهنئة لمشاة السيخ بالقول إنهم شاركوا فى معركة مثل البريتون (Britons)(١٨).

وتطلب ترويض رجال قبائل البالوشي وإضعاف سلطة السيخ ثلاث حملات محاربة قوية، أحداها ضد السند فى ١٨٤٣ واثنتان ضد السيخ فى عامى ١٨٤٥ ، ١٨٤٦ وعامى ١٨٤٨ ، ١٨٤٩، وقد تم تنفيذ كل الحملات تحت قيادات تمتاز بالثقة فى النفس وروح الهجوم بنفس قوة سابقيهم فى القرن الثامن عشر، ولم يستسلموا للبرابرة، وكان الشعار الجنرال السير تشارلز نابير (Napier) عندما واجه جيشه المكون من ٢٤٠٠ جندى قوى مع ٣٥,٠٠٠ بالوشى فى معركة مينى (Meanee)، ووضع رجاله خلف حواجز من القش القوى وجمال قوية، ووضع ثقته فى الرجال الأيرلنديين من الكتيبة البريطانية الخاصة به (الثانية والعشرين)، وكانوا أقوياء فى البنية الجسمانية ومتوحشين ودماؤهم حاضرة، فضلاً عن الجنود أصحاء الذين كما كان متوقعًا تدريبهم على إستخدام السهام والأسلحة الصغيرة والحراب المصوبة بدقة(١٩).

وعندما انهزم الأمراء واستسلموا أرسل نابير رسالته المشهورة المليئة بالثورية والتلاعب بالألفاظ إلى كلكتا قائلا "لقد ارتكبت خطيئة" وأكد النصر فى معركة ميانى الاعتقاد الذى لا شك فيه أن السلطة البريطانية فى الهند تعتمد على قوة احتمال الجندى البريطانى وشجاعته، وقد تم تجربة الضفتين

إلى أقصى درجة خلال العمليات ضد السيخ، ويرجع ذلك أساسا إلى العمل غير المتقن للقائد العام اللورد جوه (Gough)، وحسب رأى السير هارى سميث فهو رجل مسن وغبى وعنيد، وخشd سميث ألا يكون رجاله عند مستوى اندفاع فوهات المدافع؛ لأن الجنود مثل الكلاب والخيول (المستوردة) التي تدهورت من جون بولز (Bulls) بعد مقاومة طويلة في السهول الوعرة في مناخ مريح[٢٠].

وكانت مخاوفه على أسس قوية بعد النصر في معركة اليوال (Aliwal) وكان على القوات البريطانية أن تنسحب من البنجاب بسبب الموسم الحار، ورغم هذا كانت الثقة بالنفس في أعلى مراحلها خلال حملة السيخ الثانية، وفي بداية معركة شليان في يناير عام ١٨٤٩ وقد استمع خلسة لجنود بريطانيين يناقشون القتال القريب بنغمة من السيادة والتفوق[٢١].

وأثناء المناوشات المعاصرة لخطوط الحصار في مولتان (Multan) فوجئ هيربرت إدواردز بشراسة الجندى البريطاني في الصراع المتبادل، وشبهه بالصراع المميت بين الأسد والنمر في عرين غابة، يشبه التشابك بالأيدى في المصارعة بين جندى بريطاني شاحب اللون مع أحد السيخ الداكن في لون بشرته.

ويدين الجنود البريطانيون في البنجاب ببعض قوتهم إلى حقيقة أنهم حملوا جزءًا من المسافة إلى المعركة في بعض الأحيان، في بعض المراكب تدفعها المجاديف في المياه الضحلة، واستخدمت سفن الهندوس في السند والبنجاب، وكان هذا إشارة للسرعة لدى الشركة لاستخدام التكنولوجيا الجديدة للثورة الصناعية، وقد تم استخدام سفينة خلال حرب بورما لعام ١٨٢٤ بشكل عملي كبير وسيكولوجي "لاحظ السكان الدخان وسمعوا الصوت الذى لم يسمعوه من قبل، وتخيلوا أننا نحضر بعض الآلات الجهنمية لتدميرهم،

وهربوا فى كل الاتجاهات نحو السهول حاملين معهم الأشياء الخفيفة التي يقدرون قيمتها[٢٢].

كان الارتباك والذعر والخزى ردود فعل عامة لكثير من الهنود الذين أدركوا التغيرات الواضحة فى حياتهم، والتي أدخلتها حكومة حماسية ولديها إصرار وعزيمة قوية حاولت القلة تغير النظام الجديد وتقادية، وفى أوائل عام ١٨٣٢ تم اكتشاف مؤامرة مخيفة لذبح الأوربيين وبنجالور، وقد استغل زعماء المؤامرة الخوف بأن الحكومة كانت تستعد لتحويل الجموع من المسلمين إلى المسيحية، وتذكيرًا بهذه الضربة العنيفة المؤلمة بضعف وهشاشة السلطة البريطانية، وحولت السلطات المحلية عقوبة الجريمة الكبرى إلى مكافأة عامة.

لقد تم اصطحاب أربعة من المتهمين من الجنود الهنود المعنيين والذين يعملون فى الجيش البريطانى إلى مكان تنفيذ الحكم، وتعزف الفرق العسكرية موسيقى "المسيرة الجنائزية: (Dead March) من هاندل سول (Handel Saul) وتم ربطهم بقوة المدافع ونسفهم.

وحسب رأي مدير البوليس أثار هذا المشهد رعبا كثيرا فى كل الأوساط المدنية والعسكرية، وشعر أنه سيمر وقت طويل قبل أن تظهر علامات أكثر من المقاومة[٢٣].

وبسرعة تم استبعاد هذه الواقعة كمثال لعصيان الشخصية الوطنية والسذاجة الخاصة للمسلمين الذين يقبلون بسهولة أية شائعة برغم أنها منافية للطبيعة والعقل.

إن طريقة التنفيذ التقليدية للأحكام فى الهند قد صورت أيضا بشكل مأساوى المفارقات الداخلية للطغيان الذى يتباهى تلقائيا مع إنسانيته وتنويره،

وفى ذلك الوقت كان ذيوع عملية التنوير الغربى قد أصبح أحد الأغراض الرئيسية للحكومة.

إنها مهمة لم تكن محسوبة تماما، حيث لا توجد أى إدارة رسمية فى كل شبه القارة كله، وفى فترة حكم الشركة القديمة فى السنغال ومدراس وبمباى وتوابعها يمارس السلطة قضاة الأحياء وجامعو الضرائب، بينما فى مناطق أخرى حكم الأمراء الوطنيون تحت إشراف المقيمين البريطانيين، وكان يضيع جزء معقول من الطاقة والنشاط الإدارى فى جمع دخل الأرض من الفلاحين فى الريف، وفى أدنى المستويات كان ذلك يتم من خلال ملاك الأرض المحليين والإقطاعيين، وقد رسخت سلطاتهم وازدادت خلال أواخر القرن الثامن عشر عندما أرادت الحكومة أن تحصر تأييد رجال السلطة والنفوذ، ودرس المصلحون بمن فيهم ميل (Mill) هذا النظام وقارنوا جامعى الضرائب بالأطباء الجراحين، ولكن لم يوجد أى بديل آخر، ففى السنة المالية ١٨٦٥ – ١٨٦٧ كان دخل حكومة الهند ثلاثين مليون جنيه تقريبا منها ١٧,٧ مليونا من دخل الأرض، وسبعة ملايين من ضريبة الملح واحتكارات الأفيون، وعلى هذا يعتمد نظام الراج على قدرة موظفيها فى استخراج الفائض البسيط من الفلاحين الذين يعيشون فى أحسن الأحوال عيشة من اليد إلى الفم، وكان العائد النقدى يزود كل المشروعات التي تمول وتحسن دولتهم، وكانت ضرائب الأرض تمول مصاريف المدارس وتبيد الطرق التى كانت منذ ١٨٣٦ وما بعدها؛ كمد شبكة المواصلات من مراكز التجارة والإدارة الكبرى، وبعد عشرين عاما شمل برنامج استثمارات الحكومة شبكة سكك حديدية بطول ثلاثة آلاف ميل، وتربط كلكتا مع دلهى، ودلهى مع بيشاور، وبومباى مع فاجبور، ومع بداية ١٨٥٧ تم بناء ثلاثمائة ميل لوسائل النقل، قبل أن يتوسع المهندسون فى الطرق المتعامدة فى الدولة،

فضلاً عن أربعة آلاف ميل من خطوط التلغراف، وترمز خطوط السكك الحديدية وخطوط أسلاك التلغراف إلى المسيرة الأكيدة، للتقدم ربما أكثر من المدارس والكليات والمستشفيات التعليمية التي تظهر بشكل واسع في عواصم الأقاليم، وبالنسبة للهنود الذين حاولوا فهم معناها وقياسه، فإن هذه التجديدات كانت مصدرًا للقلق، وكلما أسرع معدل التغيير بدأت تؤثر في مناطق جديدة من الحياة اليومية؛ فإن الخوف القديم والدائم من الاعتناق الإجبارى لمبادئ جديدة صار أقوى، وفى يناير ١٨٥٧ عندما أحرقت مجموعة من الجماهير مكتب التلغراف الجديد فى باراكبور (Barrack Pore) قد فعلوا هذا لأن المبنى يرمز إلى التغيير الذى فرض من الخارج من خلال سلطة أجنبية.

وخلال عامى ١٨٥٦ ، ١٨٥٧ صدر أمران جديدان لقصص اعتناق المسيحية، وهناك تقرير أساسى أن بندقية إنفيلد (Enfield) قد تم تشحيمها بدهون وشحم الخنزير ودهن اللحم البقرى، وأن نسبة من الدقيق أضيفت إلى غذاء الجنود الذين يخدمون فى الجيش البريطانى فى البنغال، وكانت الشائعات غير صحيحة، لكن الذى حدث أن هذا أكد الخوف المجهول بأن المسيحية على وشك أن تفرَض وتنتشر.

وكان المسلمون والطبقات العليا من الهندوس فى جيش البنغال يشكون فى هذه الأفكار، وقد استهانوا بالتنظيمات العسكرية الجديدة التى وضعت لإظهار الكفاءة، وأنهم فوجئوا بسياسة جديدة من التجنيد للأجناس التقليدية المحاربة فى السند والبنجاب، أما الجنود الذين يعملون فى الجيش البريطانى وولدوا فى منطقة أود Oude، حيث كانت الجندية تعد عملاً محترمًا للبراهميين، حيث لا يوجد أى مصدر من العمل المحترم سواها، وقد أضاف هذا عبئًا إضافيًا، وفى عام ١٨٥٣ قام الحاكم العام اللورد دالهوسى (Dalhousie) الذى تجاهل حقوق النواب الهنود فى اختيار وزنتهم

"نانا صاحب: Nana Sahib" وقد أعطى هذا دليلا آخر على أن الحكومة لـــن تعترض طريقهم، وقد انفجرت على السطح هذه الأمور من التيارات القويـــة والغضب في ميروت Meerut في الأسبوع الأخير من مايو ١٨٥٧ بعد إهانة أحد الجنود الأسباهية ومعاقبته لرفضه لمس البنادق وتنظيفها، وثـــار أحـــد رجال الفروسية وثلاث كتائب من المـــشاه، وقتلـــوا عـــددا مـــن الـــضباط وعائلاتهم، وهرع المتمردون إلى دلهي واستولوا على المدينة وأعلنوا تعيين بدهور شاه (Badahur) المسن وأحد سلالة المغول إمبراطورًا علـــى الهنـــد وانتظر المتمردون فترة لرؤية رد فعل أبنـــاء وطنهم وحكامهم.

لقد تحدى الرجال جنوده الخاصين تلقائيا، وأصبح كل واحد مندهشًا في الحال، لقد كانت الكرامة محل نظر وكان رد الفعل البريطاني هجومًا مضادًا مهما كانت المخاطر، ولكن لم تحدث ضربة مباشرة على دلهي حتى الأسبوع الثاني من يونيه عندما تجمعت قوة انسحبت من أربعة آلاف رجل بسرعة في البنجاب، ووصلت إلى خارج أسوار المدينة، وبدأت حصارا عليها، وقـــرر المديرون والقواد في الأماكن الأخرى أن يرابطوا بشدة ومثـــل المتمـــردين الأوائل انتظروا الأحداث.

وقد تم احتقار جنسهم، ولكن هناك القليل الذي يجب القيام بـــه علـــى أساس التباين المحلي في أعداد القوات البريطانية والهندية، حيث كان هنـــاك ٤٥,٠٠٠ جندي أبيض عبر شبه القـــارة مـــن بيـــنهم ٢٣,٠٠٠ بريطـــاني و ١٣٦,٠٠٠ هندي في البنغال وشمالي الهند تقريبا، وكان كل البريطـــانيين مركزين في البنجاب التي انضمت حديثا، وتوجد فقط أربع كتائب من البيض موزعين عبر الأحياء المتمردة، ولم يكن أي قائد محلي مستعدا لفقدان تأمينه ضد تمرد جنود من الهنود (الأسباهية) وتوجهوا للهجوم على دلهي.

وهكذا انسحب البريطانيون فى أنجرا كانبور ولوكنوا خلف حصون بديلة، بعد أن نزعوا سلاح أى جندى هندى كان ولاؤه ضعيفًا، وببطء انتشرت روح العصيان المسلح من دلهي، ومع أوائل شهر يولي كانت هناك ثورات فى، ليجاهر: Aligahr، وبنارس: Benaras، وجانسي: Jhansi، وجوليور: Gwalior، وأندور: Indore وهاجم الجنود المتمردون وقتلوا ضباطهم وزوجاتهم وأطفالهم، وانضم إليهم المدنيون الذين كانوا بكل الطرق الخاسرين نتيجة التغييرات الحكومية الحديثة وقد ازداد عدد المعدمين الفقراء أمثال نانا صاحب والرانى من جانسى (Jhansi) وانضم الفلاحون الذين أثقلت عليهم ضرائب الأرض، وأيضا الجنود من الجيش المسرح فى أود (Oude)، والرجال المسلمون والمجرمون الصغار واللصوص الذين كان أى انهيار للسلطة فرصة لهم للاستفادة منها، وهناك جماعة تسمى الجوارس (Guras) وهى طبقة من الرعاة البدو يعيشون فى المناطق المجاورة من ميروت (Meerut) ودلهى وهى تقوم بالسرقة من الجانبين(٢٤).

وفى كل مكان ساد شعور بأن الراجا مثل المدافعين عن المدن الثلاث مجبر للدفاع عن نفسه، لقد طلبت السلطة البريطانية ستة أشهر تقريبًا للتوغل فى الجانج العليا وفى المناطق الشمالية من وسط الهند، وبعدها يبدو أن التمرد فقد اتجاهه وانتهى، وكان هذا حتميًا منذ البداية؛ لأنه كان يفتقد القيادة والإحساس بالهدف.

إن هؤلاء الذين تمردوا كانوا موحدين فقط فيما كانوا يكرهون، ولهذا السبب اجتمعوا عند المراكز الثلاثة المحاصرة فى أنجرا وكانبور ولوكنوا، وقد تصرفت هذه المدن مثل المغناطيس وورطت العدد الأكبر من الثوار فى حصار طويل، وفى نفس الوقت رجع عدد كبير من المتمردين لأنفسهم بالاختفاء فى دلهى من خلال جيش بريطانى صغير.

وكانت مزايا المتمردين من المفاجأة وأعدادهم قد اختفت، وكان هناك تفسيران ممكنان لهذا الوضع؛ الأول كان الغالبية من المتمردين تريد أسلابا ويكمن القدر الأعظم منها داخل المدن، والآخر كان طبيعة تحركهم.

ومن الضرورى الذى يضرب مؤيدوه بشكل عشوائى ضد رموز السلطة وأرقامها، أنهم اعتقدوا أنها تغير حياتهم للأسوأ، ولا يمتلكون أى أيديولوجية فيما وراء الالتماسات الإسلامية للجهاد ضد البريطانيين، ومما هو معروف لا يوجد نظام بديل للحكومة للأحياء التى حررتها مؤقتا.

إن محاولات حصر الخلفاء بين الأشخاص أصحاب المكانة أو السلطة خارج المناطق المباشرة لنشوب الحرب جعلت التقدم ضعيفًا؛ نظرًا لأنهم كانوا مترددين لإعلان أنفسهم حتى يعرفوا الطريق الذى ستصل إليه الحرب، وقد اعتمد هذا على نتيجة الحصار، وهذه بدورها استهلكت الرجال الذين كان من الأفضل استخدامهم فى العمليات العسكرية ضد خطوط المواصلات الهشة الممتدة إلى كلكتا، وتركت هذه بمفردها، وصارت لدى البريطانيين فترة التقاط الأنفاس من أجل تزويد الجيوش ونقلهم مع إمداداتهم إلى الجبهة.

ومنذ نهاية يوليو بدأت القوات البريطانية تتدفق إلى الهند، وطلبت الحكومة ٣٩,٠٠٠ جندى من بريطانيا، ولكن هؤلاء لم يكن متوقع توفيرهم حتى نهاية العام، وفى نفس الوقت كانت هذه تعزيزات من بورما وموريشيوسى وقوة الحملة الصينية التى تحولت إلى كلكتا وجعلت طبيعة التمرد واضحة، إن الجنود البيض سوف يستردون رجلاً أبيض، ولكن لا توجد أى مساعدة من جوركاس والسيخ ومنهم ٢٣,٠٠٠ جندى مسلحين مع نهاية الثورة.

لقد كانت الحياة صعبة على القواد وجيوش الميدان خلال الهجمات المضادة فى يونيه ويوليه وأغسطس، بسبب العجز فى القوى البشرية والتوقف المفاجئ فى هذا الفصل، وكان الفصل الحار وعدم إتاحة العربات التي تجرها الثيران وقوارب النهر والفيلة- كان الرجال يسيرون مشيا على الأقدام، كل هذا جعل الأمور صعبة على الجنود فى المعركة، وقدَّر الضابط جورج باركر من الكتيبة الثامنة والسبعين والتابعة لفرق السير هنرى هافلك ما بين الله جاد (Allahad) وكونيور بأن كثيرا من الرجال قد ماتوا بسبب ضربات الشمس أكثر من نيران المتمردين، وهناك خسائر كبيرة لأسباب عدة، لكن أساسا بسبب الحرارة ومرض الدوسنتاريا الذى كان عاليا أثناء حصار دليى؛ حيث إنه فى أربعة أسابيع انخفضت الفرقة الثانية والخمسين من المشاة الخفيفة من ٦٠٠ جندى إلى ٢٤٢ جنديا فقط.

وأبقت الإرادة الإلهية الرجال فى المعركة خلال هذه المراحل من الحملات وما بعدها، وقد شجع على هذا الرغبة العامة للانتقام من عدو قتل النساء والأطفال، والأسوأ من كل هذا كان القتل الجماعى للمدنيين فى جونيور بعد أن حصلوا على وعد بالأمان من نانا صاحب فى نهاية شهر يونيه، وكان تنفيذ حكم الإعدام فى السجناء وأى شخص مشكوك فى ولائه أو مساعدة الثوار، وذلك بشكل عشوائى، وأيضا كل الذين تورطوا فى المذبحة يتم تشويه سمعتهم ويجردون من كل ألقابهم قبل شنقهم، على رأى من أسراهم، وكان الثوار أقل من الحيوانات المتوحشة، واستخدم كثير من شهود العيان وتقارير العمليات كل اشتعارات الصيد لوصف القتال، وسجل ضابط أعمال زميل أثناء السير بالقرب من بربيلى (Bareilly) وشك فى بعض المتمردين عندما لجأوا إلى حقل القمح(٢٥).

وشكل خطوطه بدقة عندما دخل حقلا من (اللفت) من أجل اللعب، وهو مشهد يبدأ ويفوق كل الأوصاف، الطاووس والباندى (Pandie) المتمـردون ينهضون معًا، ويقدم الآخرون أفضل أنواع الرياضات.

ومن خلال قدرة التحمل الحديدية كان للبريطانيين اليد العليا مع أوائل الخريف، وكانت نقطة التحول بعد الاستيلاء على دلهي فى التاسع عشر من سبتمبر، وهى ضربة سيكولوجية أحبط فيها ٣٠,٠٠٠ مـن الثـوار عنـدما هجروا المدينة فى الأسابيع الأربعة قبل الهجوم الأخير.

وفى الجنوب شق كل من هافيلوك والجنرال السير جيمس أوترام طريقهما إلى كونبور (Cawnpore) وخلصوا كونبور لكن أمكن حصارهما من خلال أعداد أكبر من المتمردين، وفى أكتوبر قامت فرقة من دلهي برفع الحصار عن أنجرا (Angra) وبعد شهر تم إجلاء المدنيين والحامية فى لوكنو، وانتهت حرب الاحتواء، ومع اقتراب العام الجديد كانت الاستعدادات جاهزة لحملة التهدئة تحت قيادة القائد العام الجديد الجنرال السير كولن كامبل وهو محارب قديم من جلاسون، شاهد العمل لأول مرة كملازم فى البحرية، وكان عمره خمسة عشر عامًا، فى البرتغال فى عام ١٨٠٨.

وشهد عام ١٨٥٨ إنهاء كل المقاومات الباقية، وتقـدم كامبـل مـع عشرين ألف رجل إلى لوكيو التي تمت السيطرة عليها مرة ثانية فى مارس من نفس العام، كما تم القيام بعمليات فرعية لتهدئة المراكز البعيدة عن التمرد فى روكلاند وجواليور وجانس (Thansi) حيث قتلت زوجة الراجا الأمازونية فى اشتباك مع الفرسان.

على أن المشاركين فى الحرب لم يكونوا على علم بسبب انتصار الراجا، وفى إحدى الأمسيات خلال الحملة على أود (Oude) لاحظ الجنـرال

جازنت ولسلى الذى كان ضابطًا صغيرًا، بعض السيخ وهم يمارسون الرياضة، وكانوا مبهورين بصفاتهم الجسمانية وبراعتهم، والتفت إلى أقوى الجنود البريطانيين فى الفرقة وتساءل عما إذا كان يستطيع محاربتهم ويتساوى معهم، وكان الرد "لا يا سيدى- ولكن سوف أحارب أى ثلاثة من هؤلاء الزملاء" وتذكر هذه الحادثة بعد أربعين عاما، انتهى ولسلي أن "ذلك الاعتقاد فى سيادة الصفات القتالية لجنسنا وتفوقه الذى منحنا الهند، ولا يزال يمكننا السيطرة عليها".

وإذا لم يكن لرجالنا مثال هذه الثقة فى أنفسهم فإننا لن نستطيع أبدا إنقاذ لوكنو أو إعادة السيطرة على دلهى(٢٦). ومع ذلك كما تحكى القصة فهناك الكثيرون من الهنود الذين كانوا على استعداد للوقوف إلى جانب الراجا، لقد كان التمرد الهندى حربًا أهلية؛ حيث حارب آلاف الهنود بجانب البريطانيين بمن فيهم الباثان (Pathans) العسكريون من الحدود الشمالية الغربية، والذين تحدوا نداءات الحرب من أجل الإسلام ضد الوثنيين (الكفرة) ولم يقم دوست محمد الأمير الأفغانى وعدو البريطانيين بأى حركة عدائية، وأيضًا فإن الآخرين الذين عانوا من البريطانيين رفضوا المشاركة وإلزام أنفسهم، وكان القاضى جورج أدموندز الهارب فى يونيه ١٨٥٧ قد وجد أحد الأمراء على استعداد لمساعدته حتى لو أن الحكومة خفضت جيشه واستولت على أسلحته وبنادقه(٢٧).

ومثل الكثيرين من المحايدين المخلصين اعترفت هذه الفئة بأن التمرد كان أساسًا ثورة الجنود التى خرجت مؤقتا عن السيطرة؛ لأن الحكومة تفتقر إلى القوة التى تستطيع احتواءها، وكانت ذات أهداف سلبية ومدمرة فى طبيعتها، وعلى هذا فقد كانت محدودة فى استجابة الناس لها.

لقد أدت انتفاضة الهند إلى مقدمة الحياة السياسية البريطانية فيها. وكانت هناك أسباب جادة للاستفسار عن الخطأ الذى حدث وأسبابه، وكانت النتيجة المباشرة حل شركة الهند الشرقية فى عام ١٨٥٨ وبعدها صارت حكومة الهند تحت إشراف وزير دولة، وأخيرًا برلمان مسئول عنها مع قانون محلى وسياسة مرسومة فى أيدى نائب الملك وتعيين قواد حكوميين إقليميين يعاونهم مستشارون يتكونون من البيروقراطيين وحفنة من الأمراء الهنود، وكان التعيين فى الخدمة المدنية الهندية من خلال الاختبار وكان نظريًا متاحًا لكل المتعلمين الهنود، وفى نفس عام التمرد تخرج اثنا عشر طبيبا فى المدرسة الطبية المنشأة حديثا فى أجرا Agra، وهى حقيقة لها أكثر من أهمية مؤثرة على مستقبل الهند أكثر من المعارك فى أود Oude، وسوف يلتحق هؤلاء الأطباء بشكل منتظم مع النخبة المثقفة المتزايدة من الهنود الذين مارسوا التعليم باللغة الإنجليزية فى المدارس الحكومية والكليات والجامعات. وفى منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر يقدر أن هناك ثمانية آلاف هندى معهم درجات علمية، ونصف مليون آخرين تخرجوا فى المدارس الثانوية وكلهم درس باللغة الإنجليزية، وعرفوا الأفكار البريطانية السياسية.

إن تجربة أحد الهنود الذين درسوا وتدربوا على التعاليم الغربية ويدعى روهيش تشاندر دوت Dutt قد درس وعلم ليس نمط التعليم المتاح للهنود فقط ولكن أيضًا أثره على تفكيرهم عن أنفسهم ووطنهم.

ولد دوت فى كلكتا فى عام ١٨٤٨، وهو ابن لأحد الحكام من الطبقة الوسطى التي درست العلوم الغربية عبر عدة أجيال فى الشركة، والتحق دوت Dutt بالمدرسة حتى بلغ سن السادسة عشر، وزاد إعجابه بالأدب الإنجليزى خصوصًا الرومانسية التاريخية لسير ولتر سكوت (Walter Scott) وانتقل إلى الكلية الجامعية فى كلكتا وأصبح على علاقة طيبة مع أبناء

القساوسة وموظفى الحكومة والتجار، وركز اهتمامه على دخول الخدمة المدنية الهندية، ولتحقيق هذا الهدف سافر إلى لندن للدراسة بشكل عاجل لامتحان يهيئ فى اللغة الإنجليزية واللاتينية واليونانية، وحصل على درجات أعلى من اللغة العربية والسنسكريتية[٢٨].

ونجح فى كل المراحل ودخل فى الميدل تمبل (Middle Temple)، لقد انبهر دوت بالحياة البريطانية وسافر إلى أماكن كثيرة أثناء الدراسة، ولقى إهتمامًا مكثفًا فى الحياة السياسيه، البريطانيه، وشهد الانتخابات العامه فى عام ١٨٦٨ وكان البرلمان في دورة العمل، وناقش القضايا الهندية مع أحزاب الليبراليين والراديكاليين البريطانيين، بما فى ذلك جون برايت (Bright) الذى تزعم القضايا الهنديه فى مجلس العموم وبعد ذلك انجذب الطلاب الهنود نحو هذه الدوائر البريطانية التقدمية، والتي كانت ضد الفكر الاستعماري.

وعندما عاد دوت Dutt لتولي مسئولياته الإدارية فى البنغال فى عام ١٨٧١ كان ميالاً لتطبيق المبادئ الليبرالية فى الأمور الذاتية والاهتمام بتنوير الذات، الذى ظهر فى بريطانيا، وعلاوة على ذلك كان يأمل أن يظهر للبريطانيين أن الهندى المتعلم حاذق وماهر مثلهم فى نظم الحكم وأن الهند تستطيع أن تتغير من الداخل من خلال الهنود مثلما هى الحال من الخارج.

إن ما شاهده فى إنجلترا أعطاه إحساسًا قويا عما يمكن أن يتحقق من خلال الطبقة الوسطى، وأنه قد عاد إلى الوطن مقتنعًا أن الهنود يساوون ويستحقون ممارسة نفس السلطة السياسية.

إن التطور الفكرى عند دوت Dutt والنتائج التى توصل إليها تشبه الهنود المتعلمين الآخرين، والذين يعتقدون أن ما تعلموه أعطاهم المساواة مع

البريطانيين، وبالتأكيد فإن هذا لم يكن الرأى الذى يشارك فيه غالبية البريطانيين فى الهند.

وهناك احتجاجات واسعة النطاق فى عام ١٨٨٣ على اقتراح حكومى لتوسيع قانون الحكام المحليين الهندى على الأوربيين، ونائبه اللورد ريبون (Ripon)، الذى ضغط لسحب هذا الإجراء لقد شعر المتعلمون الهنود أنهم يواجهون ما هو تأكيد للسيادة العرقية (التفوق العنصرى) وأدى هذا الإجراء البسيط بشكل غير مباشر عام ١٨٨٥ إلى تكوين فى المؤتمر الوطنى الهندى (Indian National Congress) وهو المنظمة من المتعلمين الهنود من كل المهن التي تجتمع سنويًا معًا لمناقشة قضايا تخص وطنهم، وفى أيامه الأولى كان يشبه مدرسة عامة ونادى مناقشات- ولكن ازدادت عضويته ومع نهاية القرن صار هيكلاً مؤثرًا فى الرأى العام الهندي.

إن ظهور ما يسمى أساسا تجمعا طيبًا للهنود ومتأثرا بالأفكار السياسية البريطانية- قد أحدث إزعاجًا وخوفًا، ولم يكن لدى اللورد روفرين خليفة ريبون- وهو ليبرالى- معين من الوقت. (Benegal Babu) والذى وجدها رجلاً أشد إزعاجًا وإثارة وكشف أيضا عن انحراف سيلتك (Celtic) ومكر وحيوية بين المتعلمين الهنود، وهى صفات اعتقد أن يشارك فيها القوميون الإيرلنديون المعاصرون، وبالتأكيد فإن هناك الكثير من التشابه بين القوميين الهنود وزملائهم من الإيرلنديين، وكلاهما يجد تعاطفا، وفى بريطانيا يعرفون كيف يستخدمون الرأى العام من خلال الصحافة والاجتماعات العامة، ومع ذلك فإن الهنود لا يزيدون على الإيرلنديين فى مطالبهم، والتي كانت قاصرة إلى حد كبير على امتصاص الكثير والكثير من رجال بنى وطنهم المتعلمين فى الوظائف الأعلى والوسطى فى الحكومة.

وبالطبع كانت هذه ملاحظات بشكل صحيح فى بداية الحكم الذاتى الهندى، والذى جعل كيرزون (النائب من ١٨٩٨ حتى ١٩٠٥) يرفض المشاركة الكبرى للهنود فى الحكومة ويعارض الشروط التي وضعها دوت Dutt رئيس الكونجرس فى عام ١٩٠١ من أجل تعيين الهنود فى مجلس منصب الوصى على العرش، ووظيفة الماركيز العنيد المؤيد بتطور الهنود وتقدمهم للوظائف العليا، ورأيه المشهور أن الكونجرس كان جهازًا غير تمثيلى وله تأثيره فى بداية التغير الصارخ إلى ثورة من أجل المعارضة النشطه للراجا.

ومن المتوقع أن يحدث صدام بين الهنود ذوى الثقافة الغربية والحكومة فى بداية الإصلاحات التعليمية الحكومية فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، يرغم الطغيان والفساد فى أمور كثيرة- فإن الهند البريطانية لم تكن أبدًا دولة استبدادية حيث تعرض الدولة كتبا ومجلات والسفر إلى الخارج وتحظر النقاش والجدل السياسى، وإذا سمح للهنود الاقتراب الحر للمؤلفين والكتاب البريطانيين والفلاسفة فإنه من الضرورى أنهم يطبقون ما يقرأون على وطنهم الخاص، ويتساءلون عن أسباب استبعادهم من هذه الحقوق السياسية التى من حق حكامهم، وكان سؤالاً خداعًا يستطيع كيرزون ومن على شاكلته الإجابة عنه بالإشارة والرجوع إلى ظروف خاصة بالهند[٢٩].

وكانت الانقسامات بسبب الدين والثروة والطبقة والعشيرة عميقة للغاية ومصدرًا لكثير من الانشقاق، وكانت الحكومات البريطانية الرشيدة تحاول كسب ولاء كل الهنود وتحميهم وتحافظ على النظام الداخلى، ومن الشائع الإشارة إلى حالة الهند قبل الحكم البريطانى عندما كانت الحياة سيئة وكانت الفوضى مزمنة، وفوق كل هذا كان الخوف بأن الديمقراطية والتحرك نحو تقرير المصير الذاتى حسب رأى السير مايكل أودوير (O'Dwyer) وهو

حاكم صارم وسيل التعامل معه، وهو الذى خدم فى الهند من ١٨٨٥ حتى ١٩١٩، وخلص شيطان الخلافات لكى يهز بعنف كل الضغائن والعداء الكامن فى نفوس رجال على شاكلته[٣٠].

وعلى مستوى الآمال والطموحات الهندية نحو حق تقرير الحكم الذاتى الذى كانت تعوقه أسس جنسية- وعبر عن هذه بصراحة السير جورج ينج هسباند (Young housband) الذى خدم فى الجيش الهندى فى فترات متقطعة ما بين أعوام ١٨٧٨ و ١٩١٨، "ليس من الحكمة أن نواجه الوقاحة وأى شكل خارجى لها من أى رجل شرقى، فالأدب والكياسة بكل السبل وحتى الصداقة الحميمة طالما يتم تبادلها عاطفيا وكلها عادلة ومقبولة، لكن فى اللحظة التي توجد بها علاقة بين التمرد والثورة أو الخيانة، والتى لا تكون أعراضها فى العادة وخيمة، فضلا عن الميل نحو عدم التحضر، فإنه من الحكمة أن نضرب الرجل الشرقى مباشرة بين عينيه، وأن تستمر فى الضرب حتى يفهم بالضبط ما هو ومن هو.

وقضى السير ينج هاسبند بعض الوقت لتنفيذ هذا المبدأ على الحدود الشمالية فى الهند فى حروب صغيرة لا نهاية لها من العقاب والتهدئة، وقد أرجع هذا لهدف عام أحدُ زملاء ينج هاسبند عندما أخبرهم أن الشيء الوحيد المهم هو الملكة العظيمة البيضاء عبر المياه...[٣١].

لقد كانت المقاومة الأكثر استمرارية بين القبائل على طول الحد الشمالى الغربى، وهي منطقة جبلية بعيدة حيث كانت السيطرة البريطانية غير مستقرة دائمًا، لقد كانت هناك رومانسية خاصة حول حملة الحد الشمالى الغربى؛ لأن هناك احتجاجات نجح البريطانيون فيها فى التغلب على المحاربين الشجعان فوق أرض وطنهم، وبالطبع كانت التكنولوجيا ذات أهمية خاصة، وغالبًا ما تحسم التوازن، ولكن كان هناك الكثير من محاولات شق

الطريق بصعوبة؛ لأن رجال القبائل كانوا مهرة فى الهجوم، وكان المطلوب حملتين فى عامى ١٨٨٨ و ١٨٩٠ ضد المجرمين الذين يعاودون الإجـرام فى حى هازارا (Hazara)، وفى المرة الأولى تم إرسال أربعة عـشر ألـف رجل وفى المرة الثانية ثمانين ألف رجل، منهم علـى الأقـل الربـع مـن البريطانيين وهى عادة قائمة بعد الثورة أو التمرد.

ولقد كان هذا شكلا على مستوى عال من الحرب، والتي كان كل شيء يستخدم فيها بحسب أعلى مستوى للتكنولوجيا، وكانت القوتان فـى هـازارا تستخدمان التلغراف الميدانى مع بنادق من ماركة كاتشج- ومسدسات تطلـق رصاصات حتى مسافة ١٠٠٠ ياردة وعدد قليل من البنادق الجبلية (بنـادق البريمة: Screw guns من كيلنج) والتي تحملها البغال، برغم ضـخامة قـوة الثيران كان رجال القبائل المسلحون بالسيوف والسكاكين يهاجمون الخطوط البريطانية فى بعض الأحيان ويحدثون دمارًا، وقد حدث هذا أثنـاء هجـوم خلال حملة هازارد لعام ١٨٩٠ عندما- بحسب تقرير رسمى- اشتبك ضابط بريطانى مع اثنين من المشاة حيث قتل أحدهم لكن قام الثانى بجرحه وهـو رجل قوى وضخم فاقه قوة تقريبا(٣٢).

وفى عام ١٨٩٥ كانت هناك اتهامات بأن هناك مقاتلين على الحـدود وبأن طلقة المسدس ٣٠٣ ينقصها قوة التوقف عن المسدس السابق رقم ٤٥٧، وعلى هذا بدأ تنفيذ تجارب سرية على أجساد (الملا) البافاتين الذين نفذ فيهم حكم الإعدام من طلقات تستخدم النمطين من الذخيرة لكشف مزاياها النسبية(٣٣).

لقد احتفظ الرأى العام فى بريطانيا بتفاصـيل رهيبـة، ولـم تعـرف التفاصيل، وظل مغيبًا عن حرق القرى والمحاصيل والحبوب، وذبح الماشية التى سجلت كل عمليات الحدود، وبدلاً من ذلك قـدمت تقـارير الـصحف وتقارير شهود العيان مثـل ونـستون تـشرشل (Malak land Field Force)

لعام ١٨٩٧ عن الحرب قصصا مثيرة، وكانت تقدم المبررات، وكانت بشروط مألوفة تدفع بشكل أدبى حدود الحضارة إلى الخلف، إن حروب الحدود الشمالية الغربية (وكانت نحو عشرين حربا تقريبا ما بين ١٨٦٣ و١٩٠١) عظيمة ومثيرة وكانت عملا من عوامل إعادة ميلاد الهند.

(٥)

إنهم يعرفون القليل عن قوتنا
الشرق الأقصى والمحيط الهادى

يحتوى قصر كليدون فى باكنجا مـشاير (Buckinghamchire) علـى غرفة ضيقة مزينة بأسلوب يجمع الحوافز المفرطة فى الزخرفـة الـصينية؛ حيث تأسس فى ستينيات القرن الثامن عشر عندما نظـر رجـال التمييـز العنصرى إلى الصين بشىء من الخوف والإعجاب.

لقد كانت حضارة قديمة منظِّمة إنتاجها خصوصًا من البورسلين الذى قدر جامعوه قيمته، وقلده رجال الحرف اليدوية أمثال هؤلاء الذين يعملون فى كلاديون، فالشاى الصينى المستورد من شركة الهند الشرقية وأيضا الطريق الذى يصبح فيه المسكن ملائمًا لكل الطبقات، وخلال ثمانين عامـا تغيـرت الآراء نحو الصين بشكل جذري، وذكرت دائرة معارف شعبية صدرت فـى عام ١٨٤٢ القليل عن الحضارة الصينية، ولكن بدلاً من ذلك وصفت الصين بما فيها بأنها سوق بلا حدود لسكان تهلل للبضاعة البريطانية، وكان حكامهم ينكرون عليهم ذلك ويرفضون الاعتراف بفوائد التجارة الحرة، ووصل الأمر إلى استبعاد التجارة البريطانية[١].

إن الأفيون هو ما يطلبه الشعب الصينى، فالارتباط المناسب هو الشاى للذوق البريطانى وللصينيين الأفيون هو ما استغلته شركة الهنـد الـشرقية، والتى منذ عام ١٧٧٣ تمتعت باحتكار إنتاج هذه المواد، ولقد تزامنت تجارة الأفيون مع مرحلة من الانهيار الصينى، ومع حلول عـام ١٨٠٠ صـارت

الصين مجتمعًا راكدًا مركزًا أفكاره، تحكمه بيروقراطية محافظة ومتحجرة، وكانت أسرة شينج (Ching) الأباطرة من المانشوس القادمين من الخارجين الذين وجدوا من الصعوبة جمع رعاياهم الصينيين فى لحظات الأزمات، لكن الحكام والمحكومين قد اتجهوا ضد فقدان الثقة المشتركة لكل الأجانب الذين وصفوهم بأنهم برابرة، وعاملوهم بكل كياسة وبشكل يظهر التفوق، وقد ظهر هذا بشكل واضح فى عام ١٧٩٣ وعام ١٨١٦ عندما سافرت بعثتان تبشيريتان برئاسة اللورد ماكرتنى (Macartney) وأمهرست (Amherest) إلى بكين فى محاولة لإقامة علاقات دبلوماسية رسمية بين بريطانيا والصين، وكل منهما وجدت معاملة كريمة، ولكن رحلتا بعد أن اعتبرتا ممثلتين لدولة تابعة على مسافة بعيدة.

وإذا اعتبرنا عزلة الصين وفهم كل الأشياء على أنها أجنبية، صار من الحتمى أن يحدث صدام مع بريطانيا التى اعتقدت أنها على حق للقيام بتجارة غير محدودة فى كل أنحاء العالم، وقد حدث أول احتكاك فى ربيع عام ١٨٣٩ فى كانتون الميناء الرئيسية المفتوحة للتجارة الأجنبية.

وكانت حكومة الإمبراطورية الصينية قد انزعجت بسبب النتائج الاقتصادية والاجتماعية الضارة لإدمان الأفيون، وقررت عرقلة التجارة وأجبرت المندوب السامى لين تس هيسو القضاء عليها فى منابعها فى كانتون (Canton) وقد أثارت هذه الإجراءات رد فعل غاضبًا من الكابتن تشارلز إليوت المشرف على هذه التجارة.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى لندن أصبحت الحكومة تحت ضغط الشركات مسلك لين Lin كمثال آخر لاعتراض الصين وتحد مباشر لمبادئ التجارة الحرة.

وعلى هذا قرر وزير الخارجية اللورد بالمرستون إرسال قوة استكشافية محمولة بحرًا إلى مصب نهر كانتون.

ولقد تم اختيار حرب الأفيون الأولى (١٨٣٩ - ١٨٤٢) اليوم على أنها عمل مخز من العدوان يحاول تنمية تجارة غير أخلاقية، واعتبرت حكومة الصين أن هذا عمل استثنائي. واعتبر المعايرون الحرب وتوابعها مشروعات تستحق الثناء وتم اتخاذها ملاذا أخيرًا، ووقع الخطأ على الصينيين الذين تغاضوا وتستروا على التجارة في نفس الوقت وعاملوا بريطانيا وتجارها بطريقة على مستوى راق[٢].

وعلى هذا كانت الحرب بمثابة مكاشفة بعد أن استنفدت بريطانيا صبرها وأبرزت عضلاتها على أمل أنه بعد ذلك سوف تثبت حكومة صينية محترفة أنها أكثر إلماما بالمطالب المعقولة تماما.

لقد كانت الحرب صدمة قاسية للصينيين الذين لا يعرفون شيئًا عن تكنولوجيا المعارضين لهم، وفي كل اشتباك كان الصينيون - حسب كلام شاهد عيان- غير قادرين على النضال ضد الأسلحة المخيفة لعدوهم القوي.

ولقد كان من دعاة الدهشة عندما ضرب صاروخ كونجريف (Congreve) سفينة اشتعلت فيها النيران وانفجرت وقتل كل البحارة بها.

وعندما نزل البريطانيون في أموى (Amoy) في سبتمبر ١٨٨١ لم يتحملوا خسائر كثيرة، ولكن صواريخهم قتلت على الأقل مائة صيني مسلحين بقنابل فتيل وأسلحة مدببة[٣].

وفي بداية الحرب كانت العمليات قاصرة على نهر كانتون وجزيرة هونج كونج التى تم الاستيلاء عليها وضمها كقاعدة بحرية مستقبلية فضلاً عن مركز تجارى، وتبعت ذلك مظاهرة مدعمة بأسلحة نارية على نهر

يانجتس (Yang stse) وقد خططت لإبراز الحكومة الإمبراطورية ومدى اليأس فى المقاومة المستقبلية، وخلال شهرى يونيه ويوليو تم ضرب كل من مدن ووسنج وشنغهاى وشيخ كيانج واستيلاء قوات بريمة عليها، وكانت الحملة ضعيفة حاربت فى موسم حار، وكانت هناك خسائر بريطانية بسبب ضربات الشمس والملاريا والدوسنتاريا والكوليرا، ومن بين الأربعة والثلاثين رجلا الذين قتلوا أثناء الاستيلاء على شينج كينج مات ستة عشر رجلا بسبب شدة الحرارة(٤).

ولقد توجت حملة يانجتس سياسيًا حيث وقعت حكومة صينية قوية معاهدة نانكنج (Nanking) التى أكدت ملكية بريطانيا لهونج كونج وفتحت كانتون وأموي وفوشو وشنغهاى وننج بو للتجارة البريطانية.

وفى الحال بدأ عمل جهاز الإمبراطورية غير الرسمية، وتأسست القنصليات وتم إعفاء الرعايا البريطانيين من محاكمة القضاء الصينى، وتأسست قاعدة تسهيلات وتمويل ضخمة بريطانية فى شنغهاى، وسمح لرجال الحرب البريطانيين بالرسو فى الأنهار الصينية والمياه الساحلية، وبسرعة سلكت كل من فرنسا والولايات المتحدة نفس المثال البريطانى وحصلت كل منهما على امتيازات مماثلة.

لقد كانت حرب الأفيون ذات آثار بعيدة المدى فى تاريخ الشرق الأقصى، وتعرضت لعملية التخلف الفنى الصينى وسقوطها فى أيدى الأعداء، وجعلت بريطانيا من نفسها قوة عسكرية وتجارية كبرى فى المنطقة.

وفى عام ١٨٥٣ عندما زار الأدميرال بيرى الأمريكى اليابان لإقناع حكامها بفتح الدولة للتجارة الغربية، وحذرهم إذا لم يفعلوا ذلك، وعندئذ

سيظهر البريطانيون، وأصبحوا يعاملون اليابان كما يعاملون الصين، وتنازل الصينيون بشكل هادئ، وفى خلال سنوات قليلة وقعوا اتفاقيات تجارية مع القوى الغربية بما فيها بريطانيا.

وبعد أن سارت بريطانيا فى إمبراطوريتها غير الرسمية حولت اهتمامها لجعلها آمنة تجاريا؛ وذلك بالقضاء على القرصنة فى السواحل والأنهار، وكان هذا عملاً مثيرًا ويستحق الثناء والتقدير.

وفى عام ١٨٤٩ حققت مقاتلات حربية ٤٢,٠٠٠ جنيه مكاسب من ضريبة رأس، والتى قدرت بعشرين جنيها لكل رأس قرصان مات أو تم القبض عليه، وخمس جنيهات عن كل من الذين هربوا، لقد كانت الأعمال مختصرة وتم الحصول على مكاسبها فى تقرير رسمى فى اشتباك بين السفينة VMS هيرميس (Hermes) وخمسة قوارب بالقرب من هونج كونج فى مارس عام ١٨٥٣، وتقدمت سفينة هيرميس (Hermes) وأغرت القراصنة نحوها حتى أدركوا خطأهم وتفرقوا، وهرب ثلاثة وبقى اثنان فقط.

ولما وجدوا أنهم غير قادرين على الهرب تجمعوا معًا واستعدوا للقتال وأرسلوا رجالا على ظهر سفينة لإلقاء أوانى (بدائية) ترسل دخانا مزعجا، عندما اقتربنا منهم وأطلقنا الصواريخ عليهم، وكلما اقتربنا وضعوا الخوذات فوق رءوسهم وصاروا تحت رمضاء وبدأوا فى إرسال الأوانى بكل شراسة، عندما ابتعدنا وفتحنا النيران عليهم وعرضنا إيقاف النار إذا رغبوا فى الاستسلام- لكنهم لم يفعلوا ذلك، وفى النهاية بعد أن وضعناهم فى متناول أسلحتنا من الجريب (Grape) والكانستر (Canister) والموسكترى، وصعد الضابط بيرتون على ظهر السفينة واستولى عليها، وتم إطلاق النار على ثمانية وعشرين من القراصنة أو عزفوا، وتم أسر سبعة وخمسين آخرين فى قبعاتهم والأردية الحمراء، وقدر هروب نحو خمسة وأربعين قرصانا،

وحصل بحارة السفينة هيرميز على ١٧٥٥ جنيهًا، وفيما عدا عدد قليل من البحارة الذين أصيبوا بالأوانى لا توجد أى خسائر بريطانية[٥].

لقد وقعت هذه الحادثة فى الحرب ضد القرصنة فى وقت كانت العلاقات الصينية البريطانية تتدهور، وجاءت نقطة الذروة فى عام ١٨٥٦ عندما صعد جنود من كانتون على ظهر السفينة البريطانية السهم Arrow بحثًا عن أحد القراصنة، وأنزلوا علمها وكانت الأسس القانونية على ادعاء أن السفينة أرو بريطانية وقديمة- لكن هذا لم يمنع القنصل جون بورنج (Boring) فى كانتون بهذه الحادثة من إثارة استعراض القوة مع المندوب السامى الصينى يه منجشن (Yah Mingichin) ولم يخف يه أبدا ازدراءه لكل الأجانب، ولبعض الوقت بذل كل ما فى وسعه لاستبعادهم وطردهم إلى جانب بضاعتهم عن كانتون، وبنفس القدر كان بورنج متصلبا واستدعى سفينة قامت بقصف المدينة وسكانها ليظهر إلى يه Yeh حماقة مقاطعة التجارة واعتراضها.

ومثل حرب الأفيون السابقة كانت حرب الأفيون الثانية ممارسة للتهديد والإكراه، ومع هذا فإنه فى هذه المرة تعاون الفرنسيون مع البريطانيين مستغلين حجة مقتل أحد رجال التنصير، وهى حيلة ابتدعوها لتبرير العدوان القائم على أنام وكمبوديا، وبينما كانت القوات الفرنسية والإنجليزية تضرب بقوة واستمرار الموانى على طول نهر كانتون، صدرت الأوامر إلى اللورد إليجن (Elgin) للتوجه إلى الصين بقوات لتسوية المشكلات القائمة ما بين بريطانيا وحكومتها، وكانت النتيجة معاهدة تينتس (Tientsin) لعام ١٨٥٨ والتى أعطت امتيازات جديدة للمصالح التجارية الأجنبية وأعطت وضعا قانونيا لها وأنهت تجارة الأفيون[٦].

ولقد أدى ما فهمه البريطانيون والفرنسيون على أنه حجر الأساس ومراوغة، حول فرض عبارات مختلفة لهذه الاتفاقية، إلى التطبيق النهائى للقوة العظمى فى عامى ١٨٥٩، ١٨٦٠ فلقد نزل جيش هندى بريطانى وجيش فرنسى فى شمال الصين وسار نحو بكين، ومرة ثانية انتصرت الأسلحة الحديثة على أسلحة العصور الوسطى.

لقد تأثر روبرت "سنهو: Swinhoe" المترجم بالقوة التى لا تقهر لفرسان التارتار Tartar الذين رفضوا الاعتزال والاستسلام تحت قذائف اللهب الغربية، وكتب بعد ذلك "الوثنيون الفقراء والمساكين الذين يعرفون القليل عن قوتنا برغم أنهم أظهروا أنفسهم باعتبارهم شجعانًا"، ورجل آخر شجاع وهو برايفت مويز من البفز (Buffs) الذين حققوا شجاعة فائقة بعد إعدامه بسبب رفض الاعتراف بمعرفة خطط القائد المغولى برنس سنج كولن شن، وكانت شجاعة مويز قد جعلته نموذجا مثاليا للبطولة الإمبريالية، وقد احتفى السير فرانسيس- دويل فى قصيدته المثيرة خاص من جلد الجاموس (A Privats of the Buffs) فى الليلة الماضية وبين زملائه من الجاموس يسخر ويشرب بشكل متقطع، ويقسم مخمورًا خاص من الجاموس، والذى لم ينظر من قبل اليوم تحت عدوه فى الحرب، وهو مقطب الجبين يقف فى مكان إلجن (Elgin) سفير من التاج البريطانى ونموذج لكل جنسها"(٦).

ومثال آخر من تصرف الجنود يسجل التقدم نحو بكين، وصار السلب والنهب متوطنًا، وكان سونهو مسرورًا لرؤية الجنود ورؤسائهم يشاركون فى هذا، وكانت الجوائز الكبرى تقدم داخل القصور الإمبراطورية فى بكين والتي تخلى عنها الإمبراطور هاسين فنج (Hasien Feng) وبلاطه فى أكتوبر ١٨٦٠، وحسب رأى سنهور كان الفرنسيون أول من طردوا من السوق التى صارت فيما بعد حرة للجميع، وعندما دخل حجرة عرش الإمبراطور وجد

الأرضية مغطاة بأحسن أنواع التحف التي كان قد نقلها الجنرال مونابان الذى كون أكواما من الهدايا للملكة فيكتوريا ونابليون الثالث.

وبعد ذلك بوقت قصير تم إحراق القصر الملكى بناء على تعليمات من الجين Elgin كانتقام للتعذيب وقتل العديد من رجال التبشير ومرافقيهم، ويرمز نهب بكين وتدمير القصر الصيفى للإمبراطور إلى إذلال الصين وانهيارها، فلقد سحقت فى ثلاث حروب وأجبرت على الاستسلام لقوات قليلة من شعبها أو حكامها يفهمون ذلك، وحيث إن الدول قد كسبت غالبيتها من الصين المطيعة، فقد اتخذت إنجلترا دور القيادة فى هذه العملية من الإذلال، برغم أنه مع عام ١٨٦٠ انضمت إليها فرنسا التى كانت بالفعل تتوغل فى الهند الصينية وروسيا التى كانت عيونها على كوريا والمنطقة على طول الحدود الصينية الشمالية، ولم تكن بريطانيا مهتمة لإقليم عدا هونج كونج وشبه جزيرة كولون المجاورة، وكل ما كانت تريده هو الاقتراب بشكل غير محدد من التجارة الصينية(٧).

ولمدة أربعين عامًا بعد عام ١٨٦٠ سيطرت بريطانيا على تجارة الصين، وفى عام ١٨٩٥ تمتعت بريطانيا بثلثى التجارة الخارجية الصينية كلها والتى وصلت حينئذ ٥٣,٢ مليون جنيه فى إجمالها، وظل الأفيون على رأس قائمة واردات الصين، ووصلت إلى متوسط عشرة ملايين جنيه سنويا خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، مع المنسوجات القطنية من لانكشير فى المقام الثانى بما قيمته سنويا ثلاثة ملايين جنيه، أيضا بعد احتكار أسواق الصين تقريبًا صار لبريطانيا السيطرة القوية على الجمارك الصينية، وقد مرت هذه تحت السيطرة الأجنبية فى عام ١٨٥٣ كإجراء طارئ عندما هدد متمردو تايينج (Taiping) مدينة شنغهاى(٨).

وبعد عشرين عامًا كان السير روبرت هارت Hart يدير كل خدمة الجمارك الصينية، ومعه فريق من تسعة وثمانين أوربيًا منهم أكثر من النصف من البريطانيين، وقد ضمن هذا الإشراف للحكومة مصدرًا يعتمد عليه من الدخل، كما كان ضمانًا وأمنًا لرأس المال الأجنبي، وفى مقطوعة أعطت نظرة عميقة فى عقل المستثمرين البريطانيين فى الإيكونومست (ECONOMIST) عدد ١٥ يناير ١٨٩٨- علقت الكاتبة بقولها "إن مكاتب الجمارك فى الصين داخل مدى نيرانِ القنابل البريطانية، والتى من المفترض أن يطلق عليها النار إذا تخلفت حكومتها عن الوفاء بديونها". لقد انتهت السيادة السياسية العليا البريطانية فى الصين فى عام ١٨٩٥ حيث كشف الانهيار المفاجئ والكامل للصين فى الحرب الصينية اليابانية عامى ١٨٩٤ و١٨٩٥ عن ضعف الدولة بالنسبة لبقية العالم، وكانت اليابان أول دولة تفيد من مطالب السيادة على فورموزا (تايوان) و ٣٥ مليونًا من التعويضات وشبه جزيرة ليوتانج، وتم الانسحاب من الأخيرة بعد احتجاجات من فرنسا وروسيا وأمانيا اللائى اتحدن فى مؤامرة ساخرة لحماية الصين، وفى المقابل منحت حكومة صينية حق التنقيب عن المعادن لفرنسا فى اليونان (Yunnan) وكونجس وكوانتج هابكوا التى سُلمت إلى ألمانيا وروسيا التي كانت تحكم إمبراطورية فى منشوريا، كما سمح لها بالسيطرة التي دفعها القيصر ضريبة فى خط سكك حديد شرق الصين (Chinese Eastern Railway) في عام ١٨٩٧ وتقدمت أمانيا بعطاء من أجل منطقة رحب مستخدمة العذر المعروف باغتيال رجال التبشير هذه المرة فى شانتونج (Shantung) وهذه العمليات من القتل فتحت الطريق أمام الاحتلال الألمانى لكياشو (Kiachow) التي تحولت إلى قاعدة حربية، واحتكار الاستثمار فى المناجم والسكك الحديدية فى شانتونج، وعندما أحست روسيا أن التكالب على الصين قد بدأ قامت بالتوغل فى بورت أرثر فى مارس ١٨٩٨، أى بعد عامين من

المساعدة فى طرد اليابانيين بعيدًا. لقد أحدثت هـذه التظـاهرات الوحـشية للاستعمار الجديد استياءً فى بريطانيا، وعلى هذا فإن الحكومات البريطانيـة وهى واثقة من المعلومات أن رجال أعمالها يتمتعون بسيادة فـى الـصين، قامت بتأييد سياسة التجارة الحرة لكل القادمين إلى الصين، ولم يلفتوا النظر إلى جهود الفرنسيين والروس فى القضاء على المديريات والمناطق التابعـة وأيضًا الهند الصينية وكوريا.

إن أحداث عامى ١٨٩٧، ١٨٩٨ أوحت بأن الصين مثل أفريقيا سوف تُقَسّم والنتيجة أن بريطانيا سوف تخسر أسواقًا، ولقد فرض اقتراب روسـيا أخطر تهديد، وخط سكك حديد سيبيريا الذى سوف يسهل الهجرة الجماعيـة إلى روسيا الشرقيـة الأقل سكنا، ما إن يتم الانتهاء من الخطوط الفرعية إلى الجنوب، وهذا سيخدم كحلقة اتصال لتجارة الصين مع أوربا التى حملتها من قبل السفن البريطانية، وأعلنت الماركيزة فى حكومة سالسزبورى فى أبريل ١٨٩٨ أنها قد استأجرت وى هوي على الساحل الشمالى للـصين كقاعـدة بحرية، وأنها لا تدعى مناطق فى الصين وأعلنت بكين فى نفس الوقت أنهـا لن تمنح أى قوة امتيازات فى حوض ينج تسى. ولم يكن هذا يهم كثيرًا لأنه تم بعد أن وافقت الصين على تمويل روسيا لخط سكة حديد هانو (Hankow) بكين والذى حدد احتكار الاستثمارات المحلية البريطانية وقد أدى الخوف من مواجهات أكثر إلى تقوية أسطول الشرق الأقـصى الـذى زاد إلـى ثـلاث مقاتلات حربية وعشرة طرادات، وهو ما يساوى الأساطيل الروسية الفرنسية مجتمعة فى المنطقة، خشى سالسبورى أن الدفاع عن الإمبراطورية التجارية البريطانية غير الرسمية فى الصين سوف يوسع أعباء الدولة ويضعها عنـد نقطة الانهيار.

لقد كانت بريطانيا متورطة فى غزو السودان، وكانت تستعد لصراع مع فرنسا فى أعالى النيل، كما كانت على وشك الالتحام مع جمهوريات البوير فى جنوب أفريقيا، وكان نقل المقاتلات إلى الصين قد استنزف أساطيل البحر المتوسط والدولة الأم، لكن بريطانيا لم تكن تقبل قيام كل من المانيا وروسيا وفرنسا بفعل ما تريد فى الصين.

وأثارت الخطوات المتسارعة فى التوغل الأجنبي-المقاومة الشعبية داخل الصين، وكانت هناك موجة نشاط من الخوف لوجود الأجانب وكرههم وخصوصًا الموجهة ضد رجال الإرساليات فى عامى ١٨٩١ و١٨٩٢ ومع نهاية عام ١٨٩٨ ظهرت حركة جديدة ضد الأجانب (I-ho chuan) أو حركة المصارعين Boxers حيث كره أعضاؤها كل الأوربيين والصينيين المسيحيين وأى فرد يستخدم المصنوعات الأجنبية، وتفاخر المصارعون بقوتهم السحرية التى تجعلهم محصنين ضد الطلقات النارية، ويمتلكون ما يسمى بإدمان الانتحار فى القتال بالسيوف التقليدية والحراب وكانوا أساسًا ضد جماعات المانشو لكن قتالهم من أجل عرقلة التقدم وانتشار المعرفة قد كسب صداقات بين المحافظين المتطرفين فى البلاد بين الحكومة وقد جسد الحاكم المتعاطف معهم فى شانس يو حسين (Yu husien) جماعة المصارعين فى العسكرية المحلية وبعد ذلك أطلق لهم الضمان فى البعثات التبشيرية الأجنبية ومعتنقيها.

ومع بداية عام ١٩٠٠ قامت الإمبراطورية دواجار (Dowager) تسو هسو بعقد تحالف مع المصارعين لكى تبعد الغضب الشعبى عن الأسرة ونحو الأجانب، وكانت هذه قصيرة النظر وسياسة محبطة ذاتيا لأن تضارب الحكومة الصينية المصارعين كان بالفعل دافعًا نحو المزيد من المقاتلات الحربية الأمريكية والروسية والألمانية والفرنسية والبريطانية إلى خليج

شيلى (Chihli)، وخوفًا من تقدم مشترك اتخذت تسومى المبادرة فى ١٨ يونيه وأجبرت ٣٠,٠٠٠ من المصارعين للهجوم على حى دار المفوضية المسور فى بكين.

لقد كان هذا ضربًا من الجنون وأنكر هذا بسرعة كبار الموظفين فى المديريات. والأهم من وجهة نظر المائة القليلة من المدافعين من كبار الموظفين الجنرال جنج لو الذى رفض إعارة المدافعين مدفعيته الحديثة. وفى الرابع عشر من أغسطس دخل جيش دولى من ثمانية عشر رجلاً قويًا لإنقاذ البعثة، وكانت مشاكل المصارعين مبررًا لروسيا حيث أعطى هذا العذر لدفع ٢٠٠,٠٠٠ جندى إلى مانشوريا، وتحول المقاتلات من البلطيق إلى فلاديفستك وبورت أرثر. وكانت عملية عدم الثقة المتبادلة بين بريطانيا وروسيا قوية أكثر من قبل، ولكن كانت هناك قيود إستراتيجية عن مدى قيام الحكومة البريطانية فى إحباط ضم منشوريا والإبقاء على سياسة الوضع القائم فى الصين.

وخلال عامى ١٩٠٠ و ١٩٠١ نجحت البحرية فى الحفاظ على تكافؤ الفرص مع فرنسا وروسيا ولكن على حساب تقليل أعداد إيراد الأساطيل داخل الدولة الأم والبحر المتوسط، وتكمن المحاولة الوحيدة فى الوصول إلى توافق مع اليابان التى كانت تعارض رسميًا ادعاءات روسيا فى منشوريا وكوريا.

وسمح التحالف اليابانى البريطانى فى يناير ١٩٠٢ لبريطانيا أن تنسحب من السباق البحرى فى الشرق الأقصى. ووعدت كل دولة بمساعدة حليفتها إذا حدث أى هجوم من دولتين أو أكثر، وهو ترتيب ترك اليابان حرة فى الذهاب إلى حرب مع روسيا دون خوف من التدخل الفرنسى طبقًا لتاريخ الإمبراطورية البريطانية، فإن الوفاق مع اليابان يعد نقطة محورية. وكانت

بريطانيا مجبرة على الإعتراف بأنها لم تعد بعد قادرة على الاحتفاظ بسيادتها على الصين بشكل منفرد، ومن ثم فإن إمبراطوريتها غير الرسمية هناك ستعتمد على النية الطيبة والتعاون مع اليابان.

ورغم هذا فإن النتائج قصيرة الأجل للتحالف كانت عديمة القيمة. وفى فبراير ١٩٠٤ وجهت المقاتلات اليابانية ضربة استباقية ضد الأسطول الروسى فى بورت أرثر، وهى الأولى فى سلسلة مدهشة من الأعمال البحرية والبرية التى هزت الأعلام الروسية فى إمبراطورية الشرق الأقصى، وقلبت الموازين المحلية للقوة، وكان الإذلال الروسى قد لقى قبولاً بكل سرور فى كل بريطانيا والتحالف مع اليابان وهى الأن سند حيوى للادعاءات البريطانية فى الشرق الأقصى. وقد تجدد هذا فى عام ١٩١١. وبالنسبة لشعوب هذه المنطقة ولبقية كل آسيا كان انتصار اليابان ذات أهمية عظمى لليابان كقوة آسيوية أثبتت أن الجيوش الأوربية وأساطيلها يمكن قهرها. وهو اتجاه لم يتغير لمائة عام وقد صار الوضع معكوسًا.

وشهد القرن التاسع عشر فى أماكن أخرى من الشرق الأقصى والمحيط الهادى الإحلال التدريجى للإمبراطورية غير الرسمية بتلك الرسمية، وفى أوائل القرن التاسع عشر جذبت الملايو وجزر الهند الشرقية حفنة من أصحاب الفرص المتحمسين والطموحين وهم السير ستانفورد رافيلز وجون كلونيزروس والأكسندر هير وسير جيمس بروك.

وكان الجميع مهمومين بروح ورؤية كليف (Clive) ومثله لديهم مواهب خاصة فى تحويل الظروف المحلية إلى مصلحتهم وإلى صالح وطنهم، وكانت القوة الهولندية فى مراحل أفولها، وكانت الدويلات الصغيرة المستقلة فى الملايو وبورنيو هشة، وعلى هذا كانت تتوق إلى الصداقة البريطانية والمساعدات المسلحة.

كان رافيلز (Raffles) منزعجًا لفرص بداية إمبراطوريته لشركة الهند الشرقية فى جاوا (Java) ووضع أسس إمبراطورية أخرى فى المالايو عن طريق الحصول على جزيرة سنغافورة فى عام ١٨١٩، واضعًا الطريق التجارى ما بين الهند والصين جانبًا، وفى الحال صارت سنغافورة مركزًا للتجارة الحرة الكبرى فى جنوب شرق آسيا وجزر الهند الشرقية، حاول هير (Hare) أن ينصب نفسه أميرًا مستقلاً فى حنوب بورنيو - لكنه فشل بينما انتهى زميله كلونيس روس (Clanies Ross) فى النهاية كملك لجزر كوكس كلينج فى المحيط الهندي، وقد ألهمت مشروعهم رجلاً متهورًا رومانسيًا يدعى جيمس بروك (Broke)، ونظرا لأنه لم يكن مناسبًا فى إنجلترا فقد سعى إلى العمل مع جيش شركة الهند الشرقية ولكنه لم يكن صالحا للعمل بسبب إصابات أدت إلى اتهامه بالحصان غير المنتظم فى حرب بورما.

وجاءت إجازة بروك المحظوظ عام ١٨٣٣ عندما ورث عشرة آلاف جنيه، والتى زودته بالمال الكافى لبداية مغامرة خطط لها للحصول على منطقة وأن يفتح التجارة على سواحل شمال بورنيو وهناك شيء ما من عصر الملكة اليزابيث لبروك ومشروعه، لكن وجد التأييد السلبى من شركة الهند الشرقية والبحرية.

لقد كانت الدعائم الكبرى لبروك حكمته ورجاحة عقله ورأيه الوحيد وتسليحه الجيد والمراكب الشراعية التى تحمل ١٤٢ طنا تسمى الرويالست (Royalist) والتى جعلته قوه يعترف لها فى السياسات الإقليمية، وما بين تعرفه على الشواطئ والجداول المائية فى شمال بورنيو فى عام ١٨٣٩ و١٨٤١ جعل بروك من نفسه شخصًا لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لهاسم جيل (Hasim Jeal) حاكم بورنيو الذى كان يحاول جعل ساراواك (Sarawak) تحت السيطرة، وعندما خشى هاسم أن يهجره بروك فقلده منصب الراجا لساراواك.

وعندما تم تعيين بروك كرجل قوى لحكم ما ثبت مقدما منطقة دون حكومة بدأ العمل من أجل استعادة السلام ووضع أسس حكومة دائمة واقتصاد مستقر، وكانت أصعب أعماله القضاء على القرصنة الساحلية رغم المساعدة المنتظمة من جانب رجال الحرب البريطانية الموجودين في سنغافورة، وكانت القرصنة في الملايو وبورنيو قائمة ومستمرة رغم أن سفنهم الحقيقية لا توازن أو تعادل بنادق السفن الحديثة.

وأثناء أحد الاشتباكات النهرية عام ١٨٤٣ سجل بروك كيف أنه في ضربة واحدة يمكن القضاء على كل الرجال الذين يخدمون على أحد الجوانب من السفينة وتجبر البقية من البحارة على القفز في المياه حيث يتم إطلاق النار عليهم.

ووافقت الحكومة البريطانية على مكانة بروك كحاكم (راجا) لساراواك رغم أن له أعدادًا كثيرة بين رجال الجماعات الإنسانية الذين يستنكرون وسائله القاسية في التعامل مع القراصنة(٩).

ولقد كانت دولته الصغيرة إضافة مفيدة للإمبراطورية البريطانية غير الرسمية المحلية، وكانت الطموحات الإقليمية في المنطقة قاصرة على إحتلال الجزر بصفتها مناطق صغيرة من الأرض كقواعد بحرية ومراكز تجارية والتى منها يمارس النفوذ على الملايو وسيام وجزر الهند الشرقيه.

ولتحقيق هذا تم الاحتفاظ بجزر بيناج وبورت ولسلى وسنغافورة ومالقا ما بين أعوام ١٧٨٥ - ١٨٢٤ كوطن لرءوس الأصابع المعروفة عموما مضايق التسوية (Straits Settlament) وقد اعتمدت الإمبراطورية غير الرسمية في المالايو على التعاون بين الأمراء المحليين الوارثين والمتوقع أن يحافظوا على السلام والحفاظ على أرواح وممتلكات واستثمارات البريطانيين، وبعد عام ١٨٧٠ أثبتت هذه المهام أنها فوق طاقة حكام ملايو

لأن هذه المنطقة انزلقت في مرحلة من الثورات السياسية والاقتصادية العنيفة، ومنذ خمسينيات القرن التاسع عشر تمتعت "سلانجور Selangor، وبيراك: Perak" مرحلة ازدهار التنقيب عن القصدير (الصفيح) والتى أدت إلى اندفاع هجرة جماعية للمهاجرين الصينيين، وكان هناك ٤٠٠,٠٠٠ في بيراك مع حلول عام ١٨٧٠ ومثلهم مثل أبناء وطنهم فى سلانجور كانوا مرتبطين عاطفيا مع جمعيات سرية عدائية متنوعة وكان صراع الشريحة الصينية فى سيلانجور قد تدهور إلى حرب أهلية مع عام ١٨٧٠ وبعد عام حدث صراع على توارث العرش فى بيراك (Perak).

لقد واجه الحكام المتعاقبون على المضيق كارثة أو محنة حيث كان عليهم بذل كل ما فى طاقتهم واستعادة الاستقرار داخل ملايا (Malaya) بينما فى أحسن التقاليد للإمبراطورية غير الرسمية تظل حياديه، وثبت عمليا بأنه من المستحيل على البريطانيين إيقاف الصراعات المميتة فى ملايو على الأقل لأنها أحبت القرصنة، وفى عام ١٨٧٠ تم إرسال القوارب المسلحة لشل خطوط دفاع المنافس على عرش سلانجور بعد أن عرقل مؤيدوه القبض على بعض القراصنة الصينيين، وزادت مثل هذه الحوادث حتى إنه مع عام ١٨٧٣ صارت سلطات المضايق متورطة فى سياسات المالايو، وقبل ذلك بفترة طويلة أنهى رجال أصحاب المسئولية أن جهاز الإمبراطورية غير الرسمية ليس كافيا لتسوية الأزمة والتى يمكن حلها من خلال التدخل المباشر، وعلى هذا تطورت عملية الشد والجذب بين المسئولين البريطانيين ووزير المستعمرات الليبرالى اللورد كمبرلى (Kimberly) الذى صمم على إيقاف الانسياق البريطانى نحو تولى المسئولية الكاملة فى الملايو، وفى النهاية استسلم عندما حذر دعاة الضم بأن عدم النشاط سوف يدعو إلى التدخل الهولندى أو الألمانى.

وبعد ذلك وحتى فى ظل الحكومات المعادية للاستعمار مثل وزارة جلادستون (Gladstone) لم تجرؤ على انتهاج المغامرة السياسية بالسماح للسلطة البريطانية غير الرسمية بأن تتفوق عليها أى دولة أخرى، واتخذ الرسميون الاستعماريون طريقهم، وألقت بريطانيا بثقلها خلف أحد المطالبين بعرش سلانجور وصدرت الأوامر للقوات الهندية البريطانية لإخضاع بيراك وسونجى يوجنج فى عام ١٨٧٥.

وكانت نتيجة أزمة عامى ١٨٧٣ ، ١٨٧٤ هو ادعاء بريطانيا الحماية الرسمية على بيراك وسلانجور ونيجرى سمبيلان وباهانج، وظلت الهياكل السياسية الموجوده مع الأمراء المحليين مثل زملائهم الهنود تحت إشراف المقيمين البريطانيين، وفى هذا الوقت وبناءً على التوجه البريطانى تم إلغاء الديون والرق المنزلى وتشجع الأمراء ليكونوا حكامًا متعاونين وشركاء فى عملية التطوير، وكجزء من هذه العملية من التقرير تم تأسيس كلية فى كولا كنجسور (Kuala Kangsor) فى عام ١٩٠٥ حيث مارس أبناء الأمراء نظام المدارس البريطانية العامة والتى حسب الشائع سوف تعلمهم كيف يحكمون بشكل مسئول ولقد تزامنت الأحداث فى مالايو بتلك التى وقعت فى فيجى (Fiji) حيث تحطمت الإمبراطورية غير الرسمية تحت ضغط التغيرات التى جاءت بسبب التطور الاقتصادى والاحتكاك مع الأوربيين.

ولقد أدت السياسات المعقدة والشيطانية فى فيجى مع عام ١٨٧١ إلى ظهور موقف غريب، حيث كان الملك ثاكومبو (Thakombou) يحكم كملك دستورى تحت إشراف وزارة من مزارعى القطن الأوربيين والتجار (بما فيها إفلاس بالمزاد العلنى لبنك سيدنى Sydney) لحساب الدائنين واثنين من الرؤساء الوطنيين، وساءت المشكلات الداخلية الحكومية العديدة بسبب وجود لوبى (جهاز) محلى أدعى أن الحل الوحيد لمشكلات فيجى هو الحكم البريطانى.

لقد صار لأصحاب الضم خلفاء في نيوزيلاند ونيوثوث ويلز وبريطانيا، وفي الدولتين السابقتين كانت فيجي ممثلة كدولة ناضجة للإستعمار، وهو جدال ونقاش وسعهما عامة الأستراليين التوسعيين إلى بابيو (Papua) وغينيا الجديدة وفي بريطانيا كان على وزارة جلادستون أن تستجيب للضغوط من جانب جماعات التبشير والإنسانيين ما بين أعوام ١٨٣٥ - ١٨٦٠ وقام رجال التبشير في فيجي بتنصير ستين ألفا، ولكن المعتقد أن الحكم البريطاني سوف يقضي على أكل لحوم البشر والتضحيات الطقوسية من بين الوثنيين الباقين في الجزيرة.

وكان هناك اهتمام أيضا بانتشار الطائر الأسود حسن الصوت (Black birding) وهو شكل من أشكال تجارة الرقيق كان سكان الجزر في المحيط الهادي يجبرون على العمل على ظهر السفن، وبعدها ينقلون كعمال مؤقتين في حقول السماد من صناعة الأسماك البيروبين (Peruvian) أو مزارع السكر في كوين لاند وحاول الأسطول الملكي عرقلة هذه التجارة خلال ستينيات القرن التاسع عشر، ولكن تعطل هذا بسبب رفض القضاء الأسترالي إدانة الخاطفين، وقد أغرت المناقشات التجارية والأنسانية الحكومة البريطانية غير المستعدة للاستفسار عن الانهيار المتوقع للسلطة المركزية في فيجي، وأقتنع المسئولون وضباط البحرية بسهولة أن الجزر سوف تنساق إلى الانهيار إذا لم يرفع العلم البريطاني، وعلى هذا ففي عام ١٨٧٤ وافقت الحكومة على الضم، وكان هناك شعور قوي ومتفق عليه في الدوائر الليبرالية ضد الاتجاه الاستعماري بأن الوزراء قد تفوق عليهم مناورات تحالف جماعات أصحاب المصالح.

وبعد عام ١٨٧٤ تغيرت السياسة البريطانية في المحيط الهادي إلى النمط القديم من الإشراف البوليسي على الجزر من خلال السفن الحربية وتجنب أي تدخل بحرص ربما يؤدي إلى احتلال دائم.

إن رغبة رجال المغامرات الأستراليين التواقين إلى تعيين راجا بروك (Rajah Brooke) فى بابو وغينيا الجديدة قد أحبطتها وزارة المستعمرات التى أوضحت رغم هذا بأن خطوات للحصول على هذه المناطق سوف تتحقق إذا كانت هناك إشارات أو علامات بأن قوة أخرى تدرس عمليات الضم.

وشهد قدوم الاستعمار الجديد فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ظهور ألمانيا وفرنسا وهما تستعدان لطلب ادعاءات على الجزر المختلفة للبحر الجنوبى وعاد الاهتمام الألمانى بالمنطقة إلى ثلاثين عامًا، وخلال ستينيات القرن التاسع عشر تفوقت شركة هامبورج القائمة على جهد فردى وعلى كل منافسيها كتجار عموميين فى الباسفيكى (المحيط الهادى) وانهارت الشركة فى عام ١٨٧٩ لكن بسمارك كان سعيدًا لتقديم العون لحلفائه شركة غينيا الاستعمارية الجديدة (New Guinea Colonial Company) وشركة (Deutahe See-Handels-Gesellschift) لكى تكسب المؤيدين السياسيين من مجتمع رجال الأعمال واللوبى الاستعمارى، ووافق أيضًا على سلسلة من ضم الجزر ما بين أعوام ١٨٨٣ و ١٨٨٦.

وهناك شيء غير واقعى حول إجراءات ألمانيا لإقامة سيادة هناك، ففى عام ١٨٨٦ وصل قارب حربى ألمانى إلى إحدى جزر سولومون (جزر سليمان) وأرسل قوة هبطت ونزلت على الشاطئ وتم تسليم الرؤساء المحليين أعلامًا تجارية وإعلانًا فى صندوق عرض - بينما أعلنت تأسيس المحمية الألمانية الاستعمارية هناك وتم رفع علم ألمانى تم إنزاله بعد ذلك وعاد الموظفون الرسميون والبحارة إلى السفن[١٠].

وسواء فهم سكان جزر سليمان أم لم يفهموا ما حدث بالضبط وفإنهم تأثروا بهذا العرض، لأنهم حكوا وقصُّوا كل تفاصيله إلى ضابط بحرى

بريطانى أربعة عشر عامًا بعد ذلك، وعندما أبحروا عبر الجزر أعاد الألمان أيضًا تسميتها، وصارت بريطانيا الجديدة نيوبوميرن، وهكذا تغيرت أسـماء الجزر مرة ثانية عندما ساومت كل من بريطانيا وألمانيا وفرنسا والولايـات المتحدة على تسوية نهائيه لمن يحفظ أى جزء، ومن ثم حصلت بريطانيا على بابو وجزر سليمان وجبل طارق وجزر إيليس بينما استولى الألمـان علـى سامو (Samoa) وغينيا الجديـدة وخلـيج أرخبيـل بـسمارك وكـارولين وجزرماريانا، وكان المستشار برنس فون بولو مـسرورًا وتوقـع أن هـذا الازدهار للجزر والجزر المرجانية سيصبح ركن زاوية مهمة علـى طـول الطريق إلى ولت بوليتك (Waltpolitic) وكانت السلطة العالمية من هذا النوع رفاهية عالية جدًا لأنه فى عام ١٩١٣ كان على ألمانيا أن تدفع ١,٨ مليـون مارك إعانة للإبقاء على إمبراطوريتها فى المحيط الهادى(١١).

لكن فى فترة ذروة الإستعمار الجديد أخذت القيمة الاقتصاديه المكانـة الثانية بعد الكرامة (Prestige) والتى أعطت أهمية مبالغ فيها علـى أصـغر الجزر، وفى أغسطس ١٩٠٠ تفاخر الرسميون الفرنـسيون رجـال قبائـل بيوهيردين أن هذه الأرض تخص الشركة الفرنسية، وأنك لن تستطيع العمل بها أكثر من ذلك وسوف يتم إجلاؤهم هم والبريطانيون أيضا من الجزيـرة ونستولى عليها لأنفسنا(١٢).

وكان هذا فى الغالب، وقبل هذه العاصفة، يعنى القليل جدًا رغم أنهـا كانت مخيفة لهؤلاء الذين فى المستقبل، وبعد ست سنوات وافقت الحكومتان البريطانية والفرنسية علـى حكـم نيـوهيربز (Hebrides) حكمـا ثنائيـا (Condominium) وظلت الجزر البريطانية المبعثرة فـى الباسـفيكى لعـدة سنوات متخلفة وأكثرها نسيانًا من مستعمراتها، ولـم تكـن لأى منهـا أى إمكانات اقتصادية، وجميعها مُنى بمستويات سكانية متناقـصة وانخفـضت

فيجي بنحو ٣٠,٠٠٠ نسمة ما بين أعوام (١٨٦٠ - ١٨٧٣) وتوقف التدهور فقط في عام ١٩٢١، أما الأمراض المستوردة والتي لا يمتلك أهالي الجزر نظما للحصانة الفاعلة، وكانت هذه مسئولة بشكل كبير على هذه الخسائر، وقد بذلت جهود لقلب هذه العملية مع بعض النجاح، وكانت نسبة الوفاة بين العمال في الجيش البريطاني في جزر سليمان قد إنخفضت من خمسة إلى ثلاثة في المائة ما بين أعوام (١٩٠٦ - ١٩٢١) ويرجع هذا إلى جهود وعمل الضباط الطبي الاستعماري وتم بناء مستشفى. وكانت الإدارات الاستعمارية الجديدة مهتمة بالرفاهية الأخلاقية لسكان جزر الباسفيكي، ولكن محاولات القضاء على العادات السيئة مثل الحروب بين القبائل والتي واجهت مقاومة من السكان، واستمر العداء والضغائن بين سكان جزر سليمان حتى عشرينيات القرن العشرين رغم الشنق الشائع للمحاربين المتهمين بجرائم القتل.

وكان الرجال المحاربون من المالايتا (Malaita) أو الراموس (Ramos) فخورين بتقاليدهم الحربية وعندما يتحداهم ضابط في الأحياء المحلية والذي صنف نفسه على أنه سوبر رامو (Super Ramo) - وكانت النتيجة اشتباكًا وقُتل هو فيه مع ثلاثة عشر من رجال الشرطة في أكتوبر ١٩٢٩ وهناك مصدر آخر للإزعاج والمضايقات للسلطات وهو عدم استعداد السكان في الجزر في الاندماج مع اقتصاد السوق الذي أدخل حديثًا، ولقد تأسف تقرير رسمي في عام ١٩٣٢ عن تطور جزر سليمان لأن سكان جزيرة جيلا Gela مازالوا يرفضون النمو بشكل أكبر مما هو مطلوب لأنفسهم لشراء التبغ والضروريات الأخرى القليلة(١٣).

ورغم هذا صار ٧,٠٠٠ من سكان الجزر جزءا من الاقتصاد الجديد بالعمل كعمال في المزارع الجماعية الأوربية.

ويبدو أن الظروف كانت قاسية ففى عــام ١٩٢٢ تــم اتهــام ثلاثــة من المراقبين الوطنيين بقتل أحد العمال - لكن تمت تبرئتهم من التهمة مثل السيد C. V ماكسيول مدير أحد المزارع الذى أُتهم بضرب خادم شاب حتــى الموت على أن هناك بعض الجوانب المظلمة وغير السارة فى أقصى أجزاء الإمبراطورية بعدًا.

(٦)

قطر عظيم يتحدث اللغة الإنجليزية

جنوب أفريقيا

كتب اللورد كلندون (Calendon) حاكم مستعمرة الكيب فى عام ١٨٠٩ إن القيمة الحقيقية لهذه المستعمرة أنها تعد قاعدة أمامية ثانوية لحماية وأمن ممتلكاتنا فى الهند الشرقية(١).

يفسر هذا الرأى أسباب احتلال بريطانيا للكيب لبضع سنوات من قبل، وأسباب إصرارهم على الإبقاء عليها فى نهاية الحروب الفرنسية.

لقد ظلت القيمة الإستراتيجية للكيب دون تغير للمائة عام التالية، ففى أوائل القرن العشرين حدد الأدميرال اللورد فيشر (Fisher) أول أمير للبحر مدينة الكيب إلى جانب سنغافورة والإسكندرية وجبل طارق وميناء دوفر باعتبارها واحدة من المفاتيح الإستراتيجية الخمسة التى تغلق العالم(٢).

وفى عام ١٨٨٧ بعد عشرين عاما من افتتاح قناة السويس تقريبا تم اختيار مدينة الكيب باعتبارها أول مركز أساسى لتدعيم القوة فى الهند فى حالة الحرب مع روسيا(٣).

وفى هذا الوقت كان يحرس مدينة الكيب ١٤٢٠ جنديًا من قوات نظامية تدعمها ثلاثة آلاف من المتطوعين المحليين(٤).

وإذا كان على بريطانيا أن تحكم الأمواج فإن عليها أن تحتفظ بالكيب ولم تكن هذه مهمة سهلة أو مجدية، لأن الكيب تقع فى منطقة حيث كانت الثورات الإثنية حادة ولمدة السبعين عاما الأولى من القرن التاسع عشر كان النمو الاقتصادى راكدًا، حيث ورثت بريطانيا مجموعة من السكان البيض المتفرقين من الهولنديين وأسلاف الفرنسيين الذين سموا أنفسهم باسم البوير أو الأفريكانور منهم ٢٥,٠٠٠ من السود العبيد الذين يعملون من أجلهم و ١٥,٠٠٠ من الكيوهيوس:Khoikhois (الهوننتوت)، وعاش على الحدود الشرقية للمستعمرة ١٧,٠٠٠ من الإكسوزا الذين يعشق الأوربيون أرضهم والذين كانوا فى حرب من أجل الدفاع عن هذه الأرض منذ عام ١٧٧٩.

وكان شعب البوير هو الجنس الرئيسى الموجود، فلقد جاءوا أولاً إلى الكيب فى عام ١٦٥٢، ورأوا ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم فى ضوء كفاح دائم وبلا نهاية لإخضاع الأرض وسكانها من السود، وكان كلاهما مقدرًا للبوير حسب الإرادة الإلهية والتى كانت حسب النظرية الكالفينية البدائية قد اختارته العناية الإلهية مثل اختيار الإسرائيليين حسب العهد القديم لأن يكونوا أسيادًا للكنعانيين الجدد، ومثل البريطانيين تخيل البوير أنفسهم الأداة المباركة للرعاية الإلهية، وهو اعتقاد أعطاهم قدرة ومرونة وإحساسًا بالقوة الداخلية[٤].

وفى ظل الإدارة المعتدلة لشركة الهند الشرقية الهولندية تم ترك البوير بدرجة كبيرة للعمل بوسائلهم الخاصة، وتم السماح لهم بسياسة حرة مع الأهالى الوطنيين، وقد انتهت هذه الحالة من الأحداث مع فرض الإدارة الاستعمارية البريطانية والتى شعرت أنها مضطرة للتعامل حتى لمائة مرة مع كل الرعايا، وأن تفرض الحقوق القانونية الأساسية على كل السود بل على أجناس مختلطة، وعلى هذا لم تحدث أى مشاركة بين البوير ونظام حاول تطبيق مبادئ ليبرالية إنسانية اعتبرها البوير غير مفهومة، وهناك

مصادر أخرى تحدث انشقاقا بين الحكام والمحكومين وكان حكام الكيب أرستقراطيين وبعضهم مثل السير بنجامين دوربان، يستطيع هؤلاء والهيئة المتصلة بهم أن يميزوا عدم وجود علامات من الحضارة بين البوير الذين يظهرون غرابة وفظاظة وسرعة الغضب.

لقد ارتعد المتضررون من ممارسة العبودية وجماعة افغارة على الرق والذين يفترسون المجتمعات الوطنية عندما تكون هناك حاجة لسد النقص فى القوة العاملة من البوير.

ولقد تدهورت العلاقات بين السلطات الاستعمارية والبوير بسرعة بعد عام ١٨١٥ لدرجة أنه فى عام ١٨٣٤ عندما قرر آلاف البوير الانسحاب إلى المناطق الداخلية من جنوب أفريقيا أو ما سماه البوير فى الأساطير البويرية الهجرة الكبرى (Great Trek) عملية بطيئة وغير مستوية والتى استمرت سنوات عديدة[٦].

وكانت فى جزء منها ترجع لقرار البرلمان البريطانى بإلغاء الرق فى عام ١٨٣٣ ورغم أن الضغط على الأرض فى الكيب قد أجبر الكثيرين من البوير على الهجرة، وفى البداية خشيت حكومة الكيب أن تؤدى هذه الهجرة الجماعية إلى حرب واسعة بمجرد تحالف مع التدييل ودويلات الزولو التى توجد فى طريقها، وفى عام ١٨٤٢ انضمت جمهورية البوير الجديدة فى ناتال كإجراء احتياطى، وفى الحقيقة استطاع البوير المسلحون بشكل جيد الاهتمام بأنفسهم، وكانت انتصاراتهم الواسعة على قبائل التدييل والزولو فى أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر قد مكنتهم من احتلال ما صار يسمى جمهورية الترنسفال والأورانج الحرة.

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن الهدف الملح والعاجل للسياسة البريطانية فى جنوبى أفريقيا هو تحقيق الاستقرار المحلى، فقد رأت الحكومة أنه لا

يوجد هدف مفيد فى محاولة إجبار جمهوريات البوير أو إخضاعها وفى عام ١٨٥٤ اعترفت بريطانيا رسميا باستقلالها على شرط أنهم يعترفون بالسيادة البريطانية التى تجعلهم على الأقل جزءًا من الإمبراطورية البريطانية غير الرسمية، وهناك شكوى بويرية دائمة بأن البريطانيين قد فشلوا فى التعامل بشدة مع الإكسوزا حول الحدود الشرقية المتغيرة، وكان التاريخ الحالى للإكسوزا أو الكافير كما كانوا يسمون السود من جنوب أفريقيا دون تميز إحدى الحروب المتقطعة لحماية أرضهم من التوسع الاستيطانى، واستمر إحدى الصراع وزاد بعد وصول البريطانيين، وكانت هناك حملات فى أعوام ١٨١١ ، ١٨١٢ و ١٨١٩ - ١٨٣٤ ، ١٨٣٥ ، ١٨٤٦ - ١٨٤٧ و ١٨٥٠ - ١٨٥٣، وكان الإكسوزا فى نفس الموقف مثل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية، حيث كان المستعمرون يشقون طريقهم حسب هواهم وكانوا يسعون لنفس المصير، وقد تحدد هذا بشكل وحشى فى خطاب أرسله أحد القادة إلى وزارة الحرب خلال حملة عام ١٨٤٦ جاء فيه(٧):

"يجب أن يطرد الكافير عبر نهر كيى (Kei) ويجب أن يكون أحد رعاياك مطلوبًا لزراعة أرض المستعمرين". واستطرد مسئول آخر وتوقع القضاء على الإكسوزا باعتباره المحصلة الوحيدة للصراع على الأرض يجب أن يتراجع الود أمام الرجل الأبيض وكل محاولات التحضير العقيمة، إن الحاجة العظمى هناك لوجود جهاز من المستعمرين المتحمسين لكى يعضد القوات العسكرية".

إن حرب الحدود المزعجة ضد عدو مراوغ كانت دائما قاسية على الضمائر - ولكن هذه الملاحظات تجعل من الواضح أن بعض البريطانيين قد بدأوا يفكرون بنفس طريقة البوير، إن جنوب أفريقيا تخص الرجل الأبيض وعلى السود الخيار القاسى ما بين القضاء عليهم أو الاستسلام للبريطانيين،

إن القضاء على الإكسوزا محفوف بالمشكلات لأنها حروب ساذجة تحارب في دولة وعرة يعرف سكانها مناطقها بشكل دقيق، وقد شرح قائد بريطاني في حملة عام ١٨٤٦ ووصف المحارب الإكسوزى على أنه وحشى ملوث بالشحم تتكون كل ملابسه من ريش على رأسه وحزام حول وسطه ويجرى بسرعة الحصان(٨).

إن السيطرة على مثل هذا الخصم عملية صعبة ومحبطة، ورغم هذا فإن حرب الشجيرات حادث للتخفيف من واجبات الحصون الصعبة.

"لا أستطيع الإبقاء على القفر فرحا بفكرة أن أصبح جنديا حقا، كما أخبر الضابط فيمنج من الكتيبة الخامسة والأربعين أسرته وهو يستعد للعمل في يوليو ١٨٤٦، وبعد ستة أشهر كان يعانى من الدوسنتاريا، وفقدان الشهية وسعال حاد، وظل يحافظ على حياته باستخدام جرعات من الخمر وماء الكينين الذى يعالج المالاريا.

وحقق كل نزواته عندما انتهت الحرب وعاد إلى إنجلترا ليتلقى الأوامر المقدسة وكما هو الحال فى الكثير من حروب الحدود الاستعمارية، كان هناك بعض الأهالى الذين هم على استعداد لوضع معلوماتهم المحلية ومهاراتهم تحت تصرف الغزاة، وكان الكوفيرى يستخدمون كشافة أو المشاركة فى المناوشات رغم أن أعدادًا كبيرة هربت خلال عمليات أعوام ١٨٥٠ و١٨٥٣ ضد الإكسوزا نجوويكا (Ngquika) وبالتدريج ومع سياسة حرق الأرض التى جعلت معارضيهم يموتون جوعا استطاع الجنود البريطانيون المعروفون باسم (سياطين الحصبة) فرض سيطرتهم، ولكن ظلت روح المقاومة قوية، وفى عام ١٨٥٥ اشتدت عزيمة الإكسوزا عند سماع شائعات أن البريطانيين قد انهزموا فى حرب القرم، وأن القوات الروسية سوف تظهر بعد فترة قصيرة وتطرد كل البريطانيين من الكيب.

وفى الحقيقة وصل الجنود من القرم ولكن كانوا مرتزقة ألمانا يستخدمون لتعويض المجندين البريطانيين.

وكانت وزارة الحرب قد تحملت خسائر فادحه بسبب حملات الحدود فى الكيب، وقامت بإحياء وبعث سابقة كان الرومان يستخدمونها للحفاظ على النظام فى مناطق الحدود الفوضوية، فكان المرتزقة مثل رجال الفيالق السابقة يمنحون مزارع مقابل الدفاع عن القرى المحصنة فى المناطق التى تم السيطرة عليها من الإكسوزا حديثا(٩).

ومن وجهة نظر لندن، كانت الكيب وتوابعها الصغيرة ناتال مستعمرات سندريلا (Sinderella) وباستمرار تزعجها اضطرابات داخلية وخارجية وكلاهما كانت أسواقا غير مشجعة للصناعات البريطانية، ففى عام ١٨٥٥ استوردت جنوب أفريقيا سلعًا بريطانية بما قيمته ٩٢٢,٠٠٠ جنيه إسترلينى وضعتها على نفس مستوى بيرو وأقل من الأرجنتين وشيلي.

لقد اتبعت التطورات السياسية فى المستعمرتين نفس المسار مثل دويلات كندا وأستراليا تحت إشراف وزارة المستعمرات وتأسس برلمان منتخب فى الكيب عام ١٨٥٤ وفى ناتال بعد ذلك بعامين، وكانت الضغوط من الأحرار المحليين والبريطانيين قد انتهجت نظام الاقتراع الذى شمل السود الأغنياء والناخبين من الجنس المختلط، وقد تم هذا على أمل أنه لم تظهر طبقة وسطى من غير البيض فى النهاية وتنضم إلى البيض لتشكيل نظام انتخابى ثابت ومسئول مثل ذلك الموجود فى بريطانيا المعاصرة.

وشهدت فترة أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر ثورة اقتصادية فى الكيب أثرت أحداثها فورًا على كل جزء من جنوب أفريقيا، وكان اكتشاف الألماس فى حريكوا لاند التى انضمت بسرعة، لمستعمرة تاج عام ١٨٧١ قد جذبت المهاجرين والاستثمارات بشكل لم يسبق له مثيل.

وارتفعت الواردات البريطانية فى الكيب من مليونين من الجنيهات فى عام ١٨٧١ إلى ٧,٧ ملايين جنيه كل عشرين عاما عندما وصلت كل الصادرات فى الكيب إلى ٩,٥ ملايين جنيه وجاء ثلثها من الألماس وما بين أعوام ١٨٧١ و ١٨٧٥ افتتحت حكومة الكيب برنامجًا طموحا لبناء السكك الحديديه، ومع حلول عام ١٨٩٠ صار للمستعمرة شبكة من السكك الحديدية امتدت لأكثر من ألفى ميل وكانت عمليات التنقيب عن الألماس ومد خطوط السكك الحديدية أنشطة مكثفة وتحتاج إلى عمالة وتتطلب قوة عمل واسعة وغير ماهرة والتى يمكن أن توجد بين السكان السود، وإذا كان للصناعه أن تتقدم من تهدئة السود فى جنوب أفريقيا تمامًا، إن الحاجة لتأكيد سيادة البيض أصبحت ملحة مع منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر عندما استخدم العمال المهاجرون خصوصًا البيدى (Pedi) من الترنسفال والباسوتو الأجور التى يكسبونها من العمل فى حقول الألماس لشراء البنادق وصار من المتاح وجود البنادق القديمة والأسلحة الحديثة على نطاق واسع، وكان بعضها يستورد من ناتال ولبضع سنين كان ملوك الزولو يبنون ترسانة من الأسلحة النارية(١٠).

وكان من الضرورى وجود سكان سود سلبيين لتعضيد خطة وزير المستعمرات اللورد كارنارفون (Carnarvon) لتأسيس اتحاد فيدرالى يضم الكيب وناتال وجمهوريتى البوير، وأصبح هذا حلاً مثاليًا للمشكلات الإقليمية لأنه سوف يبنى وحدة ثابتة ومستقرة والتى يعود الفضل فيها إلى الدخل من الموارد المعدنية والتى تدعمها بشكل ذاتى، وقد لقى المشروع ترحيبًا خاصًا فى المستعمرتين البريطانيتين، لكنه لم يجد سوى الترحيب البسيط مع البوير الذين وجدوا فيه خدعة حربية ليستطيع البريطانيون السيطرة على كل المنطقة.

ولقد توقف التقدم نحو الاتحاد الفيدرالى فى أعوام (١٨٧٦ – ١٨٧٨) بسبب سلسلة من الثورات الوطنية والحروب التى صارت آخر جهد كبير من جانب السود فى جنوب أفريقيا لعرقلة تقدم السلطه البيضاء، وكانت هناك الاضطرابات بين الجريكوا فى شمالى الكيب والبيدى والباثوثو فى الترنسفال والتجويكا والإكسوزا الجاليكا (Gcaleka) فى شرقى الكيب، واستطاعت القوات البريطانية والمحلية وأصحاب المعاطف الزرقاء والبحارة السيطرة على الإضطرابات فى الكيب باستخدام أحدث التكنولوجيا العسكرية بما فيها المسدس الحديد من ماركة مارتينى هنرى والبنادق الآلية من جاتلنج، وكانت حملة البوير ضد البيدى من سيكهنونى (Sekhukhuni) قد انتهت بمشكلة عندما انهزمت وحدة من المتطوعين من رجال المسدسات المحمولة، وأظهر هذا الانتكاس ضعف الترنسفال وأعطى لكارنافون حجة وذريعة مقبولتين لضمها فى يناير ١٨٧٧. وكان البوير شاكرين لهذا التدخل البريطانى الذى ضمن فى هذا الوقت سلامتهم وأمنهم، وقاد السير ثيوفيلس شبستون (Theophilus Shepstone) الانقلاب ضد الترنسفال وهو رجل صاحب رأى مستقل وبيروقراطى استعمارى مع نزعة نحو اللغات الوطنية وتذوق جو المؤامرات وبينما ينظر البوير اليه باعتباره المخلص، فإن شبستون رأى أن احتلال جمهوريتهم مقدمة لضمها فى اتحاد جنوب أفريقيا الفيدرالى المقترح، وكمتحمس للاتحاد الفيدرالى أقنع شيستون نفسة أن إجراءات الإنشاء لن تحدث حتى تضعف دولة الزولو.

وكان القضاء على مملكة الزولو أيضا هدف السير بارتل فرير (Frere) الحاكم الجديد للكيب والذى علمته التجربة الهندية أنه من الخطورة السماح بوجود أى دولة محلية مستقلة ومنظمة تنظيمًا جيدًا على حدود الإمبراطورية، خلال عام ١٨٧٨ تآمر كل من فرير وشيبستون لتنظيم حرب مع تشسوايو

ملك الزولو متجاهلين حقيقة أنه لم يظهر أى عداوة نحو جارته الجنوبية دولة ناتال، وأرسل القنصلان تقاريرهما إلى وزارة المستعمرات لكـــى يظهـــروا تشيسوايو على أنه طاغية محارب وبالغوا فى حجم جيشه وادعـــوا بـــشكل خاطئ أنه قوة ثابتة وليس مجموعة من الرجال الذين تـــم تعبئـــتهم بـــشكل طارئ، وحسب هذه النظره التشاؤمية كان الأمل أنه بمجرد أن تنتهى مملكة تشسوايو فإن رعاياه سيصبحون قوة عاملة تابعة تحت تـــصرف الفلاحـــين البيض فى ناتال والشركات التى تنقب عن المعادن(١١).

وبعد أن تم وضع تستشوايو فى مكان حرج نجـــح كـــل مـــن فريـــر وشيستون فى فرض الحرب التى يريدونها فى يناير عـــام ١٨٧٩، وبـــدأت لسوء الحظ فى ظل القيادة السيئة للقائد اللورد شلمـــسفورد (Chelmosford) وفى نهاية الشهر تم القضاء على ١٢٠٠ من الجنود البريطـــانيين الأقويـــاء ومعهم بعض المساعدين من الأهالى فى معركة أريساندلاوانا، وبعـــد ذلـــك بقليل وفى تحد لأوامر تستشوايو عبرت مجموعة ما بين ثلاثة أو أربعة آلاف محارب إلى ناتال، وهاجمت مقر البعثة التبشيرية فى رورك دريفـــت Drifts والتى كان يحميها ١٣٩ رجلاً من الفرقة الرابعة والعشرين، وكان الكثيرون منهم غير مناسبين، وفى قصيدة ملحمة الحرب التى استمرت لأكثر من أربع وعشرين ساعة تم صد المهاجمين مع خمسمائة قتيل ولم يتناول الجنود طعامًا لمدة يومين وقد أرهق ذلك الزولو، وكانت قوة النيران البريطانية قد عوضت عدم التكافؤ فى العدد(١٢).

وتذكر أحد الباقين على قيد الحياة ويدعى كالارسير جانت (Colour Sergent) والذى صار بعد ذلك الكولونيل بونو (Bourne) كيف نجح عدد قليـــل مـــن الزولو فى الوصول إلى الدفاعات المرتجلة وأن الذين قاموا بـــذلك لإظهـــار احتقارهم وعدم الخوف من المعاطف الحمراء وحاولوا القفز على الحواجز، وفى بعض الأحيان استولوا على حرابنا لكى يوقفوا تقدمها.

ورغم هذا أظهر المدافعون ثباتًا وشجاعة غير عاديتين وتم منح أحد عشر منهم وسام "صليب فيكتوريا: Victoria Cross" ولقد كانت مشكلة الزولو هى أن قوادهم كانوا مشهورين باستخدام الرماح التقليدية الطويلة المعروفة لدى محاربى الزولو، وقد نجحت هذه مثل ما حدث فى معركة السندوانا، ولكن بعد خسائر وصلت إلى خمسة آلاف جندى، ورغم هذا تكررت خطط مشابهة طوال الحرب رغم أن تستشوايو حث قواده على انتهاج إستراتيجية حربية ومهاجمة الخطوط الممتدة من المواصلات(١٣).

ولقد أصيبت الحكومة البريطانية بخيبة أمل بسبب أداء رجالها وسحبت من الخدمة كلاً من شبستون وفرى وشلمفورد، وأحلت محلهم القائد الأكثر منهجًا وقدرة السير جارنت ولسلى، والذى وصل إلى أرض الزولو فى وقت متأخر جدا للقضاء على جيش الزولو فى معركة أولوندى (Ulundi) فى شهر يوليو، وفى هذا الوقت أصبح كل فرد موجودًا فى العمل يعرف ما هو المتوقع منه، وكان البريطانيون ينتشرون فى شكل جبهة على نفس أسلوب نابليون، وذلك لتركيز قوة نيرانهم(١٤)، وأما الزولو فقد تحطمت عزيمتهم بشكل مستمر وشنوا هجومهم المعتاد ولكن كما شاهد الملاحظون دون اقتناع ويتطلب القضاء على مملكة الزولو جهدًا ضخمًا، وحققت الحكومة الإنجليزية إنجازات قيِّمة كبرى فى الجنوب الأفريقى، وتم دفع ١٧,٠٠٠ مقاتل إلى ناتال وتطلب توجيه عمليه قتال الزولو ٢٧,٠٠٠ من الثيران و٥٥٠٠ من البغال و٣٠,٠٠٠ من الجمالين الوطنيين والعمال.

وكانت فاتورة الحساب النهائية ٤,٩ ملايين جنيه(١٥).

ومع أرض الزولو الواسعة ركز ولسلى اهتمامه على سكهولونى التى انهزم سكانها من البيدى من خلال قوة مشتركة من السوازى والهاى لاندرر، أما الباسوتو الذين قلدوا البوير وحاربوا بقوات مشاه مسلحة بالمسدسات فقد

أثبتوا أنه صعب كسرهم مثل البندقية، وكانت النتيجة أن صارت أرض الباسوتو محمية بريطانية يحكمها رؤساء وطنيون محليون، وفشلت تجارب من نفس النوع فى أرض الزولو، وفى النهاية ضمتها ناتال، وحققت حملات أعوام (١٨٧٧ - ١٧٧٩) أغراضها وتم القضاء على المقاومة الأفريقية واسعة النطاق، وتأكدت السيادة البيضاء على المنطقة لمدة زادت على مائة عام.

وسجلت عملية قيام الجيش البريطانى بإخضاع السكان السود فى جنوب أفريقيا بداية نضال قوة جديد بين البريطانيين والبوير وما إن صار من الواضح أن الاحتلال البريطانى للترنسفال لم يكن إجراءً نهائيًا ولكن استعدادا لدمجها فى الاتحاد الفيدرالى لجنوب أفريقيا، وهذا ما جعل البوير يثورون من جديد وانتهت حرب الترنسفال للاستقلال فى عامى ١٨٨٠ و١٨٨١ بهزيمة قوة بريطانية صغيرة، والتى تم حصارها فى قمة جبل ماجوباهيل فى شمالى ناتال، وقد حاول البريطانيون استخدام نيران المسدسات السريعة وطويلة المدى عند المشاة، لكن احتفل البوير بانتصارهم حسب إرادة الله ضد جنس معروف أنه غير متدين. وشهدت حكومة الأحرار المنتخبة حديثا المعركة كنتيجة للسياسة غير الأخلاقية التى قادها جردستون فى حملته فى الانتخابات العامة، وكانت خطط تأسيس الاتحاد الفيدرالى التى كان البوير يعارضونها بشدة قد سقطت واستردت الترنسفال استقلالها، مع ذلك فإنه خلال المفاوضات فى بريتوريا عام ١٨٨١، ومفاوضات لندن بعدها بثلاث سنوات تمسكت الحكومة بادعاءات السيادة على جمهوريات البوير ومع حقها فى التدخل فى تشكيل سياساتها الخارجية والداخلية.

وفى هذا الوقت لم يكن الأمر سوى وجود نقطة قانونية أكاديمية تعطى أهمية ضخمة خلال العشرين عاما القادمة، ولقد شهدت هذه الفترة التوسع البويرى المنتظم شمالاً وشرقًا وبعد اكتشاف الذهب فى ويتوترزلاند

عام ١٨٨٦، وتحول اقتصاد الترنسفال، وما إن بدأ إنتاج مناجم الراند (Rand) حتى إنها زودت ربع إنتاج العالم من إمدادات الذهب وأكدت أن مركز القوة الاقتصادية فى جنوبى أفريقيا قد انتقل بعيدًا عن الكيب إلى الترنسفال ومع حلول عام ١٨٩٦ صارت حكومة الترنسفال أغنى حكومة فى أفريقيا مع دخل سنوى يزيد على ثمانية ملايين جنيه من الموارد المعدنية، وقد أحدث الرصيد البريطانى ثورة اقتصادية، ففى عام ١٨٩٩ وصل الاستثمار البريطانى فى الترنسفال ٣٥٠ جنيهًا إجماليا، وامتلك حملة الأسهم البريطانيون ثلثى مناجم الراند.

وكان السؤال الذى يدور حول جنوب أفريقيا خلال العقدين الأخيريين من القرن التاسع عشر كيف يمكن استخدام ثروة الترنسفال الجديدة وأثرها على وضع بريطانيا فى المنطقة، وكان هذا السؤال الأخير محل اهتمام سيسيل رودس الذى أصبح فى أوائل الثلاثينيات مليونيرًا كبيرًا من خلال تجميع امتيازات مناجم الألماس.

ومع عام ١٨٩١ أصبح رودس يحتكم على مناجم كمبرلى لشركة رودس دى بيرز المتحدة، وصارت له استثمارات واسعة على كل مناجم الراند.

لقد صار رودس أشهر استعمارى فى عصره كما يقول البعض، فقد كان فاقد الإحساس بالمسئولية ميالاً للكسب (ينام فى الهواء الطلق خلال حملة ١٨٨٤ على بتسوانا لاند، وحاول أن يحصل على بطانية كان يشترك فيها مع ضابط بريطانى) وكان رجل أعمال كيًا وكانت ثروته خادمًا لأحلامه، وكانت هذه مستوحاه من الداروينية الاجتماعية المعاصرة والاستعمار الجديد الذى أثبت أنه مصير الأجناس الأنجلو سكسونية لتمدين العالم، ولم يستطع أى شىء مقاومة قوة قيصر، وبالتأكيد ليست الحقوق التى تقف فى طريقه وفى فترة التأمل استمع إلى شكوى القيصر ولهلم الثانى بأن ألمانيا قد دخلت مرحلة

السباق على الإمبراطورية متأخرة، أنه لم تعد هناك شيء لـه قيمـة لهـم فى أى مكان.

وكان رد رودس " نعم يوجد سيادتك فهناك آسـيا الـصغرى" وبـلاد الرافدين (Mesopotamia) وأن هذه المناطق تتبع تركيا ولا يهم رودس، ولقد أدهشت طموحات وتهوّر رودس كل المعاصرين، ولاحظ فـسكويت ملنـر "أن الرجال يحكمون بنقاط ضعف فى سلوكهم، وأن نقطة ضعف رودس هى الحجم".

ومثله مثل كل الخارجين عن الجماعة ويختطون لأنفسهم مسلكًا مستقلاً أمثال كلايف وبروك، وبعد ذلـك ت. ى لـورانس الـذين جـاءوا لبنـاء الإمبراطورية بالمصادفة فإن خيال ومواهب رودس لم تكن ظاهرة فى حياته المبكرة، لقد شارك الآخرين الثلاثة فى حسن حظهم بكونه الرجل المناسـب فى المكان المناسب، وبالطبع كانت له ميزة منفردة تتطلبه للثروة واسـتطاع أن يحقق أحلامه بها.

وأيضا كانت له فى كل جولة مساعدة الحكومات البريطانية المتعاقبـة والتى بينما الكثيرون من أعضائها لا يشاركون اتساع رؤية رودس إلا أنهم رأوا فيه أداة مفيدة جدًا للحفاظ وتوسع النفوذ البريطانى فى جنوبى أفريقيا فى وقت كانت تتعرض فيه للخطر.

لقد تحقق أول انقلاب لرودس بالتعاون مع وزارة جلادسـتون لـضم تبسوانا لاند فى عامى ١٨٨٤ ، ١٨٨٥، ففى خلال السنوات الخمس الماضية كانت جماعات من المستقرين من البوير يحتلون هذه المنطقة حيث أسـسوا الجمهوريات الصغرى فى جوش وسيتلا لاند، وفـى نفـس الوقـت كـان المستعمرون الألمان يتحركون ناحية الداخل من مستعمرتهم الـصغيرة فـى

إنجرابكونيا، وكانت هناك مخاوف فى مدينة الكيب ولندن بأنهم سوف يربطون ذلك مع البوير، وتكون النتيجة إغلاق طريق الإرساليات " الذى يمتد شمالا نحو ما كان معروفا فى ذلك الوقت بزامبيا" (تقريبا زيمبابوى الحديثة)، وزامبيا كانت منطقة معروفة على نطاق واسع بأنها غنية بالمعادن.

وكانت هناك أيضا إمكانية ظهور محور الترنسفال ألمانيا، وهذا ما سبب قلقا عظيما للحكومة البريطانية فى أبريل ١٨٨٤، وعندما زار بول كرومر رئيس الترنسفال برلين، تحدث بشكل علنى عن ارتباط شعبه مع ألمانيا " مثل الطفل تمامًا الذى يبحث عن الدعم من والديه، وهكذا فإن دولة الترنسفال الحديثة تبحث وتأمل فى حماية من الأم القومية ألمانيا وعظمتها المجيدة "[١٦].

لقد كان هذا كافيا لإثارة الحكومة البريطانية القلقة بالفعل من ظهور مستعمرات وأماكن استقرار ألمانية فى جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا)، وتحت الضغط من رودس والجماعات التبشيرية التى خشيت على مستقبل بتسوانا فى ناشوتر لاند فى ظل حكم البوير، وفى ديسمبر ١٨٨٤ صدرت الأوامر الى قوة صغيرة مسلحة جيدًا لدخول المنطقة وطرد البوير وإعلان محمية على بتسوانا لاند وهذه العملية تمت بدون مساعدة من الدولة الأم.

لقد كان رودس هو المستفيد الأكبر من ضم بتسوانا لاند وهى مستعمرة ذات قيمة اقتصادية قليلة وكانت تكلف بريطانيا ١٠٠ر٠٠٠ جنيه سنويا فى شكل مساعدات خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، لقد كانت بتسوانا لاند نقطة تدخل رودس فى زامبيزيا وهو تعهد سيتم إنجازه من خلال شركة جنوب أفريقيا البريطانية والتى كانت قد حصلت رسميًا على براءة ملكية فى عام ١٨٨٩، وتمثل هذه الشركة مثل نظيراتها كشركة النيجر الملكية وشركة شرق أفريقيا الاستعمارية البريطانية وشركة شمال بورنيو إحياءً لمشروعات القرن السابع عشر للتجارة والاستعمار الخاصة، وكسبت الحكومة السيادة على المناطق

الجديدة بمبالغ رخيصة لأن الإدارة القومية والبوليس كانا فى أيدى رجال الإدارة بالشركة، وكان امتياز شركة جنوب أفريقيا البريطانية من أجل الزراعة والتعدين فى أرض الماشونا، حيث تم منح حقوق الإستقرار والبحث عن المعادن عن طريق لوينجبويلا ملك البنديبلى مقابل منح الشركة ألفًا من مسدسات مارتينى هنرى وقاربًا حربية فى نهر الزامبيزى والذى لم يسلم بعد، وفى نهاية عام ١٨٩٠ دخل مملكة لوينجويلا أول فريق من المستقرين وعددهم أقل من أربعمائة شخص لكنهم كانوا مسلحين بأسلحة ثقيلة مع البنادق الآلية والمدفعية، إن أحداث السنوات العشر التالية توازى تلك التى قام بها الأوربيون فى أمريكا الشمالية خلال القرنين الماضيين، وأدرك لوينجيويلا بالتدريج أنه يمنح امتيازات للشركة قد أضعف سلطاته الخاصة، والتى حاول إعادة تأكيدها فى خريف ١٨٩٣ وذلك عندما أصدر الأوامر لقواته بشن غارة قرى الشونا المجاورة للمستعمرات البريطانية، واتفق مباشرة مع حاكم الشركة الرئيسى وهو رجل ماكر وطبيب ومحارب سابق يدعى الدكتور ليندر ستار جيمسون، وكان جيمسون قد اعتقد منذ زمن أنه لا يمكن وجود مصدرين للسلطة فى المنطقة، وأنه لا يمكن تدعيم سلطة الشركة ومستقبلها حتى يتم القضاء على الجهاز الحربى القوى للندبيلي، وعلى هذا كانت الغارات هى ما أراده جيمسون وأعطته مبررًا لحرب ضد لوبنجويلا، وكانت حرب المتابيلى الأولى عامى ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ من جانب واحد، لأن قواد الندبيلى مثل زملائهم من الزولو تمسكوا بالهجمات التقليدية الأمامية وكانت هذه انتحارية ضد بنادق الماكسيم والتى كانت الأحدث والأكثر قتلاً من هذا النوع الذى يطلق ستمائة طلقة من الذخيرة عيار ٤٥ فى الدقيقة، لقد أحدث الماكسيم رعبا لدى الندبيلى الذين رأوها مثل الرضيع الوطنى السحرى المولود فى ذلك الوقت وعاش فى سبعينيات القرن العشرين والذى شرح اسمه غير العادى زيقازيقا (Zigga – Zigga) على الصوت الذى تحدثه البنادق الآلية، وعلى هذا كما اعتقد أنه يمتلك قوة خارقة وغير طبيعية.

ولم تتوقف مقاومة النديبلى بانهيار دولة لوينجويلا لأنه كانت هناك ثورة أخرى فى ربيع ١٨٩٦، حيث تمت مهاجمة المستعمرين وأسرهم وقتلهم.

لقد ولَّد قتل المستعمرين مرارة وعواطف عنصرية فى بريطانيا وروديسيا (زيمبابوى) كما يعرف الآن وعموما بمناطق الشركة كافة.

وذكرت مجلة ستردى ريفيو (Saturday Review) أن السلام الدائم لن يتحقق فى دول مثل ماشونا وما تابيلى لاند إلا إذا تم القضاء على السود أو تم طردهم إلى وسط أفريقيا[١٧].

وأن هذه الصراحة قد تركت صداها فى آراء المستعمرين مثل صياد اللعبة الكبرى السير فريدرك سيلوس (Selous) الذى فكر بأن الاستعماريين أصحاب الكراسى ذات المساند يخطئون إذا توقعوا الشكر من الأهالى الذين تم تحريرهم من حكام الطغاة وسلطات الأطباء السحرة[١٨].

إن تطبيق العقاب الملائم بشكل متكرر سوف يعلم النديبلى عدم جدوى التمرد والثورة ضد الرجل الأبيض[١٩].

إن إعطاء هذه الدروس بهدوء كانت عملية مرعبة، وقد وصف ريفلم مان جون روس أحد الجنود البريطانيين من ١٢٠٠ جندى والذى أسرع بإرسالهم إلى روديسيا من الكيب قصف إحدى القرى خلال العمليات العسكرية فى أغسطس ١٨٩٦ بقوله.

" فى كل أنحاء المكان لا يوجد شيء سوى الزنوج الموتى، لقد حرقنا كل الأكواخ وكثيرًا من الزنوج الذين لا يستطيعون الخروج والذين ماتوا من الحريق، وتستطيع أن تسمع صراخهم، لكن هذا خدمهم لقد أخذنا خمس نساء أسرى لكن تركناهن، وكانت إحدى النساء تحمل رضيعا وقام شخص ما

بإطلاق النار على الرضيع، وعلى جانب المرأة لكن لم يحدث شىء وقام الطبيب لدينا بتضميد الجراح"[٢٠].

لقد صدمت هذه التفاصيل حزب الأحرار والمحافظين فى داخل بريطانيا، وكانت هناك تعبيرات كثيرة فى حزب العموم ما بين تشامبرلين ونقاد الشركة وقام هنرى لابوشير (Henry Laboachere) باستجوابه عن نية رودس لطرد الوطنيين بشدة، وإعطائهم درسا دائما وتنفيذ أحكام الاعدام دون محاكمة وحرق القرى، وأصر تشامبرلين فى النهاية أنه حسب استخدام العمليات العسكرية فى جنوب أفريقيا والتى أربكت هؤلاء الذين اعتقدوا أن تقدم حضارة الأنجلو سكسون فى أفريقيا سوف يتضع نهاية لمثل هذه الممارسات.

ولم تستطع الاحتجاجات البرلمانية أن تفعل شيئًا لتغيير طبيعة مسار الحرب التى استمرت إلى عام ١٨٩٧ عندما تم القبض على آخر المجموعات المحاربة[٢١].

وهناك حملة دموية فرعية أخرى للتهدئة فى الشمال الغربى من روديسيا على الشواطئ الشرقية من بحيرة نياسا، ولقد اتبع التوغل البريطانى فى هذه المنطقة خط سير لفنجستون الذى حلت محل بعثاته التبشيرية الأولى شركة البحيرات الأفريقية الأسكتلندية البرسبتارية، والتى لقيت حماية حكومية فى نضالها المسلح ضد تجار الرقيق من العرب الذين كانوا يعملون من زنجبار ويقدمون الرقيق إلى الحكام والملوك فى الجزيرة العربية والخليج الفارسى، وتم إعلان محمية على المنطقة فى عام ١٨٩١ لإيقاف ادعاء البرتغال عليها، والتى شكت لأسباب وجيهة بعدم الزج بها فى الجهد الدولى للقضاء على تجارة الرقيق العربية، وتلت ذلك أربع سنوات من الحروب محدودة النطاق والتى كان رودس يمولها وتحارب فيها قوات الشيوخ برئاسة

السير هارى جونستون وأسطول من قوارب البنادق الصغيرة، وتمت هزيمة تجار الرقيق العرب ورؤساء القبائل الذين رفضوا قبول السيادة البريطانية وذلك على التوالى، وكان الآخرون قد وضعهم جونستون على أنهم تجار رقيق والتى سهلت عليه تبريرًا جرأته الصارمة والقاسية لوزارة الخارجية(٢٢).

واعتقد هؤلاء الذين شاركوا فى الحروب البسيطة التى تم شنها عبر الجنوب الأفريقى خلال تسعينيات القرن التاسع عشر أنهم هم المستكشفون للدومنيون البريطانى الواسع الجديد بنطاقه العنصرى ذى القبضة الحديدية الخاصة.

" إن أفريقيا جنوب الزامبيزى يجب أن تستقر فيها الأجناس البيضاء " كما يدعى جونستون عام ١٨٩٣، وأن أفريقيا داخل إطار النطاق الاستوائى يجب أن يحكمها البيض والتى يطورها الهنود ويعمل بها السود"(٢٣).

واعتقد وليم براون – عالم النبات الذى تحول إلى استعماري، والذى سحرته أحلام رودس، وساعد على تحويلها إلى حقيقة – أن عملية الغزو والاستقرار كانت صعبة وعنيدة لأنها كانت تعبيرًا عن " روح العصر" وأصر أن هذا يقرر بأن جنوب ووسط أفريقيا ستكون دولة تتحدث اللغة الإنجليزية بدرجة عظيمة " وربما ولايات متحدة أخرى وأنها مع مرور الوقت سوف تحدد المصير الذى اختارته العناية الإلهية فتكون للجنس الأنجلو سكسونى(٢٤).

ومع عام ١٩١٤ صارت العملية جاهزة تماما فأصبحت روديسيا الجنوبية تضم سكانا من ٣٤,٠٠٠ نسمة، والذين لهم مجلس تشريعى منتخب والذى يشرف على ٧٣٢,٠٠٠ من السود، عاش بعضهم فى المعازل، وكان

معظم البيض من البوير الذين جلبوا معهم الأحقاد العنصرية من جنوب أفريقيا، وفى عام ١٩٠٣ صدر قانون يعاقب أى رجل أسود يغتصب امرأة بيضاء بالإعدام وهى حماية ليست متاحة للنساء السود(٢٥).

وفى روديسيا الشمالية (زامبيا) حدث الاستقرار الأبيض فى أجزاء متفرقة، وعلى قدر كبير على شكل إنسانى من الحكومة التى تدين فى تشكيلها للنفوذ البريطانى أكثر من نفوذ جنوب أفريقيا، وفى عام ١٩٢٤ سيطرت وزارة المستعمرات عليها.

إن الفترة التى شهدت قيام السيادة البريطانية فى روديسيا ونياسالاند هى الفترة التى كانت تحت هجوم من جنوب أفريقيا، واستمرت الحكومة البريطانية تعتبر أن جنوب أفريقيا هى مجال نفوذها الشامل وتمسكت بأمل أن أجزاءها المتكاملة سوف تشكل فى النهاية اتحادًا فيدراليًا والذى بالطبع سيكون داخل الإمبراطورية، وكان رودس يؤمن بنفس الرأى، وعندما أصبح رئيسا لوزارة الكيب فى عام ١٨٩١ حاول بشكل جذاب ومقنع ماليًا إقناع السكان البوير بقبول الارتباط الدائم لبريطانيا، ومع هذا كان هناك مستقبل بديل لجنوب أفريقيا كجزء من اتحاد بويرى تكون الترنسفال صاحبة السياده فيه.

لقد كان مثل هذا الترتيب شيئًا صعبًا لبريطانيا، ولم تسمح وزارة روسبرى من حزب الأحرار (١٨٩٣ – ١٨٩٥) ولا الوزارة التى جاءت بعدها من المحافظين فى ظل سيادة سالسبورى بأن تترك هذه المنطقة الحيوية إستراتيجيًا لأن تخرج من قبضة بريطانيا إلى ألمانيا، وتمت مناقشة أن الولايات المتحدة فى جنوب أفريقيا فى ظل الترنسفال ستكون ضعيفة بدرجة لا تستطيع فيها مقاومة التوسع الألمانى، ويمكن أن تتغير بسهولة وتصبح تابعة لألمانيا، وكان الأكثر ضيقا وحنقا لبريطانيا هو أن الترنسفال قد أصبحت مخلبًا فى لعبة فى قوى السياسات الدولية الاستعمارية والتى تقوم بها

ألمانيا من أجل الحصول على امتيازات فى أى مكان[٢٦]. لقد قوى الاهتمام الألمانى والاستثمارات إحساس الترنسفال بالاستقلال، وكانت وجهة النظر من لندن وحكومة الكيب دليلاً على الحاجة الملحة لاتخاذ إجراءات لإعادة تأكيد السيادة البريطانية وسلطتها.

وزادت التطورات التى حدثت خلال عام ١٨٩٤ و ١٨٩٥ من التوتر، وكان إكتمال خط سكك حديد ديلاجوا (Delagoa) قد سهل الاتصال الحر للترنسفال بالبحر (وحضرت المقاتلات الحربية الألمانية حفلات الافتتاح فى لورز وماركيز).

وتلتها حرب تجارية قصيرة حيث تم وضع العراقيل رسميًا فى طريق رجال الأعمال البريطانيين فى الترنسفال، وكان هذا العرض الوقح للاستقلال قد ساعد على تركيز فكر الحكومة البريطانية على كيفية السيطرة على الترنسفال، وكان رد رودس – الهجوم المفاجئ بقوة من الفرسان على القوات الرودسية والبتسوانية التى نزلت إلى جوهانسبرج لتأييد الثورة هناك، وكان الثوار قد جاءوا من مجتمع عمال المناجم من البريطانيين والمهندسين والعمال الحرفيين الذين زادوا على البوير، ورغم هذا السبب كانوا محرومين من الحقوق السياسية.

إن ما أصبح معروفًا بغارة جيمسون قد تم بشكل غير متفق عليه منذ البداية، بدأ جيش رودس الخاص بالتجمع فى بتسانى (Pitsani) على الحدود مع الترنسفال فى نوفمبر ١٨٩٥ وسط شائعات متناقضة بأنه سيهاجم إما الترنسفال أو الرئيس الوطنى المحلى، ولم تكن هناك قوة حفظ نظام ولا حتى فى جوهانسبرج والتى تعنى أنه كان لدى سلطات الترنسفال تحذير بما سيحدث.

وحافز للعمل ومكافأة بالمزيد من الويسكى ووعد بأجور علـــى شـــن المهاجمين الهجوم فى نهاية ديسمبر لكنهم أجبروا على الاستسلام فى أوائـــل يناير عام ١٨٩٦، وأرسل الرئيس كروجر زعـــيم الثـــورة إلـــى بريطانيـــا للمحاكمة، وأما رودس ووحدته السياسية صارت محل جدال وانسحب مـــن الحياة السياسية[٢٧].

ولكن كم كان قدر معرفة تشامبرلين وزير المستعمرات الجديـــد عـــن خطط رودس والتى لم تكن معروفه بالفعل رغم أنه لا يوجد شك أنه ربمـــا كان يحبذ بحرارة الانقلاب إذا نجح، وفى داخل جنوب أفريقيا أثارت الغارة ارتفاع الحرارة السياسية وتم النظر إليها باعتبارها الجولة الأولى فى احترام النقاش والجدل بين بريطانيا والترنسفال، واعتقد لويس مايكل مدير بنك مدينة الكيب أن المسألة يمكن أن تحل فقط بالحرب.

وكتب فى أبريل ١٨٩٦ " إن طموح وأمل الترنسفال لأن تكون قـــوة ناشئة فى الأرض لا شك فيهما. ولا أعتقد أننا لن نهدأ مرة ثانية إلا إذا تـــم حل القضية بشكل أو آخر. إن كل المدرسة يتطلع إلـــى الولـــدين الكبيـــرين "اللذين يطمحان لأن يكونا ديوك المدرسة " وإننى أخشى أن يكـــون هنـــاك طريق واحد لحل القضية أى طريقة المدرسة القديمة ".

وقد وافق تشامبرلين ولكنه يعرف أنه إذا جاءت الحرب فإنها لابـــد أن تلقى كل الدعم من الناخبين البريطانيين، فلقد كان رجلا سياسيًا شعبيًا ولـــذا فإنه يدرك أكثر من زملائه الأرستقراطيين الحاجة إلى التقدم مع دعـــم مـــن الرأى العام خصوصا فى الأقاليم والمديريات.

إن المطلوب لإعداد الأرضية لحرب ضد الترنسفال أن تـــدرك أنهـــا قضية أخلاقية وربما تكسب تأييدا واسعًا، وكان أحدها متاحًا، وكان رفـــض

كروجر الثابت للسماح بالتصويت للعمال البريطانيين (Uitlanders) قد ظهر كتحد لتلك المبادئ الديمقراطية التى كانت الآن أساس الحكومة البريطانية وكانت محاولات تشامبرلين أن يضع الرأى العام البريطانى خلف خط قوى مع الترنسفال، وقد ساعده تلغراف من التهانى ودعوة للدعم والتأييد التى أرسلها القيصر الألمانى إلى كروجر بعد غارة جيمسون، ومنذ عام ١٨٩٦ وحتى اندلاع حرب البوير فى أكتوبر ١٨٩٩ استطاع تشامبرلين أن يربك الاثنين باعتباره بطل الحقوق الديمقراطية والمدافع عن تاريخ ونفوذ بريطانيا فى جنوبى أفريقيا ضد ألمانيا التى صارت بالفعل منافسًا دوليًا معروفًا فى بريطانيا، لكن كان الأجانب الغرباء فى جنوب أفريقيا هم الذين ظهروا على المسرح الأوسط، ففى مايو ١٨٩٩ عندما صار الاندفاع نحو الغرب أمرًا لا يمكن إيقافه لحظ اللورد سلبورن وكيل وزارة المستعمرات الوضع الأخلاقى لبريطانيا.

ولقد أخذنا موقفنا وواجب كل حكومة متحضرة هو الدفاع عن رعاياها فى كل قطاع يملكونه عندما يتعرضون للاضطهاد واهتمامنا الخاص بكل شيء جنوب أفريقى يرجع باعتبارها القوة العظمى هناك.

وبشكل ساخر تخيل البريطانيون والبوير خصوصا بأنهم الجنس الذى تم اختياره لحكم البقية بناءًا على المشيءة الإلهية[٢٨].

ويكرر بشكل دائم رجال الإرساليات والصحف ادعاءات أن البريطانيين ليسوا شعبا من معدن الذهب بينما اعتبرت الدعاية البريطانية شعب البوير على أنه شبه بربرى متخلف، ولقد وصف الكونت ميلنر المندوب السامى لجنوب أفريقيا منذ فبراير ١٨٩٧ والمتحمس الكبير للمصير البريطانى الاستعمارى حكومة الترنسفال بأنها حكومة أوليجاركية من العصور الوسطى " والتى عاشت فقط لتخليد السيادة البويرية، وأضاف

برنارد شو Shaw الكاتب المسرحي والاشتراكي الغاني القول بأن المجتمعات الصغيرة لرجال الحدود غير مناسبين إطلاقا للسيطرة على مصادر القوة في جنوب أفريقيا خصوصا المسيطرة على مواردها المعدنية.

وأثناء الحرب صدم الجنود البريطانيون بسذاجة البوير (والتي شملت قبول اللافتة المطبوعة على علب البسكويت كأوراق عملة من فئة خمسة جنيهات وتبين الخشونة وقسوة القلب نحو السود) وجوني بوير الذي تعوَّد صيد الزنوج مثل ما تصطاد كلبا) وقد اندلعت الحرب في أكتوبر ١٨٩٩ بعد فشل المفاوضات بين كروجر وميلنر حول حق انتخاب الغرباء الأجانب وكانت الإستراتيجية الوحيدة للبوير تعتمد على الاستيلاء على خطوط السكك الحديدية في الكيب وناتال واحتلال مدينتي دربان والكيب، والتي سوف تحبط إنزال وتوزيع التعزيزات البريطانية، وكان البوير قد نجحوا في البداية ولكن قواتهم المهاجمة انهارت بسرعة ومع نهاية العام عجزت جيوش البوير عن التقدم وتمت محاصرة مدن ليدي سميث وكمبرلي ومافيكنج، وفشلت محاولات القوات البريطانية في تحقيق الحصار على المدنيين السابقين في معارك ستورمبرج وماجرسفونتين وكولنسو خلال الأسبوع الثاني من ديسمبر(٢٩).

على أن فقدان الأرض وهزائم الجولات الثلاث صدم الجمهور البريطاني وأصابه بالذهول الذي اعتاد كسب جيشه الانتصارات التي تثير الإعجاب على الجيوش الوطنية ضعيفة التسليح.

وفي جنوب أفريقيا واجهت بريطانيا خصوما لديهم حركة ومهرة في فن حرب الشجيرات، ومسلحين بمسدسات حديثة ومدفعية ومن حسن الحظ أنه أثناء شتاء ١٨٩٩ – ١٩٠٠ أهملت القيادة العليا للبوير هذه المزايا واجتازت الحرب الثانية (Static) وأعطت لخصومها فترة التقاط الأنفاس والتي يمكن خلالها تجميع الجيوش وتطوير الإستراتيجية.

وكانت هذه مسئولية القائد الجديد الفيلد مارشال اللورد روبرتس وكبار مساعديه اللورد كتشنر، ولقد كان روبرتس الذى تحكم فى إسقاط الترنسفال والأورانج الحرة بابتهاج مبادئ البوير فى الحركة وباستخدام جموع الفرسان واستطاع بسرعة التفوق على أعدائه واحتل كمبرلى وحاصر جيش بيت كرونج فى بارديبرج (Paardeberg) حيث استسلم فى ٢٨ فبراير ١٩٠٠ فى ماجوبادى (Majuba Day) وتبع ذلك موكب فرسان، حيث استولت قوات روبرتس على بريتوريا وجوهانسبرج، وفى أقصى الشرق فى ناتال حقق الجنرال السير نيدفربولر الشجاع ولكن بقدرات محدودة حصار مدينة ليدى سميث وبعدها تقدم إلى حدود الترنسفال(٣٠).

ومع حلول منتصف صيف ١٩٠٠ اعتقد الكثيرون من المحاربين أن الحرب قد انتهت بسبب المادة والقوى البشرية الأسمى، وليس هذا لأن جيلاً أصغر من قواد البوير جاء إلى السلطة ومعه إستراتيجية جديدة لكسب الحرب عن طريق الإنهاك والقواد الذين ينزلون من قطارات البضائع سوف يحافظون على الضغط المتواصل على البريطانيين لشن غارات خفيفة على معسكرات وخطوط الاتصالات، لكن الأمور الحربية المتصلة سوف تجعل جنوب أفريقيا بلا حكومة وتجبر البريطانيين المنهكين حربيا لاستعادة استقلال جمهوريات البوير.

وخلال العامين المقبلين تغيرت طبيعة الحرب بشكل أساسى، وقد انتهج كتشنر الذى حل محل روبرتس كقائد عام إستراتيجية مضادة تقوم على سياسة الإنهاك، لكنها خططت لكى تجعل الحياة غير محتملة لهؤلاء الذين يواصلون المقاومة، أما المناطق المتمردة فقد زودت بأسلاك متعامدة وخطوط متشابكة ومنازل متكاملة جيدة التنسيق مع فرق محمولة وهناك بحث عن الفدائيين، وتم تدمير مزارع البوير وثروتهم الحيوانية التى تزود العمال

بما يحتاجون إليه، أما نساء البوير وأطفالهم والخدم من السود فقد تم دفنهم في معسكرات دفن خاصة.

وفي الأيام الأولى من الحرب حث الرأى العام الحكومة على القيام بثورة وطنية، ولم تصل هذه الروح الوطنية الداخلية إلى الخط الأمامي حيث أغاني الجنود عن الموت والمجد والتي تسر مستمعي صالة الموسيقى والذين يجلسون غير مبالين حول نيران المعسكرات.

إن الملل والضجر في واجبات الحصون مع الساعات الطويلة وهم يمتطون الفرسان، وقلة الجراية التي توزع على الجنود، وعدم انتظامها فضلا عن شدة الحرارة والبرودة والأمراض التي تصيب بسرعة حتى الوطني المتحمس، وفي كتاب ظل موجودًا في مدينة الكيب: إن الشباب المتحمس والذين تطوعوا كرجال استعماريين أثناء شتاء ١٨٩٩ – ١٩٠٠ سجلوا أسباب وصولهم ومغادرتهم جنوب أفريقيا، وكتب أحدهم الذي تحدث أمام الآلاف بأنها حُمى الوطنية[٣١].

أما حملة كتشنر فلم تحدث أي حمى وطنية في بريطانيا بل القلق حول ما وصفه النقاد "بوسائل بربرية"، وأصبحت العبارة صحيحة لأن بريطانيا سمعت تقارير عن الأمراض الوبائية وقتل النساء والأطفال، وعلى عكس أساطير البوير لم تكن هذه سببًا لسياسة بريطانية حرة لكن نتيجة جهل للرعاية الصحية والطبية المعاصرة.

وعلى أن الفساد الذي حل بالمعسكرات ركز على ١٦,٠٠٠ جندي بريطاني تقريبًا خلال مرات ماتوا من أعمال العدو، ورغم هذا كان هناك اهتمام كبير في داخل الدولة بين الإنسانيين والأحرار من اليساريين والاشتراكيين الذين رفضوا الاعتقاد بأن الغاية تبرر الوسيلة..

وفى ربيع ١٩٠٢ عندما كان الطرفان قد وصلا إلى مرحلة الإنهاك بدأت مفاوضات السلام وتم توقيع اتفاقية فيرننج (Vereeniging) فى نهاية شهر مايو وأعطت للبريطانيين ما كانوا يريدونه وهو السيادة السياسية وحصل البوير على ثلاثة ملايين جنيه التى كانوا فى حاجة ماسة إليها لإعادة بناء مزارعهم، وأن وعود أن الحكومة الذاتية سوف تعود من جديد إلى الترنسفال ودولة الأورانج الحرة، وتم تأكيد لشعب البوير أن بريطانيا لن تقوم بأى مسألة عن الحقوق القانونية للسود عندما يتم عمل تسوية دستورية للمنطقة، ولقد كلفت أكبر حرب إمبريالية بريطانيا مائتى مليون جنيه، وشهدت تجنيد وتعبئة ٢٩٥,٠٠٠ جندى، وهذا دليل على مدى استعداد الحكومه لمواصلة السيادة فى جنوب أفريقيا.

وبمعنى آخر فإن بريطانيا كانت تدافع عن الوضع الاستعمارى القائم والذى ظهر منذ عام ١٨٩٥ وما بعدها، وتعرضه للخطر بسبب طلب استقلال الترنسفال والوساطة الإلمانية إن تجاهل كليهما يعنى الاعتراف بالضعف الذى لا يمكن التفكير فيه فى وقت عندما كانت بريطانيا تحت الضغط من فرنسا وألمانيا وروسيا الذين كانوا يتحدون مكانتها فى أماكن أخرى من أفريقيا والشرق الأقصى. إن الحرب كانت حسب الشروط الدولية استعراضًا لرغبة بريطانيا الاستعمارية، وإصرارها على الاحتفاظ بقوتها الدولية (الكونية) مهما كانت التكاليف، واعتقد أصحاب مهنة مدرسة التآمر فى التاريخ ومعظمهم فى جانب اليسار أن الحرب قد تم التخطيط لها من جانب حفنة من الرأسماليين وبعض اليهود لتحقيق أهدافهم فى حقول الراند، وكانت هذه النظرية جذابة بشكل مثير ولكن فشلت لإبراز كيف استفاد

المخططون وهو شيء ما لم يمنع من قبوله بشكل واسع من جانب هؤلاء الذين اقتنعوا بالفعل أن الرأسمالية شريرة، ومع هذا حسب مفهوم واحد فإن الحرب ساعدت مصالح رجال الأعمال باستمرار النظام الذى أبقى السكان السود فى دور القوة العاملة السلبية، وعندما تجول الجيش البريطانى فى بريتوريا وجوهانسبرج أحرق العمال السود تصاريح العمل وهو الرمز المكروه للاضطهاد البويرى، فلقد تصرفوا بشكل غير ناضج لأن الوثائق مطلوبة فى ظل النظام الجديد فلقد استخدم البريطانيون مئات الآلاف من السود خلال الحرب وغالبا بأجور أعلى مما كان معروضا، وتم استخدام أعداد أقل لدى قيادات الفيالق باعتبارهم كشافة مسلحة، وكان هذا سبب غضب البوير الذين أصروا بشكل طبيعى على أن الحرب مثل مستقبل جنوب أفريقيا قضية الرجل الأبيض.

(٧)

الروح البطولية

الصراع على النيل

في عام ١٨٨٢ ظهرت مصر في الطريق لأن تصبح دولة حديثة مزدهرة، ويدين تطورها كثيرا إلى طموح وحماسة محمد على وحلفائه الذين أداروا الدولة خلال الستين عاما الماضية على أنها إقطاعية خاصة، فلقد شجعوا الاستثمار في الري والسكك الحديدية، وبناء السفن ومزارع القطن والمدارس والجامعات، وقد خصص خمس الأرض المزروعة لزراعة القطن الذي كان يصدر إلى إنجلترا، شريك مصر التجاري الكبير، على أن إعادة بناء مصر كان يتم من خلال رأس المال الفرنسي والبريطاني، ومع عام ١٨٨٠ وصل الدين الكلي لمصر إلى مائة مليون جنيه وهو مبلغ ضخم على دولة صادراتها السنوية تصل في المتوسط إلى ثلاثة عشر مليون جنيه، رغم أن الخديوي إسماعيل قد باع ٤٤% من أسهمه في قناة السويس إلى بريطانيا بمبلغ أربعة ملايين جنيه عام ١٨٧٥ إلا أن مصر كانت تنزلق نحو الإفلاس، ورغم أن القوى الكبرى قد انتهجت وسائل مناسبة وعديدة للإبقاء على وضعها القائم في مصر، فإنه في عام ١٨٧٦ تم فرض هيئة رقابة دوليه على الحكومة المصرية ورقابة صارمة على الأمور المالية، وبعد ثلاث سنوات تم إقناع الخديو الجديد توفيق بقبول رقابة فرنسية بريطانية على ميزانية الدولة والجمارك ومكاتب البريد والتلغراف بل وحتى المتاحف، لكن

الذى أضاف لتآكل السيادة المصرية وسيطرة الأجانب على حكومتها قد أثار حركة ارتجاعية وطنية، ظهرت فى أول مرة فى فبراير ١٨٨١ مع احتجاج ضباط الجيش الذين لا يتقاضون رواتبهم بقيادة عرابى باشا الذى قاد فى سبتمبر انقلابًا وتولى بنفسه منصب وزير الحربية مع كامل السيطرة على الجيش، وكان عرابى رجلا وطنيا نشأ فى طبقة الفلاحين من أصحاب الملكيات الصغيرة مع طبقة الأفندية المثقفة من أصحاب الملكيات والمواطنين الرسميين، وكان الفلاحون قد أجبروا على التنازل عن أراضيهم لأصحاب المزارع الكبيرة، والتى كان الأجانب يستقرون عليها، وكان الأفندية منزعجين بسبب ازدياد الأجانب فى الوظائف الحكومية، وكان هناك خوف بشكل طبيعى على أن مصر سيتم الاستيلاء عليها خلال الربيع وأوائل صيف ١٨٨١، وكان الفرنسيون يضعون اللمسات الأخيرة لضم تونس.

ولقد كان ظهور حركة وطنية شعبية داخل مصر ومعها حكومة لا تقبل العمل مع الموظفين الأجانب، والتى تتكون من المرابين الفرنسيين والبريطانيين الذين أجبروا الحكومتين الفرنسية والبريطانية فى أكتوبر ١٨٨١ على استخدم الترياق العادى الذى يوصف عندما تظهر أعراض القلق والاضطراب فى مناطق ليست جزءا من الإمبراطورية الرسمية، فأرسلت سفينتين مدرعتين إلى الإسكندرية، لكن هذا لم يصلح ولم يغير شيئًا فى عقول المصريين.

وكانت الحكومة البريطانية فى مأزق، وكانت وزارة جلادستون تعمل تحت ضغوط معينة لأنه منذ عامين كان الحزب الحاكم قد قاد حملة ضد المغامرة المالية غير الأخلاقية للحزب الثورى وفى صالح سياسة أجنبية للتهدئة القائمة على التعاون الدولى، ولكى تطبق هذه السياسة على مصر كان على بريطانيا وفرنسا أن تتقدما بشكل مترادف مع تأييد بقية أوربا.

إن محاولات التقدم بسياسة فرنسية بريطانية مشتركة تهدف إلى استعادة الوضع القائم فى مصر كانت قد انهارت بسبب الأحداث فى مصر.

ففى ١١ يونيه ١٨٨٢ أدى الشجار على قيمة الإيجار بين صاحب حمار مصرى ورجل مالطى إلى اضطراب فى الإسكندرية، قتل فيه نحو خمسين أجنبيًا وتم سلب ممتلكاتهم، والمفهوم أن ما حدث كان أول خطوة نحو الفوضى فى مصر هزت الأسواق المالية فى لندن وباريس، حيث بدأ المستعمرون الفرنسيون المذعورون يؤثرون على الأسهم المصرية، وانعكس القلق بين مجتمع رجال العمال فى مجلة الإيكونوميست (Economist) والتى توقعت فى السابع عشر من يوليو بأن خسائر عظيمة ستحدث ولابد أن تقوم اضطرابات كثيرة فى الأعمال التجارية، إذا لم يحدث شىء يقضى على هذه الاضطرابات فى مصر.

وفى البرلمان كانت هناك حالة من الغضب ومطالب للقيام بإجراء ما، وكتب السير تشارلز ديلك (Dilke) عضو الوزارة بأن موقفنا فى مجلس العموم صعب جدًا حول مصر، إنهم يريدون قتل شخص ما بشكل سيئ ولا يعرفون من هو؟[١].

وإذا كان القيام بالقتل أمل جلادستون أن يقدم الفرنسيون المساعدة، ولكن فى الأول من يوليو صوتت الجمعية الوطنية الفرنسية بشدة ضد التدخل المسلح.

والآن صارت بريطانيا وحيدة وتواجه تحديا أكبر من عرابى بعد أن استعادت قواته الأمن فى الإسكندرية، وطالب بتقوية دفاعات الميناء بمدافع كروب (Krupp) الحديثة، وفى ذلك الوقت كانت سفينة بريطانية موجودة هناك، وفى يوليو طلب قائدها ويدعى الأدميرال السير بوشامب سيمور

(Besuchamp Seymour) إنزال المدافع الجديدة، ورفض عرابى، وبعد ثمانية أيام وافقت الوزارة على ضرب المدينة بالمدفعية، وفى ١٣ يوليو دخل جماعة الجنود والبحارة مدينة الإسكندرية حيث انهار النظام والقانون بعد رحيل جنود عرابى، وللدفاع عن الهجوم على التحصينات ادعى جلادستون أن مصر كانت فى حالة من العنف العسكرى وبدون نظام قانونى من أى نوع(٢).

وحيث كان هذا الوضع فإن حكومته كانت على استعداد لإرسال قوة لاستعادة النظام وقيام إدارة جديدة، وخلال شهر أغسطس اتجه إلى مصر جيشان أحدهما يضم ٢٤,٠٠٠ جندى قوى من بريطانيا والآخر يضم سبعة آلاف جندى من الهند تحت قيادة ولسلى (Wilsly) واحتلت المقاتلات الحربية قناة السويس والإسماعيلية فى الثامن عشر من أغسطس، وبعد أربعة أسابيع تم القضاء على حصون عرابى فى التل الكبير وانفتح الطريق إلى مسيرة انتصار نحو القاهرة وتم أسر عرابى وسجنه وحوكم ونفى إلى جزيرة سيلان. لقد تأثرت حكومة جلادستون بشدة لما حدث وأفادت بأنه لا يوجد أمامها أى خيار سوى إنقاذ مصر من الدمار الذاتى وبعد القيام بهذا العمل كانت بريطانيا بنفس روح الغيرة على مستوى عال تشرف على إعادة بناء مصر، وسوف يصحب هذا مجموعة من البيروقراطيين البريطانيين الذين يشرفون على إدارة البلاد تحت إشراف السير إيفلن يارنج (Evalyn Baring) الذى صار فيما بعد اللورد كرومر، وفى نفس الوقت سوف يعاد بناء الجيش المصرى من خلال جهاز من الضباط البريطانيين الكبار يعاونهم عدد من جنود الصف، وفى البداية تم الادعاء بأن هذا النظام للرقابة هو إجراء مؤقت سوف يستمر طالما أن مصر تحتاج إلى هذه الوصاية والإرشاد.

إن الذى نشأ فى مصر ما هو إلا نظام إمبريالى مهجن، إنهـا ليست مستعمرة ولا محمية رسمية، وفى الظاهر ظلت دولة مستقلة يحكمها خديو تظل سلطاته العليا فى نظام قانونى صرف ويتبع السلطان التركى، وفى الحقيقة كانت مصر بعد عام ١٨٨٢ دولة تظل السلطة فيها فى أيدى خدمة مدنية عليا تضم موظفين بريطانيين كانت مهمتهم جعل الدولة قادرة على البقاء، وألف كل من الرجلين كرومر وميلنر كتبًا كثيرة تشرح مهمة بريطانيا فى مصر، وحصر ما تم إنجازه لتنمية وتقوية حياة المصريين(٣).

إن هذا الرأى عن احتلال مصر باعتباره خدمة لشعبها قد وجد تحديًا من هؤلاء الذين شاهدوا الحرب المصرية البريطانية فى عام ١٨٨٢ على أنها قدمت شيئًا وهميًا للحكومة من خلال زمرة من المستثمرين مثل السير مليم جريجورى عضو مجلس حزب التورى وحاكم سيلان والذى قال " إننا الدولة الوحيدة التى لديها التعاطف الأمين مع الفلاحين البؤساء فى وادى النيل، ومع هذا فإننا أجبرنا على أن نكون القواد والحكام الذين يضربون بالسياط من أجل استخراج آخر قرش من هؤلاء البؤساء من أجل مصلحة حملة الأسهم(٤).

وتم أخذ هذا الاتجاه وتوسيعه من خلال وليفريد سكاون بلنت (Blunt) أحد أسياد حزب التورى الذين لديهم غريزة عدم الثقة فى آليات وكل رجال المال والذين وصفهم بنفس الصبغة التى وصف بها عدم أمانة أوجستس ميلموت (Melmotte) فى رواية أنتونى ترولوب " الطريقة التى نعيشها الآن (The Way we Live Now)(٥).

ومن الأمور الشيقة أن التورى التقليديين والراديكاليين من جناح اليسار كانت لهم وجهة نظر عن الاستعمار الجديد فى ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينيات نفس القرن مع خلفية نفوذ رأس المال، أما فى داخل مصر فقد

أثار الاحتلال البريطانى موجة امتعاض واستياء، وبينما كان كرومر يتفاخر علنيًا بأن الفلاحين شاكرون للحكومة البريطانية وتعترف أمام لجنة الـدفاع الإمبريالية فى عام ١٩٠٢ بأنه يتوقع القليل من ولاء المصريين إذا غـزت فرنسا أو روسيا بلادهم، وخلال شتاء ١٩١٤ ، ١٩١٥ شعرت القيادة التركية الألمانية العليا بأن هجومًا على مصر سوف يثير ثورة ضد بريطانيا.

ولم تكن هذه النتائج مثيرة للدهشة فلقد دخلت بريطانيا مصر للقـضاء على حركة وطنية والمشاعر خلفها لم تتبخر بعد معركة التل الكبير، حيـث حارب الجنود الفلاحين بعنف، وظلت الروح القومية قوة عاطفية قوية بـين كل المصريين خصوصًا طبقة المتعلمين الذين زادوا من الأحـزاب لوجـود أنفسهم، وقد استعدوا بدرجة كبيرة من الوظائف العليا فى الخدمـة المدنيـة والقضاء والجيش، ورغم وجود قوة بوليسية من المخـابرات علـى أعلـى مستوى يشرف عليها البريطانيون فقد استمر الغضب والحنق القومى خـلال ثمانينات القرن التاسع عشر وتسعينيات نفس القرن والتى دعمها خليفة توفيق عباس الثاني، ففى يناير ١٩٠٠ تجمع الضباط المصريون فـى الخرطـوم وحمستهم هزائم البريطانيين، الجديدة فى جنوب أفريقيا، واتـساعات تقـدم الروس جنوب الهند، كل هذا شجع العسكر السودانيين على التمرد آملين فى أن يؤدى التمرد إلى طرد البريطانيين من مصر(٦).

لكن ما الذى يجعل البريطانيين باقين فى مصر؟ لقد ظهـر أن حريـة الملاحة فى قناة السويس كانت سببا ملحًا لأن معظم الـسفن المـارة كانـت بريطانية، وفى عام ١٨٨١ عبرت ٢٧٢٧ سفينة فى القناة كانت منها ٢٢٥٠ سفينة بريطانية، ومع ذلك فإن عرابى لم يحدد فى أى وقت سيحدد التدخل مع حركة المرور فى القناة، وأن الإدارة البريطانية فـى مـصر التـى أنهـت الوضـع فى القناة باعتبارها ممرًا دوليًا مع اندلاع الحرب فـى أغـسطس

١٩١٤، وبالطبع فى عام ١٨٨٢ لم يكن معروفا ما سيفعله عرابى فى المستقبل، والمهم من كل هذا إذا لم تفعل بريطانيا شيئًا فإن قوة أخرى سوف تتخذ الخطوة.

وفى النهاية وفى كثير من الحالات فى أماكن أخرى حيث ينهار جهاز الإمبراطورية غير الرسمية - بعد ذلك بشكل رسمى، هذه الحالة كان الاحتلال البريطانى السريع البديل الوحيد يضم دولة أخرى، وعلاوة على ذلك لم توجد وسيلة لمعرفة عما إذا كان وضع النواب الفرنسيين سوف سيتغير وسوف تظهر غالبية تعمل لصالح التدخل سواء بمساعدة بريطانيا أو دون مساعدتها، ولقد أضافت التطورات الدولية التالية وزنًا لهذا النقاش فلقد كان نمو الأحقاد الاستعمارية الفرنسية البريطانية بعد عام ١٨٨٥، والتحالف الفرنسى الروسى عام ١٨٩٢، ومع أمل أن يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية ومع الأحلام الفرنسية الإمبريالية، كل هذا برر القرارات التى اتخذت عام ١٨٨٢، وتحكمت فى أى انسحاب من مصر، كما أن القبضة القوية على مصر يمكن الدفاع عنها عندما يتضح الأمر فى أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر بأنه لا يمكن الاعتماد على تركيا لإيقاف الأسطول الروسى من المرور عبر مضيق البسفور.

ولقد كانت تكاليف الدفاع عن مصر غالية حسب النفوذ الدولى البريطانى، ولكى تحصل على دعم لوضعها فى مصر اضطرت بريطانيا إلى منح امتيازات وتنازلات لألمانيا وفرنسا والتى كان يصعب رفضها فى هذه الظروف، لقد أعطى الاستحواذ على مصر مسئولية الإمبراطورية المصرية فى السودان، وبعد ستين عامًا من الغزو التدريجى والتهدئة كان السودان منطقة اضطرابات، حيث كانت السلطة المصرية هشة وضعيفة، وكافح أربعون ألف جندى وموظف رسمى من أجل القضاء على الاضطرابات

وجمع الضرائب المطلوبة لسداد ديون الخـديو، وكانـت الإدارة المـصرية مشغولة حديثا فى القضاء على تجارة الرقيق وهى مهمة قـام بهـا الحكـام الأجانب بمن فيهم الجنرال غوردون (Sharies gordon) المشهور.

وفى عام ١٨٨١ واجهت السلطات المصرية ثورة جديدة قادها محمـد أحمد فى السودان وهو رجل متدين يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا وأطلق على نفسه المهدى، وكانت مهمته كخادم مختار حاول محمـد أحمـد تنقيـة العقيدة الإسلامية من هؤلاء الذين لم يكن إسلامهم صحيحًا، وكسبت طيبتـه البسيطة وقوة إيمانه ورسالته من أجل إعادة البعث الروحى آلاف المـؤمنين بالدعوة (الأنصار) الذين ساعدوه فى الاستيلاء على مدينة الأبيض.

وبموافقة كرومر (Cromer) تم إرسال جيش مصرى مزود بشكل جيد بقيادة الكولونيل وليم هيكس (Hecks) للقضاء على هذه الانتفاضـة جنوبـا، ووصل إلى منطقة ميراوة ذات طيور من الإوز البرى وتم القـضاء علـى هيكس فى شيكان (Shaykan) فى نوفمبر ١٨٨٣، حيـث تمـت الـسيطرة والاستيلاء على جيشه وأسلحتهم من المسدسات والبنادق الآليـة والمدفعيـة الحديثة وخلال شتاء ١٨٨٣ ، ١٨٨٤ بدأ أحد أتباع المهدى ويدعى عثمـان دقنة فتح جبهة جديدة فى ميناء سواكن المجاورة للبحر الأحمر وبهجوم على الحاميات المصرية المحلية.

وصار من الواضح الآن أن الجـيش المـصرى لا يـستطيع وحـده القضـاء على حركة المهدى، وأن الإدارة المصرية فى السودان قد انهارت، حيث الخزينة خاوية والرجال يحاربون حرب صحراء للقضاء على المهدى فقد وافقت الوزارة فى يناير ١٨٨٤ على إجلاء كـل الحاميـات المـصرية وأفراد الجيش.

ولقد ثبت أن الانسحاب الإمبريالى عملية معقدة ومضطربة فى التنفيذ مثل الغزو الإمبريالى، وقد وجدت القوات المتدفقة إلى سواكن فى فبراير ١٨٨٤ نفسها فى مواجهة القوة مع عثمان دقنة، وبالتالى كانت مضطرة للقيام بسلسلة من عمليات الهجوم المحدودة للحفاظ على الكرامة البريطانية، وتم الحفاظ على هذا بفضل الانتصارات فى التب (El Teb) وتاميا (Tamia) حيث وجد الجندى البريطانى أولى تجاربه مع حرص وشجاعة الأنصار أو الدراويش كما كانوا يسمون عادة.

وقد أوكل إلى الجنرال تشارلز غوردون عملية الإشراف الكامل للانسحاب من السودان وكان تعيينه محل نقاش بسبب تجاربه المحلية السابقة، ولكن فى الحقيقة قامت الصحافة بتخطيط هذه العملية وبالفعل صار غوردون بطلاً شعبيا حيث كانت الشجاعة والحماس الدينى الأنجليكانى العميق لقيا استجابة من الجمهور الفيكتورى، وكان غوردون واثقا من شخصية (الكاريزما) الخاصة، ورأى فى نفسه أحد عوامل العناية الإلهية ومثل جلادستون استجاب الله فى قراراته وكانت لديه موهبة خاصة فى جذب الجنود غير الأوربيين، وفى ستينيات القرن التاسع عشر تولى قيادة الجيش دائم الانتصارات، والتى قضت على تمرد تايبنج (Taiping) لصالح الإمبراطور الصينى، وفى سبعينيات القرن التاسع عشر قاد القوات المصرية ضد تجار الرقيق السودانيين، ولم يتحدث اللغة العربية إطلاقا ولكن رغم حماسه المسيحى، اعتقد أنه امتلك عقول السودانيين.

وكان الولاء والإخلاص له قد تأكدا بشكل ظاهرى من خلال الاستقبال الحماسى الذى لقيه عندما وصل إلى الخرطوم فى فبراير. إن الذى أدى للفشل فى مهمته هو أن سكان المدينة تخيلوا أنه لديه القوة لجمع الجنود البريطانيين والذين كما أظهرت الأحداث حول سواكن يستطيع بهم أن يهزم الأنصار المهديين.

ولم يكن هذا الغوردون الذى يقلق من المهدية، والتى اعتقد أنها ليست عميقة المذود أنها ليست عميقة الجذور ولن تستطيع التقدم كثيرا نحو الأمام.

وعلى هذا أصدر أوامر بالتخلى عن فكرة الجلاء من السودان، وبدلاً من ذلك بدأ يستعد للدفاع عن الخرطوم ويقاوم المهدى.

وعارض غوردون بشكل فردى خاص سياسة الحكومة، ومن الخرطوم أصدر سلسلة من المنشورات القومية والأكثر عاطفية إلى ضمير الجمهور حيث ينادى رجال وطنه على تحمل مسئوليتهم فى نشر الحضارة، وأن ينقذ السودان من قوة الظلام التى تسيطر على السودان، ولقد استجاب الجمهور السودانى لهذه النداءات، وكان محاربًا يعد للمعركة فى أرض بعيدة والذى وضع الواجب المسيحى وخدمة الإنسانية قبل أى أمر نفعى، وتعلق الرأى العام خلف غوردون، وفى أوائل أغسطس فرض على حكومة مترددة إرسال جيش لإنقاذه.

لقد صار وضع غوردون أكثر وأكثر خطورة، حيث كانت قوات المهدى تتركز بالقرب من الخرطوم منذ مايو والتى جعلت الجلاء عن المدينة مستحيلا، وحاصر جيمس المهدى الرئيس المدينة فى سبتمبر وبعد شهر تولى المهدى قيادة الحصار.

وفى نفس الوقت كانت قوة من ١٥,٠٠٠ جندى بقيادة ولسلى (Wilsly) قد بدأت التقدم الحريص مع نهر النيل، ونظرت الصحافة والجمهور إليه على أنه سباق، ولكن ولسلى كعادته تقدم بكل حرص وهو يعلم أن الصحراء قد ابتلعت بالفعل ١٠,٠٠٠ جندى بقيادة الكابتن هيكس (Hicks).

وفى أوائل يناير ١٨٨٥ وصلت قوة جيش الحراسة إلى كورتى ومن هناك يتحرك جيش الصحراء عبر صحراء بيوضا (Bayuda) إلى المتمة وهنا ترسو كتائب رمزية على ثلاث سفن تم إرسالها من الخرطوم وبناءً على تعليمات غوردون كان عليها أن تحتوى بعض الرجال فى المعاطف التقليدية القرمزية بدلاً من الكاكى لكى تقنع السودانيين أن البريطانيين قد وصلوا، بالفعل. وكان المهدى قد أصيب بالذعر لسبب قرب قوة الإنقاذ، فأصدر الأوامر إلى قواده لاعتراض القوة البريطانية عند آبار أبو كليا (Abu Klea).

إن ما حدث بعد ذلك كان معركة استعمارية كلاسيكية، فالقوة البريطانية التى تزيد على ألف رجل معظمهم من رجال الفرسان يمتطون الجمال قد علموا من قسم المخابرات ألا يتوقعوا مقاومة خطيرة، وكانوا غير مدركين لأعداد خصومهم وتفانى خدمتهم.

وكانت أول نظرة للعدو ظهور أعلام خضراء وحمراء وسوداء عليها نصوص قرآنية تلوح فوق وادٍ مختفٍ صغير ضيق الانحدار، وفجأة تحركت الأعلام نحونا بخطوات سريعة بقيادة رجال الحراب على ظهور الخيول، وتقدم العدو ضد قواتنا بسرعة كبيرة وفى كتل سوداء كثيفة تم الحفاظ على النظام فى العاصمة(٨).

وجرى المناوشون مرة ثانية نحو الحلبة التى انفتحت لاستقبالهم، وتم عمل فجوة اندفع بعض الدراويش منها، ولم يستطع رجال المشاه تمييز مهاجمهم حتى اللحظة الأخيرة، وقد اعترضت الرمال والأخطاء الآلية المسدسات. وبالبنادق وحيث تمزقت الساحة كانت هناك صرخات رجال وإبل حية أو ميتة أو تموت(٩).

إن الذى انقذ الموقف فى هذا اليوم وجود رجال عقلاء على جانب خال من المعركة، والذين تحولوا وأطلقوا وابلاً من القذائف على أرض المعركة، وتم سد الثغرة وطرد المهاجمين، وانتهى كل شئ فى مدى عشرين دقيقة لكن الخسائر كانت عالية، وصدم جميع المشاركين بشراسة وجرأة الأنصار.

وكان الكولونيل فريدريك بيرنباى (Frederick Burnaby) من القتلى حيث تمثل صورته المشهورة التى رسمتها مدام توسو (Tissot) والتى تجسد صورة أنيقة مشهورة لرجل مهذب وشيطان دون مبالاة، والتى كانت علامة مميزة لضابط بريطانى متكامل، ومما لا شك فيه أنه قد أخذ موافقة زملائه الذين لاحظوا بعد المعركة أنه كان أمرًا مخيفًا أن يقتل دون أن يعرف نتائج ديربى (Derby)، ولقد شارك بيرنباى فى القتال بالقرب من سواكن قبل ذلك بعام عندما كان يطلق النار على الدراويش وكأنهم طيور الحجل التى صدمت الإنسانيين والأحرار، وكان هذا الرجل أيضا مرشحا للحزب الثورى فى البرلمان وربما أضاف هذا لحنقهم(١٠).

لقد أثارت معركة أبو كليا الشاعر الإمبريالى السير هنرى نيو بولت فى قصيدته (Vitai Lampada) والذى رأى فى المعركة أرضا لاختبار الفضائل التى تقيأها ملعب المدرسة العامة، لقد تشبع رمل الصحراء باللون الأحمر فصار أحمرًا بسبب تحطيم قوس واعتراض بنادق جاتلج وموت الكولونيل وصار الفوج أعمى من التراب والدخان وامتلأ نهر الموت على حافتيه وانجلترا بعيدة عن اسم الشرف لكن صوت طفل المدرسة تشجع العب العب نفس اللعبة، التفت كبيلنج إلى المهزومين، وفى قصيدته (Fuzzy Wuzzy) (الاسم المستعار للجنود) من الدراويش والتى أخذها من خصائص رجال القبائل من الهدندوه أخرج قصيدة خيالية يوضح شجاعة الجندى غير العادية.

وبعد أبو كليا (Abu Klega) تحرك فيلق الصحراء إلى المتمة وصلوا اليها بعد يومين، وأجبرت هجمات الدراويش الأخرى القائد على اتخاذ إجراءات دفاعية، ويوم ٢٤ يناير فقط تحركت البواخر نحو الخرطوم وتم سماع صياح وأصوات النساء اللاتى فقدن أزواجهن وقتلوا فى معركه أبى كليا فى الخرطوم، الآن فى آخر صيحاتها، ودفعت أخبار المعركة المهدى لكى يخاطر بقصف المدينة ونجح الهجوم وفى ٢٨ يناير عندما اقتربت السفن من الخرطوم كان من الواضح أنها قد سقطت(١١).

ولكن ماذا حدث لغوردون؟ إن المهدى الذى أعجب بثباته وشجاعته كان يريده حيا، وبعد أربعين عامًا اعترف أحد شهود العيان من الأنصار أنه قد قتل وادعى أحدهم أنه أطلق النار على عدد من أعدائه بمسدسه قبل أن تطلق النار عليه، ويحمل هذا الدليل تقرير كارلى نيوفيلد (Karl Neufeld) الذى أخذ أسيرا فى الخرطوم والذى أظهر القوة الخارقة أثناء القتال.

وصلت معلومات على طول هذه الخطوط إلى قسم مخابرات ولسلى خلال فبراير، ولكن وجدت معارضة بعد ذلك من مصادر غير موثوق منها والتى قدمت قصة أكثر درامية حيث وصفت هذه كيف وقف غوردون وحيدًا وغير مسلح فى كامل ملابسه على سلالم مقر إقامته فى الخرطوم وهو يحلق متأملاً لمجموعة من الأنصار، وعندما التفت تم ضربه بالحراب وقتله.

لقد أعلن السير ريجنالد ونجت (Reginald Wingate) من قسم المخابرات قصة موت غوردون والذى أدرك أن هذه هى النهاية المناسبة لبطل مسيحى، وعرف أن استشهاد غوردون سوف يلهم أبناء وطنه لإعادة غزو السودان كنوع من الانتقام، وهكذا ظهرت صورة غوردون المألوفة وهو يواجه أعداءه وهو يقدم التضحية النهائية بالنفس من أجل قضية الحضارة، كان هذا كيف رأت بريطانيا موته وكما أعلنت مجلة (Spectator) فى ٧ فبراير ١٨٨٥ بأن

حظا سيئا قد حل على الحضارة كموجة من الخزى والغضب الذى اجتاح الدولة، ووقع عبء اللوم والهجوم الأعظم على جلادستون ولم يعد أمامه خيار سوى القيام بحملة كاملة لاسترداد الخرطوم ومعاقبة السودانيين، وتم عزل جلادستون فى مارس عندما أدى غزو الروس عبر حدود أفغانستان إلى تعبئة عامة، وانسحبت القوات من السودان لتبحر إلى الهند تاركة حامية فى سواكن، وفى يونيه مات المهدى ربما بسبب مرض التيفود، وانتقلت حكومة السودان إلى الخليفة عبد الله بن محمد، وكان وضعه الإسلامى العسكرى لم يحدث تهديد لمصر بعد ١٨٨٩ عندما تم سحق قوة غزو فى معركة توشكى (Toski).

لقد أصيب رجال الدولة من أواخر العصر الفيكتورى ورجال الاستراتيجية بالذعر والخوف بأنه يمكن إيقاف تدفق مياه النيل والنتيجة تدمير الزراعة فى مصر وتحطيم الدولة، وتم الاتفاق على أن إغلاق النيل أمرًا فوق إمكانيات خليفة السودان، ولكن يمكن لمهندسين أوربيين القيام بذلك، وكان هذا رأى عالم هيدولوجى فرنسى يدعى فيكتور برمبت (Prompt) الذى نشر بحثًا فنيًا فى يناير ١٨٩٣، وصف فيه كيفية بناء سد على النيل الأعلى والذى سوف يؤثر ويقطع خط حياة المصريين(١٢).

وفى الحقيقة كانت هذه خطة غير عملية ولكن إمكاناتها لفتت انتباه تيوفيل وفلكاس وكيل وزارة المستعمرات الفرنسى، وقد أحدث مشروع برمبت والاهتمام الفرنسى الرسمى ذعرًا فى بريطانيا التى كانت تحاول لبعض الوقت ضمان الحفاظ على اعتراف دولى بمجال نفوذ شامل يمتد إلى نهر النيل، وكانت هناك أيضا محاولات طبيعية لضمان السيطرة على الشواطئ الشمالية من مساقط مياه النيل الأبيض أى بحيرة فيكتوريا.

وما بين (١٨٨٨ – ١٨٩٨) كانت مساقط المياه في النيل مكافأة في لعبة الشطرنج التي تلعبها حكومات بريطانيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا والملك ليوبولد ملك بلجيكا، وهو صاحب مزرعة خاصة عرفت باسم دولة الكونغو الحرة.

وادعت بريطانيا بإعتبارها الحاكم الحقيقي لمصر أنها قد ورثت الادعاءات التاريخية لهذه الدولة حتى بحيرة فيكتوريا، وأنها حريصة على حماية شواطئها، وبالفعل فإن هذه المنطقة (أوغندة الحديثة) قد اخترقها رجال الإرساليات البريطانية، وفي عام ١٨٨٨ أسس أحد دعاتها رجل الأعمال الأسكتلندي ويدعى السير وليم ماكينون (William Meckinuon) شركة شرق أفريقيا البريطانية الملكية والتي حصلت على مرسوم تطوير التجارة ومد النفوذ البريطاني، وكانت ألمانيا صاحبة القوة المسيطرة في هذا الوقت في شرق أفريقيا، وقد تمثلت اهتماماتها في المستكشف الحماسي كارل بيترز (Carl Peters) الذي جمع في عامي ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ مجموعة من المعاهدات مع الحكام المحليين في المنطقة الداخلية من دار السلام والتي أعطت الأساس القانوني لما أصبح فيما بعد شرق أفريقيا الألمانية (تنجانيقا)، أما إيطاليا فظلت تسعى للحصول على مناطق نفوذ والتي امتدت ممتلكاتها فيما وراء البحار وركزت جهودها على إثيوبيا والقرن الأفريقي، أما فرنسا فكانت قد بدأت الصراع منذ تركز طموحها في الصحراء الغربية، رغم أنه في عام ١٨٨٥ حصلت على الكونغو الفرنسية وهي مستعمرة صغيرة على الشاطئ الشمالي لنهر الكونغو، أما الشواطئ الجنوبية من هذا النهر ومعها الحوض الداخلي الواسع فكانت ملكية شخصية للملك ليوبولد، وكانت ملكيته نتيجة اتفاق بين القوى الأوربية في مؤتمر برلين في عام ١٨٨٥، ولكن لم يكن معروفا عما إذا كانت الشركة التي كونها لاستغلال المنطقة سوف تزدهر وإذا فشلت فإن فرنسا تأمل في أن تخطو إلى هناك.

وشهد عام ١٨٨٨ الخطوات الأولى لغزو وسط أفريقيا فلقد كان كل من المشاركين يركز على إنقاذ إدوارد تشنتزر (Eduard Sqhnitzer) اليهودى الصقلى الذى حمل لقب أمين باشا عندما عين أحد حكام الخديوى فى السودان وبعد سقوط الخرطوم قاد بقايا قواته والجيش ناحية الجنوب إلى المنطقة الإستوائية حيث كان السباق من أجله وقد خطط ماكينون وبيترز للقيام بحملات مسلحة لإنقاذه من أجل الإنسانية (باسم الإنسانية)، وفى نفس الوقت رفع أعلامهما الوطنية بالقرب من منابع النيل وقد فوجئوا بالسير هنرى ستانلى الشاب من ويلز، والذى صار بشكل متدرج مراسلاً حربيًا ومستكشف الرحالة لفنجستون. ومنذ ١٨٨٥ حاكم دولة الكونغو الحرة، وأعاد ستانلى أمين الذى لا يرغب فى العودة وفى فترة وجوده القصيرة فى المنطقة الاستوائية دعم ادعاءات سيده فى المنطقة، دفع هذه الفترة حكومة اللورد سالسبورى إلى القيام بعمل مفاجئ ومن خلال سلسلة من استهلال لعبة الشطرنج الدبلوماسية حصل على مجموعة من المعاهدات مع إيطاليا وألمانيا وليوبولد الثانى والتى أكدت – على الأقل على الورق – السيادة البريطانية على وادى النيل، وأكدت الاتفاقية البريطانية الألمانية لعام ١٨٩٠ ادعاءات بريطانيا فى أوغنده وما صار الآن كينيا وادعاءات ألمانيا فى تنجانيقا، وهو ترتيب جعل من الممكن استعادة بريطانيا لمقايضة جزيرة بحر الشمال فى هيلجولاند مقابل زنجبار، وبعد ذلك تم التوصل إلى تسوية مع إيطاليا، ومنذ عام ١٨٨٥ شجعت بريطانيا طموحاتها فى إثيوبيا، وسلمتها الميناء المصرية على البحر الأحمر فى (مصوع) لتسهيل العمليات فى إريتريا، وردًا للجميل وعدت الإيطاليين فى عام ١٨٩١ للابتعاد عن وادى النيل. وبعد ثلاث سنوات وافقت حكومة اللورد روسبرى الليبرالية بعد جدال داخلى على إعلان محمية على أوغندة حيث زامن هذا الانهيار المالى لشركة شرق أفريقيا البريطانية الملكية مع انتشار الحرب القبلية، وبعد ذلك تم الاتفاق مع ليوبولد

على عدم مد حدود دولته إلى أعالى النيل، وهكذا مع حلول عام ١٨٩٤ كانت حالات الصراع فى صالح بريطانيا، وفى هذه المرحلة دخلت فرنسا فى اللعبة لقد كانت نية فرنسا طلب مناطق على شواطئ النيل الأبيض لقلب النظام السياسى الجديد فى مصر، وبمجرد أن وضحت نية بريطانيا فى عدم ترك مكانها هناك فى المستقبل القريب، وأصبحت فرنسا مستاءة وغاضبة بشكل متزايد وكانت الكراهية لإنجلترا قد توجت بمجموعة قوية من جناح اليمين والسياسيين الذين يبالغون فى القومية والرسميين والجنود ومحررى الصحف الذين ادعوا أن فرنسا قد انخدعت من جانب جارتها الجشعة، والطريقة الوحيدة لكى تسترد فرنسا نفوذها وحقوقها فى مصر بتحد عدوانى لبريطانيا فى مكان ما على أعالى النيل، وإذا نجح فإن هذا سوف يجبر بريطانيا على الجلاء عن مصر أو مشاركة القوى هناك وسوف يرفع مثل هذا الإجراء كرامة فرنسا الدولية ويحفظ توازن القوة في البحر المتوسط لصالحها، ولم يكن كل فرد فى الدوائر السياسية الفرنسية مقتنعا بهذا، حيث دار نقاش حاد حول إذا ما كانت بريطانيا ستجبر على الخروج من مصر بعدها فإن كل الشرق الأدنى والأقصى سيحدد مصيره، وهو ما يضر بالمصالح الفرنسية(١٣).

ومع ذلك فإن الشريحة المضادة التى تضمر الكراهية لإنجلترا داخل الحكومة والجيش والخدمة الاستعمارية صمموت على القيام بدورهم، وفى أواخر عام ١٨٩٤ صدرت تعليمات إلى فيكتور ليوتارد (Victor Liotard) حاكم أوبنجى العليا ليشق طريقه إلى أعالى النيل، لكن لم يتم تنفيذ هذه التعليمات بسبب تغيير الوزارة وكانت هناك حملة ثانية تحت التنفيذ خلال صيف عام ١٨٩٥، وستكون بقيادة الكابتن جين باتير مارشان (Marchan) وكان ضابطا صاحب عزيمة قوية، وكجندى استعمارى متمرس من هذا الأصل الذى ظل مشغولا فى العقد الماضى فى زراعة (Tricolore) غير

الصحراء الغربية وغالبًا تحديًا ضد رغبات باريس وكان مارشان هو رجل هذه المهمة، وفى مارس ١٨٩٧ تحرك من الجابون ومعه ١٦٣ ضابطا وعسكريا وأوامر بالتفاوض والتحالف مع كل من يقابله فى طريق سيرة إلى أعالى النيل وكان مشغولا مع من يؤيدونه فى مغامرته والتى تشبه غارة جيمسون(١٤).

وفى يوليو ١٨٩٨ وصل فريق مارشان إلى فاشوده على شواطئ أعالى النيل بعد رحلة ملحمية والتى فى بعض مراحلها كان يركب دراجة ذات عجلات صلبة، وهى الآن محفوظة فى متحف سانت سير فى الأكاديمية العسكرية، وبينما كان يسير عبر الصحراء الجنوبية كان حاكم الصومال الفرنسى يعقد صفقات سرية للحماية والصداقة للإمبراطور الإثيوبى منليك الثانى.

إن إمكانية التدخل الفرنسى فى المنطقة التى صارت اسميا منطقة نفوذ بريطانى، كانت أحد الأسباب التى وافقت فيها الحكومة على المرحلة الأولى من إعادة غزو السودان فى مارس ١٨٩٦، وسبب آخر هو الهزيمة المدنية للجيش الإيطالى على يد منليك فى معزكة عدوة ١٨٩٦، والتى غيرت ميزان القوة فى حوض أعالى النيل ودمرت بشكل خطير الكرامة الأوربية، وقد عهد بالتقدم جنوبًا نحو الخرطوم باسم مصر لجيش أغلبه من المصريين والسودانيين بقيادة السير هيربرت كتشنر ومن خلفية بروتستانية كان كتشنر جنديا ذا طاقات معينة معظمها كان تحديا أثناء عمله، وكان استعماريا كرّس نفسه لخدمة الله، وقد اعتقد أنه يشن حربًا فى السودان باسم الحضارة، وهو أمر لم يمنعه من معاملة أعدائه بمنتهى القسوة(١٥).

لقد كانت حرب كتشنر حربًا بطيئة وتدريجية أسفل النهر وحرب ضرورة وكانت أيضا نموذجا للكفاية اللوجستية مع خط سكة حديد فردى يسير مع خط القتال الذى أسر فى مجموعة من مراسلى الحرب الذين رافقوا الجيش، وكانوا يرسلون تقارير حماسية للجمهور، وقارنت النسخ الصحفية

للحرب التكنولوجيا الحديثة للغزاة مع بربرية أعدائهم، والتى كانت تؤكد باستمرار سمو الدوافع البريطانية، ولقد كان غزو السودان حربا صليبية من أجل الحضارة وانتقاما من موت غوردون.

لقد ازداد الاهتمام الشعبى بالحرب خلال شتاء عامى ١٨٩٧، ١٨٩٨ عندما تم إرسال قوات بريطانية أكثر بناءً على طلب كتشنر واستعداده لمعركة فاصلة وحاسمة مع جيش الخليفة الرئيسى والذى يبلغ حسب الاعتقاد ستين ألفا من الرجال الأقوياء.

وتوقعت الحكومة نصرًا سريعًا، وكانت تخطط للتسوية السياسية لمستقبل السودان، وتخلى سالسبورى عن تحفظه حول عبء حكم منطقة واسعة عديمة الفائدة ووافق على أن الإحتلال البريطانى لكل السودان أمر حتمي ويجب أن ندرس أحداث حملة مارشان، ووافق سالزبورى على ضربة مضادة لحملته فى نهاية ١٨٩٧ عندما صدرت تعليمات إلى الصاغ مارشان للتقدم شمالاً على طول النيل الأبيض من أوغنده بقوة من عسكر السودانيين، وكان هدفه عقد اجتماع بين مارشان وفرقة فرنسية أخرى، والتى اعتقد بشكل خاطئ أنها تتحرك من إثيوبيا إلى النهر، ولم يحدث التحام بين مارشان وماكدونالد، وفى بداية حملة الأخير ثار معظم السودانيين، وتم التخلى عن الحملة(١٦).

وفى أقصى الشمال كان كتشنر يتقدم بشكل منتظم بجيش من ٧٥٠٠ بريطانى و ١٢,٠٠٥ من القوات المصرية يدعمها أسطول من قوارب البنادق النهر، وجاءت ذروة الحرب فى الثانى من سبتمبر عام ١٨٩٨ فى سهل قرب أم درمان حيث قدم جيش الخليفة سلسلة من الهجمات الأمامية.

وتم صد الجميع من خلال البنادق الآلية والمسدسات طويلة المدى ونيران المدفعية التى قتلت ١١,٠٠٠ من الأنصار وجرحت اكثر من ١٦,٠٠٠ جندى أنها كانت أشبه بالمجزرة، والتى فاقت أى لقاء آخر بين الأوربيين والجيوش الوطنية، وصورت الفجوة بين تكنولوجيا القوى الصناعية وتلك الأعداء فى أفريقيا وآسيا، ولخص ونستون تشرسل الفرق، الذى كان حينذاك ملازما أول، ومنسقا للمهام لضابط عامل مع مراسلى الحرب، وعندما شاهد جموع الأنصار بأعلامهم والفرسان وجموع الحراب ورجال السيوف استعاد فى الحال الصور التى شاهدها فى الجيوش الصليبية فى القرن العشرين.

بعد معركة أم درمان بيوم ارتفعت الأعلام البريطانية والمصرية فى شكل احتفالية على حكام القصر الحاكم العام فى الخرطوم، وتم إحياء احتفالية تذكارية لآخر المحتلين غوردون وتمت صلوات كاثوليكية ودعاء إلى اللـه للنظر بعين العطف والشفقة إلى هذه الأرض التى تحبها الروح البطولية، وهى كلمات هزت مشاعر كتشنر وغيره من الضباط الذين انفجروا فى البكاء.

لم تكن هناك أى علامة للرحمة المقدسة فى أرض المعركة، حيث إنه نظرا لامتعاض تشرشل ترك كتشن الحرص من الأنصار ليموتوا، وفى داخل الخرطوم كان هناك سلب ونهب حسب طريقة كتشنر.

وفى نفس الوقت تم إطلاق النار على القيادات الرئيسية للخليفة وكانت بعض الأوامر من الصراع وبعدها الجنرال السير جون ماكسويل الذى علق بعد ذلك أنه اعتبر موت رجل الذين المتعصب هو الشىء الوحيد لزيادة أى عطف.

وكقائد عام في إيرلنده عام ١٩١٦ طبق نفس المبدأ على الوطنيين الإيرلنديين بعد ثورة الإيستر (Easter Rising)، وأثارت تقارير الغضب في أم درمان والخرطوم مجموعة من أعضاء البرلمان في اتخاذ خطوة غير مسبوقة لمعارضة دفع ٣٠,٠٠٠ جنيه مكافأة لكتشنر للأعمال التي قام بها في السودان وهناك تبادل لأعمال الفظاظة والمرارة حول نبش واستخراج جثة المهدي التي قام بإلقائها في النهر بعد أن رفع الجمجمة على شكل كأس، ولقد استاء أحد رجال البرلمان من الحزب الثوري بسبب عدم إنسانية هذا العمل وذكر للمجلس "أننا نقدم لحضارة للقارة السوداء وأنها كانت عملية قاتلة في الوقوف في وجه دولة تفي بمصيرها، فالقتل والسلب والنهب والويسكي والإنجيل هي عناصر هذه الحضارة التي رددها أحد الوطنيين الأيرلنديين ويدعى مايكل ديلون (Dillon) من حزب الأحرار الذي أكد أن الاستعمار ليس سوى الأنانية المنظمة(١٧).

لقد خدم الجدال من هذا النوع كغيره كإنذار للقيادات بأن تتخلى عن قواعد السلوك الحضاري عندما تشن الحروب من أجل الحضارة، ولكن جاء التصويت لصالح كتشنر ونال مكاناته.

وقد شارك في بعض هذه الأمور في كلية غوردون التذكارية في الخرطوم، وهي رمز لعبقريته الواضحة عن مهمة بريطانيا الحضارية ومن بين المساهمين في هذه المؤسسة مصانع البنادق الآلية من الفيكرشن والمكسيم التي قامت بدور سهل لكل فرد أسهم في انتصار الحضارة في السودان(١٨).

لقد حسم المستقبل السياسي للسودان بعد فترة قصيرة من الاستيلاء على الخرطوم، ومن ثم فإن المنطقة سوف تحكم ثنائيا من مصر وإنجلترا من خلال حاكم عام بريطاني، وبقت مشكلة مارشان الذي كشف وجوده للورد كتشنر في فاشودة من خلال أسرى المهدية، وصدرت أوامر سرية للقائد العام

عن كيفية التقدم إذا التقى بغزاة فرنسيين فى جنوبى السودان وكان لابد من طردهم لكن دون استخدام القوة المباشرة.

وبشكل خاص فكر كتشنر أن هروب مارشان مثل (Opera Bouiffe) وعدم أخذها بجدية - ولكن عندما التقى بالرجل الفرنسى عامله بكل أدب وبشكل تكنيكى تم رفع العلم المصرى وليس البريطانى على فاشودة، وعندما واجه مارشان القوة الكبيرة، واتضح له الموقف، - انسحب معتقدًا أنه حافظ بذلك على شرفه الخاص وشرف أمته.

وتبع ذلك سباق دولى بين بريطانيا وفرنسا مع العديد من المناوشات تشبه الحرب من كلا الجانبين، ونظرًا لأن فرنسا قد لقيت الذل والمهانة فى فاشودة فقد اتهمت الحكومة الفرنسية بريطانيا بأنها أهانت حقوقها فى جنوبى السودان، وأنها تتميز على ممثلها هناك وعارضت بريطانيا هذه التهم وأصرت على أن فرنسا لا تمتلك أى ادعاء مهما كان فى أى جزء من أعالى النيل، قد أيد الجمهور الذى كان مغمورا بالنصر فى أم درمان ومستاء من الامتيازات الأخيرة فى الشرق الأقصى سياسة الحكومة الثابتة والحازمة، وكان لا بد من وقفة على فاشودة لأن منافسى بريطانيا بالتأكيد سوف يفسرون أى اتفاق كبديل عن اتخاذ قرار، وبالتالى تتحدى السلطة البريطانية فى أماكن أخرى.

وظهرت الإرادة البريطانية الاستعمارية دون اهتزاز وتوقفت فرنسا التى كان اختيارها قليلا، لأن شعبها كان منقسما بسبب فضيحة دريفوس (Drey Fus) وحليفتها روسيا ورفضت أن تتورط فى أى جدال أو صراع حول منطقة ممتدة من الرمال فى وسط أفريقيا، وكما فهم ديلكاسى (Delcasse) وزير الخارجية الفرنسى بأن التفوق البحرى البريطانى سوف يجعل أى صراع غير متكافئ، كما أن تجارة فرنسا فيما وراء البحار تواجه

دمارًا كالذى حل على بريطانيا خلال القرن الثامن عشر، وكان حكيما عندما أدرك أنه بتحويل بريطانيا إلى عدو وربما كحليف لألمانيا، فإن سلطة فرنسا فى أوربا سوف تضعف بشكل رهيب.

وبعد أن برزت إنجلترا وكسبت النضال فى النيل فإنها وشريكتها مصر عليهما أن تواجها عملية التهدئة وحكم منطقة ضخمة لا تزال غير مكتشفة، ويسكنها أناس لا يعرفون إلا القليل عن الحكومة الخارجية، وهناك أيضا الخليفة ومعه قوة من عشرة آلاف من الأنصار قد هرب جنوبًا بعد معركة أم درمان وتم القضاء عليه فى نوفمبر ١٨٩٩ وهزيمته فى معركة أم الدويكرات (Umm Diwaykarat) ويبدو أنهم لا يتعلمون شيئًا من أم درمان ألقى الأنصار بأنفسهم فى دائرة القتل التى أحدثتها البنادق الآلية والمسدسات التى كانت تقتل المئات، ولم يكن من المحتمل رؤية هذا الاشتباك مثل ما جرى فى أم درمان باعتباره شكلاً من أشكال الانتحار الجماعى لرجال فضلوا الموت على الاستسلام لنظام جديد غير إسلامى (وثنى) وبالتأكيد فقد كان الخليفة يمتلك الوسيلة لإصلاح عدم التوازن العسكرى، لأنه كان يملك الأسلحة الحديثة التى كان قد استولى عليها خلال حملات ١٨٨٤، ١٨٨٥.

وبشكل متوازن كان من غير العادى فشل القوات البريطانية فى فهم أهمية ما شاهدوه خلال حملة السودان، ولقد رأى الصاغ المشير اللورد هايج (Haig) فيما بعد بنفسه الآثار المدمرة لقوة النيران الحديثة فى أم درمان، ومع ذلك فإنه كقائد عام على الجبهة الغربية ما بين (١٩١٥ و ١٩١٨) وافق على العمليات الهجومية التى واجهت فيها القوات البريطانية نفس الأمور الشاذة مثل دراويش الخليفة.

لقد كانت هناك عمليات عصيان مسلح إسلامية ومهدية لمدة عشرين عامًا بعد أم درمان، وكان أكثرها تهديدا فى عام ١٩١٦ بقيادة على دينار

سلطان دارفور شبه المستقل الذى كان يأمل تحقيق أحلامه لكـن لـم يجـد مساعدة ألمانية تركية، لقد طردته الدعاية البريطانية على أنه رجل مجنون، وهى صفه امتدت إلى كل مسلم يعارض الحكم البريطانى فى أفريقيا وآسيا، ومحمد عبد اللــه حسن الذى عارض وقاوم البريطانيين فى الصومال ما بين (١٨٩٨ –١٩٢٠) أطلق عليه الملا المجنون، وكان هناك فرق بين جنونــه ومشايخ على الحدود الشمالية الغربية، ويبدو أن إسرافهم لم يساو أمثال على دينار الذى وافق كرغبة السير ريجالند ونجت لصحفى أمريكى، بأنه أجبر أمًّا على أكل رضيعها[١٩].

ولم يكن معروفا عما إذا كان الصحفى قد سأل عــن أسـباب سـماح البريطانيين بوجود هذا الوحش فى دارفور لمدة ثمانية عشر عاما أم لا.

لقد استغرق الأمر ثلاثين عاما لإخضاع القبائل البربرية الوثنيــة فــى جنوبى السودان والتى عارضت بشكل طبيعى بالاضافة إلى عدم الترحيـب بالضرائب الجديدة، ورفضت التخلى عن هذه العادات التى تضمر ضـغائن بين القبائل وكان المطلوب ثلاثين عاما من الحملات التأديبية لإقناع رجـال القبائل فى جبال النوبة البعيدة لقبول النظام الجديد، ولم يصاحب أى صحفى هذه الحملات الصغيرة، وعلى هذا ظل الجمهور يجهلون ما حدث خلال هذه الحملات والتى كانت مجهولة عند السلطات فى الخرطوم والقــاهرة، وكمــا لاحظ اللورد كرومر أنه الأفضل، فلقد لفت الانتباه إلى هذه المسائل بعــد أن قرأ تقريرًا عن ملخص أحداث الشنق العام الذى واكب القضاء علــى ثـورة بسيطة فى السودان عام ١٩٠٨[٢٠].

وهناك نمط آخر من العوائق طبق فى عام ١٩٢٨، عندما تم عــرض جماعة من رؤساء الدنكا والنوير ورؤساء ال (Guer) فى معرض من البنادق الآلية ونيران المدفعية أثناء زيارة الخرطوم[٢١].

وغالبًا ما كان الرسميون القلقون والمنهكون يلجأون إلى وسائل أكثـر عنفًا من الإكراه، ففي خلال عامي ١٩١٧ ، ١٩١٨ أثناء العمليات في جبال النوبا تم حرق المحاصيل والقرى، وطرد رجال القبائل وعائلاتهم إلى الشجيرات للموت عطشا(٢٢).

وبناءً على اقتراح ونجت جاءت الطائرات من مصر لقصف جيش على دينار بالقنابل وبعدها أمكن استخدامها ضد القبائل في عمق جنوب السودان، لقد كانت النتائج مذهلة ففي فبراير ١٩٢٠، حين سقطت قنابل محرقة لتبدأ حرب الشجيرات واندلعت النيران في محاربي البوير، وكان قصف قطعانهم من الماشية بشكل منتظم فضلاً عن استخدام البنادق الآلية (٢٣).

وكانت الخسائر في الغالب مرتفعة في إحدى الهجمات ضد جزر بحر الجبل في يناير ١٩٢٨، حيث قتل مائتان من رجال القبائل، لكن لم يحصر بسهولة الضحايا مثل نظرائهم في أوربا أثناء الحرب العالمية الثانية.

إن المبرر الرسمي لهذه الإجراءات القاسية هو أنها حققت الاستقرار لهذه الأحياء المضطربة والبعيدة، ومع ذلك فإن هناك شيئًا ما مشينًا حول استخدام الطيران لترويع الناس الذين ادعت بريطانيا أنها ترغب في إعادة تجديد حياتهم(٢٤).

والإداريون الذين تعلموا مهمة تمدين وطنهم، والذين كرسوا حياتهم لتحقيق هذا الهدف كانوا خجولين مما كانوا يسمونه بتغيير لطيف " الرقابة الجوية" ولقد توقف هذا بعد عام ١٩٣٠ رغم أن الطيران استمر فقط فوق مناطق الإثارة كتذكرة عما هو موجود في الجعبة لكل العصاة.

وكشفت عملية اللجوء المختصرة إلى قوات الطيران كوسيلة للعقاب مثلما حدث في الفترات التي تلت سقوط الخرطوم، والفجوة التي فصلت المثل اللطيفة والإنسانية للاستعمار البريطاني ووسائل عملائه.

(٨)

أعظم النعم التى عرفتها أفريقيا

شرق أفريقيا وغربها

خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر حدث تكالبان على أفريقيا، وكان الأول رصينًا رغم أنه كان أحيانا لاذعا ومن خلال لعبة دبلوماسية استغرق السياسيون فى قراءة الخرائط ورسموا خطوطًا عبرها، والثانى كان مهمة أكثر نشاطا حاول فيها الأشخاص المغامرة فى مناطق غير معروفة وعدائية، وكانوا يُجبرون سكانها على قبول أسياد جدد وقوانين جديدة، كان هذا النشاط قاصرًا على حفنة من الرجال حريصى الهدف والذى أعطاهم القوة على تحمل عدم الراحة والخطر. وقد وصف أحدهم أفريقيا على أنها أرض تدريب لرجال يتذوقون المغامرة الطائشة، لأنه قد يبدأ شخص رحلة (سفارى) أى السير فى أفريقيا وهو لا يعرف أين تقوده ولا يهتم الشخص كثيرا بذلك(١).

وبالفعل قام البعض بذلك من أمثال كتشنر وزملاء الطموحين الفرنسيين مثل جوزيف سيمون جالينى وجوزيف جاكويسى جوفرى (غازى تمبكتو) وأدت الطرق الفرعية إلى ظهور القيادات العليا فى الحرب العالمية الأولى. وآخرون أمثال لويس هيربرت ليوفى وونجت وفريدريك الذى صار فيما بعد اللورد لوجارد الذين سلكوا طرقا جانبية وصاروا مساعدين لقناصل دولهم.

بدأ لوجارد أوّل خطواته فى شرق وغرب أفريقيا، وكان ضابطًا بحق وصارمًا مع شارب طويل، وكان متهورًا فى فترة لم يكن القتال الذى يحترم الذات مكشوفًا فى المناطق الإستوائية، وربما كان كتشنر أكثر شهرة ولكن شهرة لوجارد كانت أكثر فاعلية، فلقد ساعدت على إعطائه لهذا الغرض ضباطًا آخرين أكثر خشونة ومظهرهم مخيف والتى وربما يكونون أكثر مغامرة عندما يحتاج الأمر لأن يرهب الوطنيين.

فى عام ١٨١٧ كان لوجارد ومعه ثلاث حملات تحت قيادته فى مرحلة النهاية، وبعد أن شخص له الطبيب على أنه قد أرهق فى الحال قرر أن ما احتاج إليه هو عمل شاق ونشط أكثر من الراحة، وأن أفريقيا سوف تزوده بالعلاج، وبعد محاولة فاشلة لتقديم خدماته للجيش الإيطالى فى إريتريا قبلت بعثة شركة البحيرات التبشيرية طلبه، وخلال عامى ١٨٨٨ و ١٨٨٩ قاد لوجارد القوات المجندة فى حرب ضد تجار الرقيق حول شواطئ بحيرة نياسا.

أحب لوجارد الطريقة التى أراد بها رجال التبشير الإسكتلنديون أمورهم وتعلم منهم الكثير، إن منازل رجال البعثات التبشيرية النظيفة والمدارس وطلابها بملابسهم الأنيقة والمنظمة كانت درسًا واضحًا فى الحضارة الأوربية، وخلص لوجارد بأن الرجال البيض فى أفريقيا يجب أن يتمسكوا بطريقتهم الخاصة فى الحياة التى تؤكد التفوق والسيادة اللتين تتطلبان الاحترام وتثيران تهذيب المتوحش.

إن ترويض المتغطرس من السود لا يمكن التسامح عنه ويجب أن يرفضها بشكل أى إنسان محترم ومثل الطبقات البريطانية الدنيا، فإن الأفريقى بحكم الغريزة يحترم ويعترف به كرجل محترم ويسلك طريقه الخاص[٢].

لقد شارك الضباط البريطانيون والإداريون فى هذا الرأى بشكل واسع ويستطيع الضابط البريطانى المثقف الجرىء، والذى تحكمه قوة الشخصية والثقة بالنفس الطبيعية ضمان ولاء الأفريقى الأسود الذى اعترف به على أنه محارب حقيقى.

إن الشجاعة الرياضية خصوصا فى اللعبة الكبرى تضيف إلى ميول الضابط البريطانى، وفى تقرير للمخابرات لعام ١٩٠٦ عن شرق أفريقيا الألمانية لاحظ مسئول رسمى بريطانى أن الألمان لن يتركوا المنطقة، وأنهم لا يهتمون بالرياضة وليست لديهم فكرة عن الكلمة التى يستخدمها البريطانى، وعلاوة على ذلك فإنهم يصطادون بطريقة غير مهذبة تمامًا ويأمرون العساكر بإطلاق النار على الجاموس والفيلة دون مبالاه[٣].

وتخيل الضباط الاستعماريون الفرنسيون مثل البريطانيين أن لديهم صفة داخلية تكسبهم قلوب الوطنيين، وهذه بركة وكاريزما روحية داخلية يمتلكها رجال الدين المسلمين الذين يجلبون الحظ، ويظهر الضابط الذى ينال البركة بشكل إعجازى فى المعركة، أن بركة الجنرال فرانكو التى أنقذت حياته فى المعارك فى مراكش فى عشرينيات القرن العشرين كسبت له ولاء القوات المغربية.

ويتطلب البقاء فى أفريقيا قوة احتمال جسمانية وأخلاقية، ولقد ابتدع لوجارد نظامًا فاعلا غريب الأطوار لحياته اليومية فى المناطق الإستوائية حيث ارتدى قبعه عريضة وشرب كميات كبيرة من الشاى الخفيف والماء وكانت الأجزاء الحيوية فى الجسم هى المعدة والمرارة والكبد والتى كان يغطيها بشكل دائم بقطعة قماش مبللة طوال الوقت، لأن برودتها كانت سبب معظم الحمى والدوسنتاريا والإسهال والكوليرا التى أضعفت الرجال فى أفريقيا، وقد منعت الحمى طعام الإفطار الأساسى الذى يتناوله بعد شروق

الشمس مباشرة الذى يمكن أن تنشأ من الشمس التى تزيد على حرارة معدة خاوية، وعندما فشلت هذه الاحتياطات وأصيب لوجارد بالحمى كان يتناول الكوكايين، ويغطى نفسه تحت كومة من الملابس التى تخرج عرق الحمى(٤).

وكانت هذه الأدوية الناجحة والشافية من الأمراض قد أدت مفعولها بشكل ناجح، وعلاوة على ذلك فقد قوى التمرين الصحى من بناء جسم الرجل الأبيض، وقد ذكر الضابط ريتشارد مينترهاجن (Meinertzhagen) المعين فى شركة المسدسات الأفريقية الملكية (Kings African Riffes) فى كينيا فى عام ١٩٠٢ أن الصيد العنيف لا يمتحن الرجولة فقط، ولكن يطور فن الصيد فى الشجيرات والبراعة فى الرماية، ولاحظ أن أى شخص ليس متخصصًا عندما يدرب أعصابه وعضلاته فإن كثيرًا من إخوانى الضباط كانوا يشربون الخمور أو يتجولون مع زوجة شخص آخر، ولكن كان هذا متوقعًا فى جماعة تضم شاذين جنسيًا والذين يتباهون بالسيدات الوطنيات(٥).

وقد جعل التنظيم الذاتى والنظام الصارم لوجارد فى صحة جيدة وساعده على القيام بدور حاسم فى إعادة بناء شرق وغرب أفريقيا، وما بين أعوام (١٨٨٩ - ١٨٩٣) التحق بشركة شرق أفريقيا الإمبريالية أولا لتأسيس وجود عسكرى فى مناطق نفوذها عن طريق بناء الحصون، وعقد معاهدات مع الحكام الوطنيين والذين أقام معهم علاقات أخوة، وبعد ذلك صار صانعًا للسلام ومحاولاً القضاء على تجارة الرقيق ومتدخلاً من أجل البروتستانت فى حرب أهلية بينهم وبين معتنقى الكاثوليكية فى أوغندة.

لقد تأثر لوجارد بشدة مما شاهده عندما اخترق شرق أفريقيا حيث إن المنطقة تدخل فى حالة من الفوضى التى يمكن أن تنقذها بريطانيا، ولم يعرف الأفارقة أى سلام، وفى يوم ما ترى السلام والكثير من الحقول المزروعة والأطفال يلعبون تحت أشعة الشمس جثث الرجال وأجساد الأطفال نصف المحترقة فى لهيب يلتهم القرية بينما يتم أسر النساء من جانب تجار الرقيق.

إن جهودنا ليست مطلوبة فقط ضد تجارة الرقيق وحدها، إنه السلام البريطانى الذى سوف يوقف هذه الغارات غير القانونية وتلك الحروب الدائمة بين القبائل، وهذه أعظم نقمة عرفتها أفريقيا منذ الطوفان(٦). وكانت مثل هذه الأوصاف عن العنف وعدم الاستقرار فى الحياة الأفريقية حصيلة التجارة كما وردت فى التقارير الأولى فى القارة التى ظهرت فى أواخر العصر الفيكتورى فى بريطانيا. لقد تعرف القراء على أرض المتناقضات حيث أن كل ما فيها حسن فهو من أصول أوربية وكل ما هو ردىء يرجع إلى الأفريقى، وعلى سبيل المثال فإن أوصاف اثنين من شهود العيان فى نيجيريا، والذى صدرت فى تسعينيات القرن التاسع عشر، يشير إلى العادات الوثنية الوضيعة، وإلى شعب بربرى بلا قانون " ومملكة الظلام"(٧).

لقد انزعج أحد المؤلفين من المدينة الساحلية بونى (Bonny) حيث إن نظافة ونظام مقر البعثة التبشيرية ألقيا أضواءً قوية على حرمان وفداحة سكان المدينة من الوطنيين حيث كانت الشوارع مليئة ببقايا زجاجات الخمور(٨)، ومثل مناطق البعثات التبشيرية فى جيل سابق فإن مثل هذه المواد تقدم دعوة للدعم ونداءً واجبًا، وعلى الشعب البريطانى أن يقدم الدعم الكامل لرجال أمثال لوجارد الذى تحمل مسئولية كيلنج (Kipling) عبء الرجل الأبيض ومن المناسب أن الشركة التى يعمل بها وهى شركة شرق أفريقيا الإمبريالية التى وضعت وسيلة من الإضاءة على طوابع البريد، وهى ترمز إلى التحديث وتنوير هذه المنطقة التى كانت شديدة الظلام.

لقد طور لوجارد آراءه الخاصة عن كيفية انتشار التنوير فى أفريقيا والقائمة على تجاربه هناك، وكجندى عمل فى الهند، وأراد حكومة على طول الخطوط التى نشأت فى الهند، حيث يجب أن تكون الإدارة استعمارية وحازمة وتحترم المؤسسات المحلية، فالحكم الاستبدادى وحكم الطغاة الذى لا

يلفت الانتباه إلى العادات الوطنية والتقاليد والأهواء ويكون مناسبا للتطــور الناجح للحضارة الناشئة كما كتب وحسب رأى متفق مع روح الحكم البريطــانى الاستعمارى(٩).

وكانت فى ذهنة الممارسة الهندية للحكم غير المباشــر الــذى ثبتتــه بريطانيا التى عدلت الهياكل السياسية القائمة وتعاونت مع الحكام الموجودين، وكان هذا بديلاً جذابًا لعملية أكثر تكلفة ومرهقة لإقامة نظام جديد كلية مــن الحكم، والذى كان عرضة للقيام بثورات واعتراضات، ولم تكن هذه النظرية جديدة بالطبــع كما طبقها لوجارد فى أفريقيا، والتى ثبت تأثيرهــا القــوى، وهناك فى أماكن أخرى دخلت بريطانيا فى تحالف من امتيازاتهم مثل القضاء على الرقيق طالما أنهم يمارسون سلطاتهم بطريقة يوافق عليها المستشارون البريطانيون مع أوائل عشرينيات القرن العشرين ثم بناء المدارس فى شرق أفريقيا حيث تعرف أبناء الرؤساء على كل مسئولية الإدارة فى المستقبل.

وكانت المدارس وغيرها من المؤسسات الأخرى حيث يرتدى الأولاد والبنات زيًا موحدًا مثل الملبس الأفريقى وليس الأوربى والذى يناسب السعى الأفريقى لنظام أوربى فى التعليم، وفى بعض المناطق طور رجال التبــشير طقوس المؤسسات الوثنية طوال فترة الإعداد للختان الذى صار واحدا يتعلم فيه الشبان فضائل الرجولة المسيحية(١٠).

ولقد أصبح الحصول على المــال والتحــضر أحــد مهــام الــشركة الإمبريالية البريطانية فى شرق أفريقيا ولم تكن المهمتان متــوازيتين كمــا حدث فى الهند، ومع حلول عام ١٨٩١ كانت الشركة تتــرنح نحــو حافــة الإفلاس، وكانت النتيجة أن أوغندة وأفريقيا الشرقية البريطانية (كينيا) التــى صارت من نصيب بريطانيا بعد معاهدة ١٨٩٠ مع ألمانيا، والتى تحولت إلى وزارة الخارجية وبعدها سيطرة وزارة المستعمرات ومن سوء حظ الــشركة

أن الادعاء بأن أفريقيا تقدم منفذًا غير محدود للصناعات البريطانية قد ذهبت هباءًا، ومع هذا فقد ساعدت على تقديم الحافز الأساسى للاستعمار فى أفريقيا وأعطت الأمل لرجال الأعمال البريطانيين الذين وقعوا فى فـخ الانحـسار والخسارة، وتوقعت شركة ليدز ماركورى (Leeds Mercury) فى ٢٨ فبراير ١٨٨٥ أن أفريقيا ستصبح سوقًا واسعة للمنتجات القطنية والبطاطين والأوانى الفخارية (كان هذا حقيقيًا فعلا) والأدوات المعدنية من جميع أنواعها والحلى الرخيصة، ولكن السؤال هو: كيف يدفع الأفارقة ثمنًا لكل هذه السلع؟

لقد تم تجاهل هذا السؤال المحير خلال فترة التفاؤل عندما تـم فـتح أفريقيا لكنها عادت إلى لإرباك الحكومات ورجال الأعمال مع بداية القـرن حيث أنه فى هذا الوقت كان كل شخص يدرك الأحوال الحقيقية فى القـارة، وخارج جنوب أفريقيا لم توجد مناجم الملك سليمان، وكان لابد مـن ثـورة اقتصادية لخلق زبائن على أساس أنهم تقريبا تحت سيطرة الحكومة الأجنبية، وكان لابد أن يحدث التغير من أعلى، وهناك اسـتعارة مفـضلة (محبوبـة) لتسعينات القرن التاسع عشر والتى كـان يـستخدمها تـشامبرلين هـى أن المستعمرات وكانت إقطاعيات بعيدة عن المراكز والتى يمكن مـن خـلال الإدارة الحريصة والاستثمار أن تكون مفيدة سواء لصاحبها أو لسكانها، ومع ذلك، فإن هذه العملية عقدت حقيقة أن وزارة المستعمرات قد ورثت وأبقـت التقليد الليبرالى القديم وأنها ووكلاءها أوصياء لسكان سذج مثـل الأطفـال يحتاجون الحماية من رجال لا شك فيهم ومن بعضهم بعـضًا، وفـى نفـس الوقت أصرت الأرثوذكسية الاقتصادية السائدة على أن استثمار رأس المـال فى أى مشروع مهمة الأفراد وليست مهمة الحكومات، وكانت هناك معارضة معقولة لمطالب شركة شرق أفريقيا الإمبريالية للمساهمة مع المساعدة فى تمويل خط السكة الحديد من ممباسا إلى شواطئ المحيط الهندى، والـذى سـوف تخدم كممر للتجارة ولإحكام قبضة بريطانيا على مصادر النيل الأبيض.

وفى عام ١٨٩٦ اعترف تشامبرلين بالخط الأساسى للسكك الحديدية ووافق على تحمل بعض التكاليف ومع عام ١٩١٣ عندما انتهت العملية دفعت الحكومة البريطانية ٢,٨ ملايين جنيه فى شكل منحة لتطوير شرق أفريقيا وفى عام ١٩٠٣ اكتمل خط السكة الحديدية وبعد خمس سنوات حقق فائدة سنوية محترمة تقدر بـ ٦٠,٠٠٠ جنيه. وفى هذا الوقت كان التطور الاقتصادى فى كينيا يجرى أثناء العمل وكانت السلطات المحلية بعد أن وافقت فى عام ١٩٠٣ قد خصصت أراضى المرتفعات ذات المناخ المعتدل والتربة الخصبة لاستقرار وإقامة البيض، وكانت الزراعة حسب الممارسة الأوربية باستخدام وسائل حديثة هى الوسيلة الوحيدة لجعل المنطقة تعتمد على نفسها ذاتيًا وتستطيع تحمل تكاليف خط السكة الحديدية.

وكما هى الحال فى روديسيا الجنوبية تم حجز أراض على جانبى الخط الحديدى للأوربيين الذين كانوا على اتصال سهل بالنقل والأسواق الخارجية وتشجع ريتشارد ميترتزجن أحد أول المستقرين فى نيروبى عام ١٩٠٢، وذكر أنه كيفما يعد الرجل الأبيض هو الجنس السيد وأن الرجل الأسود سيظل إلى الأبد عمالة رخيصة وعبيدًا(١١).

وكان هذا رأى تعتنقه وفى أشكال أخرى مختلفة أجيال متعاقبة من المستقرين فى عام ١٩١٦ ووصل عددهم إلى ثمانية آلاف ومجموعة من البوير الذين هاجروا من جنوب أفريقيا وجلبوا معهم آراء العنصرية من أوطانهم الأصلية، وتعقدت الأمور أكثر فى شرق أفريقيا بنتائج أخرى من التغيرات الاقتصادية ألا وهى وجود الهنود، فلقد تم شحنهم إلى هناك كعمال بعقود لمدة معينة للمساعدة فى بناء السكك الحديدية وبعد ذلك استقروا كعمال فى المحلات التجارية وكتبة، كما كانوا يقومون بأعمال ماهرة لم يكن الأفارقة مؤهلين لها، ومع حلول عام ١٩٢٠ كان هناك ٢٣٠٠٠ هندى فى كينيا، ١٠,٠٠٠ أبيض معظمهم من المستقرين بعائلاتهم وثلاثة ملايين أفريقى.

وواجهت الحكومة الاستعمارية مأزقًا حرجًا رغم أنها لم تحصل على مبالغ من بيع محاصيل نقدية مثل القطن والسكر والتبغ لكى تزيد من اقتصاد كينيا، فإن زراعة البن والذرة كانت تزدهر، وكانت حـرب (١٩١٤ – ١٩١٩) قد ازدادت من دافع النمو وفى السنة الأخيرة كان مليونى فـدان للفلاحـين البيض وأعلنت الحكومة عن مشروع لجذب الضباط الذين خرجوا من الخدمة لاستثمار مكافأتهم فى مزارع كينيا، وكان رأس المال الخـاص ضـرورى للمستقرين الكينين، كما كانت الحال فى أمريكا الشمالية (كانت ألفـى جنيـه الحد الأدنى عام ١٩١٩)، ويحتاج المستوطن إلى عمالة رخيـصة ووفيـرة ومنذ بداية الاستعمار الأبيض كان على السلطات الاستعمارية أن تدبر وسائل لدفع شرائح من السكان السود نحو كسب الأجور المنتظمة واقتصاد السوق، وكانت ضريبة الكوخ السنوية وقدرها ثلاث روبيات (عشرون بنسا) للكوخ، وثلاث روبيات أخرى للزوجة مالكة المنزل وضرائب أخرى فـضلاً عـن ضريبة الرأس وقدرها ثلاث روبيات لكل شاب بالغ ليس له منزل، وكل هذا أجبر الأفارقة على العمل والبحث عن النقد مقدمًا. وفى عام ١٩١٨ اتخـذت كينيا إجراءً كانت أصوله فى جنوب أفريقيا والذى تم تقليده فـى روديـسيا الجنوبية ونياسالاند حيث تم منع الأفارقة من العمل فى منـاطق خصـصت للأوربيين إلا إذا تعهدوا بالعمل لصاحب الأرض.

كانت العمالة غير الماهرة للأوربيين غير مألوفة فـى هـذا الوقـت لأسباب غير مفهومة، ولسنوات طويلة كانت الحكمة السائدة على أن معظـم الأفارقة ظلوا بعيدين عن الاقتصاد الغربى بسبب الكسل المتأصل فى نفوسهم ويبدو أن العمل الشاق لساعات منتظمة لم يكن يأتى بشكل طبيعى لهم فضلاً عن أنهم لم يفهموا قيمته الأخلاقية.

وهنا أحد المستكشفين الذين عبروا شرق أفريقيا فى عام ١٨٨٤ مع مجموعة من الجمالين غير الراغبين فى مصاحبته عند عودته لأنه ساقهم بالقوة وعادوا رجالا بعد التخلي عن عيوبهم الجسمانية والأخلاقية.

وقد واجه لوجارد الحقد والعداوة بين الحمالين وأعطاهم جرعات من خليط الماء والملح والمستردة والتى جعلت أحد الذين عالجهم يقول "بأن هذا دواء متوحش"[١٣] وهناك طريقة أكثر استخداما وهى الكرباج من حيوان الرَّنة للعمال السود، وفى نوفمبر عام ١٩١٤[١٤] طلب قائد البحرية دارتموث (Dartmouth) فى كيب تاون السماح بضرب سائقى العربات من العرب والهنود على أساس أنه لا يوجد إصلاح لهم غير ذلك له أى أثر[١٥].

لقد حذر اللورد كرانورث (Cranworth) فى كتابه الإرشادى عن الفلاحين الذين يمكن استخدامهم فى كينيا والذى صدر فى عام ١٩١٩ ضد عملية الضرب الكثيرة ولكن فقط علتهم مثل الكذب والقسوة على الأطفال والحيوانات، حيث إن الكرباج هو أخف عقابًا وعلاجًا[١٦].

وقد نصحت بذلك السيدة كرانوروث زوجه المستوطن الجديد، بشدة التفتيش الدائم للمطبخ فى النظام اليومى الخفيف غير المقبول الذى انتهى بشعور الألم على الأجزاء الخلفية للطباخ[١٧].

ويبدو أن السواحيلى (جانب أفريقى وجانب عربى) والطباخين الوطنيين لم يكونوا شديدى الحساسية حول غسل الأوانى المنزلية.

ولم يكن غريبًا أنه رغم تزويدهم بكل احتياجاتهم فإن قلة معقولة من المستوطنين الكينيين كانوا يفضلون تحاذًا مع جنوب أفريقيا حيث اعتقدوا أن حكومتهم تعاملهم بطريقة أكثر عاطفية من وزارة المستعمرات[١٨].

ورغم الألعاب المنتظمة والمباريات فى كرة القدم بين فرق من الموظفين الرسميين والفلاحين فإن التوتر ظل قائمًا بينهم، ووصل إلى حد الانفجار فى عام ١٩٢١ بعد الإعلان عن أن ممثلين هنودًا سوف ينضمون إلى مجلس الحاكم العام، وقد فسر هذا الإجراء على أنه خطوة نحو كينيا متعددة الجنسيات، والتى ربما يجد المستوطنون فيها الذين يفوقون عددا أن مصالحهم قد أهملت.

ظهرت حركة مقاومة ومباحثات عن التمرد وكان رجل الساعة هو الجنرال فيليب هويتلى (Philip Wheatley) ضابط سابق فى الجيش الهندى يكره القومية الهندية والذى كانت الأفكار المتطرفة لجناح اليمين نموذجًا حيًا لشخصية دافيد لسو (David Lowus) الكرتونية للكونيل بلمب، وكانت كينيا ملاذا طبيعيا (Blimp) الذين تجمعوا حول هويتلى ووضعوا خطة للمستوطنين على شكل انقلاب مع شعار من أجل الملك، وكينيا فى كثير من الأحوال وكان هذا مقدمة لإعلان من جانب واحد عن استقلال روديسيا فى عام ١٩٦٤ والذى تحول إلى سخرية لاذعه مع المستوطنين الذين انسحبوا فى اللحظة الأخيرة.

وقد أثار هذا العمل وزارة المستعمرات، واضطرت لأن تصدر منشورا أبيض فى عام ١٩٢٢ وتضع السياسة الرسمية بشكل واضح "إن كينيا منطقة أفريقية فى الأساس ومصالح الوطنيين الأفارقة فى المقام الأول"(١٩).

لقد كانت غرب أفريقيا أيضا منطقة للرجل الأسود، وهى غير مشجعة حيث ارتبطت الرطوبة والحرارة وخط ساحلى وانتشار الحمى التى ارتبطت بالعبارة الشهيرة الكريهه " مقبرة الرجل الأبيض " وفى أواخر القرن الثامن عشر كان المجرمون المتهمون بجرائم تحكم عليهم بالقيام بواجبات الحصون هناك كشكل من حكم الإعدام المتأخر، وخلال معظم القرن التاسع عشر كانت

نسبة الوفيات بين الجنود فى سيراليون أعلى نسبة فى الإمبراطوريـــة، وزاد التقدم فى المعلومات الطبية فرص أوربا للبقاء، ولكن فى السنوات التالية قبل الحرب العالمية الأولى توقع الموظفون الرسميون فـــى ســـاحل الـــذهب ألا يقضوا أكثر من اثنى عشر عامًا هناك قبل القيـــام بالرحيـــل، كمـــا قـــضى زملاؤهم فى شمال نيجيريا ثمانية عشر شهرًا من العزل وكما لاخظ أحـــدهم فإنهم تعساء إذ تعرضوا للعديد من نوبات الحمى فى السنة[٢٠].

وطوال القرن التاسع عشر كانت مستعمرات غرب أفريقيا البريطانيـــة قواعد عسكرية أمامية، وكانت مستوطنات جامبيا وساحل الذهب تعانى مـــن حقبة تجارة الرقيق ولم تعد لها أى قيمة اقتصادية، وكانت سيراليون مثـــالاً رائعًا لما يمكن أن يحققه الرجال والنساء السود مع التعليم المـــسيحى، كمـــا كانت أيضا محطة كبرى للفحم للأسطول الملكى.

ولقد وجدها أحد الزوار فى عام ١٨٩٨ مكانًا متقدمًا بشكل مخيف حتى ولو أن منظر الناس السود الذاهبين إلى الكنيسة فى الملابس الأوربية كـــان مدعاة سرور لجيل من الأجيال المحبة للبشر[٢١].

لقد تمت السيطرة على مدينة لاجوس عام ١٨٩١ كقاعـــدة لعمليـــات محاربة تجارة الرقيق وموطئ قدم فى نيجيريا، وهى الجزء الوحيد فى هـــذه المنطقة الذى يجذب التجارة البريطانية.

وكان زيت النخيل مركز الجذب، وهو سلعة حيوية للصناعة البريطانية التى يمكن استخدامـــها لتشحيم الآلات وأساس صناعة الصابون والـــشموع، وكانت مجموعة ليفربول المسيطرة على زيت النخيل والتى تحرسها شـــبكة من القناصل تدعمها قطع بحرية بشكل متقطع، واخترق بعضها نهرى النيجر وبنوى، وكان أهالى هذه المنطقة وأماكن أخرى فى غرب أفريقيا متحمـــسين

كزبائن فى تجارة المسكرات (gin)، وفى عام ١٨٨٩ تم استيراد ١,٣٥ مليون جالون فى نيجيريا ورغم الاحتجاجات من جماعات التبشير والمعتدلين فى بريطانيا، فإن التدفق ازداد، وفى عام ١٩٠٨ كان إجمالى تجارة المسكرات (gin) يصل إلى ١,٢ مليون يذهب ٩٠% منها إلى نيجيريا، وطالما أن زيت النخيل يخرج من نيجيريا وتدخل تجارة المسكرات (gin) إليها لم تكن بريطانيا مهتمة بأى حال بالحصول على مناطق إضافية حيث إن جهاز الإمبراطورية غير الرسمية يعمل بفاعلية وكفاءة أكبر، وإذا ثبت عرقلة أحد الحكام المحليين لهذا التبادل التجارى كما فعل الحاكم كوفى (Kofi) ملك الأشانتى (كنج كوفى) عام ١٨٧٣، قامت قوة عسكرية صغيرة لكن منظمة لعلاج الوضع.

لكن أربكت فرنسا هذا التوازن المحلى فمنذ منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر صارت مجموعة من الجنود الفرنسيين والسياسيين المتحمسين عاطفيا مهتمين بفكرة خلق إمبراطورية موسعة تمتد من ساحل غرب أفريقيا عبر الصحراء الغربية، وتبنت هذه المنطقة مشروع فرنسا بوضعها فى العالم الذى انكمش وتقلص بسبب الحرب الفرنسية البروسية، جماعة من السياسيينويكمن مفتاح الاستقلال الاقتصادى فى هذه المنطقة من خلال خط سكة حديد يجرى من غرب القارة إلى البحر الأحمر، ولا يغادر أبدا التربة الفرنسية وربما يخدم هذا الخط كحلقة وصل لكل تجارة أفريقيا شمال الصحراء.

وكان الملهم لهذا الخط عبر القارات هو خط الإتحاد الأمريكى للمحيط الهادى الذى كان قد إكتمل عام ١٨٦٩، والذى كان يفتح طريق الغرب، وكان رودس أيضًا يعترف بخط سكة حديد يقسم أفريقيا، وفى تسعينات القرن التاسع عشر خطط لإنشاء خط القاهرة الكيب الذى دون شك يمر عبر مناطق بريطانية.

وفى أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر اتخذ الفرنسيون الخطوة الأولى نحو بناء إمبراطورية غرب أفريقيا، وجاء الدافع من رجلين استعماريين على أعلى مستوى، وهما الأدميرال جين دى جورى برى (Jean de Jauregeir berry) وزير البحرية وتشارلز دى فرى سنت (Charles de Frey Cinet – أحد متحمسى خط السكك الحديدية والذى شغل منصب وزير الأشغال العامة، ووافق الرجلان على البحث بدقة فى الداخل من السنغال بينما كان القارب الحربى فولت جيرن (Voltigaurn) قد حل على أوامر فى المياه النيجيرية للقيام باتصالات وعقد معاهدات مع الرؤساء المحليين، وفى نفس الوقت كان الرحالة سوفرجنان دى برازا (Savor gnan de Brazz) يوقع معاهدات مع حكام حوض نهر الكونغو، وواجه مشكلة الدخول فى مناطق تحت الإشراف البريطانى غير المحدد حيث بدأ القناصل الإنجليز جمع معاهدات، كانت هذه الادعاءات حصيلة نشاط لكل من رجال السياسة البريطانيين والفرنسيين والذين وقعت على عاتقهم مهمة امتلاك هذه المناطق، وكان خوف بريطانيا الأساسى هو أن المدافعين الفرنسيين سيحصلون على قطع صغيرة من أراضى الداخل فى غرب أفريقيا والتى ربما تترك مناطق جامبيا وسيراليون وساحل الذهب كمستعمرات ساحلية بدون تجارة داخلية، وعلاوة على ذلك ربما تسيطر فرنسا على أعالى النيجر ومن ثم تعرقل التجارة المارة أسفل النهر من شمالى نيجيريا والسودان الغربى، ولقد حصلت المصالح التجاريه البريطانيه على بعض الضمانات من التسوية التى تمت فى مؤتمر برلين خلال عام ١٨٨٥، حيث حصلت بريطانيا على منطقة نفوذ تمتد من أعالى النيجر والأرض الداخلية من ساحل الذهب ومثل أى مناطق أخرى فى أفريقيا واجهت الحكومة البريطانية مشكلة تقديم الدعم لسلطاتها على محميات على الورق، وكما هى الحال فى جنوبى وشرقى أفريقيا اللتين كانتا سعيدتى الحظ لوجود هيئة خاصة على استعداد للقيام بمهمة شاقة ومكلفة،

فلقد حصلت شركة النيجر الملكية على مرسوم براءة ملكية فى عـام ١٨٨٦ للقيام بأعمال التجارة وحكم المنطقة على طول وسط وأسفل النيجر.

وكـان مؤسـس هـذه الـشركة هـو جـورج توبمـان جولـدي (George Taubman Goldie) والذى عاش حتى ١٨٧٧ حياة بلا توجه، وهو جندى محترف غير واثق من نفسه وأيضا رحاله، وفى هذا العام زار ساحل النيجر ورأى فرصة تحقيق آماله فى العالم وكطفل يعـشق راجـاه بـروك (Rajah Broole) ادعى جولدى بعد ذلك " إن حلمى كطفـل هـو أن ألـون الخريطة باللون الأحمر"، وفى نيجيريا وجد فرصة مناسبة، ومثل بروك كان عليه أن يدفع مقدما حتى يحقق طموحاته، وفى خلال سنوات قلائـل نظـم شركة التجار المحليين ووضع أساس شركته الخاصة.

وفى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من القـرن التاسـع عـشر أصبح هناك الكثيرون من أمثال جولدى، ولهذا السبب كان لوجارد من بـين الضباط الشبان الفرنسيين الذين كانوا يسعون إلى الترقية والحـصول علـى ميداليات فى غرب أفريقيا، وكان شـعارهم الجمـاعى (Penez L'initiative) حتى ولو أن هذا يعنى كما حدث - تجاهل أوامر البيروقراطيين المتـرددين فى باريس، ومع أوائل التسعينات بـدأ الغـزو الفرنـسى لغـرب أفريقيـا والصحراء الغربية مرحلة حاسمة مع الزخم الذى سانده الجنود الذين اقتنعوا بأنهم يعرفون أفضل من أسيادهم، وكما لاحظ أحدهم أن القواد الاستعماريين يشكلون ما يسمى حقا دولة مستقلة لا يعترفون بأى شخص، وربما كان هذا لأن السياسيين كانوا حريصين على تأكيد السيادة على الجيش الفرنسى والذى حسب الجناح اليمينى فوق الدوائر الوطنية يعد تجسيدًا لكرامة وشرف الدولة، ولم يزعج سالسبورى الغزو الفرنسى لغرب أفريقيا إطلاقا والـذى تـساءل بشكل ساخر عن القيمة النهائية لمناطق واسعة ذات تربة خفيفة، ومعرضـة

للرمال، وكان يؤكد هذا الرأى عدد كبير فى فرنسا، لكن عكس هـذا كـان المشروع الخاص بخط سكة حديد عبر الصحراء لجذب أى استثمارات.

ومع هذا لم يكن سهلا أن يـرفض الـوزراء البريطـانيون إطلاقـا مغامرات فرنسا فى غرب أفريقيا، بعد عام ١٨٩٤ عندما أصبح واضحًا أنها ربما تنتهى بالاستيلاء على أعالى النيجر، وكان جولدى من بين الذين أحسوا بالخطر، وفى يوليو ١٨٩٤ استأجر لوجارد بعقود منطقة صغيرة فى شمالى نيجيريا، وعقد معاهدات يضع حكامها داخل فلك دائرة بريطانيا.

وفى نفس الوقت تقريبا صدرت الأوامر إلى الكابتن ديكور (Decouer) للتقدم من داهومى فى نفس المنطقة ولنفس الغرض، وكانت هناك شائعة أن الألمان كانوا يستعدون لإرسال حملة لهذا الهدف[٢٢].

وكانت رحلة لوجارد لجمع المعاهدات عبر بورنو خلال خريف وأوائل شتاء ١٨٩٤ عملاً بطوليا يسمو فوق طاقة البشر، ولقد تحمل هو ومجموعته شدة حرارة الطقس (مات كلية من الإرهاق والحرارة) والأمطار المتواصـنة ونوبات الحمى، ولقد تغلب لوجارد على الحمى بالدواء الشخصى فى شـكل المضاد الحيوى (إنتى بين) والسير ثلاثة عشر ميلاً فى الشمس الحارقة والتى ولدت علاجا عرقيًا، أما الأدوية المحلية التى لم تكن مفرداتها محددة لم تفـد كثيرًا على أساس تقديم مضاد للسم الذى حـدث مـن رأس سـهم اختـرق جمجمته، ولقد حقق لوجارد ما أراد ألا وهى اتفاقية قبل فيهـا ملـك إمـارة سيكى (Nikki) المسن حماية وصداقة بريطانيا، وممثلاً لشركة النيجر الملكية وكانت المشكلة أنه بعد أسبوعين وصل ديكور الفرنسى وذهب بعيـدًا بعـد الحصول على اتفاقية مثل اتفاق لوجارد.

والآن صار أعالى النيجر مركزًا للتنافس الفرنسى البريطانى، وكان الزعيم الأساسى فى التنافس هو تشامبرلين الذى صار وزيرا للمستعمرات فى يونيه ١٨٩٥، وجبريل هانوتو الذى تولى مسئولية وزارة الخارجية الفرنسية فى أبريل ١٨٩٦، ورفض تشامبرلين مبدأ التنازل عن أى بوصة من الأرض الأفريقية التى حصلت عليها بريطانيا بادعاء قانونى، بينما حاول هانوتو وسعى من أجل ألا تكون أفريقيا هندًا أخرى.

وقد تمت عرقلة طموحات الفرنسيين بسبب النفاق والرياء وفرض الأمر بالقوة، واعتقد أن البريطانيين استخدموا لغتهم كغطاء للخداع، وعلى هذا كان على فرنسا أن تلجأ إلى العمل للحصول على هدفها بدلاً من ضياع الوقت فى مفاوضات عقيمة لا طائل منها حول صحة المعاهدات.

ويستطيع مارشان على شواطئ نهر النيل ونهر السنغال والجنود السنغاليون على شواطئ النيجر إيقاف بريطانيا فى مساعيها للسيطرة على المنطقة، وكانت بريطانيا أول من بدأ المواجهة على نهر النيجير وبفضل تشامبرلين شن جولدى حربًا ضد إمارتى بيدا (Bida) وأيللورين اللتين رفض حكامهما الوفاء بوعودهما لإلغاء تجارة الرقيق، ولم تكن حملة يناير ١٨٩٧ مجرد حملة إنسانية صليبية بل كانت استعراضًا مخيفًا للقوة العسكرية للشركة وبالتعاون مع بريطانيا.

وكان من الصعب حمل مدفع يطلق قذيفة زنة اثنا عشر رطلا عبر الشجيرة وذلك لإطلاق نيران ضد أسوار إمارة بيدا على بعد ميلين، لكن الذى أثار الرعب حقًا عند رجال الحرب وعرقل فرسان الولايتين وجود ست بنادق من الماكسيم (بنادق مائية) والتى مكنت جيشًا من خمسمائة رجل معظمهم من مشاة الهوسا أن يهزم جماعة من محاربى العصور الوسطى من المعتقد أنهم يزيدون عليهم عددًا بثلاثين مرة.

نبهت الحرب جولدى البسيطة الفرنسيين لنيّات البريطانيين وخلال عامى ١٨٩٦، ١٨٩٧ توغلت مجموعات متقدمة من قواتهم الاستعمارية إلى داخل بورجو (Borgu) حيث ارتفعت أعلام من ثلاثة ألوان على القرى الوطنية ولوحت بالمعاهدات القديمة كدليل على أنها ممتلكات فرنسية، وتوقع تشامبرلين صدامًا، وبدأ يتخذ الاحتياطات لذلك وفى يونيه ١٨٩٧ اقترح التشكيل العاجل لجيش من ألفى جندى أسود قوى وأطلق عليه " قوة حدود غرب أفريقيا: West Africa Frontier Force وعين لوجارد قائدا عليها والمندوب السامى الخاص البريطانى لشمال نيجيريا.

ومن الواضح أن تجربة لوجارد كانت محسوبة، ولكن تشامبرلين كان يقوم بعمل إشارة لكى يبرز للفرنسيين أن بريطانيا سوف تتخذ خطًا خفيفًا، وفى فرنسا كان لوجارد مكروها بسبب المذبحة المروعة لمعتنقى الكاثوليكية فى أوغنده، والأكثر من ذلك الانقلاب فى نيكى . (Nikki) وعندما وصل لوجارد إلى نيجيريا فى ربيع ١٨٩٧ أشارت مجلة التايمز (Times) "إنه بالنسبة للفرنسيين يرمز للروح المتوحشة لألبيون الغادر (Albion) وأنه بالنسبة لهم المادة التى تشكل الأساطير"[٢٣].

وظهرت كوميديا الأخلاق أكثر منها أسطورة عن الموقف البريطانى الفرنسى فى بورجر خلال صيف ١٨٩٨، وقد زود لوجارد قوة حدود غرب أفريقيا بمجموعة من الرجال من عشيرته الخاصة وكلهم جاءوا من صفحات (G. A) هنرى، وكانوا شبابًا من تلاميذ المدارس العامة السابقين مع حب للرياضة وتذوق وحب المغامرة، وكانت القيادة الميدانية فى أيدى الكولونيل جيمس ويلوكس (Willocks) وهو رجل رياضى ومحارب قديم اشترك فى العديد من الحملات الهندية، بل إنه هو الذى تحرك من جيبا (Jebba) إلى داخل بورجو، حيث كان مكلفا حسب أوامر لوجارد برفع العلم البريطانى

حيثما يجده مناسبًا، أن يتجنب القرى التى ارتفع عليها العلم ثلاثى الألوان وتبعت ذلك تمثيلية غريبة تخطت فيها الوحدات البريطانية القرى الفرنسية وفى بعض الأحيان كانت تشتبك مع القوات الفرنسية.

وكانت هناك بعض المشاحنات عادة حول بعض وسائل البروتوكول مثل تحية العلم. ولكن الحالة السائدة على كلا الجانبين كانت سخرية عصبية وتم نسيان المنافسات الدولية، حيث اكتشف بناة الإمبراطورية المحترفون وجود المشروبات الكحوليه والسجائر بجوار نيران المعسكر بل إنهم يشاركون فى أمور كثيرة لجنود ورجال محترمين(٢٤).

وكما لاحظ الكابتن جورج أبادى عن أحد الضباط الفرنسيين التقى به بأنه رجل مهذب وإنسان يعرف كيف يتعامل معه(٢٥).

وعلى كلا الجانبين توجد قلة من مشجعى الخصام والصراع بما فيهم بعض القوات الوطنية التى تتشوق إلى القتال، وفى الحقيقة كان الموقف الفرنسى حرجًا وخطيرًا منذ أن كان نظام حكمهم يلقى مقاومة فى أجزاء أخرى من غرب أفريقيا، وأثناء المواجهة على نهر النيجر كان على القوات أن تسرع إلى ساحل العاج للتعامل مع ساموری توری، أكبر أعداء فرنسا فى غرب أفريقيا وأيضًا للقضاء على ثورة فى السودان الغربى (مالى)، وعلاوة على ذلك كما فهم لوجارد فإن حرب المدافع على النيجر سوف تترك الفرنسيين منعزلين فى كل أنحاء المنطقة لأن الأسطول سوف يغلق موانئهم فى غرب أفريقيا.

وظل تشامبرلين يسيطر بشكل متكامل طوال الأزمة لأن خط التلغراف امتد من لاجوس إلى جيبا، وحيث إن رجال المدافع لا يستطيعون معالجة الأمور بأيديهم، وكانت تجارة الإبل الدبلوماسية هى التى إنهت المواجهة فى النهاية، كما أن بريطانيا حصلت على أحسن ما فى الصفقة.

وحافظت بريطانيا على بورجو ومعها كل المنطقة التى تقع آنذاك داخل حدود نيجيريا الحديثة، وكان كل ما تبقى أن يحققه تشامبرلين إجراءات إدارية واسعة، حيث تم ضم لاجوس ومحمية أنهار الزيت عام ١٩٠٠ تحت اسم نيجيريا الجنوبية، وتم إلغاء الشركة وانتقلت مناطق نفوذها إلى الحكومة وهذه المستعمرة حملت اسم شمال نيجيريا وكان لوجارد أول حاكم لها.

وتم دمج مناطق أخرى فى سيراليون وساحل الذهب حيث خططت الحدود مع الفرنسيين، وبعد ذلك جاءت مرحلة التهدئة والسلام وتم إحكام القبضة على المناطق التى لم تكن السيطرة البريطانية عليها موجودة من قبل وفى عام ١٨٨٧، ومع نهاية الحملة ضد جماعة اليونى (Yonni) فى سيراليون أخبر القائد البريطانى رؤساءهم " أن الملكة قد فرضت سلطتها بإرسال قواتها والاستيلاء على المنطقة " وكانت هذه الرسالة قد أرسلت إلى الوطن الأم مع مظاهرة من مدافع الماكسيم التى فاجأتهم كثيراً[٢٦].

ولقد أرسلت حملتان فى عامى ١٨٩٥ و ١٩٠٠ الأولى لإقناع الأشانتى بقوة وسيادة النظام الجديد فى ساحل الذهب، أما الحملة الثانية فكانت مسألة وحشية بشكل خاص، فقد واجه الضباط البريطانيون صعوبة بالغة فى كبح جماح القوات الوطنية التى يبدو أنها أعتبرت الحملة مبررا ووسيلة للسلب والاغتصاب[٢٧].

وعندما قلت الدروس المخيفة للغزو، غالبا ما وجد الغزاة أنه من السهل إرهاب رعاياهم الجدد، وعندما وصل الكابتن أبادى (Abadie) فى إمارة اللورين بعد عام من حملة جولدى، وجد أن سكانها قد استسلموا وأصبحت مهمة القيادات عملية سهلة، وبعد ذلك لاحظ أبادى رسما هزليا لاثنين من الرجال الملوّنين وملابسهما سيئة، ويشير الرسم إلى مجموعة من ستمائة مسلم وكلهم مصابون بالتورم الضخم وقام بقذفهم[٢٨].

لقد ظهر سر رد الفعل بعد ذلك وعندما وضع أبادى آلة التصوير لأخذ صور الأمير المحلى هرب كل رعاياه عندما شاهدوا المنظر الثلاثى الذى ذكرهم بالصعود إلى بندقية آلية.

لقد كان تصرف الرجلين مثالا واضحا للثقة بالنفس عند هذه الطبقة، ولقد تم نقل الأفكار الاجتماعية البريطانية إلى أفريقيا حيث تعمقت الآراء التقليدية التى عهدت بها الحكومة إلى شباب هذه الشعوب الوطنية الساذجة، وعندما حاول الكولونيل إرشينالد إيدين (Eden) إحياء ذكرى الموظفين فى الشركات التجارية أصيب بالدهشة مما رآة.

إن نمط الرجل الإنجليزى فى شكل التاجر الذى تقابله فى هذه الأنحاء مخيف جدا لدرجة أننا لا نجد كلمات لوصفه، إنهم جميعًا باعة فى مخزن تجارى من أسوأ الأنماط وأكبر من يحتاج التهذيب فى الصفقة[٢٩].

أما الضابط لادى سلوث بوب هتيس الذى وصل فى نفس الوقت فقد أصيب بكراهية فورية من الرسميين فى الحكومة الاستعمارية الذين كانوا جميعًا عديمى التهذيب وأوغادًا يدمنون المشروبات الروحية، وهو أمر جديد وجده الضباط الشباب كريهًا، ولقد شارك لوجارد فى هذه الأخطاء، وخشى أن يكون مسلك هؤلاء الرجال ينقص من الاحترام لكل الرجال البيض.

لقد اكتشف هو وجولدى بشكل منفصل رجالا محترمين بين أمراء الفولانى المسلمين فى وسط وشمال نيجيريا، والذين تأثروا بثقافتهم واطلاعهم على أحدث الآراء ويطبقون إجراءات منظمة فى محاكمهم وإدارتهم وهنا نجد رجالا يستطيع البريطانيون التعاون معهم، ومؤسسات إسلامية يمكن تطويرها لتتناسب مع احتياجات البريطانيين، وكانت المهمة الأساسية فى هذا الوقت قوة الطقوس الدينية التى حدثت ما بين ١٩٠٢ و ١٩٠٤ عندما تم غزو إمارتى سوكوتو وكانو وهزيمة لوجارد لجيوشهم.

وقد توقفت المقاومة من جانب الحكام، ولكن كانت هناك انتفاضة مفاجئة من المعارضة الشعبية ضد البريطانيين فى فبراير عام ١٩٠٥ تحت شعار الذكرى الألفية للمهدية، وضمت هذه الحركة العديد من العبيد والعبيد السابقين، وتجسدت فى مقاومة الجيوش الفرنسية والبريطانية التى دخلت فى أوطانهم خلال العقود الماضية مع "باجال: Baggal" وهو شخص ضد المسيح والذى حسب إيمان المسلمين بالبعث والحساب سيظهر قبل قدوم المهدى، وقد فاجأ الثوار وهزموا قوة بريطانية فى ساتورو (Satiru) واستولوا على مدفع ماكسيم محطم قليلا ومسدسات وذخيرة، ولم تستخدم هذه الأسلوب، ومثل الحركة المهدية السابقة فى السودان كانت حركة المهدى النيجيرى متخلفة ولذا عزف المتمردون عن استخدام وسائل حرب الكفار الحديثة واعتمدوا بدلاً منها على الثقة والإيمان وبالأسلحة التقليدية، وفى اشتباكهم الثانى قاموا بهجوم حماعى ولكن انهزموا بعد مصرع ألفى شخص منهم[٣٠].

ولقد تعاونت الأرستقراطية الفولانية مع البريطانيين للقضاء على الثورة التى هددت أوضاعهم مثل السلطات الغازية، وكان الاثنان يعملان فى انسجام عندما أدخل لوجارد النظام الذى عرف باسم الحكم غير المباشر أو الرقابة الثنائية، حيث أراد فوق كل شيء الحفاظ على استمرارية الحكومة والتأكيد للرعايا البريطانيين الجدد أنه باستثناء العبودية يجب الإبقاء على الممارسات الإسلامية واحترامها.

وبمجرد أن أصبح هذا واضحًا انضم رجال الدين والأمراء المسلمون خلف النظام الجديد واستمرت المحاكم القديمة والخدمة المدنية فى ممارسة أعمالها، ولكن تحت أعين مقيم بريطانى، وتناسب هذا الشكل من الحكم مع ظروف نيجيريا الشمالية، لأنه لا يكلف كثيرًا ويحتاج إلى قوة بشرية محدودة، وعلاوة على ذلك نمت علاقة غريزية تامة بين الأمراء

والمحافظين، وشغل أبناء المدارس العامة والحكام الذين تخرجوا من الجامعات وظائف الخدمة المدنية النيجيرية خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، ومن الأمور الشيقة أن مجندى وزارة المستعمرات فضلوا الرياضيين الأصحاء والأهم من هذا أنهم يعرفون قواعد اللعبة.

لقد وصف جويوس كارى (Joyce Cary) فى مجلته (Aissa Saved) عام ١٩٣٢ حسن سير الإدارة اليومية لنظام الحكم غير المباشر والذى وضع فى مديرية يانرين (Yanrin) عام ١٩٢١، وكان كارى الذى خدم فى الوظائف المدنية النيجيرية ويدرك التوتر الذى نشأ عن النظام الجديد، وإلى جانب الأمير وجهازه من المسلمين الذين يسيرون على الأمور التقليدية كانت هناك طبقة جديدة من الصفوة التى نشأت خلال الأربعين عاما الماضية من الذين تعلموا حسب النظام البريطانى فى سيراليون وجنوبى نيجيريا، واعتمدت الحكومة الاستعمارية فى البداية على هذا الجهاز من المتعلمين السود وأحدهم كان من خريجى البعثة التبشيرية فى مدرسة سيراليون وأحد وكلاء شركة النيجر الكلكية فى أيكو (Ekow) وقد وصفه أحد الضباط البريطانيين وقد تقابل معه عام ١٨٩٢، وكان الموظف مؤدبا وخجولاً ورجلا عظيما فى أعين الإدارة المحلية التى تبادل معها زيت النخيل مقابل قطن ما تشستر الجيد، وفى المساء عزف مقطوعات موسيقية من الأغانى الدينية القديمة والحديثة فى حجرة رسم داخل كوخ يزدان بصور من الأسرة الملكية(٣١).

واعترف لوجارد بقيمة مثل هؤلاء الرجال ولكنه أصر على أنه لا يجب التدخل أو اغتصاب وظائف رجال استمدوا سلطاتهم من التقاليد، ويجب ألا يتفوق موظف أفريقى أو جندى على حكم رئيس قرية، وكان هذا نظام الحكم فى إمارة كارى فى ياترن، حيث اعتبر يعقوب (Jacob) وهو أحد المسيحيين المتعلمين من الساحل نفسه وأحد الرجال الثلاثة المثقفين

فى المنطقة وكان يرتدى ملابس الرجل الأبيض ولا يختلف عـن الـوطنيين المحليين كما أنه استوعب بعض السياسات وعندما سـمع عـن قيـام مذبحة لمعتنقى المسيحية فى مدينة مجاورة طلب مـن المقـيم البريطـانى برادجيت أن يتخذ إجراءً عاجلا وقال " إننى أسعى اليك لأننى أقول إنـه إذا قتل المسيحيون شخصا ما سوف أكتب ورقة باللغة الإنجليزية وأرسل إلـى عضو البرلمان، " من فضلك يا سيد بريجيت أن تتحمل المسئولية ".

وكما حدث فى الهند واجه البريطانيون مشكلة كيفية التعامل مع طبقة المثقفين الوطنيين الذين كانوا أساسيين للإدارة اليومية، ولكن من يعرف شيئًا ما عن العالم الخارجى والقيم السياسية التى أمكن التوصل إليها وكما ذكـر جاكوب أنهم كانوا دائما متعاونين، وليس غريبًا أن الإداريـين البريطـانيين يفضلون نظام الطبقات القديم فى أفريقيا.

(٩)

أبناء الصليب الجنوبى

الدومنيون الأبيض

كتب روبرت ثوثلى (Robert Southey) فى روايته الوطنية " رحلة الحجاج إلى وترلو عن هذه الأراضى البعيدة حيث منح الله بريطانيا حياة وافرة رغدة فى الشرق والغرب، وكان يفكر فى كندا وأستراليا التى كان يرى مثل الكثيرين من بنى وطنه أنها مستودعات للرجال والنساء، غير المرغوب فيهم بسبب زيادة إجرامهم وفقرهم.

لقد كان عصر روبرت مالتوس (Robert Meletus) ناظر المدرسة الذى كرس حياته لدراسة حساب التفاضل عن نمو السكان، وانتهى إلى أن نسبة المواليد اللولبوية يمكن التحكم فيها من خلال المجاعات المشكوك فيها.

ولقد تم قبول هذا التقرير المحتمل على نطاق واسع وتأكد ذلك من خلال المجاعات التى جاءت بعد المحاصيل السيئة خلال السنوات العشر الأولى من القرن التاسع عشر.

لقد قدمت الهجرة إلى كندا وأستراليا وجنوب أفريقيا، وبعد عام ١٨٤٠ إلى نيوزيلاند حلاً، وإنقاذاً لهؤلاء الذين ربما ماتوا جوعًا فى وطن لا يستطيع أن يزودهم باحتياجاتهم؛ وخصصت الحكومة وبالتزام ما بين عام ١٨١٩ وعام ١٨٢٥، ٩٥,٠٠٠ جنيه كإعانات للهجرة للفقراء الذين يعيشون على

الإعانة، وسلكت السلطات المحلية نفس الاتجاه، ففى عام ١٨٢٦ دفع مجلس الأوصياء البيناوى فى كينيا ١٤,١٠ من الشلنات الإنجليزيــة لكــل ســبعة وعشرين رجلاً وامرأة للسفر إلى نيويورك، وكان هذا الإنفاق كبيــرا لكنــه كان مرة واحدة فقط كإجراء اتخذ لتخفيف العبء عن دافعى الضرائب من السكان والذى كان عبئًا لسنوات كثيرة قادمة، ولهذا السبب تضمن قــانون الفقــراء (Poor Law) لعام ١٨٣٤ موادًا لمساعدة المهاجرين الفقراء وفى عام ١٨٩١ أعطى قانون المدارس الصناعية والإصلاحية الحــق لحكومــاتهم لإرســال الأطفال المقصرين إلى المستعمرات، وقامت جمعيات الإحــسان الخاصــة باتباع نفس المنهج، حيث دفع جيش الإنقاذ للدكتور بارنادو (Barnado) مبالغ لمساعدة الأيتام للسفر إلى المستعمرات، وبعد ستين عامًا بعد ١٨٧٠ اســتقر ١٠٠,٠٠٠ من المهاجرين فى كندا وحدها(١).

وكما حدث فى القرون الماضية قدمت الهجرة الإجبارية حلاً للمشكلات الاجتماعية المحلية ولم يكن تمويل معظم هجرات القرن التاسع عــشر مــن الدولة، وعندما يتلقون المساعدة فإنها كانت تأتى مــن جمعيــات الإحــسان التطوعية والتى أنشئت لهذا الغرض، وقامت على مبــدأ المــساعدة الذاتيــة وعلى نفس النمط من هذا النوع كانت جمعية الهجرة للأراضــى المرتفعــة والجزر التى تأسست لمساعدة المزارعين الصغار فــى منــاطق تحتــضر اقتصاديًا للاستقرار فى مزارع فى أستراليا خلال خمسينيات القرن التاســع عشر، وكان من البدهى لأى شخص ذكى ومقتــصد أن يهــاجر ويزدهــر فى المستعمرات.

وفى عام ١٨٤٢ صــدرت نــشرة تمهيديــة للمنطقــة الكنديــة فــى نيوبرونسويك (Brunswick) وادعت أن العامل هناك يحصل علــى أجــور سنوية ما بين عشرين وثلاثين جنيهًا سنويا، ويستطيع فى سنوات قليلــة أن

يجمع رأسمالاً كافًا لشراء مزرعته الخاصة، لأن متوسط أسعار الأرض حوالى ثلاث شلنات (١٥ بنسًا) للفدان، وانتهى المؤلف إلى أنه إذا كان صغار الأشخاص من كلا النوعين للعمل بهذه الطريقة فإنه من المؤكد أن يحققوا الراحة والاستقلال، وسوف يكونون أعضاء صالحين فى المجتمع، وسوف يدعمون هذه الروابط التى تربط هذه المستعمرة بالدولة الأم[٢].

لقد مر الكثيرون بهذه العملية من تجديد البعث أو النسيج الجديد وكتب بعضهم خطابات إلى الدولة الأم، وكانوا يتداولونها لتشجيع مهاجرين آخرين، وعلى نفس النمط أرسل جيمس دوبى من لانارك (Lanark) إلى والده وأصدقائه عام ١٨٢٦ يقول " إننى أحمد اللـه حقًا كل يوم أنهض فيه، وأحمده الذى استطاع بقدرته إرسالى أنا وأسرتى إلى هذا المكان، ولسنا بدون مشكلات هنا ولكنها لا تساوى شيئًا لاحتياجاتك فى مدينة جلاسجو، إننا نمتلك الكثير من خيرات الطعام والشراب ولدينا بعض القليل الذى ندخره، إننى أتمنى أن تبذل كل ما تستطيع للخروج وسوف نجد الكثير من الأعمال والعمل الشاق ولكن كن متأكدًا أنك ستجد المقابل الجيد، إن ثروتى من الماشية تتكون من ثورين وثلاث بقرات لحلب اللبن وثلاثة من صغار العجول، ولقد أسست منزلاً جديدا أنيقا بمساعدة خمسة عشر من الشباب والذى تم بناؤه فى يوم واحد وطوله أربعة وعشرين قدمًا وعرضه خمسة عشر قدمًا[٣].

لقد كان هذا معزيًا لأن (Clydeside) كانت تعانى من تراجع حاد فى التجارة، وفى يناير ١٨٢٧ عندما انخفض أجر عمال النسيج إلى أربعة شلنات (٢٠ بنسا) فى الأسبوع كانت تقارير بأن خمسة أضعاف هذا الأجر يدفع فى أمريكا، وهذا أغرى ثمانمائة عائلة لتقديم طلبات للسلطات المحلية لمساعدتهم على السفر، وكانت الأجور المرتفعة فضلاً عن فرصة أن يكون الشخص مزارعًا مكتفيًا ذاتيًا كانت مثل المغناطيس الذى يدفع المهاجرين للهجرة.

وكان وليم لانج خادما سابقًا والمسئول عن تدبير القصر لأحد أعضاء البرلمان قد قفز إلى سفينة فى سيدنى فى أبريل ١٨٨٥، وكان دافعه هو الفقر لأنه استطاع فقط أن يرسل إلى زوجته وستة أطفال فى إنجلترا خمسة وعشرين شلنا (أى جنيه وخمسة وعشرين بنسا شهريا) ودافع قائلا: إن التفكير فى هذا جعله متوحشا، وإن إغراء العمل على الشاطئ بأجور أحسن وفى فندق فى بلومونتين (Blue Mountain) ساعده على أن يحصل على أجور قليلة لكنها كانت عظيمة، ولهذا فإنه قد هرب من النور[٤].

وقد حكمت عليه محكمة قاسية القلب بثمانية عشر شهرًا من الأشغال الشاقه لأنه كان هناك اندفاع من نفس الهجرة[٣].

وكان المهاجر التقليدى يدفع مصاريف سفره وفى عام ١٨٣٤ كانت مصاريف السفر من ليفربول وجلاسجو تزيد قليلا على سبعة وعشرين شلنا (١,٣٥ جنيه) والتى يتحمل فيها المسافر بؤس النوم على ظهر المركب، وكانت أسعار غرف النوم ما بين أربعة عشر وخمسة وثلاثين جنيهًا، وكانت رحلة الاثنى عشر ألف ميل إلى أستراليا ونيوزيلاند تكلف ما بين ثلاثة وعشرين وخمسين جنيها داخل غرف السفينة، ومثل كل الرحلات كان المسافرون يحصلون على كل غذائهم الخاص، ولقد عانى الذين يدفعون أجورًا أقل من عدم الراحة.

وكان أحد المسافرين الأثرياء الذين عبروا المحيط الأطلسى عام ١٨٣٤ قد نظر خلسة فى أماكن سفر الذين يدفعون أجورًا أقل قد شاهد الأطفال وهم يصرخون والنساء تصيح بصوت مرتفع والكل يتمايل من جانب لآخر عندما تتحدر السفينة حيث الزبدة ولحم البقر والبطاطس تتدحرج مع حركة السفينة[٥].

لكن تحسنت الظروف وانخفضت الجور بعد عام ١٨٤٠ عندما حلت السفن التجارية محل السفن الشراعية، وفى عام ١٨٩٨ كانت التذكرة الفردية إلى أستراليا تكلف نحو ثلاثه عشر جنيهًا (١٣,٦٥ جنيه إسترلينى) وما بين أعوام ١٨١٥ و ١٩١٤ قدر عدد المهاجرين بنحو ستة.عشر مليونًا من بريطانيا، سافر الربع منهم إلى الولايات المتحدة والباقى إلى المستعمرات الأخرى، وشهدت سنوات الانحسار، الهجرة الأكبر حيث غادر بريطانيا ١,٨ مليون ما بين ١٩٠١ و ١٩١٠ واستقر بعضهم فى الدومنيون الأبيض التى ارتفع عدد سكانها بشكل منتظم خلال الستين عامًا التالية، وقدمت أيرلنده نسبة أكبر من هؤلاء المهاجرين أى نحو ٨٠٠,٠٠٠ ما بين ١٨١٥ - ١٨٦٥ ١٨٤٦ بسبب المجاعة، ونحو مليون واحد فى السنوات السبع بعد ذلك كان معظمهم يتجه إلى الولايات المتحدة.

وكانت هناك أيضا موجات صغيرة من المهاجرين داخل الإمبراطورية وعندما غادر الأسكتلنديون (Clydeside) كليديسيد فى عشرينيات القرن التاسع عشر حل محلهم الجايوليك (Gaelic) والكاثوليك الإيرلنديون (حيث كان هناك ٢٧,٠٠٠ فى جلاسجو عام ١٨٢٧) والذين كانوا على استعداد للحصول على أجور أقل، وهكذا أسهموا فى هجرة أكثر من أسكتلندا.

ولقد كانت زيادة السكان مع الفقر والطلب على عمالة رخيصة غير ماهرة وراء هجرة الإيرلنديين مثلما فعل الهنود والصينيون، وكان تجنيد العمال الهنود للعمل فى المزارع فى جزر الهند الغربية من خمسينيات القرن التاسع عشر وما بعدها، وفى فيجى (Fiji) من ثمانينيات نفس القرن حيث عوضوا نقص نسبة المواليد الوطنية.

ولقد جذبت الطفرة فى أعمال المناجم والزراعة والسكك الحديدية فى الساحل الغربى للولايات المتحدة وكندا الصينيين واليابانيين، ومع حلول القرن التاسع عشر جاء السيخ (Sikhs)، وفى عام ١٨٥٢ كان هناك ٢٥,٠٠٠ من الصينيين فى كونج كونج فى كاليفورنيا وحدها، ومع حلول عام ١٩٠٠ كان ١٥% من سكان كولومبيا البريطانية من الآسيويين، لقد حرك اندفاع الصينيين واليابانيين إلى كندا التوتر العنصرى وحاولت الجهود الرسمية الحد من الآسيويين(٢).

وكان هذا ممكناً حيث كانت حكومة منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر تشجع الهجرة الجماعية من وسط أوربا وروسيا، حيث يوجد العديد من الرجال والنساء العاطلين الذين كانوا سعداء بقبول أجور أقل فى تقطيع الأشجار ونشرها ممارسة صناعات المناجم فى وسط غرب كندا، وكان هناك احتكاك عنصرى فى أستراليا بعد استيراد العمال الصينيين أثر الطفرة فى مناجم الذهب لعام ١٨٥٢، ولمدة الأربعين عاما التالية وما بعدها ثار الاتحاد التجارى الأسترالى ضد المزيد من الهجرة الصينية على أساس أنها تقلل من الأجور، وكانت النتيجة لهذه الحملة صدور قانون الحد من الهجرة (Immigratuin Restriction Act) والذى عدل ما عرف باسم السياسة الأسترالية البيضاء، ولم يكن مطلوبا للعمل الكثيرون من العمالة غير البيضاء والتى لم يقبلها المهاجرون البريطانيون فلقد أغرى معظم المهاجرين للمستعمرات تلك الوعود الرسمية بالأرض الرخيصة ومعها فرصة تحقيق الاستقلال المالي، وكان من المقبول بشكل عام فى، استراليا ونيوزيلاند كما كانت الحال فى أمريكا الشمالية أن الشاغلين الأصليين للأرض قد فقدوا حقوقهم للملكية بسبب فشلهم فى استغلالها بشكل إنتاجى.

ففى عام ١٨٤٥ انزعج الجراح باين "سرجيون باين: Surgeon Pine" عندما نزل فى نيوزيلاند عام ١٨٤٥ ووجد الحقول غير مزروعة ومناجمها لا تعمل وأنهارها لا تصلح للملاحة، وتوصل فى النهاية إلى خلاصة بأن الدولة يجب أن تكون مملوكة لأناس أذكياء من العالم القديم(٧).

وكان هناك بالفعل من قدمتهم شركة نيوزيلاند الجديدة، وكان روحها المرشد والموجه الكولونيل إدوارد جيبون وكفيليد: (Edward Gibbon Wakefield)، وكان متحمسا بشكل فردى للهجرة التى اعتقد أنها يجب أن تمارس بدقة علمية لكى تكون المستعمرة الناشئة ذات توازن مناسب من الرجال والنساء وأصحاب الأرض والعمال، ولقد كان لدى جيبون وعى مرن (وذات مرة حرم وريثه) الذى جعل من السهل عليه أن يقنع الماريوس (Maoris) لترك أراضيهم مقابل مثل هذه السلع الرخيصة مثل أمواس الحلاقة والمرايات والأشرطة والقيثارة اليهودية.

ولقد كانت هذه المصنوعات البريطانية من بين الغنائم التى حملها الجنود البريطانيون من المعسكر المحصن للباراماتا (Paramatta) عام ١٨٤٥(٨). حيث رفض الباراماتا قبول النظام الجديد وبدأت مقاومتهم لمدة ستة وعشرين عامًا من الحروب المتقطعة ما بين المايورس والمستوطنين، وكان الجيش البريطانى يدعمهم حتى منتصف ستينيات القرن التاسع عشر.

ولم يكن لدى المايورس الأمل فى كسب المعارك مثل غيرهم من سكان جزر البحر الجنوبى، وقل عدد السكان عندما اختلطوا بالأمراض الأجنبية لكنهم واصلوا حياتهم بمهارة وشجاعة أذهلت أعداءهم، ولم يكونوا مثل الأروميين سكان أستراليا الأصليين الذين تم طردهم إلى الأراضى الخراب وصيدهم مثل الكانجارو، ولكن سمح لهم بالاندماج مع المايوس

فى نيوزيلاند الذين مروا بحواجز مرحلة الملكية وأعطى لهم حق التصويت عندما حصلت نيوزيلاند علـى دستورها عـام ١٨٥٢ ومـنحهم الجنـود البريطانيون مكافأة فريدة من نوعها عندما شيدوا نصبًا تذكاريًا لقتلاهم فـى الحرب داخل كاتدرائية كنيسة المسيح (Christ Church) ولقد تأكـد للرجـال والنساء الذين يسعون للهجرة إلى كندا فى عشرينيات القرن التاسـع عـشر بأنهم عند وصولهم إلى هناك فسوف يتمتعون بنفس الحقـوق التـى كـانوا يمارسونها فى بريطانيا مهما كان هذا يعنى للفقراء فى ذلك الوقت، وعلـى نفس المنوال أصدرت حكومة كوينزلاند دعوة هجرة عام ١٩٠٨ وأعطـتهم الفرصة للمساعدة فى وضع أسس دولة من الرجـال الـشجعان والأذكيـاء ومحبى الحرية(٩).

لقد تغيرت الحكومة الداخلية للمستعمرات البيضاء بين هذين التاريخين حيث بدأت العملية فى عام ١٨٣٩ بإصدار تقرير اللورد درهـام باسـتبيان (Durham) خصوصًا كندا بعد اضطراب محدود النطاق هنـاك قبـل ذلـك بعامين، وكانت توصيات حزب الهويج (Whig) من أجل حق تقرير الحكـم المحلى الذاتى أساس سياسة انتهجها حزبـه مـا بـين أعـوام ١٨٤٧ و١٨٦٧، حيث تم إعطاء دساتير لكل مـن المنـاطق الكنديـة والـدويلات الأسترالية ونيوزيلاند ومستعمرة الكيب نصت على منحهم حكومات منتجـة لها سلطات سن القوانين وتوزيع الأرض.

ومنذ أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر كانت هناك موجة من رجال الإحسان إلى أستراليا ونيوزيلاند، ونصت أفكارهم الراديكالية علـى وجـود خميرة للحياة السياسية فى كلتا المستعمرتين، وبـدون أرسـتقراطية تعمـل كحاجز للإصلاح، ومع عدد كبير من السكان من الطبقة العاملة البريطانيـة كان من الضرورى أن تصبح للمستعمرات نسبة أوسع من حقوق الانتخـاب

أكثر من بريطانيا، وكانت الحكومات على استعداد للقيام بإصلاحات اجتماعية جديدة بعيدة المدى.

وأدى الحكم الذاتى المحلى إلى إنشاء دويلات اختيارية عام ١٨٦٧ وصارت كندا اتحادًا كنفيدراليا كما صارت أستراليا اتحادًا فيدراليا عام ١٩٠١، وجنوب أفريقيا عام ١٩١٠، وضمت الترنسفال ودولة الأورانج الحرة والتى منحت حكمًا ذاتيًا عام ١٩٠٦، ولم يكن هناك أى حق للانتخاب الليبرالى لأن الحكومة البريطانية قد أجبرت من أجل الحصول على سلام سياسى أن تقبل استبعاد الناخبين السود والأجناس المختلطة من انتخابات كل من الترنسفال والأورانج الحرة، ولم يشكل الناخبون من غير البيض سوى واحد فى المائة من ناخبى ناتال و١٥% من ناخبى مستعمرة الكيب، وكان الثمن الذى دفعته بريطانيا لضمان دومنيون ثابت ومستقر فى جنوب أفريقيا هو التسامح فى عام ١٩١٠ بالتفرقة العنصرية عرفيًا، وهو نظام الفصل العنصرى والذى صار فى مدى ثمانية وثلاثين عامًا حقا بحكم القانون.

وكان التوافق فى جنوب أفريقيا تذكارًا بأن الوسائل السياسية الملائمة فضلا عن المبادئ الليبرالية قد شكلت السياسات البريطانية نحو مستعمراتها البيضاء وكانت مبادئ الهويج (دع الأمور تسير) والاقتصاد العام فضلاً عن الاعتقاد بأن حقوق بريطانيا السياسية يجب أن يتمتع بها كل الرعايا البريطانيين حيثما عاشوا، وكانت هذه أول خطوة نحو حق تقرير المصير الذاتى الاستعمارى، ويجب أن يدفع المستعمرون فى حكومات الحكم الذاتى ضرائبهم الخاصة، وأن يدفعوا من أجل إدارتهم والأهم من كل هذا الحماية فى عام ١٨٥٨ كلفت الحامية الكندية وزارة الخزانة ٢٦١,٠٠٠ جنيه، ومع عام ١٨٧١ تم استدعاء كل أصحاب المعاطف الحمراء من المستعمرات عدا الكيب المتقلبة، وكان على المستعمرين أن يؤسسوا ويمولوا جيوشهم الخاصة

وحيث أن الروابط الإدارية قد انفصلت، فقد ثار التساؤل عن العلاقات المستقبلية بين بريطانيا ومستعمراتها، ورغم التنبؤ بأن الحكم الوطنى كان الخطوة الأولى فى طريق طويل سيؤدى إلى الاستقلال التام فقد كانت هناك علامات بسيطة بأن أى مستعمرة ترغب فى قطع الروابط السياسية الباقية مع بريطانيا، فقد بقيت الملكة فيكتوريا رئيسة الدولة فى كل مستعمرة كما كانت تسمى مستعمرات الحكم الذاتي، وظهرت ملامحها على العملة وطوابع البريد، وكانت كل من كندا ونيوموند لاند ملكية أكثر من الملك والتى ولدت قضايا وضحت للأمير البرت أمير ويلز والأعضاء الغامضين من العائلة الملكية.

وعلى طول مثل هذه الاعلانات من الارتباط ببريطانيا كانت هناك دلائل على أن المستعمرين يطورون شخصية متميزة وثقافة خاصة بهم، وقد ظهر هذا بشكل أكبر فى استراليا[١٠].

وقد وجد محضر التشريح الذى وصل إلى الحفريات الذهبية للملكة فيكتوريا نفسه وسط نمط من المجتمع الأمريكى حيث أزيلت كل المشاعر الارستقراطية بالدولة القديمة والمرتبطة بالذاكرة، ولا حظ أسوأ أنواع البيليين (Plebeian) وتعيش الآن فى استراليا، وصارت الثروات مقياس مكانة الرجل[١٠]، وصارت المساواة بين البشر فى حفر القبور جزءًا من الوعى الاسترالى. ولم يعد جندى الانزاك (ANZAK) جهاز الجيش فى أستراليا ونيوزيلاند، محبا لمزايا الطبقة، ولم يفهم هذا، وأعلن بفخر هذا فى كوينزلاند (المجلة المدرسية) فى نوفمبر ١٩١٧[١١].

وطبقا للتاريخ الاسترالى الرسمى عن الحرب كان الأسترالى الذى لا ينتمى إلى الطبقة أيضا محاربًا مستقل الرأى ولم يعد يسلم بالآراء المحددة، وكان الجنود على استعداد للقيام بالمبادرات الصعبة التى تحرر من الأغلال.

وقد تمت معادلة الروح الفردية بإحساس قوى من الأخوة التى تكمن فى قلب كل إسترالى، وقد عرفت بالرفقة (meteship) وقانونها الوحيد هو أن كل رجل فى كل وقت وتحت أى ظرف عليه أن يقف إلى جانب رفيقه(١٢).

ولم يحبب هذه الصفات الأستراليين للرجال الإنجليز من أصحاب القيم المنظمة، وغالبا من قيادات الجيش الذين اعتقدوا أن المجتمع المنظم هو الذى يلتزم فيه كل فرد بالقواعد.

وكتب أحد رجال لعبة الكريكيت عام ١٨٨٨، وتأسف بأن اللاعبين فى الملعب الأسترالى الحادى عشر كانوا يميلون إلى الاحتجاج على قرارات الحكام(١٣).

وكانت هناك مجموعة صغيرة من الأستراليين الذين عارضوا المعايير البريطانية وكانت نشرة سيدنى (Bulletin) تصب بانتظام احتقارها عما كان يسمى التذلل الاستعمارى وهو مركب نقص جماعى يقبل السيادة الطبيعية لكل الأشياء البريطانية، كما استنكرت النشرة أيضًا كل محاولات تعظيم الوعى الإمبريالى فى أستراليا كخدعة للمصالح البريطانية الذاتية، وحسب هذا فقد أعيد تسميتها يوم الإمبراطورية مثل يوم فامبير (Vampire Day)(١٤).

ولم تضعف النشرة المولعة بالنقد من العاطفة الاستعمارية الأسترالية ولم تقنع الأستراليين بأن المصالح البريطانية ليست بالضرورة تهمهم وشنت النشرة آراءها ضد المصالح البريطانية فى وقت عندما كانت أستراليا والدومنيون الأخرى تزداد إدراكا للقيم السياسية والإستراتيجية للارتباط الإمبريالى، ونفس الشيء أيضًا مع بريطانيا التى كانت تحاول منذ منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر البقاء فى عالم متقلب وغير ودى تمامًا، وحيث إن بريطانيا قد دخلت فى منافسة مع الدول المعادية التى تصارع قوتها فقد

أصبح من الضرورى على بريطانيا أن تزرع النية الحسنة الاستعمارية، وأصبحت المستعمرات دعائم قيمة، حيث إن مساعداتها ربما تصير حيوية فى حالة الصراع مع فرنسا وروسيا، ولقد ولد التغير فى موازين القوى مع الدومنيون الذى صار لأول مرة يحاول الوصول إلى شروط بشأن عزلتهم والجرح والتعديل.

إن إمكانية حرب روسية بريطانية فى عامى ١٨٧٧، ١٨٧٨ ومعها غارات بحرية من المقاتلات الروسية على الخطوط الساحلية للمحيط الهادى لكل من كندا واستراليا ونيوزيلاند، قد جعل حكومات كل دولة تقدر مدى اعتمادها على الأسطول الملكى كان إحدى النتائج العاملة لهذا الذعر هو شراء المقاتلات الحربية فى كل من ولاية فيكتوريا وكوين لاند عامى ١٨٨٢، ١٨٨٣ مع رغبة جامحة لكل من هذه الحكومات وحكومات الدومنيون الأخرى فى المشاركة فى ميزانية الأسطول البريطانى.

وتولد إحساس من الهدف المشترك والمسئولية الجماعية بين حكومة نيوتوت ويلز التى أرسلت سبعمائة متطوع كلهم يرتدون المعاطف الحمراء للانضمام للجيش البريطانى فى السودان فى مايو ١٨٨٥، ولقد أذهلت هذه المجموعة من الجنود وضباط المساعدة من جنوب أستراليا وفيكتوريا ونيوزيلاند ولسلى وكتب بكل حماسة إلى اللورد لوش (Loch) حاكم ولاية فيكتوريا، وقال إننا نرحب بالأستراليين ليسوا كرفاق ولكن أيضا لأنهم من بنى وطنه.

وكان نزولهم فى سواكن حادثة ذات أهمية قصوى لبريطانيا التى كانت بعيدة جدًا عن الضوء الوامض لحجرة الإجتماعات التى تحكم فى داونج ستريت ووضعهم كخلفاء لوليم بت (Pitt) وبلمرشون وبالنسبة لولسلى كان الفشل الوزارى العام سبب ضعف المخيلة الاستعمارية التى جعلت من

المستحيل عليه فهم قوة الإمبراطورية، ولم يستطيع رؤية إمكانياتها المستقبلية كشريك لبريطانيا ومع هذا فإنه تنبأ بمجيء الحرب مع روسيا وكان لا بد أن تكون ذلك لسنوات كثيرة، وقال إننا سنحتاج المساعدة من كل مستعمراتنا[١٥].

وبعد أربع سنوات وخلال شتاء ١٨٨٩ ، ١٨٩٠ كان تشرشيل الشاب طالبا فى هارو (Harrow) ويستمع لحديث عن الخطيب المسحور فى الإعلام الفيدرالى الاستعمارى ولسلى، وكان المتحدث هو الكتور ج. ر باركن (Parkin) من نوفاسكوشيا والذى توقع بأنه فى يوم من الأيام اشارة نلسون إلى (أن انجلترا تتوقع أن كل رجل سوف يؤدى واجبه) سوف تتحقق ليس عبر خط من السفن، ولكن على طول خط من دول محاربة حول العالم، وكان رنينها قريبا لبلاغته الخاصة والتى التصقت بذهن تشرشيل واستطاع أن يستعيدها بعد ستين عاما.

وهناك أيضا مستمع آخر من هاروو (Harrovian) يدعى ليو أميرى الذى كان مفتونا مثل تشرشيل بالفكرة الضخمة عن الاتحاد الفيدرالى الإمبريالى، فهى تمسك بمفتاح إحياء بريطانيا كقوة عالمية، ومثل الآخرين من الأفكار الاستعماريه أواخر العصر الفيكتورى والتى كانت تجد مجالا وربما كما ظهر كمخيلات الشباب[١٦].

لقد كانت فكرة نوع ما من الوحدة الإمبريالية جذابه جدًا خصوصا هؤلاء الذين انزعجوا من الانهيار النسبى لبريطانيا كقوة عالمية لكن المحاولات العملية لتسهيل العلاقات الوثيقة بين بريطانيا والدومنيون وبناء سياسة دفاعية استعمارية منسقة باءت جميعها بالفشل، وفى الفترة ما بين أعوام (١٨٨٧ - ١٩٠٧) تم انعقاد سلسلة من المؤتمرات لرؤساء وزراء دول الدومنيون بشكل منقطع، لكنها أدت إلى الكثير من المباحثات بلا نتائج وهناك شك معروف ومفهوم أن بريطانيا تنمى وحدتها الاستعمارية لتزيد من

مصالحها الدولية الخاصة، وكان زعماء الدومنيون حذرين من تورط قواتهم المسلحة تحت السيطرة والرقابة البريطانية، وفى كندا كانت هناك شكوك عميقة بين السكان الناطقين باللغة الفرنسية حول التورط فى خرب مع فرنسا، وفى عام ١٨٩٨ عندما أصبحت مثل هذه الحرب وشيكة شكت الحكومة الكندية عما إذا كان من الممكن إقناع رجال الحرب الكنديين فى المشاركة فى الاستيلاء على جزر سانت بير (St. Pierre) وميكيون(Miquelon)[١٧].

ومرة ثانية فى عام ١٨٩٩ كان الفرنسيون الكنديون مترددين فى تدعيم بريطانيا فيما رأوا أنها حرب من أجل العدوان الإمبريالى ضد البوير.

كانت المسألة الأيرلندية تلوح فى الأفق بشكل واسع فى المحاولات البريطانية لضمان التعاون الإمبريالى.

وقبل عام ١٨٠٠ كان لدى إيرلندا برلمانها الخاص الذى كان إلى حد كبير المتحدث الرسمى باسم أصحاب الأرض من البروتستنت، وفي عام ١٨٠١ تم حل هذا البرلمان وبعدها ذهب أعضاء البرلمان الإيرلنديون إلى وستمنستر، وكان هذا الترتيب يجد تحديًا مستمرًا من القوميين الإيرلنديون الذين إزدادوا عددًا وإصرارًا لأن حق الانتخاب امتد إلى الغالبية من الغالين (Gaelic) والكاثوليك الإيرلنديين، وزادت القوات العسكرية بشكل درامى بعد عام ١٨٧٠ مع تأسيس الحزب الإيرلندى للحكم الوطنى وصارت القضية الإيرلندية فى مقدمة السياسات البريطانية، وكانت القضية الإيرلندية تناقش على مستوين أحدهما أنها قضية محلية أساسا تهتم باستعادة إجراء من الحكومة الذاتية لإيرلنده، ومن جهة أخرى أنها قضية استعمارية ذات أهمية كبرى لأنها تدخل ضمن وحدة الإمبراطورية مستقبلا[١٨].

لقد خشى أعداد الحكم الذاتى الإيرلندى أنها تقسم المملكة المتحدة وبالتالى تدمر أى فرض للاتحاد الإمبريالى الأوسع.

وناقش أحد أعضاء البرلمان من حزب الثورى وهو يعارض أول قانون للحكم المحلى الذى أصدره جلادستون فى مايو ١٨٨٦، وأشار إلى أنه لو تمت الموافقة عليه، فإن المستعمرات لن تنضم إلى مثل هذا الاتحاد الفيدرالى إذا تفككت المملكة المتحدة لأنه إذا لم تحافظ على العشيرة والنسب فإنه لا يتوقع أن تحافظ على مستعمراتنا معًا والتى تبعد كثيرًا عنا.

وكان جلادستون يأمل وهو يدافع عن إجراءاته بأن الحكم الذاتى لإيرلندا سوف يجعلها على علاقة حميمة وذات ولاء للدومنيون مثل كندا، وكان هذا تفكيرًا مرغوبًا فيه، لأن ميراث الكراهية لإنجلترا والعداء الوطنى ضد إنجلترا يجعل من الصعب أن تستمر العلاقات الإنجليزية الإيرلندية بشكل ودى.

إن إيرلندا شبه المستقلة سوف تكون دائما خطرًا فى أى حرب مستقبلية، وقد إشار أحد أعضاء البرلمان إلى مجلس العموم كيف أنه فى عام ١٧٩٨، قام الوطنيون الإيرلنديون بجعل قضيتهم مشتركة مع فرنسا(١٩).

وقد أقنع تهديد الأمن القومى وإمكانية حدوث ضرر للإمبراطورية مجموعة من أعضاء البرلمان من الحزب الليبرالى بمن فيهم تشامبرلين على الإعتراض والتصويت ضد القانون، وعرض خليفته فى ربيع ١٨٩٣، ووافق عليه مجلس العموم لكن رفضه مجلس اللوردات، كما أنكره تشامبرلين لأن القانون بإنشاء إنجلترا الصغرى سوف يعلن عدم الامتثال لعالم حاقد.

لقد أصبحت كل أوربا مسلحة تسليحا كاملا، وصـــارت كـــل قـــضايا النقاش والجدل تطفو على السطح، وصارت مصالحنا عالمية، وصار شرفنا متورطًا فى كل أرض تحت الشمس وفى ظل هذه الظروف يدعو الــضعفاء للهجوم ومن الضرورى أن تكون بريطانيا قويه .

وبالنسبة لــبعض الــشعراء مثــل الــشاعر أليجــرون ســونجبيرن (Swingburne) فإن الاتحاد أحد المزايا والعطايا التى منحها اللـــه ليجعــل بريطانيا قوية ثلاثة فى واحد، ولكن واحدًا فى ثلاثة فإن اللــه الذى منحهــا البحر جعل الكومنولث الخاص بنا لها، ليس واحدًا.

ومن خلال الغش والخوف سوف ينفصل الرباط الذى تأكد إلى الأبــد ولن تستطيع قوتهم المخربة أن تفكك ما فعلته القوى السماوية.

لقد كان الدفاع عن الاتحاد من أقوى الأمور لهؤلاء أمثال تــشامبرلين الذى كان يجند روابط أقوى بين بريطانيا والدومنيون، ورغــم أنــه حــسب المصطلحات السياسية فإنه من الظاهر عدم تحقيقها خلال تسعينيات القــرن التاسع عشر، إلا أن هناك علامات قوية بأن الولاء للتاج قوة عاطفية عظيمة فى كل الدومنيون، ولقد تم الكشف عن قوتها خلال احتفالات اليوبيل الماسى عام ١٨٩٧، والتى شهدت ليست فقط قوات الدومنيون وهى تسير عَبر لندن بل فى سلسلة من التهانى من كل ركن من الإمبراطورية، وقد لخص مشاعر ومزاج الجميع ذلك الخطاب الذى ألقاه المتحدث باسم برلمان ولاية فيكتوريا.

وفى هذه اللحظة يقف خلف عرشها ممثلون من كل جزء مــن عــالم إمبراطوريتها الواسعة، والكل يحمل رسائل الولاء والنية الحــسنة، ويجمــع الدليل على أن المسافة لن تنقص الوطنية بتوحد الإمبراطورية اليوم فى تقديم

الولاء والاحترام للسيدة التى هى جديرة لمدة ستين عامًا بحمل رمز وصورة القوة لأمة حرة[٢٠].

وبعد عامين عندما لم يعد ممكنا تجنب الحرب بين بريطانيا والترنسفال تحولت هذه العواطف إلى عمل حيث قدمت أستراليا ونيوزيلاند قوات كما فعلت كندا رغم شكوك معينة بين المجتمع الكندى، وكان قيام ورحيل الفرق العسكرية سبب كل هذه الاحتفالات وكانت نفسية الرجال الذين شاركوا فى هذه العروض عبر الشوارع وهؤلاء الذين يحيونهم قد لفتت انتباه شاعر من نيوزيلاند.

لقد ومض لهيب الإشارة فوق الماء الكلمة التى كانت انجلترا القديمة تريد مساعدتها ولقد صرخت الأم إلى بناتها وزمجر الأسد إلى أشباله أقذف بعيدًا أى خوف ينتابك وأى شكوك لرياح البحر إنه الوطن القديم القديم الذى يناديكم يا أبناء التقاطع الجنوبى.

إن هؤلاء الذين سمعوا هذه الأصوات وغيرها من النداءات الوطنية كانوا معظمهم من الرجال والنساء الذين لم يروا بريطانيا لأنه مع عام ١٨٩٩ كان كل الأستراليين والنيوزيلانديين مولودين فى الوطن، ومع ذلك فإنهم شعروا بعلاقة قرابة عاطفية قوية مع بريطانيا التى لم تكن الآن أفضل مما عبر عنه الأسترالى تشارلز بين (Bean)، وفى بداية تقريره عن مشاركة وطنه في الحرب العالمية الأولى يتحدث الأسترالى نفس اللغة ويقرأ نفس الكتب، ويحب نفس الرياضات ويتمسك بنفس أفكار الأمانة والنظافة والحرية الشخصية، ويتعلم أطفاله فى أحضان أمهم نفس التقاليد العظيمة عن سفر البحر والمغامرة القديمة لأنه قد ألف قصصا قليلة من بنات أفكاره.

لقد حارب أكثر من ثلاثين ألفا من القوات الاستعمارية فى حرب البوير وكانت أنشطتهم تظهر فى صحف الدومنيون، إما مسجلة كخطابات مرسلة إلى الدولة الأم أو فى تقارير من مراسلى الحرب، وكان الاهتمام العام بالحرب ودور بنى وطنهم فيها، كان أكثر شدة فى نيوزيلاند وإستراليا التى اتخذت الخطوة غير المعتادة فى إصدار طوابع بريد لإحياء ذكرى فرقهم العسكرية، كان الرخاء العسكرى والفخر بالانجازات فى ميادين المعارك جزءًا لا يتجزأ من القومية فى كل مكان فى أواخر القرن التاسع عشر والعشرين، وكان هذا طبيعيًا وحتميًا لدرجة أن حرب البوير أعطت حماسًا جديداص للوطنية فى الدومنيون[٢١].

وأسهمت المشاركة فى الحرب إلى حد ما بأن الدومنيون قد وصلوا إلى سن النضج، أى أنهم وصلوا إلى مرحلة من البلوغ الذى يؤهلهم لقيام دولة أكثر منها مستعمرة.

ولم يكن ارتفاع الأعلام فى العروض وإرسال المتطوعين للحرب ضد البوير مجرد تأكيد للدولة الشابة، فكل من استراليا ونيوزيلاند فقدت امتداد النفوذ البريطانى فى جنوب أفريقيا والذى كان من الممكن أن يؤدى إلى تغيير فى موازين القوى فى كل نصف الكرة الجنوبي.

ولقد أدت مساعدة الدومنيون بريطانيا سواء عسكريًا أو سيكولوجيا؛ بأن ما يحتاجه الجيش البريطانى فى عام ١٨٩٩ هو تلك الأعداد الكبيرة من الشباب المتحمس الذى تعلم كيفية الركوب والقنص من الخلف، وفى عالم كانت بريطانيا على علاقات غير ودية وبشكل تآمرى، وكان دعم الدومنيون يرفع من الروح المعنوية الوطنية، ولم يكن أسعد من مؤيدى الفيدرالية الإمبريالية الذين يعتقدون أن عقيدتهم تتطلع إلى عالم ما بعد الحرب، حيث إن المشاركة فى أرض المعركة ستظل مستمرة، وكما فى عام ١٨٨٥ كانت

القيادة العليا للجيش أكثر سرعة في الاعتراف بمستقبل قيمة القوات الاستعمارية[٢٢].

وفي عام ١٩٠٢ وبعد سماع تقارير من روح غير ودية، والتي ظهرت من بعض الجماعات ضد ضباط الدومنيون، قام الضباط المساعديون للقائد بتتويج المعنيين وتحذيرهم من أن المصالح الإمبريالية في المقام الأول تعتمد على الأوامر التي يقدمها الضباط البريطانيون إلى إخوانهم الاستعماريين والتي يقدمها المندوبون[٢٣].

وعلى عكس الضباط المساعدين كان هو وزملاؤه من الضباط غير مدركين أنه في أي حالة طوارئ جديدة، فإن على بريطانيا الاعتماد بشدة على القوى البشرية للدومنيون لملء المناصب والرتب في جيشها.

تعني الهجرة الجماعية والتي لم تظهر أي علامات من النقصان أنه مع بداية القرن العشرين كان عشرون في المائة من السكان البيض في الإمبراطورية يعيشون في الدومنيون.

(١٠)

كن شجاعًا، كن جريئًا وافعل الشىء الصحيح

الإمبراطورية الإدواردية والناس

كان من الواجب أن يكون عام ١٩٠٢ عامًا للاحتفال الكبير، ولم يكن جنود الإمبراطورية وهى تخطو خطوات أثناء عملية التتويج للملك الجديد إدوارد السابع (Edward VII) ولكن وضع المؤتمر الإمبراطورى كان واحدًا من عدم الانسجام السياسى، لأن رؤساء وزراء الدومنيون عارضوا مقترحات روابط أوثق مع بريطانيا.

لقد أشرقت هزيمة البوير فى حملات حملة لم تجذب أى عناوين رئيسية سوى عنوان واحد ألقى ضوءًا قويًا على الوسائل البربرية وانتهى القتال وانعقدت لجنة ملكية لسماع أدلة عن كيفية إدارة الحرب وكان معظمها سلسلة من سوء الحظ والأمور العسكرية.

إن ما اكتشفته لجنة التحقيق فى مثل هذه القضايا مثل نقص خدمات جيش المخابرات وسوء إدارة المستشفيات ومعارضة الآلاف من الشباب من متطوعى الطبقة العاملة لأن عدم قدرتهم الجسمانية أبرزت وأكدت مخاوف هؤلاء الذين يخدرون بنى وطنهم من مخاطر الانهيار القومى، وكانت صيحاتهم وصراخهم تدعوان إلى السخرية فى زمن من التوسع الإمبراطورى الذى لا مثيل له من قبل، ولكن كما كانوا يشيرون دائمًا أن المظاهر

مضللة، وربما تزدهر الإمبراطورية وتتوسع إلا أنها أصبحت مصابة بحالة من القلق والضيق والتى إن لم تعالج سوف تنتهى بحل وتفكك الإمبراطورية، وتخيل غلاة المتشائمين أمثال القائد الكبير السير روبرت بيدن بويل (Robert Boden Powil) بطل معركة مافيكنج (Mafeking) أن بريطانيا مثل روما سوف تتدمر من الداخل بسبب فيروس أخلاقى، والذى اعتقد أنه ينتشر بشكل واسع بين الشباب.

هناك أيضا الخطر الخارجى، وهل تستطيع بريطانيا أن تواصل البقاء كقوة عالمية فى ظل ضغوط التحدى من ألمانيا والولايات المتحدة وروسيا (التى هى فى عملية التطور الصناعى السريع).

لقد كشفت نظرات جانبية عن تقديم هؤلاء المنافسين دولاً ذات عدد أكبر من السكان والموارد، وفى حالة الدولتين السابقتين كانت اقتصاداتهما تفوق بريطانيا حسب الإنتاجية والنمو، وتدخلت الداروينية الاجتماعية إلى حد ما فى الفكر الجماعى للقوى العظمى بأنه من الأمور المسلمة أنهم يوجدون فى حالة دائمة من المنافسة الحادة، ولهذا السبب كانت فترات التنافس الحاد تشبه السباق بشكل عام سباق النيل. وبعد عام ١٩٠٦ (السباق البحرى الألمانى البريطانى) الذى أوحى بكسب جائزة من الصراع وبهذا التناظر والتشابه الجزئى كان على بريطانيا أن تقود الميدان معظم القرن الماضى، ولكن بعد عام ١٩٠٠ بدا أنها تفقد الأرضية لحيوانات أقوى وبصحة جيدة.

إن الإمكانية المخيفة بأن تجد بريطانيا نفسها بين منافسين نمت بين الباحثين عن الروح الوطنية الحادة من السياسيين والاقتصاديين والصحفيين وعلماء الاجتماع، وكان تشخيص وعلاج الأمراض القومية يصحبه دائمًا بحث عن علاج ربما يعيد نشاط وحيوية الدولة، ويسترد قوتها وثقتها بالنفس ويقوى سلطتها فى الخارج، وانتهى المحللون من جناح اليمين واليسار أن

العلاج الشافى الأساسى هو الذي يعطى الأمل فى النجاح، وقد فشلت الليبرالية القديمة للتجارة الحرة (Laissez faire) وسيادة قوى السوق وهي التى أسهمت حقا في الكوارث البريطانية الحالية.

وكان ملنز الذى عاد بعد فترة من الخلاف كمندوب سامى فى جنوب أفريقيا عام ١٩٠٦ يصر على القيام بدور هام فى إعادة ميلاد بريطانيا والإمبراطورية وكان يلوم الحالة الحزينة التى حدثت فى المرحلتين السابقتين من زعامة الأحرار.

ولقد اعتقد سيدنى ويب (Webb) الاشتراكى الفابى أن الفردية الليبرالية قد أصبحت من طراز قديم، وكتب فى عام ١٩٠١ وهو يقول بإصرار " لقد أصبحنا ندرك تقريبا فى ومضة أننا لسنا مجرد أفراد، ولكن أعضاء فى مجتمع وأيضا مواطنون فى العالم ".

لقد أدرك رجل الشارع أن الحكومة الجيدة فى مدينته والكفاءة فى تنظيم دولته والنفوذ الذى تستطيع الإمبراطورية ممارسته فى المجالس، وتجارة الدول كلها أمور حيوية ومهمة له ولرخاء وبقاء أطفاله على قيد الحياة[١].

وبالنسبة لويب (Webb) والاستعماريين كانت الكفاءة الصحيحة كلمة تعويذة سحرية هى التى تمسك مفتاح إعادة حيوية كيان الأمة وقدرتها التنافسية، ويتطلب تطبيق الكفاءة وجود حكومة قوية على استعداد للتخطيط للأمام وتتدخل فى كل مرافق الحياة القومية لتطوير تعليم أفضل ومنح حكومة مدعمة من الدولة، وبرامج طبية[٢].

وبالنسبة لويب فإن بناء الحيوية الفعلية والعصبية هى المبدأ الأساسى لأى برنامج إمبريالى.

وقال أحد أعضاء البرلمان من الحزب الليبرالى مشخصًا حالة رفاهية طفل وواجباته المدرسية عام ١٩٠٦ بأنه من الناحية النظرية يبدو أنها مثل الاشتراكية المطلقة، لكنها فى الحقيقة هى استعمار من الدرجة الأولى، لأن الإمبراطورية لا يمكن أن تبنى على مواطنين ضعاف الصدور ومصابين بالكساح(٣).

وقد أدى الإهتمام بنسبة وفيات الأطفال العالية والحاجة إلى تبنى سياق استعمارى إلى اتخاذ الخطوات الأولى لتزويد الرعاية للأطفال على نطاق واسع مع حلول عام ١٩٠٠(٤).

وكان أثر بناء رفاهية الدولة فى كثير من الأمور هو إجراء استعمارى، كما أن الزائرات الصحيات والممرضات فى الأحياء التى تقبل أمهات الطبقة العاملة بها يربون أطفالا أقوياء، وكل هذا يخدم الصالح العام للإمبراطورية. ويرى المؤيدون لمثل هذه الأنشطة أنها قد تمت فى ألمانيا واليابان لبعض الوقت.

ويتطلب استمرار الكفاءة باسم الإمبراطورية التخلص من الأنظمة القديمة والتخلى عن نظم أصبحت مصابة بالآلام لمفاصل، ويجب أن يحل شيئًا من الأعمال بدلا من الأناقة والعقول البراقة والشجاعة التى كانت سمة الجيش كما أصر عليها ليو أمرى (Amery) فى عام ١٩٠٠.

وكان حينذاك مراسل جريدة التايمز فى جنوب أفريقيا، وعلى هذا فإنه كان يعرف من أول نظرة أوجه القصور فى نظام الجيش القديم، وكان أيضًا استعماريًا متخصصًا معجبًا باللورد ملنر، وصار واحدًا من السياسيين الشباب المذعورين من فشل الكبار فى فهم الرؤيا الاستعمارية، وجعلوا منها حقيقة، ومن بين زملائه كان ماكس إتكن، أحد الكنديين الذين شغلوا منصبًا فى حزب

الثورى فى لانكشير، وبعدها أصبح اللورد بيفربروك والآن أصبحت القضايا الاستعمارية فى مقدمة الحياة السياسية البريطانية وصارت ثورة نقاش وطنى فى ربيع عام ١٩٠٣، وعندما انفعل وتحمس تشامبرلين أثناء جولة فى جنوب أفريقيا ليبدأ حملته لإصلاح التعريفة الجمركية، وكانت تقوم على فرضية أن التجارة الحرة قد فشلت بشكل واضح، وأن الاقتصاد البريطانى سوف ينتعش فقط إذا فرضت ضرائب على كل الواردات الأجنبية فى كل الإمبراطورية[٤]، وسوف يسمح للمنتجات الإمبراطورية وأساسًا المواد الغذائية بإعفائها من الرسوم الجمركية، وبالتالى إنشاء نظام من التجارة الحرة واسع النطاق فى كل الإمبراطورية، وكانت الفوائد مزدوجة، حيث يمهد اتحاد الجمارك الإمبراطورى الطريق نحو الإصلاحات الاجتماعية المطلوبة لإنشاء سباق إمبراطورى قوى.

وكما ادعى ملنر وهو أحد مصلحى التعريفة الجمركية بأن قيم الدعم الإمبراطورى والقوة الوطنية مكملة للتقدم الإجتماعى والداخلى، واعتقد أن العظمة الوطنية تكمن أساسًا فى رفاهية جموع الشعب، ورضاء وتأكيد أن الرجال العاملين سيشعرون بالفخر فى أنهم أعضاء فى إمبراطورية واسعة من أسيادهم الاجتماعيين، ولكنه حذر من أن الوطنية يمكن أن تختنق وسط الأحياء القذرة المليئة بالسكان فى مدننا العظيمة.

وكانت الجرأة المطلقة لهذا البرنامج المزدوج للوحدة الإمبراطورية وإعادة الإحياء القومى سببًا للتفكك السياسى، وثبت أنها بعيدة المجال جدًا وراديكالية لمعظم زملاء تشامبر من المحافظين والاتحاديين الذين انشقوا مع الانتقال من حزب الأحرار وللانضمام إلى الليبراليين وكانت مناقشات التعريفة الضريبية هدية الله إلى الأحرار الذين قضوا السنوات الثمانى الماضية خارج السلطة وانقسموا حول السياسة خصوصًا تجاه

الإمبراطورية، والآن تجمعوا حول المعركة القديمة للتجارة الحرة، وكسبوا الانتخابات العامة فى يناير ١٩٠٦ مع غالبية جماهيرية عالية وهى آخر شىء لهم فى هذا القرن، ويرجع الفضل الأكبر لناخبى الطبقة العاملة المنحرفة دائما واعتقادهم أن المحافظين سوف يفرضون ضرائب على المحاصيل المستوردة ورفع أسعار الخبز.

وكانت الصورة الأكثر تعبيرًا عن الانتخابات رسما يوضح رغيفا معقولا للتجارة الحرة بجانب رغيف كعكة صغيرة الحجم لرغيف قانون الإصلاح (Reform).

ولم يكن الحصول على الأصوات الليبرالية القصد منه معدة الدولة، فهناك قضية إمبريالية أخرى ألا وهى ظروف تشغيل العمال المؤقتين الصينيين بأجور فى جنوب أفريقيا، وقد أثيرت هذه القضية لتهز ضمير الأمة.

ولكن الملائم الآن بشكل إمبريالى قديم لتقديم عمالة رخيصة ووفيرة كخطوة تم إنتهاجها لسد الفجوة لرفع الانتاجية فى مناجم الذهب، ولقد لقى المشروع تأييد ميلنر كما ظهر بشكل أساسى فى الموافقة على الضرب كوسيلة لفرض النظام على الصينيين، وفى الحال ارتفعت صيحة العبودية من جانب الأحرار وحزب العمال ورجال الدين من غير الملتزمين (Non con Formist) مع بعض التبريرات، وتم الدفاع عن المسائل الأخلاقية الجنسية البريطانية بخطر تشغيل النساء فى معسكرات عمال المناجم، وهو قيد سوف يسبب انفجارًا اجتماعيًا من اللواط بين الصينيين المحيطين، وثبت أن هذا ليس القضية كما اكتشفته تحقيقات الحكومة فى عام ١٩٠٦، ومن بين الأدلة كانت ملاحظات النساء الساقطات للضابط الطبى فى الراند، والذى كان رأيه أن هناك لواطًا أكثر بين الرجال فى لندن من الصينيين فى جوهانسبرج وهذا التقرير لم ينشر[٦].

لقد أثارت قضية الحمالين الصينيين عطف حزب العمال، فقد أحــرز في الانتخابات العامة في عام ١٩٠٦ تقدما مفاجئًا وسوف يظل الـسياسيون في حزب العمال متضاربين في آرائهم نحو الإمبراطورية، فمن جهة اعتبر الفابيون من مفكري الطبقة الوسطى مثل شو (Shaw) وسيدني وبرترس ويب الإمبراطورية مصدر قوة وطنية، فهي إذا أديرت بشكل صـــحيح تـستطيع أن تفيد كل رعاياها، ومن جهة أخرى فإن زعماء العمـــال الـــذين ترجـــع أصولهم إلى الطبقة العاملة والتي تعود جذور أفكارها إلى الراديكاليين فـــي منتصف العصر الفيكتوري، والذين ينتمون بعمق لمؤســـسة ســـلطوية فـــي طبيعتها تبدو مهتمة بالتوسع العالمي للرأسمالية وغالبا باستخدام القوة.

ولهذا السبب فإن جيمس كير هـــاردي (James Keir Harde) عامـــل المناجم الأسكتلندي السابق والذي صار أول عضو في البرلمان من حـــزب العمال وكان قد انضم إلى قوات حزب الأحرار اليـــساري لـــشجب حـــرب البوير باعتبارها عدوانًا رأسماليًا يطلق العيـــــان لسباق بين الفلاحين والذين شـــبههم بالعمال البريطانيين المستقلين، ومثل الاشتراكيين الآخرين، كان كيـــر هاردي حزينًا بسبب الغلو في الوطنية في صالات الموسيقى، والتي اعتقد أنها تشكلت من خلال الرؤساء على أمل أن الرجال العاملين مخمورون بحمـــى الوطنية وحب الحرب ربما ينسون قضايا مثل الشوكة والسكينة وكـــالأجور والبطالة، ولكن هذا لم يحدث ونجح حزب العمال في زيادة أصـــواته ضـــد صخب المهرجين وصراخ الشارع خلال المراحل الأولى من حرب البوير.

والأكثر أهمية فإن الحزب إزدهر في وجه صحافة شـــعبية رخيـــصة والتي صـــارت مع عام ١٩١٠ في جزء كبيـــر منهـــا نظـــرة اســـتعمارية ومحافظة[٢].

لقد تأثر حزب العمال بشدة عند تحديد سياسته نحـو الإمبراطوريـة بالمقارنة بين نضاله الخاص وتلك ذات نزعة ديمقراطية وقومية، وحركـات الاتحاد التجارى فى الهند ومصر وجنوب أفريقيا، وهذا الاختبـار وعقيـدة اشتراكية فى الأخوة بين الإنسان وعاطفة غريزية من أجل ضـحايا الظلـم والاضطهاد جعلت حزب العمال الحليف الطبيعى لما سماه الأجيـال التاليـة وحركات الحرية الاستعمارية، وبسرعة قامت اتصالات بين قيـادة العمـال والسياسيين القوميين فى الهند حيث كانت المعارضة ضد الاستعمار قوية فى مصر وجنوب أفريقيا، وقام رامـزى ماكدونالـد (Ramesy Mac Donald) زعيم الحزب فى المستقبل بجولة فى الهند وكان قلقا بسبب العزل العنصرى لبنى وطنه، ونقص الطاقة الرسمية فى ازدياد التعليم من أجل الهنود .

أما كير هاردى (Keir Hardy) الذى زار الهند فى عام ١٩٠٧ واتفـق مع الوطنيين البنغاليين، واستقبله الهندوس باعتباره رجلاً مقدسًا لكنـه كـان رجلاً عقيما وتافها .

وكان لدى كير هاردى أيضًا معلومات جديدة عن جنوب أفريقيا وهى التى استخدمها ليتزعم السود خلال مناقشة القانون الذى يمنح الدولة دستورًا فيدراليا فى عام ١٩٠٩(٨).

وكان استعداد الحكومة للتسوية مع البوير وشطب السود من الانتخابات سوف يفسد العلاقات بين الأجناس ويقلل عدد السود فى بروليتاريـا الـذين يملكون الأرض ويجبـرهم على قبول أدنى الأجور لكى يحفظوا حياتهم(٩).

وفى نفس السنة ألقى كير هاردى محاضرة على ممثلى حزب مـصر الفتاة فى جنيف وحثهم على قيام تحالف بين الطلاب والفلاحين، وإذا تحقـق هذا فإن المصريين سيجبرون بريطانيا على تقرير المصير، ولكن كما أصر كير هاردى بطريقة منظمة(١٠).

ولا تزال أهمية هذه الأحاديث والروابط بين حركات التحرر الاستعمارى أو ما يسمى فى عام ١٩٠٠ مجموعة صغيرة فى المستقبل، ورغم هذا فإن الصفوة المتعلمة التى قادت حركات التحرر الناشئة وأسياد الشرق الأوسط وأفريقيا تعتقد أنها ستلقى آذانا عاطفية من قيادات العمال.

وفى شهر أغسطس ١٩١٧ حصلت المخابرات العسكرية على خطاب حذر فيه عراقى وطنى منفى أحد أعضاء البرلمان من حزب العمال وعضو من وزارة الحزب آرثر هندرسون بأن الحكومة أخطأت فى تدعيم الشريف حسين شريف مكة على أساس أنه رجعى غير موثوق فيه، أضاف بتفاؤل ساذج وغير ناضج أنه يأمل فى انسحاب بريطانيا من العراق عندما تنتهى الحرب[١١].

ولقد كانت هناك فجوة واسعة فى الرأى ما بين حزب العمال ورجال يديرون أمور الإمبراطورية والاستعماريين من حزبى المحافظين والأحرار فى داخل الوطن، ولقد لوثت الحكومة الهندية سمعة كير هاردى على أنه مثير للفتنة وتاجر يحرص على الفتنة أثناء زيارته للدولة وتعجب رامزى ماكدونالد عما إذا كان حكام الإمبراطورية سيعودون إلى الوطن ورءوسهم مليئة بالأفكار السلطوية، ولم يكن هذا الخوف جديدا، ولقد عبر عنه بروك فى أواخر القرن الثامن عشر وكرره الأحرار بشكل منقطع وأيضا الراديكاليين فى القرن التالى، والذين انزعجوا من حقيقة أن رجال وطنهم ومعظمهم من الطبقات العليا حكموا المستعمرات كحكام طغاة ووصف الاشتراكى وليم موريس كيف أن حكومة تواجه قلق الطبقة العاملة توضع فى لندن تحت إشراف أحد القواد الشبان والأذكياء. والذى كسب نوعًا ما من الشهرة فى الحروب المشينة التى شغلت الدولة فترة طويلة، وكان ذلك فى مجلة (News from Nowhere) عام ١٨٩١، ويستخدم ولسلى هذا الرجل

النحيف الخفى أسلحة من البنادق الألية ومعدات الحرب الاستعمارية ليضرب مجموعة من الرجال فى ميدان الطرف الأغر (Tra falgar Square).

ومن الأمور المتناقضة أن مثل هذه الأعمال لم تكن فيما وراء ولسلى الحقيقى الذى كان جزءا من أوهام كروميل، وفى ذات مرة قال لزوجته إنه يتمنى قدوم زمن تنهزم فيه أفكار الديمقراطية والاشتراكية بحد السيف، وتحل محلها مرحلة طغيان عسكرى قاس وعندها يجبر جلادستون ورفاقه على تنظيف وتلميع أحذية الضباط[١٢].

وعلى نفس القدر كان الأدميرال اللورد فيشر قد استاء من السياسيين لكن روحه الساخرة منعته من الذهاب أبعد من ولسلى، ومع هذا فإنه جعل ذلك ولاحظ ذات مرة أن تجربته عن السياسيين قد اقنعته أن المشيئة الإلهية وحدها هى التى حافظت ووسعت الإمبراطورية[١٣].

لقد ترفع ميلز عن السياسات الحربية والتى اعتبرها محدودة وبسيطة التفكير وغير جذابة بشكل خطير على الدولة التى تركز اهتمامها على القضايا الكبرى المثارة فى الإمبراطورية، وعلى هذا اختار حسب هواه حزب اللوردات باعتباره منصبه، لأنه مثل كورية لاتس وجد إقناع الجماهير فكرة بغيضة، واعتقد ليو أميرى أن القضايا الإمبراطورية مهمة جدًا لدرجة أنه لا يمكن تركها لساحة مجلس العموم، وكان أمله أن يقتصر النقاش فى المستقبل على مجلس لوردات يعاد تأسيسه[١٤].

وسوف يصبح هذا الجهاز الذى اكتظ برجال الدين من الدومنيون مجلسًا تشريعيًا إمبراطوريا، بينما يهتم أعضاء مجلس العموم بأنفسهم بأعمال دنيوية تافهة مثل الموافقة على القوانين وتأسيس كنيسة ويلز.

وربما كانت العواطف الإمبريالية السلطوية الأقوى بين الضباط فى كل من الحالتين، وكم كان قويا ما تم كشفه بشكل درامى من أعداد فى إيرلنده خلال ربيع ١٩١٤ بعد أن انساقت حكومة هيربرت أسكويث فى النظر فى الإجراءات من أجل فرض قانون الحكم المحلى الإيرلندى.

لقد أجبرت الضرورة أكثر من الإقناع حزب الأحرار على تقديم هذا الإجراء عام ١٩١٢ من أجل دفع ثمن التأييد الوطنى الإيرلندى فى مجلس العموم بعد أن فقدوا أغلبيتهم خلال اثنين من الانتخابات العامة فى عام ١٩١٠، وكما حدث فى عامى (١٨٨٦ و ١٨٩٣) فإن المحافظين والاتحاديين رفضوا الحكم الذاتى الإيرلندى باعتباره ضربة مميتة.. للوحدة الإمبراطورية، ومع هذا ففى هذا الوقت لم يؤجل اللوردات الموافقة على القانون، وعلى هذا بعد أن استنفد الأشكال المعتادة للمعارضة السياسية، لجأ المعارضون للقوة وصاح غالبية البروتستانت فى شمالى إيرلنده "الحكم المحلى الحكم المحلى" وأكدوا رغبتهم فى البقاء جزءا من الإمبراطورية البريطانية وشكلوا جيشا من المتطوعين، وفى أوائل عام ١٩١٤ بدأوا فى الحصول على مسدسات وبنادق آليه، ووافق زعماء الاتحاديين والمحافظين فى الوطن الأصلى على ما اعتبروه دفاعًا جريئا عن الوحدة الإمبراطورية [٤٠].

واقترحت الوزارة بعد أن واجهت ثورة فى نهاية مارس ١٩١٤، أن القوات من الحامية الإيرلندية (المركزة فى الكاثوليك جنوب الجزيرة) يمكن أن تستخدم لحراسة الترسانة وتمنع أصحاب المعاطف الإيرلنديين من الحصول على أسلحة أكثر، واستقال غالبية الضباط فى الحال وكان مثل هذا الواجب ضد ضمائرهم مثلما كان ضد الضباط على ظهر المقاتلات الحربية التى صدرت إليها أوامر لتتمركز خارج مدينة بلفاست، وبصراحة تعاطف كبار الضباط مع إشارة أتباعهم وأجبرت وزارة شديدة الاضطراب على

مسايرة الموقف، وكانت النتيجة التعهد بأن الجنود البريطانيين لن يستخدموا لنزع سلاح متطوعى الألستر (Ulster) والتى كانت نصرًا لهم وللضباط.

وكان ما يسمى بالتصريح الحكيم لحادثه كوراه (Curragh) (نسبة إلى المعسكر الذى وقع فيه أول أعداد من المستقلين، وكان برهانا على عمق وعاطفة الولاء للإمبراطورية داخل الجيش، كما أنها كشفت أن هؤلاء الذين وافقوا على أعمال الضباط اعتقدوا أن الاعتبارات الإمبراطورية تفوق الطاعة التقليدية العسكرية على السلطة المدنية ورأى الاستعماريون أن القضية الأخلاقية واضحة تمامًا، ورأى أحدهم أن الضباط المتمردين تصرفوا بهذا الشكل لأنهم أدركوا أن رجال البولستر رعايا مخلصون رفضوا أن يوضعوا تحت رحمة زمرة كما أكد جلادستون (قبل مناقشة الحكم المحلى) وأنهم يسعون إلى الانفصال عن الإمبراطورية[١٦].

وليس من المعقول أن ضابطًا فى جيش يسعى لمدة أكثر من مائة عام وهو يضحى لحماية الإمبراطورية وتوسعها أن يسمح لنفسه بأن يكون شريكًا فى جريمة ما يسمى خيانة الإمبراطورية، ولن يكونوا صادقين لأنفسهم إذا شنوا حربًا ضد رجال يرغبون فى البقاء كجزء من الإمبراطورية على حساب هؤلاء الذين يريدون الرحيل.

لقد تعجب جندى خاص شاهد أحداث كوراه (Curragh) من الخطوط الجانبية عن سبب أن الضباط من الجيش الأرستقراطى والذين لم يظهروا أدنى إحساس مفاجئ عن استخدام القوة ضد هؤلاء من بنى وطنهم الذين كانوا عمالا صناعيين فى الأحزاب.

وكانت هذه هى لغة سياسه الطبقات، وهى ظاهرة حديثة فى الحياة البريطانية، وهى التى كانت نتيجة مباشرة لنمو حزب العمال والاتحاد التجارى العسكرى، وكانت سياسة الطبقات أساس الاستعماريين الأحرار

والمحافظين الذين وجدوا أنها تقلل من الوحدة القومية، وعلى هذا تضعف الإمبراطورية ومن بين خمسة وأربعين مليونًا من السكان كان أربعة وثلاثون منهم من الطبقة العاملة، وعلى هذا كان لا بد من وجود ترياق أساسى لحسم الصراع والعداء الطبقى.

وكان أمل تشامبرلين أن يقوى برنامجه الخاص بالاستعمار الديناميكى (الحيوى) وإصلاح الجمارك وسوف ينتصر على الطبقات العاملة وشاركه معظم المحافظيم التقليديين هذا التفكير، وقد أعلن اللورد وبلجباى دى بروك (Wyllaughby de Broke) أحد النبلاء الأشراف فى الجناح اليمينى للحزب الثورى أن الشخصية البريطانية هى المصدر الأكبر للإمبراطورية، ولكنه اعترف أنه يمكن الحفاظ على القوة الداخلية للبريطانيين لو أن كل شخص تمكن من الحصول على ما وصفه "ضروريات الحياة الأخلاقية والمادية" وفقط عندئذ لا يستطيع أحد أن يشتكى "أن الإمبراطورية البريطانية لم تفعل لى شيئًا"(١٧).

وطالما أنه توجد قطاعات واسعة من المجتمع لا تشعر بالفائدة من الإمبراطورية، فإن بريطانيا لن تستطع تحقيق الوحدة القومية اللازمه لضمان الحفاظ عليها، أو كما لاحظ روبرت بلانشفورد (Robert Blatchford) جندى سابق وكان استعماريا واشتراكيا " بينما يقال إن الشمس لن تغرب أبدًا عن الإمبراطورية البريطانية فهناك أحياء قذرة مكتظة بالسكان لن تشرق عليها الشمس، وعلى هذا يجب أن تدرك الطبقات العاملة التى تعلمت أن تشعر بالكبرياء وتفهم أن قيامها ووجودها لصالحهم، والأهم من كل هذا تتعلم الفضائل الخاصة التى يتوقعونها كمواطنين.

إن ما يسمى اليوم برفع الوعى الإمبريالى هو مهمة قامت بها مجموعة من المنظمات التطوعية التى أسستها وموّلتها الطبقات العليا والوسطى،

وكانت قوائم المشاركين من كل الاستعماريين من جميع الأحزاب والقناصل السابقين وكبار ضباط الجيش والأسطول، والجميع شارك وأسهم فى جهاز دعاية قوى ظل يعمل عدة سنوات ما بين حرب البوير والحرب العالمية الأولى.

ومن أكبر وأهم الأجهزة المؤثرة التى أذاعت الرسالة الإمبريالية حلف برمروز: Primrose League) الذى تأسس فى عام ١٨٨٣ وسمى باسم زهرة دزرائيلى المفضلة وادعى أنه سياسى رغم أنه رياضى، وأنكر أعداء الإمبراطورية الإنضمام والعضوية فيه، وفى عام ١٩٠٠ بلغ عدد أعضائه مليونا ونصف المليون وكلهم تقريبا من الطبقة العاملة. وتبنى وطنية إمبريالية قوية (وكان أحد أبطاله غوردون) من خلال خليط من وسائل الترفيه والتعليم ويدفع مقابل محاضرات وعروض فوانيس سحرية والمعارض والحفلات العامة، ومن بين الجماعات الأكثر ضغوطا حلف الخدمة الوطنية (National Sevice League) والذى قام مؤيدوه بحملة فى كل أنحاء الدولة من أجل التدريب العسكرى الإجبارى لكل طلاب المدارس وجمع التبرعات الإجبارية، وكان الفيلد مارشال العجوز بطلا قوميا، وكان يلقى أحاديث فى الاجتماعات العامة من حين لآخر.

ومع حلول عام ١٩١٤ انضم إلى هذا الحزب مائتا ألف عضو بمن فيهم من كانوا منضمين إلى منظمة (Lads Drill Association) التى ظهرت فى عام ١٩٠٦.

وكانت هذه المنظمة من بناة أفكار ريونالد برابازون (Reyinald Barbazon) (ايريل مبث وهو من حزب الثورى البريطانى الإيرلندى) والذى كرس عمره لنشر إنجيل الإمبراطورية للشباب، وقد حدث تحوله إلى الإمبريالية فى أحد أيام شتاء خمسينيات القرن التاسع عشر عندما أنبه أحد نظار المدارس الذى

اتخذ مناسبة الموعظة حول الرجولة الإمبريالية :" هل تسمون أنفسكم أبناء بريطانيين... فأباؤكم حكام إنجلترا وقد حقق أجدادكم لبريطانيا ما هى عليه الآن، وهل تتخيلون أنه إذا خشم البرد فهل كانت كندا تضاف إلى الإمبراطورية وإذا خشم الحرارة فهل سنمتلك الهند أو أفريقيا الإستوائية؟[١٨].

دعنى لا نراكم تتكمشون من الحرارة والبرودة، ولا بد أن تحافظوا على الإمبراطورية التى شيدوها.

لقد أثرت هذه المحاضرة بعمق فى ميث (Meath) الشاب وبعدها بدأ يتأكد أن الأجيال فى المستقبل سوف تحافظ على عهد أسلافهم، وكان الولاء للماضى الاستعمارى والالتزام بمستقبله أحد أهداف عيد يوم الإمبراطورية (Empire Day) الذى أراد ميث أن يحتفل به سنويا فى كل المدارس عبر الإمبراطورية فى الرابع والعشرين من مايو، وهو عيد ميلاد الملكة فيكتوريا، وقد تم الاحتفال أول مرة بعيد الجمهورية فى عام ١٩٠٢، وعلى مدى أربع سنوات تم الاحتفال به فى ستة آلاف مدرسة، وفشلت محاولة برلمانية للحفاظ عليه باعتراف رسمى فى عام ١٩٠٨، وقام أعضاء البرلمان الإيرلندى وحزب العمال والمجالس العمالية مثل باترسى (Battersea) بحظر قيامه فى مدارسهم باعتباره عسكريًا، ومع هذا ازداد عيد يوم الإمبراطورية شعبية خاصة فى جنوب شرق إنجلترا وفى كل المناطق الريفية، وفى عام ١٩١٦ تم اعتراف حكومة وزارة الحرب التى كانت على استعداد لعمل أى شيء لتشجيع الوطنية الشعبية بهذا العيد[١٩].

لقد أشار كتيب أصدرته رابطة يوم الإمبراطورية فى عام ١٩١٢ مع اقتراحات بزيادة وسائل الترفيه، وكان هذا بعضًا من مذاق يوم الإمبراطورية فى عصر الملك إدوارد.

أما بالنسبة للأطفال الصغار القدامى فقد كانت هناك نسخة مختصرة من عهد الملك هنرى الخامس والتى ركزت على المناظر السابقة خلال وبعد أجينوكورت (Agincourt) قد قام الطلاب الصغار بعمل مهرجانات بسيطة ثم عرض مواكب الأبطال الذين أسهمت أعمالهم النبيلة فى نمو الإمبراطورية والولاء لبريطانيا.

وكان كليف ونلسون (Clive and Nilson) واكتافهم المطرزة بأشكال رمزية تمثل الجيش والأسطول ولمسة حديثة من قوة الطيران، وكلما ظهر واحد منهم كانوا يلقون التحية بصيحات عالية من المتفرجين " يا جنودنا الشجعان " وكذا، وفى النهاية قدمت بريطانيا حديثًا مختصرًا مؤثرا " ستظل إمبراطوريتى مثل ورد الصيف، وتعطر العالم بروائح الحرية " " كن شجاعًا، وكن جريئا وافعل الشىء الصحيح ".

وفى مشهد بديل وبألوان مشابهة يظهر أطفال يمثلون الدومنيون والمستعمرات ويقدمون الاحترام لأمهم بريطانيا، كما كانت أزياء من سود جنوب أفريقيا تتكون من معطفين من الفراء وخيوط من بذور الشمام (melon) وأحد حاملى الرماح الأفريقية مرتجلا.

وكانت المشاهد تتويجا لصباح خلاله تعلم الأطفال أغانى وطنية كما أحبوا أن يكونوا جنودا أو بحارة والتى يؤديها بنات يدركن حقائق عن الإمبراطورية مثل.

" لقد سعدت المستعمرات فى جعل شعبنا من أغنى شعوب العالم " ولم يكنّ المرح والعمل كافيين وأكد ميث (Meath) أن يعطى للطلاب استراحة بقية اليوم، وكتب بأن الشباب لن يدركوا بشكل كامل أهمية أى حادثة إلا إذا أتت بإجازة معها.

وتدور الدروس اليومية حول الأفكار الإمبراطورية، وكانت جولة أمير وأميرة ويلز فى الهند فرصة لتلاميذ المدارس الإلزامية ليتعلموا أشياء عن شبه القارة والشركة والطريق الصحيح الذى يحكم بها.

لقد انمحى الغضب الوطنى الذى اشتعل فى البنغال حديثًا بعبارة " إن الحكم البريطانى قد جلب السلام... وأن البوليس والجنود الوطنيين غادة ما استطاعوا الحفاظ على النظام بين شعب طيع وسهل الانقياد بشكل طبيعى[٢٠].

واستمر طلاب المدارس العامة يزودون بالدعاية الإمبريالية التى يقدمها بشكل متصل نظار المدارس الذين كانوا من رجال الدين الإنجيليكانيين ذوى الإغراء المسيحى القوى، واختلطت أفكار القوة الرياضية مع الوطنية المحاربة فى إثارة الأغانى المدرسية التى صارت شعبية فى تلك الفترة.

وكانت عواطف وأحاسيس هارو (Harrow) التى جعلت تشرشل يذرف دموعا، وكانت نمطية أعطانا اللـه قواعد للحراسة أو للحصار وألعابًا نلعبها فى أوقات المرح تحارب من أجل آمال وأهداف نشتاق إليها.

عشرون وثلاثون وأربعون عاما مستمرة.

وكانت مثل هذه التوسلات والتى وصلت إلى أعلى مرتبة من اللياقة على أرض الملعب، وقد جعلت تلميذ المدرسة مستعدا للقيام بواجبه نحو الإمبراطورية، ولكن ماذا عن أولاد الطبقات الأخرى؟ كان هذا السؤال يتردد بشكل مستمر فى عصر الملك إدوارد فى بريطانيا، ولم تكن الإجابات غير مطمئنة فى الغالب فى عام ١٨٩٨، ووصف أحد المعلقين شباب الطبقة العاملة بأنهم ضيقو الصدر ومرهقون ومرضى، ومع ذلك فإنهم قليلو التحمل[٢١].

إن تعميمات من هذا النوع أكدت الإحصائيات الباردة التي جمعها أطباء الجيش الذين يفحصون المجندين الجدد، وأيضًا المسح الذى قام به علماء الاجتماع فى المناطق الحضرية المزدحمة أمثال سيبوهم رونترى (Seebohm Rowntree) وكان الأبناء المرضى وسوء التغذية فى المدن الصناعية دليلا على أن رجولة الجيش الأنجلو سكسونى فى تدهور.

ومن جهة كانت هذه الحقيقة حصنًا للمصلحين الاجتماعيين من كل وجوه الإغراء، ومن جهة أخرى قدمت الحافز لمجموعة من الاستعماريين الجادين لبدء برامج إعادة بعث الجماهير، وكما يدعى بادت بويل (Powell) بأن المطلوب هو " تقوية الأمة والاعتماد على النفس والرجولة النشطة " التى سوف تكون قادرة فى وقت ما على الدفاع عن الإمبراطورية وزيادة سكانها.

لقد كان بادن (Baden Powell) هو والمتهربون من العمل ضعاف العزم واستخدم كرجل مشهور بشكل عام نفوذه لإيقاظ شباب الأمة لواجبه ووعدهم بإنجازه، وكنداء استوحاه من ميث ناظر المدرسة استخدم تجارب الأبطال فى الماضى ليظهر خزى أنجالهم.

" لقد عمل أجدادكم بجد وحاربوا بمشقة وماتوا بجد من أجل أن تكون هذه الإمبراطورية لكم، لا تدعهم ينظرون إلى أسفل من السماء ويرونكم تتسكعون وأيديكم فى جيوبكم، ولا تفعلون شيئًا لاستمرار الإمبراطورية"(٢٢).

وفى ديسمبر ١٩٠٤ نصح قراء الاتحاد (العلم البريطانى: Union Jack، والمارفل: Marvel) أن يتعلموا كيفية التدريب والقنص، وانتهى بتوسل من خطاب رؤساء الفرق الرياضية وألعاب الكريكت التاسعة حيث كانت فرقها شغوفة بأن تتعلم كيف تحارب.

وفى عام ١٩٠٨ ترجمت أفكار بادن بويل إلى عمل مع تأسيس فريق كشافة الأولاد الذى وصل بعد عامين مائة ألف مشارك، وكانت فلسفة حركة الكشافة الوطنية البسيطة وأنشطتها التى تتم بشكل واسع خارج البيوت، وكانت قد اشتقت مع الكتاب المدرسى لبادن بوويل حول حرفة الملعب (الميدان) والبقاء التى بناها على تجاربه فى محاربة قبائل التدييل فى روسيا، وعلى وجه التقريب كان الكشافة يرتدون الزى الكاكى مثل قوات رودس مع قبعة عريضة.

وانضم إلى أولاد الكشافة عدد من المنظمات الأخرى المخصصة لتدريب الشباب، وكانت فرقة الأولاد المؤسسة بشكل جيد والمدربة من أفراد الطبقة العاملة ومعهم مسدسات خشبية ويرتدون زيًا رسميًا يشمل القبعة التى يرتديها الجنود ويتلقون مبادئ الرجولة المسيحية والولاء للتاج والوطن.

وهناك هيئات أصغر كرست لإنشاء وبناء أبناء أصحاء فى الإمبراطورية بما فيهم منظمة ضد التدخين ومنظمة سانت جورج التى كانت تقوم بحملات ضد الكتابات الداعرة والأدب والفن الإباحى الذى كان مصدرًا لألم وكرب نفسيين لبادن بويل الذى حذر فرق الكشافة حرفيًا بأنها تضعف بذور الإمبراطورية وتؤدى إلى الضعف العام وحتى الجنون[٢٣].

وتتلقى أمهات المستقبل أصول وأفكار مبادئ الإمبراطورية، وكانت قد تأسست جمعية أصدقاء بنات كنيسة إنجلترا والتى كانت تضم فى عام ١٩١٣ مائتى ألف عضوة، وتهتم أساسًا بالنصح والتوجيه الأخلاقى للنساء العاملات من الفتيات فضلاً عن الهدوء والاحترام، وساعدت هذه الجمعية النساء غير المتزوجات على الهجرة، واحتوت كتيباتها دعاية استعمارية متفرقة[٢٤].

" إننى أنظر إلى الاستعمار على أنه وسيلة للقضاء على أنانية الاشتراكية " كما أعلنته السيدة المحترمة جويس (Mrs Joyec) سكرتيرة جمعية الهجرة فى عام ١٩١٣، وتبنت الجمعية إرشاد البنات. وهى جمعية فرعية من الحركة الكشافية ولها نفس القيم، وفى عام ١٩١٠ صدرت نشرة إرشادية لفتت الانتباه إلى الدور الذى يجب أن يلعبوه دفاعا عن الإمبراطورية[٢٥].

" يا بنات تخيلن أن المعركة قد وقعت فى أو حول مدينتكن أو قريتكن، ماذا ستفعلين؟ هل ستجلسين وتتضرعين لأبيكن وتصرخين أم تكونين شجاعة وتقومين بعمل شيء ما لمساعدة بناتكن وأخواتكن"[٢٦].

لم يكن معروفًا إلى أى حد فى المستقبل وصلت الدعاية الإمبريالية والوطنية فى عهد الملك إدوارد ولقد احتوت واعترف بها هؤلاء من جانب اليسار وهى عناصر خططت لخنق سياسات الطبقة، وهناك اتهامات بأن التأكيد القائم على مثل القيم العسكرية كالطاعة والواجب سوف يولد أمورًا عسكرية تكون صادقة إلى حد ما.

لقد ازداد الإعجاب بالخدمات طوال القرن التاسع عشر، ولكن العقيدة البريطانية للبطل المحارب قد وضعت تركيزًا عظيمًا على عقيدته المسيحية التى كانت مثل غوردون أساس شجاعته العليا ولا يتم احترام الرجل المحارب بسبب شجاعته وقوته الجسمانية، ولكن بسبب القدرة الأخلاقية الداخلية على التحمل والتى تجعله يؤدى واجبه.

ومثل سابقه كان الجندى فى العهد الإدواردى أساسا لإظهار الحضارة، وكان هذا كما تصوره فى تقارير الصحف الصغيرة والحملات التى كانت تحارب ما بين عام ١٩٠٢ وعام ١٩١٤ على الحدود المختلفة، والآن فإن جريدة الديلى ميل (Daily Mail) التى تصدر يوميًا فى ثلاثة أرباع

مليون نسخة، قد خصصت غلافا لعمليات فى الصومال خلال عامى ١٩٠٢ و١٩٠٣.

وغزو التبت أيضا عام ١٩٠٣ وكانت الصيغة القديمة تتطور وبها يتم عرض أعداد الإمبراطورية على أنهم متوحشون وشجعان يعملون فى صراع لا جدوى منه ضد الحضارة، وأكدت جريدة الميل (The Mail) فى تقاريرها عن الحوادث أن الملا المجنون محمد أحمد الذى اقترب من تحقيق النصر فى معركة إيرجو (Erigo) فى الصومال فى عام ١٩٠٢ يوجد دليل يؤكد جنونه الطبى (الإكلينيكى).

وإذا افترضنا فقط أن مجنونًا يستطيع أن يهزم جيشًا بريطانيًا، وأن الاستعمار فى نظر القساوسة الكبار وهم يوافقون على محاولات توسيع المعرفة عند الجمهور عن الإمبراطورية كانوا دائما يتنبأون عن الثائر المفاجئ والوطنية الشعبية التى تدفعها وتقويها الانتصارات فى الحروب الاستعمارية، ومثل كل من تشامبرلين وملنر فإن الغلو فى الوطنية أذهلت الجمهور بالمظاهر الأكثر جدية، لكن أقل رومانسية عن الإمبراطورية، وكان هذا تذكارًا غير مريح لتقلب الرأى العام، كما كان هذا نكسة للديمقراطية بأن الجمهور على نطاق واسع لا يمكن إغراؤه بالتركيز على أيه قضية لفترة طويلة، ولهذا السبب فإن مثل هذه الشخصيات مثل ملنر كانت مهتمة بالاتجاه نحو العقيدة الإمبريالية ضد هؤلاء الذين سيصبحون حكام بريطانيا والإمبريالية فى المستقبل(٢٧).

وفى جنوب أفريقيا جمع ميلنر حوله مجموعة من الشباب الاستعماريين المتحمسين والذين عملوا معه فى الفترة ما بين (١٩٠٠ - ١٩٠٦) لإعادة بناء الدولة، وقد عرفت هذه المجموعة كروضة أطفال وتضم هذه المجموعة من الموهوبين الصحفيين والروائى المستقبلى جون بوشان وفيليب كير وليونيل كيرتس، وكلهم كانوا على استعداد لتكريس حياتهم لتطوير الاستعمار.

وانضم إليهم ليو أميرى وكونوا نواة لمائدة مستديرة (Round Table) لجماعة الضغط الاستعمارى والتى تأسست فى عام ١٩١٠ وكانت تمولها جزئيًا مؤسسة رودس (Rhodes Trust) وكان هدف هذه المائدة التأثير على هؤلاء الذين يشكلون الرأى العام فى إنجلترا والإمبراطورية من خلال مقالات ومذكرات صحفية ومجموعات نقاش، والاتصالات مع الأفراد.

وكان هدف المائدة المستديرة تكوين اتحاد فيدرالى استعمارى، ويعتقد أعضاؤه أن بريطانيا لن تنتعش اقتصاديًا وتشكل قوة كونية إلا إذا صارت قوة مسيطرة داخل إمبراطورية مترابطة تماما، وكانوا يخشون أن تضيع هذه القضية الكبرى بسهولة وسط نقاش عام حول التعريفة الجمركية وسعر رغيف الخبز[٢٨].

ومن الصعب الحكم على ما حققته المائدة المستديرة على الأقل قبل عام ١٩١٤، ولقد استقبل زعماء الدومنيون ليونيل كيرتس السفير المتجول للمائدة المستديرة استقبالا حارا، لكن هذه الرسالة لن تذيب الجليد معهم، وكما هى الحال فى المؤتمرات الاستعمارية خططوا لمناورات لضمان وحدة إمبريالية رسمية مع أجهزة الطبقة المتوسطة البريطانية، وهناك أيضا خوف واضح أنه إذا تشكل اتحاد كونفدرالى فإن دول الدومنيون سوف تجد نفسها منعزلة يقتصر دورها السلبى مثل الشركاء الصغار.

وهكذا فإنه بينما كانت دول الدومنيون مخلصة فى ارتباطها العاطفى نحو بريطانيا، فقد ظلت ضعيفة جدًا وتعوزها الحماسة نحو تشكيل روابط أكثر قوة.

ومع عام ١٩١٤ كان الاتحاد الإمبريالى أبعد ما يكون من قبل، وكان هناك تقدم أعظم فى إحساس الرأى العام والطبقة العاملة بشكل خاص أكثر

إدراكا للإمبراطورية، ومن المستحيل أن نعرف إلى أى مدى كانت الكلمة الأخيرة لهذه المنظمات التى تبنت أشكالا مختلفة من الوطنية والاستعمار، وأحست بالوعى القومى، وصار الكثيرون ممن سمعوهم جنودًا عاديين فى جيش المتطوعين الذى تشكل ما بين (١٩١٤ - ١٩١٦) للحرب فى الجبهة الغربية، وبعدئذ كما فى حرب البوير ولم تصل شعارات الوطنية الشعبية إلى خط القتال، كما عكست الرسائل التى وصلت إلى الدولة الأم من جنود الطبقة العاملة، حيث كانت الوطنية القوية التى ألهبتها الصحافة والمتطوعون أو الدعاية الإمبريالية لفترة ما قبل الحرب، وكان الذى كشفوه هو الإحساس بالواجب، والإصرار على المواظبة والولاء الشديد للرفقاء والوحدة الوطنية.

(١١)

الانضمام إلى صف القوات المحاربة

الإمبراطورية والحرب القادمة

كان من الواضح فى الكثير من الدعاية الإمبريالية فى عصر الملك إدوارد وجود إشارات بأن حربًا كبرى وشيكة الحدوث بل وحتى مرحب بها، وحث بادن باويل أبناء الكشافة أن يكونوا مستعدين، وفى نشرة صدرت فى عام ١٩١١ ذكرت جمعية الخدمة الوطنية (National Service League) الصبى البريطانى بأنه هو وحده يقف بين أخيه وأخته ومحبوبته وصديقته وسوء السمعة للغزو الأجنبى، وإن أى أمراض أو إعياء جسمانى أو أخلاقى ربما يجده الوطنيون الشبان وهم يتلقون السلاح كل هذا قد زال بعيدًا نتيجة التأكيدات العضوية أن الحرب ليست قتلاً كما يتخيل البعض، فالحرب تضحية وهى روح المسيحية، وأن القتال والقتل ليسا فى أحوال الحرب لكنها حوادث[١].

إن التأمل فى أسباب وربما الحرب فى المستقبل قد أصبح ذات أصول أدبية وشعبية راسخة على أعلى مستوى فى عام ١٩٠٠، وشهدت السنوات الأربع عشرة ارتفاعًا منتظمًا فى حصيلة التقارير شبه الأدبية عن حروب بين بريطانيا وواحدة أو أكثر من القوى الكبرى، كما أن طلبًا مثل هذا النوع من الخيال انعكاسًا فى جزء منه للحالة القومية السائدة عن عدم التأكد، وفى جزء آخر الإعجاب بالتكنولوجيا الحديثة وخصوصًا الأمور الهوائية التى كانت قد

تطورت لأجل الأعراف العسكرية، وتحولت هذه المشاهد عن الحروب التالية بعد عام ١٩٠٠ وكان وليم لوكى (William Le Queuy) كاتبًا يعمل لقاء أجر محدد والذى تخصص فى هذا النوع من الأدب قد اتخذ من فرنسا وروسيا أعداء بريطانيا فى روايته الحرب العظمى (The Great War) فى عام ١٨٩٧، بينما كانت ألمانيا العدو فى أحسن رواياته مبيعا عام ١٩٠٦ "الغزو لعام ١٩٠٠: Invasion of 1910" والتى نشرتها بشكل مسلسل الديلى ميل (Daily Mail) وصاحبها لورد نوشكلف فى عداء عاطفى ضد ألمانيا، وكان يبحث دائمًا عن فرصة لإيقاظ بنى وطنه على الخطر فى البحر الشمالى، وبعد جولة فى ألمانيا والتى زار فيها مدنها الصناعية الناشئة لاحظ أن " كل واحدة من مداخن المصانع الجديدة عبارة عن بندقية موجهة إلى إنجلترا وفى كثير من الأحوال قوية جدًا(٢).

لقد شجع هذا النوع من مثيرى الذعر إثارة الحروب من ١٩٠٦، وما بعدها وكانت الدولة مشغولة فى تلك الموجة من الولع الشديد للتجسس مع شائعات بوجود جيش تحت الأرض من عملاء ألمانيا السريين وتقارير مضحكة عن طيران ليلى للزيفيين (Zeppelin) فوق بوركشير وحتى الحكومة أصبحت شديدة العصبية، وأدخلت قانونا لم يعبر بشكل جيد عن قانون الأسرار الرسمية (Official Secrets Act) فى عام ١٩١٢.

وقد زاد من هذه الإثارة جماعة التجنيد الإجبارى التى استغلت بحرص هذا الخوف العميق من الغزو المناخى الذى كان قد ترسخ فى النفسية الوطنية وكان يظهر فجأة على السطح بشكل منقطع طوال القرن الماضى مع مخاوف الغزو ونداءات مصاحبة من أجل الحرص القومى وإعادة التسلح، ومع هذا كان هناك فرق مهم بين ذعر الغزو فى العصر الفيكتورى وأوائل القرن العشرين وهو ما جعل من الأخير الأكثر إقناعا ذلك الأسطول الألمانى سريع النمو.

وقد حدد القانون البحرى الألمانى لعام ١٨٩٨ وملحقاته برنامجا لبناء السفن والتى عند اكتمالها فى عام ١٩٢٠، سوف تزود ألمانيا بأسطول من خمس وأربعين مقاتلة حربية واثنين وثلاثين طرادا، وقد أعيد هذا العرض فى عام ١٩١٤ لكى يزود ألمانيا بإحدى وستين مقاتلة مع عام ١٩٢٨، وكان الذى حث على هذا المشروع ضابط أمريكى بحرى يدعى الكابتن ألفريد ماهان (Alfred Mahan) حيث أقنعته تحاليل القوة البحرية البريطانية فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بأنه إذا امتلكت ألمانيا مثل بريطانيا أسطولاً ضخمًا فإن ألمانيا ستصبح قوة عالمية على نفس المستوى إن لم تكن ذات نفوذ أكبر، وفى البداية اعتبر وليم الثانى الأسطول الألمانى ضرورة لتوازن القوة مع كل من فرنسا وروسيا، ولكن كان من الواضح تمامًا له أنه سيكون خادما للرايخ الألمانى الجديد (Weltpolitik)[٣].

وإذا كان حسب رغبته ومستشاريه فإن ألمانيا تستطيع الحصول على مستعمرات وقوة دولية تتكافأ مع ثروتها النامية، وتكون مستعدة لتحدى بريطانيا بنفس الشروط.

وقد نقلت هذه النية فى المقدمة الحربية لقانون الملاحة لعام ١٩٠٠ والذى أصر أنه يجب أن يكون لألمانيا أسطولاً بنفس القوة إذا حدثت حرب ضد جند أقوى سلطة بحرية، وأن يتضمن أية أخطار تهدد سيادة هذه القوة. وربما لا يستطيع الأسطول الألمانى هزيمة الأسطول البريطانى، ولكن يمكن أن يحدث له أضرارًا جسيمة ومميتة. وكان هناك تهديد أكبر فى انتشار الجند بشكل مخطط فى كل المقاتلات الألمانية الجديدة سوى مجموعة قليلة مركزة فى كيل (Kiel) ولهمشاخن (Wilhelmshavcon)، وكما لاحظ أحد المعلقين البريطانيين البحريين فى عام ١٩٠٥ أن بحر الشمال (North Sea) قد أصبح فعلاً حذا إمبرياليا ومعرضا للهجوم بشكل كبير[٤].

وقد واجهت الحكومة مشكلات ثلاث بعد إنشاء الأسطول الألماني ووجوده على بعد أربعمائة ميل من الساحل البريطاني، وإمكانية استخدامه ليكون هراوة (عصا) لاغتصاب امتيازات ما وراء البحار، وكانت المشكلتان الأولى والثانية عملية وكان لابد من وضع سفن جديدة للحفاظ على مزايا إعداد الأسطول الملكي وأن يعاد توزيع الأسطول الموجود لإمداد الدفاع المحلي في الوطن بمقاتلات حربية ويتطلب استدعاء رجال الحرب من مناطق ما وراء البحار فحصًا دقيقًا لعلاقات بريطانيا مع تلك القوى التي ربما يستخدم ضدها وخصوصًا فرنسا وروسيا، على هذا يسير إعداد التسليح والفحص الدقيق فيما يصبح البحث عن الأمن العالمي واسع النطاق(٥).

وقد تم افتتاح هذه المرحلة الجديدة في السياسة البريطانية مع التحالف الياباني في عام ١٩٠٢، والذي مهد الطريق لتخفيض أسطول الشرق الأقصى.

وبدأت إعادة بناء الأسطول الأساسي وتحديثه في عام ١٩٠٤ تحت إشراف سيد البحر الأول الأدميرال اللورد فيشر (Fisher) وكان رجلا مولعا بالخصام وانفعاليًا وفي عقد السبعين يدرك تماما تفوقه الفكري على زملائه من رجال الجيش، وكان عادة يمتلك احتقارا متجددا لكل أنماط الرياضة والألعاب المنظمة، وفي مرتين عام ١٩٠٤ وعام ١٩٠٨ اقترح فيشر القضاء على التهديد الألماني نهائيًا بنفس الخدعة الحربية القاسية التي تم استخدامها في عام ١٨٠٦ ضد الأسطول الدنماركي، ويشكل أحدث الأسطول الياباني ضد الروس، وهو هجوم وقائي " يا الهي – فيشر – لابد أنك مجنون " كان هذا رد فعل إدوارد السابع لأول اقتراح لكن نشرته الصحافة وأحدثت تركيزًا بين ضباط الأسطول الألماني الذين عرفوا أن أسطولهم لن يستطيع الدفاع عن نفسه ضد مثل هذا الهجوم.

ولم يكن البريطانيون وحدهم مقبلين على هذا العمل، لقد كان الإسهام الأكبر لفيشر هو إعادة بناء الأسطول الملكى وذلك من خلال بناء وتصميم نمط جديد من المقاتلات الحربية (H M S) دريدنووط (Dreadnought) والتى بدأ البناء فيها واستغرق ذلك أحد عشر شهرًا وأكتملت فى اكتوبر ١٩٠٦ وفاقت على كل المقاتلات الأخرى وهى تحمل ١٧,٠٠٩ وتحمل بنادق عشرة فى إثنتى عشرة بوصة، وتستطيع الإبحار بسرعة أكثر من عشرين عقدة، وفى عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ تم بناء ثلاث سفن أخرى مع طرادين من ماركة (H M S Inflexible و Indonitable) وكلاهما أيضا جديدة وأسرع من المقاتلات التقليدية ويرجع الفضل للأسلحة الأخف ولكن مسلحة ببنادق ثماني فى إثنى عشرة بوصة.

ولقد شكلت هذه المقاتلات الحربية ثورة فى بناء السفن البحرية وأعطت حافزًا قويا للسباق بين بريطانيا وألمانيا، وفى اكتوبر ١٩٠٦ عندما بدأت أول مقاتلة محاولاتها، أمر الأسطول الألمانى ببناء سفينة حربية وستفالين (Westfalen) وباستبعاد كل المقاتلات القديمة صارت بريطانيا تتفوق على ألمانيا فى هذا النوع من المقاتلات، ومع هذا أعطت سفينة دريدنوط وتوابعها لبريطانيا بداية تفوق فيما يسمى الصراع الجديد مع ألمانيا، لكن الألمان يمتلكون الإرادة والتكنولوجيا والأهم من كل هذا الرأسمال النقدى يقلل الفجوة بين القوتين، كما أدرك مخططو الأسطول البحرى الألمانى فإن السباق البحرى البريطانى الألمانى ماراثون اقتصادى مثل مشروع حرب النجوم الأمريكى لثمانينيات القرن العشرين، والتى تحقق النصر فيها الذى يتابع بشكل أطول[٦].

وكانت كل سفينة من دريدنوت (Drednought class) مقاتلة حربية من الطراز الأول وتم بناؤها ما بين عام ١٩٠٦ وعام ١٩١٤ وضمت إلى أساطيل القتال الإنجليزى والأساطيل الداخلية والتى كانت الخط الأول الدفاعى للإمبراطوريه، ومنذ عام ١٩٠٤ كانت هناك إعادة توزيع تدريجى للأسطول، وقام فيشر بتنظيمها، وكانت تضم أكثر من مائة وخمسين قاربا حربيا ومراكب شراعية وحيدة الصارى، وقوارب صغيرة من أجل حماية الإمبراطورية الرسمية وغير الرسمية، وكانت بدرجة كافية لإثارة الرعب ضد القراصنة الصينيين أو تجار الرقيق العرب، ولكنها لم تلعب دورًا مهمًا فى حرب حديثة، وكان إدخال اللاسلكى الحديث يعنى أن السفن الخفيفة الصغيرة التى تعمل فى المحطات الأجنبية يمكن استدعاؤها بسرعة إلى أماكن الاضطرابات، وقد تم تخفيض عدد المقاتلات المصاحبة للسفن فيما وراء البحار بشكل تدريجى وبحرص شديد، وفى يونيه عام ١٩٠٥ تم سحب السفن الخمس التى كانت تعمل فى المحيط الهادى بعد تدمير الأسطول الروسى فى معركة تشوشيما (Tishushima)، وقعت معاهدة بالتحالف مع اليابان تعهد كل طرف على مساعدة الآخر فى حالة هجوم من أى من القوتين الأخريين للمصالح البريطانية فى البحر المتوسط، وعلى هذا تم الإبقاء على ثمانى مقاتلات هناك، ودعمت بعد عام ١٩١٢ بسفينتين قديمتين لكى تراقبا الطراز الألمانى جيوبين (Goeben) وكان وجود مثل هذه السفن الحديثة مطلوبًا فى المياه الإقليمية المحلية، ولكن كان هناك تفكير بأن سحبها ربما يؤثر بشكل مربك فى مصر والهند(٧).

ورغم هذا فإن فيشر، غير بشكل كامل توزيع الأسطول البريطانى فى الفترة ما بين (١٩٠٤ - ١٩١٠)، ففى عام ١٨٩٦ كان هناك أربع وسبعون سفينة موجودة فى المياه الإقليمية و ١٤٢ سفينة فيما وراء البحار وبعد أربعة عشر عامًا وصل عددها لـ ٤٨٠ فى الداخل و ٨٣ فى الخارج.

ولقد سهل مثل هذا التغيير الشامل فى انتشار جند الأسطول الملكى ذلك النهج الجديد فى السياسة الخارجية البريطانية، وفى أبريل عام ١٩٠٤ وافقت بريطانيا على الاتفاق الودى مع فرنسا وهى مجموعة من الاتفاقــات انهــت عشرين عامًا من الصراع حول الحدود الاستعمارية ومجالات النفوذ، والأهم حسب شروط الأمن الاستعمارى هو اعتــراف فرنـــسا بمكانــــة بريطانيـــا فى مصر وهو امتياز مقابل اعتراف بريطانيـــا بالـــسيادة الفرنـــسية العليـــا فى مراكش، وقد صار هذا الوفاق محل اختبار فى عام ١٩٠٥ وعام ١٩١١ عندما وقفت بريطانيا إلى جانب فرنسا فى مقاومة التوسع الألمانى فى هـــذه المنطقة، ولم يكن من السهل التوصل إلى تفاهم مماثل مـــع روســـيا رغـــم التشجيع الفرنسى، وكان هناك شك عميـــق مـــن التوســـع الروســـى بـــين الدبلوماسيين البريطانيين ورجال الإستراتيجية وأيضا مخاوف مـــن هجـــوم روسى على الهند، وكان هذا أقوى مما كان، وكان من الممكن احتواء هـــذا الموقف لو تم إقناع اليابانيين بإعارة للدفاع عـــن أفغانـــستان أو العمليـــات المتفرقة فى فارس، وهى مقترحات قدمت إلى وفود اليابان خـــلال تعـــديل شروط التحالف فى عام ١٩٠٥، وكان رد الفعل مخيبًا للآمال، ومنذ أن كانت اليابان تستعد لحرب روسيا فى منشوريا وسيبيريا لم تكن لـــدى اليابـــانيين الرغبة للدفاع عن الإمبراطوريـــة البريطانية(٨).

ودفعت هذه الواقعة بريطانيا لفتح مباحثات مباشرة مع روسيا، وكانت النتيجة معاهدة روسية بريطانية فى أغسطس عام ١٩٠٧ أنهت ثمانين عامًا من الحرب الباردة فى الشرق الأوسط وآسيا، ووعدت روسيا باحترام وحدة الهند ووافقت القوتان على تقسيم فارس إلى مجالات نفوذ، حيـــث حـــصلت بريطانيا على الجزء الجنوبى الشرقى من الدولة التى تحـــد الهنـــد والجـــزء الجنوبى الذى يقع على شواطئ الخليج الفارسى، وتم استخلاص هذه الشروط

من روسيا فى وقت كانت تسترد فيه قوتها إثر هزيمتها من اليابان والثورة التى تلت ذلك فى عامى ١٩٠٥ و١٩٠٦ وعندما اكتمل برنامج إعادة التسليح وتم استعادة الثقة القومية صارت هناك دلالات واضحة أن وزراء القيصر يعيدون نشاط السياسات التوسعية القديمة، وكان هناك دليل على الاهتمام الروسى الجديد فى مثل هذه المناطق الحساسة كالتبت وتركستان الصينية[٩].

وكانت هناك أيضا مؤامرة روسية داخل فارس توحى بأن حكومتها لم تعد ملتزمة باتفاقية ١٩٠٧[١٠].

وظلت الشكوك حول روسيا قوية فى الدوائر الرسمية البريطانية وتم وضع خطة فى عام ١٩١٢ لاحتمال احتلال الإقليم التركى فى ميسوبوناميا (العراق) وهى ضمن اقتراح لبناء خط سكة حديد من البصرة إلى الموصل والذى سيجعل من السهل شن هجوم مضاد فى القوقاز إذا تحركت روسيا ضد الهند[١١].

لقد استفادت بريطانيا نسبيًا من الوفاق مع فرنسا وروسيا وحتى إذا كانت النية الحسنة لروسيا هشة.

وجعل التخلص من الصراعات القديمة الحكومات البريطانية المتعاقبه حرة لترتيب إستراتيجياتها الشاملة لمواجهة تهديد الأسطول الألمانى فى بحر الشمال، وقد تحقق ذلك دون الدخول فى اتفاق يلزم الدولة بشن حرب إذا هوجمت كل من فرنسا وروسيا وفى أواخر عام ١٩١٢ كان رجال الإستراتيجية يتأملون بجدية إمكانية شن حرب ضد الأخيرة فى مناسبات معينة، ولم تقف وزارة الحرب ضد الرأى من الحياد فى المستقبل فى صراع أوربى بين القوى الكبرى، والذى تم طلبه فى يناير عام ١٩٠٦، ووافقت الوزارة على فتح حوار مكشوف مع الفريق الفرنسى حول التعاون فى حالة حدوث حرب مع ألمانيا.

إن أحد تفسيرات هذا السر هو ذلك الخوف من أن يعيد الرأى العام رد الفعل بشكل غير مقبول نحو خطط الحرب التى تنتهجها حكومة تعلن باستمرار أن مبدأ وهدف سياستها الخارجية هو الحفاظ على السلام، ويرى المدافعون عن هذا الترتيب بشكل خاص أن مساعدة فرنسا سوف تحافظ على توازن القوى فى القارة، لكن ربما لا يقتنع الرأى العام أن التجريد الدبلوماسى يساوى الموت من أجله، ولبعض الوقت لاحظ الوزراء والدبلوماسيون وكبار رجال الجيش وضباط الأسطول أنه فى الوقت الذى يثار فيه الرأى العام لسخط كبير على غزو مزيف وترويع جاسوسى، صار مصدر إزعاج بسبب أزمات فى المناطق البعيدة مثل البلقان ومراكش، وبالنسبة للبعض كان هذا الشعور بعدم المبالاة خطيرًا ففى عام ١٩٠٩ اشتكى الكابتن دافيد بيتى (David Beaty) الذى صار الأدميرال للأسطول باسم اللورد بيتى إلى زوجته بأن الجمهور الكسول مثل الأعمى فى إنجلترا ومثلما كانوا فى روسيا قبل الحرب الروسية اليابانية(١٢).

ولم يكن صحيحا كلية فى تقييمه أن السباق البريطانى الألمانى قريب من القضايا الداخلية والتى أثارت من حين لآخر اهتمام قطاعات واسعة من الرأى العام، ويرجع هذا إلى الدعاية من جانب اللوبى البحرى والصحفيين التابعين لهم، وكان يسير فى هذا الصراع سياسة الأحرار والمحافظين وعندما وصل حزب الأحرار إلى السلطة فى يناير ١٩٠٦ تم تدشين أربع سفن سنويا، والتى كان قد وضعها المسئول السابق له، وفى أكتوبر ١٩٠٧ كانت بريطانيا تخطط للبقاء بشكل مناسب فى المقدمة لهذه السفن السبع وثلاث مقاتلات احتياطية، بينما كانت ألمانيا ولا تزال تكمل أول كمية من هذه السفن الحربية الجديدة(١٣).

ورغم هذا ظلت الدولة قلقة وفى عام ١٩٠٨ ارتفعت عدد السفن السنوية إلى ست سفن من الدردنون، وفى العام التالى أشارت تقارير المخابرات إلى مجموعة كروبس (Krwpp) التى تزيد الإنتاج من النيكل، وقد فهم هذا خطأ على أنه دليل للزيادة السريعة فى بناء السفن الألمانية المحاربة " نريد ثمانيه سفن ولا نستطيع الانتظار " قالها اللوبى البحرى ورغم القلق حول التكلفة فقد استسلمت وزارة أسكويت (Asquith)، لقد دفعت حكومة نيوزيلاند تكاليف إحدى المقاتلات الحربية الجديدة فى عام ١٩٠٩ " نيوزيلاند، بينما دفعت أستراليا تكاليف الثانية (HMS Austrlia) والتى كانت سفينة المقدمة فى الأسطول البحرى الجديد، وقد مثلت هذه الإشارات نقدًا لرجال السياسة والدبلوماسيين الذى كانوا لبعض السنوات يحاولون إقناع حكومات الدومنيون أنه من صالحهم المشاركة بجدية فى استخدام الإستراتيجية الإمبريالية الجديدة.

ولقد اعترفت على الأقل الحكومة البريطانية بالإجراءات التى تقوم بها الحكومة من أجل الحفاظ على الدفاع عن أرض الوطن ضد الأسطول الألمانى، وكل هذا فى صالح الدومنيون، ولم يقتنع بذلك السياسيون فى الدومنيون أمثال السير وليم لورير .(Laurier) الذى صار رئيسًا للوزراء فى كندا حتى عام ١٩١١، واعتقد أن وطنه سيظل آمنا من أى هجوم خارجى بسبب الأسطول الملكى ومبدأ مونرو الذى ألزمت فيه الولايات المتحدة نفسها بمعارضة أى تدخل أجنبى فى أى جزء من الأمريكتين، وعلى هذا ليس على الكنديين المشاركة فى دفع إعانات دفاع لا يحتاجون إليها(١٤).

لقد عارضت أستراليا ونيوزيلاند على أسس أخرى، كما طلب أندرو فيشو رئيس وزراء أستراليا فى أوائل عام ١٩٠٩، عقد مؤتمر استعمارى للدفاع " علينا أن ننظر إلى المحيط الهادى على أنه مصدر وعيد وتهديد إذا كان هناك أى خطر".

ولفترة من الزمن كان كل من الأستراليين والنيوزيلانديين يتطلعون بعصبية شمالاً نحو اليابان، وكما يرى الكنديون يتطلعون غربًا، حيث ألف مليون آسيوى ويتطلعون جنوبًا بعيون متطلعه[٥٠].

وقد أصبحت هذه الصورة من قلق الجماهير حول مزارع الشرق الأقصى عبر المحيط الأطلسى، وفى النهاية تسيطر على الأماكن الخالية فى أستراليا، وهو موجودة فى وعى الأستراليين والنيوزيلانديين، ولقد أجبرتهم على تشييد حواجز ضد الهجرات اليابانية والصينية والهندية وجعلتهم لا يثقون فى اليابان حليف بريطانيا[٥١].

وكان هذا دفاعا عن سياسة أستراليا البيضاء بقدر ما هو دفاع عن الإمبراطورية والتى تكمن خلف قوانين الدفاع لعامى ١٩٠٣ و ١٩٠٤ والتى جعلت كل الذكور الأستراليين ما بين سن الثمانى عشر عامًا والستين مطلوبين للخدمة العسكرية، كما أن خلفاءه من الشباب لعامى ١٩١١ و١٩١٢ ما بين سن الثمانى عشرة والخامسة والعشرين كانوا مجبرين على قضاء ثمانية أيام فى التدريب العسكرى كل عام، وبنفس الطريقة فإن قرار أستراليا بإنشاء أسطولها الخاص فى عام ١٩٠٩ (والذى كانت له ميزانية سنوية تزيد على مليونى جنيه) قد اتخذ فى ضوء التهديد اليابانى الذى لا يزال خيالاً وبنفس الطريقة تم الحث على إدخال نيوزيلاند فى عام ١٩٠٩ التدريب العسكرى الإجبارى، ولم تضع كل من أستراليا ونيوزيلاند ثقة كبيرة فى التحالف البريطانى مع اليابان لكن وضعت كل النيات لحماية مصالح بريطانيا فى المحيط الهادى فى أيدى الأسطول اليابانى الإمبريالى، ولقد ثار نقاش فى أنه فى حالة أن تصبح بريطانيا متورطة فى حرب ضد ألمانيا فإن اليابان ستنتهز الفرصة للتقدم نحو أستراليا.

ومن الممكن أن تتخذ كولومبيا البريطانية التى تضم بالفعل مجتمعا من المهاجرين اليابانيين، وعلى هذا فإنه من الضرورى للحكومة البريطانية أن تؤكد لكل من أستراليا ونيوزيلاند أنه لابد من إلزام أنفسهم بإستراتيجية عظيمة قائمة على دفاع بريطانيا من الأسطول الألمانى، وأنهم لن يتركوا أنفسهم عرضة لليابان، وفى نفس الوقت فإن بريطانيا لن تترك اليابان دون إضعاف أسطولها فى المياه الإقليمية.

يعد التعاون الوثيق بين الدومنيون والإستراتيجية البريطانية العليا إذا وجدت بريطانيا نفسها تحارب فى معركة برية فإنها تعتمد بقوة على القوات البشرية من الدومنيون حيث إنه مع عام ١٩١٤ سكن عشرون مليونا من سكان الإمبراطورية الأقوياء والبالغ عددهم خمسة وستين مليونا من السكان البيض، فى كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلاند، ولهذا السبب وحده كان على حكومة أسكويث أن تهدئ أى شكوك فى الدومنيون من المهتمين بأمنهم الخاص وإقناعهم بضم قواتهم المسلحة إلى ذويهم من البريطانيين.

وكانت الهيئة الإمبريالية العامة (Imperial General Staff) التى قد تأسست فى عام ١٩٠٧، وفى عام ١٩٠٩ تم وضع ترتيبات مع البحرية لتزويد الدفاع البحرى عن الدومنيون، وعليه يجب أن تضع بريطانيا فى الاعتبار مخاوف كل من أستراليا ونيوزيلاند من الخيال الجامح ومن "الخطر الأصفر" وتقديم وحدات لأسطول المحيط الهادى المشترك، ولم يكن هذا كافيا، وعلى هذا طلب السير جوزيف وارد (Joseph Ward) رئيس وزراء نيوزيلاند وقد حصل فعلاً على تأكيدات بمساعدات ملموسة فى الأيام القادمة، (اعتقد أنها ستصل) عندما تصبح الأجناس الشرقية مشكلة وطن لأستراليا وعندما ترتبط قوة عظمى الآن بإنجلترا، وربما تنفصل عنها[١٦].

وزالت احتمالات حدوث مثل هذا الطارئ فى عام ١٩١١ عندما جددت بريطانيا تحالفها مع اليابان لمدة عشر سنوات.

شهد مؤتمر عام ١٩١١ حول الدفاع الاستعمارى أعظم اختراق فى الحصول على مشاركة الدومنيون الوثيقة فى الإستراتيجية البريطانية الكبرى وتمسك السير إدوارد جراى (Edward Grey) بالمرحلة الوسطى، وفى حديث بلاغى مؤثر ابتعد عن الأمور السابقة وحدد السياسة الخارجية البريطانية وعرض الاحتمالات التى يمكن أن تحدث فى المستقبل، وذكر أن بريطانيا يمكن أن تورط نفسها فى حرب أوربية إذا تبنت إحدى القوى ما سماه "السياسة النابليونية" أى فرض السيطرة على كل القارة بالقوة أو التهديد والوعيد، وفى مثل هذه الحالة تتعرض القوة البحرية البريطانية للخطر حيث إن الدولة المسيطرة يمكن أن تواجه بريطانيا بأساطيل خمسة أضعاف الدول الأخرى، وانتهى بالقول " وطالما أن حفظ القوة البحرية والحفاظ والسيطرة على المواصلات البحرية هو الدفاع الأساسى لسياستنا فى أوربا، فإنه من الواضح أن يكون هذا اهتمامًا مشتركًا بيننا فى الداخل وكل الدومنيون[١٧].

ووافق جمهور المستمعين لجراى (Grey) على أنه بدون القوة البحرية البريطانية لن تستطيع دول الدومنيون البقاء على قيد الحياة بصورتها الحالية، ولهذا السبب فإنه أصبح من الضرورى أن يجعلوا هذا الأمر قضية مشتركة مع بريطانيا إذا حدثت الظروف التى وضعها جراى، لقد أكد جراى لمستمعيه أن بريطانيا ليس عندها أى تفاهم خفى أو سرى مع أى من القوى الأخرى، ولم يسمع ممثلو الدومنيون شيئًا عن تخطيط السنوات الخمس الماضية لإرسال قوة خاصة إلى فرنسا، ولم يسمعوا أيضا أى شىء فى المستقبل لأن أعضاء الدومنيون فى اللجنة الخاصة بالدفاع الإمبراطورى كانوا ممنوعين من مناقشة الأمور العسكرية والبحرية التى لا تعنى دول الدومنيون، وحتى

لو أنهم لا يعرفون شيئًا عن الالتزام البريطانى المؤقت لمحاربة الألمان فـــى شمال شرق فرنسا فإن زعماء الدومنيون أصبحوا مقتنعـــين أنهـــم لابـــد أن يساعدوا بريطانيا عندما تكون قوتها البحرية مهددة، وكما أوضح جراى أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فإنهم يوقعون الضرر بمصالح كل دولة من الدومنيون[١٨].

لقد وضعت حكومة أسكويث (Asquith) دول الدومنيون داخل الحلبـــة وذلك باعتبار أن قضية القوة البحرية هى التى تقرر عما إذا كانت بريطانيـــا ستدخل فى صراع أوربى من عدمه، وعلى هذا فإن بريطانيـــا تـــستطيع أن تأخذ من موارد الدومنيون القوة البشرية التى ستكون حيوية ومهمة إذا طال أمد الحرب، وتشكك عند قليل من الحاضرين فى المـــؤتمر فـــى أن تكـــون ألمانيا هى القـــوة التى تتوقع حربا حسب التوقعات النابليونية، وأعلن لويس جوتا (Botha) رئيس وزراء جنوب أفريقيا بعد أن تناول طعام الإفطار مـــع دافيد ليود جورج فى الصباح وبعد سماع خطاب جراى، أنـــه مـــا إن يبـــدأ الصراع مباشرة فإنه سيحتل غرب أفريقيا الألمانية بأربعين ألف رجل[١٩].

وكان قد تم إقناع كل من أستراليا ونيوزيلاند بأن تتخذا إجراءً ســـريعا ضد المستعمرات الألمانية فى المحيط الهادى ما إن تبدأ الحرب، رغم أنهـــا تحتاج تشجيعًا بسيطا.

ولقد تم استدعاء المؤتمر الإمبريالى عام ١٩١١ على أســـاس تعميـــق الكراهية الألمانية البريطانية، وظل الأسطول الألمانى المـــصدر الرئيـــسى للصراع، لكن كانت هناك أسباب أكبر للعداء، وكانت هذه تختص بالقـــضية التى ستقوم ألمانيا بتنفيذها بعد ذلك والتى يمكن تلخيصها فى مقالة ظهـــرت فى الصحيفة الاستعمارية للجناح اليمينى بعنوان "القرن التاسع عـــشر ومـــا بعده" فى عام ١٩١٢.

"هل تضيع دولة مثل ألمانيا بهذه القوة الدافعة التى حققتها بهذه الدرجة العالية داخلها وبكل غريزة من الوطنية الحية فى قلبها برغبتها أمل العظمة القومية وأمل المكسب الإقليمي"[٢٠].

ويكمن زيادة الإمبراطورية الألمانية وامتداد النفوذ السياسى الألمانى فى قلب سياسة (Weltpolitik) ولكن كما ادعى القيصر ووزراؤه أن هذا يعنى أى نقصان من الإمبراطوريات البريطانية الرسمية وغير الرسمية، وطالبت ألمانيا بما اعتبرته التوزيع العادل من أسلاب هذه الإمبراطوريات والتى يبدو أنها على حافة الانهيار والحل وتعنى الصينية والتركية والبرتغالية.

وكانت بريطانيا مستعدة لأن تسمع بأذن عاطفية حريصة لمطالب الألمان للتغيير فى الوضع الدولى الحالى رغم أن الوزراء والدبلوماسيين الذين كانوا يتعاطفون بشدة مع ألمانيا، قد دخلوا فى مخاطرة الخزى والعار للرأى العام، ومع هذا تم التوصل إلى وفاق سرى حول المستعمرات البرتغالية مع عام ١٩١٣ وبعد جدال كبير تمت الموافقة على خط سكة حديد بغداد – برلين – القسطنطينية فى عام ١٩١٤، وكانت بريطانيا شريكا فى هذا المشروع الذى كان مخططًا له أساسا فتح موارد أودية دجلة والفرات لكنها انسحبت فى عام ١٩٠٣ على أساس أن نصيبها من الاستثمار كان ضئيلاً جدا، وقد أزعج الخط الذى وضعه كيرزون بعد ذلك على أنه خنجر موجه نحو الهند وحكومة دلهى، ولم تهدأ أعصابها بملاحظة القيصر التى تمت عام ١٩٠٧، بأننا لا نريد بشكل مؤكد ألا تكون قواتنا المسلحة فى منطقة حدود معينة بعيدة عن الهند[٢١].

إن مثل هذه التصريحات، وهى خليط من التهديد بين السذاجة والبلاهة والتى جاءت على لسان ولهلم الثانى (Wilheim II) والتى زادت كثيرا من التوتر العالمى خلال هذه الفترة.

وتم اتخاذ إجراءات احتياطية بسرعة، وفى عام ١٩٠٦ أعدت اللجنة الخاصة بالدفاع الإمبريالى خططًا لاحتلال البصرة والتى ضمت اقتراحا لزيادة سكان جنوب العراق بالمهاجرين الهنود[٢٢].

وبعد عام وافق شيخ الكويت على تأجير شاطئه الخارجى إلى بريطانيا والذى يتحكم فى استخدامه باعتباره نهاية خط سكة حديد بغداد على الخليج الفارسى، ونجحت حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية فى غرس حسن النية لدى عبد العزيز بن سعود حاكم إقليم نجد، والذى احتل الساحل بين الكويت وقطر عام ١٩٠٧ فى محاولة لتوسيع نفوذه هناك، وفى نفس الوقت رفضت وزارة الخارجية الاعتراف باستقلال ابن سعود وحذرت تركيا من القيام بعمليات حربية ضده إدراكًا للحاجة إلى جعل الخليج الفارسى بحيرة بريطانية، وأيضا إدراكًا بعدم ملاءمة التأييد المكشوف للثأر ضد السلطان التركى[٢٣].

وكان الشيوخ العرب، بناة إمبراطورية، آخر هموم الحكومة التركية، فلقد بدأت ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ مرحلة من الاضطرابات الحادة فى كل الممتلكات العثمانية، وقد بدت الحركة القومية لتركيا الفتاة برنامجًا واسع النطاق للتحديث فى كل أنحاء الإمبراطورية، والذى عند اكتماله سوف يجعل تركيا يابان الشرق الأدنى، وكانت القوى الأوربية تريدها الصين وفسرت تغير الحكومة باعتباره يسجل فاتحة مرحلة تفكيك تركيا، وكانت ممالك النمسا والمجر ودول البلقان الصغيرة تحاول اختطاف المناطق التركية فى جنوب شرقى أوربا، وكانت إيطاليا التى قد جاءت متأخرة وغزت ليبيا فى عام ١٩١١.

ولقد كان هذا الهجوم على الوحدة التركية مع زيادة سرعة الحركة الأوربية خصوصًا الفرنسية والألمانية، والاختراق التجارى للإمبراطورية

العثمانية (تحدث السفير الألمانى فى القسطنطينية عن تركيا بأن تكون كندا الألمانية) وشجع حركة القومية المحلية، وفى الحال بعد ثورة عام ١٩٠٨ شبهت الصحف التركية القوى الكبرى على أنها عقارب وأفاعٍ تفترس الأرض، وهكذا فقدت كل اللياقة وهى تستعد فى طموحاتها لتصدير بقايا الكلاب، وكان إطلاق سراح البعض وليس الكل والقيود التى فرضتها النظم القديمه على حرية النقاش والتعبير، قد أثار النشاط السياسى، وبدأ الأتراك والعرب والأكراد كشف الإحساس بالوحدة الوطنية.

ولم تتأثر بريطانيا بشكل مباشر بهذه التطورات وقد تحول مركز نفوذها فى الشرق الوسط من القسطنطينية إلى القاهرة، واعتمد أمن المصالح البريطانية على أساطيل البحر المتوسط والحامية فى مصر، والنية الحسنة لفرنسا وروسيا أكثر من صداقة السلطان، وكانت السياسة البريطانيه نحو تركيا مقيدة بالحاجة للنظر فى المصالح الخاصة لشركائها الجدد، وكانت فرنسا تبحث عن مجال نفوذ بشكل ممكن لها فى سوريا، وكانت روسيا تحتاج بشكل ملح ضمانًا دائمًا لحرية المرور فى المضايق، والتى تنقل تجارة صادراتها المتزايدة وخصوصًا الحبوب، وهناك أيضًا المطالب الخاصة لحكومة الهند والتى ترغب فى ضمان تجارتها فى الخليج الفارسى وبلاد الرافدين والتى كانت تعد بالفعل مستعمرة هندية فى حالة انهيار الأتراك.

وكانت تركيا – المحاطة بقوى جشعة وتعانى من تآكل مناطقها – قلقة من أجل الحصول على ترتيبات تحميها من أى اعتداءات فى المستقبل، وعندما وصلت لجنة الإصلاح لحزب الاتحاد والترقى إلى السلطة فى عام ١٩١٣ اتصلت بريطانيا وبعدها بكل من روسيا وفرنسا من أجل التحالف، ولم تجبر أى قوة بذلك لم تستطع بريطانيا الوصول إلى وفاق فى علاقاتها مع فرنسا وروسيا اللتين تضعان أعينهما على المكاسب المادية على حساب تركيا،

وكانت أزمة يوليو وعام ١٩١٤، وإمكانية أن فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى، محاربة ألمانيا قد ابتعدت عن رغبة الحكومة التركية فى السلحة الألمانية.

ويمكن النظر الألمانى فقط أن ينقذ تركيا من تقسيم دول الوفاق (entente)، وتأكدت العداوة للدولة العثمانية بالاستيلاء النهائى فى أغسطس ١٩١٤ لاثنتين من السفن الحربية التركية التى كانت تحت الإنشاء فى أحواض السفن البريطانية، وكانت إحداها بتمويل من الاكتتاب العام (الاشتراكات العامة).

ولم يكن هناك أى تكالب على تركيا قبل عام ١٩١٤، واستطاعت كل من بريطانيا وألمانيا الوصول إلى اتفاق حول مجالات النفوذ السياسيه.. والمالية، رغم أنه فى ذلك الوقت لم تكن هناك أى وسيلة لمعرفة عما إذا الألمان يسعون لترتيبات جديدة بمجرد أن يكتمل خط سكة حديد برلين- بغداد القسطنطينية، لم تكن ألمانيا قد شبعت بشكل كاف، ولم يكن الرايخ قد شق طريقه بعد لأن السفير الألمانى فى لندن أخبر الكولونيل جون سيلى (Seely) وكيل وزارة الدولة للحرب وكما ناقش السفير بأن شعبنا لا يحب الوضع القائم " ويعنى أنه طوال الوقت لابد أن تكون لك قيادة كل البحار وأفضل جميع الأماكن على الأرض، إن شعبنا لن يقبل وضعكم الحالى، (الواقع) ولن تقبل بريطانيا ما هو واضح فى هذا التصريح والصيحات الأكثر عصبية من حين لآخر والتى أصدرها القيصر لدرجة أنه فى بعض الأوقات فإن ألمانيا ستطلب فى المستقبل تغيرات جذرية فى النظام العالمى، لقد كان المعتقد أن نسبة عريضة من الوزراء بمن فيهم جراى (Gray) والدبلوماسيون وكبار موظفى الخدمة المدنية والقواد والصحفيون كانوا يقولون بأن هذه التغيرات ستؤدى إلى إضعاف القوة البريطانية، وحتى الآن لم تتوقف ألمانيا عن ادعاءاتها، ويرجع هذا إلى حقيقة أنه مع عام ١٩١٢ كانت بريطانيا تكسب

السباق البحرى بكل وضوح، وكانت النتيجة النهائية فى عام ١٩١٤ هى أنها تمتلك أربع عشرة سفينة حربية وواحدًا وتسعين طرادا ومائة وخمس وخمسين مدمرة.

وألمانيا تمتلك ١٦ سفينة حربية وواحدًا وأربعين طرادا و ٨٨ مدمرة، وكما هو المتوقع كانت التكاليف عالية وقفزت ميزانية الأسطول البحرى السنوية من ٢٩,٢ مليون جنيه فى عام ١٩٠٠ إلى ٤٧,٤ مليون جنيه فى عام ١٩١٤، لكنها تستحق المغامرة، وبالنسبة لفيشر الذى كان تفاؤله يساوى حبه للقتال فقد تباهى وتفاخر فى يونيه عام ١٩١١ بأن الأسطول الملكى يستطيع فى هذه اللحظة أن يستولى على كل أساطيل العالم ! دع الكل يأتى![٢٤].

ولكن متى ستأتى ولماذا ؟ وقد أثارت أزمة البلقان فى شهرى يونيه ويوليو عام ١٩١٤ القليل من الاهامام فى بريطانيا مثل الأزمات السابقة وحتى فى الثالث من أغسطس عندما كانت بريطانيا على حافة إعلان الحرب أرسلت السيدة بيتى (Beatty) إلى زوجها تقول: "عندما ترى الجموع تتحول فى لندن فإنك لا تفكر فى أى شىء يحدث"[٢٥].

وكان اليوم التالى عطلة البنك ويبدو أن زوار لويسفت (Lowstoft) ويارماوث كانا مختلفين حول تورط الدولة مثل سكان لندن، واجتمعت مجموعة من كبار الضباط على ساحل سافولك (Suffolk) بعد إنذار غزو غير حقيقى، وقد انساقوا وراء أربع سيدات لعبة الجولف وكانت ضربة أحداهن قد اسقطت قائدا (جنرالاً) وقد استدعاهن وهو فى حالة من الغضب وسألهن " أيتها السيدات الشابات العزيزات من المتوقع أن ينزل الألمان بعد ظهر هذا اليوم، هل تعرفن ماذا يعنى اغتصاب امرأة ؟ أنصحكن أن تتجهن فورًا إلى وطنكن "[٢٦].

ويمكن قبول عذر جهل هؤلاء السيدات الرياضيات عن أحداث الأسابيع الستة الماضية ووصولها إلى الذروة فى أغسطس، لأنهن لم يتورطن مباشرة فى المصالح البريطانية أو الإمبراطورية، ولقد أثار قتل الإرهابيين المقربين للدوق فرانز فيريناند (Franz Ferdinand) وزوجته فى سيراجيفو مواجهة بين حليف ألمانيا النمسا والمجر وصربيا التى تتمتع بالحماية الروسية وكانت ألمانيا على استعداد لتلبية مطالب النمسا والمجر، والتى رغم التاريخ الحربى الذى يرعى الإرهاب والذى تبدو قاسية فقد كانت روسيا مشتاقة لإثبات وجودها باعتبارها حاميه كل العنصر السلافى فقامت بدعم حليفها فيما يعنى تطورا فى إثبات القوة مع النمسا، وصار كل شىء متوقفا على آراء ألمانيا وروسيا، واقتنع القيصر وقياداته العليا وهم يخشون من حجم إعادة التسليح الروسى لبعض الوقت، بأنه كلما عجلت الحرب مع روسيا، كلما كان ذلك أفضل لألمانيا، وكان القيصر نيقولا الثانى ومستشاروه يحبون الحرب وكانوا مدفوعين بحماس عميق لإثبات أن روسيا كانت مرة ثانية قوة يعترف بها. وشهد الأسبوع الأخير من شهر يوليو تزايدا سريعا من النقاش مع تعبئة جيوش كل من النمسا والمجر والروس والألمان وكانت روسيا منزعجة من الهجومين وأوفت فرنسا بواجبها وأمرت بالتعبئة(٢٧).

وحتى هذا الوقت لم تكن إنجلترا تحت أى تهديد وكان جراى يخشى من طلب فرنسا المساعدة، ووعد فقط أن الأسطول سوف يمنع أى هجوم بحرى ألمانى على السواحل الفرنسية، وكان رجلاً يحب التدخل، ولكنه مثل الآخرين من نفس التفكير داخل الوزارة، يعرف أن إعلان حرب ضد ألمانيا يتطلب دعمًا وتأييدًا من الرأى العام، وكان اليسار يضمر كثيرًا من العداء نحو روسيا أكثر دول أوربا طغيانًا.

ويمكن أن نقول بأن صربيا قد جلبت على نفسها حظًا سيئًا، وكان المطلوب كما كانت الحال فى عام ١٨٩٩ أن هذا قضية أخلاقية توحد جموع الشعب وحدث ذلك فى التاسع والعشرين من يوليو عندما طلبت حكومة ألمانيا حرية المرور لجيوشها عبر بلجيكا، وكانت بريطانيا إحدى الدول التى وقعت على معاهدة تضمن حياد بلجيكا، وبالتمسك بهذا الحق سوف تظهر على أنها المدافع الشريف عن النية الحسنة ضد قوة تعتقد أن القوة هى الحق.

ورفضت بلجيكا طلب ألمانيا التى قامت بغزوها فى الثانى من أغسطس، وهذا أعطى الوزارة البريطانية قضية عادلة كانت تبحث عنها للمشاركة فى الحرب.

وفى الثالث من أغسطس عندما حدد جراى لوزارته أسباب التدخل، اندهش أحد المستمعين لأنه لم يسمع أى شىء عن المصالح الإمبريالية والقومية الملحة.

ويمكن أن نترك الكثير عما لم يتم الحديث عنه فاحتلال ألمانيا لسواحل بلجيكا، وهزيمة فرنسا والسلام فى قرطاجنة (Carhaginian) والذى يمكن أن يشمل استسلام أسطولها ومستعمراتها، كل هذا يعرض بريطانيا وإمبراطوريتها للخطر، وأيضًا فإن الحياد سوف يحول كلاً من فرنسا وروسيا إلى أعداء لديهما قدرات أكثر من ألمانيا، ويمكن أن يحدث أضرارًا للمصالح البريطانية فيما وراء البحار، ومن الأفضل والأمن أن تتجه هذه القوى البشرية من الرجال والأسلحة المعروفة باسم السفن الحربية إلى برلين بدلاً من الحدود الهندية[٢٨].

لقد أصبح من الواضح أن ألمانيا سوف تسحق بقـوة حيـاد بلجيكـا، وعندما أعلنت بريطانيا الحرب، وتم إعطاء أمر التعبئة فى الساعة الرابعـة إلا عشر من يوم الرابع من أغسطس، وكان ضباط الجيش يلعبـون التـنس أو الكريكت بعد ظهر هذا اليوم المشرق، وتم إخطارهم بـالتلويح بالمناديـل البيضاء، وفى خلال أسبوعين نزلت قوة الحراسة البريطانية الاستكشافية فى موانئ شمالى فرنسا، وهناك استقبلوا استقبالاً حارًا.

ولم تكن أزمة البلقان تثير اهتمام الدومنيون كثيرًا مثلما كان الوضـع فى بريطانيا، ونظرًا لتدهور الموقف وسعى الجيوش الأوربية للحصول على السلاح، وافقت الحكومة البريطانية على اتخاذ الإجراءات الاحتياطيـة مـع شركائها من دول الدومنيون، وتم تسجيلها فى كتاب الحرب.

ولقد اعترفت حكومات كندا وجنوب أفريقيا وإستراليا ونيوزيلاند بـأن الأزمة قد وصلت إلى الدرجة التى تحدث عنها جراى منذ ثلاث سنوات، وأن ألمانيا هى الدولة التى كانت طموحاتها النابليونية فى أوربا هى التى تعرض القوة البحرية لبريطانيا للخطر، وإذا كانت هناك حرب فأنت وأنا سنكون فيها "كما أكد جوزيف كوك (Joseph Cook) رئيس الوزراء الأسترالى لأنـه إذا كانت الدولة القديمة فى حرب وهكذا سنكون نحن فى حرب"[٢٨].

وكانت الأخبار بأن السير روبرت بوردن (Robert Borden) رئيس وزراء كندا سيقدم لبريطانيا دعم حكومته بثلاثين ألف جندى محارب، وقـد عـرف أن أستراليا تقدم نفس العدد فى الثالث مـن أغـسطس، ولقـد شـاركت روح الصداقة السعيدة والمرحة والوطنية القومية التى أثارت آلاف الشباب الـذين اندفعوا إلى مراكز التجنيد فى بريطانيا فى كل دول الدومنيون خلال أواخـر صيف ١٩١٤.

ورحب الكثيرون وربما الغالبية من الرجال الشبان بالحرب على أنها مغامرة ولكن كان هناك أيضا شريان قوى من الوطنية يندفع من كل صفوف الجنود الذين انضموا إليها، وكتب أحد الوطنيين الأستراليين الذى يبلغ من العمر تسعة عشر عاما بأنه هو وإخوانه فى السلاح يستعدون للحفاظ على تقاليد الجيش البريطانى، وقد قتل فى عملية فى غاليبولى (Gallipoli) كما عبر جندى آخر من الجيش الأسترالى والنيوزيلاندى عن نفس الروح بأبيات من الشعر يقول

تنتشر الأعلام البريطانية عبر البحر

وتطفو أعلى مع الرياح وهى معروفة لى

والعواصف تهب والمعارك تمزقها

من الدخان والذى لوثها وحولها رمادية

إنها أعلام إنجلترا – وكيف أستطيع أن أبقى[٢٩].

وأيضا ألهم هذا الإحساس بالقرابة والخطر المشترك جنديًا كنديًا وشاعر من سيدنى كتب يقول إلى أسكويملت، من البحيرات إلى خليج هدسون

رجال لم يروك من قبل وهم وهؤلاء تركوك

بالأمس

لقد قذفنا بالآلات والأخشاب

وتركنا المقعد والمنجم

إننا نبحر شرقا إلى فلاندر للالتحاق

بجنود الكاكى[٢٩]

لقد أتينا متوحشين وعلينا الصوف

وقلوبنا وأيادينا معكم كلية

مستعدة لسحق الثور البروسى

خمسة آلاف جندى قوى[٣٠].

لقد ضرب جندى أسود فى الإمبراطورية من نياسالاند على وتر مشترك " إننا التحقنا بالحرب لأننا رجال وبقينا سنوات طويلة بعد ذلك"[٣١].

ولم يكن هناك خيار أمام المستعمرات مثل نياسالاند، ولهذا الأمر لابد أن تتبع الهند – التى تعد أحد التوابع- بريطانيا إلى الحرب، وانضمت الدومنيون فى صف واحد فى أغسطس ١٩١٤، لأن قياداتها وشعوبها أدركت أن هناك خطرًا مشتركًا، ووضعت فى ذهنها ما قاله جراى منذ ثلاث سنوات وأدركت أن انتصار ألمانيًا فى أوربا لن يكون فى صالح بريطانيا أو صالحهم هم[٣١].

لقد كان اندفاع طلبات الرجل من حكومة الدومنيون والتى وصلت إلى لندن خلال أيام قلائل من إعلان قيام الحرب ما هو إلا إعادة تأكيد مظاهرة الوحدة الإمبريالية، وأيضا كان رد فعل آلاف الشباب الذين اندفعوا إلى مكاتب التجنيد فى كل أنحاء الإمبراطورية رغم أنهم مثل حكامهم توقعوا حربًا قصيرة المدى.

Part One: Excellent Opportunities: 1600–89

1: My New-Found Land: North America

1 Andrews, 39, 81–2.
2 *The Historye of the Bermudas or Somers Islands*, 35–6.
3 Kupperman, 'Fear of Hot Climates &c.', *WMQ*, 41, 218.
4 Monson, 2, 289.
5 *CSP, America and the West Indies, 1574–1660*, 25.
6 Sondern, 'Rogues, Whores &c.', *JSH*, 3, *passim*.
7 Raleigh, 115.

2: Baubles for the Souls of Men: The West and East Indies

1 *Documents Concerning English Voyages to the Spanish Main*, 120–21, 127–8.
2 Kupperman, 'The Puzzle of the American Climate &c.', *AHR*, 87, 1266.
3 Buckley, 'The Destruction of the British Army &c.', *JSAHR*, 56. *passim*.
4 Venables, 42, 7.
5 Beckles, 'A "riotous and unruly lot" &c.', *WMQ*, 47, 519–21.
6 HMC, *Stuart*, III, 304–5.
7 *CSF, America and the West Indies, 1661–1668*, 167.
8 *Ibid., 1681–1685*, 25.
9 Phillips, 363.
10 F.R. Ward, 26–7.
11 Handler and Corruccini, *JIDH*, 14, *passim*.
12 Bowrey, 3, 5, 11.

3: The Necessary Union of Plantations: Crown and Colonies

1 Gregg, 'Shipmasters &c.', *MM*, 77, 107.
2 Hornstein, 19–21.
3 Venables, 109.
4 *CSP, America and the West Indies, 1661–1668*, 281–2.
5 *Ibid.*, 22–3.
6 *Ibid., 1675–1676*, 498.
7 *Ibid.*, 476–7.
8 *Ibid., 1689–1693*, 110.
9 *Ibid., 1700*, 217.
10 PRO, CO 23/23, 28.

4: Dispositions of Providence: The Colonists

1 M. Green, 81.
2 Jordan, 65.
3 *CSP, America and the West Indies, 1675–1676*, 526.
4 Fischer, 229.
5 Carr and Walsh, 'The Planter's Wife &c.', *WMQ*, 34,543.
6 Cressy, *Coming Over*, 71.
7 *Ibid.*, 117.
8 *Ibid.*, 97.
9 *CSP, America and the West Indies, 1661–1668*, 145.
10 Isaacs, 39–40.
11 *CSP, America and the West Indies, 1689–1692*, 666–73, 732–4.
12 *Ibid.*, 316; Hart, 2, 21.
13 Jordan, 109–10.
14 Gaspar, 'The Antigua Conspiracy &c.', *WMQ*, 35, 322.
15 N.L.S., Colin Campbell, 'The Voyage of the Unicorn', 29 September 1698.
16 *CSF, America and the West Indies, 1675–1676*, 205.
17 Mun, 3.
18 *Hudson's Bay Miscellany, 1670–1870, passim.*
19 *Hudson's Bay Company, Letters Outward, 1638–1696*, 131.

Part Two: Persist and Conquer, 1689–1815

1: Rule of the Main: The Making of British Seapower, 1689–1748

1 Crouzet, 'The Sources of England's Wealth &c.', in ed. Cottrell and Aldcroft, *Shipping, Trade and Commerce*, 71.
2 *PRO*, Adm 1/3962, I, 149.
3 McNeill, 167.
4 Burdett, 305, 320–21.
5 Marcus, I, 220–21.
6 *The History of the House of Commons from the Restoration to the Present Time*, 12, 15.
7 *Ibid.*, 65.
8 SRO, Clerk of Penicuik, GD 18/4181.
9 *The History of the Proceedings of the Third Parliament of King George II held in the Years 1741 and 1742*, 2, 304.

2: Tis to Glory we Steer: Gains and Losses, 1749–83

1 Rodger, chapter V, *passim*.
2 Lemisch, 'Jack Tar in Streets &c.,' *WMQ*, 25, 383.
3 Rodger, 85–7.
4 Boscawen, 205.
5 T. Hansard, *The Parliamentary History of England from the Earliest Period to the Year 1803*, 15, 1266–7.
6 Jenkins, 125–7.
7 PRO, Adm 1/54.
8 Smollett, *Continuation of the Complete History of England*, II, 115.
9 Smollett, *Letters*, 87.
10 Spadafora, 220.
11 *Gentleman's Magazine*, 29, 585.
12 *Ibid*, 587.
13 J. Brown, 35–6, 62, 74, 88–9.
14 Watts, No. 454.
15 Smollett, *Continuation of the Complete History of England*, I, 480.
16 PRO, Adm 1/3946, 157, 193; Tracy, 12 ff.
17 PRO, Adm 1/3836, 63, 108–9, 188.
18 Tracy, 29.
19 PRO, Adm 1/3966, 1, 140–41, 186–7, 266, 296–8.
20 SRO, Logan Hume, GD1/384.
21 Spinney, 'Rodney and the Saints &c.', *MM*, 68, 381–2, 338.
22 Clowes, 3, 467.

3: The Empire of America: Settlement and War, 1689–1775

1 Nammack, xv.
2 *Ibid.*, 43.
3 Leach, 146–7.
4 *Documents of the American Revolution*, 7, 91.
5 M.G. Lawson, *passim*.
6 *Northcliffe Collection*, 73.
7 McCardell, 161.
8 Syrett, 'The Methodology of British Operations &c.', *MM*, 68, *passim*.
9 B. Wilson, 353.
10 HMC, *Stopford-Sackville*, II, 226.
11 N. Martin, 'A Different Kind of Courage &c.', *CHR*, 70, 58.
12 B. Wilson, 379–80.
13 HMC, *Stopford-Sackville*, II, 264.
14 *Northcliffe Collection*, 81.
15 Bailyn and De Wolfe, 53.
16 *Ibid.*, 41.
17 R.M. Brown, 6–7.
18 Nammack, 89–90.

4: The Descendants of Britons: North America Rebels, 1765–75

1 PRO, CO 227/2, 3d.
2 NLS, Stuart Stevenson, Ms 5375, 31d; Berger, 55.
3 SRO, Peebles Diary, GD 21/492/3, 15.
4 SRO, Robertson Papers, GD 172/2599, 26.
5 *Documents of the American Revolution*, 9, 75.
6 *Papers of Benjamin Franklin*, 17, 268–9.
7 SRO, Peebles Diary, GD, 21/492/3, 14.
8 Isaacs, 162.
9 Flick, 9.
10 *Documents of the American Revolution*, 9, 107.
11 *Ibid.*, 2, 50.
12 *Ibid.*, 9, 60.
13 Grainger, 67.
14 *Naval Documents of the American Revolution*, 1, 27.

5: The World Turned Upside Down: The American War of Independence, 1775–83

1 *Documents of the American Revolution*, 9, 60.
2 Cowper, 569–70.
3 *Naval Documents of the American Revolution*, 1, 125.
4 *Documents of the American Revolution*, 9, 65.
5 NLS, Stuart Stevenson, Ms 5375, 31d.
6 Clinton, 569.
7 Conway, 'British Army Officers &c.', *WMQ*, 41, 375.
8 Barker, 'The Diary of Lieutenant John Barker', *JSAHR*, 7, 101.
9 SRO, Peebles Diary, GD 21/492/11, 6.
10 Conway, 'The Recruitment of Criminals &c.', *BIHR*, 58, 380–81.
11 Attwood, 233, 238.
12 HMC, *Hastings*, III, 167, 169.
13 SRO, Peebles Diary, GD 21/492/3, 12.
14 Clinton, 56.
15 Berger, 27.
16 NLS, Stuart Stevenson, Ms 5375, 30–30d.
17 Kaplan, 'The Hidden War &c.', *WMQ*, 47, 122–3.
18 W. Smith, 39.
19 Clinton, 62, note 7.
20 Gruber, 233, 238–9.
21 SRO, Robertson, GD 172/2599, 52.
22 Berger, 91.
23 *Ibid.*, 100–1.
24 SRO, Peebles Diary, GD 21/492, 4, 9.

6: The Terror of Our Arms: Conquest and Trade in India, 1689–1815

1 SRO, Dalrymple, GD 110/1021, 4.
2 Stokes, *The Peasant and the Raj*, 26.
3 Orme, I, 265.
4 Chauduri, 232.
5 *Ibid.*, 97.
6 SRO, Seaforth, GD 46/17/4, 512.
7 NAM, Memoirs of a Dragoon, 60–61, 65.
8 Blakiston, 1, 229–30.
9 Malcolm, I, 51, note, 208, 259.
10 SRO, Seaforth, GD 46/17/4, 434–9, 448, 532.
11 Malcolm, I, 8.
12 PRO, Adm 2/5119.
13 Altick, 299–300.
14 NLS, Tweeddale, Ms 14558, 18d.
15 Metcalfe, I, 54.
16 NLS, Stuart, Ms 8252, 63.
17 PRO, WO 3/610, 163–4.
18 *AJ*, 1, (1816), 66.
19 Kaye, I, 93.
20 *AJ*, 1 (1816), 145–6.
21 Kaye, I, 29.

22 Malcolm, I, 23.
23 *Ibid.*, 269.
24 PRO, WO 1/902, 174.
25 Doveton, 'Companies Troops &c.', *AJ*, New Series, 1 (1843), 651.
26 PRO, WO 1/343, 56, 71–5.

7: The Desert of Waters: The Pacific and Australasia

1 Vancouver, I, 34.
2 Gough, 2n.
3 Vancouver, I, 44.
4 Bligh, 6–7.
5 R. Porter, in ed. R. Porter, *Exoticism and Enlightenment*, 126–7.
6 *Quarterly Review*, 2 (1811), 52.
7 *Ibid.*, 33.
8 Anon, 'Review of R. Perceval &c.', *Edinburgh Review*, 3, 31.
9 Lang, I, 119.
10 *House of Commons Select Papers of the Eighteenth Century . . . Quebec and New South Wales, 1791–1792*, 119.
11 PRO, CO 201/11, 11–12.
12 Lieutenant Collins, xi-xiii.
13 Anon, 'A Convict's Recollections', *London Magazine*, 2, 51.
14 PRO, CO 201/11, 9–10.
15 *Ibid.*, 49, 105.
16 *Ibid.*, 9–10.
17 Anon, *A Concise History of the English Colony in New South Wales*, xvi.
18 PRO, WO 92/1, 13; CO 201/11, 11.
19 Lang, 1, 119.

8: Wealth and Victory: The Struggle against France, 1793–1815

1 *Anti-Jacobin*, 9 April 1798.
2 P.K. O'Brien, in ed. Dickinson, *Britain and the French Revolution, passim.*
3 T. Hansard, *The Parliamentary History of England from the Earliest Time to the Year 1803*, 35, 1073–4.
4 *Anti-Jacobin*, 25 May 1798.
5 Dalton, 247.
6 Buckley, 'The Destruction of the British Army &c.', *JSAHR*, 56, *passim.*
7 PRO, CO 318/31, 141, 152, 153.
8 PRO, Adm 1/265.
9 NLS, Cochrane, Ms 2315, 21–2.
10 PRO, Adm 54/1.
11 PRO, Adm 1/4366.
12 PRO, Adm 1/3994.
13 HMC, *Bathurst*, 672.
14 De Latocnaye, 100–101, 112, 166, 311.
15 Dickinson, in ed. Dickinson, *Britain and the French Revolution, passim.*
16 *Anti-Jacobin*, 1 January 1798.
17 Simond, I, 21.
18 *Blackwoods Magazine*, 6 (February 1820), 578.
19 NAM, Memoirs of a Dragoon, 90.
20 Denman, 39.

Part Three: Wider Still and Wider: 1815–1914

1: Power and Greatness: Commerce, Seapower and Strategy, 1815–70

1 Desmond and Moore, 176–7.
2 Livingstone, 293.
3 NAM, Pine, 18 July 1844; August, no date.
4 Cam and Hopkins, 'The Political Economy &c.', *Ec.HR*, 33, 476.
5 PRO, Adm 1/221, 579.
6 HMC, *Bathurst*, 535–6.
7 Bartlett, 261–2.
8 PRO, Adm 1/5603.
9 PRO, Adm 1/5548; FO 406/8, 152.
10 PRO, Adm 127/58.
11 PRO, Adm 125/43.
12 *Hansard*, 3rd Series, 111, 301.
13 *Ibid.*, 144, 1823–4, 1830.
14 PRO, Adm 53/10269; Clowes, 6, 235–7, 239–43.
15 PRO, Adm 123/10.
16 G Smith, ix.
17 Bartlett, 23.
18 *British and Foreign Review*, 1 (July–October 1835), 102–3.
19 Anon, *India, Great Britain and Russia*, 48.
20 Maw, 106.
21 Anon, 'The Invasion of India', *Blackwoods Magazine*, 22 (September 1827) *passim*.

2: We are Going as Civilisers: Empire and Public Opinion, 1815–80

1 *Sun*, 2 January 1847.
2 *Standard*, 2 June 1840.
3 Denman, 24.
4 Livingstone, 256–7.
5 Bratton, Cave, Gregory, Holder and Pickering, 131.
6 Heber, I, 33.
7 Anon, *Slavery No Oppression*, 20.
8 *Anti-Jacobin*, 26 (January 1807), 26, 29.
9 *Barbados Report &c.*, 17.
10 HMC, *Bathurst*, 549–50.
11 Anon, *Slavery No Oppression*, 17.
12 Gurney, 61, 184.
13 *British Parliamentary Papers, Colonies General*, 1, 14–15, 75.
14 *West India Colonies and Mauritius &c.*, 21, 309.
15 Binney, 5.
16 *Blackwoods*, 6 (October 1819), 80–81.
17 Wells, 145.
18 PRO, Adm 1/6491.
19 Brooke, II, 323.
20 Altick, 283.
21 Wells, 158–9.
22 *The Standard*, 10 January 1840; 24 March 1840.
23 *Illustrated London News*, 13 March 1852.

24 Burn, 84.
25 *National Review*, (January 1858), 17.
26 *Report of the Jamaica Royal Commission*, 1122.
27 *Quarterly Review*, 120, (July 1866), 257, 259.
28 Guy, *The Destruction of the Zulu Kingdom*, 62.
29 *The Witness*, 18 January 1865.

3: The Mission of Our Race: Britain and the 'New Imperialism', 1880–1902

1 PRO, Adm 123/10.
2 Platt, 'Economic Factors &c.,' *PP*, 39, 131.
3 Williamson, *Donkey Boy*, 46–7, 48.
4 A. Porter, 'The South African War &c.', JAH, 31, 41.
5 MacDonald, 'Reproducing the Middle-Class Boy &c.', *JCont.H*, 24, 528.
6 *Saturday Review*, 82 (12 December 1896).
7 *Ibid.*
8 MacDonald, 'Reproducing the Middle-Class Boy &c.', *JCont.H*, 24, 526.
9 Henty, *With Buller in Natal*, 12, 15, 33.
10 Childers, 19.
11 *Practical Teacher*, 16 (June 1896).
12 *Daily Graphic*, 7 October 1898.
13 Friedberg, 273, 275.
14 *Ibid.*, 403.
15 Buchanan, 'The Voice of the Hooligan', *Contemporary Review*, 76,775–6.

4: The Miracle of the World: India, 1815–1905

1 Bratton, Cave, Gregory, Holder and Pickering, 170.
2 Gopal, 224.
3 *Ibid.*, 225.
4 ed. Eldridge, 76, 80.
5 Edwardes, I, 723.
6 Stokes, *English Utilitarians and India*, 54.
7 *Ibid.*, 46.
8 *Edinburgh Review*, 217 (January 1858), 46.
9 *National Review*, 16 (January 1858), 20.
10 Heber, 1, 165.
11 Griffiths, 167–71.
12 *AJ*, 1, (February 1816), 113.
13 Heber, 1, 235.
14 Kaye, *Lives of the Indian Officers*, I, 414, note; Hyam, 'Empire and Sexuality &c.', *JICH*, 14, 38, 52.
15 *Ibid.*, 52.
16 *AJ*, 23, (May-August 1837), 134.
17 NLS, Sir George Brown, Ms 2845, 17.
18 NLS, James Grant, Ms 17904, 7.
19 Napier, 307–8.
20 NLS, Sir George Brown, Ms 2845, 67.
21 'The Battle of Chillianwala', *Colburn's United Service Magazine*, 3, (1850), 1.
22 Maw, 70–71.

23 Doveton, 'The Bangalore Conspiracy', *AJ*, 3rd Series, 2 (1844), 631–3; NLS, Tweeddale, Ms 145558, 3, 13, 15–15d, 18d.
24 Stokes, *The Peasant Armed*, 229.
25 Bourchier, 95.
26 Wolseley, 1, 420.
27 Edmondson, 3.
28 Rule, 22.
29 O'Dwyer, 12.
30 Younghusband, 5.
31 Willcocks, 72.
32 Mason, *Expedition against the Hansanzai and Asakai Tribes*, 20.
33 IOL, Letters and Papers Political Military, 17/13/64.

5: They Little Know Our Strength: The Far East and the Pacific

1 *Chamber's Information for the People*, No. 25 (1842), 398–9.
2 Ochterlony, 99, 398.
3 NAM, Pine, 26 August 1841.
4 *Ibid.*, 5 June 1842.
5 PRO, Adm 125/145.
6 Moyes was actually Scottish (Mann, 73–4).
7 Swinhoe, 193.
8 *Hansard*, 4th Series, 79, 46.
9 PRO, Adm 125/146, 3–9.
10 PRO, Adm 1/7459.
11 M.E. Townsend, *The Rise and Fall of Germany's Colonial Empire*, 197, 266.
12 PRO, Adm 1/7549.
13 PRO, CO 856/1 (Reports for 1921, 1922 and 1932).

6: A Great English-Speaking Country: South Africa

1 PRO, WO 1/343, 57.
2 Marder, *From Dreadnought to Scapa Flow*, 41.
3 PRO, WO 33/37, 2.
4 PRO, WO, 33/46.
5 NLS, Sir George Brown, Ms 2846, 17d, 159.
6 *Ibid.*, 19d.
7 NAM, Fleming, 14–15, 31.
8 Peires, 'Soft Believers &c.', *JAH*, 27, 445.
9 PRO, WO 32/8329–31.
10 Guy, 'A Note on Firearms &c.', *JAH*, 12, 560–63.
11 Guy, *The Destruction of the Zulu Kingdom*, 47.
12 Bourne, *Listener*, 30 December 1935.
13 Guy, *The Destruction of the Zulu Kingdom*, 57.
14 Killingray, 'Labour Exploitation &c.', *JCont.H*, 24, 488.
15 PRO, WO 33/256.
16 Selbourne, 75.
17 I am indebted to Dr John Mackenzie for this detail.
18 *Saturday Review*, 29 August 1896.
19 Selous, 20.
20 NAM, Rose, 4 August 1896.

21 *Hansard*, 4th Series, 39, 1174–5, 1518; 40, 1137–8; 41, 1326–7.
22 Rotberg, 'Resistance and Rebellion &c.', in ed. Giffard and W.R. Louis, *Britain and Germany in Africa*, 673.
23 Von Albertini, 467.
24 W.H. Brown, *On the South African Frontier*, 420.
25 Von Albertini, 469.
26 PRO, DPP 1/2, 681 ff.; SRO, Loch, GD 268/576/15, 4–5.
27 *Ibid.*, 6.
28 Selbourne, 78.
29 R. Porter, 'The South African War &c.', *JAH*, 31, 43.
30 Anon (P. Sturrock), 25.
31 Ross, 180–81.

7: That Heroic Soul: The Struggle for the Nile

1 A.G. Hopkins, 'The Victorians and Africa &c.', *JAH*, 27, 384.
2 *Hansard*, 3rd Series, 272, 178.
3 Lord Cromer, *Modern Egypt;* Lord Milner, *England in Egypt.*
4 Gregory, 'Egypt and the Sudan', *Nineteenth Century*, 17, 425–6, 428.
5 W.S. Blunt, *Secret History of the English Occupation of Egypt.*
6 PRO, WO 32/6383.
7 Holt, 80–81.
8 SRO, Dundonald, GD 233/130, 8.
9 *Ibid.*
10 Beresford, II, 271.
11 Johnson, 'The Death of General Gordon &c.', *JAH*, 10, 294–5.
12 Sanderson, 'Anglo-French Confrontation at Fashoda, 1898', in ed. Giffard and W.R. Louis, *France, Britain and Africa*, 309.
13 *Ibid.*, 309.
14 Daly, 1.
15 I am indebted to Samuel Clayton, whose father, Sir Gilbert Clayton, was present at Omdurman and the capture of Khartoum.
16 Daly, 3–4.
17 *Hansard*, 4th Series, 66, 385–7, 393, 396, 398.
18 Daly, 8.
19 *Ibid.*, 183, 184.
20 *Ibid.*, 130.
21 Collins, 139.
22 Daly, 132–3.
23 PRO, Air 20/680.
24 Collins, 134.

8: The Greatest Blessing that Africa has known: East and West Africa

1 N. Malcolm, 'On Service in Uganda', *Blackwoods Magazine*, 161, 633, 643.
2 Lugard, I, 72, 74.
3 PRO, WO 106/342.
4 Lugard, I, 32–4.
5 Meinertzhagen, 9–10, 179.
6 Lugard, I, 293–4.
7 Mockler-Ferryman, 13, 18, 27–8; Bindloss, 197.

8 Mockler-Ferryman, 3–4.
9 Lugard, II, 651.
10 Mumford, 'Education and Social Adjustment &c.', *Africa*, 2, 148.
11 Meinertzhagen, 32.
12 J. Thompson, 574.
13 Lugard, I, 285.
14 Van Onselen, 'The 1912 Wankie Colliery Strike &c.', *JAH*, 15, 276–7.
15 PRO, Adm 1/8404/450.
16 Cranworth, 240.
17 *Ibid.*, 35, 115.
18 *Ibid.*, 4, 7–8.
19 Duder, 'Settler response &c.', *JICH*, 17, *passim*.
20 W.R. Thompson, 'A Year round &c.', *Blackwoods Magazine*, 175, 649.
21 NAM, Eden, 23.
22 Perham, I, 493–4.
23 *Ibid.*, 680.
24 Willcocks, 101–4.
25 RHL, Abadie, 8.
26 PRO, WO 32/7620.
27 Beddoes, 138–42.
28 RHL, Abadie, 7–8.
29 NAM, Eden, 34.
30 Lovejoy and Hagendorn, 'Revolutionary Mahdism &c.', *JAH*, 31, *passim*.
31 Mockler-Ferryman, 12.

9: Ye Sons of the Southern Cross: The White Dominions

1 J. Mackenzie, 160–61.
2 Atkinson, 5.
3 *First, Second and Third Reports of the Select Committee on Emigration*, 130.
4 PRO, Adm 1/6788.
5 Anon, *Journal of an Excursion to the United States &c.*', 13.
6 Eddy and Shreuder, 230–31.
7 NAM, Pine, 15 May, 1845.
8 NAM, Mitchell, 13.
9 N. Townsend, 'Moulding Minds &c.', *JRAHS*, 148.
10 Scherer, 10, 350–51.
11 N. Townsend, 'Moulding Minds &c.', *JRAHS*, 155.
12 Bean, I,3–4, 6–7.
13 Steel and Lyttleton, 226–7.
14 Gordon, 187–8.
15 SRO, Loch, GD 268/459, 10–13.
16 Amery, *My Political Life*, I, 37.
17 Gordon, 123.
18 *Hansard*, 3rd Series, 305, 635.
19 *Ibid.*, 1207.
20 Chamberlain, 'A Bill for Weakening Britain', *Nineteenth Century*, 33, 547.
21 Brassey, 'The Diamond Jubilee &c.', *Nineteenth Century*, 42, 3.
22 Bean, I, 3.
23 PRO, WO 108/104.

10: Be Brave, Be Bold, Do Right!: The Edwardian Empire and the People

1 S. Webb, 'Lord Rosebery's Escape &c.', *Nineteenth Century and After*, 50, 369.
2 *Ibid.*, 382.
3 Davin, 'Imperialism and Motherhood', *History Workshop*, 5, 13, 17.
4 Amery, *Diaries*, I, 33.
5 Milner, *Nation and Empire*, 352, 353–4.
6 Hyam, *Empire and Sexuality*, 99–100.
7 Sacks, 399–400.
8 K.O. Morgan, 191.
9 *Hansard*, 5th Series, 9, 992, 998, 1571, 1607, 1622.
10 K.O. Morgan, 198.
11 PRO, WO 106/1417, 9.
12 Spiers, 227.
13 Marder, *Fear God and Dread Nought*, 17.
14 Amery, *Diaries*, I, 35.
15 Pollock, 'The Government and the Army', *Fortnightly Review*, New Series, 95, 789.
16 Wylloughby de Broke, 'National Toryism', *National Review*, 59, 98.
17 J. Mackenzie, 150.
18 Springhall, 'Lord Meath &c.', *JCont.H*, 5, 98.
19 *Empire Day Book, passim.*
20 *Practical Teacher*, January 1906.
21 Pearson, 71.
22 *Ibid.*, 56, 70.
23 *Ibid.*, 113–14.
24 Springhall, 'Baden Powell &c.', *EHR*, 939.
25 Harrison, 'For Church &c.', *PP*, 61, 176.
26 Summers, 'Scouts, Guides &c.', *EHR*, 102, 946.
27 Cunningham, 'Soldiers by Instinct', *Journal of the Newspaper and Periodic Society*, 8, 19, 23.
28 Eddy and Shreuder, 47.

11: To Join the Khaki Line: The Empire and the Coming of War

1 Summers, 'Militarism in Britain &c.', *History Workshop*, 2, 120–21.
2 Kennedy, *The Rise of Anglo-German Antagonism*, 376.
3 Lambi, 34, 146.
4 Anon, 'The British and German Fleets'; *Fortnightly Review*, New Series, 77, 20.
5 Marder, *Fear God and Dread Nought*, 20; Lambi, 148.
6 *Ibid.*
7 Beatty, 98.
8 K.M. Wilson, 'The Anglo-Japanese Alliance &c.', *JICH*, 21, *passim.*
9 K.M. Wilson, *Empire and Continent*, 153, 155–60.
10 Klein, 'British Intervention in the Persian Revolution', *JMH*, 15, 731, 733, 736.
11 Cohen, 'Mesopotamia &c.', *IJMES*, 9, 173.
12 Beatty, 29.
13 Marder, *Fear God and Dread Nought*, 140.
14 Gowen, 'British Legerdemain &c.', *JMH*, 52, 389 note.
15 Vrooman, 'The Imperial Ideal &c.', *Nineteenth Century and After*, 73, 504.
16 Gowen, 'British Legerdemain &c.', *JMH*, 52, 390–91.

17 Hankey, I, 128–9.
18 *Ibid.*, 132.
19 *Ibid.*, 129.
20 Wyatt, 'The Cause of National Insecurity', *Nineteenth Century and After*, 71, 800.
21 Cohen, 'Mesopotamia &c.', *IJMES*, 9, 176.
22 *Ibid.*, 129.
23 Goldberg, 'The Origins of British-Saudi Relations &c.', *HJ*, 28, 697–8.
24 Marder, *Fear God and Dread Nought*, 375.
25 Beatty, 104.
26 LHC, Edmonds III/8, 8–9.
27 K.M. Wilson, *Empire and Continent*, 149.
28 Bean, I, 16–17.
29 *Ibid.*, 18–19.
30 *Oh Canada: a Medley of Verse*, 48, 62.
31 Page, 'The War of *Thangata* &c.', *JAH*, 19, 88.

المؤلف فى سطور:

لورانس جيمس

ولد فى باث بإنجلترا، عام ١٩٤٣.

درس التاريخ واللغة الإنجليزية فى جامعة يورك، وحصل على منحة دراسية من جامعة ميرتون بجامعة أكسفورد، وأصبح مدرسًا.

تفرغ لورانس للكتابة التاريخية فى عام ١٩٨٥، وقد ألف سبعة كتب نقدية وتاريخية، ويقطن فى سانت أندورس فى أسكتلندا مع زوجته واثنين من أبنائه، وتعمل زوجته مديرة مدرسة سانت ليونارد.

ومن مؤلفاته: القرم (١٨٥٤ – ١٨٥٦): الحرب مع روسيا فى صور معاصرة، والحرب البربرية: الحملة البريطانية فى أفريقيا من (١٨٧٠ – ١٩٢٠)، وأعمال التمرد فى القوات البريطانية والكومنولث (١٧٩٧ – ١٩٥٦)، وأيضا الحروب الإمبراطورية الأخيرة، والمحارب الذهبى: حياة وأسطورة لورانس العرب، والدوق الحديدى: حياة الدوق ولنجتون العسكرية، والمحارب الإمبراطورى: حياة وزمن المشير أفسكونت اللنبى.

المترجم فى سطور:

عبد اللـــه عبد الرازق إبراهيم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل معهد البحــوث والدراســات الإفريقية الأسبق.

حصل على ليسانس الآداب من قسم اللغـــة الإنجليزيـــة عـــام ١٩٦٢ وليسانس الآداب فى التاريخ عام ١٩٧٩، وماجستير الدراســات الأفريقيـــة عام ١٩٦٧، ودكتوراه الفلسفة بمرتبة الشرف فى عام ١٩٨٢.

تدرج فى الوظائف الجامعية حتى صـــار أســتاذا للتــاريخ الحـــديث والمعاصر، وتولى وكالة المعهد لشئون الدراسات العليا والبحوث حتى عـــام ١٩٩٩، وبعدها صار أستاذًا متفرغًا بقسم التاريخ.

أعير إلى جامعة قطر فى الفترة من ١٩٨٦ حتى عام ١٩٩٢، شـــارك فى أكثر من سبعين مؤتمرًا علميًا فى الداخل والخارج، وأشرف على عـــدد كبير من الرسائل الجامعية فى مصر والدول الخارجية.

ألَّف أكثر من خمسة وعشرين كتابًا أكاديميا، ونال جائزة الفنجرى فى الدراسات الإسلامية.

ترجم عددًا من الكتب نشرها المجلس الأعلى للثقافة مثل: تراث الهنـــد وتمبكت العجيبة، كما شارك فى مراجعة كتب المجلس الأعلى للترجمة مثل المشرق العربى والشـــرق الأقصـــى فـــى العهـــود الإغريقيـــة الرومانيـــة والإيرانية العربية.

المراجع فى سطور:

شوقى عطا اللـــه الجمل

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية– جامعة القاهرة.

– تولى رئاسة قسم التاريخ فترة طويلة لعدم وجود أساتذة، وأعير إلى المملكة المغربية، ألف العديد من الكتب الجامعية والتاريخية.

– قدم للمكتبة العربية العديد من المراجع التاريخية مثل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، والمغرب العربى الكبير، وسودان وادى النيل، وتـــاريخ غرب أفريقيا، وتاريخ شرق وجنوب أفريقيا، وقضية روديسيا.

– شارك فى أكثر من خمسين مؤتمرًا علميًا فى الداخل والخارج، كما أشرف على العديد من الرسائل العلمية.

– راجع عددًا من كتب المجلس الأعلى للثقافة مثل: رحلة كشف شمال أفريقيا وغرب أفريقيا، وتمبكت العجيبة، والحضارة الأفريقيـــة، وحركـــات التحرر الوطنى فى القارة الأفريقية.

التصحيح اللغوى : وجيـــه فاروق
الإشـــراف الفنى : حـــسن كـــامل

كتاب موسوعى شامل يعرض تاريخ العالم من خلال مراحل تطور الإمبراطورية سواء فى الأمريكتين أو فى أوروبا أو فى آسيا أو فى أفريقيا عبر أكثر من ثلاثة قرون، وبالتالى فهو مرجع كامل يناقش قضايا دولية وتاريخية لواحدة من أعرق الإمبراطوريات وعوامل ازدهارها وتطورها ثم مراحل الانهيار، والتركيز على حرب السويس باعتبارها من أهم عوامل انهيار هذه الإمبراطورية، ودور الزعيم جمال عبد الناصر فى مصر.

إنه كتاب لا غنى عنه لأى دارس لتاريخ العالم من خلال صعود الإمبراطورية البريطانية وسقوطها، خصوصاً أنه لمؤرخ وكاتب أمريكى قام بجولات وأجرى مقابلات واستمع إلى أقوال الساسة والمؤرخين، واعتمد على الكثير من الوثائق والدراسات والتحليلات التى جعلت من كتابه هذا ركيزة أساسية وموسوعة تاريخية سياسية لإمبراطورية غيرت مجرى تاريخ العالم خاصة فى قارتى آسيا وأفريقيا.